# سياحة فكرية

## في كتابات النخب الدعوية

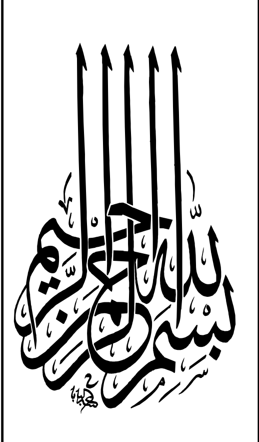


سعيد حوى - فريد الأنصاري - محمد سرور

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة

# سياحة فكرية
# في كتابات النخب الدعوية



الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

# بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : سياحة فكرية
في كتابات النخب الدعوية
(سعيد حوى – فريد الأنصاري – محمد سرور)

تأليف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الناشر : شركة السماحة للنشر والتوزيع ـ الكويت

الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

عدد الصفحـات : ٦٩٢

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

عـدد المـلازم : ٤٣,٢٥

رقـم الإيـداع : ٢٠١٢/١٩٦٥٢

شركة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

# سياحة فكرية
# في كتابات النخب الدعوية

## ( سعيد حوى – فريد الأنصاري – محمد سرور )

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

**الطبعة الأولى**

**١٤٣٤ هـ ـ ٢٠١٣ م**

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

**جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين**

**في الكويت من**: شركة السماحة ـ الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

**في مصر من**: مؤسسة شروق للترجمة والنشر

المنصورة / شارع جيهان – أمام مستشفى الطوارئ

ت: ٠١٢٢٥٦٨٢٣١٤

## الإِهْدَاءُ نَثْراً

**إِلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيق حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

**إِلَى وَالِدَتِي** الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

**إِلَى وَالِدَتِي** الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

**إِلَى وَالِدَتِي** الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِها – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ الله – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

**إلَى وَالِدَتِي** الَّتِي أعْـرف مِـنْ مَدْرَسَـتِهَا الْكَثِـيرَ، وَلا يَـسَعُنِي ذِكْـرُهُ فِي هَـذَا الإهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

**إلَى وَالِدَتِي** أهْدِي ثَوَابَ هَـذِهِ الرَّسَـائِلِ، لَعَـلِّي أُؤَدِّي زَفْـرَةً مِـنْ زَفرَاتِهَـا فِي وِلادَتِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى رَفِيقَةَ الـدَّرْبِ أُمِّ مُعَـاذٍ، الَّتِـي كَانَـتْ لِي عَوْنـاً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى أوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإنَاثاً.

وَأهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى كُلِّ مَنْ أسْهَمَ فِي إخْرَاجِهَـا، وَجَعَلَهَـا بَـيْنَ يَـدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإنَّنِي إذْ أكْتُبُ هَذَا الإهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



## الإِهْدَاءُ شعْراً

**أمَّـــاهُ** كُنْـــتِ مُنِيـــرَةً وَمَنَـــارَةً عُلْيَـا وَصَـــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِدُّ نُفُوسَنَـا لِـصَنَائِعِ المَعْـــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ
قــَدْ كُنْـــتِ لِلأَيْتَـــامِ أُمَّـا بَـــرَّةً وَالجَـــارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـــانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاق شَهْدَاً سَلْسَلاً تَـــدْنُو ثِمَـــارُ قُطُوفِهَـــا لِلْجَـــانِي
عَلَّمْتِنَـــا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

**أبَتَـــاهُ** قَـــدْ رَبَّيْتَنِـــي وَأَحَـطْتَنِي بِرِعَايَـــةٍ فِـــي غِبْطَـــةٍ وَأَمَـــانِ
وَفَّـرْتَ أَسْبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ وَأُسْـــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا بالفَـــضْـلِ لا فَـــظٍّ وَلا مَنَّـــانِ
كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّـــرورِ تَـدَلُّلِي بِمَحَبَّـــةٍ وَبِرَأْفَـــةٍ وَحَنَـــانِ
أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِـــي رَبَّيْتَنِـــي بالعِـــزِّ فِي ثِقَـــةٍ وَفِـــي اطْمِئْنَـانِ

* * *

**أرَفيقَتِـي** كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا لَيْـلُ الحَيَـاةِ بِمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ
قَـدْ كُنْـتِ خَـيْرَ شَرِيكَـةٍ وَمُعِينَـةٍ فِي الـبِرِّ عِنْـدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَـجِيَّةٌ بِتَعَـاقُبِ الأَفْـــرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَـا حَبَّـذَا **أَفْــلاذ أَكْبَـادٍ** بِهَـا كَـمُلَ المُـرَادُ وَقَـرَّتِ العَيْنَانِ
فَاحْفَـظْ **مُعَـاذاً** وَاحْفَظَـنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَابِـدَ الـرَّحْمَنِ**

لا زَالَ **عَبْدُ** الله فِي حِفْظٍ وَلا ... زَالُـوا جَمِيعـاً غُـرَّةَ الفِتْيَانِ
وَلْتَـحْظَ **عَائِـشَةٌ وَفَاطِـمَةٌ** بِـمَا ... قَـدْ شَـاءَتَا مِـنْ بُـغْيَـةٍ وَأَمَـانِ
وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا ... مِـنْ مُبْطِـنِ البَغْضَـاءِ وَالـشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لا زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِـهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين



## مقدمة الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

**وبعد**:

إنَّ تواصل الأجيال، واستقراء الأحداث والتاريخ والتجارب لصاحب الهمة والعقل الحصيف، لهي أعظم ذخيرة لكل من يريد أن يصنع إنجازًا في زمانه وعصره، وأراد من وراء ذلك أن يخلد ذكره إلى يوم الدين، فيكون جهده صدقة علمية جارية يستقوي بها المجدون.

**فالأمم الحضارية هي أمم تقوم** على التراكمات والموروثات الفكرية والثقافية والحياتية والاجتماعية.. وهكذا هي كل الدول العريقة والجماعات الأصيلة والدعوات العميقة؛ فهي **ليست حقبة تاريخية** تنتهي بانتهاء الجهابذة الذين أسسوا وبنوا، وإنما هي بذور عظيمة زُرعت في تربة صالحة، فأخرجت نبتًا طيبًا يؤتي ثماره في كل حين، بإذن ربه، ويمتد إلى ما شاء الله له أن يمتد.. فهي ليست زمنًا مرهونًا بحياة الإنسان يبتدئ ببدايته وينتهي بنهايته، إنما هي أجيال تتوارث وأفكار تتلاقى، حتى إذا ما بزغ نورها، وسطعت شمسها، وبرق نجمها، بهمَّة علمائها وعظمائها، غدت عنوانًا جديدًا في سجل الأمجاد وصنع الحضارات، ومنبع نور لاستلهام «المعالي»، دالة بحالها قبل قالها:

**إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول**

وفي هيكلة تكوين الإبداعات، ثم ليس له منها إلا الوجود الجسدي وسريان التاريخ على صورة وجوده.

وهذه حقيقة تدخل فيها كل الجماعات والدعوات على وجه العموم،

والدعوة الإسلامية على وجه الخصوص. فهي جزء من هذا النسيج البشري، بل هي أعظم؛ لأن الدين وُجد لخدمة الإنسانية، وحماية مسيرتها، وتوجيه أهدافها، وضبط جماح صانعي الحضارات على أعتاق المستضعفين في الأرض، أو بَانِينَ أمجادهم على خمول غيرهم، أو متمِّمِينَ حياتهم على موت أمم أخرى معاصرة، وهنا تتجلى عظمة هذا الدين في صناعة الأمجاد الحقيقية الحقة.

ومن هذا المنطلق **حَرِصْنَا على أن توجد بين شباب الدعوة اليوم نماذج دعوية عاشت في حركة المجتمع خلال الفترة التي عشناها من عام ١٩٦٧م، الموافق ١٣٨٧هـ إلى عام ٢٠١٠، الموافق ١٤٣١هـ. نَيِّفٌ وأربعون سنة عشناها، فتعرفنا من خلال القراءة والاطلاع على مجموع عطاءات فكرية دعوية من رجال تحملوا عبء هذه الدعوة، فكانوا حقًّا رجالاً، شكلاً ومعنًى، صارعتهم أحوالهم، فاستقروا بثبات، وزالت الأحوال،** فصنعوا تاريخًا ثقافيًا فكريًا حركيًا في قضايا ومحاور مختلفة، وكل استقراء لهؤلاء المبدعين سنعرضه بين يدي شباب الدعوة اليوم الذين أخذوا الراية وسلمناهم المقود حتى يسلكوا بفكرهم النير وهمتهم العالية، ويبرهنوا للواقع أن صانعي الأمجاد ومؤسسي الحضارات إن بَلِيَتْ أجسادهم، وفنيت قاماتهم وهاماتهم، فقد خلدت أمجادهم، وأَيْنَعَتْ أفكارهم، وصاروا أثرًا طيبًا بعد عين، نافعة بناءة معطاء.

**وإننا بدورنا لا** نفرض على الشباب من آليات العمل الدعوي **ما عشناه أو عاشه الآخرون، ولكنها سِيَرٌ وآراء وتجارب يُنظر فيها، فيُأخذ ما هو موافق لزمانه ومكانه ومحقق لأهدافه في إطار دعوي يقوم على النظر في إطار عملي، يَحْدُوهُمُ الفهم السليم والمنهج الصحيح لأصول هذا الدين (القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع).**

وحتى لا نخطئ في حق أحد أثناء عرض منهجه، وقراءة كتاباته، وعاليات عمله وأطروحاته، استأذنا من نرى فيه الإبداع في هذه الدعوة أن يرشح لنا من هو مؤتمن على النظر في كُتبه واستظهار منهجه، مع إعطائه حرية البيان والتعبير، وكان ذلك في رسالة واضحة قُدِّمت لمن نظن أن لهم أثرًا في إثراء العمل الدعوي، كما أننا أعطينا لأنفسنا براحًا ننظر فيه فيما كُتب، ليس من باب النقد والتقويم بمقدار ما هو من باب البيان والتوضيح.

وليتأكد لكل باحث بالدليل القاطع، أن كل حضارة لا تنهض إلا على همة جهابذتها، ولا تتشيد إلا بسواعد علمائها، لأنهم ورثة الأنبياء، وأمناء الله وخلفاؤه في أرضه.. سائرون بنهجه، ومجسدون لشريعته؛ لذا خلد ذكرهم، وعَمَّ نفعهم، وعلا قدرهم، وسمت هممهم؛ حتى صاروا نجومًا يُهتدى بهم في ظلمات الجهل وبحر الضياع.. أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده. وحتى تكون يا أيها الباحث- بعون الله- لبنة بناءه، ليس في هيكلة هذه الأمة فحسب، بل في كُنهها وجوهرها؛ فقد صدق رسول الله ﷺ حيث حَثَّ كل فرد منا فقال: «**إنما أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتينَّ من قبلك**»[1].

فما بذلناه من جُهد نسأل الله المغفرة فيما قصرنا فيه والأجر على ما قدمنا!!
**ثم إن هذا التراث لابد أن يكون محل نظر لاطلاع شباب الدعوة اليوم للاستفادة مما هو فيه، وترك ما سوى ذلك، كما قال الإمام عليّ- كرم الله وجهه: «ليس منا دون أن يفيد ولا أعلى من أن يَستفيد».**

ومن اخترناهم من المفكرين والدعاة، **وهم: الشيخ المربي سعيد حوى، والشيخ الدكتور فريد الأنصاري، والألمعي الجليل الشيخ محمد سرور زين العابدين**- إنما هم من باب النموذج وتحفيز من سواهم. فكل من يرى في نفسه

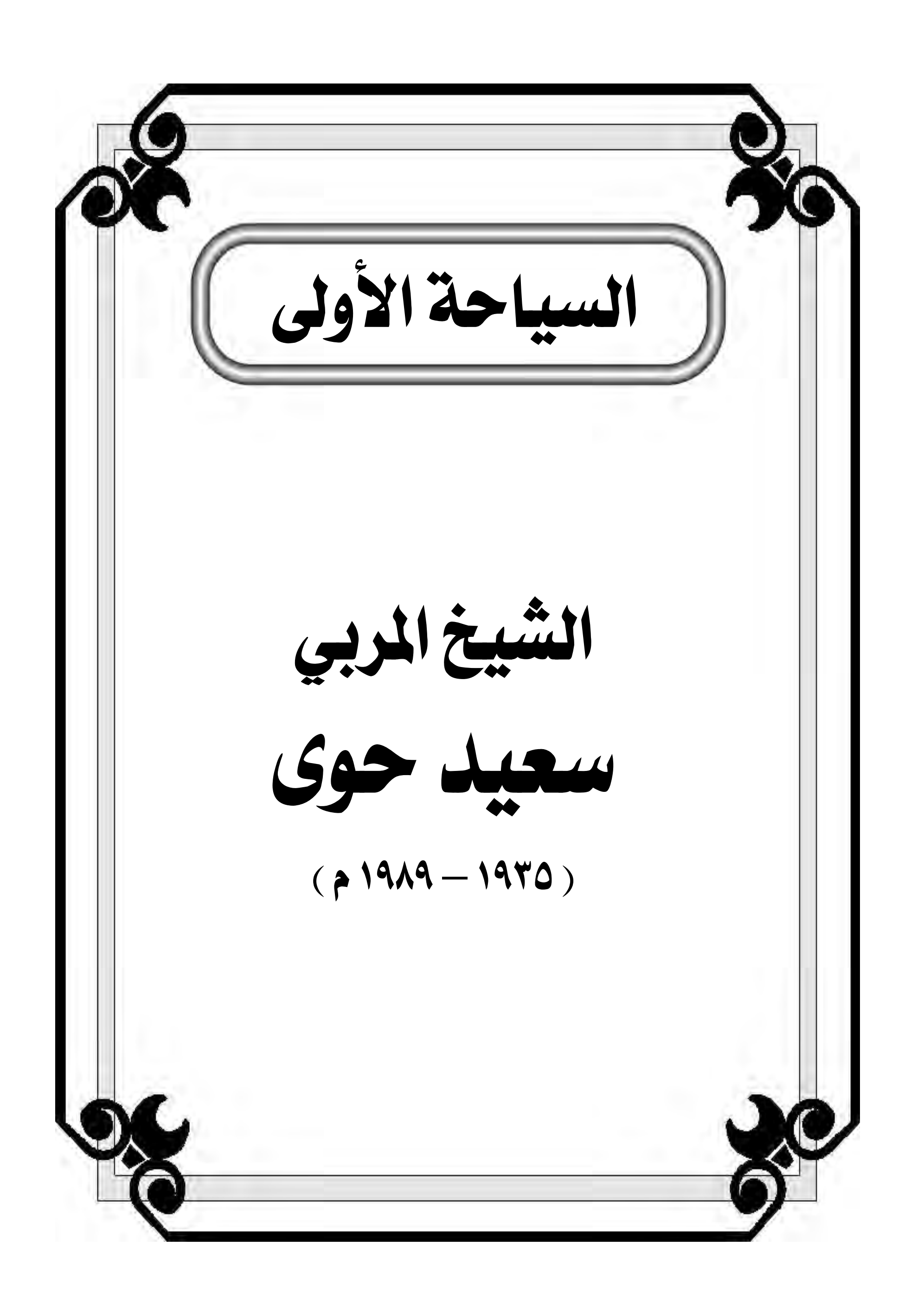
(١) سنن أبي داود.

أن له إسهامًا في مجال الدعوة والعمل الإسلامي، فما عليه إلا أن يتصل بـ«**مؤسسة بدور للثقافة والترجمة**»[(١)] لإدراج اسمه في قائمة الكُتَّاب المبدعين الذين تزمع المؤسسة الكتابة عنهم.

والحمد لله رب العالمين،،،

**جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين**

(١) مصر، المنصورة، ٣٣ شارع جيهان – أمام مستشفى الطوارئ، ت (٠١٢٢٥٦٨٢٣١٤).
shrook.mst@gmail.com


السياحة الأولى
الشيخ المربي
سعيد حوى
( ١٩٣٥ – ١٩٨٩ م )

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن سهلًا، يسر أمورنا، واشرح صدورنا، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

**وبعد**:

فهذه وريقات قليلة كتبتها بطلب من أخ فاضل وشيخ كريم، تحت عنوان (**سياحة فكرية في مؤلفات الشيخ سعيد حوى – رحمه الله تعالى**)، وإنني لأعلم أن الإحاطة بهذا الموضوع ليست بالأمر الهين ولا بالمهمة اليسيرة، وخاصة إذا كان المطلوب إنجاز هذا التكليف في فترة محدودة جدًا.

والمؤلف- رحمه الله تعالى- معروف بكثرة مؤلفاته، وتعدد كتبه، وغزارة علمه، وتنوع ثقافاته العلمية والشرعية والدعوية، وهو مفكر من طراز خاص، كما شهد له كل منصف، ممن اطلع على بعض كتبه أو كلها، وكذلك كل من جلس إليه في درس، أو محاضرة، أو ندوة، أو خطبة. ولن أنسى خطبه العصماء، واسترساله في الحديث كالنهر المتدفق في خطبه بمناسبة المولد النبوي الشريف، في مساجد حماه في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، قبل أن تُكمَّمَ الأفواه، وتُشدَّد القبضة، ويُحْكم الحصار على المشايخ والدعاة في بلدي الحبيب.

ومما يزيد الأمر صعوبة أن بعض كتبه قد مضى على قراءتي لها أكثر من ثلاثة عقود يوم صدرت في طبعتها الأولى، ولكنني استعنت بالله تعالى واستشرت وحاورت ثم عزمت على أن أبدي ما أستطيع إبداءه، وأسجل ما يمكنني تسجيله تحت هذا العنوان المختار. فالموضوع ليس دراسة نقدية ولا تقويمية لإنتاج هذا الشيخ الكبير والأستاذ الجليل، وإنما هو توصيف لما في هذا العطاء

الثَّـرِّ، والبحـر الزاخـر، مـن العلـم والمعرفـة والـدعوة والتربيـة والتوجيـه والتخطيط.

وقد عزمت أن أجعل هذه الدراسة في ثلاثة أقسام، يسبقها تعريف بالشيخ سعيد حوى- رحمه الله تعالى- وسيرته العلمية والتربوية والدعوية، ابتداء مـن خطبه في المناسبات الدينيـة والـسياسية في ثانويـة ابـن رشـد، وهـو طالـب في المرحلـة الثانويـة، ممـثلًا لجماعـة الإخـوان المـسلمين في مدينـة حمـاه، وانتهـاء بمشاركته في قيادة التنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين، مـرورًا بـدوره في المشاركة بقيادة جماعة الإخوان في سوريا في فترة هي من أصعب مراحلها التي مرت بها في القرن العشرين.

وهذه الأقسام الثلاثة جاءت تحت العناوين التالية:

١ـ دواعي التأليف عند الشيخ كما أشار إليها في مقدمات بعض مؤلفاته.

٢ ـ الأهداف التي يتوقع الوصول إليها.

٣ ـ مضامين ومحاور أساسية في مؤلفاته.

بعد قراءة ودرس هذه المؤلفات، والعمل بما جاء فيها على المستوى الفردي والجماعي، ومع الأخذ بعـين الاعتبـار التقـويم والتـسديد والترشـيد الـلازم، حيث أشار- رحمه الله تعالى- في كثير من المواضع إلى أن ما جـاء بـه في بعـض الأحيان إنما هي اجتهادات فردية، تحتاج إلى الأخ الناصـح والقـارئ الـواعي، كما هي بحاجة إلى تجربة الخبير، والاجتهاد الجماعي والمتنوع. وإن مما ينبئ عـن العقلية الفذة، والثقافة الواسعة، والفكر النير، والاستشراف الواعد للمستقبل ولاحتياجات الأمة والدعوة عند هذا العـالم الجليـل، أنـك تجـد في تـضاعيف مؤلفاتـه، وثنايـا مـصنفاته، مواضـيع شـتى وقـضايا مـستجدة، وطروحـات معاصرة، تُعقد من أجلها المـؤتمرات، وتُقـام في معالجتهـا النـدوات في العقـد الأول من الألفية الثالثة بعد أن مضى على طرحه لها أكثر من ثلاثة عقود.

فلله درّه كم كان واعيًا!! ولله دره كم كان مخلصًا وحريصًا على هذه الأمة وعلى هذه الدعوة!!

فكم حذر من سيطرة ثقافة العولمة الباغية، ومحاولة هيمنتها بثقافتها وقيمها وعاداتها على شباب المسلمين، في وقت لم يكن قد اشرأبَّ فيه عنقها كما نراها اليوم، وكم رثى اللغة العربية وما يعانيه أصحابها من ضعف، وما تتعرض له من مؤامرات وافتراءات، وكم شجع على التخصص في العلوم الشرعية وخاصة الفقه الإسلامي، وأكد على أهمية الغوص في تراثنا الفقهي التقليدي وأصوله، ليكون عندنا الفقهاء المتمكنون للانطلاق في الفقه التجديدي والمعاصر.

وكم عالج فرية التطرف، ودعا إلى توحيد الجماعات الإسلامية والتعاون مع سائر الأطياف السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية، وأكد على أهمية مؤازرتها بشتى مشاربها وأطيافها، ما دامت بالكتاب ملتزمة، وبالسنة متمسكة وآخذة، وبأهل السنة والجماعة مرتبطة، فإن لم يكن التوحد ممكنًا، فليكن توزيع للأدوار، وتنظيم للجبهات، وقيام كل على ثغر من الثغور، لأن الأمة بحاجة إلى كل جهد، وإلى كل نشاط فكري ودعوي واجتماعي وخيري.

ويحسن أن أنبه ههنا إلى أنني ألحقت بهذه الوريقات تعريفًا موجزًا «ذكرته بنصه» بالمؤلفات، كَتَبَهُ ولده الدكتور/ محمد سعيد حوى، وبحثًا آخر حول المنهج العلمي والتأليف عند الشيخ كَتَبَهُ ولداه الدكتور/ محمد سعيد حوى، والدكتور/ معاذ سعيد حوى، وكذلك لم أعرج في الحديث على كتاب الأساس في التفسير؛ لأنني عثرت على مقالة نشرت في جريدة المدينة المنورة للأستاذ/ عبد الله الشيخ ويس تعطي صورة صادقة عن هذا التفسير، أضيفها هنا كما هي، فإنها موفية بالغرض- إن شاء الله تعالى.

وبعد، فإن لم أكن قد أحطت بالمطلوب، ووفيت بالغرض المستهدف، فلعلي

قد أتيت على كثير مما هو مطلوب ومفيد في هذه السياحة الفكرية في مؤلفات الشيخ سعيد حوى- رحمه الله تعالى، وهذا في الحقيقة جهد المقل، ولعلي أجد في قادمات الأيام متسعًا من الوقت، وفرصة مواتية- إن شاء الله تعالى- أقف فيها موفيًا لشيخي الكريم بعض الحق- الذي له- في عنقي.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

**طارق علي عدي**

# الشيخ سعيد حوى
# رحمه الله تعالى

هو سعيد بن محمد ديب حوى النعيمي من العائلات التي تنتسب إلى آل بيت رسول الله ﷺ، ولد في ٢٨ من جمادى الآخرة عام ١٣٥٤هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٩٣٥م في مدينة حماه وسط سوريا، وكان والده- رحمه الله تعالى- من رجالات حي العليليات المعروفين، وممن لهم جهود وجهاد في مقاومة المحتلين الفرنسيين، إلى جانب كونه مربيًا فاضلًا عصاميًا.

أما والدة سعيد فقد توفيت وهو في الثانية من عمره، فتربى في كنف جدته التي كانت تحبه ويحبها، ويذكرها كثيرًا بحسن رعايتها بجانب شدة وصرامة في غير قسوة، وقد أقبل منذ صغره على المطالعة وحفظ القرآن الكريم.

**طلبه للعلم:**

التحق سعيد حوى بمدرسة ابن رشد الثانوية في حماه، وبدا عليه التميز والنباهة في بداية شبابه- رحمه الله تعالى، وقد كان جسورًا جريئًا متمكنًا من الخطابة والحوار وهو دون الخامسة عشرة من عمره، وفي هذه الفترة المبكرة من حياته كانت سوريا تموج بالكثير من الأفكار والتيارات السياسية: القومية والبعثية والاشتراكية والإسلامية واليسارية، فاختار الفكر الإسلامي، والتزم جماعة الإخوان المسلمين عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م، يوم كان في الصف الأول الثانوي.

وبعد حصوله على الثانوية العامة التحق- رحمه الله تعالى- بجامعة دمشق- كلية الشريعة عام ١٩٥٦م وتتلمذ فيها على كبار أساتذتها، وفي مقدمتهم الدكتور مصطفى السباعي عميد كلية الشريعة والمراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا، وعلى الفقيه الكبير الشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ معروف الدواليبي، والدكتور فوزي فيض الله، والعلامة الأستاذ عمر الحكيم

وغيرهم، كما درس على يد كبار شيوخ سوريا ونهل من علمهم ومعارفهم، وتأدب بسلوكهم وسمو أخلاقهم، وفي مقدمتهم علامة الشام وشيخ شيوخ حماه الشيخ محمد الحامد- رحمه الله تعالى- والشيخ الرباني محمد الهاشمي، والفقيه الحنفي الكبير عبد الوهاب دبس وزيت، والشيخ حسن حبنكة الميداني، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، والشيخ أحمد المراد، والشيخ محمد علي المراد- عليهم رحمة الله أجمعين. وقد تخرج في الجامعة عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م. والتحق بالخدمة العسكرية عام ١٩٦٣م، وتزوج في تلك الفترة وله أربعة أولاد: ثلاثة ذكور وبنت واحدة.

أما الذكور فهم: الدكتور/ محمد حوى، والدكتور/ أحمد حوى، والدكتور/ معاذ حوى.

وللشيخ- رحمه الله تعالى- عناية خاصة بالتصوف الصافي المنضبط بالكتاب والسنة، الذي نهل من معينه في رعاية شيوخ ومرشدين كبار؛ أمثال: الشيخ محمد الهاشمي، والشيخ محمد الحامد، كما نهل من معين السلف الصالح حتى ارتوى فأروى، وذلك واضح في جُلِّ مؤلفاته وتراثه العلمي الذي تركه وفي نفوس وسلوك إخوانه الذين رباهم واعتنى بهم.

**عمله في التعليم:**

سافر إلى المملكة العربية السعودية بعد انتهائه من خدمة العلم سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، وعمل فيها مدرسًا للغة العربية والتربية الإسلامية، ومكث فيها أربع سنوات عاد بعدها إلى سوريا حيث اشتغل كذلك بالتدريس مدة ثلاث سنوات، تعرض بعدها للاعتقال والسجن لمدة خمس سنوات، وذلك بسبب مشاركته في البيان الذي صدر سنة (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م) مطالبًا بإسلاميةِ سوريا وإسلامية دستورها، وذلك بعد التعديلات اللامنطقية واللامقبولة التي عمدت السلطة إلى إجرائها في الدستور في غياب المجالس النيابية الحرة، وقد استغل الشيخ سعيد تلك الفترة في المعتقل فألف عددًا من

الكتب؛ أهمها «**الأساس في التفسير**» الذي طبع في أحد عشر مجلدًا، والذي سنأتي على وصف موجز له في هذه الدراسة- إن شاء الله.

**مع الإخوان المسلمين وفي ساحات العمل الدعوي:**

بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٧٨م تولى مسؤولياته في القيادة في ظروف بالغة الحرج؛ حيث المراقبة الشديدة، وتقييد الحريات من قبل السلطات البعثية. واستمر على ذلك إلى عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م حيث رشح للمشاركة في قيادة التنظيم العالمي لجماعة الإخوان المسلمين من سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٤٠٥م) الموافق (١٩٨٢م ـ ١٩٨٤م) عاد بعدها إلى المشاركة في قيادة الإخوان السوريين من عام (١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م) ـ (١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م) حيث أجبرته ظروفه الصحية على ترك العمل القيادي؛ وذلك لإصابته بشلل جزئي، بالإضافة إلى أمراض أخرى تكالبت عليه، كالسكر والضغط، وتصلب الشرايين وغيرها.

وقد شارك خلال مسيرته الدعوية والجهادية خطيبًا ومحاضرًا في سوريا، والسعودية، والكويت، والإمارات، والعراق، والأردن، ومصر، وقطر، وباكستان، وأمريكا، وألمانيا.

**وفاته:**

توفى- رحمه الله تعالى- بعد صراع ومعاناة مع المرض ظهر يوم الخميس الأول من شعبان ١٤٠٩هـ الموافق التاسع من مارس ١٩٨٩م- رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأجزل له المثوبة والمغفرة.

**من معالم شخصيته ـ رحمه الله تعالى:**

كان قوي الحافظة، شديد الفطنة، متَّقد الذهن حتى أخريات أيامه، فقد حفظ القرآن الكريم خلال دراسته الجامعية في أربعة أشهر، وكان كثير المطالعة، يقرأ في كل علم نافع، وكان لمطالعاته الكثيرة أثر واضح في تكوين شخصيته وفكره وسعة علمه. ولقد بلغ من شغفه بالمطالعة وتعلقه بالقراءة أنه

كان يمسك بالكتاب الذي يحوي مئات من الصفحات ثم يتكئ على وسادة بجانبه في جلسة واحدة، فلا يقوم- أو قل: لا ينتبه- إلا وقد انتهى الكتاب.

ومن غرائب قصصه مع الاستغراق في المطالعة والتماهي مع الكتاب ما حكاه بعض من كان يسكن معه في التكية السليمانية بدمشق، وقد كانت سكنًا لطلاب العلم قبل أن تصبح متحفًا حربيًا، وكان الشيخ يقيم في غرفة منها. يقول صديقه المقيم في إحدى الغرف القريبة من غرفة الشيخ: شممنا رائحة حريق، فهرعنا خارج الغرفة، فإذا بالدخان يتصاعد من غرفة الشيخ سعيد، فحسبنا أن الشيخ قد خرج من الغرفة ونسي شيئًا ما على النار، ولكن عندما دفعنا الباب وجدنا الشيخ في غرفته مستغرقًا في القراءة، وقد شغله كتابه عن طعامه الذي وضعه على النار. فهذا مشهد من مشاهد إقباله على القراءة وشغفه بها، نود أن يكون حافزًا للأجيال الجديدة، لتكون أشد تعلقًا بالكتاب، وأكثرًا إقبالا على المطالعة.

وكان الشيخ سعيد- رحمه الله تعالى- هينًا لينًا، ودودًا أريحيًا كريمًا، ولقد كان بيته حيثما حَلَّ وأقام منزل الضيوف، ومأوى الغرباء، حتى إنك لتحار فتقول: متى قرأ؟ ومتى أَلَّف؟ ومتى كتب؟ ومائدته لا تخلو يومًا من ضيف، وديوانه لا يخلو من صديق، وكان من حكمته أنه لا يسكت عن مخالفة للشرع أو خروج عن آدابه، ولكنه يتعامل مع ذلك بالصرامة الممزوجة باللين والحكمة، وهو دومًا مقدر لمحدثيه وزائريه وإخوانه، لا يحب التعامل معهم بفوقية القائد، ولا بالأوامر المباشرة، وإنما يرى الإقناع والتعامل الأخوي هو الأجدى والأنفع ولو كان الأمير عليهم، أو الكبير فيهم.

ومما تميز به الشيخ هو الحرص على الأوقات، وتنظيمها، وكان يدرب إخوانه على ذلك، ويربي أولاده وأحبابه كذلك، ولولا ذلك لما تهيأ له هذا الإنتاج العلمي الوافر. وقد أكسبته تربيته الصوفية الواعية الحرص على أداء

أوراده بانتظام، وخاصة أوراد ما بعد الصلوات الخمسة، كما كان يحافظ على أوراد يومية منها.

- تلاوة جزء من القرآن.
- استغفار مائة مرة في اليوم.
- ومائة مرة تهليل (لا إله إلا الله).
- ومائة مرة صلاة على النبي ﷺ، وذلك كل صباح وكل مساء.

ومن طريف ما ذكر لي عن محافظته على أذكاره وأوراده اليومية أن أحد الإخوة أتاه يومًا مبكرًا ليأخذه إلى موعد كان قد ارتبط به، وكان حينها في زيارة للكويت، يقول لي الأخ: وفي الطريق ونحن في السيارة قال الشيخ: يا أخي محمد، كأني نسيت شيئًا وهو يحاول أن يتذكره.. ثم يقول: نعم نعم لم أقرأ حتى الآن ورد كذا... ويطلب منه أن يكف عن محادثته قليلًا ريثما يقرأ ورده ويتزود زاده الروحي.

نعم إلى هذه الدرجة بلغ فيه الحرص على الزاد الإيماني إلى جانب الزاد العلمي.

يضاف إلى ذلك مجلس علمي دوري لأهل بيته، يحرص أن يكون في الوقت المبارك بعد أداء أوراد صلاة الفجر، وكل هذا التَّبتُّل والإقبال على العبادة لم يشغله عن التفكير في هموم الأمة الإسلامية، والتأليف فيما تحتاجه، وكان انتسابه- رحمه الله تعالى- إلى الحركة الإسلامية سببًا مهمًا في اهتمامه بواقع الأمة الإسلامية، وما يلزمها من أمور لتنهض وتعود إلى دينها ومجدها. فلم يكن حريصًا على التأليف لذات التأليف، وإنما كان ينطلق في تأليفه وكتاباته، واختياره موضوعات كتبه من واقع الأمة الإسلامية واحتياجاتها.

وكان- رحمه الله- مدربًا من الدرجة الممتازة، فكثيرًا ما كان يختار الفكرة، ويضع المصدر بين يدي أحد إخوانه الصغار، ويطلب منه مساعدته في الوقوف عليها، وتحديد مواقعها في المصادر المتوافرة لديه، وفي ساعات أخرى يحدد لهم

النص المختار، ويطلب منهم نقله وكتابته لعدم توافر آلة تصوير بين يديه، وكان ذلك كثيرًا في أيام الملاحقة والتخفي عن أجهزة الظلم والاستكبار، أو بسبب اجتماع الشباب حوله ورغبتهم في مجالسته والاستفادة منه. وقد ألَّف الشيخ نحوًا من خمسين مجلدًا، وكان أكثر كتبه تميزًا وتأثيرًا:

- كتاب: الرسول ﷺ، جزءان.
- كتاب: جند الله ثقافة وأخلاقًا.
- كتاب: تربيتنا الروحية.
- كتاب: المستخلص في تزكية الأنفس.

**موقفه من الحركات الإسلامية:**

لم يكن ينظر إلى الحركات الإسلامية على أنها فرق، وأن واحدة منها على حق والأخرى على الباطل، وإنما كان يرى أن جميعها تدخل في دائرة الإسلام، وتعمل للإسلام، وتقف على ثغرة من الثغور التي ينبغي المحافظة عليها، كل ذلك بغض النظر عن الأخطاء أو الانحرافات أو ضيق النظرة التي قد توجد عند كل جماعة، ما دامت ترجع إلى الكتاب والسنة، فكلها تستحق أن يتعاون معها لنصرة دين الله في كل مكان، وتحقيق العبودية له في كل آنٍ، ومن يدقق النظر في العلماء الذين أخذ عنهم، والمشايخ الذين صحبهم واستفاد منهم، والدعاة والحركات والأحزاب الذين تعاون معهم، يدرك مدى التزامه بهذا المبدأ، واحترامه للآراء والمذاهب والمناهج ما دامت في دائرة الإسلام الحنيف.

وكان يرى ويؤكد دائمًا أنه لا يمكن أن يقود الأمة على الصراط السويِّ، إلا علماؤها الصادقون، الصالحون المتبحرون في جوانب العلوم الشرعية، المتبصرون بواقعهم، وما لم تكن الأمة حول علمائها الربانيين، فإنها تكون في وضع شاذ[1].

(١) هذا التعريف بالشيخ- رحمه الله تعالى- أخذ في مجمله من (الإنترنت) موقع علماء سوريا، وموقع الشيخ سعيد حوى، إلى جانب معرفة شخصية بالشيخ ومعلومات خاصة من بعض إخوانه.

**مؤلفاته:**

ترك الشيخ مؤلفات كثيرة، نال معظمها الـذيوع والانتـشار والقبـول بـين الناس، فأقبلوا عليها، فكان أمرًا ملفتًا أن الرجل المشغول بالحركة والتنقل بين الناس، والممتلئ وقته بالخطب والمحاضرات، قد اتسع للتأليف بهذه الغـزارة، وأخرج للناس عشرات الكتب المهمة، وهي:

**أولا: سلسلة الأصول الثلاثة:**

١ ـ كتاب: الله جل جلاله.

٢ ـ كتاب: الرسول ﷺ، جزءان.

٣ ـ كتاب: الإسلام.

**ثانيًا: سلسلة الأساس في المنهج:**

١ ـ الأساس في التفسير (١١) مجلدًا.

٢ ـ الأساس في السنة وفقهها (١٤) مجلدًا.

٣ ـ الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص (لم يطبع).

**ثالثًا: سلسلة التربية والتزكية والسلوك:**

١ ـ تربيتنا الروحية.

٢ ـ المستخلص في تزكية الأنفس.

٣ ـ مذكرات في منازل الصديقين والربانيين.

**رابعًا: سلسلة فقه الدعوة والبناء والعمل الإسلامي:**

١ ـ جند الله ثقافة وأخلاقًا.

٢ ـ جند الله تخطيطًا.

٣ ـ جند الله تنظيمًا.

٤ ـ من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك.

٥ ـ المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين.

٦ ـ في آفاق التعاليم.

٧ ـ كي لا نمضي بعيدًا عن احتياجات العصر (١١ رسالة).

٨ ـ هذه تجربتي.. وهذه شهادتي.

٩ ـ جولات في الفقهين الكبير والأكبر.

١٠ ـ فصول في الإمرة والأمير.

١١ ـ عقد القرن الخامس عشر الهجري.

١٢ ـ دروس في العمل الإسلامي.

إنه لشيء عجيب أن يأتي هذا الداعية بهذا العدد الكثير من الكتب والمؤلفات في موضوعات مختلفة، وقضايا مستجدة، وهو الذي لم يعمر إلا خمسة وخمسين عامًا هجريًا، يضاف إلى ذلك أنه لم يمضها في معظمها في ظروف اعتيادية، ولا أجواء مريحة مرضية، ولكن ذلك ليس بغريب على علمائنا الربانيين، ودعاتنا المخلصين- ولا نشهد إلا بما نعلم، ولا نزكي على الله أحدًا- وقديمًا تحدثوا مستغربين مثل هذا الأمر، عن الإمام النووي والشيخ الغزالي وابن تيمية، وغيرهم- رحمهم الله تعالى أجمعين- ولكنها البركة التي كانت ولا تزال موصولة ومتجددة في جهود وأعمال وأوقات حملة هذا الدين.

**مما قيل فيه ـ رحمه الله تعالى:**

(كم كنت أحب أن أجلس إليك لأستمع الدرر التي تغوص إليها في أعماق الأمهات الغرر، وكم كانت تعجبني آراؤك الفقهية التي كانت تنم عن سعة اطلاع وفقه دقيق عميق).

***د/ عبد الله عزام ـ رحمه الله تعالى***

(رحم الله الشيخ سعيد حوى قدر ما أغاظ المضلين وأفرح المؤمنين بما قدم وأعطى، وأثابه عن جهاده عبر المسيرة الخيرة والرحلة الهادفة المباركة أحسن الثواب، وجعل له الجنة مأوى وحسن مآب).

***الأستاذ / يوسف العظم ـ رحمه الله تعالى***

(إن فقيدنا- رحمه الله تعالى- انتقل بالعلم والدراسات الإسلامية من الكلمات الصامتة التي كانت تملأ بطون الأسفار والمجلدات إلى العلم العملي- أو كما يقال في لغة العصر: إلى الفقه الحركي- الذي يثمر منظمات وجماعات وأجيالًا لتحرير الوطن والإرادة، وحشدًا شعبيًا واسعًا لحماية الأرض والعرض وصون المقدسات والكرامات).

(إن الذي يُمعن النظر في كتاباته يحسبه متفرغًا لها، بل يجده قد أعطى أكثر مما قدمه المتفرغون للبحث والتأليف. ومن نظر في نشاطاته ومشاركاته ومسؤولياته الإدارية والتنظيمية يخاله منصرفًا إليها لا يشغله عنها شيء، فكان في مجال الحركة والنشاط متقدمًا، وكان في رحاب الفكر وحقل الكتابة والتأليف مبرزًا، وهذه خصيصة انفرد بها فقيدنا- رحمه الله تعالى- ولم يجاره بها واحد من أبناء الجماعة في سوريا منذ نشأت حركة الإخوان المسلمين، عدا الدكتور مصطفى السباعي قائد الجماعة وأحد السابقين في تأسيسها وتشييد بنائها).

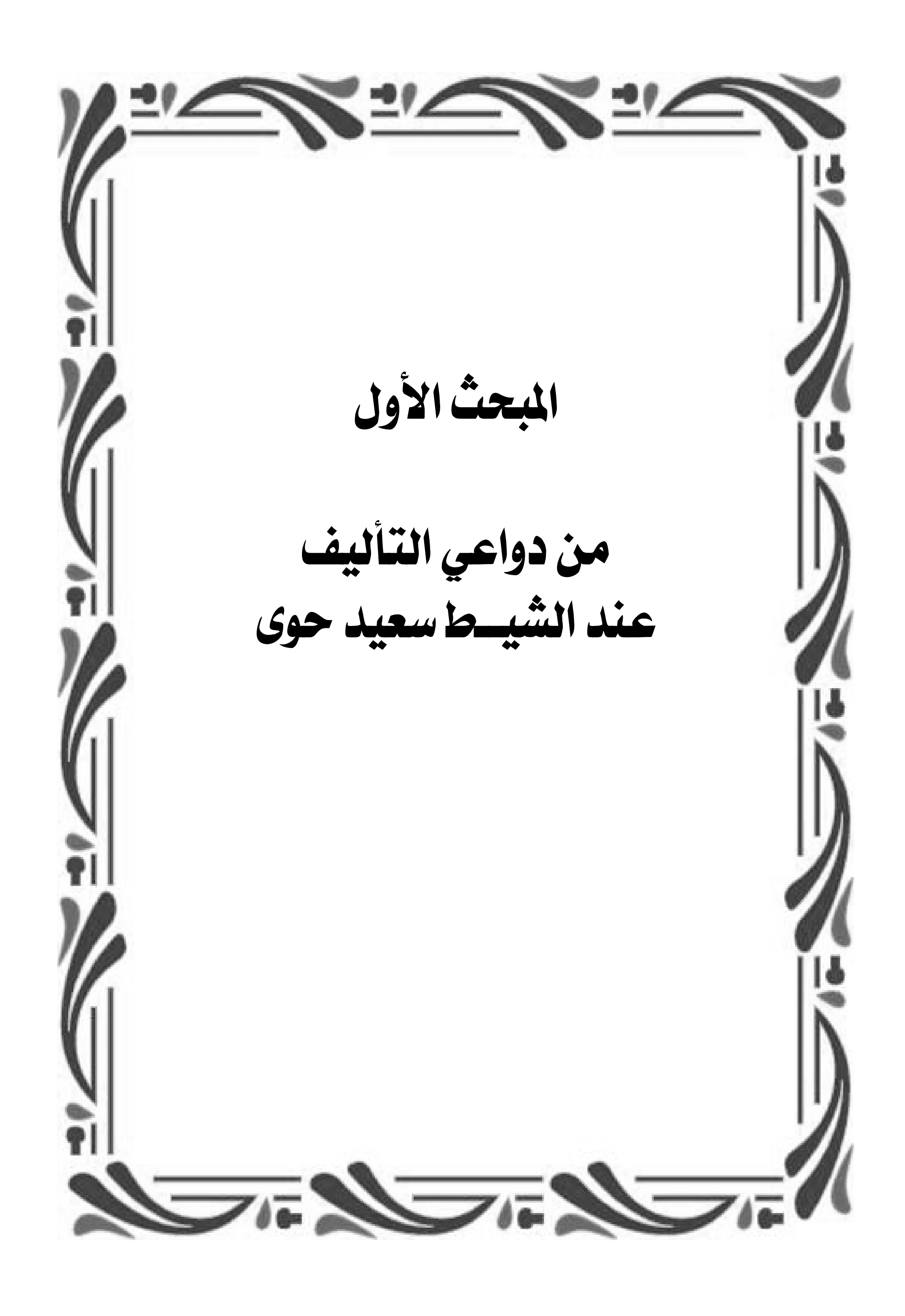
***الأستاذ/ عدنان سعد الدين ـ رحمه الله تعالى***

(لقد عرفته من خلال كتبه ونشاطه الدعوي في سوريا، ومن تلامذته في المدينة المنورة، والتقيته بعد ذلك في الأردن والكويت وأوربا وباكستان، فوجدت فيه الخلق الفاضل والأدب الجم، والتواضع والزهد، والبساطة في المظهر، والإقبال على الطاعة، وكثرة التلاوة والذكر، وإدمان القراءة والكتابة في الموضوعات الدعوية والحركية الفقهية والروحية، والانشغال الكامل بقضايا الإسلام والمسلمين، والتصدي لطواغيت الأرض، الذين خربوا البلاد، وأذلوا العباد، وسعوا في الأرض بالفساد).

***المستشار/ عبد الله العقيل***

وقد رثاه الشاعر الإسلامي الكبير وليد الأعظمي بقصيدة عنوانها (**سكت الهزار**):

سكت الهزار الصادح الغريد فاستوحش الوادي وغاب العيد
يا راحلًا عنا وفي أعماقنا شوق إليكم ما عليه مزيد
ديْن لكم في عنق كل مجاهد يجب الوفاء بذاك والتسديد
بالأمس كان لقاؤنا في طيبة طاب الحديث بها وطاب نشيد
بجوار خير المرسلين سمت بنا سبحات فكرٍ زانها التوحيد
وأبو محمد (السعيد) كأنه قمر تألق نوره المشهود
يحيي القلوب بوعظه وبيانه لكأنما هو لؤلؤ منضود
فيه من الذكر الحكيم لآلئ ومن الحديث أزهار وورود
يا رافعًا للحق آية نصره والحق تحرسه ظبًا وبنود
أفنيت عمرك بالجهاد مصابرًا لله فيما تبتغي وتريد
لك في الجهاد عزيمة مشبوبة لا تعتريها فترة وخمود
كالليث في وثباته وثباته شهدت بذاك خنادق وجنود
وتردُّ كيد المعتدين بنحرهم وتذب عن أحسابها وتزود
كسب الفتى من سعيه بحياته طيب الثناء وذكره المحمود



# المبحث الأول

## من دواعي التأليف
## عند الشيـط سعيد حوى

## من دواعي التأليف
## عند الشيط سعيد حوى

لقد اطلعنا من خلال السيرة الذاتية للشيخ سعيد حوى- رحمه الله تعالى- على عدد كبير من المؤلفات، اتسع بعضها حتى وصل إلى بضعة عشر مجلدًا، وصغر الآخر حجمًا حتى غدا رسالة أو كتيبًا. وقد تناولتْ هذه المؤلفات فنونًا شتى ومعارف مختلفة، من العقيدة والتفسير والحديث والسيرة والفقه والدعوة والتربية والحركة وفقه الدعوة وغيرها... وسوف نقف في هذا المبحث على دواعي التأليف وأسباب الكتابة في هذه الموضوعات عند الشيخ- رحمه الله تعالى، والتي لم تأت عرضًا، وإنما هي لأسباب موضوعية، ودوافع واضحة حملته على توجيه عنايته إلى هذه الكتب، وتلك التآليف:

١- سد ثغرات مختلفة في ثقافة الداعية.

٢- نقد وتسديد سيرة الجماعة والحركة.

٣- شدة الحاجة إلى كثير من الإضاءات الواعية في الفكر والتربية والسياسة والدعوة والبناء العام المتكامل لمسلم القرن الخامس عشر الهجري.

٤- بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلمًا إلا بمعرفتها.

٥- وجوب العناية بالنص القرآني والنص النبوي، ودفع الشبه التي تثار حولهما.

٦- إبراز موضوعات كثيرة تهم عصرنا، ولم تنل حظها عند السابقين.

٧- التعريف بدعوة الإخوان المسلمين وبمؤسِّسها، والشبهات التي تثار حوله وحولها، وبيان المطلوب ممن يريد الالتزام بهذه الحركة والعمل مع جماعتها.

٨- معالجة ما طرأ من قصور في التصورات العامة عند المسلم في شأن الإسلام وصلته به، وتقديم النظرة الصحيحة عنه.

٩- حاجة الحركة الإسلامية إلى نظرة واضحة عن التصوف، ذلك

التصوف المنضبط بالشريعة والمقيد بالكتاب والسنة.

١٠- حاجتنا إلى معالجة أمراض القلوب وأدواء النفس.

فلم تكن الكتابة عند الشيخ- رحمه الله تعالى- هي الرغبة في التأليف، ولا الحرص على زيادة الإنتاج العلمي لنيل درجة، أو اكتساب مرتب أو رتبة، ولا هوى جامحًا في الكتابة والنشر ليس إلا، وإنما انطلق في كل ما كتبه إلى معالجة مشكلة في التربية الإسلامية، أو قضية في الدعوة، أو سد ثغرة في ثقافة الداعية، أو إرشاد لمريد، أو تسديد لمسيرة، أو توضيح لمسألة.

فكتاباته كلها هي نتيجة لمعاناة عاشها أثناء مسيرته التربوية، ونشاطاته الدعوية، ومشاركاته الاجتماعية والسياسية والحركية، أوقفته على قضايا هي بحاجة لتوضيح، أو تأصيل، أو ترشيد، وبعضها كان لمعالجة قضايا شائكة، وأخرى اختلفت فيها الآراء وتعددت حولها الاجتهادات في الساحات الدعوية، أو الأمور التنظيمية والحركية والجهادية، إلى جانب إحساس عميق بأن الأجيال المعاصرة، والنظرة المستقبلية للإسلام والمسلمين- أفرادًا وجماعات وأنظمة ومنظمات- بحاجة إلى كثير من الإضاءات الواعية، والتوجيهات الهادفة، في مجالات الفكر والتربية والسياسة والدعوة، والبناء العام المتكامل لمسلم القرن الخامس عشر الهجري، الذي يتوقع له الشيخ- رحمه الله تعالى- انطلاقة نهضوية عالمية تنقذ عالم اليوم وإنسان العصر من آلامه وأمراضه وأدوائه، في ظل حضارة غربية قدمت الرفاه المادي العظيم، في أجواء مظلمة ابتعدت به عن الإيمان والدين والقيم والأخلاق وكل مقومات البناء النفسي السوي، وانحرفت عن منهج الله، وشرع الله، ورسالات الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام.

ولعل إرهاصات هذا التوقع المبارك أصبحنا نراها جليَّة، ونسمع بها في هذه الأيام، متمثلة في الرغبة الجامحة عند كثير من الشعوب الإسلامية- أفرادًا وحكومات- في تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع مجالات الحياة السياسية

والتشريعية والاجتماعية، وكذلك في العودة المباركة لدى الشعب التركي إلى رحاب الإسلام، عودة واعية على جميع المستويات بعد استبعادٍ للدين من حياة الناس لعدة عقود. وكذلك ما نعيشه اليوم من ربيع الحرية الشعبية الواعية والانتفاضات الواعدة التي ستفتح الأبواب- بإذن الله تعالى- وتمهد السبيل إلى انطلاقة نهضوية إسلامية عالمية.

وانطلاقًا مما سبق عمدت إلى استخلاص، أو استنتاج، دواعي التأليف عند الشيخ في أكثر ما كتبه، سواء ما نص عليه بقلمه في بعض كتبه، أو ما يستشعره القارئ لإنتاجه من خلال العرض والرؤية والهدف، وهذا ما يضعنا أمام اهتمامات المؤلف وإحساساته، وما كان يجول في خلده، مما يلزم الفرد المسلم، والجماعة المسلمة، وما يجب معرفته أو الإلمام به، أو الإحاطة به، لتكون مسيرة الحركة الإسلامية- أفرادًا وجماعة- على هداية وحسن دراية.

وفيما يلي شذرات من تلك الدواعي والدوافع:

**أولا: من دواعي تأليفه لسلسلة الأصول الثلاثة:**

«الله جل جلاله»، «الرسول»، «الإسلام»:

١ - العناية بالعقيدة: يقول- رحمه الله تعالى- في مقدمة كتابه «الله جل جلاله»:

«أردت فيه بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلمًا إلا بمعرفتها والإيمان بها... فقد لاحظت أنه كُتب الكثير في كل أصل من هذه الأصول الثلاثة... دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الأصول، فأردت أن أسد هذه الثغرة، بكل ما أوتيت من قوة».

إلى أن يقول: «وهذا الكتاب «الله جل جلاله» تحدث عن الذات الإلهية حديثًا يمحو كل شك- بإذن الله تعالى- ويزيل كل شبهة، ويدحض كل إفك، ويصل بالإنسان إلى الرضا بالله ربًا».

٢ ـ ثم تحدث في كتابه «الرسول» ﷺ حديثًا يجلو به شخصية هذا الرسول

العظيم، بالإقناع والبرهان اللذين يجعلان الإنسان على مثل الشمس وضوحًا، بأن رسول الله ﷺ هو أعظم مظهر للإنسان في كل جانب، كما جلى أدلة رسالته بالشكل الذي لا يسع العقل إلا أن يؤمن.

٣ ـ وأما عن كتاب «الإسلام» فقد تحدث عنه: عقائد وعبادات، ومناهج حياة، ومؤيدات، مبينًا كلياته، مظهرًا جزئياته، موضحًا أصوله وفروعه، مقيمًا الحجة على الناس فيه، بحيث لا يسع الإنسان أن يتركه إلى غيره.

٤ ـ وفي أثناء استطلاع دواعي التأليف في كتاب آخر يقول: «كان لابد من كتاب يتحدث عن الإسلام، مبينًا أنه أركان، ومناهج حياة، أو عقائد وعبادات، ومناهج حياة وشعائر وشرائع، ودنيا وآخرة، وأن يعطي تصورًا تفصيليًا عن ذلك، وهذا واجب يقتضيه تصحيح العقيدة والعمل، ويقتضيه واجب الدعوة إلى الله- سبحانه وتعالى».

**ثانيًا: من دواعي التأليف لسلسلة «الأساس»:**

**العناية بالنص القرآني والنص النبوي وضوابط المعرفة والفهم لهما. يقول في ضوء تحديد هذه الدواعي والدوافع:**

«إني رأيت أن من واجبات دعاة الإسلام في عصرنا أن يقدموا للناس نصوص الكتاب والسنة بأسهل عرض وأجوده، وأقوم شرح وأعدله، خاصة وهم يريدون أن يقدموا للعالم هذا الإسلام، ويريدون أن يصوغوا الحياة عليه، فقد وجدت من الضرورة أن توجد سلسلة في هذا الشأن، وهكذا عملت على إصدار سلسلة الأساس في المنهج بأقسامها الثلاثة: الأساس في التفسير ـ الأساس في السنة ـ الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص»[(١)].

**كما ذكر عدة دواعٍ تفصيلية منها:**

١ ـ دفع شبهة الدعوة إلى الأخذ بالقرآن دون السنة المطهرة، والتشكيك في

---

(١) الأساس في السنة (١/ ١٣، ١٤) بتصرف.

حجيتها، وصحة نقلها، والطعن في رواتها.

٢ ـ ضرورة التعرف على السنة الصحيحة والحسنة، وضرورة فهمها فهمًا صحيحًا[1].

٣ ـ ضرورة تيسير الفهم الصحيح والضبط لألفاظ السنة الشريفة.

٤ ـ إبراز موضوعات كثيرة تهم عصرنا ولم تنل حظها من الإبراز في مؤلفات السابقين، والحرص على نوع من الترتيب يمكن أن يكون أكثر مناسبة للقارئ العادي.

٥ ـ أردت أن أضع كتابًا يَنْصَبُّ الكلام فيه على السنة ذاتها دون ما أحاط بها من ضرورات التحقيق؛ ليكون الكتاب للمسلم مطلقًا.

٦ ـ تلبية رغبة القارئ في أن يتعرف على السنة المتواترة والصحيحة والحسنة السند، وحاجته إلى كتاب جامع لذلك كله، وعلى أن يكون هذا الكتاب مضبوطًا شكله، مشروحًا غريبه.

٧ ـ حاجة المسلم إلى أن يفهم السنة فهمًا صحيحًا، وأن يأخذ الجواب الشافي على كثير من الإشكالات، وأن يعرف كثيرًا من الأمور التي يتلجلج في قلبه سؤال عنها.

٨ ـ رد شبهات حول السنة يثيرها أعداء الله- عز وجل.

٩ ـ ترشيد مناقشات حادة حول الكثير من الأمور بين المسلمين أنفسهم في شأن فهم الكثير من متون السنة. وكل ذلك يحتاجه المسلم المعاصر لكي يرتاح قلبه في شأنه.

**ثالثا: دواعي تأليفه لسلسلة «فقه الدعوة والبناء والعمل الإسلامي»:**

١ ـ التعريف بدعوة الإخوان المسلمين وبمؤسِّسها الإمام حسن البنا- رحمه الله تعالى- وكذلك رد الشبهات التي تثار حولها.

---

(١) الأساس في السنة (١/ ١٢) بتصرف.

فأما كتاب «في آفاق التعاليم» فقد كتبه؛ لأن أجيالًا كثيرة في هذه الأمة قد حيل بينها وبين أن تعرف حسن البنا وفكرته ودعوته، ومن حق هذه الأجيال أن تعرف، ومن واجبنا أن نُعرِّف، خاصة وأن المسلمين ليس أمامهم إلا فكر الأستاذ البنا إذا أرادوا الانطلاق الصحيح[١].

كما أراد من هذا الكتاب أن ينبه إلى أن هناك الكثيرين الذين يتعمدون تشويه صورة الأستاذ البنا في أذهان الناشئة؛ ليَحُولوا بين هذه الأجيال وبين السير في الطريق الصحيح الذي رسمه.

ثم إن هناك هجومًا جاهلًا على كثير مما طرحه الأستاذ البنا ينزلق إليه أناس لم يرزقهم الله آفاق النظر التي أعطاها الله للأستاذ، فاقتضى ذلك كله أن يكتب تلاميذه والملتزمون بخطه، مبينين الحجة، ولعل هذا الكتاب يؤدي دوره في ذلك[٢].

٢ ـ معالجة ما طرأ من قصور التصورات العامة للمسلم في شأن الإسلام وصلته به.

فيقول: إن قصورًا كبيرًا قد طرأ على التصورات العامة للمسلم في شأن الإسلام وصلته به، وقد انعكس هذا القصور الكبير على مواقف المسلم ومواقعه نتيجة لذلك، فأصبحت له تصورات عجيبة غريبة، ومواقف ومواقع كذلك لا تنسجم أدنى انسجام مع أية نظرة صحيحة للإسلام، ولا مع أي فهم صحيح لمركز الإنسان في هذا الكون... فإذا عرفنا أن هناك قصورًا في التصورات، وقصورًا في العلاج، وقصورًا في الرؤية الشاملة، وقصورًا في الحركة على ضوئها، وعرفنا ما يراد لنا وبنا نحن المسلمين، إذا عرفنا ذلك كله أدركنا أن هذا كله يقتضي منا ما يقابله ويكافئه، وأن بداية هذا كله إتقان البناء وإحسانه، ندرك بعض الأسباب الحاملة لنا على إصدار هذه السلسلة (في

(١، ٢) في آفاق التعاليم، ص٥.

البناء) التي تشكل هذه الرسالة جزءًا من أجزائها[١].

والأجزاء التي عناها المؤلف هنا هي:

١ ـ جند الله ثقافةً وأخلاقًا.

٢ ـ المدخل إلى جماعة الإخوان المسلمين.

٣ ـ نظرتنا الأمنية ودروس الأمن.

٤ ـ فقه التنظيم والتنفيذ.

٥ ـ جولات في الفقهين الكبير والأكبر.

٦ ـ حياتنا الروحية.

٧ ـ القواعد في البناء.

٨ ـ على طريق الجهاد الأصعب الأطهر.

٩ ـ برسم التنفيذ.

١٠ ـ من أجل خطوة إلى الأمام.

**ومن دواعي التأليف لهذه السلسلة أيضًا:**

١ ـ أنك تجد الشكوى من الداء والبعد عن الدواء، أو عدم البحث الجاد عن الدواء.

٢ ـ إن الحركة الإسلامية تحتاج إلى الإجابة عن آلاف الأسئلة لتحقيق أهدافها، وتحتاج إلى أمور كثيرة حتى تصبح هذه الأهداف موضع التنفيذ والتطبيق والتحقيق، وكل ذلك يقتضي رؤية واضحة، ومسحًا كاملًا، وحركة شاملة صحيحة على ضوء ذلك.

**موقفه من التصوف:**

**رابعًا: من دواعي التأليف في سلسلة التربية والتزكية والسلوك:**

يقول- رحمه الله تعالى- حين ذكر دواعي تأليفه لكتاب «المستخلص في تزكية الأنفس»: فالقلب قسا، وأمراضه من حسد وعجب أصبحت فاشية،

(١) من أجل خطوة إلى الأمام، ص٣-٧ بتصرف.

وحُسن التعامل ضعف، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يتأثر بذلك؛ لذلك كان لابد لمريدي تجديد الإسلام أن يفكروا في إحياء المعاني القلبية للعبادات، وفي تحلية النفس بأخلاق العبودية، وتخليتها من النزعات الحيوانية والشيطانية.

وإذا كان الأثر المباشر لموت القلوب فقدان المعاني القلبية الإيمانية، من صبر وشكر وخوف من الله... وهي أشياء لابد منها لصلاح الحياة، وإذا كان من الآثار المباشرة لهذا الموت وجود الحسد والعجب والغرور، وهي أشياء خطيرة جدًا على الحياة، فلقد أصبح التركيز على هذه المعاني واجبًا على الذين يريدون إصلاح الحياة الفردية والاجتماعية... فقد أضحى من المصلحة أن نتخير من كلام من تحدث عن مثل هذه الأمور بما يسد الحاجة إلى الجوانب العملية والتفصيلية في علم التزكية، وبما تحتاجه عملية التجديد للمعاني الإيمانية القلبية، والتجديد لأدب العلاقات، وهما من أهم ما يحتاجه التجديد العملي للإسلام؛ لذلك كان الاستخلاص[1].

**وفي أسباب تأليفه لكتاب «تربيتنا الروحية» يقول:**

والذي دعاني إلى كتابة هذه الرسالة أمور:

**١ ـ حاجة الحركة الإسلامية إلى نظرية واضحة عن التصوف،** وعن السير الروحي بآنٍ واحد. إن النظرة الواضحة عن التصوف تعصم من الانحراف في تياره الغالي أو في التيار المعادي على غير بصيرة، والسير الروحي لأبناء الحركة الإسلامية شيء لابد منه، ومن ثم كان الفقه فيه كالفقه في قضايا التنظيم والتنفيذ والتعريف وغير ذلك من أمور لا يسع المسلم المعاصر ألا يكون له صلة نظرية وعملية فيها.

**٢ ـ ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة،**

(١) المستخلص في تزكية الأنفس، ص٧ بتصرف.

**ومذاهبهم الفقهية**، حتى إنني كنت أستشعر حرجًا أن أذكر لإنسان كتابًا في التصوف، وذلك لأن الكثير من كتب التصوف داخلها ما لا يرتاح له العليم.

٣ ـ إن كثيرين **ممن كتبوا في هذا العلم جعلوه علم الخاصة**، مع أنه العلم الذي يطالب به كل إنسان لارتباطه بقضايا القلب، وزكاة النفس، وغير ذلك من أمور كلها تكليفية في حق عامة الخلق، فكان لابد من كتاب يجعل الأمر في محله.

٤ ـ إن هذا العلم في مسيرته التاريخية **اختلط فيه أكثر من أي علم آخر أمور جعلته أحيانًا كالألغاز**، وجعلته أحيانًا وكأنه شيء آخر غير العلم وغير النصوص، وجعلته أحيانًا مستقلًا عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه، بل جعلته أحيانًا إلهاميًا له قوة الوحي في التشريع أو في التقرير، وكل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محررًا منقحًا.

٥ ـ **إن أكثر المشتغلين في هذا العلم تصوراتهم الإسلامية قاصرة، ومفاهيمهم ضيقة**، ويعيشون بعيدين عن عصرهم، وعن بدهيات الإسلام التي لا ينبغي أن تغيب عن مسلم معاصر. فأن يبقى هذا العلم قصرًا على هؤلاء، فإن في ذلك إبقاءً لمريدي السير إلى الله في أجواء غير صحيحة؛ فكان لابد للحركة الإسلامية الجهادية أن تبلور هذا الموضوع كما بلورت غيره من الأمور التي تشكل ألف باء الفهم للإسلام وللعمل المعاصر من أجله[1].

**خامسا : موقفه من المذاهب الفقهية والمدارس الدعوية:**

ويذكر أن من دواعي تأليف كتاب «جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما»:

إنني أعتقد أنني بهذه الرسالة أخدم قضية مهمة من قضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة، فقد أصبحت علوم الإسلام **بحاجة إلى تحرير من الدخن** الذي علق بها، وأن يكون ذلك كله متوافقًا مع طرح نظرة كلية لفهم الإسلام،

(١) تربيتنا الروحية، ص ٧-٩.

واحتياجات المسلمين. **وذلك لإزالة الغموض في مواضيع الفقهيات أو مسائل العقائد**، أو مسائل السير إلى الله والسلوك الأخلاقي، والذي أوجد عند الكثير منا **استعدادًا لقبول الآراء الشاذة**، أو الدفاع عنها.

إننا نتمنى للمسلمين **مذهبية سلفية، وصوفية سلفية، نتمنى لهم سلفية يضبطها العلم**، ويجتمع معها السير إلى الله، نريد للمسلمين مذهبية وسلوكًا لا إفراط فيهما، وسلفية وسنيَّة لا تفريط فيهما... **نريد تفقهًا في فقه المذاهب، أو فقه مذهب يرافقه سعة أفق ومعرفة العصر** ونظر دقيق في آراء العلماء... وهذا كله ممكن، وكله ضروري(١).

**سادسا: دواعي كتابته لرسالة «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين»:**

يقول: إنها- أي هذه الرسالة- **للملتزمين بنا** ليعرفوا ماذا يعني الالتزام بنا، **وإنها للراغبين في الالتزام** ليعرفوا بماذا سيلتزمون، **وإنها دعوة للناس جميعًا** كي يعملوا على ضوء سير كامل شامل، **إنها تعريف لكل مسلم على ما ينبغي أن يفعله هو** ليتم من خلال عمل الجميع تحقيق الأهداف.

إنها تعويض عن كوننا- بسبب ظروفنا- لم نستطع أن نصل إلى كل مسلم لنطالبه بما ينبغي من أجل أن يسير في الطريق، ولو لم نصل إليه الآن، وذلك من أجل أن نلتقي معه على الطريق في يوم ما، فهذه الرسالة تعمل في أكثر من محور من جملتها:

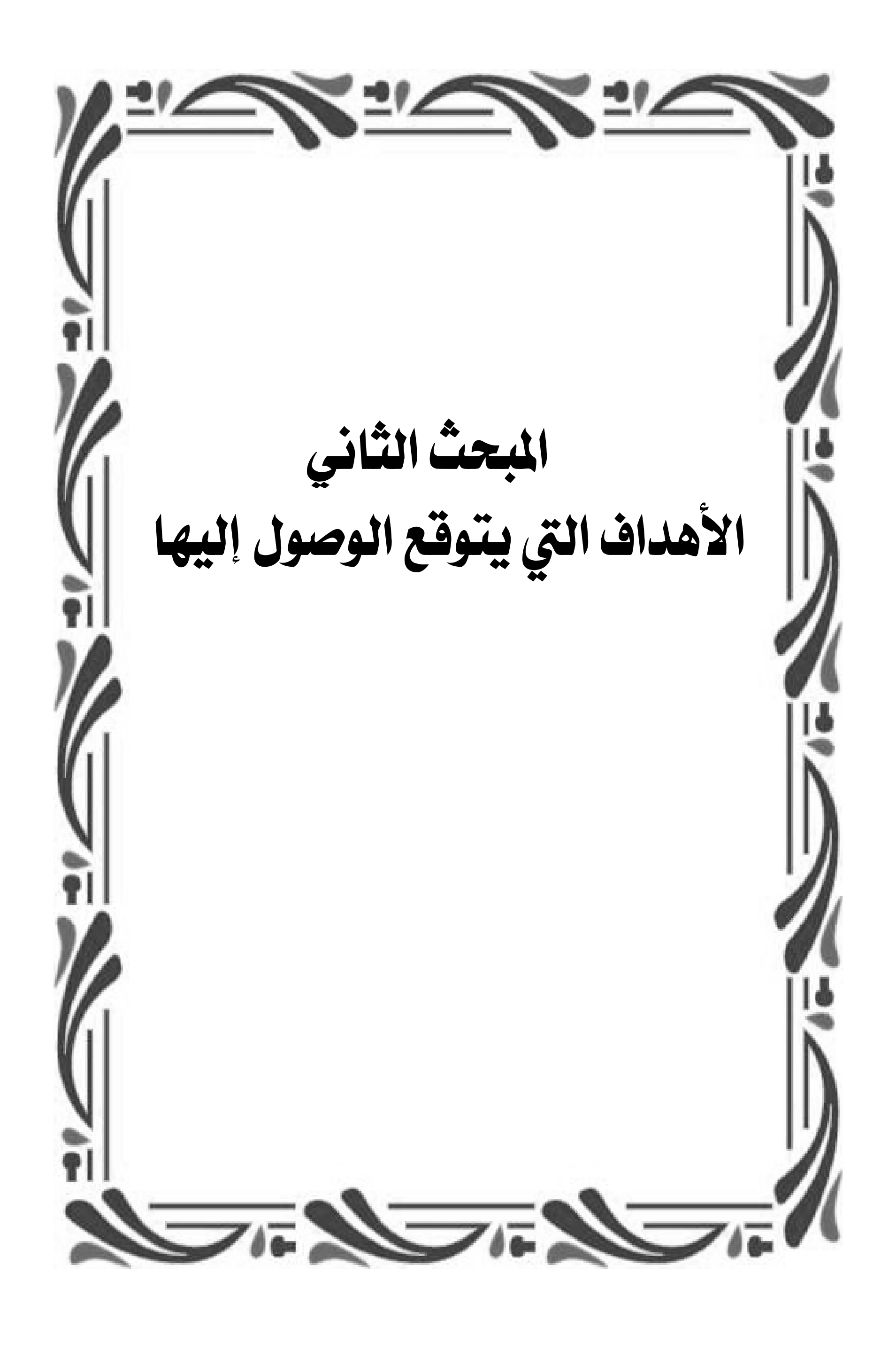
- محور تكميل المسلم المعاصر.
- محور العمل الذي ينبغي أن يؤديه ليستطيع أن يؤدي دوره.
- محور الوضوح.
- محور الفهم.

**سابعا: أسباب كتابته لكتاب «تجربتي وشهادتي»:**

يقول: لقد فكرت كثيرًا في أن ألتزم الصمت بقية حياتي، وأن ألزم نفسي

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص٢٣ بتصرف يسير.

بالعزلة التي أجبرني عليها المرض، تاركًا لتجربة القرن الرابع عشر أن تأخذ مداها، ولكن غلب عليَّ أنني وجدت مصلحة في كتابة هذه المذكرات، فآثرت الكتابة... ولولا أنني أعتبر هذه المذكرات مفيدة- ولو لبعض الناس- ما نشرتها، وأسأل الله أن تكون خالصة لوجهه الكريم، وألا يكون فيها حظ لنفسي، وأسأله نفعًا خالصًا لا ضرر فيها لأحد، والله الموفق وهو المستعان.



# المبحث الثاني
# الأهداف التي يتوقع الوصول إليها

## الأهداف التي يتوقع الوصول إليها

١- أن ينعم القارئ باطمئنان القلب، ويشعر ببرد اليقين في ظل عقيدة الإسلام الصافية.

٢- أن نوجد المسلم الحق المتميز في عقائده وعباداته وسلوكه ومناهج حياته، العامل على إقامة دولة الإسلام وحمايتها.

٣- رسم معالم التربية المتكاملة والتنظيم الشامل، وتوجيه الخطوات نحو الأهداف المرجوة، وتجنب مزالق الطريق.

٤- إدراك الآفاق الواسعة لحركة الأستاذ البنا- رحمه الله تعالى.

٥- وضع قدم المسلم على طريق السير إلى الله؛ ليذوق حقيقة الإيمان، ويلج طريق الدراسات الصوفية وبيده مصباح وميزان على ضوئه يسير، وبه يزن ما يقرأ.

٦- تأدية دور فعال في إقامة دولة الله، ونصرة شريعته، وإحياء سنة نبيه.

٧- التأكيد على أن دولةً عالميةً للإسلام ستقوم، وسيراها العالم حقيقة- بإذن الله تعالى.

٨- الإحاطة بمعاني السنة النبوية الشريفة، وأن يألف القارئ العبارة النبوية، وأن يراها خالصة لا يخالطها غيرها.

٩- وضع تآليف جديدة في العقائد والفقه والتصوف وأصول ذلك، ليبقى عطاء الأمة متجددًا وواقعيًا ومعاصرًا.

١٠- إتقان فقه الدعوة، وإتقان فقه التربية.

١١- إتقان قضية تكوين الذات وتفجير الطاقات في العمل الإسلامي ضمن نظرية واضحة المعالم.

وكما انطلق الشيخ- رحمه الله تعالى- في كتابة مؤلفاته وإعداد رسائله من

خلال أسباب ودواعٍ كان يراها جديرة بالعناية والدراسة والمناقشة، وأيدها بالدليل الشرعي أحيانًا، وبالحوار العقلي أحيانًا، فإنه كان يرى دائمًا أن هذه الأبحاث وهذا الجهد المبذول يجب أن يصل في النهاية إلى النتيجة المرضية والهدف المراد، فتزول الشبهة إن كان الغرض إزالة شبهة، أو تتوضح ضوى الطريق وعلاماته إن كان الهدف بيان أهمية السعي إلى درجة ومرتبة معينة من الثقافة الواعية، أو منزلة عالية من الأخلاق والآداب في مجالات السير إلى الله– تعالى– أو بيان سبل معالجة مشكلات دعوية أو مهمات تنظيمية.

إنك تلاحظ دائمًا في كل ما تقرأه من كتب الشيخ أنه يسير إلى غاية معينة، وينتقل بقارئه خطوة خطوة إلى المكان المقصود، وكثيرًا ما نجده يقول في خاتمة البحث أو ثناياه: وإني لآمل أن يخرج القارئ من هذا البحث إلى كذا وكذا، أو إني لأرجو أن تكون هذه الرسالة قد أوفت بالغرض الذي أُعِدَّتْ من أجله وهو كذا وكذا... وفي الصفحات التالية نماذج من ذلك..

**العناية بالعقيدة:**

**من الأهداف المرجوة من هذه الدراسة: «الأصول الثلاثة»:**

١ـ أن القارئ لهذه الأبحاث لن ينتهي من هذه الدراسة إلا وقد ارتاح قلبه، واطمأن ببرد اليقين إذا رغب في الحق وشاء الله له الهداية، ونرجو أن يكون هذا الكتاب نقطة البداية لميلاد جديد لإنسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى[1].

٢ ـ ويقول في مكان آخر:

إننا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام على الله والرسول، لأن هذه المادية الملحدة تحاول بكل إمكانياتها أن تُنْسِي الإنسانَ اللهَ، وأن تصغر في قلبه وذاته رسل الله، يساعدها في ذلك خطط أهل الأديان الباطلة في تشويه

(١) كتاب «الله جل جلاله»، ص٦.

الصورة الصحيحة لرسول الله ﷺ؛ لذلك أصبحنا بحاجة إلى جلاء هذين الأصلين مع الأصل الثالث.

٣ ـ أننا نريد من المربين أن ينتبهوا إلى غرس جانب هام من التربية لا يقف عند العلم والمعرفة، وهو ما جاء في قول ابن عمر- رضي الله عنهما: (إن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن...)، فإن مأساة المسلمين أنهم أهملوا علم الإيمان وطريقه.

٤ ـ ولعل الكتاب بعد ذلك يعطي المسلم من قوة الحجة ما يستطيع أن يدعو كل شارد عن باب الله، وأن يقيم الحجة على كل عدو لله ممن يجحدون بآيات الله وإن استيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا [(١)].

٥ ـ وينتج عن هذا كله أن المسلم الحق إنسان متميز تميزًا تامًا عن غيره في كل شيء، فهو متميز في عقائده وعباداته، ومناهج حياته، وفي هدفه النهائي وهدفه القريب... إن هدف المسلم النهائي هو الآخرة، وهو في الدنيا على حذر.. وإن الهدف العام للمسلم في عمله العام إقامة دولة الله وحمايتها، وتوحيد الأمة الإسلامية ونصرة شريعتها وإحياء سنة رسولها، والجهاد في سبيل الله حتى تخضع الدنيا لكلمة الله... وهدف المسلم الشخصي أن يكون الله راضيًا عنه، محبًا له، متمسكًا بكتاب الله، مقتديًا برسوله، مجاهدًا في سبيله[(٢)].

٦ ـ الهدف المرجو من كتابه «في آفاق التعاليم»:

سيدرك من يقرأ هذا الكتاب بإمعان آفاق حركة الأستاذ البنا- رحمه الله تعالى- من خلال إدراكه لرسالة التعاليم التي هي من أنضج آثار الأستاذ البنا والتي تكاد تمثل آخر اجتهاداته الفكرية والعملية، والتي هي حصيلة استشفاف عام لحركة التاريخ، وواقع المسلمين ولفهم دقيق للنصوص[(٣)].

---

(١) الله جل جلاله، ص٨.

(٢) الإسلام، ص٢٤٠ بتصرف.

(٣) في آفاق التعاليم، ص٥.

إذًا لقد كانت الأهداف من الكتابة والتأليف واضحة في ذهن الشيخ- رحمه الله تعالى- متسلسلة مترابطة، تتناغم أولاها مع ثانيتها، وسابقتها مع تاليتها في منطقية ووعي وشمول ووضوح، ولم تكن استجابة لحدث طارئ، وأمر عارض، ورغبة في زيادة الإنتاج، وكل ذلك واضح فيما يلي:

يقول- رحمه الله تعالى- تحت عنوان محل هذا الكتاب «في آفاق التعاليم» في سلسلة البناء.

**تربية متكاملة وتنظيم شامل:**

٧ ـ لقد كان الكتاب الأول في سلسلة البناء هو: «جند الله ثقافة وأخلاقًا» ليأخذ المسلم فيه الدروس الأولى فيما ينبغي أن يكون عليه، ثم كان الكتاب الثاني هو: «من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»، وذلك من أجل أن يخطو المسلم على الطريق نحو الأهداف، ثم كان الكتاب الثالث هو: «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين» ليعرف المسلم أن طريقه في هذا العصر محدد في الحركة على طريق الإخوان المسلمين.

وإذا كانت الانحرافات الثقافية من أخطر ما يواجه المسلم فقد كان الكتاب الرابع هو: «جولات في الفقهين الكبير والأكبر» من أجل أن يتجنب المسلم مزالق الطريق فكريًا. ولما كانت التعبئة الروحية هي السبيل لتجنب مزالق الطريق سلوكيًا فقد كان الكتاب الخامس هو: «تربيتنا الروحية». ولما كانت «رسالة التعاليم» تحدد المعالم الكبرى للأهداف والحركة نحوها، وللشخصية التي تحققها فقد كان هذا الكتاب... وهذا يقتضي أن يوجد الكتاب الذي يتحدث عن التخطيط والتنظيم، ومن أجل ذلك فسيكون الكتاب السابع في هذه السلسلة هو: كتاب «دروس في التخطيط والتنظيم»- إن شاء الله تعالى.

**العناية بالنفس والروح:**

٨- وفي الهدف من كتابة كتاب «تربيتنا الروحية» يقول:

نحن في عصر مادي، وهذا يقتضي منا أن نقابله بفكر مكافئ، وبحيوية

وروحية عالية. ونحن في عصر شهواني جاهلي، وهذا يقتضي منا أن نقابله بأشواق روحية راقية، مع تأمين الشهوات المباحة وإبقاء منافذها مفتوحة. ونحن في عصر قلَّما يوجد فيه من يضبط نفسه على مقتضى الأدب الإسلامي الرفيع، وهذا يقتضي منا إلحاحًا على التربية النفسية، وإذا كان هذا كله طريقه التصوف الصحيح السليم، فإن الكتابة في ذلك أصبحت ضرورية.

ويقول في موضع آخر من هذا الكتاب:

٩ ـ إنني أريد في هذه الرسالة أن أضع قدم المسلم في طريق السير إلى الله ليذوق حقيقة الإيمان، وبنفس الوقت أريد أن يتعرف المسلم على معنى الحقيقة الصوفية التي هي إحدى سمات دعوة الأستاذ البنا- رحمه الله تعالى.

١٠ ـ كما أنني أريد من هذه الرسالة ورسالة «جولات في الفقهين» أن أضع قدم المسلم على الطريق للدراسات الصوفية، بحيث يقرأ كتب التصوف، وبيده مصباح أو ميزان على ضوئه يسير، وبه يزين ما يقرأ[1].

**الطريق إلى الدولة الإسلامية:**

حاولنا في هذه السلسلة «**سلسلة البناء**» أن تكون كل رسالة منها تخدم غرضًا في قضية البناء، أو تحقق هدفًا مرحليًا أو شاملًا، وإننا لنطمح أن تؤدي هذه السلسلة دورها في إقامة دولة الله، ونصرة شريعته، وإحياء سنة رسوله ﷺ، وتوحيد أمة الجهاد في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا في العالمين، ولتكون كلمة الذين كفروا هي السفلى- بإذن الله.

إننا نحب أن نقول لكل الكافرين والمنافقين والفاسقين في العالم- ومن خلال هذه الرسائل: إننا الواثقون- برغم كل الظروف الصعبة القاسية التي نمر بها- أن دولة عالمية للإسلام ستقوم، وسيرى العالم هذا كله حقيقة قائمة بإذن الله، وسنعمل لإقامة هذه الدولة بثبات وعميق إدراك، لتكون خطواتنا

(١) تربيتنا الروحية، ص١٨.

دائمًا إلى الأمام، وإن معركـة يـديرها لأهلهـا رب العـالمين، لا شـك أن أهلهـا منصورون إذا أدَّوا حق الله عليهم. ونقول لكـل الكـافرين: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾[1][2].

**ومن الأهداف المرجوة من تأليف كتاب «الأساس في السنة»:**

١ ـ إن قارئ الكتاب يكاد أن يحيط بمعاني السنة النبوية، لأنه حوى الهـدي النبوي الذي روته أمهات كتب السنة وهي سبعة عـشر كتابًـا هـي: صـحيحا البخاري ومسلم، والسنن الخمسة: لأبي داود، والنـسائي، والترمـذي، وابـن ماجه، والدارمي، وموطـأ الإمـام مالـك، ومـسانيد الإمـام أحمـد، وأبي يعـلى الموصلي، وأبي بكر البزار، وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان، ومعاجم الطبراني الثلاثة، ومستدرك الحاكم، وما تيسر جمعه من غير هـذه الكتـب مـن صـحيح السنة وحسنها.

٢ ـ أن يألف القارئ العبارة النبوية وأن يراها خالصة لا يخالطها غيرها.

٣ ـ حفظ القارئ من التشويش والاضطراب وتغيير الخاطر وقلق الفكر.

٤ ـ حفظ الوقت، واندفاع القارئ في العمل دون تردد.

٥ ـ وقارئ هذا الكتاب يخرج بانطباع أنه أمام **أعظـم هـدي بـشري لنبـي**، وقد راعيت فيه ألا يمل قارئه، وأن تزداد رغبته في القراءة كلما أوغل فيـه، كـما راعيت فيه أن يخرج قارئه **وقد فقه السنة حق الفقه؛ مركزًا على مـا يغفـل عنـه أبناء العصر من موضوعات تفرضها وقائع ومناقشات.**

٦ ـ وقد كان لأعداء الإسلام دور كبير في محاولة التـشكيك في الـسنة أو في بعض معانيها، **مما جعلني ألحظ ذلك في تأليف هذا الكتاب بشكل غير مبـاشر، بحيث تعود الكرة إلى مرمى أهلها**، فيصبح ما هو محل تشكيك في زعمهم محل

---

(١) هود: ٣٨.

(٢) من أجل خطوة إلى الأمام، ص٨-٩.

إيمان كما هو في الواقع والحقيقة.

**أهمية التجديد والإبداع في التفكير والتأليف في القضايا المعاصرة:**

**ومن الأهداف المستهدفة من كتاب «جولات في الفقهين الكبير والأكبر»:**

١ ـ أنه لابد من **تأليف جديد في العقائد والفقه والتصوف وأصول ذلك**، بعد الاقتناع بضرورة هذه الدراسات.

وهذه الرسالة في جولاتها **تريد أن تُقنع بضرورة ذلك؛ لأن الاقتناع هو البداية في الانطلاق،** خاصة وأن الكثيرين يسيرون في الطريق المعاكس... وإن استمرت مثل هذه الفهوم فنخشى أن تصاب الدعوة بعقم لا يخرج معه فيها رجل كعبد القادر عودة- رحمه الله تعالى- ولا كتاب كـ«التشريع الجنائي في الإسلام».

٢ ـ نأمل من خلال هذه الرسالة أن **نعرض لقضايا العقيدة والتصوف والفقه مما ينعدم به الانفصام المرُّ الذي حدث في تاريخنا في الشخصية، وأن يزول الصراع المرُّ بين اتجاهات تكمل بعضها، وأن تتلاقى التصورات الصحيحة في كل الجوانب في قلب المسلم وعقله وسلوكه،** لتكون راحة القلب وراحة العقل موجودتين متلاحمتين مع سلامة العمل.

٣ ـ والمهم أن نصل بواسطة هذه الرسالة إلى **توفر طاقات كثيرة تهدر بسبب عدم الوضوح،** فما أكثر الساعات التي تمر بسبب نقاش جاهل بين أطراف من الناس لو كان عندهم وضوح في فهم الأمور لما كان لهذا النقاش مبرر[1].

٤ ـ إنه من مثل هذا ندرك **أن كثيرًا من الخلافات يمكن حلها بالعلم والوعي ودقة النظر، ووضع الأمور في مواضعها،** وهذا الذي نحلم به لأنفسنا ولإخوتنا المسلمين، فلم يزل **اجتماع القلوب على الحق علامة رحمة الله.**

---

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص٢٧-٢٨ بتصرف.

ومن المناسب أن نضيف في ذيل هذه الأهداف ما يحلم بـه المؤلـف- رحمـه الله تعالى- بعد هذه الجولات والمباحث الهامة؛ إذ يقول:

٥ ـ وأحب في ختام هذه الجولات أن ألخص ما أحلم به لإخواني المسلمين في باب الفقهين الكبير والأكبر:

أ ـ أن يوجد التأليف الحديث المناسب في أصول الفقـه وفي المنطـق مكتوبًـا بأيد إسلامية وعقليـة إسـلامية، وفي الفقـه وفي التجويـد وفي التـصوف، وأن يكون تأليفًا ترتبط فيه الأصول بالفروع.

ب ـ أن يوجد العلماء المتخصصون في هذه العلوم، وأن يكونـوا مـن أبنـاء الحركة الإسلامية نفسها؛ حتى لا يقع صدام بين التصورات والمفاهيم.

جـ ـ أن يبذل بعض طلبة العلم جهدًا للنبوغ في فقه مذهب مـن المـذاهب، وفي إتقان أصوله، ومعرفة أدلة ذلك ليكونوا أئمة فيه، وليكونوا قـادرين عـلى الفتوى المكافئة لروح العصر على ضـوء أصـول هـذا المـذهب وفروعـه، وأن تتوسع دائرة هؤلاء المتخصصين لتشمل أصول المذاهب الفقهية المعتبرة.

إنني لأحلم بفقه إسلامي معاصر على ضوء مذاهب الأئمة.

د ـ وأدعو مع هذا كله إلى **إتقان فقه الدعوة، وإتقان فقه التربية**، وإلى إعطاء المعركـة حقهـا، وإلى إدراك طبيعـة العـصر، **وإلى إدراك احتياجـات المـسلمين الحقيقية**، وأدعو إلى بذل جهد متواصل للارتقاء بالمـسلم إلى سـقفه الأعـلى في كل شيء، والحمد لله رب العالمين.

**وتهدف رسالة «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين» إلى توضيح:**

١ ـ قضية الفهم للدعوة.

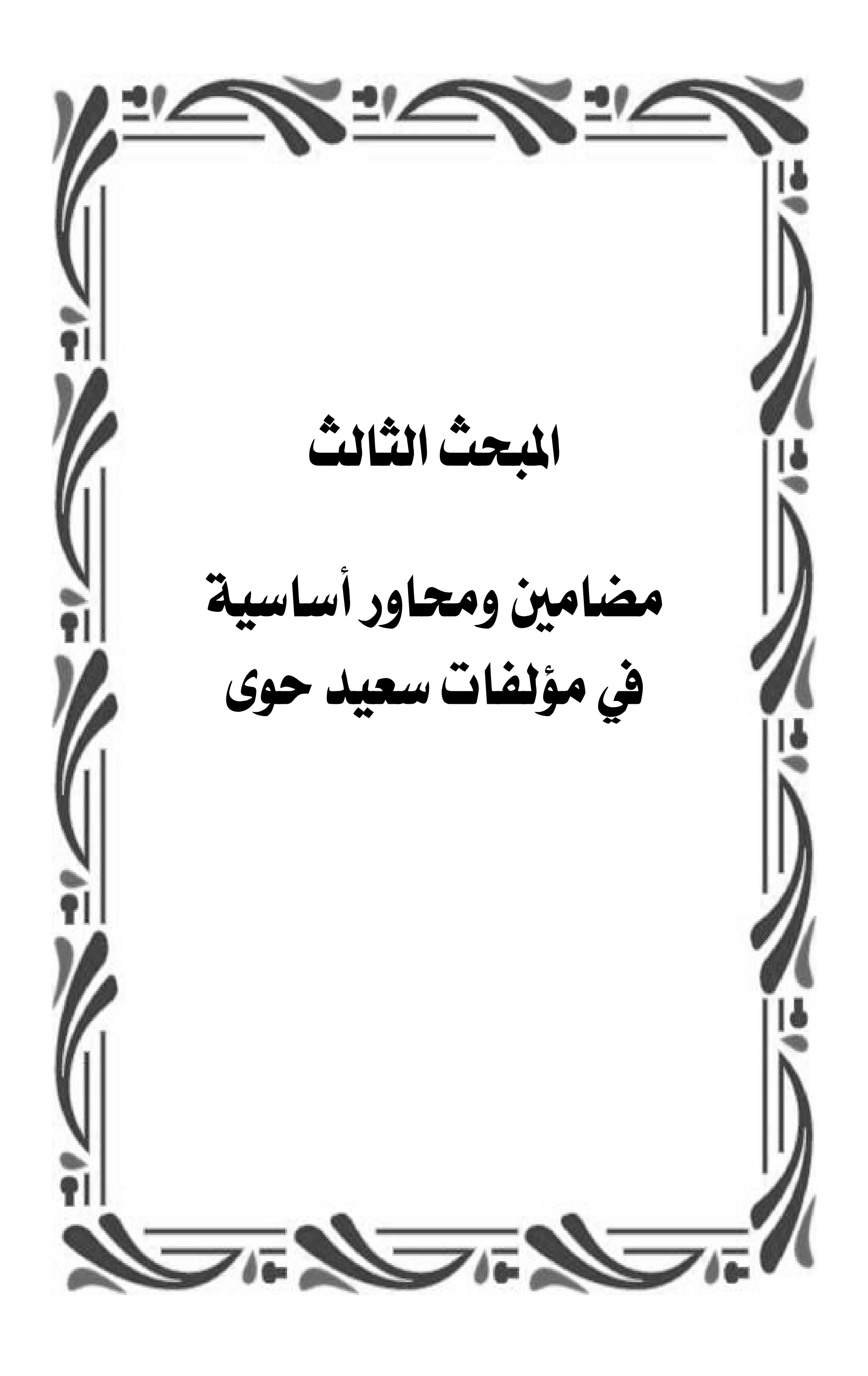
٢ ـ قضية تكوين الذات.

٣ ـ قضية تفجير الطاقات في العمل الإسلامي، ضمن نظرية واضحة المعالم[1].

(١) المدخل، ص١٠.

**وبعد**.. فهذه جملة أهداف نبيلة، وأغراض سامية، نص عليها المؤلف في مواضيع من كتبه ورسائله، وبجانبها كثير من الأهداف الثانوية، منها ما رجا أن تتحقق في ذهن القارئ ونفس الدارس من خلال مطالعته لإنتاجه العلمي، ومنها ما رسم الطريق إلى الوصول إليه، ووضح السبل، فوضع الإرشادات، وأضاء الإشارات، ونصح وحث وشجع على الأخذ بالأسباب لتحقيق تلك المرادات. فجزاه الله- تعالى- خير الجزاء على ما قدم، وأجزل له الثواب على ما رسم. والأمل معقود على المسلم الواعي، والأخ الراشد، والشاب العامل لهذا الدين الذي وضع أمامه قول الرسول ﷺ: «**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**»[1]، فإن من أهمه أمر هذه الأمة لا يمكن أن يبقى لاهيًا غافلًا متكاسلًا عن السعي في نهضتها، والقيام بحقها.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط الكبير (٧/ ٢٧٠) (٧٤٧٣).



# المبحث الثالث

# مضامين ومحاور أساسية في مؤلفات سعيد حوى

## مضامين ومحاور أساسية
## في مؤلفات سعيد حوى

وأما المضامين فهي وافرة ثرة متنوعة، جاءت مسطورة في عشرات من المجلدات الكبيرة، والكتب والرسائل المتوسطة، والتي كتبت في فترة تزيد على ثلاثة عقود من عمر الشيخ القصير في عدد سنواته، المبارك في ساعاته وأيامه، تناول فيها كل علم وفن من فنون الثقافة الإسلامية الممزوجة بعلوم معاصرة، ودراسات حديثة، بدءًا من العقائد، ومرورًا بالسيرة والسنة، والتفسير والفقه، والدعوة والحركة، والسياسة والتخطيط والتنظيم، والجهاد والتربية والسلوك، والسير إلى الله- تعالى- على بصيرة.

ولم تكن الإحاطة بها ممكنة، ولا تلخيصها ميسورًا؛ لذا فقد عمدت إلى أخذ مقتطفات منها، وجدتها معبرة عما كان يدور في خلد الشيخ- رحمه الله تعالى، وهي مما يوضح دواعي التأليف، ويخدم بيان الأهداف والوسائل، ويُبين أسلوب الشيخ وقوة حجته، ورجاحة عقله، وسعة علمه، وحسن معالجته للموضوعات، وحرصه على الإقناع بالدليل والبرهان، وقدرته على بعث النفوس إلى الاهتمام بأمر الأمة المسلمة، والسعي في نهضتها، والدعوة إلى الإعداد العلمي والعملي والروحي، إلى جانب التهذيب والتدريب، والتعاون الإيجابي في جميع المجالات التربوية والسياسية، ليكون العمل كاملًا، والنشاط متنوعًا.

فالأمة في رأيه- رحمه الله تعالى- بحاجة إلى كل جهد قويم بناء، ولابد من إثرائه بكل فكر مبدع، ورؤية إيمانية قائمة على قاعدة من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، وقاعدة من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) المائدة: ٢.

يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

**وهذه طائفة من تلك المضامين:**

**ففي كتابه «الله جل جلاله»:**

تناول موضوع إثبات الألوهية والربوبية، وكمال صفاته وأسمائه- جل وعلا- عن طريق **مناقشة ظواهر كونية وعلمية متعددة منها:**

ظاهرة حدوث الكون ـ ظاهرة الإرادة ـ ظاهرة الإجابة ـ ظاهرة الهداية ـ ظاهرة الإبداع ـ ظاهرة الحكمة ـ ظاهرة العناية ـ ظاهرة الوحدة. رابطًا في كل ذلك بين الآيات الكونية وآيات الكتاب الكريم.

ثم خلص من ذلك إلى الربط بين دلالات هذه الظواهر وبين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: من وجود ووحدانية وعلم وقدرة وسمع وبصر وإرادة و... ثم ختم ذلك بمقارنة بين سمو العقيدة الإسلامية وغيرها من العقائد والديانات والفلسفات، مأخوذة بتصرف من كتاب «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ / عباس محمود العقاد.

**والخلاصة**: إن من يقرأ هذا البحث سيرى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله- جل وعلا- وأنه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين.

**وفي كتاب « الرسول ﷺ »:**

ابتدأ بمقدمة عن التكوين الجسمي للرسول ﷺ، ثم أبان عن صفاته الأساسية- عليه الصلاة والسلام- والتزامه الكامل بتطبيق ما كان يدعو إليه، وتبليغه- عليه الصلاة والسلام- دعوة الله، وقيامه بذلك كاملًا، والنماذج **والطرق التي سلكها لإيصال دعوته للناس**، وأنه القدوة العليا في الصدق

(١) النحل: ٩٠.

والصبر والرحمة والحلم... وأنه الرجل الأول أبًا وزوجًا ومربيًا وسياسيًا وعسكريًا وقائدًا... ثم تناول في قسمٍ كاملٍ **الشخصية القيادية العسكرية المثلى للرسول ﷺ**.

**ارتباط الإسلام بالحياة العامة والحكم بصورة خاصة** :

**وفي كتاب «الإسلام»**:

تناول أركان الإيمان وأركان الإسلام، **موضحًا مضمونات وآثار** (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وأن لا إله إلا الله هي منهج حياة. ثم ألقى نظرة عامة على أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج، **واقفًا عند أسرار هذا التشريع الرباني في كل واحدة أكثر من وقوفه عند أحكام فقهية.**

**ثم استعرض**:

١ ـ المنهاجين الأخلاقي والاجتماعي في الإسلام.

٢ ـ تميز الفرد المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة أخلاقيًا وسلوكيًا.

٣ ـ الأخلاق الإسلامية وبيَّن أنها ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها.

٤ ـ مناهج الحياة العامة وفيه:

- لابد للإسلام من **حكومة تقيمه وتحميه.**
- **الأساس الذي تقوم عليه الحكومة الإسلامية.**

٥ ـ الخلافة أو الإمامة العظمى وما يتعلق بها من البيعة والواجبات والحقوق.

٦ ـ وفي الفصل الثاني تناول السياسات الاقتصادية والإعلامية والتربوية والعسكرية والجزائية، واستعرض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وواردات الدولة ونفقاتها، وما ينبغي أن يحققه التخطيط الاقتصادي للأمة الإسلامية، وأتبع ذلك نظرة عامة في الجريمة والعقاب، ومقاصد وغايات نظام العقوبات في الإسلام.

٧ ـ وفي الباب الرابع تحدث عن مؤيدات الإسلام ومنها: المؤيدات الفطرية، والمؤيدات الربانية التي منها الدنيوية ومنها الأخروية.

ويلخص المؤلف ما جاء في هذه السلسلة «سلسلة الأصول» فيقول: وأخيرًا: لقد رأيت في هذه السلسلة حديثًا عن الله والرسول ﷺ والإسلام، فرأيت كيف يتلاحم العقل والعلم في دين، وكيف يتكامل حديث عالم الشهادة مع عالم الغيب على نظام لا خلل فيه، وكيف تلتقي النهايات مع البدايات على وتيرة واحدة من الصفاء، وكيف يجتمع صلاح النفس وصلاح الحياة في نظام يتجاوب مع الفطرة ولا يتناقض معها، فقل لي بالله: دين هذا شأنه هل يمكن أن يكون إلا دين الله رب العالمين؟

**العناية بصلاح القلب والنفس:**

**كان من المضامين الهامة في رسالة «تربيتنا الروحية» تحديد رُكني الطريق في السير إلى الله تعالى، وهما: العلم والذكر**، وأما لُبّ الموضوع في هذا السير فهو الوصول إلى **القلب السليم**، فإن صلاح القلب به صلاح النفس، وصلاح الجسد هو صلاح للروح، وهذه نقطة البداية في الاستقامة. والسير إلى الله في جوهره **هو هذا السير في القلب نحو صلاحه**، ثم الاستمرار به في حالة الصلاح، والقيام بحقوق العبودية الخالصة لله- عز وجل- حتى الموت، وفيها تأكيد على:

- أن البداية الصحيحة في التربية الإسلامية بعد الإيمان الفعلي وبعد واجب الوقت **هي التركيز على القلب**، وخطورة الفشل في إصلاحه.

ـ ضرورة **الورد اليومي** والدورات الروحية.

- وصف المجاهدة وأركانها وما يمكن أن يقع فيه الأخ من أغلاط في أثناء سيره ومجاهدته.

- توضيح قضية السير إلى الله من بدايته إلى نهايته، وفيه قضية معالجة أمراض النفس البشرية كجزء من المجاهدة، وأنواع السائرين.

– بيان مكانة الآداب والأخلاق وعلاقتها بالسير إلى الله تعالى.

– طريقة حكيمة في الدعوة إلى الله تعالى.

ثم يقول في (ص٢٨٠) من هذه الرسالة:

هذه فصول متفرقة في بعض مواقع مهمة، في كل منها لفتنا النظر إلى آداب، أو أخلاق، أو أحكام سلوكية، ولم نرد إحاطة في الأمر، بل أردنا أن نلفت النظر إلى **قضية الآداب والأخلاق في التصوف بشكل أخص، وفي الإسلام بشكل أعم** ليعرف محل ذلك.

**رسالة «في آفاق التعاليم»:**

لقد وضح المؤلف في الصفحة التاسعة من كتابه هذا عند حديثه عن خطته في هذا البحث الموضوعات التي تناولها فيه فقال:

تعرضت رسالة التعاليم لقضية رئيسية في سياقها الرئيسي هي الشخصية الإسلامية المعاصرة: مقوماتها وواجباتها، فعرضت المقومات من خلال ذكرها لأركان البيعة العشرة، وذكرت الواجبات فيما بعد ذلك، ومن خلال عرضها لمقومات الشخصية الإسلامية وواجباتها في عصرنا، تعرضت للأهداف التي يجب أن تحققها هذه الشخصية، وتعرضت لمراحل الدعوة.

ونحن سنسير في هذا البحث متكلمين عن الأهداف، وهذا يقتضي كلامًا عن:

**١ـ الوسائل. ٢ ـ المراحل. ٣ ـ المقومات. ٤ ـ الواجبات.**

من خلال التعليق على كلام الأستاذ البنا في رسالة التعاليم. وسنعقد قبل ذلك أبوابًا ثلاثة سوى تلك نتحدث فيها عن:

٥ ـ حسن البنا واضع نظريات العمل الإسلامي المعاصر.

٦ ـ مفاتيح الفهم لدعوته.

٧ ـ المهمات الكبرى لهذه الدعوة.

ولكي تأخذ رسالة التعاليم محلها في الهيكل العام للسير في دعوة الإخوان المسلمين ذكرنا بابًا ثامنًا تحت عنوان: (فصول متممة)، ثم ختمنا البحث بكلمة ختام وهي الباب التاسع.

وفي الفصل المتمم تناولت ثلاث قضايا هي:

١ ـ إرشادات إلى بعض القواعد التي تناسب طبيعة دعوتنا في المناهج التعليمية والتربوية.

٢ ـ في مراحل العضوية وبعض الأساسيات فيها.

٣ ـ والفصل الثالث في بعض الموازين والتوضيحات والأساليب.

**وفي كتابه «خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك»** :

بدأ الرسالة بفصل عن البدهيات ومنها:

١ ـ أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يقبل الله غيره.

٢ ـ الإسلام هو الإجابة الوحيدة الصافية لكل تساؤلات الإنسان.

٣ ـ الدخول في الإسلام يعني الاستسلام المطلق لله تعالى.

٤ ـ العقلية التجريبية هي إحدى مظاهر التكوين الإسلامي.

٥ ـ **وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم**، وغيرها من أمور هامة سمّاها بدهيات...

وفي الفصل الثاني تحدث عن تراث الأنبياء، وعن أعداء الأنبياء وإلقاءاتهم. وفيه مناقشات علمية لبعض ما في العهد القديم وآثار التحريف فيها.

٦ ـ مع الجاهلية الحديثة.

كما ناقش أطروحات حديثة، وبيّن باطلها ومنها:

- الطرح القومي الجاهلي.
- الطرح الماركسي اليساري.

واستعرض الصراع الأبدي بين الكفر والإيمان، وأحوال أمة الله المريضة

**وأعراض وأسباب أمراضها**، ثم عرج على بيان **طريق الصحة والنصر** - بإذن الله تعالى. وفي الختام جعل الباب الخامس تحت عنوان: (دعوة الأنبياء لواء شرف لمن يحمله).

**منهجه في كتاب «الأساس في السنة» يقول:**

وقد ألزمت نفسي ألا آخذ من هذه الأصول (وهي الأصول السبعة عشر من كتب السنة التي أخذ منها) إلا حديثًا صحيحًا أو حسنًا، وقد أدخلت في الكتاب بعض ما صادفني من الحديث الصحيح أو الحسن، مما ليس في الكتب السبعة عشر، فتميز هذا الكتاب على كتب الجمع الأخرى بأنه ما حوى إلا الصحيح والحسن، وحاول أن يستقصي أصوله، مع ملاحظة أن هناك روايات في أصول هذا الكتاب لا تدخل بشكل مباشر في مقصوده، فأسقطتها.

وقد أدخلت في هذا الكتاب بعض الأحاديث المرسلة مع ما يقال في الأحاديث المرسلة، لأن لها محلها في البناء الأصولي لمن يريد التحقيق، وأدخلت روايات أناس اختلف عليهم، إذا حكم إمام لحديثهم بالصحة أو الحسن، إذا وجد ما يقوي الرواية.

ولم أكتف بتصحيح أو تحسين من اشتهر عنهم أنهم يتساهلون في التصحيح والتحسين كالترمذي وابن حبان والحاكم، إلا إذا أكَّد ذلك إمام آخر أو محقق ثبت، وكل ذلك ليطمئن القارئ والداعية أن ما يأخذه من هذا الكتاب حجة، وبه تقوم الحجة بإذن الله، ونرجو أن يكون مأجورًا في علمه وعمله إذا بناه على هذا الكتاب[1].

وكل ذلك دعاني إلى إدخال تحقيق أهل التحقيق من أهل الاختصاص في هذا الكتاب، ولكن بأقصى ما أستطيع من الاختصار حتى لا يتوسع حجم الكتاب، وعلى هذا الهدي علّقت وحشّيت وهمّشت، وأدخلت كثيرًا من

---

(١) الأساس في السنة، ص٢٦ وما قبلها باختصار.

الفوائد ليحقق الكتاب مجموع أهدافه.

وإذا كانت بعض الموضوعات تحتاج إلى الاستفادة من معطيات عصرنا، وإذا كانت بعض معطيات عصرنا تظهر من معجزات نبينا ﷺ الكثير، فقد كان هذا وهذا محل تركيز في هذا الكتاب.

**والخلاصة:**

فإن هذا الكتاب **لا يعتبر شرحًا تقليديًا للسنة، ولا يعتبر تحقيقًا تقليديًا لها، ولكنه كتاب يعطيك السنة عن أقرب طريق، ويعطيك فهمًا لها عن أيسر طريق،** الحشو فيه مستبعد، والتعقيد فيه متروك، هذا مع المحاولة بألا يفوتك شيء من الهدي النبوي- إن شاء الله تعالى[1].

ولكي أتجنب أخطاء النقل الكتابي، ولكي لا يفوتني حديث من أحاديث الكتب التي قررت أن أجمع منها هذا الكتاب، فقد جعلت كل حديث من أصول هذه الكتب في ورقة مستقلة تصويرًا، أو أخذًا مباشرًا من نسخ هذه الكتب، حتى إذا انتهى هذا الجهد، وجدتني أمام عشرات الآلاف من الأوراق، فبدأت بحذف الضعيف، وضم النظير إلى النظير على ضوء نظرية جامعة في الترتيب والتبويب، ثم كانت مرحلة ثانية... حتى استكمل هذا الكتاب شكله الذي أقدمه إليك.

ثم نلمس بعد ذلك هذا المستوى الرفيع من تواضع العلماء، والاعتراف بقدرات الإنسان المحدودة، ودنوه من الخطأ والسهو والنسيان حيث يقول: ونرجو من أي إنسان عنده علم في السنة أن يقدم لنا ملاحظاته، فنحن بفضل الله نفرح إن أهدانا أحد هدية الدلالة على خطأ[2].

**المستخلص في تزكية الأنفس:**

يقول المؤلف في تعريف هذا الكتاب: يقدم هذا الكتاب نظرية متكاملة في

(١) الأساس في السنة، (١/ ٢٩) بتصرف.
(٢) الأساس في السنة (١/ ٣١).

تزكية النفوس، تستمد الكثير من مادتها من كتاب إحياء علوم الدين، بعد تنقيح وتهذيب وإعادة ترتيب.

ولقد تضمن هذا الكتاب أمورًا مهمة، فصلها وعالجها، ومنها:

١ ـ تزكية النفس وتطهيرها من أمراض وآفات.

٢ ـ تحققها بمقامات.

٣ ـ وتخلقها بأسماء وصفات.

٤ ـ الوسائل المشروعة لتحقيق ذلك.

٥ ـ ماهية ذلك وثمراته الشرعية، ومظاهر ذلك على السلوك في التعامل مع الله- عز وجل- ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح على أمر الله.

وقد جاءت أبواب الكتاب مرتبة كما يلي:

**الباب الأول**: في آداب العالم والمتعلم.

**الباب الثاني**: في وسائل التزكية من عبادات وأعمال، وضم ثلاثة عشر فصلًا.

**الباب الثالث**: في ماهية زكاة النفس، وضم ثلاثة فصول.

**الباب الرابع**: في ضبط اللسان وآداب العلاقات.

وهكذا سيجد القارئ في هذا الكتاب أنه أمام كنوز من المعاني الراقية، وسيجد فيه من التحقيقات في باب التزكية ما يدعوه إلى قراءته مرة بعد مرة، لأن الكثير مما فيه يدخل في العلوم المفروضة فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

**وفي تجديد الدين يقول:**

«إن وراثة النبوة هي مظنة التجديد الصحيح، وإذا كانت المهمات الرئيسية للرسل- عليهم الصلاة والسلام- التذكير والتعليم والتزكية، فوارث النبوة الكامل هو من استطاع هذه الأمور على الكمال والتمام، وقام بها وأدى حق الله

فيها. ونادرًا ما تجتمع هذه الثلاثة في واحد، فقد نجد واعظًا غير عليم، وعليمًا لا يمتلك قدرة على الوعظ، وعليمًا واعظًا غير قادر على التزكية، ومن اجتمعت له هذه الثلاثة مَلَكَ إكسير الحياة، وإلا فعملية التجديد تبقى موزعة عند الراغبين فيها والقائمين عليها»[1].

**وفي الحديث عن أمراض العصر يقول:**

إن لكل عصر أمراضه. فمن أمراض عصرنا ما أشارت إليه النصوص:

١ - «**أول ما يرفع من الناس الخشوع**»[2].

٢ - «**ولكنكم غثاء كغثاء السيل... وليقذفن الله في قلوبكم الوهن... حب الدنيا وكراهية الموت**»[3].

فالعالم الذي لا ينجح في إزالة هذه الأمراض حظه من التجديد قليل. فلابد للعالم أن يمتلك ناصية القدرة على مثل هذا؛ بحيث يُحِسُّ بذلك كلُّ من تتلمذ عليه.

### أركان نجاح الحركات الدعوية الإسلامية:

ونقطة البداية في نجاح العمل هو الأدب الذي يحكم العالِـمَ والمتعلِّمَ، فما لم تربط الآدابُ المتعلمَ بأستاذه لا يستمر في السير، وما لم يقم المعلم بأدب التعليم فإن ما يغسله يكثر أو يقل على حسب بُعده أو قربه من الأدب، ومن هنا كانت معرفة أدب العالم والمتعلم من المهمات في السير إلى الله، بل لإقامة الدين والدنيا، وأنجح الحركات الدعوية في التاريخ الإسلامي هي التي تركز منذ البداية على:

١- الثقة في القيادة والقائد، ثقة تدعو إلى الطاعة القلبية.

٢- الذكر المستمر والعلم الشامل واللازم والمناسب.

---

(١) المستخلص، ص١٣.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٩٥) بإسناد حسن.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني.

٣- اللصوق بالبيئة الصالحة وحضور اجتماعاتها- ذكر، علم... وتقوية العلاقات بين أبنائها.

٤- تنمية آداب العلاقات الطيبة بينها وبين الناس.

٥- القيام بالخدمة العامة بشغف وإقبال.

فحركة يجتمع للمبتدئ فيها مثل هذه المعاني، حركة قابلة للحياة والنمو، ولذلك يجب أن يركز العلماء العاملون على هذه المعاني لينصهر فيها المبتدئ منذ البداية[1].

وفي خاتمة الكتاب يذكر المؤلف الواجبات التي لها الأولوية في التأليف في عصرنا، وهي:

١- نظريات الحركة لإحياء الإسلام وتجديده على كل مستوى، وما يستتبع ذلك من نظريات تربوية، وثقافية، وتنظيمية، وخطط عملية ومبادرات، وأن يكون ذلك مرتبطًا بالنصوص وبالعصر، وأن يكون عرضًا قويًا مقنعًا.

٢- تعميق الإيمان بالله والرسول ﷺ والإسلام؛ لأن ذلك هو البداية الصحيحة لكل شيء.

٣- استخلاص أنواع من النظريات أكثر تطورًا من النظريات والمسائل والمفردات التي أفاض فيها المتقدمون.

٤- تخليص بعض كتب التراث من الدخن الذي بداخلها، إما بتعليق أو تحقيق، أو باستخلاص واختصار، أو بتأليف في بعض الموضوعات.

٥- عرض نصوص الكتاب والسنة عرضًا يلبي احتياجات العصر فيرد على شبهاته، ويجيب على تساؤلاته.

**الدعوة إلى إعمار المساجد وكيف يكون؟**

وينتقل بعد ذلك فيقول:

ومن أجل إحياء ما بعث به الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ومن أجل

---

(١) المستخلص، ص١٥ وما قبلها بتصرف.

ربط الحاضر بالماضي، وإيجاد المسلم الذي يلبي احتياجات عصره، فإننا نطالب أهل الفضل والعلم أن يعمروا مساجد المسلمين أو بعضها بما يلي:

١ - حلقات تلاوة القرآن وتحفيظه.

٢ - حلقات دراسة الكتاب والسنة.

٣ - حلقات تزكية النفس التي تؤكد على أبحاثها، وتدفع في سلوك طريقها، وتقيم وسائل التزكية كلها حية متفاعلة.

٤ - حلقات العلوم التي يحتاج إليها فهم الكتاب والسنة، أو التي انبعثت عن الكتاب والسنة: لغة عربية ـ فقه ـ أصول فقه ـ مصطلح حديث.

ثم ينوّه بأهمية المطالعة فيقول:

الحاجة إلى أن يعرف المسلم أنظمة الإسلام ونظريات الحركة من أجله، وذلك من خلال المطالعة الموجهة داخل المسجد أو خارجه، ومن خلال المطالعة الفردية أو الجماعية.

ومنطلق ذلك كله ينبغي أن يكون المسجد إن أمكن، ونقولها كلمة ناصحة: إنه إذا ما أريد لمثل هذا الخير أن يقوم ويستقر ويستمر فيجب أن يتجنب القائمون على أمره الهجوم والتهجم، وذلك إذا أصبح واجبًا شرعيًا فليقم به من يستطيعه من المسلمين، أما إعمار المساجد فليكن هدفًا مستقلًا، والمسلم بعد ذلك حر أن يتجه حيثما اتجه فيما يظن أنه واجب شرعي.

**في فضيلة الاجتماع والتعاون:**

وفي الحض على الاجتماع والتعاون على البر والتقوى يقول:

ومن أهم ما يجب أن يركز عليه الدعاة هو الاقتناع بضرورة الاجتماع على الخير، فكثيرًا ما يفر المسلمون من الاجتماع على الخير إلى فكرة أخذ الخير دون اجتماع، فترى أحدهم يحاول أن يقرأ القرآن منفردًا، وذلك طيب، وأن يطالع ويحصل العلوم الإسلامية منفردًا، وذلك طيب، وأن يذكر الله ويصلي منفردًا،

وذلك طيب، ولكن الاجتماع على القرآن، وعلى كتاب شرعي، وعلى الذكر والمذاكرة فيه خيرات، فلابد أن يقتنع المسلم بمثل ذلك، فالنصوص في ذلك كثيرة.

**وفي كتاب «كي لا نمضي بعيدًا عن احتياجات العصر»:**

تناول في إحدى عشرة رسالة موضوعات هامة هي:

١- منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة.

٢- فلنتذكر في عصرنا ثلاثًا:

أ- فروض العين.

ب- فروض الكفاية.

جـ- لمن تدفع صدقتك.

٣- أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر الهجري.

٤- إحياء الربانية.

٥- الإجابات.

٦- السيرة بلغة الحب والشعر.

٧- عقد القرن الخامس عشر الهجري.

٨- الخمينية: شذوذ في العقائد وشذوذ في المواقف.

٩- إجازة تخصص الدعاة.

١٠- قوانين لبيت مسلم.

١١- غذاء العبودية.

**ومضامين كتاب «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين»:**

متعددة متداخلة، لأنها كتبت لأصناف شتى، واختصاصات شتى، ولكل الإخوان، ولكل المسلمين، ومن ثَمَّ فإن كل أخ يستطيع أن يأخذ منها بالقدر الذي يوائم حركته وحاله، فهي بمثابة دليل عمل وتكوين وفهم.

**الشورى ومكانتها في الدولة والدعوة**[1]:

ويبين بعد ذلك أن هذه الجماعة يحكمها في سيرها شيئان هما:

حكم الله، ثم الشورى. ثم ينوّه بشأن الشورى ومكانتها في الجماعة، وأهميتها في صحة السير والتسديد والتقويم، فيقول: عن الشورى تنبثق القاعدة، وبالشورى تتطور القاعدة، وأي محاولة لتطوير الجماعة عن غير هذه الطريق لا يؤدي إلا إلى التمزق، إلا إذا خُرقت القواعد فعندئذ تحتاج المسألة إلى تقويم وتصحيح، أو مفارقة حتى يتم التصحيح.

**لماذا جماعة الإخوان المسلمين ؟**

كما تحدث في هذه الرسالة عن مجموع مواصفات الإخوان المسلمين، وفي الإطار الذي وضعها فيه الأستاذ البنا- رحمه الله تعالى- وعن اسم الإخوان المسلمين ولماذا نصرُّ عليه وعلى الجماعة بالذات، وتحدث عن نظريات الإخوان في التكوين والعمل اليومي، وعن نظرية الإخوان في ضرورة النظام والتنظيم، والشروط التي يحتاجها التنظيم الإسلامي، وعن ضرورة الانتماء للإخوان المسلمين، وماذا يعني هذا الانتماء، وفيها باب للتعريف بشخصية المؤسس، وباب للتعريف بالجماعة من خلال كلام المؤسس، بما يتناول: ملامحها، وسماتها، وخصائصها، وأهدافها، ووسائلها ومراحل سيرها[2].

وقد جعل الباب الأول تحت عنوان: متى تعتبر جماعة (ما) هي جماعة المسلمين... بحيث يكون الالتزام بها واجبًا، ومحل الإخوان في ذلك.

والباب الثاني تحت عنوان: الاسم والجماعة.

والأبواب الثالث والرابع والخامس تحت عنوان:

- فقه التكوين والعمل في دعوة الإخوان المسلمين.
- الواجبان الدائمان، التكميل والاستكمال.

---

(١) المدخل، ص١١.

(٢) المدخل، ص١٥ بتصرف.

- أضواء على النظام والتنظيم.

- والباب السادس جعله للتعريف بالمؤسس.

- والباب السابع: فيه مختارات من كلام المؤسس.

- والباب الثامن: ردود على اتهامات، ومنها:

الديكتاتورية ـ الانبثاق عن البورجوازية ـ الإرهاب ـ خيانة القضية الوطنية ـ التعامل مع جهات أجنبية ـ تأييد الحكومات المنحرفة ـ التعاقدات الخاطئة ـ العقم الفكري ـ استغلال الدين ـ إثارة الطائفية...إلخ[١].

- وفي الباب التاسع: تناول مفهوم الانتماء.

- والباب العاشر جعله تحت عنوان توجيهات عملية، وبين فيه أن العمل الإسلامي في إطاره الجماعي يرتكز على: الإخلاص- النظام والطاعة- الصدق والوضوح- ضبط الموعد- الكتمان[٢].

**وفي كتاب « هذه تجربتي وهذه شهادتي » تناول:**

١ـ دروسًا من قضايا سياسية مرَّ بها في حياته منها: الاستقلال ـ أول دستور لسوريا بعد الاستقلال ـ حرب فلسطين ـ الانقلابات العسكرية.

٢- في الأشياخ والعلماء.

٣ ـ مع دعوة الإخوان المسلمين.

٤ ـ التجربة التجديدية الكبرى للشيخ عبد الكريم الرفاعي- رحمه الله تعالى.

٥ ـ انقلاب الثامن من مارس ونتائجه وآثاره على الشعب والوطن والدعوة والحركة.

٦ـ الصراع بين العلمانية والإسلامية على سوريا.

---

(١) المدخل، ص٦٧.

(٢) المدخل، ص٣٠.

٧ـ طريقته في العمل الدعوي.

٨ ـ الثورة المسلحة في سوريا وأثر المواجهة في تغيير المفاهيم.

٩ ـ حركة إحياء الربانية.

إن من ثمار الانقلاب العسكري الأمريكي في سوريا بقيادة حسني الزعيم، والذي أعلنت المخابرات الأمريكية في أكثر من كتاب أنها وراءه هو:

ـ تسليم مستعمرة (مشمار هايرون) لليهود.

ـ توقيع اتفاق مد خط أنابيب التابلاين كما أرادته الشركة الأمريكية.

ـ إلغاء مجلة الأحكام العدلية التي كانت القانون المدني الإسلامي لسوريا.

**وفي كتاب «جند الله ثقافة وأخلاقًا»:**

بيَّن أوصاف وسمات هؤلاء الجند، فقال إنهم:

١ـ يحبهم الله ويحبونه.

٢ ـ أذلة على المؤمنين.

٣ ـ أعزة على الكافرين.

٤ ـ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

ثم استعرض تحت هذه الصفات الخمس:

– معنى الولاء وبين حدوده.

– ذكر الطرق التي ذكرت في الكتاب والسنة بما يؤدي إلى محبة الله.

– وبين مضمونات الذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين.

– ذكر أنواع الجهاد في الإسلام وكيف يقوم كل نوع؟

– ورأى في رسائل أخرى أن على أبناء الصحوة الإسلامية أن يطمئنوا الأقليات غير المسلمة، وأصحاب الآراء السياسية، والأنظمة الحاكمة، ويزيلوا من الأذهان الصورة المزيفة للمسلم المدمر للحضارة؛ لأن الصحوة الإسلامية ستحاول أن تحتفظ بكل أسباب التقدم المدني.

وقال: على أبناء الصحوة الإسلامية أن يرتقوا بالسقف الثقافي والأخلاقي والتربوي، والتخصص الدعوي والحياتي[1].

**علاقتنا مع غير المسلمين :**

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن علاقة الحركة الإسلامية في سوريا مع غير المسلمين كانت دائمًا علاقة حسنة، ففي قائمة الإخوان لانتخابات المجلس النيابي في فترة الانفصال في حماة كان فيها مرشح مسيحي هو القانوني الشهير الأستاذ أديب نصور، وعلاقة الدكتور مصطفى السباعي بالأستاذ فارس الخوري كانت قوية، وتعاونهما في العمل السياسي مشهور ومعروف.

ومما يذكر هنا كذلك أن لجوء الشيخ سعيد حوى في أثناء أحداث حماة عام ١٩٦٤م وهو ما يعرف بأحداث جامع السلطان- إلى العراق كان في سيارة خاصة لأسرة مسيحية من أهالي مدينة حماة. وقد ذكرت هذا تعقيبًا على الفقرة السابقة لكي لا يظن ظان أو يتصور سيئ نية أن ما جاء فيها هو من باب الدجل السياسي الذي قد يمارسه آخرون.

(١) من مقال للمستشار عبد الله العقيل بعنوان: الداعية المجاهد سعيد حوى.

## رؤى ومقترحات في مجالات متعددة

**في السياسة ـ الدولة:**

يقول في كتاب «الإسلام» ص ٣٨٤ :

إن على المسلمين عامة، وعلى مسلمي كل قطر خاصة، أن **يجعلوا قطرهم دار عدل**، وأن على هذه الأقطار **أن تتحد لتشكل وطنًا واحدًا**، يقسم إداريًا بشكل معقول يرضي المسلمين، **ويكون لكل ولاية دستورها ونظامها الداخلي.** على أن تكون تفصيلات ذلك كله **مستمدة من الكتاب والسنة**، والسوابق الدستورية للخلافة الراشدة، **ومصلحة المسلمين**. وعلينا أن نتذكر بعد هذا **أن العمل لهذا فريضة:**

– فأن يكون في كل قطر إسلامي حكومة فريضة، والصيغ الدستورية والأشكال التي يمكن أن تكون عليها هذه الحكومات قد تختلف من قطر إلى قطر.

– وأن تتحد هذه الأقطار لتشكل دار العدل فريضة، وصور هذا الاتحاد تتحكم فيها القوة والضعف والممكن والمتاح.

– وأن تسعى دار العدل لإنهاء الأوضاع الشاذة من دار الإسلام فريضة بالوسائل الممكنة والمتاحة.

– وأن تسعى دار الإسلام لتعميم الإسلام في العالم فريضة بحسب الإمكان والسعة.

والعمل من أجل هذا كله فريضة واجبة على كل مسلم بالوسائل المتيسرة.

**أجهزة الدولة الإسلامية:**

رأينا فيما مضى ملامح الحياة العامة الإسلامية، ولا شك أنها تختلف اختلافًا جوهريًا في مضموناتها عن أي حياة عامة أخرى، وينتج عن ذلك أن الأجهزة التنفيذية التي تحتاجها هذه الحياة تختلف عن غيرها، إن لم يكن في الشكل ففي

المضمون، وإن لم يكن في الشكل والمضمون كبعض القضايا الإدارية ففي الأهداف، ومما ينبغي أن نفكر فيه للدولة الإسلامية العالمية المقبلة:

١ - الطريقة التي يوجد بها حكام الأقطار وتنبثق عنها الخلافة.

٢- جهاز وزاري تابع لنائب أمير المؤمنين في كل قطر وكيفية وجوده.

٣- خليفة يحكم الأقطار الإسلامية عامة.

٤- مجلس شورى الخلافة الممثل لكل أقطار الأمة الإسلامية، والذي من حقه محاسبة الخليفة على تقصيره في تحقيق الأهداف الإسلامية.

٥- مجلس وزراء تابع للخليفة وكيفية وجوده.

٦- الأجهزة التي تربط الولايات بالدولة المركزية.

٧- الدستور العام الذي ينظم شأن الولايات وطريقة ارتباطها، واختصاصات السلطة المركزية للخلافة واختصاصات السلطة التنفيذية في كل قطر.

٨- الجيش المؤتَمِر بأمر أمير المؤمنين والمعبأ أعظم تعبئة والمعد أعظم إعداد.

٩- الجهاز المسؤول عن نشر الدعوة الإسلامية عالميًا، والمستقطب لكل المسلمين في العالم.

١٠- الدستور المحلي لكل قطر إسلامي بالشكل الذي لا يتعارض مع الدستور العام، ويسمح للفروق المذهبية أو الطبيعية أن تظهر فيه بشكل مناسب مع طبيعة القطر.

١١- المحكمة العليا لجميع الولايات الإسلامية بحيث تكون مرجعًا قضائيًا.

**مرتكزات الدولة**:

الأمة ـ الخلافة ـ الوطن.

**السياسة التعليمية والإعلامية**:

جوانب لابد من مراعاتها:

١ - السياسة التعليمية المناسبة للحضارة الإسلامية.

٢- بناء الشخصية الإسلامية وتفجير طاقاتها السياسية والتعليمية.

٣- العلم والتكليف في الإسلام والسياسة التعليمية المناسبة.

٤- الإنسان ذكر وأنثى، والسياسة التعليمية المنمية لرجولة الرجل وأنوثة الأنثى.

٥- التكامل في بناء الشخصية، والسياسة التعليمية المناسبة لأجل إخراج الإنسان من كل تناقض.

وعلى الإعلام وأجهزته أن يساعد النظام التعليمي في تحقيق الغايات المذكورة سابقًا.

**في السياسة الاقتصادية:**

يحدد بعض الأهداف التي ينبغي أن يحققها التخطيط الاقتصادي للأمة:

١- أن يكون اقتصادًا اكتفائيًا.

٢- أن يؤمن لكل إنسان في الأرض الإسلامية حاجته الأساسية.

٣- أن تعمر الأرض، وأن تستخرج طاقاتها إعمارًا واستخراجًا كاملين.

٤- تأمين الحاجات الأساسية للأمة – المواصلات... وغيرها.

٥- تسخير الطاقات كلها لإنشاء القوة العسكرية المستقلة والمتفوقة.

٦- أن يكون اقتصادًا عادلا قائما على قاعدة «لا ضرر ولا ضرار».

**في الشورى:**

في معرض حديثه عن الديمقراطية بمفهومها الغربي وما فيها من مخالفات للشريعة الإسلامية يقول:

أما الصيغة الصحيحة التي تُجنبنا هذا الشرك في المجتمع الإسلامي فهي أن يكون لنا مجلس شورى، ولا حرج أن يكون منتخبًا، على أن يكون كل فرد من أفراد المجلس والمجلس- ككل- ملتزمين بأحكام الله، ما سمح الله لهم فيه أن يجتهدوا اجتهدوا، وما ورد فيه نص لم يكن لهم فيه إلا التسليم إن كان النص قطعيًا، أو الترجيح إن كان ظنيًا، أي أن الكتاب والسنة يمثلان الدستور في البلاد الدستورية البرلمانية، بحيث لا يستطيع المجلس النيابي أن يسن من

القوانين ما يخالف الدستور، فيكون عمله في هذه الصورة: إما مفسرًا للدستور أو سانًّا ما لا يخالفه، وله جولات أخرى في الشورى داخل الجماعة، وفي العمل الحركي والتنظيمي.

**من منهجه في الدعوة والحركة:**

١- الفصل بين العمل السياسي والعمل التربوي والعلمي.

٢- لابد من العمل الدعوي الحركي الإسلامي المنظم.

٣- التركيز على إظهار الوجه الحضاري للإسلام وبيان أن ذلك هو هدف الصحوة الإسلامية، وأنها بخلاف ما يثيره أعداء هذا الدين.

٤- التواصل مع الأنظمة الحاكمة وولاة الأمور، وتقديم أسلوب المناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم المبادرة إلى التصادم والعنف.

٥- حسن التعامل مع أصحاب الآراء والتوجهات السياسية المختلفة، والتعاون معهم فيما يخدم الأمة، ويرفع شأن الأوطان.

٦- الحرص على طمأنة الأقليات الإسلامية في الوطن الإسلامي والمحافظة على حقوقهم وعهودهم، وكسبهم إلى جانب الأمة.

٧- «قاعدة البناء السليم» من أجل بناء شخصية إسلامية بناء سليمًا، وبناء جماعة إسلامية متينة بناء سليمًا. وبهذا يمكن إعادة الثقة للمسلمين فيما بينهم، وإلى إعادة ثقة المسلمين بإسلامهم وإلى إعادة ثقة البشرية بهم.

٨- ضرورة الوصول بالدعوة إلى قطاعات الأمة كلها.

٩- الحاجة إلى نظرية مبصرة في التنظيم والتخطيط والتنفيذ، وكذلك الحاجة إلى عقلية محترفة تحترف العمل الإسلامي.

١٠- الحاجة إلى منهجية فقهية مرنة تمتلك القدرة على التنفيذ العبقري.

١١- الدعوة إلى التصرف الحيوي بالزكاة، والمعالجات الواقعية في مختلف الأزمات والأوقات.

١٢- ضرورة الاجتماع على الخير بشتى طرقه وأنواعه، والتعاون مع

الجماعات والجمعيات والمشايخ والعلماء بمختلف توجهاتهم، والاستفادة منهم والتنسيق معهم.

**من منهجه في التربية والتعليم:**

شعاره- رحمه الله تعالى- في هذا الميدان:

(ليكن إعمار المساجد هدفًا مستقلًا) :

١- التوسع في عقد حلقات تلاوة وحفظ القرآن الكريم.

٢- التركيز على عقد الحلقات والدروس العلمية العامة والخاصة.

٣- الاهتمام الكبير بالجانب الروحي وعقد جلسات الذكر.

٤- العناية بالأوراد والأذكار والمداومة عليها.

٥- لابد من المرشد (النائب عن الرسول ﷺ) أن يسدد ويوجه ويعالج.

٦- المطالعة ثم المطالعة ثم المطالعة، فبدونها لا يستكمل الدعاة أسباب النجاح.

**مقومات الشخصية الإسلامية المعاصرة لجيل الصحوة:**

١- البناء العقدي الصحيح.

٢- البناء الفكري العميق والعلمي والثقافي الواسع.

٣- البناء السلوكي والأخلاقي والروحي المتميز.

٤- البذل والعطاء والجهاد.

* * *

**وختامًا**.. فما قرأت في كتاب من كتب الشيخ سعيد حوى- رحمه الله تعالى- في قديم أو جديد، ولا في رسالة من رسائله سابقًا أو لاحقًا، إلا وأحسست أنه يعيش مع حديثي رسول الله ﷺ:

**الأول**: الذي رواه مسلم في صحيحه: عن ابن عمر ﷺ قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا

يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «**أن تلد الأمة رَبَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**». قال: ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: «**يا عمر، أتدري من السائل؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم**»[1].

**والثاني**: الذي رواه الترمذي: عن معاذ ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة ويُباعدني عن النار، قال: «**لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**» ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل**» قال: ثم تلا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ ﴾[2] ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه؟**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم (٩).
(٢) السجدة: ١٦، ١٧.

بلسانه قال: «**كُفّ عليك هذا**»، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[1].

فهو إما في بحث عن الإيمان، أو عرض لركن من أركان الإسلام، أو حديث عن التزكية والإحسان، أو في أمر من أمور الآخرة، أو شأن من شؤون الساعة وأحوال وأهوال القيامة، وربما في عرض قضية من قضايا الجهاد، أو استعراض شأن من شؤون الدعوة والحركة، أو خدمة الأمة، ولن تعجز أبدًا عن أن تربط موضوعًا طرقه بنص من هذين الحديثين الشريفين، أو طرف من أطرافهما ومدلولاتهما. عدا ما جاء في سلسلة «الأساس في التفسير» و«الأساس في السنة»، فإنهما المصدران الرئيسيان، والركنان التامان الكاملان اللذان عليهما مدار الإسلام، وقيام الشريعة بأصولها وفروعها، وهما عماد الأمر الذي تكفل الله بحفظه، فالأول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الكريم، والآخر سخر الله له من الجهابذة الأعلام من ينفي عنه ويذود دونه فلا يبقى فيه لدخيل مكان.

وبعد.. فجزى الله تعالى الشيخ- رحمه الله تعالى- خير الجزاء، وأجزل له المثوبة، ورفع له في الآخرة المنزلة، على ما أعطى وقدم وبذل واجتهد، وأن يجعل له من اسمه نصيبا؛ فإنه سعيد، وإنا لنرجو أن يكون عند ربه سعيدًا. وأن يهيئ لهذا العطاء العلمي الوافر من طلبة العلم ورجال الدعوة من ينشر ما فيه من الرشاد والنجاح والفلاح، وينفي عنه ما سوى ذلك، فعقيدتنا تقول: لا تكون العصمة إلا لنبي.

**وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.**

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤١)، كتاب الإيمان، وقال: هذا حديث حسن صحيح.



# الملاحق

١ – منهج الشيط سعيد حوى في التزكية

٢ – تعريف بكتاب «الأساس في التفسير»

٣ – تعريف موجز بمؤلفات سعيد حوى

٤ – المنهج العلمي والتأليفي عند الشيط

## ملحق رقم (١)
## منهج الشيط سعيد حوى في التزكية

كتبه: د/ محمد سعيد حوى، و د/ معاذ سعيد حوى

**لقد كان من أهم ملامح أسلوبه التربوي لمن حوله:**

**أولًا:** كان الشيخ- رحمه الله- هيّنًا ليّنًا أليفًا ودودًا أريحيًا كريمًا، بعيدًا عن التكلف، قريبًا من القلوب، يألف ويؤلف، لطيفًا بمن حوله من أهله وأبنائه وتلامذته وإخوانه، وإذا وجد مخالفة للشرع وآدابه فإنه يتعامل مع مثل ذلك بحزم وصرامة. وكان- رحمه الله- صبورًا على إخوانه، فربما أثقلوا عليه وكان متعبًا، لكنه لم يكن يُشْعر جليسه أو تلميذه بشيء ويصبر ويتحمل، بل يشعر الضيف بالأنس، ولا يدع خيرًا ولا فائدة يستطيع أن يبذلها له إلا فعل.

**ثانيا:** لم يكن يتساهل أو يغض الطرف عن الصغائر، لأن التساهل في الصغائر يؤدي إلى كثير من الكبائر، فينبّه دائمًا إلى النظرة المحرّمة مثلًا، وينبه إلى أهمية العبادة والتهجد، وإلى أهمية إكرام الضيف، وإلى أهمية طيب الكلام بين الإخوان والأولاد في التعامل فيما بينهم.. ينبه إلى أهمية دقة الكلام وصدق الوعد، ونحو ذلك.

**ثالثا:** كان يهتم بالتربية على بعض الأخلاق الخاصة مثل الشجاعة وحسن القيام بالمسؤولية، والصبر والحلم والكرم والشجاعة، كما كان يهتم بأداء الواجبات المختلفة، وألا يكون أمر على حساب أمر، فيتابع مثلًا أمر الصلاة عند أولاده، كما يتابع أمر الدراسة، وأمر الأدب والخلق واختيار الصحبة.

**رابعًا:** كان الشيخ يربي على الجمع بين الاهتمام بالعبادة والحرص على التزكية والتحقق بالحال القلبي الأرقى، والحرص على العلم الشرعي النافع والتوسع في طلبه، وطلب الهمة العالية لتحصيله، والحرص على الدعوة، وغير

ذلك، كما كان يربي على التضحية لله، وفهم قضية الجهاد والدعوة، كما كان يؤكد على أهمية حفظ كتاب الله لطالب العلم، وحفظ ما استطاع من السنة، وضبط اللغة، فذلك من عدة العالم والداعية، التي لا يستغني عنها بحالٍ أبدًا.

**خامسًا**: كان يهتم بإبداء الملاحظات اليومية لأبنائه، فيما يحتاج إلى تصحيح وتقويم، ومنهجه في ذلك الصبر وطول النفَس والحلم الواسع، فيشير إلى الخطأ إشارة ويكرر الملاحظة مرة بعد مرة، ولا يلجأ إلى الشدة إلا بعد أن يتم التجاوز في الخطأ بعد التنبيه إليه مرارًا.

ومع ذلك فإذا أوقع عقوبة فيها شدة؛ فلا بد بعد ذلك من المصالحة والمحاسنة وإعادة البسمة وتصفية الصدر.

**سادسًا**: كان الشيخ يقدّر محدثيه وزائريه، ويهتم اهتمامًا خاصًا بعنصر الشباب وحوارهم، للإفادة من نظراتهم وثاقب فكرهم، ولتعليمهم استعمال الفكر ودقة النظر.

**سابعًا**: كان الشيخ يعوِّد إخوانه على تنظيم الأوقات، ويربي إخوانه وأولاده على ذلك، مبينًا لنا أن بركة الوقت في تنظيمه.

**وكانت أهم الوسائل العملية للتزكية التي ينصح بها الشيخ ويوصي بها كثيرًا:**

- طلب العلم الشرعي ولو بالحد الأدنى الذي يجب أن يعرفه كل مسلم.
- صحبة أهل الاستقامة، لاسيما العلماء الـمُرَبِّين الربانيين الصادقين، وصحبة العاملين للإسلام والانتساب إليهم.
- التحلي بالصبر والمجاهدة لشهوات النفس، ومخالفتها فيما تخالف به الشرع الشريف.
- الإكثار من قراءة القرآن مع التدبر لمعانيه، على ألا يقل عن قراءة ثلاثة أرباع الجزء في اليوم.

- ذكر الله مع الحضور، وأقله ورد في الصباح: مائة استغفار، ومائة صلاة على النبي ﷺ، ومائة تهليل: لا إله إلا الله.
- قيام الليل مع الخشوع.
- الصيام.
- الانتباه إلى مراقبة الله، وأنه يسمعنا ويرانا حيثما كنا.
- الحرص على أخلاق الإسلام الراقية وآدابه الرفيعة.
- السعي إلى التخلص من أمراض القلوب، كالرياء والكِبْر والغرور.
- خدمة المسلمين وعونهم والتواضع لهم.

ومما كان يوصي به طلاب العلم: عدم التوسع في العلاقات الاجتماعية خلال فترة طلب العلم، لأن هذه العلاقات غالبًا ما تكون على حساب طلب العلم، كما أنها تكون على حساب تزكية النفس وتهذيبها، وعلى حساب الاجتهاد في العبادة والذكر وقراءة القرآن وحفظه.

## ملحق رقم (٢)

## تعريف بكتاب «الأساس في التفسير»

كتبه ولده الدكتور : محمد سعيد حوى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين:

يعد كتاب «الأساس في التفسير» أضخم عمل علمي قدمه الشيخ للمكتبة الإسلامية المعاصرة، ولقد كان هذا الكتاب محل اهتمام الباحثين والدارسين، فكان موضوعًا لعدد من رسائل الدراسات العليا منها:

١ ـ نظرية الوحدة القرآنية في تفسير سعيد حوى، للباحثة جميلة موجاري، قدمت لنيل درجة الماجستير في جامعة الأمير عبد القادر في الجزائر، عام ٢٠٠١م.

٢ ـ سعيد حوى ومنهجه للتفسير، للباحث سعدي زيدان، قدمت لنيل درجة الماجستير في جامعة بغداد، ١٩٩٧م.

٣ ـ كما أن الدكتور محمد الدراجي، الأستاذ في جامعة الجزائر، كان موضوع أطروحته للدكتوراه هذا الكتاب.

كما قدمت عدة رسائل حول التفسير ومنهج الشيخ سعيد حوى فيه، في الجامعة الأردنية وفي مصر واليمن وماليزيا وغيرها.

ولعل المقالة التي نشرت في جريدة المدينة المنورة في ١١ شعبان ١٤٠٧هـ عدد ٧٢٩ للأستاذ عبد الله الشيخ ويس، تعطي صورة صادقة موجزة عن هذا التفسير فأثبتها هنا:

«الأساس في التفسير».. كتاب يحتاجه الربانيون ..

أنا قارئ مسلم عثرت على كتاب اسمه «الأساس في التفسير» للأستاذ

سعيد حوى، قرأت فيه، فلم أتمالك إلا أن أكتب هـذا المقـال: إذا جـاز لنـا أن نعتبر كتاب «في ظلال القرآن» كتاب القـرن الرابـع عـشر الهجـري في المكتبـة القرآنية، فإني بعد أن اطلعت عـلى كتـاب «الأسـاس في التفـسير» أخـذت بـه وأدهشت، فقلت بحق: إنه كتـاب القـرن الخـامس عـشر الهجـري في المكتبـة القرآنية ـ ذلك القرن الذي يأمـل فيـه المؤلـف أن يكـون قـرن إعـادة الخلافـة الإسلامية، وهذا التفسير اللبنة الأولى في طريق الخلافة، ولا عجب فإن مؤلف هذا التفسير الأستاذ سعيد حوى صاحب الكتب المميزة المتسمة بطرح القضايا الكلية والنظرات المتينة المتكاملة لتكون قاعدة الانطـلاق والبنـاء، ألـف هـذا التفسير وهو سجين، فكان سجنه خطوة على طريق القدوة، وكان مـن ثمراتـه كتاب «الأساس في التفسير» كما كانت مؤلفاته لبنات ترصع البنـاء الإسـلامي وتسد ثغرات فيه.

أقـول هـذا قبـل الخـوض في ذكـر دوافـع تـأليف هـذا الكتـاب ومميزاتـه وخصائصه وثمراته المرجوة. إن هذا الكتـاب جـزء مـن سلـسلة الأسـاس في المنهج التي تتألف من أقسام ثلاثة:

- الأساس في التفسير.
- الأساس في السنة.
- الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص.

فالحديث عن دوافعه يندرج ضمن الحديث عـن دوافـع تـأليف السلـسلة جميعها التي بينها المؤلف- رحمه الله- وهي:

١- إنه في عصر امتحان لكل شيء، والسيطرة المادية على العـالم، وتـصدير الأفكار المختلفة وصياغتها بالقالب الذي يريده الماديون، مـع وجـود طاقـات هائلة مسخرة لهذا، وعمل دؤوب مخطط من قبل القوى المادية في العالم لتغيـير كل المـسلمات القديمـة. أمـام هـذا لا بـد مـن اسـتعراض شـامل للنـصوص

الإسلامية التي هي بالدليل والبرهان تشكل مسلمات صحيحة في هذا العالم.

٢- وفي هذا العصر طرحت كثير من الأمور نفسها بشكل حاد، فأصبح لا بد من إجابة شافية، واختلط الأمر واختلطت الإجابات، فكان لا بد من عملية تمييز كاملة متكاملة للإجابة الصحيحة، ولا بد أن نفهم النصوص في إطارها الصحيح، وأن كل تساؤل لا يحتمل في عصرنا تأخير الإجابة عليه، والإجابة الصحيحة الشاملة لا تتم إلا من خلال عرض شامل للنصوص.

٣- ومن واقع عصرنا: فإن ما يخدم قضية الحق أُبعد لصالح الهوى، وما يخدم قضية اليقين أبعد لصالح الظنون، تحت غطاء العلمية والموضوعية. وعندما يصل البعض إلى حقائق تخدم قضية الإيمان تجده يرفضها ليتوصل إلى تخريب أو ضلال في العقل والوجدان والسلوك. فآن الأوان للمسلم أن يقول كلمته الحاسمة، وبداية ذلك العرض الشامل لنصوص الإسلام وإقامة الحجة على أنها الحق الخالص.

٤- القرآن حجة الله على خلقه وحجة أن محمدًا عبده ورسوله، فلا بد من إبراز كمال الحجية فيه- وما أكثر الحجج. ولا بد من الإجابة على شبهات الخلق في شأنه. ومن أعجب هذه الشبه ما تنشره بعض دوائر الكفر حول الوحدة القرآنية والصلة بين سور القرآن بعضها ببعض وكذا آيات القرآن، فكان هذا الكتاب إبرازًا لمظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن من خلال هذه القضية.

٥- إن هذه السلسلة محاولة للفهم الصحيح لكلمة الله ورسوله ﷺ، في عصر أصبحت فيه كثير من النصوص تفهم فهمًا خاطئًا، ويبنى على هذا الفهم الخاطئ أحكام خاطئة؛ فقد وُجدت عقليات حرفية لا تراعي طرائق العرب في الخطاب والفهم، وعقليات تأويلية تنطق بالتأويل دون ضوابط، وعقليات تفهم الأصل على ضوء الفرع أو تنسى الأصل وتستيقظ على الفرع، وكل ذلك

لا يسع المسلم.

هذه النقاط الخمس تشكل الدوافع الأقوى لإصدار هذه السلسلة التي منها التفسير كما ذكر المؤلف في المقدمة.

فما هي خصائص ومميزات هذا التفسير؟ نذكرها بإيجاز فنقول:

١- إنه قدم لأول مرة نظرية جديدة متكاملة في موضوع الوحدة القرآنية، تبين هذه النظرية قضية الربط والمناسبة بين الآيات في السورة الواحدة وبين سور القرآن بعضها مع بعض، على ضوء نظرية شاملة مستوعبة لآيات القرآن وسوره. وهذه التغطية تروى ظمأ الباحثين عن دقائق أسرار هذا القرآن، كما أنها تضع لبنة في صرح الحديث على إعجاز القرآن ومعجزاته، وتجيب على تساؤلات كثيرة، من جملتها موضوع فواتح السور، إلى ما هنالك من قضايا وأسرار تترتب على هذه النظرية، عددها المؤلف.

٢- ومن ميزاته الاستفادة من أوثق ما توفر من المراجع من كتب دينية قديمة، والنقل عنها مباشرة، والعزو إليها، مع نقد ما ينبغي نقده، مع تبيان نقاط الضعف فيها، والاستفادة من علوم عصرنا وتخصصاته وما أنتجه ذلك من قضايا تبرز معجزات في القرآن تتأكد بها الحجة القائمة على الخلق.

٣- من ميزاته ألا حشو فيه، وليس فيه إلا ما له علاقة بصُلب التفسير، مع استبعاد كل قضية لا تعتبر عملية علمية.

٤- حاول التبسيط والتقريب، مع الاحتفاظ إلى حد كبير بعبارات المفسرين- أو بدفة طرائقهم- في الأداء، وهذا أمر لا يدرك صعوبته إلا من عاناه؛ فإن كثيرًا من العبارات لم تستقر على ما هي عليه إلا بعد عمليات تنقيح أجريت عليها خلال العصور.

٥- حاول ربط المسلم بقرآنه وتبصيره بواقعه، وإذا كان للمسلم الحق في عصرنا معارك متعددة لا بد أن يخوضها على أساس القرآن، فلا يحسن بكتاب

معاصر في التفسير أن يغمض مؤلفه عينيه عن هذه المعارك. وهذا يقتضي تربية مكافئة لهذه الأمور كلها على ضوء القرآن. ومن ثم فقد راعى المؤلف هذه الناحية بشكل بارز.

٦- محاولة بيان من هم أهل السنة والجماعة، وما هي مدارسهم الاعتقادية والفقهية والروحية والسلوكية والأصولية، ومن يقرب من ذلك ومن يبعد.

٧- حاول أن يبين أن القرآن أعطى الجواب على كل شيء؛ إما بشكل مباشر، أو بما أحال عليه من السنة، أو بما أحال القرآن والسنة على طرائق ووسائل يعرف بها حكم الله.

٨- إنه كتاب علم ودعوة وتربية وجهاد في آنٍ واحد.

٩- إن من مزايا هذا التفسير أنه عمل على أن يكون أداة لرفع درجات اليقين والارتقاء به، مع تصحيح التصورات، وزيادة العلم، وخدمة قضية زيادة الإيمان، وإصلاح الاعتقاد والعمل.

١٠- من مزايا هذا التفسير أنه من أهم كتب التفسير، وقد نقل من الظلال ما يعتبر زبدته وأرقى ما فيه، وانتقى أزاهيره، مع الابتعاد عما يمكن أن يكون فيه ملحظ لعالم راسخ، وبالتالي فإن قارئ هذا التفسير يكون قد أخذ من الظلال أرقى ما فيه.

والمؤلف- كما يقول عن نفسه- لا يكلف نفسه عناء صياغة شيء يحتاجه الكتاب إذا كان غيره قد صاغه الصياغة التي يرضاها أو التي تقتصر عنها عبارته أصلًا؛ حيث إن الهدف وجه الله ليس إلا.

**ومن ملاحظاتي على هذا الكتاب**: أن القارئ فيه لا يملّ، بل يجد نفسه مسترسلًا مأسورًا مأخوذًا، لا يريد تركه، وكأن روح الإخلاص فيه تشد القارئ إليه، والتأثير في القارئ نتيجة ذلك أمر بديهي، وهذا التأثير له جوانب متعددة: قلبية وسلوكية وفكرية وعلمية.

ويولد هذا التفسير روح العمل للإسلام والإخلاص في ذلك ومعرفة ما يجب على المسلم وكيف يسلك الطريق الصحيح للوصول إلى الهدف الصحيح.

ومن آثاره المرجوة بناء الشخصية الإسلامية العلمية الجهادية الربانية، كما أنه يولد عند القارئ روح الدقة في التعبير والحساسية اللازمة تجاه أي شذوذ عقدي أو فقهي.

والتفسير بعد ذلك: ذخيرة علمية وعملية ذات صبغة إيجابية وتربية روحية راقية.

**وبعد،** فإن الإطراء ليس هدفنا، ولكن الإعجاب بالكتاب والتقدير له جعلنا نكتب هذه الكلمات[١].

(١) هذه المقالة أثبتها الشيخ سعيد حوى في كتابه «هذه تجربتي وهذه شهادتي» ص ١٥٧-١٦٠.

## ملحق رقم (٣)
## تعريف موجز بمؤلفات الشيط سعيد حوى

**كتبه ولده الدكتور: محمد سعيد حوى**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين.

كُتبُ الشيخ سعيد حوى منهج متكامل لثقافة المسلم

أَلَّف الوالد- رحمه الله- كتبًا كثيرة، تميزت بأهميتها وأسلوبها ومنهجيتها، وصلتها بالواقع، وإجابتها عن أمور مهمة يحتاجها المسلم أو يسأل عنها أو يتشكك فيها.

لم يكن الشيخ يؤلف كتابًا لمجرد التأليف، وإنما كان يدفعه إلى ذلك شعوره بأهمية موضوعاته، وحاجة الأمة إليها، وضرورة إيصالها إلى كل مسلم.

وكان لا يتكلف العبارة، وإنما يحرص على العبارة السهلة التي يفهمها كل قارئ، حتى إذا وجد فكرة واضحة في كتابات غيره، تؤدي المقصود، وتحقق النفع الذي يريد إيصاله للقارئ؛ فإنه ينقلها في كتابه ولو كانت صفحات طويلة، وينسبها إلى صاحبها، ولا يتكلف إعادة صياغتها من جديد.

وقد ألف الشيخ- رحمه الله- كتبه بحيث تكون منهجًا متكاملًا، يأخذ بعضها بعنق بعض، وتشكل في مجموعها ما يعطي المسلم ثقافة متكاملة:

فألف كتابه الأول «**الله جل جلاله**» يتعرف فيه المسلم على ربه، مفندًا دعاية الملحدين وموضحا بأن أول الطريق معرفة الله.

وألف كتابه الثاني «**الرسول** ﷺ» لأنه المبلغ عن ربه والقدوة والأسوة، وأثبت فيه بما لا يدع مجالا للشك أن محمدًا ﷺ هو رسول الله وخاتم النبيين الناسخ لرسالة الأنبياء السابقين.

وألف كتابه الثالث «**الإسلام**» عرض فيه مناهج الإسلام في العقيدة

والعبادة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والشؤون السياسية والتعليمية والإعلامية والتشريعات الجنائية عرضًا شموليًا محكمًا، مستندًا إلى أقوى الأدلة، مستلهمًا روح الشريعة ومقاصدها، مبينًا أفق الإسلام الرحب في كل الميادين.

وإذا اكتملت سلسلة «**الأصول الثلاثة**»: الله، الرسول، الإسلام، فلابد أن ينطلق جند الله في سبيلها، ولابد لهؤلاء الجنود من أمور :

فكان كتابه الأول في سلسلة «**فقه الدعوة والبناء والعمل الإسلامي**»: «**جند الله ثقافة وأخلاقًا**» لأن أساس العمل الإسلامي- إنْ في الدعوة وإنْ في السياسة والحكمة- الثقافة الكاملة والأخلاق العالية .

وعلى طريق العمل الدعوي الشامل تعترض الدعوة شبهات، فكان كتابه «**من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك**» موضحًا كثيرًا من بدهيات الإسلام الغائبة، ومفندًا كثيرًا من دعاوى المبطلين المنتشرة، موضحًا طبيعة الصراع مع الباطل والطريق إلى الصحة والنصر، معرّفًا بدعوة الأنبياء وتراثهم، كاشفًا أعداءهم ولقاءاتهم.

والدعوة لا بد لها من جهة تحملها، وكان اجتهاد فقيدنا- وأراه محقًا- أن جماعة الإخوان المسلمين من تلك الجماعات التي لها قصب السبق في حمل الدعوة الإسلامية المعاصرة بشكل شمولي متكامل، فكتب كتابه «**المدخل إلى جماعة الإخوان المسلمين**».

ولا بدّ أثناء المسيرة من محطات تقوية، فكان كتاب «**جولات في الفقهين الكبير والأكبر**»، وهو أبحاث تجيب عن أهم الأسئلة في نظريات الثقافة الإسلامية.

ولا بد للدعوة في مسيرتها أن تتعمق في آراء ونظريات مؤسسها؛ فكان كتابه «**في آفاق التعاليم**» وهو دراسة في آفاق دعوة الأستاذ البنا ونظريات

الحركة فيها من خلال رسالة التعاليم .

والجديد في العمل الإسلامي له أحكامه، سواء على مستوى القاعدة أو القيادة، فكان كتاب «**دروس في العمل الإسلامي**» وكتاب «**فصول في الإمرة والأمير**».

ومشكلات وحاجات العصر متجددة، فكان كتاب «**كي لا نمضي بعيدًا عن احتياجات العصر**» وفيه إحدى عشرة رسالة: «**منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة**»؛ «**فلنتذكر في عصرنا ثلاثا**»؛ «**أخلاقيات وسلوكيات تتأكد في القرن الخامس عشر الهجري**»؛ «**إحياء الربانية**»؛ «**الإجابات**» وهي ردود على شبهات واتهامات؛ «**السيرة بلغة الحبّ والشّعر**»؛ «**عقد القرن الخامس عشر الهجري**»؛ «**الخمينية: شذوذ في العقائد وشذوذ في المواقف**»؛ «**إجازة تخصص الدّعاة**»؛ «**قوانين البيت المسلم**»؛ «**غذاء العبودية**».

والناظر في هذه الرسائل يجدها متنوعة ومناسبة في الوقت نفسه.

ثم كان كتابه ـ وكأنه يشعر بقرب أجله ـ «**هذه تجربتي وهذه شهادتي**»، أصدر **الجزء الأول** منها، أما **الجزء الثاني** فما زال مخطوطًا سيرى النور إن شاء الله في الوقت المناسب.

وفي خاتمة حياته أصدر كتابه «**جند الله تخطيطًا**» وكتاب «**جند الله تنظيمًا**» أودعهما خلاصة أفكاره وآرائه وتوجهاته في الحركة والتخطيط والتنظيم.

ولاستكمال أصول المنهج والثقافة الشاملة كانت سلسلة «**الأساس في المنهج**» ومنها «**الأساس في التفسير**»، جمع فيها بين القديم والحديث، مقدمًا من خلاله نظرية متكاملة جديدة لم يسبق إليها في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وهو أحد عشر مجلدًا.

ومنها «**الأساس في السنة وفقهها**» وقد طبع منه ثلاثة أقسام: وبقي قسمان مازالا مخطوطين.

ومنها «**الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص**» ولم يكمله ولم يطبع.

ولا يكتمل البناء الفكري ولا يستقيم على سوقه من غير تزكية وتربية وحسن سلوك، فأصدر ثلاثة كتب، فكانت سلسلة: «**في التزكية والتربية والسلوك**» هي: كتاب «**تربيتنا الروحية**»، وكتاب «**المستخلص في تزكية الأنفس**»، وكتاب «**مذكرات في منازل الصديقين والربانيين**».

والدارس لهذه الكتب يجدها منضبطة بالكتاب والسنة، ملتزمة عقائد أهل السنة والجماعة، محررًا مواطن الخلاف بما يتفق والحق الذي هداه الله إليه.

## ملحق رقم (٤)
## المنهج العلمي والتأليفي عند الشيط سعيد حوى

كتبه ولداه: د/ محمد سعيد حوى و د/ معاذ سعيد حوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه.

**بداية التأليف في حياة الشيـط، وأول كتبه** :

بدأ الشيخ التأليف في بداية الثلاثينات من عمره، فكان أول كتبه التي ألفها: كتاب «**جند الله ثقافة وأخلاقًا**»، والأصول الثلاثة: «**الله جل جلاله**»، «**الرسول ﷺ**»، «**الإسلام**»، فبين في هذه الكتب عقيدة المؤمن بالله ورسوله، وأنها تقوم على أساس صحيح من المنطق والعقل تكفي لإقناع غير المؤمن إذا صدق في طلب الحقيقة، وأيدها بالنصوص الشرعية، ليثبت توافق النصوص مع ما يدل عليه العقل، وليزداد أهل الإيمان إيمانًا، وبين في كتاب الإسلام كمال تشريعاته وشمولها وثبات مبادئه وصلاحها للبشرية في كل زمان ومكان، كما بين أخلاقيات المسلم التي ينبغي أن يكون عليها كل من انتسب إلى هذا الدين، وما هي الثقافة والعلوم التي يجب أن يحيط بها المسلم، وخاصة الملتزم الذي يريد أن يحمل دينه ودعوته.

**ملكة التأليف ودوافعه وغزارته عند الشيـط سعيد حوى**:

لقد كان انتساب الشيخ إلى الحركة الإسلامية سببًا مهمًا في اهتمامه بواقع الأمة وما يلزمها من أمور لتنهض وتعود إلى دينها ومجدها، فلم يكن الشيخ حريصًا على التأليف لذاته، وإنما كان ينطلق في تأليفه واختيار موضوعات كتبه من واقع الأمة الإسلامية واحتياجاتها.

فكان الشيخ ينظر فيما تحتاجه المكتبة الإسلامية من كتب فيكتب فيه، فمثلًا كتاب «**الله جل جلاله**»، لا تجد في المكتبة الإسلامية مثله في نسيجه من الجمع

بين أدلة العقل والفطرة وأدلة الشرع، ولا تجد طرحًا يماثله في اختيار الظواهر الكونية الدالة على الله تعالى، في سبيل تعريف المسلم بربه، وتفنيد دعاوى الملحدين.

ولا تجد مثل كتاب «**الرسول** ﷺ» في عرضه لجوانب شخصية النبي ﷺ وكماله، وما يحمل ذلك من دلالة على أنه أعظم الخلق، وأنه خاتم المرسلين، وأنه يجب اتباعه.

وهكذا الأمر في جميع ما ألفه: فإما أنه كان يراه ضروريًا للأمة الإسلامية أو للحركات الإسلامية أو لعلمائها وأبنائها.

أما ملكة التأليف فهي انعكاس لسعة العلم ونضوج الفكر، وانتظام الأفكار، فكانت ملكة التأليف وسهولته عنده أثرًا عن اجتهاده في طلب العلم، ثم اجتهاده في معرفة الواقع وما يحتاجه من تقوية للخير ومجابهة للشر والأمراض التي تعيشها الأمة في هذا الزمان، ثم ما يمضيه من ساعات طويلة في التفكر لوضع الأمور في مواضعها واستخراج ما ينفع الأمة في ذلك.

لقد كانت البركة في حياة الوالد- رحمه الله- واضحة، ونظن ذلك من علامات الإخلاص والصدق- والله أعلم. فعلى الرغم من كثرة ضيوف الشيخ ومشاغله الدعوية، وعلى الرغم من أوراده اليومية؛ فقد ألّف كتبه الكثيرة التي تناهز الخمسين مجلدًا.

ولقد كان التيسير واضحًا في عمله وتأليفه، فمثلًا كتاب «**المستخلص**» الذي هو اختصار لكتاب إحياء علوم الدين؛ أنجزه الشيخ خلال شهرين، وكتاب «**فصول في الإمرة والأمير**» كتبه في شهر تقريبًا، وكتاب «**جند الله تخطيطًا**» أملاه على ولده معاذ في آخر حياته وقد ذهب بصره، فكان يملي عليه في كل يوم فصلًا، فأنهى الكتاب في أربعين يومًا من غير رجوع إلى مصدر أو كتاب، وإنما يملي من ذاكرته وفكره وما يحفظ من قرآن أو سنة.

ولقد كانت همة الشيخ كبيرة، وذلك لما يحمله من همّ لدعوته وأمته، فلم يكن يدع ساعة من عمره من غير عبادة أو عمل أو علم أو كتابة أو دعوة، عدا ما يشغل به من استقبال ضيف أو قضاء حاجات أو زيارة مريض أو صلة رحم.

وقد وفق الله- تعالى- الشيخَ وهو في السجن، فاغتنم فترة السجن في العبادة والتعليم والتأليف، فكان «**الأساس في التفسير**» من أهم مؤلفات الشيخ التي ألفها في السجن، وكتاب «خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك».

**كتب الشيخ سعيد حوى التي طبعت:**

كتب في الأصول الثلاثة كما ذكرنا وسماها: «**سلسلة الأصول الثلاثة**»، حيث كتب فيها هذه الكتب :

١- الله جل جلاله.

٢- الرسول ﷺ .

٣ - الإسلام.

وكتب فيما تحتاجه الدعوة الإسلامية وأبناء الحركات من فكر وأخلاق ومنهج وتنظيم في سلسلة سماها: «**سلسلة فقه الدعوة والبناء والعمل الإسلامي**»، فكانت كتبه التي صدرت من هذه السلسلة:

١- جند الله ثقافة وأخلاقًا.

٢- جند الله تخطيطًا.

٣ - جند الله تنظيمًا.

٤- المدخل إلى جماعة الإخوان المسلمين.

٥- دروس في العمل الإسلامي.

٦- جولات في الفقهين الكبير والأكبر.

٧- فصول في الإمرة والأمير.

٨- في آفاق التعاليم.

٩- كي لا نمضي بعيدًا عن احتياجات العصر (١١ رسالة).

١٠- هذه تجربتي وهذه شهادتي (القسم الأول).

١١- من أجل خطوة للأمام على طريق الجهاد المبارك.

وكتب فيما يكوِّن الشخصية العلمية للدعاة والعلماء وأبناء الحركات الإسلامية: «**سلسلة الأساس في المنهج**»، وصدر منها:

١- الأساس في التفسير (١١ مجلدًا).

٢- الأساس في السنة وفقهها، وقد طبع منها (١٤ مجلدًا): قسم السيرة النبوية، وقسم العقائد الإسلامية، وقسم العبادات.

كما كتب فيما يحتاجه المسلم في تزكيته لنفسه وتقربه من الله: «**سلسلة التربية والتزكية**»، وتضمنت ثلاثة كتب:

١- تربيتنا الروحية.

٢- المستخلص في تزكية الأنفس.

٣- مذكرات في منازل الصديقين والربانيين.

**كتب الشيخ سعيد حوى المخطوطة**:

بقي من كتاب «**الأساس في السنة وفقهها**» القسمان الرابع والخامس، مخطوطان، يتوقع أن يكونا نحو عشرة مجلدات بعد الطبع، نسأل الله أن يسهل تهيئتها للطباعة عن قريب.

ومن المخطوطات التي لم تطبع بعدُ كتاب «**الأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص**»، وهو كتاب يفصل فيه الشيخ بعض ما قدم له في

كتاب جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ومما يدخل فيه علـم المنطـق وعلـم أصول الفقه، لكن هذا الكتاب لم يكتمـل بعـد، وفيـه فوائـد كثـيرة وتـسهيل وإعادة صياغة لهذه العلوم، عسى الله أن يعيننا على إكماله أو إخراج فوائده.

ومن المخطوطات التي لم تطبع بعدُ: القسم الثاني والثالث من كتاب «**هـذه تجربتي وهذه شهادتي**»، ويتكلم فيـه الـشيخ عـن تجربتـه في التنظـيم الـسوري للإخوان، كما يتكلم عن أحداث حماة سنة ١٩٨٢م: عـن أسـبابها، ومآسـيها، وتفـصيلاتها، ومـا أدت إليـه، ومـن يتحمـل مـسؤوليتها، وعلاقـة الإخـوان وغيرهم من الإسلاميين بذلك، وسيطبع هذا الكتاب في الوقت المناسـب- إن شاء الله.

ومن المخطوطات التي لم تطبع كتاب «**جند الله تنفيذًا**»، وقد تـوفي الـشيخ ولم يُكمِل هذا الكتاب.

**المنهج العلمي والأسلوب الذي كان يعتمده الشيخ في التأليف:**

كان الشيخ ينطلق في جميع مؤلفاته من منطلق دينـي خـالص، لـذلك فهـو يحرص على ألا يثبت فكرة إلا بدليلها من الكتاب أو السنة.

ويبرز الفكرة التي اقتنع بها بأدلتها، من غـير أن يخـوض في ذكـر المخـالف والرد عليه في الغالب، وربما يرد على المخالف من غير أن يشير إليـه، كـما تجـد هذا واضحًا في رسالة الإجابات مثلًا، وهي رد على بعـض مـن اعـترض عـلى الشيخ.

وكان يحـترم رأي مـن يخالفـه، مـا دام ينطلـق مـن الكتـاب والـسنة، وإن اختلفت وجهات النظر، إذا كان الاستنباط من الكتاب والـسنة يحتمـل ذلـك الاجتهاد.

ولم يكن الشيخ يتكلف في تآليفه، وإنما كان يكتب وكأنه يتكلم مع القارئ، ولم يكن حريصًا على إعادة صياغة فكرة صاغها السابقون، فربما نقل صفحات

في كتبه؛ لأنها تؤدي الغرض من الكتاب والفكرة، فكان همه أن يوصل المفيد الجديدَ المؤثّر.

ويختلف الأسلوب باختلاف الكتاب وموضوعه ومجاله، فكُتُب الدعوة والعمل الإسلامي وما فيها من تفصيلات فكرية وتنظيمية، يكثر فيها النظر الفكري والاستدلال بالبديهيات والتفصيلات المبنية على معرفة الواقع والتخطيط المناسب له، وقد يقل لأجل ذلك فيها ذكر أدلة الكتاب والسنة نسبيًا، بينما تجد كتاب «**الأساس في السنة وفقهها**» كله مبني على أحاديث السنة الصحيحة، التي جمعها من عشرين كتابًا هي أهم كتب السنة، واستخرج منها الأحاديث الصحيحة والحسنة، مع شرح كلماتها، وذكر بعض فوائدها من كتب شروح الحديث وكتب الفقه.

وكان الشيخ- رحمه الله- يعتني بمراجعة كتبه وتنقيحها، مرة بعد مرة، وقد راجع جميع كتبه ونقحها وصححها قبل وفاته بسنوات قليلة، ثم قدمها للطبعة الأخيرة التي طبعت في حياته، في مصر في دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

## خاتمة

بهذه الملاحق الأربعة نكون قد أتينا على نهاية هذه السياحة الفكرية في كتابات الشيخ سعيد حوى- رحمه الله تعالى- ذي الفكر النيِّر، والعطاء الزاخر، والفقه الدعوي المتجدد، والقلم السَّيَّال، والأسلوب الممتع، والعلم الرصين، والثقافة الإسلامية المتنوعة، والأدب الجم، والخلق الرفيع، والداعية الفذّ، والخطيب المبدع، والمحاضر البارع، والمحاور الناجح، الذي قضى بعضًا من حياته طالبًا مجدًّا، ثم غدا داعية مخلصًا، ومربيًّا ناجحًا، وقائدًا موفقًا.

لم يترك- رحمه الله تعالى- فضل مال، ولا كثير ثروة، وإنما ترك لنا هذه الأسفار الثمينة، والكتب النافعة، والرسائل المباركة التي تزخر بكل جديد ونافع ومفيد، وعلى عطائه وإنتاجه العلمي والدعوي ينطبق قول القائل: (كم ترك الأول للآخر).

فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأجزل له في الآخرة الأجر والثواب، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقًا. ولا تنسوا معدّ هذا الجزء وكاتبه من صالح الدعاء.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**



# السياحة الثانية

## الشيخ الدكتور المربي

## فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي

(١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م)

# أولا: ترجمة وبيان
# للشيخ الدكتور المربي
# فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي(١)

**إعداد الشيخ د. جاسم مهلهل الياسين**

**تعريف عام بالعملاق:**

كان علمًا في دماثة الخلق والورع والاستقامة والنزاهة والغيرة على الإسلام السني المالكي الوسطي، فريد.. وما أدراك ما فريد!! ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فصار له بصر حديد، وقلب مثل السراج يزهر.. فريد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٢).

فريد.. وما أدراك ما فريد!! عاشق القرآن الفريد، ورافع راية القرآن المجيد، تدبر القرآن فأبصر بصائر القرآن، وجلس وجالس، ودرس وتدارس، ودعا إلى مجالس العمران. كان قلبًا مفعمًا بمحبة الإسلام وبمحبة هذه الأمة وبالشوق إلى الغد الكريم للإسلام. كان أحد أبرز المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث. فهو العالم الكبير والأديب الأريب الورع التقي النقي. كان- رحمه الله- ذا فكر مكثف، لا يُسفر عن غناه كله لأول قراءة أو عارضة، وكان يصدر عن وعي عميق لواقع الحال، واطلاع واسع على جهابذة الإسلام، وعزيمة قوية وغير جياشة في أناة وقصد.. إنه بحق عالم فريد جمع بين البيان الفكري والبلاغ العلمي والترشيد النقدي لممارسات العمل الإسلامي المعاصر؛ خصوصا كتاباته الفائقة حول الظواهر الدعوية التي عالجها بمشرط الجراح الفنان الماهر الحذِق، فهو الخبير الشاهد بواقع العمل الحركي والناظر

---

(١) أخذنا سيرته- رحمه الله- من مجموع ما كتب عنه في مجلة المحجة النصف شهرية، الصادرة عن الدار البيضاء في المغرب، العددين ٣٣٠، ٣٣١، وكانا خاصين بالدكتور فريد الأنصاري.
(٢) ق: ٣٧.

الفاحص في معالجات القرآن والسنة لتلك الوقائع، ولا يُفتح على أحد في ذلك إلا لمن تشبعت روحه بالزاد الإيماني، وخلص قلبه من شوائب الأهواء في نصحه لإخوانه السالكين أو المتعثرين في المسيرة الإصلاحية.

كان- رحمه الله- مميزًا؛ حيث ورث الشاطبي فزكى الموروث علمًا، واستلهم ابن القيم فكان أقرب رحمًا. لقد صدَّق القرآن وصادقه واستغرق وسعه في إظهاره على أنه منبع الخير كله، ومصدر التمكين كله، ومبعث التمدن كله، وأنه الحل الأقوم والأمثل والفطري لمشاكل الناس أجمعين.. إنه خادم القرآن وعلوم القرآن.. إنه العالم بالسنة، والمنافح عن حماها.. إنه العلامة المتبحر المتفجر اجتهادًا، العابد الزاهد، الفقيه الضليع، الخطيب الثائر، الكاتب النحرير.. حقًا هو كل هذا وأكثر؛ لغوي بارع، ناقد ذكي، بصير بمذهب عالِم أهل المدينة، جوال واع بأحداث التاريخ وسير أعلامه.. كان- رحمه الله- عاشقًا للجمال، داعيًا إليه، مبرزًا له في أبهى صوره؛ جمال القرآن، وجمال الإسلام وجمالية الصلاة، وجمال الذكر، وجمال الأنس بالله، وجمال الحجاب.. إننا نكتب اليوم :

**إلى من عاش للقرآن حبرًا يفسره فيسمعنا العجابا**
**إلى من عاش للقرآن طيرًا يغرد فوق أيكته العذابا**
**إلى من عاش محبوبًا عزيزًا يسامق في مكانته السحابا**

لم لا نكتب عن فريد الذي تردد صداه في البحر والبر، وعرفه العالم والجاهل، حتى نادته القلوب:

**أفريد همك لاذعي بأوار أفريد هذي صرخة المحتار**
**يا كوكبًا ما كان أقصر عمره وكذلك عمر كواكب الأسحار**

**مولده:**

ولد فريد الأنصاري- رحمه الله- في التاسع عشر من ربيع الثاني سنة ثمانين

وثلاثمائة وألف هجرية، الموافق لسنة ستين وتسعمائة وألف للميلاد في قرية أنيق؛ إذ كان والده خريج القرويين معلمًا هناك، وكان- رحمه الله- يُرجع الفضل في بذرة التدين فيه إلى والدته عائشة مهاجر- رحمها الله- التي تربت في حجر جدتها لأمها الأمازيغية التي كانت لا تفتر عن الذكر، ثم تعلم الابتدائية سنة ١٩٧٤م، وقد حكى الأستاذ أن والده- رحمه الله- أسقطه في هذه المرحلة سنتين اثنتين تشديدًا منه عليه في التأهيل العلمي.

كان شغوفًا بالقراءة؛ فلم تكن أنامله تهمل أي كتاب تقع عليه إلا وتتصفحه، إلى أن تأتيه على تمامه، فقرأ وهو في المرحلة الإعدادية كتابًا في الشعر الجاهلي وروايات المنفلوطي وروايات جرجي زيدان، وبانتقاله إلى المرحلة الثانوية سنة ١٩٧٨م التي درسها في بلده كلميمة كان له أول احتكاك علمي مع فكرة الدعوة الإسلامية؛ ففي سنته الأولى من هذه المرحلة الدراسية وفي حجرة من السكن الداخلي للمؤسسة التعليمية كان يجالس عفوًا بعض التلاميذ، فشرع أحدهم يتحدث عن الحركة الإسلامية التعليمية، مجتهدًا في الدعوة لفكرتها، إلا أنه بدا لأبي أيوب- رحمه الله- أن جليسه أساء من حيث أراد أن يحسن، فرد عليه مصححًا، بناء على المعلومات التي استقاها من قراءته، ثم بعد مدة ليست بالطويلة من ذلك النقاش اتصل بأبي أيوب صاحبه الذي تكلم عن الحركة الإسلامية وعرض عليه أن يطبقوا ما تناقشوا حوله، فاستحسن أبو أيوب الفكرة واتصل ببعض أصحابه وعرض عليهم الفكرة أن يصنعوا شيئا اسمه (الإخوان المسلمون) فتحمسوا لذلك كثيرًا كما حكى- رحمه الله. وقد كان من أهم زادهم آنذاك في جلساتهم أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك، فقد كانوا يجتمعون عليها.

التحق- رحمه الله- بالجماعة في ظهر المهراز بفاس سنة ١٩٨١م، وفي السنة

الثانية تأسست شعبة الدراسات الإسلامية، فاختارها مسلكاً علمياً له.

بدأ مرحلته الجامعية متشبعاً بالفكر السلفي وبفكر تقي الدين الهلالي وصداه، ثم قدر الله أن التقى أول من التقى بإخوة من جماعة الدعوة، فعاشرهم سنته الأولى، ثم بعد ذلك التقى بشباب من الشبيبة الإسلامية، فصاحبهم بضعة أشهر، ولكن ما نفره منهم أنهم يعلنون أهدافًا ضخمة وعملهم أقل بكثير من أهدافهم، فغادرهم بسلام.

بدأ كتابة الشعر في مرحلته الثانوية، وبرع وهو طالب في الجامعة، فأرسل قصيدة إلى إحدى المجلات المغربية فلم تُنشر، فجدد العزم والحزم وتفرغ للثقافة؛ حتى يبرهن أن الإنسان صانع للإبداع؛ لأنه يرى أن أهم وظيفة هي إنتاج العلماء؛ إذ هي الضمانة الوحيدة لاستمرار التدين- وجودًا ورشدًا ومنهجًا.

ثم بمجرد حصوله- رحمه الله- على الشهادة الجامعية سنة ١٩٨٥م حصل على امتياز منحة دراسية لإتمام الدراسة في فرنسا، لكنه نظر للأمر نظرًا مقاصديًا، فآثر السير في طلب العلم الشرعي؛ حيث الجودة فيه هنا في المغرب لا هناك في الغرب؛ حيث تيسر له الالتحاق بما كان يسمى (تكوين المكونين)، وحينها بدأ مشوار البحث العلمي الجاد، وفي السنة الثانية من تكوين المكونين عام ١٩٨٦/ ١٩٨٧م قدر الله له أن يختار الإمام أبا إسحاق الشاطبي موضوعًا ومنهجًا، والأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي مرشدًا ومشرفًا، والدراسة المصطلحية أداة وطريقًا، ثم واصل على هذا المنوال في بحث الدكتوراه حتى ناقشها في عام ١٩٩٩م.

**مسيره في العروج نحو القرآن:**

إن السلفية المنهجية في فقه الدين قد قادت أبا أيوب الأنصاري إلى الرسو

في مرابع القرآن، وأستطيع القول بأنه على مستوى التصور الفكري العام، لم يُحدث انعطافًا منهجيًا كبيرًا في فكر الأستاذ فريد الأنصاري- رحمه الله.

لقد بدأ عمله كأستاذ في كلية الآداب بالمحمدية سنة ١٩٨٧م واستمر فيها سبع سنوات، حيث حثه والده- رحمه الله- على الانتقال إلى مكناس، لقربها من إقليم الرشيدية، فقدر الله له ذلك عام ١٩٩٤م.

ثم شهدت مكناس تحولاً من عالِم داعية في المجالس إلى عالِم مؤثر في المجتمع المغربي أولًا، ثم في العالم الإسلامي ثانيًا، فبدأ أولا بكتابه «**الفجور السياسي والحركة الإسلامية في المغرب**»، فكان استبصارًا مبكرًا بالوضع الذي تعيشه في تلك الفترة، ثم جاء كتابه «**البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي**» بُعيد قيام الوحدة بين رابطة المستقبل الإسلامي وحركة الإصلاح والتجديد؛ حيث انسحب بعض الإخوة لاعتراضهم على بعض الترتيبات العملية التي يرون أنها حاسمة في تصويب خطوات الوحدة. وقد كان- رحمه الله- يقرهم على صواب المعتمد الذي استندوا عليه، لكنه خالفهم في قرارهم الذي بنوا عليه. ولقد كان سببًا قويًا في رد كثيرين عن التراجع عن الوحدة، ثم هو- رحمه الله- أخرج كتاب «**البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي**» وقد صرح فيه بعدم انتمائه إلي أية جهة تنظيمية، ثم لما كان للسياسة النصيب الأكبر من مشروع الدعوة، أخرج كتاب «**بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق**» ثم «**سيماء المرأة في الإسلام**»، وكان كالنصيحة في فقه التدين، ثم أخرج كتاب «**الفجور السياسي والحركة الإسلامية في المغرب**» ثم ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله، وكان بمثابة تطبيق لـ«**بلاغ الرسالة القرآنية**».

أما تداول القرآن، فقد تولى شرح منهاجه في كتاب «**مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية**».

ومن أخلاقه- رحمه الله- أنه كان بعيدًا عن سوء الظن، حليًما على من يتحامل عليه. كانت علاقته- رحمه الله- بلسان العالم المتمكن، وتأليفه بقلم الأديب المتقن، وإشراقاته بعين البصير المحقق، ومناقشاته في أدب الضابط المدقق- رحمه الله.

وقد كان عمله موسوعيًا، حيث كان أصوليًا راسخًا، وفقيهًا مدققًا، ومحدثًا محققًا، ومفسرًا مبينًا، وملمًا بالعلم بالوحي وعلومه، بيد أنه عالم مفكر، منظر مؤصل، عرف الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي للدولة والمجتمع، بالإضافة إلى تاريخ الأمة وحاضرها، فاستشرف مستقبلها الحضاري والعمراني بمفاهيم القرآن، فأجرى الله على لسانه القدرة على البيان وفصل الخطاب، والمعرفة بالجدل العلمي البناء؛ لإقناع المخالفين.

وقد كان- رحمه الله- في علمه وقصده متحققًا بقول: (من أخلص لله تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) فبالحكمة خاطب النفوس، وعالج أهواءها، وبيَّن للعقول زيفها، وداوى أمراض القلوب، حتى غدا عالًما ربانيًا يربي بصغار العلم قبل كباره، فأمسى بناء للإنسان نفسًا وقلبًا وعقلاً وجوارح، أحب الناس فأحبوه.

كان- رحمه الله- مربيًا للناس على أساس نبوي عظيم ينبني عليه ما سِوَاهُ؛ لأنه الأساس المتين، الذي استقر في القلب محبة، وجرى على الأعضاء عملاً، وخلص في النية فعلاً، فصلح سائر عمله.

فكان- رحمه الله- بهذا حقًا رجل تربية بامتياز حتى النخاع (كما يقال)؛ حيث كان ما ألفه يصب في التربية نظرًا وعملاً، تصورًا وتطبيقًا، علمًا ومنهجًا، طريقة ودليلاً علميًا، درسًا وتدريسًا، خطبًا ومواعظ، حتى شعرًا وقصة.

إذ بقدر التفقه في المنهج والرشد فيه، يكون مستوى النجاح كمًّا وكيفًا. ومن

هاهنا فإن نجاح المشروع التربوي يتوقف على مدى النجاح في اتباع منهجه الخاص، فالقرآن الكريم وظيفته الأساسية هداية الناس إلى صراط الله المستقيم، ولما كان هذا نهجه، وفَّقه الله بأن تميزت مؤلفاته بالدقة في سلامة قضايا الأمة، وبحسن اختيار المواضيع ذات الأولوية، كما تتسم بالتأصيل الشرعي، وبالمنهجية العلمية، في التناول والمعالجة، والمناقشة، والاستدلال، والاستنتاج، وكذا بالأسلوب الجزل الرصين مع السهولة في العبارة، وحسن البيان، ولم يَرْسُ به الجهد ببيان طريق الدعوة، وتربية النفوس، وإرشاد العقول، ومحاكاة واقع الأمة ومعالجة أسقامها، بل إن فيوضات علمه كانت بناءة في الدراسات المصطلحية، حيث إنه لم تكن غاية الدراسة المصطلحية عنده الكشف عن مفهوم المصطلح من حيث هو لفظ معجمي، بل هي تصبو إلى تبيين الرؤية الكامنة فيه، والفلسفة التي تؤويه، وإلى معرفة ما يشكله ضمن بنية العقل المسلم لفهم الذات وتقويمها، ثم تجديدها على وِزانها لا على وِزان غيرها. ومن المعلوم أن الدراسات المصطلحية كلها قلق ومعاناة وعقبات، ولكنها عذبة المذاق، موصلة إلى القصد، مبلغة إلى الهدى والرشد، لكن لمن استجمع شروطها، وأخذ بأسبابها، وابتعد عن موانعها.

وهذا ما تجسد في عملاق العلم- رحمه الله- الدكتور فريد الأنصاري، ولعله خَلَّدَ قاعدة يجب على كل مجد مجتهد أن يتقلدها هي قوله: إن أول خطوة في درب التجديد قتل الماضي بحثًا!! فبهذا كان أثره متممًا مسيرة العلم والإصلاح والإرشاد، فتمم مسيرته التي كانت دائمة العناية بتعميق النظر في مناهج بناء الدليل في الشرعيات؛ لأن استيعاب الطالب لمختلف مستويات الحوار العلمي في الموضوع؛ لمن شأنه أن يقوي عنْدَهُ الملكة النقدية التي تمكنه من تجاوز مرحلة التقليد، بما يؤهله للقيام بواجبه الشرعي في الدعوة إلى الله تعالى، وخدمة المسلمين، وبما يكون جامعًا لأشتاتهم، ومانعًا من تفرق كلمتهم؛ كيلا تذهب ريحهم.

كان- رحمه الله- جامعًا لكل العلوم النافعة، مانعًا لكل ما يفرق ويشتت الأشلاء لهذه الأمة، مربيًا روحيًا لكل من سلك الطريق إلى الله- جل في علاه. لذلك، كان فَقْدُهُ ليس فقد رجل أو فقد جذوة من العلم، بل إنه قد ترك ثلمًا كبيرًا وجرحًا عظيمًا، لا يسده إلا رجال جندوا أنفسهم وباعوا إمكانياتهم؛ لرفع راية هذا الدين، وللذود عن حياض المسلمين، ولدفع الشبهات التي قد تخترق العقول والنفوس والمجتمعات؛ لأن الفحشاء والمنكر بعد أن كانوا مهمشين سادوا كثيرًا من النفوس التي نأت وبعدت عن طريق الإنسانية، والفطرة السليمة، فقد كان- رحمه الله- واصفًا الفحشاء والمنكر والفساد في الأرض بأشنع الأوصاف؛ لأنها تنشر الوباء المتوالد. وحث على طرق الوقاية منها، وأكد على أن العمران بمعناه الشمولي يتعلق بسلوك الإنسان كله: عمران المادة، وعمران الروح والأخلاق، والعمران السلوكي الاجتماعي المنطلق من عمران المساجد بالصلوات، والنشاطات التي هي السبب في استئصال الفحشاء والمنكر.

كان- رحمه الله- يحث كل الناس من عامة وخاصة على أن يكون كل فرد منهم لبنة بناءة في هيكلة هذا الدين، وداعية مجسدًا لشخص الرسول الكريم، حتى يستشعر الجميع لذة الطريق إلى الله، وطمأنينة القرب منه، والأنس بتطبيق منهجه الذي يضفي على الحياة الدنيا رونق العبودية الحقة، وستكون دراستنا للسيرة الفكرية الدعوية للشيخ الدكتور: فريد الأنصاري، **من خلال النظر في كتبه الآتية:**

### ١- سلسلة من القرآن إلى العمران:

البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي نحو بيان قرآني للدعوة الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ- ٢٠٠٩م.

**٢- سلسلة من القرآن إلى العمران:**

بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

**٣- سلسلة من القرآن إلى العمران:**

مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

**٤- سلسلة من القرآن إلى العمران:**

سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

**٥- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية «الجزء الأول والثاني»:**

كتاب الأمة عدد ٤٧ جمادى الأولى ١٤١٦ - سبتمبر ١٩٩٥، عدد ٤٨ رجب ١٤١٦ - ديسمبر ١٩٩٥، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر.

**٦- الفطرية:**

بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

**٧- جمالية الدين - معارج القلب إلى حياة الروح:**

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

**٨- قناديل الصلاة - مشاهدات في منازل الجمال:**

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

**٩- مجالس القرآن - من التلقي إلى البلاغ:**

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الثانية

١٤٣١هـ-٢٠١٠م[(١)].

(١) **ملاحظة:**

الشيخ الدكتور فريد الأنصاري- رحمه الله- عملاق في ميدانه كما ذكرنا، مؤدب في بيانه وكتاباته، ولكن من لا يعيش معه فيما حَبر به أوراقه يظن أن هناك مشكلة في آخر عمره مع الحركة الإسلامية في المغرب؛ ولعل ذلك لقناعته في تغيير بعض المسارات في الدعوة في المغرب، وخصوصًا في الجانب السياسي والحركي. وهذا ما دفعه لأن يدفع بشدة في الاتجاه المضاد لآليات الحركة الإسلامية بعد تشكيلها الجديد ووحدة الصف بعد تشرذمه لفترة طويلة من بعد الأستاذ عبد الكريم مُطيع، الذي أعقبه فترة انتقال ونضج في العمل الإسلامي عند الشيخ فريد ذكره في كتابه «**جمالية التوحيد**- ص ٧٣» حيث يقول- رحمه الله:

إني في فهمي للدين عمومًا، وللعقيدة منه خصوصًا؛ مررت بثلاث مراحل: **المرحلة الأولى** هي التي ورثتها عن بيئتي الإسلامية التقليدية، حيث كان الدين بالنسبة لي سلوكًا خاصًّا بالشيوخ، وكأنما هو على طائفة الشباب نفل وتطوع! ثم إن عبارة (لا إله إلا الله) كانت أقرب عندي إلى الشعار منها إلى (الشهادة)! فلم أكن أفهم منها أكثر من مجرد كونها عنوان الدخول إلى الإسلام، واكتساب صفة (مسلم)، كما هي عند سائر الناس! لكن هذا المعنى- ولله الحمد- لم يدم في تصوري طويلاً؛ فقد انتبهت في مرحلة الشباب الأولى إلى شيء اسمه (الحركة الإسلامية)، وذلك بسبب ما كان يصلني عنها من أصداء وصراعات، خاصة في الصف الطلابي بالجامعة! وأنا آنئذ لا أزال تلميذًا بالصف الثانوي.

فكانت تلك إذن هي **المرحلة الثانية** في حياتي الدينية، وبحلولها زالت الصورة الأولى التقليدية من ذهني، وأبدلتها بما صرت أتلقاه من أدبيات إصلاحية، ومقولات دعوية جديدة، مثل: (الإسلام دين ودولة، ومصحف وسيف... إلخ).

ثم بدأ الوعي يتطور في الاتجاه نفسه، إلى تقرير أن (لا إله إلا الله منهج حياة!) وأن (الحاكمية لله). وهكذا بدأ الوعي الديني يتسع في وجداني شيئًا فشيئًا، حتى انخرطت في حركة الوعي الإسلام عاملاً بهذه المفاهيم مجاهدًا في سبيلها.

ثم يقول- رحمه الله:

وبدأت أرى الآفات الخطيرة تعصف بالصف الإسلامي: العُجْب، وحب الرياسة، والتصدر أمام وسائل الإعلام. ورأيت بأم عيني أن هناك فتنة أخرى، لم أعرفها من قبل، هي فتنة (الكاميرا)، أو فتنة (الميكرفون) كما سماها بعض الظرفاء! ورأيت رقة في الدين تجتاح الصفوف المتدينة كالوباء الفتاك، وسقوطًا هنا وهناك، وبدأت أسأل نفسي متهمًا إياها: أي دين هذا؟ وأي صلاح هذا؟ وبدل أن يتنافس شباب الصحوة الإسلامية حول منازل العلم، ومقامات التقوى والورع، بدؤوا يتنافسون حول حدود الشبهات، ويتبارون أيهم أقدر على الرعي حول الحمى دون أن يقع فيه!

وبقي الأمر بالنسبة لي غامضًا، حتى لقيت بعض أساتذتي الأجلاء، ممن تتلمذت عليهم، وأخذت عنهم علم الدعوة وعلم البحث العلمي، فكانت لي معه جلسة مذاكرة حول بعض مفاهيم القرآن الكريم، وتحدثنا عن بعض النماذج من بينها مفهوم (الإله) في القرآن الكريم، فنبهني إلى الأصل اللغوي لهذه العبارة، من أنه راجع إلى معنًى قلبيٍّ وجدانيٍّ، وذكر لي شيئًا من الدلالة اللغوية على المحبة، مما بينته،=

=فكانت بالنسبة لي مفاجأة حقيقية، لا على مستوى الفهم فقط؛ ولكن على مستوى الوجدان والشعور.
نعم؛ أذكر أني قرأت مثل هذا قبل ذلك بكثير، ولكن اندماجي الكلي في تصوراتي الأخرى، وانغلاقي على (توحيد الحاكمية)- إن صح التعبير- أعماني عن مشاهدة (توحيد المحبة!) الذي هو الأصل، والمفتاح الحقيقي لتوحيد الألوهية! والذي منه تفرعت فروع شتى منها توحيد الحاكمية نفسه. لقد جعلت الجزء محل الكل، وجعلت الفرع محل الأصل؛ وعشت في فهمي متناقضًا! فسرت= =في تديني مختلًا كسائر المختلين! **حتى مَنَّ الله باللحظة التي انتقلت خلالها إلى مرحلتي الجديدة:** حيث بدأت المراجعة في حياتي كلية، واكتشفت حقيقة أن هناك شيئًا اسمه (حلاوة الإيمان)، ذوقًا لا تصورًا، وحقيقة لا تخيلًا. ثم بدأت أعود إلى القرآن.. فوجدت أني كنت بعيدًا جدًا عن بشاشته وجماله، وبدأت أعود إلى السُّنَّة؛ فوجدت أني كنت أجهل الناس بأخلاق محمد- عليه الصلاة والسلام- وبدأت أراجع ما قرأته عن العقيدة، فوجدت صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح، قد مررت عليها مرور الأعمى- لا مرور الكرام - بسبب ما غطى بصري من فهوم سابقة؛ حتى كأني لم أقرأ قط!
قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية. لقد كنت أقرأ عبارات «المحبة، والشوق، والخوف، والرجاء»، ولكن دون أن أجد لها شيئًا من نبض الحياة في قلبي.

هذا التطواف في الفهم جعل الشيخ- رحمه الله- يقف موقف الضد بالقوة نفسها في الجهة الأخرى، وقد ظهر ذلك في كتابه «**الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة**» وكذلك عندما كتب في «**الطغيان السياسي**» كما أن الحياة الحزبية التي عاشها وخصوصًا في أول مراحل حياته الدعوية في إطار الأستاذ عبد الكريم مُطيع ثم حالة التشرذم ثم المرحلة الأخيرة، جعلته يرفض التوحيد التربوي والديني من خلال الإملاء التنظيمي، فاندفع ضد التيار التعليمي الذي عاشه من خلال كتابه «**مصدرية التوحيد**» في سلسلة الأمة- الجزء الأول والثاني، وهو- رحمه الله- حين يعالج هذه الإشكاليات في البناء الحركي الدعوي يستخدم العبارات الأدبية في النقد، مما جعل من لا يعرف طبيعته الأدبية يظن أنه مُتحامل على الحركة الإسلامية متهجم عليها، ومن الأمور التي كان يُشدد عليها أن الحركة الإسلامية لا تهتم بالجانب العلمي التأصيلي...

ومع كل ما ذكره- رحمه الله- في إطار نقده، إلا أنه ابن العمل الإسلامي منذ صغره، وما كتبه فيه تفتيح لأمور كثيرة ونفع كبير، ويُمثل إثراء في الجانب التربوي التكويني للدعاة، فلابد من الاستفادة منه، مُتجاوزين ملاحظاته والشذ فيها حينما كتب في نقد الحركة الإسلامية، فكأني به قد جمع بين سلفية المنهج ونورسية السلوك، فكلامه عن التجربة النورسية التُركية فيه مدح وثناء، وهو في نفس الوقت سلفي المنهج والمعتقد، فيقول- رحمه الله- في «**بلاغ الرسالة القرآنية**» عن القرآن الكريم: «إنه تعالى تكلم، وهو سبحانه متكلم، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، نثبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، لقد تكلم سبحانه وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشرفة، أمة محمد ﷺ».

# ثانيا

# دراسة وبيان لما جاء في كتبه الحسان[(١)]

**مقدمة:**

إن أصعب ما يكون على الإنسان أن يستعرض فكر الكبار من الدعاة، فهم قمم جَنَّدَتْ ما عندها من إمكانات ومواهب لخدمة الدين، فهم إن تحروا الصدق وسلامة المنهج فأصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر، فهم في دائرة الأجر- إن شاء الله- يتواجدون، وعن سلامة المنهج الذي يعتقدونه يُدافعون، وحين يمسكون بالقلم ويكتبون فعلى ربهم يتوكلون، نحسبهم كذلك والله حسيبهم وحسيبنا.

ولسهولة ووضوح الأفكار في الاستعراض النصي أثناء السياحة الفكرية في كتابات المفكر المبدع د. فريد الأنصاري **سنجعل الحديث من خلال محاور محددة، نستلهمها من خلال كتابات الشيخ- رحمه الله.**

ومما لا شك فيه أننا لن نستطيع أن نستخرج كامل الدرر من بحر ما كتب الشيخ فريد، فقد كان مُكثِرًا من كل فن، مبدعًا متميزًا في كل مجالات البحث، ولهذا ولسهولة الحصر والبيان، **سأجعل حديثي من خلال محاور الحراك الدعوي والفكري الذي قام به الشيخ- رحمه الله- سعيًا، ونشاطًا، وكتابة،**

---

(١) ما سنقوم بذكره هو ما فهمناه من منطوق الكاتب المبدع والذي سطره في كُتبه التي ذكرناها في المقدمة، وهذا لا يعني بالضرورة أن مراد الكاتب ما ذكرنا.

وللأمانة العلمية سنقوم- ما استطعنا- بنقل نص المؤلف كما ورد في الطبعة التي أخذنا منها، ومما يحسن التنبيه عليه أننا حينما نذكر ما فهمناه ونكتبه في هذه الورقات لا يعني أننا نرى الرأي الذي كتبه المؤلف، ولكنها سياحة في كتاباته لا في رأينا، كما أننا سنتغافل عن بعض الآراء والعبارات الواردة والتي فيها إثارة فكرية.

ونأمل أن ما سيكون في هذه الأوراق، فيه تفتيح لمسيرة الدعوة للأجيال الحاضرة، وإن لم تكن كذلك فستكون على الأقل إشكاليات دعوية مُثارة تستحق البحث والدراسة من أهل الدعوة من أبناء الحركات الإسلامية.

وسأجعل لكل محور مرجعًا مما كتب. ومن أجل دقة النقل سأجعل في هـامش الفقرات التي تتحدث عن فكره وآرائـه، بيـان المـوطن والـصفحة في المرجـع الذي تم الأخذ منه. وسأعمل جاهدًا على أن تكون الفقرات التي استند إليهـا في بيان رأيه وفكره في المسألة المطروحة في المحور الذي تتحـدث عنـه، مُـشارًا إليها في هامش الصفحة وبنصها؛ حتى يتمكن الباحث مـن الرجـوع إليهـا في مظانها ومكانها؛ من أجل الاستفادة والاستزادة من فيض علم الـشيخ- رحمـه الله.

*** المحـاور التـي سـيتم فيهـا مُدارسـة مـنهج الـشيخ الـدكتور/ فريـد الأنصاري- رحمه الله:**

**المحور الأول: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي :**

وسيتم عرض هذا المحور من خلال مجموعة مسائل:

-**المـسألة الأولى**: موقـع المـسألة الـسياسية في المـشروع الـدعوي للحركـة الإسلامية.

-**المسألة الثانية**: الاجتهاد السياسي الإسـلامي والنفـسية الـصدامية لـدى الحركة الإسلامية.

-**المسألة الثالثة**: بعث الرسالة القرآنية.

-**المسألة الرابعة**: المرحلة الدعوية بين النظرية والواقع.

-**المسألة الخامسة**: الدعوة بين الأخلاق المجتمعية والمسألة السياسية.

**المحور الثاني: بلاغ الرسالة القرآنية :**

وفيه مجموعة مسائل:

-**المسألة الأولى**: الاستفادة من التاريخ والحراك الدعوي.

-**المسألة الثانية**: التبصر في المنهج بداية الطريق.

-**المسألة الثالثة**: التعرف على الله والتعريف به.

-**المسألة الرابعة**: اكتشاف الحياة الآخرة، والطريق للعيش لها.

-**المسألة الخامسة**: رسالة الإسلام بالدعوة للجنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

**المحور الثالث: العالمية وأهميتها في التكوين القيادي والبناء الدعوي** :

وفيه عدة مسائل:

-**المسألة الأولى**: أهمية العلم في الدعوة إلى الله.

-**المسألة الثانية**: مفهوم العالم والعالمية وأركان التكوين.

-**المسألة الثالثة**: الأصول الأربعة للعلوم الشرعية:

١- نصوص الوحي: القرآن والسنة.

٢- علم الفقه وأصوله.

٣- علم التوحيد والتزكية.

٤- فقه اللسان العربي.

٥- فقه الواقع.

-**المسألة الرابعة**: برنامج العالمية.

**المحور الرابع: التربية والتكوين الدعوي** :

وفيه مسائل متنوعة:

- **المسألة الأولى**: أهمية العملية التربوية.

- **المسألة الثانية**: التربية بالوساطة.

- **المسألة الثالثة**: إشكالية في التلقي المصدري.

- **المسألة الرابعة**: إشكالية التربية بين المربي والوسيط.

- **المسألة الخامسة**: الأمة متنوعة في الإمكانات والعطاء.

- **المسألة السادسة**: مراحل التربوية النبوية.

- **المسألة السابعة**: تطور المنهج التربوي النبوي بعد وفاته ﷺ.
- **المسألة الثامنة**: المدرسة الكلامية، ونموذج الوساطة الفكرية.
- **المسألة التاسعة**: المدرسة الفقهية ونموذج الوساطة الفكرية.
- **المسألة العاشرة**: نموذج الوساطة الروحية لدى المتصوفة.
- **المسألة الحادية عشرة**: المدرسة التأصيلية والدعوة إلى التوحيد:

١- الإمام عبد الرحمن بن الجوزي.

٢- الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية.

٣- أبو إسحاق الشاطبي.

٤- محمد بن عبد الوهاب.

**المحور الخامس: الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة :**

وسنعرض ذلك من خلال مجموعة مسائل:

- **المسألة الأولى**: حقائق ثابتة عند المؤلف في التجديد.
- **المسألة الثانية**: الفطرية نقلة نوعية.
- **المسألة الثالثة**: الفطرية وقضية الدين.
- **المسألة الرابعة**: تعريف الفطرية.
- **المسألة الخامسة** : المعالم المنهجية للتجديد الفطري.
- **المسألة السادسة**: برنامج الربانية.

**المحور السادس: مسألة المرأة في العمل الإسلامي :**

وفيه مجموعة مسائل:

- **المسألة الأولى**: بيان لأركان السيماء التربوية للمرأة.
- **المسألة الثانية**: الصورة في التدافع الحضاري.
- **المسألة الثالثة**: الصورة في الإعلام التجاري.

-**المسألة الرابعة**: صوره الحجاب الشرعي.

**المحور السابع: جمالية دين الإسلام** :

وفيه عدة مسائل:

-**المسألة الأولى**: الدعاة إلى الله ومعاني الجمال.

-**المسألة الثانية**: أركان الجمالية في الإسلام.

-**المسألة الثالثة**: البناء العقدي في ظلال القرآن.

-**المسألة الرابعة**: جمال الإسلام على (لا إله إلا الله).

-**المسألة الخامسة**: المحبة بين الله وعباده بالمفهوم الحقيقي.

-**المسألة السادسة**: جمال الربوبية.

-**المسألة السابعة**: عظمة الله.

-**المسألة الثامنة**: جمالية التفكر الإيجابي.

-**المسألة التاسعة**: مفهوم العمر الزمني وأثره في الجمال.

-**المسألة العاشرة**: جمالية الإيمان بالغيب.

-**المسألة الحادية عشرة**: جمالية الانتساب التعبدي.

-**المسألة الثانية عشرة**: جمالية الصلاة أمّ العبادات.

-**المسألة الثالثة عشرة**: جمالية الوضوء.

-**المسألة الرابعة عشرة**: جمالية التوبة.

-**المسألة الخامسة عشرة**: جمالية المحبة.

**المحور الثامن: قناديل الصلاة.. مشاهدات في منازل الجمال**:

-**المسألة الأولى**: صفة الصلاة.

-**المسألة الثانية**: أوقات الصلاة.

**المحور التاسع: مدارسات في رسالات الهدى من التلقي إلى البلاغ** :

-**المسألة الأولى**: مكانة كتاب مجالس القرآن في مشروع الدستور الدعوى.

-**المسألة الثانية**: كيفية صناعة الإعلام الكهنوتي، القدسية على الفراعنة.

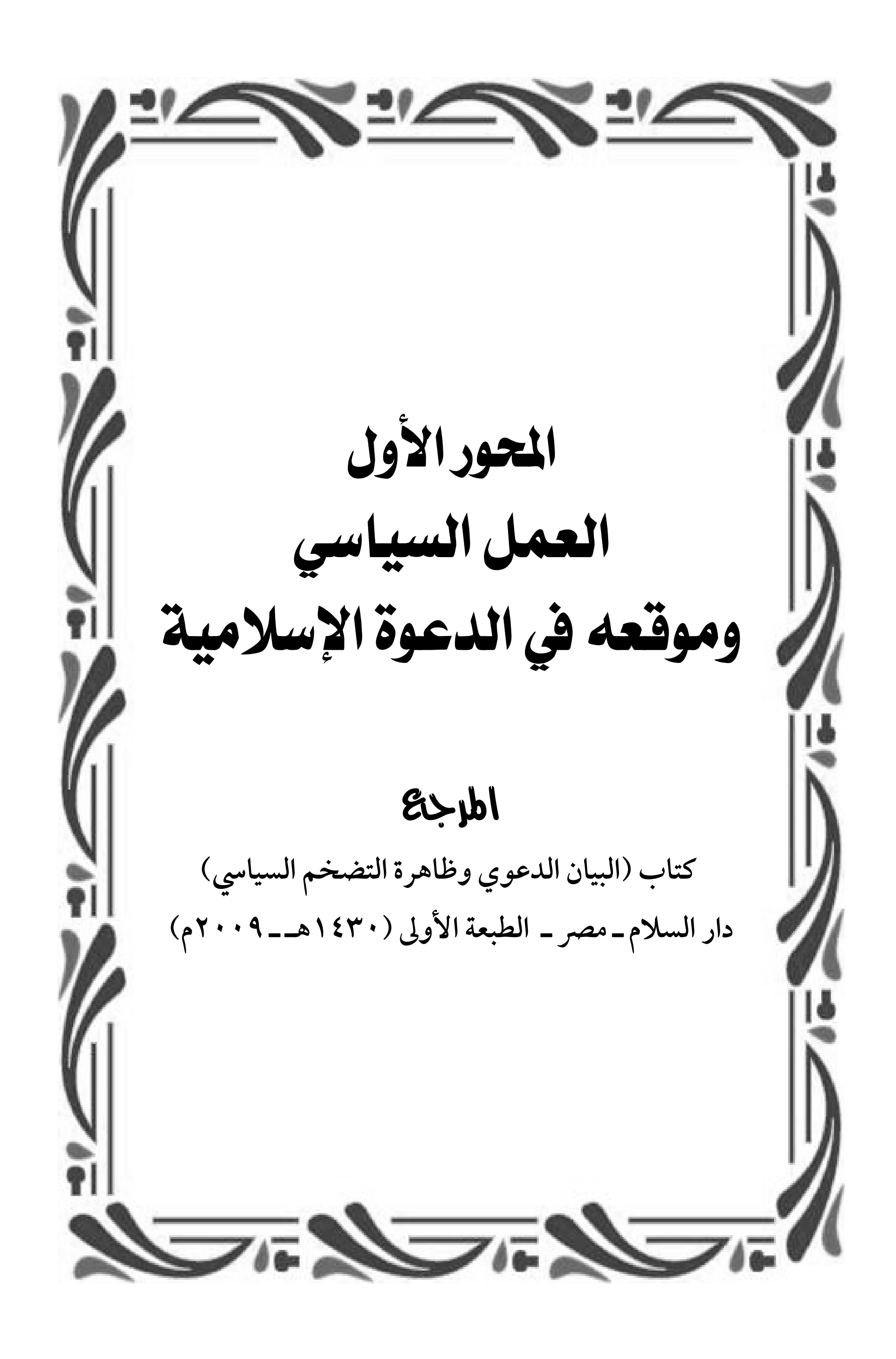
-**المسألة الثالثة**: مجالس القرآن وحركة البعث الإسلامي والتجديد الديني.

-**المسألة الرابعة**: الخطوات المنهجية لتدريس القرآن.

-**المسألة الخامسة**: ضوابط لإنجاح مجلس التدارس.

-**المسألة السادسة**: بيان لمنهاجية التدارس للقرآن.

-**المسألة السابعة**: تطبيقات منهج الابتعاث القرآني من خلال سورة الفاتحة.



# المحور الأول
# العمل السياسي
# وموقعه في الدعوة الإسلامية

## المرجع

كتاب (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي)

دار السلام ـ مصر ـ الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م)

# العمل السياسي
# وموقعه في الدعوة الإسلامية [1]

وفيه سيكون حديثنا من خلال مجموعة من القضايا المتعلقة بالموضوع والتي تشير إلى فكر الشيخ السياسي:

## القضية الأولى

### موقع المسألة السياسية في المشروع الدعوى للحركة الإسلامية

ولوضوح هذه القضية سيكون الحديث من مُقدمة ومسألتين.

وذلك من خلال ما كتبه الشيخ- رحمه الله- في كتابه «**البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي**»:

(١) **المقدمة**: يقول المؤلف- رحمه الله: لا زال الجدل الكلامي في موقع المسألة السياسية من المشروع الدعوي قائمًا منذ نشأة الحركة الإسلامية في صيغتها التاريخية الجديدة إلى يومنا هذا، وهو جدل قائم بين الإسلاميين فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين العلمانيين من جهة أخرى، وتأتي حساسية هذا الموضوع عند أبناء الحركة الإسلامية من جهتين:

أ – **الجهة الداخلية**: ضعف الاستعداد للتقبُّل الذاتي لدى بعض قيادات الحركة الإسلامية ومُنظريها.

ب – **الجهة الخارجية**: المخالفون للمشروع الإسلامي من العلمانيين،

---

(١) سيكون الحديث في هذا المحور بذكر خمس قضايا:

- **القضية الأولى**: موقع المسألة السياسية في المشروع الدعوي للحركة الإسلامية.
- **القضية الثانية**: الاجتهاد السياسي الإسلامي والنفسية الصدامية لدى الحركة الإسلامية المعاصرة.
- **القضية الثالثة**: بعث الرسالة القرآنية.
- **القضية الرابعة**: المرحلية الدعوية بين النظرية والواقع.
- **القضية الخامسة**: الدعوة بين الأخلاق المجتمعية والمسألة السياسية.

وذلك لرغبتهم في تجريد الدين من السياسة. ولذلك فالغالب أن هذه القضية تُناقَش ولا تُكتب، تُعرض ولا تُثبت. وتأتي أهمية القضية السياسية في سياق عمل الحركة الإسلامية بسبب ظهور فلسفة الصراع الحضاري، ومنطق البقاء للأقوى، كما أن العالم الإسلامي اليوم هو المرشح الرئيسي لدور الضحية في الصراع، وخصوصًا بعد انتهاء الشيوعية وسقوط قوة الاتحاد السوفييتي، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. وكتاب «صراع الحضارات» لمؤلفه الأمريكي «صمويل هنتنجتون» وثيقة فكرية تؤكد ما ذكرناه. ولهذا يرى المؤلف- رحمه الله- أن المخرج من صراع الحضارات: إقامة الدين على بعث جديد كما قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وهذا البعث عرض كل الاجتهادات الدعوية على محكمين اثنين:

- كليات الدين.
- مناطاته المحققة[2].

**(٢) مفهوم الحركة الإسلامية والبداية في العمل الدعوي:**

## المسألة الأولى:

### التعريف بمفهوم الحركة الإسلامية:

عند الحديث عن مفهوم الحركة الإسلامية سنعمد إلى مجموعة مفردات وذكر المراد منها:

١- **بيان الحركة الإسلامية:** كل خطاب دعوي وجودي تقصد الحركة أن توصله إلى الآخر بوعي أو بغير وعي، مما يتعلق بذاتها الفعلية وسائر وسائلها

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) يقول المؤلف: إن الكتابة في المحور السياسي محاولة لتلمس موقع «المفتاح» في المسألة الإسلامية التجديدية، ودعوة للحوار الهادئ داخليًا، بعيداً عن الاتهامات والتصنيفات.

التعبيرية المختلفة؛ بدءًا بوجودها العددي التنظيمي إلى خطابها اللغوي إلى سائر أشكال التعبير الوجودي الأخرى، من برامج تربوية ودعوية، وأعمال اجتماعية، وتحركات سياسية... إلخ فهو بيان يدل على وجودها كحركة في المجتمع.

**٢-طرح مجموعة من التساؤلات على العاملين في الحركة الإسلامية** من أجل تنزيل ما ذكرنا في البيان على الواقع، وهو ما يُسمى عند الأصوليين «**تحقيق المناط**»، ونحن نطرح هذه التساؤلات نُقرر ما يلي:

**أ- لا يدعي باحث امتلاك الإجابة القاطعة الشاملة** في تعريف الحركة الإسلامية والإجابات على الإشكاليات المطروحة في هذا الإطار، من مشروع أربكان إلى مشروع طالبان.

**ب- الحركة الإسلامية ظاهرة معقدة جدًا** تحمل في بنيتها الاجتماعية ووعيها الجمعي التراث بشقيه: الديني والفكري، وكذا التاريخ الإسلامي ببعده السياسي والاجتماعي، كما أنها أحلام وأشواق في استشراف المستقبل.

**جـ- حاول كثير من الدارسين تفسير الحركة الإسلامية المعاصرة** من حيث هي «بيان وجودي» تفسيرات شتى، خدمة لمصالح مختلفة، تتباين أهدافها ما بين الحاجة العلمية المجردة، والحاجة الوطنية القومية، إلى الحاجة التجارية النفعية، إلى الحاجة الأمنية الداخلية، والمخابراتية الخارجية.

**وبعد تقرير النقاط السابقة سنذكر مجموعة من الاستفسارات، من أجل تحفيز الذهن:**

- **هل الحركة الإسلامية تعبير لا شعوري عن تهميش تنموي وسياسي؟** أم أنها تعبير عن تحول حقيقي في بنية المجتمع ومسار التاريخ؟

- **هل هي مجرد تجمع بشري مصلحي؟ أم أنها تبلور اجتماعي** لوجدان تعبُّدي ديني ظهر في صورة جمعية؟

- **هل الحركة الإسلامية تعبير ديني محض، له مواقف سياسية؟** أم أنها تعبير

سياسي له صبغة دينية؟

- **هل هي ظاهرة «فرقية» كظاهرة الفرق الكلامية** ذات العمق السياسي التي ظهرت في فجر تاريخ الإسلام؟ أم أنها كظاهرة الطرق الصوفية؟ أم هي ظاهرة جديدة تمامًا لا هي بهذه ولا بتلك؟

- **هل الحركة الإسلامية تستغل الدين للوصول إلى مآرب شخصية؟** أم أنها إحياء لنظام حركة التحرر الوطني الذي تجاوزه الواقع التاريخي؟

-هل هي حركة تستجيب لتحريك أجنبي؟ أم أنها حركة وطنية وتعبير عن ضمير الأمة؟

- **هل الحركة الإسلامية ظاهرة مرضية يجب محاربتها؟** أم هي ظاهرة صحية يجب تسديدها وترشيدها؟

بعد ذكر هذه الأقوال المطروحة في سوق الفكر والسياسة يكون من المناسب اعتماد منهج «السبر والتقسيم» للبحث عن العلة على طريقة علماء الأصول لمعرفة الحكم، ثم البحث في أوصاف ظاهرة الصحة كما هي في الواقع «لتحقيق المناط»[١].

## المسألة الثانية[٢] :

### الطبيعة الدعوية للحركة الإسلامية:

عند بيان الطبيعة الدعوية للحركة الإسلامية لابد من الاتفاق على أن الدين الإسلامي «نصوص»، بغض النظر عن الفهوم، وأن هذه النصوص إما قرآن وإما سنة، وقد أجمع الأصوليون على أنه إذا تواتر «مفهوم» من النصوص تواترًا كليًا استقرائيًا لا نمطيًا فحسب كان «كلية» من كلياته الاستقرائية، كما ذكر الإمام أبو إسحاق الشاطبي- رحمه الله- في قوله: «الأدلة المعتبرة هنا

(١) انظر: البيان الدعوى وظاهرة التضخم السياسي ص ٢١- ٣٢.
(٢) من القضية الأولى: موقع المسألة السياسية في المشروع الدعوي للحركة الإسلامية.

المستقرأة من جملة أدلة ظنية تضافرت على معنى واحد حتى أفادت فيه القطع، فإن للاجتماع من القوة ما ليس للافتراق، ولأجله أفاد التواتر القطع، وهذا نوع منه، فإذا حصل من استقراء أدلة المسألة مجموع يفيد العلم فهو الدليل المطلوب، وهو شبيه بالتواتر المعنوي، بل هو كالعلم بشجاعة علي ﷺ ووجود كرم حاتم، المستفاد من كثرة الوقائع المنقولة عنهما». ويقول: «وإذا تكاثرت على الناظر الأدلة عضد بعضها بعضًا، فصارت بمجموعها مفيدة للقطع، فكذلك الأمر في مآخذ الأصول»[١].

ولهذا يرى الشاطبي أن الأصول هي القواعد الكلية[٢].

وكذلك من مقولاته: «الأصول إما ذاتية كالكتاب والسنة، وإما معنوية، كالإجماع والقياس، ورفع الضرر ورفع الحرج، وسد الذرائع، وغيرها من «الكليات الاستقرائية القطعية» التي لا مادة لها في صورتها الكلية، وإنما هي معانٍ مبثوثة في «الأصول الذاتية» وينظمها الاستقراء في صورة قطعية»[٣].

**ثم يخلص الكاتب إلى مقدمتين بين يدي تعريف الحركة الإسلامية:**

**المقدمة الأولى: أن الدين الإسلامي يقدم تفسيرًا خاصًا للوجود،** ويضع الإنسان في موقع مُعين منه. ويُجيب عن الأسئلة الوجودية «من أين؟ وإلى أين؟ وكيف؟» إنه يملأ القلب سكينة وطمأنينة بالمعنى الإيماني، وينفي عنه القلق النفسي لتكون «أوامره ونواهيه»- عند من يؤمن به- ذات قداسة مُطلقة، فالقرآن يُفسر وجود الإنسان ويربطه بوظيفته داخل الوجود.

**المقدمة الثانية: أن الإسلام دين دعوي بالمعنى «الرسالي» العقدي،** وهو ما يُسمى بـ«توحيد الاتباع» بتحقيق شهادة «أن محمدًا رسول الله» وهذا يجعل المسلم مكلفًا بتحمل تكاليف الدين، وهذا المعنى سارٍ في كل الأعمال

(١) الموافقات (١/ ٣٦-٣٧).
(٢) الموافقات (٣/ ٩٧).
(٣) المصطلح الأصولي عند الشاطبي للدكتور فريد الأنصاري.

الاعتقادية والعملية؛ بدءًا بالصلاة، وانتهاءً بالجهاد في سبيل الله.

**وعلى ما تقدم في المقدمتين، فالإسلام بطبيعته دين حركي**، فهو يبني كل قضاياه العقدية والتشريعية على كلية كبرى، وهي «الإصلاح» للناس وبَيْنَ الناس؛ سواء كان ذلك بمنطق الدعوة إلى الله عمومًا، أو بمنطق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصوصًا، وسواء كان ذلك داخل البيئة الإسلامية أو كان من خارجها، حتى إن جميع أحوال التدين في الإسلام ذات طبيعة وجدانية إصلاحية، موجودة على كل حال في الوعي الجمعي الإسلامي، ولو على المستوى اللاشعوري[1].

ثم يقوم الكاتب- رحمه الله- بعد ذكر ما سبق بالاستدلال التفصيلي فيقول: **إن مرجع ما ذكرناه فيما يتعلق بأمر الحركة والدعوة الإسلامية إلى استقراء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة:**

**أ ـ نصوص القرآن الكريم**: من الاستقراء نتبين أن مفهوم الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤكد أن مفهوم الإصلاح عبادة من العبادات المقرونة بالصلاة والزكاة وسائر الشعائر التعبدية العينية أو الكفائية، نحو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[3].

**ب ـ من السنة**: الناظر فيها يجد بحرها زاخرًا بـ«الدين الدعوي» كما قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجاب لكم**»[4]. والأحاديث

(١) البيان الدعوى وظاهرة التضخم السياسي، ص ٣٢-٣٦.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) لقمان: ١٧.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٦٩)، وحسنه الألباني.

في هذا المعنى لا تكاد تنحصر، إنما تُشكل قوة معنوية متواترة وكلية في أعلى مراتب الكليات.

ثم يتحدث الكاتب- رحمه الله- عن أعلى درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيُقرر أن **فريضة الجهاد في سبيل الله تشكل كلية من كليات الإسلام؛ لأنها قائمة على تحقيق «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» وأن الإشكال والخلاف القائم فيها يتعلق «بتحقيق المناط» وكيفية التنزيل والتطبيق على خصوص مُعين من الزمان والمكان والإعلان.**

ثم يذكر- رحمه الله- فهم العلماء لمسألة الجهاد، ويؤكد أن القرآن من سورة البقرة إلى المفصل يتحدث عن الجهاد لفظًا ومفهومًا، مع وجود سورتي الأنفال والتوبة، وهما عسكريتان في القرآن بامتياز.

أما السيرة فتكاد تكون قائمة كلها على تاريخ الغزوات والسرايا، وينتهي إلى أن الجهاد فريضة مُستمرة الوجوب إلى يوم القيامة بإجماع علماء الأمصار[1].

**المسألة الثالثة:**

**في إثارة إشكال البداية في العمل الإسلامي من خلال الأسئلة الآتية**[2]:

من أين نبدأ؟ من القمة أم من القاعدة؟ من الشعب أم من الدولة؟ هل العمل السياسي هو المفتاح للإصلاح؟ أم العمل الديني الشعبي؟ أم هما معًا؟ وإذا كان لابد من الجمع بينهما فلأي منهما تكون الأولوية عند المزاحمة والموازنة؟ وعلى هذه الإشكالية كانت مقولة «الدولة الإسلامية» مفترق طرق بين بعض الحركات الإسلامية اليوم، فهناك من يجعلها هدفًا من إقامة الدين، وهناك من يجعلها وسيلة لإقامة الدين، وهناك من يجعلها نتيجة فقط؛ فهي ليست هدفًا ولا وسيلة[3].

(١) البيان الدعوى وظاهرة التضخم السياسي، ص ٣٧-٥١.
(٢) لبيان القضية الأولى: «موقع المسألة السياسية في المشروع الدعوي للحركة الإسلامية».
(٣) البيان الدعوى وظاهرة التضخم السياسي، ص ٥٣-٥٧.

**وهذه الإشكالية جعلت المؤلف- رحمه الله- يبحث في أصل المسألة من حيث:**

**١ ـ مراتب التشريع الإسلامي.**

**٢ ـ المرتبة التشريعية للأحكام السياسية.**

**فيقول- رحمه الله:** إن علماء أصول الفقه نبهوا إلى قاعدة تشريعية عظيمة متعلقة بـ«مراتب التشريع»، ومفادها أن ما كان من أصول الدين الاعتقادية أو العلمية يكون أصل تشريعه في القرآن، ومكانة السنة البيان والتفصيل من بيان الهيئات وبيان الكيفيات، ثم ذكر الآيات الدالة على أركان العقيدة والشريعة والواجبات والمحرمات، وذلك لقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1] أي: من أصول التشريع وكليات الأحكام، وما ورد من هذه الأمور في السنة فهي من باب تأكيد التشريع لا تأسيس التشريع، وأما ما تفردت السنة بتشريعه تأسيسًا من الواجبات والمحرمات، فإنه لا يكون من الأصول والكليات، وإنما هو من الفروع والجزئيات بالنسبة لما ورد في القرآن من التشريع. وأما ما سكتت عنه النصوص جميعًا من الكتاب والسنة وأحيل على الاجتهاد، فإنما هو من المرتبة التشريعية الثالثة، وذلك من حيث قصد الشارع إليها، وليس فقط من حيث هي مسألة اجتهادية، فالسكوت تشريع كما قال علماء الأصول «السكوت في معرض الحاجة بيان»[2].

والكاتب - رحمه الله- لم يغفل عما يُثار في هذا الموضوع بالاستشهاد ببعض حديث النبي ﷺ مثل قوله: «**يوشك الرجل أن يقعد متكئًا على أريكته ليحدث بحديث من حديثي، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه. ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما**

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) أصول الشاشي (١/ ٢٦٢)، وبيان هذا الترتيب- القرآن ثم السنة ثم الاجتهاد- موضح في الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، ص ١٥٨-١٥٩، ص١٨١، وعند الشاطبي في الموافقات (٤/ ٧).

**حرم الله**»[1]، لأننا نقول: هذا الحديث سياقه الأصيل إنما هو في ذم من أنكر الاستدلال بالسُّنة جملة وتفصيلًا، لا في ذم من رتبها؛ حيث رتبها الله ورسوله ﷺ وعلماء الأصول كما سبق في نص إمام الأصوليين الشافعي- رحمه الله.

وقد أطال إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي في هذا الأمر، بل ذهب إلى أكثر من ذلك في الترتيب، فرتب ما نزل في مكة مُقدمًا على ما نزل في المدينة فقال: «إن الـمُنزل في مكة من أحكام الشريعة هو ما مكن من الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر»[2]، ويقول: «إن المدني من السور ينبغي أن يكون مُنزلًا في الفهم على المكي»[3].

ويقول: «أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها»[4]؛ **ولهذا كانت الدلالات الأصولية مترتبة بالقوة: «فالمعنى العباري» قبل «المعنى الإشاري»، والمنطوق أولى من المفهوم**، والقاعدة الترجيحية عند التعارض أنه «**لا عبرة بالدلالة في مقابل التصريح**»[5]، وعلى هذا فالدعوة إلى الله والإصلاح واجب بالمنطوق، فلا خلاف فيه، أما الوسائل والطرق فداخلة في الإشارة إلى الوسائل، فوجوب الدعوة لا يتناطح عليه كبشان، وهذا التحديد في مراتب التشريع وقوة الأحكام الشرعية وبناؤها على أولوية القصد التشريعي لما نص عليه القرآن أولًا، ثم ما نصت عليه السنة ثانيًا، ثم ما ترك للاجتهاد ثالثًا، هو الذي جعل الإمام أبا حنيفة يفرق بين الفرض والواجب، وبين الحلال والحرام، والمكروه كراهة تحريم، ثم المكروه كراهة تنزيه، فجعل الفرق بين الحلال وبين الحرام لما

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢)، وصححه الألباني.
(٢) الموافقات (٣/ ١١٤).
(٣) الأنعام: ١١٩.
(٤) الموافقات (٢/ ٨٨).
(٥) مجلة الأحكام العدلية (١/ ١٧).

ثبت بالقرآن، وما دون ذلك لما ثبت بالسُّنة[(١)] .

وذكر الكاتب في إطار حديثه عن الترتيبات الكلية: «أن كل ما كان مقصودًا للشارع بالأصالة فُصّل تشريعه تفصيلًا»، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[(٢)]، فيكون تفصيلها بالكتاب والسنة، أما حيث لا تجد التفصيل بالكتاب ولا بالسنة وإنما مجملات تشريعية أو عموميات قرآنية أو سنية، فمعناه أن ذلك الحكم قد أحيل تفصيله على الاجتهاد[(٣)].

وبعد هذا الاستطراد في توضيح الترتيب في التشريع عرَّج على بيان المرتبة التشريعية للأحكام السياسية المتعلقة بتدبير الشؤون العامة للدولة على المستوى الدستوري والإداري التنفيذي، وقد سُمِّيَ في التآليف القديمة بـ«الأحكام السلطانية»[(٤)] أو «السياسة الشرعية»[(٥)]، ثم جاء بمجموعة من التعريفات لما يتعلق بالأحكام السياسية[(٦)] .

ثم طرح الفكرة التي يؤمن بها- رحمه الله- وساق عليها الأدلة، بمعنى أنه ساق الدعوى قبل أدلته فقال: «الأحكام السياسية بالمعنى الذي ذكره العلماء لم تنل من التشريع الإسلامي في الغالب إلا المرتبة الثالثة، بينما أغلب القوانين التشريعية التي هي مادة بناء الدولة موجودة في القرآن والسنة والاجتهاد، وهي ما يمكن تسميته بالبنية التشريعية التحتية المنظمة للدولة والمجتمع، ومنه القانون الخاص والعام، فهذه قد نص القرآن الكريم والسنة عليها بنصوص تفصيلية وإجمالية نحو القانون العام: العقوبات ومقاديرها، القانون المالي،

(١) شرح القواعد الفقهية للزرقا، ص١٤١ .

(٢) الموافقات (٣/ ٤٠٦).

(٣) البيان الدعوي ص ٥٩- ٦٨ . هذا وقد فصل ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات (٣/ ١٣٠- ١٣٢).

(٤) للماوردي (ت ٤٥٠هـ).

(٥) كما عبر شيخ الإسلام ابن تيمية في ص ٧٢٨.

(٦) نقولات من كتاب «السياسة الشرعية» للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ١٧، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي في «السياسة الشرعية» ص ١٥ .

القانون الدولي، وما يتعلق بأحكام السلم والحرب، وكذلك القانون الخاص، نحو القانون المدني والتجاري، وقانون العمل...» والناظر في «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، و«أحكام القرآن» للجصاص الحنفي، والتحديثيات نحو «الاستذكار» لابن عبد البر، و«سبل السلام» و«نيل الأوطار»، يجد أنها من كتب الفقه الإسلامي التي استغرقت من التشريع التفصيلي الشيء الكثير من العبادات والعادات والمعاملات.

ويخلص الكاتب- رحمه الله- إلى أن الإسلام:

**١-قد وضع الإطار العام لقيام الدولة بمعناها الشامل؛ وذلك بتشريع العموميات فيما تحتاج فيه إلى عموميات، وتشريع الخصوصيات فيما تحتاج فيه إلى خصوصيات.**

**٢-أما ما يتعلق بـ «باب الإمامة الكبرى» وهو ما يُسمى اليوم «بالقانون الدستوري» أو «فن حكم الدولة» نحو الأمور المتعلقة بمنصب الخليفة ومؤسسة الخلافة، وهيكل الدولة وشكل السلطة... فهذه لم تنل من التشريع القرآني إلا مجملات نادرة، ومن التفسير السني إلا إشارات عابرة، ومن الاجتهاد الفقهي إلا النزر اليسير، فإن الإمامة الكبرى لم يُعرف التأليف فيها إلا بعد عصور الاجتهاد**[1].

فمن أقدم ما صنف في هذا المجال كتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ، أي خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، و«الأحكام السلطانية» أيضًا لأبي يَعْلَى الفراء الحنبلي المتوفى ٤٥٨هـ، ثم «غياث الأمم» لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني المتوفى سنة ٤٧٦هـ، ثم «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، و«الطرق الحكمية في إصلاح الراعي والرعية»

---

(١) انظر كتاب «السياسة الشرعية» للدكتور الشيخ يوسف القرضاوي.

لتلميذه ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ، وكتاب «تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام» لابن جماعة المتوفى سنة ٧٤٩هـ، ثم كتاب «معيد النعم ومبيد النقم» لتاج الدين عبد الوهاب بن السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ، وبعد ذلك كتاب «نقد الطالب لزغل المناصب» لشمس الدين محمد بن طولون الصالحي الدمشقي.

ثم جاءت كتب المعاصرين مثل الشيخ عبد الوهاب خلاف، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور فتحي الدريني وغيرهم.. وترك الأمر للاجتهاد في إطار الكليات العامة.

لهذا كانت قضية الفقه السياسي من أهم أسباب الاختلاف الحاصل اليوم بين فصائل الحركة الإسلامية المعاصرة، بل هي من الأسباب التي أظهرت الفِرَقَ والمذاهب الإسلامية في القديم، حتى قال الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة»[1]. وهذا الاختلاف وضحه شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: «ولله الحمد لم يُسلَّ سيف عَلَى خلافة أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا كان بين المسلمين في زمنهم نزاع في الأمة، فضلًا عن السيف، ولا كان بينهم سيف مسلول على شيء من الدين».

وبعد هذا الاستطراد قال المؤلف د. فريد- رحمه الله- عن الاختلاف في مسألة الإمامة: وما كانوا ليختلفوا هذا الاختلاف الشديد لو كان هناك من النصوص التشريعية القرآنية والحديثية، في المسألة السياسية والدستورية ما يجمع المذهب على أصول كلية وأحكام رئيسية كما هو الشأن في أغلب التشريع الإسلامي في العبادات والعادات، ثم قال: لنحقق ذلك على مناطاته.

أما القرآن، فقد أجمع السابقون واللاحقون على خلوه من نصوص

(١) مما لا خلاف فيه أن النزاع حول الإمامة في الأزمنة التالية واضح.

مخصوصة بالشأن السياسي، ماعدا آيتي الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[1] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[2] والآيتان مع ذلك ليستا نصًا على الشورى بالمعنى السياسي إطلاقًا، وعندما أقول (نصًا) فبالمعنى الأصولي العلمي للكلمة، أي: (العبارة الدالة على معنى واحد لا يحتمل التأويل) وإنما هي دالة عليه (إجمالًا) و(إطلاقًا) وهو واحد من مقتضياتها.

وأما السنة- وهي محل البيان والتفصيل- فلم تفصل في الأمر شيئًا، بل إن أغلب ما ورد فيها من أحاديث عن الشأن السياسي، هو من (أحاديث الفتن)، ومعنى أحاديث الفتن- باصطلاح المحدثين: الأخبار النبوية التي تحدث فيها رسول الله ﷺ عما سيقع بعده من حوادث إلى ما بين يدي الساعة، ومن ذلك أحوال الخلافة والملك.

ومن أشهر ما ورد في الشأن السياسي من الحديث النبوي قوله ﷺ: «**ستكون النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكًا عاضًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**»، ثم سكت[3].

وبعد ذكر الحديث يقول- رحمه الله- في التدليل على عموميات النصوص المتعلقة بالخلافة:

**أولًا**: الدلالة الأصولية لهذا الحديث بكل مراتبها الممكنة هي مجرد وصف خبري لما سيكون عليه الحال بعد النبي ﷺ من أمر الخلافة والملك إلى ما شاء الله، فهو إذن من أحاديث الفتن، لا من نصوص التشريع؛ هذه واحدة.

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الشورى: ٣٨.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥).

**ثانيًا**: أن الحديث بحاجة إلى الاجتهاد المتعلق بـ(تحقيق المناط) بتعبير الأصوليين؛ أي: التنزيل على معين؛ إذ لا نص على أن هذا النظام أو ذاك هو من الخلافة أو من الملك العاض، أو الملك الجبري؛ فالتعيين والتنزيل إذن محض اجتهاد، وليس من نص الحديث.

**ثالثًا**: أن (الدلالة العبارية) تدل على أن كلاً من الملك العاض والجبري داخل في مفهوم (الخلافة) لكن لا على منهاج النبوة قال: «**ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا ثم تكون ملكًا جبريًّا**»، فواضح جدًا- لمن يعقل قواعد العربية- أن الضمير المستتر في (تكون) يعود على لفظ الخلافة، فالخلافة هي التي تكون تارة على منهاج النبوة، وتارة ملكًا عاضًّا، وتارة جبريًّا. وبهذا المنطق أكد ابن تيمية – رحمه الله «أن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا ينافي العدالة، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل»[1].

**رابعًا**: أن الخلافة بناء على ما أَصَّلْتُ (تجربة بشرية) غير معصومة، قد تسمو حتى تكون على منهاج النبوة، وقد تنحط حتى تكون ملكًا عاضًّا، أو جبريًّا، ولكنها (خلافة) في نهاية المطاف، وهذا الإنسان المسلم في إسلامه قد يسمو حتى درجة الصديقين كأبي بكر، وقد ينحط حتى درجة الفجار كالحجاج بن يوسف الثقفي، ولكن لا يجوز تكفيره! وبين الدرجتين مراتب مختلفة بين السمو والانحطاط، وصفة الإسلامية باقية على كل حال، هذا على عقيدة أهل السنة والجماعة.

وبعد جمع الأحاديث المتعلقة بالإمامة والحكم ومناقشة مذهب السيف ومذهب الصبر، نراه ينتصر لمذهب الصبر، ثُم يرجع بعد ذلك للتأكيد على أن أحاديث الفتن ليست محل التشريع، بل هي كأحاديث «أشراط الساعة

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٦).

وأماراتها» لحفظ التدين الفردي من الفتن المتوقعة.

**ثم يُثير مجموعة من التساؤلات في هذا الموضوع فيقول:**

**أين نصوص وجوب تنصيب الإمام أو الخليفة؟ أين نصوص شكل الشورى وقواعدها ونواقضها؟ أين نصوص تحريم الملك أو إيجابه؟ أين نصوص تقسيم السُّلطة وتصريفها؟ أين نصوص مدة الترؤس والاستخلاف بين العمر وبعض السنوات؟ أين نصوص الوزارات وحدود وظائفها؟ أين وأين وأين؟**

وقد يقال على سبيل الاعتراض: إن إمامة النبي ﷺ في زمانه هي نفسها تشريع سياسي، أليس هو المُبَلِّغُ عن الله؟

والجواب: أن علماء التشريع الإسلامي منذ القدم فرَّقوا في تصرفات النبي ﷺ بين التصرفات بالإمامة، والتصرفات بالرسالة، والتصرفات بالفتيا، والتصرفات بالقضاء، وأن (التصرفات بالإمامة) هي تصرفات مصلحية؛ لسياسة أناس في زمان معين ومكان معين، لا تلزم غيرهم، فلا علاقة لها بالتشريع، وإنما التشريع متعلق بتصرفاته ﷺ بغير الإمامة.

قال الإمام شهاب الدين القرافي (ت ٦٨٤) في كتابه القيم «الإحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام»: «**وأما تصرفه ﷺ بالإمامة، فهو وصف زائد على النبوة، والرسالة، والفتيا، والقضاء، لأن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق، وضبط معاقد المصالح، ودرء المفاسد، وقمع الجناة، وقتل الطغاة، وتوطين العباد في البلاد.. إلى غير ذلك مما هو من هذا الجنس.**

وهذا ليس داخلًا في مفهوم الفتيا ولا الحكم، ولا الرسالة، ولا النبوة؛ لتحقق الفتيا بمجرد الإخبار عن حكم الله- تعالى- بمقتضى الأدلة، وتحقق الحكم- يعنى: القضائي- بالتصدي لفصل الخصومات دون السياسة العامة، لاسيما الحاكم- أي القاضي- الذي لا قدرة له على التنفيذ، كالحاكم الضعيف

لا قدرة له على الملوك الجبابرة، فالحاكم من حيث هو حاكم: ليس له إلا الإنشاء، وأما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكمًا، فقد يفوض إليه التنفيذ، وقد لا يندرج في ولايته، **فصارت السلطة العامة التي هي حقيقة الإمامة؛ مباينة للحكم من حيث هو حكم، أما الإمام إذا لم تفوض إليه السياسة العامة فغير معقول، إلا على سبيل إطلاق الإمامة عليه مجازًا، والكلام إنما هو في الحقائق**»[1].

**ملاحظة:**

إن العلماء لما أرادوا الاستدلال على وجوب تنصيب الإمام- وهو أعلى حكم تشريعي في القانون الدستوري- لم يجدوا ولا نصًا واحدًا يُمكن أن يعتمد (نصًا) باصطلاحهم؛ فاعتمدوا دليل الإجماع! قال الإمام الماوردي: «**وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع**»[2]، وقال الإمام الجويني بعد ذلك مفصلًا ومبينًا: «والقواطع ثلاثة: نص في كتاب الله لا يتطرق إليه التأويل، وخبر متواتر عن الرسول ﷺ لا يعارض إمكان الزلل روايته ونقله، ولا تقابل الاحتمالات متنه وأصله، وإجماع منعقد (...) ولا مطمع في وجدان نص من كتاب الله- تعالى- في تفاصيل الإمامة! والخبر المتواتر- يعني من السنة- معوز أيضًا، فآل مآل الطلب في تصحيح المذهب «يعني الإمامة» إلى الإجماع»[3].

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب السياسة الشرعية من قياس ضعيف يستعملونه للدلالة على وجوب تنصيب الإمام؛ وهو البناء على علة الاجتماع في حديث السفر؛ حيث يقول النبي ﷺ: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»[4].

(١) الأحكام في تمييز الفتاوى ص ١٠٥.
(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٩.
(٣) غياث الأمم، ص ٣٤. وهذا ما ذهب إليه قبله الإمام الشافعي في «الرسالة»، ص ٤١٩- ٤٢٠.
(٤) رواه أبو داود (٢٦٠٨)، وقال الألباني: حسن صحيح.

إن فراغ النص الشرعي من هذا الحكم بالذات هو ما يسميه الأصوليون بـ(المسكوت عنه)، والمسكوت عنه مصطلح دال على أن (السكوت) هنا مقصود شرعي لحكم تشريعي، فعدم التشريع في هذا السياق تشريع، وذلك كما يلي:

**أولًا: لابد من التقرير ابتداءً أن أقوى أدلة وجوب تنصيب الخليفة أو الإمام هو الإجماع**، بغض النظر عن اختلافهم في تعيين هذا أو ذاك؛ فالعبرة في الإجماع هنا التواطؤ على وجوب التنصيب، والإجماع يفيد القطع، كما هو معلوم في الأصول، وكما بيَّن ذلك الجويني في كلامه المستدل به قبل.

**ثانيًا: إن سكوت الشارع عن ذلك (نصًا) إنما هو تشريع يستفاد منه حكمان شرعيان:**

**أحدهما:** إحالة هذا الأمر كله على الاجتهاد؛ نظرًا لارتباطه بالعادات والاجتماع البشري العمراني أساسًا؛ ولذلك كان موكولًا إلى المسلمين أن يطوِّروا نظام الحكم على حسب متطلبات الزمان وأهله، ويكيِّفوه حسب مقتضيات العصر، **على أساس (كلي) واحد: هو حفظ مقاصد الشريعة، الضرورية، والحاجية**، والتحسينية، وذلك أساس الخلافة الإسلامية في أعلى مستوياتها، وتتفاوت مراتبها في (الإسلامية) على حسب درجة الخدمة، أو عدمها.

**والثاني:** قاعدة أصولية جليلة القدر، نص عليها أبو إسحاق الشاطبي- رحمه الله- وهو قوله: «**ما كان شاهد الطبع خادمًا له ومُعينا عليه، بحيث يكون الطبع الإنساني باعثًا على مقتضى الطلب (...) فقد يكتفي الشارع في طلبه بمقتضى الجبلة الطبيعية والعادات الجارية؛ فلا يتأكد الطلب تأكد غيره(...) ألا ترى أنه لم يوضع في هذه الأشياء على الخلافة حدود معلومة؟**»[1]. **وطلب الرياسة أمر مجبول عليه الإنسان؛ بدليل الاستقراء التاريخي والمشاهدة، ومن هنا أحيل تنصيب الخليفة على الاجتهاد.**

(١) الموافقات (٣/ ١٣٠- ١٣٢).

**ثالثًا**: إن من أهم معاني (السكوت الشرعي) عن الأمر عدم اعتباره من الأصول الدينية العقدية ولا التعبدية. وهذا معتقد جمهور أهل السنة والجماعة وغيرهم من الفرق[١].

ثم يقول- رحمه الله: إن (سكوت الشرع) عن الأمر يفيد أحد أمرين: إما تركه على مقتضى الإباحة والبراءة الأصلية، وإما إحالته على الاجتهاد الشرعي وهذا منه؛ لأنه ثبت بالإجماع، ويميل إليه الطبع الاجتماعي، وأن الشأن السياسي لا يمكن أن يغيب عن المجتمع البشري المنظم، وهو ضرورة من ضرورات الاجتماع البشري والعمراني، على حد تعبير ابن خلدون.

ثم إنه لا يسمى السكوت الشرعي (سكوتًا) إلا بشروط علمية؛ أهمها: وجود (المقتضِي للكلام) وهذا معلوم في (أصول الفقه) والمقصود (بالمقتضى) وجود الدواعي للتشريع نصًا، ثم لا ينص عليه. **والدواعي في مسألتنا أكثر من أن تحصى، فقد جاء الإسلام بين دولتين عظيمتين**: الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية البيزنطية، ونشأت الحضارة العربية على أنقاض ممَالِكِ اليمن، بل لقد هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وقبيلتا الأوس والخزرج على وشك تنصيب (عبد الله بن أُبَيّ) ملكًا عليهم، وأَمَرَ قبل ذلك بالهجرة إلى الحبشة وهي دولة ملكية، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن بالحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد**»[٢]، ثم إنه بمجرد وفاة النبي ﷺ حدث ما حدث بين الصحابة من الخلافة في المسألة السياسية في سقيفة بني ساعدة.

**فكل هذا ونحوه قاطع في وجود المقتضى التشريعي النصي الصريح، ولكن مع ذلك لا نص يمكن القطع بدلالته على ما نحن فيه، ولو كان لارتفع الخلاف**

---

(١) وقد اشتد إمام الحرمين الجويني في الرد على من قال بأن الخلافة بالنص القرآني والحديثي، ليخلص بعد ذلك إلى قوله: «وليست الإمامة من قواعد عقائد الأمم» غياث الأمم للإمام الجويني ص ٣٤.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٩/ ٩). والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦٤٩)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٥٧٩)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٨)، وذكره ابن حجر في فتح الباري على سبيل الجزم به مرفوعًا إلى النبي ﷺ (٧/ ١٨٨).

**منذ اللحظة الأولى عند نزول أول نازلة من هذا القبيل على المسلمين؛ بل قد استشرى الخلاف حتى صار إلى ما عرف في التاريخ بالفتن السياسية. فهل كان الشارع غافلًا عن هذه المسألة؟ طبعًا كلا، فهذا وحي من الله- ذي الجلال والكمال- على نبي معصوم، ودواعي ذلك كانت حاضرة في العالم آنئذ بقوة، إلا أن الشارع (سكت) عن المسألة، والمسكوت بهذا الاعتبار تشريع، مفاده أن قصد الشارع ألا يكون فيها تشريع منصوص، وأن تحال على الاجتهاد البشري المحض؛ ولذلك لا تكون بالنسبة لجوهر الدين من حيث هو (دين) إلا وسيلة، لا ركنا ولا غاية، ووجوبها إنما هو من الوجوب الوسيلي،** أي كما يقول العلماء في قاعدتهم من باب (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

**رابعًا**: وعليه، فإن العبادات المحضة هي أصول الإسلام وأركانه الإيمانية والعملية، مما نص عليه في الكتاب والسنة، كما في حديث جبريل المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

**وبعد استخدام الدكتور فريد- رحمه الله- كل الأدوات الشرعية لبيان أن مسألة الإمامة ليست من أصول الدين؛ وضَّحَ إشكالًا قد يزحف إلى المذهب المُتابع للمكتوب فقال**: نعم لا خلاف في أن قيام الدولة الإسلامية مطلب شرعي ضروري؛ لتحقيق مناطات الأحكام الشرعية المتعلقة بالمؤسسات: كالقضاء، والجهاد، والحسبة، وحماية التدين العام في المجتمع، ولا خلاف في أن الذي يقول بفصل الدين عن الدولة جاهل بالدين، وجاهل بالدولة معًا. فأما جهله بالدين، فلأنه قد علم من الدين بالضرورة، أن أحكامه العامة لا تقوم- على المستوى الاجتماعي- إلا بالدولة، كالتشريع الجنائي والقضائي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري وسائر أشكال المعاملات المالية.

وأما جهله بالدولة، فلأنه علم ضرورة أيضًا أنه ما من دولة قامت في الواقع

(١) عند مسلم (٨) والذي في أوله: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله...**».

إلا وهي مستندة إلى خلفية أيديولوجية معينة، تقوم مقام الدين؛ فالاشتراكية والعلمانية والليبرالية... إلخ كل ذلك عندما تلتزمه الدولة كقيم عليا تحافظ عليها وتقدسها؛ يكون بمعنى الدين بالنسبة إليها، **فلا دولة إذن إلا ولها دين، بل إنَّ المسوغ الأول لقيام الدولة إنما هو ما تتضمنه من مذهبية تصورية للعقد الاجتماعي، وبمجرد أن يعلن في الدستور أن دين (الدولة) الإسلام، فقد التزمت هذه المؤسسة- شكليًا- بكل ما يقتضيه هذا الدين. فإما أن ترجع إذن إلى ما دبجته في دستورها، فتكون دولة إسلامية بالفعل كما هي بالقوة، وإما أن ترجع إلى غيره، فتكون بذلك مناقضة لنفسها. ومن هنا كان ممن يقول بالفصل بينهما جاهلًا بهما معًا.**

**إلا أن ذلك لا ينبغي أن يقودنا إلى الغلو- في ردة الفعل- لنجعل الدولة في كل الدين والسياسة هي غاية رب العالمين من إرسال المرسلين، وإنما الحق أن الدولة (آلة) من آلات الدين إن لم يكن بها دعوة كان بغيرها**، حتى إذا استوى هو في الناس إسلامًا وإيمانًا كانت هي به، وجاءت على شرطه، أي جاءت نتيجة طبيعية تلقاء قيامه.

**ومن هنا كان من الخطأ في المنهج الإسلامي الدعوي أن تختزل الدعوة الإسلامية- كل الدعوة الإسلامية- في برنامج (سياسي).**

**ثم يذكر- رحمه الله- أمرًا مهمًا في إنجاح الدعوة؛ وذلك من خلال البحث عن مادة علمية بمسمى جديد وهو «أصول الفقه السياسي»** يُستخرج من عموميات كتب «أصول الفقه السياسي» المعروفة؛ نحو: قواعد تحقيق المناط، وقواعد اعتبار المآلات، والضوابط المنهجية للفتوى؛ مما يضبط تغير المكان والزمان والإنسان، ثم ما تجب مراعاته من ذلك في ترتيب الخطوات والمراحل الدعوية، وما لا تجب مراعاته.

ولأبي إسحاق الشاطبي كلمة رفيعة جدًا في مثل هذا السياق؛ حيث يقول-

رحمه الله: «**قد فرض العلماء مسائل مما لا يجوز الفتيا بها وإن كانت صحيحة في نظر الفقه (..) وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة؛ فإن صحَّت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول؛ فإن قبلتها فلك أن تتكلم بها، إما على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية**»[1].

ومن ها فنحن نفرق بين: البرنامج السياسي وأصول الفقه السياسي: **فالأول** فقه جزئي تطبيقي، **والثاني** كليات وقواعد. **فالبرنامج السياسي- علم جزئي- ليس هو المفتاح الأساس لبعثة التجديد الإسلامي، وهو ما اصطلح عليه اليوم بـ(المشاركة السياسية) في المجال الحزبي؛ سواء كانت (مساندة) أو (معارضة)** بل هو أمر مقصود بالتبع، وليس بالأصالة في تجديد العمران الديني للمجتمع.

وأما فقه الكليات السياسية، أو أصول الفقه السياسي- فهو منهج معرفة سنن التحولات وسنن التوقعات والمآلات، فيما يتعلق بتدبير شؤون المجتمعات على المستوى المحلي، والإقليمي، والعالمي، وبهذا كان مصدرًا من مصادر فقه الدعوة الإسلامية. اهـ[2].

(١) الموافقات (٤/ ١٩٠- ١٩١).

(٢) انظر: البيان الدعوي، ص ٦٩- ٩٨.

## القضية الثانية

## الاجتهاد السياسي الإسلامي والنفسية الصدامية لدى الحركة الإسلامية المعاصرة

ذكر المؤلف- رحمه الله- في مقدمة حديثه عن القضية المطروحة مجموعة من الأسئلة يُثبت فيها اختلاف العلماء في التفصيلات السياسية بعد «إجماعهم على وجوب تنصيب الخليفة» وذلك فيما يتعلق بالبيعة والشورى ومذهب السيف والصبر وولاية العهد. وبعد ذكر جُمَل من مسائل الخلاف السياسي في فرعيات الحكم **يذكر مسألتين يدلل بهما على أن الأمر السياسي في الإسلام لا يخرج عن نطاق الفكر الاجتهادي المحض:**

### المسألة الأولى:

**بيعة السلطان:**

**هل هو بالنص كما قال الشيعة في شأن علي ﷺ؟ أم أنه بالشورى بين أهل الحل والعقد؟ أو أنه بعهد الإمامة على سبيل الوصية والتعيين؟**

**وللإجابة على هذا التساؤل** سلك المؤلف استعراضًا للتاريخ وأقوال العلماء، وبدأ ذلك **بمقولة للأستاذ عبد الوهاب خلاف في بيان أن الأمر داخل في دائرة الاجتهاد حيث قال:** اجتهد أبو بكر فاستخلف على المسلمين عمر، واجتهد عمر ولم يستخلف أحدًا وترك الأمر شورى بين ستة، فاجتهاده غير اجتهاد صاحبه، واجتهادهما معًا غير ما فعل الرسول ﷺ، **وما رمي واحد منهما بأنه خالف شرع الله، لأنه توخَّى المصلحة واجتهد ما استطاع**[1].

وبعد هذه التوطئة ذكر الدكتور فريد الأنصاري- رحمه الله- أقوال العلماء في مسألة التولية والإمامة والتي منها:

---

(١) السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف، ص ١١.

١- **قول ابن تيمية**: إن شوب الخلافة بالملك جائز في شريعتنا، وأن ذلك لا يُنافي العدالة، وإن كانت الخلافة المحضة أفضل[(١)].

٢- **وقال القاضي أبو بكر بن العربي المعافري** (ت ٥٤٣هـ) في سياق خلافة معاوية ﷺ، منتقدًا مَن ذم الملك لذاته، وصنيع معاوية فيه: «ويحتمل أن تكون مراتب في الولاية: مرتبة خلافة ثم مرتبة ملك، فتكون ولاية الخلافة للأربعة وتكون ولاية للملك ابتداء معاوية، قد قال الله في داود وهو خير من معاوية: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] فجعل النبوة ملكًا»[(٢)].

٣- **قال الإمام القرافي فقيه المالكية في عصره** (ت ٦٨٤هـ) متحدثًا عن (ولاية العهد): «ويعقدها الإمام لمن يريد، فيكون إمامًا للمسلمين بعده، كما فعل الصديق ﷺ مع عمر بن الخطاب ﷺ»[(٣)].

٤- **يقول الإمام أبو الحسن محمد بن يوسف العامري** (ت ٣٨١هـ): «من الواجب أن نعلم يقينا أن صناعة الملك والسياسة، مهما استعملت استعمالًا حسنًا؛ فإن المعتنق لها والمستقل بأعبائها؛ يصير لا محالة مجتلبًا لشرف الإمامة، ويصير خليفة الله- تعالى جده- في استصلاح الخليفة، ومهما استعملت استعمالًا رديئًا، فإن صاحبها والمفتخر بحيازتها، يبتلى من الضرورة بصفة المتغلبين، ويُعد بقاؤه فضيحة لزمانه»[(٤)].

٥- **يقول ابن خلدون**: واعلم أن الشرع لم يَذُمَّ الملك لذاته، ولا حظر القيام به، وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه، من القهر والظلم والتمتع بالذات[(٥)].

٦- **قال الماوردي** (ت ٤٥٠): والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٦).
(٢) العواصم من القواصم، ص ٢٠٧- ٢١٠.
(٣) الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام ص ١٦٣.
(٤) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٥٥.
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٢.

أهل العقد والحل، والثاني بعهد الإمام من قبل[١].

٧-**قال الإمام الجويني** (ت ٤٧٦): وأصل تولية العهد ثابت قطعًا، مستند إلى إجماع جملة الشريعة؛ فإن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ لما عهد إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما- وولاه الإمامة بعده لم يبد أحد من صحب رسول الله ﷺ نكيرًا، ثم اعتقد كافة علماء الدين تولية العهد مسلكًا في إثبات الإمامة في حق المعهود إليه المولَّى[٢].

٨- **قال الإمام القرافي** (ت ٦٨٤): «الولاية لها طرفان وواسطة: فأعلاها الخلافة التي هي الإمامة الكبرى. وأدناها التحكيم الذي يكون من جهة المتنازعين، وبين هذين الطرفين وسائط كثيرة».

ومن الملاحظ أن هذا التدليل من أقوال العلماء لمسالك تولية الإمام ذكره الدكتور فريد- رحمه الله- ليصل إلى نتيجة مهمة تنبني عليها نظريته في مناقشة قضية الحكم والحاكمية وما ترتب عليها من سلوكيات دعوية وحركية في الفقه السياسي الإسلامي المعاصر فقال: **إن الفكر الإسلامي اليوم يبحث في التراث فلا يجد- على مستوى النصوص- إلا عموميات (الشورى) القابلة لأي فَهْم، ولأي تنزيل. ولا يجد على مستوى الفقه السياسي إلا مثل ما بيناه من (أحكام سلطانية) مرتبطة بالتاريخ الذي كان. فكان أن تفرق الإسلاميون في ذلك أحزابًا ومذاهب كما تفرق الذين من قبلهم .**

١- فمن كافر بالديمقراطية كنظام للحكم ناسبٍ لها إلى (الطاغوتية) و(الجاهلية) فلا يقابلها إلا بالرفض والإنكار، غاية ووسيلة .

٢- مؤمن بها إيمانه بالشورى القرآنية؛ إذ هما عنده اسمان لمسمى واحد.

٣- مؤمن بها كأداة- فقط- من أدوات الشورى، لا ككل الشورى.

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٣٣.

(٢) غياث الأمم ص ٦٤- ٦٥.

٤- مستعمل لها على أنها من إكراهات الواقع ومخلفات الجاهلية، التي يجب تجاوزها، ولكن بعد العبور عليها؛ فالسياسة حرب، و«الحرب خدعة». **فأين الفقه من كل ذلك؟**

**كانت البدايات الأولى لنهضة الفكر الإسلامي المعاصر، قائمة – في الغالب- على رفض كل ما هو غربي من النظم والفلسفات، والرؤى، سواء في المجال السياسي، أو التشريعي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي. وكان الدخول إلى البرلمان والعمل النقابي، أو المشاركة السياسية في إطار هذا الحزب أو ذاك يثير جدلًا (فقهيًا) في الأوساط الإسلامية. ولم يكن الإشكال الشرعي وحده هو العامل الأساسي في إثارة هذه القضايا بقدر ما كانت (نفسية) الرفض المتأثرة بالسلوك الديني إزاء الأوضاع القائمة، وهيمنة الظلم الإداري الرسمي بشتى أصنافه السياسية والاجتماعية هي المشكلة لتلك النفسيات الرافضة.**

ولقد كان المفكر الإعلامي الكبير الأستاذ أبو الأعلى المودودي- رحمه الله- من أوائل الإسلاميين المجددين الذين صاغوا نظرية الرفض الإسلامي، فقد بنى مشروعه الفكري على مفهوم (الجاهلية) بدلالته الجديدة عنده، المتفلتة من الحصر التاريخي، والممتدة في المظاهر الاجتماعية العامة، الممكن توفرها في أي مكان وأي زمان، ومن هنا فقد كان فكره السياسي مُؤَطَّراً بهذه الرؤية؛ إذ أنتج مصطلح (الحاكمية) كعلة للقياس، لتصنيف النظم في المجال السياسي والتشريعي. ومرة أخرى ظهر الاحتجاج بآيات الحكم- لكن في سياق حضاري جديد- لبناء تصور مذهبي في الحياة السياسية، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1]، وقوله جل جلاله في آيات المائدة الثلاث:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2].

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) المائدة: ٤٤.

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢).

قال المودودي معلقًا: «فهذه الآيات تصرح بأن الحاكمية لله وحده، وبيده التشريع وليس لأحد- وإن كان نبيًا- أن يأمر وينهى؛ من غير أن يكون له سلطان من الله»(٣).

ثم قال مستنتجًا: «ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو سائر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية؛ فإن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده. إن الدولة الإسلامية (...) ليست ديمقراطية (Democra) فإن الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعًا لا تغير فيه للقوانين، ولا تبدل إلا برأي الجمهور، ولا تسن إلا حسب ما توحي إليهم عقولهم (...) فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية، بل أصدق منها تعبيرًا كلمة الحكومة الإلهية أو الثيوقراطية (Theocracyt)، ولكن الثيوقراطية الأوربية تختلف عنها الحكومة الإلهية (الثيوقراطية الإسلامية) اختلافًا كليًا (...) ولئن سمحتم لي بابتداع مصطلح جديد لآثرت كلمة (الثيوقراطية الديمقراطية) أو (الحكومة الإلهية الديمقراطية) لهذا الطراز من نظام الحكم؛ لأنه قد دخل فيها حاكمية شعبية مقيدة»(٤).

**وبعد أن ذكر المؤلف الدكتور فريد- رحمه الله- نظرية الأستاذ المودودي في مسلك الولاية، عرج على بيان معرض الخطأ وأساسه، محاولًا بيان الخطأ وعدم التفريق بين مباحث «الحاكمية»** كما جاء في مصنفات علم أصول الفقه.

---

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) المائدة: ٤٧.

(٣) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور، ص ٣١- ٣٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣- ٣٥.

ومفهوم «الحاكمية» كما عرضها الأستاذ المودودي يبين أن الحاكم بمعنى الشارع، وهو الذي بحثه الأصوليون قديمًا، و«الحاكم» بمعنى رئيس الدولة في المباحث السياسية اليوم، وهذا لا علاقة له بأصول الفقه.

ثم قال: إن الإمامة التي هي رياسة الدولة فرع من الفروع، بإجماع كل المذاهب الفقهية والكلامية، عدا الشيعة، بينما لا يشك أحد في أن الحكم بما أنزل الله هو من صميم أصول الدين فعلًا، والجمع بينهما يؤدي حتمًا إلى الخلط بين الفروع والأصول وإلى القول بـ(جاهلية) العالم الإسلامي المعاصر، بينما المسلمون مسلمون ما داموا يشهدون «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» إلا أن بعضهم محكومون- كرها- بسلطة لا تتخذ الإسلام منهاجًا تشريعيًا للدولة، فكيف- إذن- يجوز أن نسحب (مذهب الدولة) على المواطنين؟

ثم يقول- رحمه الله: والحق أن من لم يحكم بما أنزل الله لا يُكَفَّر كفرًا عقديًا، إلا على فرض أنه لم يفعل ذلك إنكارًا للدين أصلًا؛ فإن فعل ذلك تهاونًا أو خوفًا من جهة أقوى منه، فهذا أقصى ما يُقال فيه: إنه عاص أو كافر كفرًا عمليًّا. فالكافر هو من أنكر حق الله في التشريع أو رفض التحاكم إلى شريعته؛ باعتبار أنها غير صالحة لذلك! فهذا يكون متمردًا على الله كما تمرد عليه من قبل إبليس اللعين، وبذلك يكون منكرًا لخاصية من خصائص الربوبية وهو الكفر بعينه.

وقد غالى البعض في إنكار «الحاكمية» الإلهية حتى بالمعنى التشريعي، فأنكروا بذلك حقًا عظيمًا من حقوق الرب- سبحانه وتعالى- وخاصية من خصائص الربوبية. وإنما يقول بذلك أحد شخصين: إمَّا جاهل بالدين واللغة العربية، وإمَّا متحامل على الإسلام، رافض له، عقيدة وشريعة؛ لأن من أنكر حق الله التشريعي فقد أنكر الشريعة، وخاصية الحاكمية في الربوبية وهي كلية من كليات العقيدة وأصول الدين.

ثم يقول: هكذا- إذن- تبدو المسألة السياسية في الفكر الإسلامي المعاصر من النقيض إلى النقيض تمامًا. ونعود إلى ما بدأنا به؛ فنقول: لم يكن ذلك ليكون لولا أن الشارع أراد أن يجعل (الشأن السياسي) في الدين من التبعيات التشريعية لا الأصليات؛ فتركه لمحض الاجتهاد. ومن هنا كان أولى بالصواب ما خلص إليه الدكتور فتحي الدريني في بحثه عن (خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم) إذ قال: «لم يعين التشريع السياسي الإسلامي نظامًا محددًا للشورى السياسية في انتخاب رئيس الدولة، وما رسمه فقهاء السياسة المسلمون من أشكال لها وطرق لتنفيذها إنما كان بمحض الاجتهاد بالرأي»[1].

ولعل الله- جلا وعلا- إنما جعل الشأن السياسي من التبعيات؛ لعلمه- سبحانه- بأنه مجال الانقسام؛ فوجه التدين إلى مجالات أخرى، مجالات غير قابلة للانقسام بطبيعتها، ابتداء بتوحيد الوجهة لله في شهادة «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، فإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا. ذلك مجال التدين الأصيل الذي لم يختلف عليه المسلمون في التاريخ كله، إلا اختلافًا مشروعًا في جزئيات الفقه لا يضر بالدين وأهله، وإلا فإن ذلك هو محط الإجماع بالإجماع، والمعلوم من الدين بالضرورة، تلك هي (أركان الإسلام) وأصول العبادات التي شرعت، ليكون مبنيًّا عليها وترك الشارع السياسة لتكون من باب الوسائل الخادمة للدين، لا ركنا من أركان الدين.

### المسألة الثانية:

### وضع العمل السياسي في الحركة الإسلامية هدفًا وغاية:

يقول- رحمه الله: عندما يصبح «الموقف السياسي» الذي هو اجتهاد محض هو المقياس الذي عليه يُصنف مستوى التدين لدى هذه الحركة الإسلامية أو

---

(١) خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، ص ٤٢٧.

تلك، يكون ذلك دالًا على خطأ مفهوم الدين والتدين ، **فالدين من حيث هو نصوص وتشريع يجعل العمل السياسي في إطار التعبد تبعيًا غير أصلي، وهذا لا يعني أن هناك إشكالاً في كون العمل الإسلامي قد انخرط في العمل السياسي، وصار له وجود على الساحة الانتخابية أو على المستوى الإداري للدولة، في هذا البلد أو ذاك، وإنما مبني على كونه يعتمد العمل السياسي هدفًا وغايةً؛ حتى صار رهانه- كل رهانه- على (الحل السياسي) ليتم اختزال الدين في المقولة الآتية**: الموقف السياسي يقود إلى الصلاة، والصلاة تقود إلى الموقف السياسي، وأعني بهذه المقولة النقدية: أن الدعوة إلى التدين- بهذا المنطق- دعوة قائمة عمليا على التعبئة لموقف سياسي معين؛ كما أن ذلك الموقف السياسي- من جهة ثانية- يصوغ التدين في صورة معينة.. كل ذلك في نهاية المطاف يقدم الصورة الاجتماعية للتدين على أنه (حركة احتجاجية) أكثر مما هو (حركة تعبدية) بالمعني الحقيقي للكلمة.

وبعد هذا التأكيد المستمر على مكانة العمل السياسي في المشروع الدعوي بدأ- رحمه الله- بذكر أسباب التطرف التي أوصلها إلى ثمانية أسباب.

## المسألة الثالثة:

### بيان قرآني في الدعوة الإسلامية:

يقول- رحمه الله: إن المتتبع لنشاط الحركة الإسلامية يلحظ أنها قد فترت على المستوى الدعوي العام. ولعل ذلك راجع لعدة أسباب منها:

**أ ـ استهلاك الأنشطة الداخلية لها.**

ب ـ **كثرة الوظائف الإدارية الذاتية الراجعة** إلى مشاكل التسيير لدوائر الحركة.

جـ ـ **عمق اهتماماتها السياسية**؛ سواء بالانخراط المشارك، أو بالانخراط الرافض، مما يؤدي إلى مهمات وتبعات وانشغالات جدلية إعلامية لا تنتهي.

**كل هذا أدى إلى تقصير من الحركة في اللعب في بؤرة الصراع وهي «تدين المجتمع»**؛ فالمجتمع الإسلامي اليوم مهدد في عقيدته ليس من حيث هي مبادئ وتصورات، ولكن من حيث هي سلوك اجتماعي يحفظ هويته من الضياع .

**إن مفهوم الانتماء للإسلام يجب أن يُطرح اليوم على أساس بعث شعور ديني شامل، وإحساس بالرغبة الاجتماعية التلقائية في التدين، من غير تقييد بالضرورة بإطار تنظيمي، وعلى الحركة أن تتخندق مع التدين من حيث هو تدين، وتتحرك من خلال الشعب لا من خلال ذاتها، لأن دخول معركة الإصلاح بشكل تنظيمي انفرادي لا شعبي، يعني فرض العزلة الذاتية على التنظيم، اجتماعيًا ومؤسسيًا، فتخسر المعركة.**

وبعد هذا التقرير يؤكد- رحمه الله- على أهمية المراجعة الدعوية لبعث عمل دعوي قائم على الإيحاءات القرآنية والسنية المبينة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(١)، وقول النبي ﷺ: «**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها**»(٢).

**ثم بدأ بعرض عناصر البعث الإسلامي الجديد من خلال الاطلاع بوظيفتين:**

**الوظيفة الأولى:** عملية تجديد الوعي بالمفاهيم الدينية على مستوى الفهم.

**الوظيفة الثانية:** عملية تجديد الإحساس بالبعثة الدينية على مستوى الوجدان.

**ثم يبني المؤلف- رحمه الله- على هذه المقدمة أهمية العمل التنظيمي بمعناه الإداري كضرورة من ضرورات كل عمل يريد أن يشتغل في المجتمع، وأن**

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) وصححه الألباني.

**هذه حقيقة شرعية واجتماعية لا مراء فيها، وسنة من سنن الله في الكون وفي المجتمع، ولكن الخطأ هو أن يقوم الدعاة بدعوة الناس إلى الانخراط في عملهم** التنظيمي؛ مما أدى إلى انحصار العمل الإسلامي في دائرة الذين لديهم استعداد تنظيمي مع الناس، والصواب عنده أن يوضع التنظيم في مكانه الطبيعي بحيث يكون من الوسائل الدعوية.

**وعلى ذلك ينتشر التدين العام؛ فهو الفضاء الأوسع الذي يحتضن العمل الإسلامي بصورة تلقائية، ويدعمه ويسنده ويمده بأسباب القوة في مواجهة المنكر، ولعل هذا الأمر يزيل الكسل الدعوي من أبناء الحركة الإسلامية بالإقناع اللاشعوري بإبراء الذمة من الواجب الديني؛ لكونهم يمارسون الدعوة من خلال وجودهم التنظيمي بما يشعرهم بنوع من الاطمئنان الواهم أنهم قاموا بالواجب المناط بهم.**

**ثم يقول- رحمه الله: لابد من الممارسة المباشرة للدعوة إلى الله استجابة لنداء الله سبحانه:** ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] .

فالقضية إذن فيمن ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وما أرفع هذا التعبير القرآني وأجمله ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾! ألم يكن ممكنًا أن يكون مثلا (دعا إلى الإسلام)، أو (دعا إلى هدى) كما هو التعبير في بعض الأحاديث؟ ولكنه هنا ﴿دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تصريحًا بضرورة التجرد من كل الوسائط من الأشياخ وغيرهم ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2].

إن هذه الآية الكريمة هي مفتاح المنهج القرآني في الدعوة إلى الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾، فعلى الداعية أن يقود الناس إلى هذه الحقيقة العظيمة، ويتركهم بباب الله، فسيجدون الباب مفتوحًا، والرب محبًا؛ لأن

---

(١) فصلت: ٣٣.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(العبادة) من حيث هي خضوع قلبي قبل أن تكون أفعالًا بدنية؛ إنما هي علاقة مباشرة بين العباد المخبتين، التائبين، والعابدين، والرب الملك، العظيم، البر الرحيم.. وفي هذا يقول الأستاذ سيد قطب- رحمه الله:

«إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: فقل لهم: إني قريب.. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال: ﴿قَرِيبٌ﴾.. إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة واليقين.. ويعيش منها المؤمن في جناب رضيٍّ، وقربى ندية، وملاذ أمين، وقرار مكين»[1]، مع أن الطريقة الغالبة في السؤال والجواب في القرآن- كما قرره علماء القرآن- أن يجيب الله- جل جلاله- على أسئلة الناس بقوله- تعالى- لنبيه محمد ﷺ: (قل)؛ إمعانًا في ترسيخ نبوته ورسالته إلى الناس، معلمًا ومربيًا ورسولًا! وتلك خلاصة (عقيدة الاتباع) في شهادة: «أن محمدًا رسول الله»، وهو أغلب أسلوب القرآن في هذا الشأن.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[2]. وقوله جل جلاله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[3]، وقوله أيضًا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[4]، وفي الآية نفسها قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[5]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[6]، ومثله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[7]، وكذلك

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٧٣).

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) البقرة: ٢١٧.

(٤،٥) البقرة: ٢١٩.

(٦) البقرة: ٢٢٠.

(٧) البقرة: ٢٢٢.

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١)، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾(٢)، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣)، ونحو ذلك كثير جدًا ، فلا داعي للإطالة.

أما قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى ...﴾ فإنه يدل على خصوص السؤال الآتي من (العباد)؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن (معبودهم) لا عن كيف يعملون في أمور الدين؛ إذ إن قضايا العقيدة، والفقه، والأحكام شأن الرسول المعلم، الذي بعث ليعلم الناس كيف يعبدون الله. أما هؤلاء؛ فإنهم يسألون عن الله ذاته سبحانه، لا عن كيف يعبدونه! يسألون عن باب رضاه! إنه سؤال محبة وشوق ووجدان(٤).

فالدعوة إلى التدين العام يجب أن تكون دعوة إلى الله، فالله قريب من كل من أحب السلوك إليه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٥).

فإنما دور الداعي هنا أن يدعو الناس إلى ربهم، فإذا استجابوا؛ فيكفي أن يقول لهم في هذا المجال خاصة: «**حولها نُدَنْدِنُ**»(٦) كما قال النبي ﷺ في حكمته البالغة.

ولقد لخص العالم الرباني الإمام ابن القيم- رحمه الله- معنى (الدعوة إلى

---

(١) الأنفال : ١.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) الأحزاب: ٦٣.

(٤) جمالية الدين للمؤلف، المشهد الأول من الإشراف الثالث: في جمالية (الانتساب) التعبدي.

(٥) البقرة: ١٨٦.

(٦) ذلك جواب النبي ﷺ للرجل الذي جاء يتصنت عليه ما يقول في سجوده من الدعاء؛ فلما لم يفلح في التقاط العبارات؛ حاول مع معاذ بن جبل فلم يفلح أيضًا، فطلب بيان ذلك من رسول الله ﷺ قائلًا: أما إني لا أحسن دندنة معاذ؛ فسأله النبي ﷺ ما يقول هو في سجوده؛ فقال: أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار؛ فقال له رسول الله ﷺ: «**حولها ندندن**»، والقصة بكاملها رواها أبو داود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠)، وصححه الألباني.

الله) في نص نفيس تشد إليه الرحال؛ حيث قال: «والرسل من أولهم إلى خاتمهم- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين:

١- أُرسلوا بالدعوة إلى الله. ٢- بيان الطريق الموصل إليه. ٣- بيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه.

**فهذه القواعد الثلاث، ضرورية في كل ملة، على لسان كل رسول:**

**القاعدة الأولى:** عرَّفوا الرب المدعو إليه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، تعريفًا مفصلًا؛ حتى كأن العباد يشاهدونه- سبحانه- وينظرون إليه من فوق سبع سماوات، على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم.

يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1]؛ فارقة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

**القاعدة الثانية:** تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرسله وأتباعهم، وهو: امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

**القاعدة الثالثة:** تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض، والميزان والصراط»[2].

وجامع ذلك قول الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) البقرة: ٢٠.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَﵞ(١). قال سيد قطب- رحمه الله- في تفسيرها: «إنه التجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب، وبكل حركة في الحياة، بالصلاة وبالاعتكاف، وبالمحيا والمات، وبالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، وبالمات وما وراءه. إنها تسبيحة (التوحيد) المطلق، والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف، والمحيا والمات، وتلخصها لله وحده، لله (رب العالمين).. القوام المهيمن. المتصرف المربي، الموجه الحاكم للعالمين.. في (إسلام) كامل، لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية؛ لا يعبدها لله، ولا يحتجز دونه شيئًا في الضمير، ولا في الواقع.. ﵟوَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُﵞ.. فسمعت وأطعت: ﵟوَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَﵞ»(٢).

ويختم د/ فريد- رحمه الله- هذه المنهاجية بقوله:

«ومن هنا يكون الداعية إلى الله، إنما يقود المجتمع من داخله، لا من خارجه. وما أحكمها كلمة ما فتئ الدكتور أحمد الريسوني(٣) يجيب بها متى سئل من لدن شباب الحركة الإسلامية: ما الذي يميزنا؟ فيقول: يميزنا عدم التميز!!».

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٠- ١٢٤١).

(٣) البيان الدعوى، ص ١٥٩- ١٨٥.

## القضية الثالثة

## بعث الرسالة القرآنية

بعد هذا الاستطراد الذي أكثر فيه الكاتب- رحمه الله- على المسائل الدعوية والحركية التي يؤكد فيها على تحديد المراد بالحركة الإسلامية ومفهوم العمل الإسلامي الحركي والعام من بيان أهمية اعتبار القرآن قبل السلطان، ومناقشة الأمور المتعلقة بالدولة والدعوة، ومكانة التأطير والتنظيم في مسيرة الحركة الإسلامية- ليأتي في نهاية المطاف ويحصد نتاج البيان العلمي والتأصيلي لمنهجه الفكري؛ ليطلق دعوة عامة تجمع ما ذكر، ثم يبدأ بالاستدلال عليها ومخالفة المنهج العلمي في تأخير الحكم والرأي بعد ذكر الأدلة، ليس عن قلة فهم للمنهاجية العلمية في المناقشة، بذكر المسألة، ثم الأدلة ومناقشتها، ثم ذكر الحكم الذي يراه، بل على اعتبار أنه استعمل أسلوب الاستقراء الشامل لموضوع الدولة والدعوة، في النصوص القرآنية والسنة والتاريخ القديم والحديث، ثم واقعية الحركة من خلال كتابات المفكرين فيها، فهو يقرر بعد الاستطراد الذي ذكرناه في الصفحات السابقة أن العمل الإسلامي التجديدي إنما هو عمل للدين قبل الدولة، وطلب للقرآن قبل السلطان».

وبعد هذا التقرير قال- رحمه الله:

«ونسلك في الاستدلال على ذلك مسلكين اثنين:

أحدهما: شرعي.

والآخر: اجتماعي.

ونعرضهما مندمجين، وتفصيل ذلك هو كالآتي:

العمل السياسي، والإصلاح الدستوري والقانوني- كما سبق بيانه- ليس أصلا من أصول العمل الدعوي، وإنما هو فرع من فروعه، وليس مقدمة من

**مقدماته، وإنما هو نتيجة من نتائجه، ولا هو عمل مفتاحي في المشروع الإسلامي الشامل، وإنما هو وسيلة تبعية من وسائله**، فإذا صح ذلك في التصور والممارسة؛ فلا مانع بعده أن تشارك هذه الحركة أو تلك في العمل السياسي، ولكن دائمًا بصفتها دعوة، لا عملًا سياسيًا مجردًا، كسائر السياسات العارية التي خربت البلاد والعباد. ومشاركتها قد لا تكون بالضرورة بنفسها ودعاتها، هذه حقيقة مهمة جدًا. فمن أخطر أخطاء العمل الإسلامي المعاصر الوقوع في شَرَك تحزيب الإسلام.

**إن المشاركة السياسية**: مفهوم له صيغ متعددة لتحقيق مناطه في مجال التدافع السياسي، أصحها وأقربها إلى الحق ما ضَمِنَ المحافظة على الجوهر التعبدي للعمل السياسي، والعمق الدعوي لخطابه ومواقفه؛ هدفًا ووسيلة، وضمن الاستيعاب الاجتماعي الكلي، الذي لا يلغي- بطبيعته الرسالية والتنظيمية- المنتمين إلى سائر الهيئات السياسية والاجتماعية. إن ذلك يتحدد بحسب طبيعة المكان والزمان والإنسان، وحسب الظروف الدولية والمحلية.

إن للحركات الإسلامية أن تمارس حقها في التعبير السياسي، وتدفع في اتجاه إقامة الدين على هذا المستوى بالشروط الدعوية التي قوامها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [1].

إن الإسلام دين أولًا، ودولة ثانيًا. وإنما الدولة إطار لضمان شمولية التدين في المجتمع، ومن هنا وجب أن نضع في الاعتبار أن هياكل الدولة الحديثة، ومكوناتها على الإجمال، مقبولة إسلاميًا ومن حيث المبدأ، في كلياتها على العموم، وإنما هي في حاجة إلى (استصلاح)، بتعبير علماء أصول الفقه، كما أن القوانين الوضعية- رغم ما فيها من مناقضات للأحكام الشرعية- هي في

(١) فصلت: ٣٤، ٣٥.

مجملها قابلة (للاستصلاح) الشرعي، وذلك بتأصيل نصوصها تأصيلًا؛ يربط مصدريتها التشريعية الأولى بالمجمع عليه إسلاميًا من أصول المنهجية التشريعية: الكتاب والسنة والإجماع، ثم الاجتهاد، وينفي عنها بعد ذلك المناقضات الصريحة للتشريع الإسلامي، القطعي الدلالة والثبوت.

وإنها- والله- غاية عالية، ولكنها لن تدرك- حقيقة الإدراك- إلا بإيجاد شعب يقبل ذلك أولًا، ومستعد لحمايته بدمه ورزقه، وإن شعبًا لا يصبر على نقص في الأموال والأنفس والثمرات في سبيل دينه، لهو شعب ما يزال في حاجة إلى تربية ودعوة. وما أوهم من يظن أن هؤلاء الناس قد بلغوا ذلك فعلًا، وهذه النفسية الاستهلاكية على الطريقة الغربية لا تزداد إلا شرهًا وتحكمًا في الناس بمن فيهم الإسلاميون أنفسهم في كثير من الأحيان، وفي أشد مواقعهم الغالية والمتشددة.

الأمة اليوم ما تزال بعيدة عن إدراك سقف لـمَّا تُبْنَ جدرانه وقوائمه بعد، قال الله جل جلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[1].

(١) النساء: ٧٧.

# القضية الرابعة

## المرحلية الدعوية بين النظرية والواقع

**يقول الأستاذ فريد الأنصاري- رحمه الله:**

إنها مراحل دعوية واضحة بينة، لمن له بصر بالسيرة وخبرة بمنهج القرآن في عرض وقائعها، وصنع مدارجها. ويدور اليوم جدل بين الإسلاميين حول ما يسمى بـ(فقه المراحل)، أو (المرحلية) في المجال الدعوي، بين مُتَبَنٍّ لها على (ظاهرية) حرفية، ومنكرٍ لها جملة وتفصيلاً. وأحسب أن المشكل ليس هاهنا، فالمرحلية حقيقة واقعية في تاريخ الدعوة الإسلامية النبوية؛ بل هي سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، بدءًا بخلق الأجرام الكبرى في الفضاءات حتى خلق الإنسان وسائر دقائق المخلوقات، **وإنما المشكل هو في فقه (تحقيق مناطاتها) ؛ فهنا هنا زلت الأقدام، وانزلقت الأفهام؛ وإنما تؤخذ الأمور في فقه المراحل- كما تؤخذ في الفقه- بمقاصدها أو عللها.**

والانطلاق في كل ذلك من **طبيعة النص الشرعي من جهة، ومن طبيعة الواقع والظرف العام من جهة أخرى** فيؤخذ من كل ذلك ما يناسب الشرع والناس، مما علّته قائمة وحاجته واضحة، حيث إن من جزئيات أحكام المراحل ما ينبني على (علة متعدية) ومنه ما ينبني على (علة قاصرة على الأصل) بتعبير الأصوليين- لا تقبل قياسًا ولا تعميمًا. ولذلك كانت تعدية القول بالمرحلية إلى أحكام الشرع من الأصول القواطع؛ كتأجيل العمل بتحريم الخمر، من حيث إنه لم يحرم إلا في إطار الدولة بالمدينة المنورة؛ **جهلًا قطعيًا بمعنى المرحلية وفقهها.**

## القضية الخامسة

### الدعوة بين الأخلاق المجتمعية والمسألة السياسية

إن أكبر تحدٍّ تواجهه الأمة اليوم- وضمنها حركات الدعوة الإسلامية نفسها- على مستوى التدين الصِّرف، هو التحدي الأخلاقي بالمعنى (الإسلامي) لكلمة (أخلاق) كما سيأتي بيانه، أي: **من حيث هي كلمة أخلاق انتماء حضاري، لا بالمعنى السلوكي العارض.**

والدين كلمة كبرى، لها أصول اعتقادية وأخرى عملية ، وفروع شتى بين هذه، وتلك تمتد من الأفعال القلبية الوجدانية، إلى الأفعال العقلية الذهنية، إلى أعمال العبادات الفردية، إلى السلوك الاجتماعي في سائر مجالات الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والحقوقية، والسياسية.. إلخ. ويجمع ذلك كله ما يعرف لدى العلماء بـ(أمهات الفضائل وأمهات الرذائل)، أي: كليات الخير والشر.

إن الصحوة الإسلامية المباركة، الممتدة على عرض العالم الإسلامي اليوم، تواجه في كثير من البلدان من لدن خصوم الدين وأهله، ثم استقررنا بالمشاهدة والمتابعة إلى أن أخطر من يؤثر سلبًا في حركة التدين في المجتمعات، إنما هو الفساد الخُلقي المسلط عليها من كل حدب وصوب، وأن الوسائل الدموية التي تنهكها في بعض الأحيان، أو بعض المواقع، لم تكن لتنهكها لولا هبوط مستوى التدين، والوعي به، لدى عموم الشرائح الاجتماعية المحيطة بها.

ذلك أن الحركة الدعوية قد تخطئ سُلَّمَ الأولويات؛ فتهتم بالثقافي أو السياسي على حساب الأخلاقي؛ فتتقوقع داخل ذاتها وتحاصر نفسها بنفسها، بسبب أن الطبقة المثقفة أو المسيسة، هي عمومًا محدودة محصورة، بينما يمتد وحش الانحلال الخُلقي، والتفسخ الاجتماعي ينهش جسد المجتمع، ويضرب

بنية التدين فيـه، بـصناعة رأي عـام، ينفـر مـن الخطـاب الـديني، ويميـل إلى الانغماس في الشهوات والملذات العفنة المخدرة.

إن المجتمع المتدين بطبعه، أو القابل للتدين، الذي لا يمنعـه مـن ذلـك إلا غبار الغفلة والنسيان؛ هو مجتمع مناصر للمشروع الإسلامي الدعوي بـالقوة، وإن لم يكن كذلك بالفعل. إن بعـض العـاملين للإسـلام المخلـصين لدعوتـه يغترون بالوجه السياسي المحارب للمشروع الإسلامي، فيجعلون ذلك أساس المعركة ورأس الأولويات الدعوية في أوطانهم، بينما غالبًا ما يخفي ذلك الوجه خطأ أخطر من ذلك وأدهى، هو تقويض صرح الشعور الديني لـدى مختلـف الشرائح الشعبية في البلاد الإسلامية، وذلك بـضرب البنيـة الخلقيـة التحتيـة، التي هي أساس قيام الأسرة المسلمة؛ حيث استمرار المحافظة على بيضة الدين في المجتمع وتلقينها للأجيال من خلال الخطاب التربوي البسيط الذي تمارسه الأمهات والآباء.

وبعد أن قرر الدكتور فريد- رحمه الله- نظريته في آلية الدعوة إلى الله، كـان من الضروري أن يبين ذلك ببيان دعوي قـرآني، كـما جـاء في عنـوان الكتـاب «**البيـان الـدعوي وظـاهرة التـضخم الـسياسي.. نحـو بيـان قـرآني للـدعوة الإسلامية**».

ويبدأ ذلك بذكر قطعة تربوية لابن القيم يقول فيهـا: «إن حقيقـة الرسـالة تبليغ كلام المرسل؛ فإذا لم يكن ثَمَّ كلام فماذا يبلغ الرسـول؟ بـل كيـف يعقـل كونه رسولًا؟ ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله مـتكلمًا، أو يكون القرآن كلامه، فقد أنكر رسالة محمد ﷺ، بل ورسالة جميـع الرسـل، التي حقيقتها: تبليغ كلام الله تبارك وتعالى».

ومن هنا كانت حقيقة الدعوة الإسلامية: تبليغ القرآن للناس. فإن قيل: إن القرآن اليوم قد بُلِّغَ إلى العالم بأسره، فيلزم عن ذلك أن الدعوة قـد اسـتنفدت

أغراضها؟ قلت: ليس التبليغ المقصود مجرد إيصال النص وحسب؛ ولكنه تبليغ مفاهيم الإيمان به إلى الناس؛ الإيمان من حيث هو إحساس ووجدان، وبقدر درجة الإيمان وفيض الوجدان يكون التبليغ؛ فالداعية إذن مبلغ متفاعل متأثر لا مردد للنص أو مستظهر له وكفى.. كَلا!

**إن الدعوة القرآنية:** أن تنزل إلى الناس بمفاهيم القرآن في العقيدة والعبادة والسلوك، وتبشر وتنذر به، تاليًا له ومستشهدًا به، فهو حجة الله على عباده، فحينئذ يكون القرآن متحركًا من خلالك، فيراه الناس فيك- كما يسمعونه منك- سلوكًا ومواقف. وتلك إذن (تلاوة القرآن حق تلاوته) كما قال جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]، ولذلك فعندما سئلت عائشة- رضي الله عنها- عن خُلق النبي ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[2].

الخلق النبوي الديني؛ الذي يجد ما يجد من لذة القرآن؛ فيغب منه بلا انقطاع، ما يروي مواجيده، وينير بصيرته، ويعمر قلبه؛ فإذا به لا ينطق إلا بهدي القرآن ولا يتحرك إلا بنوره، وإذ يعرضه على الناس كذلك؛ فإنه يكون وقعه كأنما يسمعونه لأول مرة؛ لأنهم يسمعونه ويرونه حركة تفيض بالحياة! تلك هي (البعثة) حقًا في تجديد الدين، وإلا فالقرآن هو القرآن، والإسلام هو الإسلام، ولكن القلوب هي التي كَلَّت وعميت؛ لما طال عليها الأمد وتفرقت بها الأهواء، قال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[3].

إن الناس في حاجة شديدة إلى القرآن الكريم، ينزل عليهم مرة أخرى من

(١) البقرة: ١٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، وضعفه الألباني.

(٣) الحديد: ١٦.

جديد عبر (بعثة) تحيي فيهم كل موات عبر الدعاة إلى الله: الدعاة الربانيين، المتفاعلين به، المستمدين لنوره، والمتكلمين بمفاهيمه، يتنزل عليهم سورة سورة وآية آية؛ يتنزل على نوازلهم وقضاياهم، وسائر شؤونهم النفسية والاجتماعية، يتحرك به الدعاة في كل مكان على أنه (رسالة الله) إليكم! أنتم أيها الناس! فردًا فردًا، وأسرة أسرة، ومؤسسة مؤسسة.. إلخ! يجب أن يكون هو حديثهم الذي لا يسأمون منه، واشتغالهم الذي لا يفترون عنه، ويجب أن يثيروا حركة واسعة للتنقيب عن معادنه، والبحث عن درره وأسراره؛ لمعرفة مقاصد الرسالة فيما أرسلت؟ ولِمَ؟

والقرآن هو السر (الأعظم) في هذا الدين.. فيا حسرة على الناس! لو علموا: ما القرآن!.. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

إن القرآن رسالة، والدعوة إلى الله إنما هي تبليغ هذه الرسالة؛ وإنما يتم (التبليغ) بإتمام الإيصال إلى المحل المرسل إليه، وإلا فلا تبليغ. وكل داعية خال من الحرارة والوجدانية تجاه القرآن هو آلة معطلة مقفلة غير صالحة للتبليغ! ويتصور في الرسالة- أي رسالة- أربعة أركان: (١) المرسل. (٢) الرسول. (٣) والمرسل إليه. (٤) ومتن الرسالة. وإنما تتحدد قيمة الرسالة بتحديد قيمة (المرسل). ولذلك فقد جرت العادة البشرية أن المرسل إليه ينظر في الرسالة- أول ما ينظر- إلى: (من أرسلها؟) أي إلى المرسل، من هو؟ إذ بمعرفة الجهة المرسلة تتحدد قيمة الرسالة المتوصل بها.

بهذا الاعتبار يجب أن يتلقى القرآن الكريم؛ يكون له في الأنفس شأن آخر! إن محمد بن عبد الله ﷺ لم يكن يملك قبل (البعثة) شيئًا حتى قضى الله بإحياء الأرض بعد موتها؛ فأرسل إليه وهو في غار حراء بضواحي مكة أن: ﴿اقرأ﴾

---

(١) الحشر: ٢١.

فقال سبحانه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[١]، ومنذ ذلك الحين ومحمد بن عبد الله يحمل (عزم) الرسالة ومهمة التبليغ الثقيلة ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[٢]. فنزل إلى المجتمع البشري يبشر وينذر بالحقيقة القرآنية الكبرى، معتصمًا بتوجيهات الرحمن مما نزل عليه في بيان أصول دعوته، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾[٣]، ومن حينها وهو يعتمد القرآن أساسًا، فهو متن الرسالة، وهو الحجة، وهو الدليل، وهو الصاحب، وهو الأنيس، وهو الدواء، وهو الشفاء بإذن الله.

إن للقرآن تأثيرًا خاصًّا لو تنبه إليه الناس اليوم! فها هي قصة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- مثال لمحورية القرآن الدعوية؛ فقد رُوِيَ عنه أنه قال: «خرجت أبغي رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستقطع سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش. قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾. قلت: كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤]... إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام من قلبي كل موقع».

بل أثر القرآن فيمن لم يُسْلِمْ من أشهر العرب الذين عرضه عليهم رسول الله ﷺ وأسمعهم إياه؛ فهذه قصة الوليد بن المغيرة: إذ عرض عليه النبي ﷺ القرآن فتأثر به تأثرًا بالغًا، ولم يسلم. فعن ابن عباس- رضي الله عنهما: «أن الوليد بن المغيرة جاء رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رَقّ له، فبلغ ذلك

---

(١) العلق: ١.

(٢) المزمل: ٥.

(٣) المدثر: ١-٧.

(٤) الحاقة: ٤٠-٤٣.

أبا جهل فأتاه، فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مـالًا. فقـال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لعرض ما قبله. قال: قد علمـت قـريش أني من أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له. قال: ماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الـذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنـه ليعلـو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنـك قومـك حتـى تقـول فيه. قال: قف عني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إنْ هذا إلا سحرٌ يؤثر، يـأثره عن غـيره، فنزلـت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[1].

ومما روي عن مصعب بن عمير إذ جاء به أسعد بـن زرارة إلى حـائط بنـي ظفر، فجعل يقرئ الناس القرآن، فقصده كل من أسيد بن حضير، وسعد بـن معاذ كل على حدة، وكلاهما سيد قومه، وكلاهما مشرك على دين قومـه. وإنـما كان يريدان طرد الرجلين من الحائط، فكان كلاهما يقول لمصعب وأسـعد بـن زرارة: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته؛ وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره. قال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليها، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن؛ فقالا فيما يذكر عنهما: والله لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله. ثم قال: ما أحسن هـذا الكـلام وأجملـه! كيـف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين[2].

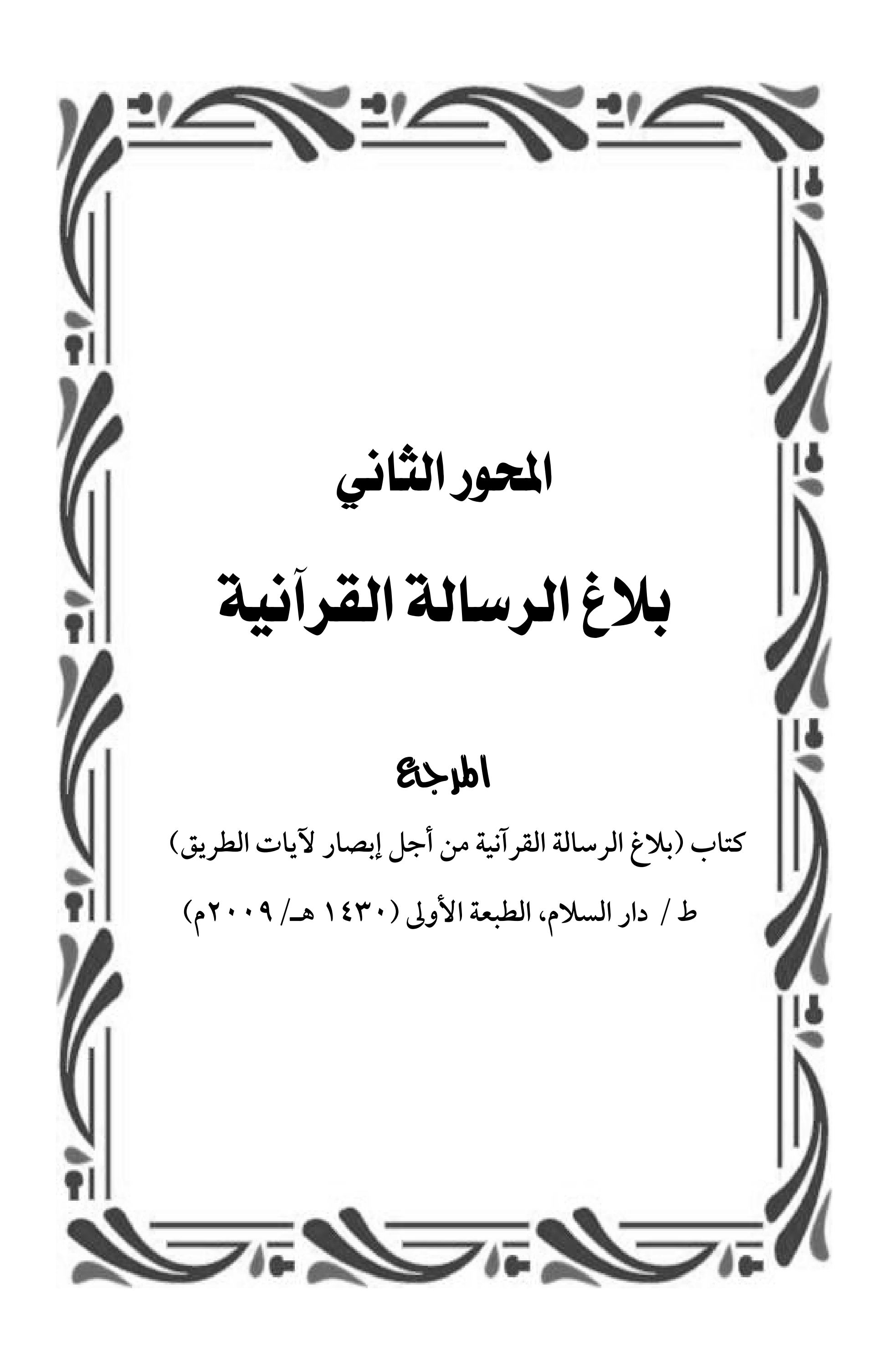
(١) المدثر: ١١-١٤.
(٢) القـصة مفـصلة في صـحيح الـسيرة النبويـة (ص ١٠٦، ١٠٧) أخرجهـا ابـن إسـحاق والطـبري والطبراني والبيهقي بطرق مختلفة، قال الأستاذ إبراهيم العلي: «فيكون الحديث بمجموع هذه الطـرق حسنًا».

فهذه النصوص- ونحوها في كتب السير والمغازي كثيرة- كلها ثبتت أمـرًا مشتركًا واحدًا، هو أن مدار الدعوة الإسلامية في زمانـه ﷺ كـان هـو القـرآن الكريم؛ ذلك أنه هو متن الرسالة كما ذكرنا، وموضوع التبليغ عن رب العالمين إلى العالمين.

إن حديث الرسول ﷺ «**إن العلماء ورثة الأنبياء**»(١) واضح في هذه المسألة؛ **ذلك أن وظيفة الأنبياء هي تجديد الدين بـالوحي، كـما أن وظيفـة العلـماء هـي تجديد الدين بالعلم**، وإنما علم العلماء موروث عـن الـوحي؛ فـالعلماء- إذن- امتداد للأنبياء بهذا المعنى. إننا في حاجة شديدة إلى مدرسة قرآنية في فقه الدين وفقه الدعوة، تقوم على إعادة الاعتبار لكتاب الله بين المسلمين أولًا، باعتبـاره أساس الخطاب الإلهي للإنـسان، وباعتبـاره الوثيقـة الأولى التـي تـنص عـلى هندسة العمران الإسلامي لبناء النفس والمجتمع(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وصححه الألباني.
(٢) البيان الدعوي، ص ١٨١- ١٩٥.



# المحور الثاني

# بلاغ الرسالة القرآنية

## المرجع

كتاب (بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق)

ط / دار السلام، الطبعة الأولى (١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م)

## بلاغ الرسالة القرآنية

بعد أن بين د/ فريد الأنصاري أهمية البيان الدعوى للقرآن في سلسلة (من القرآن إلى العمران- ١) جاء بالكتاب الثاني من نفس السلسلة تحت عنوان (**بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إبصار لآيات الطريق**)، ووضع ذلك في عدة مسائل[1]:

### المسألة الأولى:

#### الاستفادة من التاريخ والحراك الدعوي والأخطاء في تصحيح المسار:

لقد تبيَّن- لمن يتبين- في غبار أحداث العالم الكبرى التي تندلع عن تواتر الانهيارات الكبرى منذ مطلع الألفية الميلادية الثالثة؛ أن موقع المسلمين عامة، ومواقع أهل الشأن الدعوي منهم خاصة؛ قد تراجعت إلى خط الدفاع الأخير! ولعل في ذلك خيرًا للإسلام والمسلمين، عَلِمَه مَنْ علمه، وجهله من جهله؛ فذلك- إن أُحْسِنَ استيعابه وتوظيفه- مما سيقدح انطلاق دورة جديدة لحركة تجديد الدين في العالم- بحول الله- بمستوى أعلى، وبأداء أرفع.

ثم تبين- أيضًا- أن المضي بالدعوة في مسارها المشاهد اليوم في كثير من البلاد، مضيٌّ لا يراعي الظروف الجديدة، إنما هو مقامرة بمصير الأمة؛ ذلك أن هذا المسار يغلب فيه الاستعراض على الاستنهاض، ويطغى فيه النداء على البناء! والحاجة اليوم اختلفت عما كانت عليه قبل سنوات، ولقد نطق شرق الغرب- من قبل- بحكمة مشهورة تنص على أن النهوض قد يقع بإنجاز (خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الإمام) وتلك مقولة لها أصل أصيل في

---

(١) مسائل المحور الثاني:
١- الاستفادة من تاريخ الحراك الدعوي.
٢- التبصر في المنهج بداية الطريق.
٣- التعرف على الله والتعريف به.
٤- اكتشاف الحياة الآخرة والطريق المعين له.
٥- رسالة الإسلام بالدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

صناعة القتال عند المسلمين، مفادها أن (من لا يحسن الفَرَّ لا يحسن الكَرَّ).

ويجمع الأطباء على أن أخطر مراحل التطبيب هو تشخيص الداء، قبل وصف الدواء. ومن المقرر أن مشروع الحركة مشروع اجتهادي قد تتباين وجهات النظر فيه من التوافق إلى الاختلاف، وحتى التناقض أحيانًا. بينما الدعوة أو (الصحوة) هي في الأغلب الأعم اشتغال بالمعلوم من الدين بالضرورة، فقلما يميل الشأن فيها حتى إلى مجرد الاختلاف، لا إلى دفق التنافي والتناقض. فقل لي بربك: لو أنك استدعيت محاضرًا أو عالمًا من كل حركة ممن يُعلم اختلافهم الحاد في مواقفهم السياسية وبرامجهم التغييرية، ثم أوكلت لكل منهم أن يتحدث للناس في موضوع (المقاصد التعبدية في الإسلام) أو (خطر الفساد الأخلاقي)، بشرط التجرد عن الهوى التنظيمي، أفلا يكون الكلام منهم جميعًا واحدًا في الجوهر، لا تنافي فيه ولا اختلاف، إلا كما تختلف العبارات والأساليب في عرض الأفكار؟

ثم يقول- رحمه الله: إننا قررنا أن ننطلق (من القرآن إلى العمران) على منهج رسول الله ﷺ في سيرته ودعوته، هذا هو الطريق إن شاء الله. **فلن نصدر كتبنا الدعوية بعد اليوم، ولا تجاربنا العملية- إن شاء الله- إلا بهذا المنهج وعلى أساسه- تصورًا وتطبيقًا- ولا نبني بناءً، ولا نعمر تعميرًا إلا على أساس من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. إن القرآن العظيم تصميم رباني راقٍ لبناءٍ فخم، ما كلف الإنسان إلا بإنجازه، على شموليته وامتداده؛ بدءًا بعمران الإنسان، حتى عمران السلطان.**

**فأما عمران الإنسان:** فهو البناء الكفيل بإخراج (الإنسان القرآني)، المشار إليه في قوله- جلا وعلا: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1]. وحينما نقول (الإنسان) فهو الفرد والمؤسسة، وهو الوجدان

(١) التوبة: ١٨.

الذاتي والجماعي، وهو الأسرة الواحدة، والنسيج الاجتماعي، وهو العامة والخاصة، وهو المجتمع والدولة.. إلى غير ذلك من الثنائيات التي يستوعبها مصطلح (الإنسان) من القرآن إلى العمران.

**وأما عمران السلطان:** فهو البناء الكفيل بإخراج السلطان القرآني، أي طبيعته العمرانية وعمقه النظامي، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1].

**والله جمع عمران الإنسان وعمران القرآن، ليتم كمال «العمران» هو (عمران الاستخلاف)** الذي يشمل كل النشاط البشري، ويستوعب كل أبعاده الكونية، وهو المعبر عنه في القرآن بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾[2]، وقوله- جلا وعلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾[3][4].

## المسألة الثانية:

### التبصر في المنهج بداية الطريق:

يقول الدكتور فريد: **لقد قادني التدبر في القرآن العظيم إلى أن أكتشف أن «النظر لا يغني عن الإبصار.** وعلى هذا فالمرض- إذًا- نظر بلا إبصار. يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[5]، ويقول- سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾[6]، والبصائر جمع بصيرة، وهي الآية التي تبصر الناس حقائق الوجود وتدلّهم على الطريق السالكة إلى الله

(١) الحج: ٤١.
(٢) هود: ٦١
(٣) البقرة: ٣٠.
(٤) بلاغ الرسالة القرآنية ص ٩- ١٩.
(٥) الأعراف: ١٩٨.
(٦) الجاثية: ٢٠.

عند تعدد الطرق السالكة إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[(١)] مضيئة للأشياء، ومسببة بذلك للأعين في الإبصار- الإبصار النفسي أو الإبصار القلبي لا إبصار الجوارح، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٢)]. والإبصار نتيجة طبيعية للتدبر. ولهذا كان الخطاب القرآني ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[(٣)].

**ولهذا يرى- رحمه الله- أن نجاح المشروع الدعوي ليس رهينًا بعدد المتبعين، بقدر ما هو رهين بعدد المبْصِرِينَ والمبَصِّرِينَ.** وإني أعتقد جازمًا أن ظهور الحركة الإسلامية اليوم، عارٍ تمامًا من كل حماية، فهي تقف كذلك على خط المواجهة، غير محمية الظهر؛ فتصاب من خلفها كما تُصاب من أمامها، **وأحسب أن الرجوع إلى الأصول البدهية في الدين؛ إنما هو رجوع إلى اعتلاء جبل الرماة، الذي كان إخلاؤه سبب هزيمة المسلمين في معركة أحد.**

**وبعد ذكره للتبصر، انتقل إلى التحدث عن التدبر ومعناه اللغوي، وهو «تتبع دبره» أي نظر إلى أواخره وعواقبه ومآلاته كيف هو إذا صار إليها؟ وكيف يكون؟ فتدبر القرآن وآيات القرآن هو النظر إلى مآلاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع،** وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب الله، فتنظر- إن كانت متعلقة النفس- إلى موقعها من نفسك، وآثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك، وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياسًا لوزن نفسك وتقويمها، وتعالج أدواءك بدوائها، وتستشفي بوصفتها. وأما إن كانت تتعلق بالمجتمع؛ فتنظر في سنن الله فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى

(١) الإسراء: ١٢.
(٢) الحج: ٤٦.
(٣) الحشر: ٢.

سيرورة المجتمع وصيرورته في ضوئها عند المخالفة وعند الموافقة؟ ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير.

وهنا نلج إلى باب آخر من أبواب القرآن الكريم رديف للتدبر، بل هو منه، ذلك هو التفكر.

إن التفكر غالبًا ما يَرِد مذكورًا في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾(١).

فكل هذه الأدعية العابدة، الحارة، الخاشعة، الباكية، إنما هي نابعة عن الإحساس الحاصل للعبد بُعَيْدَ التفكير في خلق الله. فاقرأ الآيات وتدبر معانيها تجد أن المؤمن لما يسيح في جنبات الكون الفسيح، يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال مالكه وعظمة سلطانه، فيسرع هاربًا إلى مساكن رحمته وجمال غفرانه.

إن التدبر والتفكر كليهما يعتبران بمثابة الضوء أو الشعاع المسلط على الأشياء، تمامًا كما تسلط الشمس أشعتها المشرقة- في اليوم الصحو- على الموجودات، فتبصرها الأعين الناظرة. فكذلك التدبر يكشف حقائق الآيات القرآنية، ويكشف حقائق الآيات الكونية، حتى إذا استنارت هذه وتلك، أبصرها المتدبرون والمتفكرون، وكانت لهم فيها مشاهدات لا تكون لغيرهم،

(١) آل عمران: ١٩٠- ١٩٤.

ولذلك قال جلا وعلا: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(١)(٢).

## المسألة الثالثة:

### التعرف على الله والتعريف به(٣):

إن أول مقاصد القرآن هو تعريف الناس بالله، المتكلم بالقرآن؛ ولذلك جاء تعريف الله لذاته– سبحانه– بأسمائه الحسنى مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن، كأنه قال لك: اعرف القرآن أولًا لتعرف الله، أوليس هو تعالى المتكلم بالقرآن؟ قال جل جلاله يصف ذاته: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٤).

أما المعرفة بالله فدرجات ومراتب، وما أحسب هذا الشرود الرهيب عن باب الله في هذا الزمان؛ إلا دليلًا قاطعًا على الجهل العظيم، الذي يكبِّل الناس أن يبحثوا عن ربهم الذي خلقهم؛ بما يصنفنا دون أدنى مراتب المعرفة بالله، تراخينا عن سلوك طريق المعرفة به في الرخاء، فبقينا هملًا أو لقيًا في مزبلة التاريخ! وبقيت وصية رسول الله ﷺ فينا دون وفاء، فكان لها مفهومها المخالف في واقعنا: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»(٥).

حق الخالقية إذن هو مفتاح المعرفة بالله. وهذا الحق بقدر ما هو معلق بذمة

---

(١) الأنعام: ١٠٤.
(٢) بلاغ الرسالة القرآنية ص ٢٠– ٥٦.
(٣) بلاغ الرسالة القرآنية ص ٥٧– ٩١.
(٤) الحشر: ٢١– ٢٤.
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٩٦١).

الإنسان لربٍ خَلَقه، فإنه يستفيد منه معنى عظيمًا لوجوده، إن إحساسه بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجودي، الذي ضاعت فيه أفكار الكفار من العالمين، أو بعبارة قرآنية: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(١). وأي ظلام أشد من التصور العيشي للحياة! أو كما قالوا: (إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تَبْلَع!) فبأي نفسية يعيش الإنسان هذه الحياة، وهو يرى أن غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب، الذي ما بعده من حياة؟ فأي لذة يجدها في متعها وهو يعتقد أنها إلى زوال قريب؟ ذلك ما يقوده غالبًا إلى الشره المتوحش في تناولها، أو إلى العزوف القلق ثم الانتحار! ألا ما أشد وحشة الكفر والضلال! فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به آخرين.

إن معرفة الله من ها هنا تبدأ، بالشعور بالفرح به تعالى، ربًا خالقًا، والأنس بجماله سبحانه، فيمتلئ القلب شوقًا إليه تعالى، ثم تنشط الجوارح للسير إلى بابه الكريم، والعروج إلى رضائه عبر مدارج السالكين، ومنازل السائرين، فيجد الإنسان كل الأنس كلما ازداد معرفة بالله- جل جلاله. وإنما مدارج المعرفة به تعالى أن ينطلق المسلم من توحيد الربوبية الذي ينفتح بابه على العبد أول ما ينفتح من الشعور بحق الخالقية كما قررناه؛ ذلك أن الرب من حيث هو مالك للمربوب، ذلك معناه العام في اللغة وفي الشرع(٢). فرب الدار: مالكها، وربة البيت: سيدته، ورب السيارة: صاحب السيادة عليها. إلا أن (المالكية) الحقة إنما تقع في الواقع على من يملك أصل الاختراع والإبداع، إنشاءً وتطويرًا. ذلك هو المالك الحقيقي للشيء، وذلك هو الله- جلا جلاله- في ربوبيته للكون والخلق أجمعين.

إنه مالك كل شيء خلقًا وإبداعًا، وزيادةً ونقصًا، وإحياءً وإماتةً، وبدءًا

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) لسان العرب مادة (ربب).

وإعادةً، وبعثًا ونشورًا. وما كان ذلك كله ليكون لـولا أنـه هـو- عـز وجـل- الذي خلق. ومن هنا كان أول وصف لذاته تعالى نزل على محمـد ﷺ، في بـدء تعريفه بالله ربًا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[١]، فهو الرب إذن وأول مـا وصـف بـه نفسه تعالى أنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ لأن الربوبية إنما ترجع في حقيقتها إلى هـذا المعنـى كما بيناه آنفًا، ومن هنا اطراد هذا المبدأ في القرآن الكريم، حتـى لا تكـاد تخلـو سورة منها، بدءًا بالفاتحـة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ حتـى سـورة النـاس ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. فالقرآن الكريم إذن كله قائم على ترسيخ مفهـوم الـرب في قلـوب المربـوبين؛ عـسى أن تـستجيب فِطَـرُهُم لأداء حـق الربوبيـة بتوحيـد الألوهية عبادة الله رب العالمين.

والأسماء الحسنى هي مدخل التعريف بالله ربًا، وهو توحيد الربوبية، كما في هذه الآيات. وهي كذلك مدخل التعريف به إلهًا، وهو توحيد الألوهية، كما في قوله- جلا وعلا- من سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

إن جماع توحيد الربوبية يؤول إلى إثبات الأسماء والصفات لله رب العالمين، إثبات إيمان وتسليم، لا ينحرف به تأويل، ولا يزيغ به تعطيل، ولا يحزمه تشبيه أو تجـسيم، فهـو تعـالى ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣].

**كما أن المعرفة بالله تملأ قلبك أنسًا بـالله، ثـم أنـسًا بالحيـاة، وأنـسًا بـالكون والكائنات، وأنسًا بالموت الذي لن ترى فيه- إذ تقف عليه- إلا موعـدًا جمـيلًا للقاءٍ جميلٍ، مع رب جميل. فذلك ذوق الإحسان في قمة المـشاهدات الإيمانيـة،**

(١) العلق: ١.
(٢) الأعراف: ١٨٠
(٣) الشورى: ١١.

وإنما «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». ألا يا حسرة على الناس إذ جهلوا بالله!

**فالتعرف إلى الله والتعريف به هو رأس العلم، وتلك هي زبدة المعرفة، وعليها ينبني ما بعدها من كلمات في بلاغ الرسالة القرآنية، فلا مبدأ من مبادئها، ولا ركن من أركانها؛ إلا وهو مضمَّن في المعرفة بالله.**

## المسألة الرابعة:

### اكتشاف الحياة الآخرة والطريق للعيش لها :

ويتم التعرف على هذه المسألة من خلال بيان الحقائق الآتية:

١ – **الحقيقة الأولى**: أن الكون الدنيوي خَلقٌ فانٍ، فمهم جدًا أن تستحضر أن (الحياة) بكل ألوانها وتجلياتها مصدرها واحد هو (الحي) سبحانه؛ فليس عبثًا أن يعلمنا الله من أسمائه الحسنى هذين الاسمين العظيمين: (الحي) و (المحيي) فهو الحي بذاته سبحانه، المحيي لغيره، ولا حياة لأحد سواه إلا بأمره. فسبحانه وتعالى من رب عظيم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وقد وصف الله- جل جلاله- الحياة في القرآن الكريم بصفتين مقابلتين الأولى: هي (الدنيا)، والثانية: هي (الآخرة)؛ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾[2].

فالحياة إذن طبقتان، الأولى: تنتمي إلى عالم الشهادة، وهي حياتنا هذه التي نحيا بها. والثانية: تنتمي إلى عالم الغيب، وهي الحياة الآخرة. وقد علمت أن الإيمان بالآخرة في الإسلام- من حيث هي حياة- ركن من أركان الإيمان

(١) التوبة: ٣٨.

(٢) الرعد: ٢٦.

الستة التي وجب على كل مسلم أن يَعْلَمَها ويؤمن بها.

ولنبدأ الآن رحلة التدبر لهذا المعنى في الرسالة القرآنية؛ ذلك أنه ما قُرِن بالإيمان بالله شيء- في الكتاب والسنة- مثل الإيمان باليوم الآخر، فهو أصل من أصول الرسالة القرآنية، ومقصد من مقاصد البلاغ الإلهي، وما كان ذلك ليكون إلا وأن فيه حكمة ما، وهو ما نحاول اكتشاف بعض أسراره في هذه الإشارات بحول الله. وأما الآيات فلنذكر منها أمثلة تدل على ما سواها، فذلك في القرآن أكثر من أن يحصى لفظًا ومعنًى، ونحوه قول الله تعالى في حق المؤمنين الصالحين من سائر الملل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. ولذلك قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] كما أوردناها من قبل.

**إن الساعة- إذن- هدم وبناء: هدم لكون الدنيا، وبناء لكون الآخرة،** إنها تحول كوني عجيب من طبيعة إلى أخرى، يحدث في لحظة واحدة، كاللمحة من البصر! كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[5].

٢- **الحقيقة الثانية: مفهوم الزمن:** إن الزمان وليد حركة المكان، والمكان الفاني لا ينتج عنه إلا زمان فانٍ، كما أن المكان الخالد لا ينتج عنه إلا زمان خالد. ومن هنا كان العمر البشري- مهما توهمنا أنه طال- قصيرًا جدًا.

(١) البقرة: ٦٢.
(٢) العنكبوت: ١٩، ٢٠.
(٣) الأعراف: ١٨٧.
(٤) النحل: ٧٧.
(٥) القمر: ٥٠.

ويكفينا في ذلك حقيقة واحدة: هي أن الشهوات الدنيوية كلها لذتها تنتهي ببدايتها! كل شوق إلى المزينات الدنيوية يموت بمجرد الحصول عليها؛ فلذة الطعام الشهي الجميل إنما تشعر بها قبل أن تأكله، وعند بداية الأكل، ثم يبدأ بعد ذلك حظ التلذذ في الهبوط حتى درجة الشبع، فالتخمة، حتى يصير اللذيذ بعد ذلك ممجوجًا قبيحًا، وقد كان قبل قليل في غاية اللذة. وقس على ذلك كل الـمُتَع الدنيوية، مما زين للناس، من مثل الوارد في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾(١) .

إن طبيعة الشهوات الدنيا أنها فانية، لا تكاد تبتدئ حتى تنتهي! وإنما جمال المتعة هو الخلود فيها. هذا هو الجمال الحق، وتلك هي الحياة الحقة؛ ولذلك قال سبحانه مباشرة، ناسخًا قبح الزوال بجمال الخلود: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢). قضية العمر أو الزمان راجعة إلى هذا المعنى، فالفرق فيه ما بين الوهم والحقيقة، هو بالضبط فرق ما بين الفناء والبقاء. وما أجمل قول الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)!

**وعلى هذا فلا طول للحياة ولا بقاء لها مكانًا وزمانًا، ولكن هي خدعة للإنسان إن لم يستثمرها للحياة الحقيقية (الآخرة). إنها -لو تدبرت- عمر في أيام، فلا طول، وإنما الطول مفهوم يدل على الحصر! إذ لا يسمى طولًا إلا لقابليته**

(١) آل عمران: ١٤.
(٢) آل عمران: ١٥.
(٣) يونس: ٢٤- ٢٥.

**للعد والقياس، وكل معدود محدود. ومن هنا وصف الله الجنة بالعَرْض دون الطول**، وذلك بعدما قَرَّرَ- جلا وعلا- طبيعة الحياة الدنيا، فقال على سبيل الجزم والتحذير: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(١).

**إن العرض هو الامتداد الأفقي في الزمان الفسيح، إذ تتمتع بالمتعة الواحدة أبدًا، وتعيش الشعور الواحد أبدًا، وتغرف من اللحظة الواحدة معنى الخلود،** صورته في الدنيا هي (بركة العمر)، حيث يبارك الله العمر القصير- ولا يكون العمر إلا قصيرًا- ويزكيه، فينجز المؤمن فيه من الصالحات ما يمكنه- بإذن الله- من الخلود في الجنة، وصورته في الآخرة: حياة سعيدة مطلقة في الزمان، سابحة في الجمال، تنعم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. **فما أبلد من يستنزف طول عمره على حساب عرضه!** ولا يسابق إلى هذا إلا من عرف الله ابتداء، ثم اكتشف هذا المعني اللطيف (للحياة) وذاق جماله، فسابق إليه، وإنما ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فكيف السبيل إلى ذلك؟ وكيف المسير؟

**إن السبيل والسير إلى الله هو «اكتشاف الصلوات، وحفظ الأوقات.. فكل الأعمال الدعوية والجهادية راجعة إلى مدى سلامة هذا الطريق،** ومن هنا كان أول عمل من العبادات قام به رسول الله ﷺ- بعد الإيمان بالله وتوحيده- هو الصلاة. وبهذا قال ﷺ: «**أتاني جبريل في أول ما أوحي إليّ، فعلمني الوضوء والصلاة..**»(٢). ولما كان لها ذلك التغريد الفريد قال عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) الحديد: ٢٠، ٢١.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٦١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦).

﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[1]، فمع أن الصلاة جزء وفرد من التمسك بالكتاب، ولكن لأهميتها ذكرت منفردة كذلك «فالصلاة مفتاح كل شعيرة من شعائر الإسلام، ففي الحديث: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمل الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر..**»[٢]. وفي ترتيب الأولويات يقول ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله**»[٣]، ولهذا فالصلاة ترك كما هي فعل، فصاحبها المقيم لها تارك لكل منكر من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[٤]. وهكذا ستخرج الصلاة من درجات العادة إلى درجات العبادة والالتزام بالصلاة حتى في أشد الأوقات؛ في الحرب عند التقاء الجيوش قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[5] فصلاة الخوف هنا لها أشكال ذكر الإمام النووي أنه يبلغ مجموعها ستة عشر وجهًا، القاعدة فيها أن يتحرى المسلمون ما هو أحوط للصلاة أبلغ في الحراسة. والصلاة رباط كما قال ﷺ: «**وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[٦].

(١) الأعراف: ١٧٠.
(٢) أخرجه الترمذي (٤١٣)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٩٦)، ومسلم (٨٥/ ١٣٧).
(٤) العنكبوت: ٤٥.
(٥) البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩.
(٦) أخرجه مسلم (٢٥١/ ٤١).

## المسألة الخامسة:

### رسالة الإسلام بالدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

مع منهاجية الشيخ- رحمه الله- المبينة في كتاباته يذكر النتيجة الإيمانية الحركية، وهي الدعوة إلى الخير تحت عنوان «رسالية الإسلام»، مسترشدًا بشعار الأمر المطلق في حديث النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[(١)] ليكون المجتمع الإسلامي حركة دعوية بطبيعته، وجماعة إصلاحية بفطرته. وفي حديث النبي ﷺ: «**فو الله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[(٢)].

ومن هنا شهد الله بالخيرية لهذه الأمة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[(٣)].

إنها صفة عامة في كل المسلمين؛ فالمسلم المستقيم لا يمكن إلا أن يكون داعيةً إلى الخير. تلك صفته فردًا وجماعة؛ إذ الرابط الاجتماعي القائم على الشهادتين في الإسلام يقتضي ذلك بداهة، قال جل وعلا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(٤)]، فجاءت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المؤمنين مقرونة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وكل ذلك جاء نتيجة الموالاة في الله.

والملاحظ أنها صفة المسلمين قبل التمكين في الأرض، وهي وصفهم بعد التمكين؛ **إذ إن الدعوة إلى الخير هي غاية ووسيلة في الوقت نفسه تمامًا؛ فالمجتمع المسلم لا يقوم إلا بالدعوة إلى الله وسيلة**، قال جل وعلا: ﴿ادْعُ

---

(١) بلاغ رسالة القرآن ص ١٢٣- ١٧٦. والحديث أخرجه البخاري (٣٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣).

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) التوبة: ٧١.

إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١].

وبعد هذا التأصيل الفطري في المسائل الخمس السابقة؛ يأتي الكاتب- رحمه الله- إلى الجانب العملي والحركي فيقول: لا فائدة لحكم ليس يتحقق له مناط مطلقًا في حياة الإنسان، **لقد جاء الدين ليكون حركة إنسانية في الزمان والمكان لا نصوصًا تتلى فقط، ولا قصصًا تُحْكى فحسب، وإنما الأمانة التي حملها الإنسان عمل:** ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢] **ومدار باب الخروج إلى العمل على ثلاثة مفاتيح**، هي أصول لما سواها، نسلكها في العبارات التالية:

١- **اغتنام المجالس**: وهي مجالس القرآن- تلاوة وتعلّما وتعليما ومدارسة، ثم التنزيل للآيات.

٢- **والتزام الرباطات**: والمقصود الرباط في بيوت الله حيثما كانت، ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾[٣] وهو الذي ذكره النبي ﷺ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة. فذلكم الرباط. فذلكم الرباط. فذلكم الرباط**»[٤] قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٥].

إن رباط المسجد هو المدرسة الأساسية للدعوة الإسلامية منذ عهد النبي ﷺ.

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) التوبة: ١٠٥.
(٣) النور: ٣٦.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) آل عمران: ٢٠٠.

**٣- تبليغ الرسالات: ليس البلاغ اليوم في المسلمين بلاغ (خبر) هـذا الـدين،** فذلك أمر قام به الأولون، وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قـصة الرسـالة الإسلامية على الجملة، إنما المقـصود بمـشروعنا هـو دار الإسـلام.. هـذا العـالم الإسلامي الذي لان فيه التدين، وضعف فيه التمسك بالكتاب، مع أنه يتلوه- أو يتلى عليه- كل حين. إنما المسلمون اليوم في حاجة إلى (**إبصار**).. إبـصار الحقـائق القرآنية التي تتلى عليهم صباح مساء، وهم عنها عَمُون، على نحو مـا وصـف الله سبحانه في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[2].

فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه **إنما هـو بـلاغ (التبـصير) لا بـلاغ التخبـير.** ومادته، هي اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله، والتعريف به، واكتـشاف الآخرة، واكتشاف الـصلوات، وحفـظ الأوقـات، وحقيقـة الـدعوة إلى الخـير، وحكمة اتباع السنة، تزكية وتعلـمًا وتحمـلًا. **ومفـاتيح ذلـك في كتـاب الله وسـنة رسول الله ﷺ.**

**وأما وسيلته؛ فأصول وفروع :**

**أ- أما الفروع فلا تنحصر،** وإنما الشرط فيها عدم نقص أصـولها. ومعلـوم في قواعد الأصول أن «**كل فرد عاد على أصله بالإبطال فهو باطل**».

**ب- أما الأصول فتعتمد على أمرين:**

**١- السقي الروحي:** وهو أن يكون المؤمن في حركتـه الدعويـة يـدور مـع كلمة الخير حيث دارت، يسقي بها كل من لقيه في طريقه، وكل من اتصل بـه، في أي ظرف من الظروف، (يبصر) الناس بحقائقها واعظًا وخطيبًـا ومتحـدثًا ومحاورًا ومناقشًا ومناظرًا وكاتبًا وقائمًا وقاعدًا وراجلًا وراكبًا، في المـسجد وفي السوق وفي المكتب، وفي الجامعة والمدرسة، وفي المستشفى وفي الشارع... إلـخ

(١) الأعراف: ١٩٨.
(٢) يوسف: ١٠٥.

فلا يزال مستنيرًا بقاعـدة القـرآن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(١).

**٢- التجذير المتعدد الإنبات**: من المعروف أن بعض النباتات كنبات الزينـة الشوكية والتين الشوكي والأشجار كالقصب ونحوهما **بمجرد أن تضع لهـا في التربة جذرًا واحدًا وتسقيه بماء حتى يقوم بوظيفتين:**

**الأولى** : أنه ينبت نبتته الخضراء.

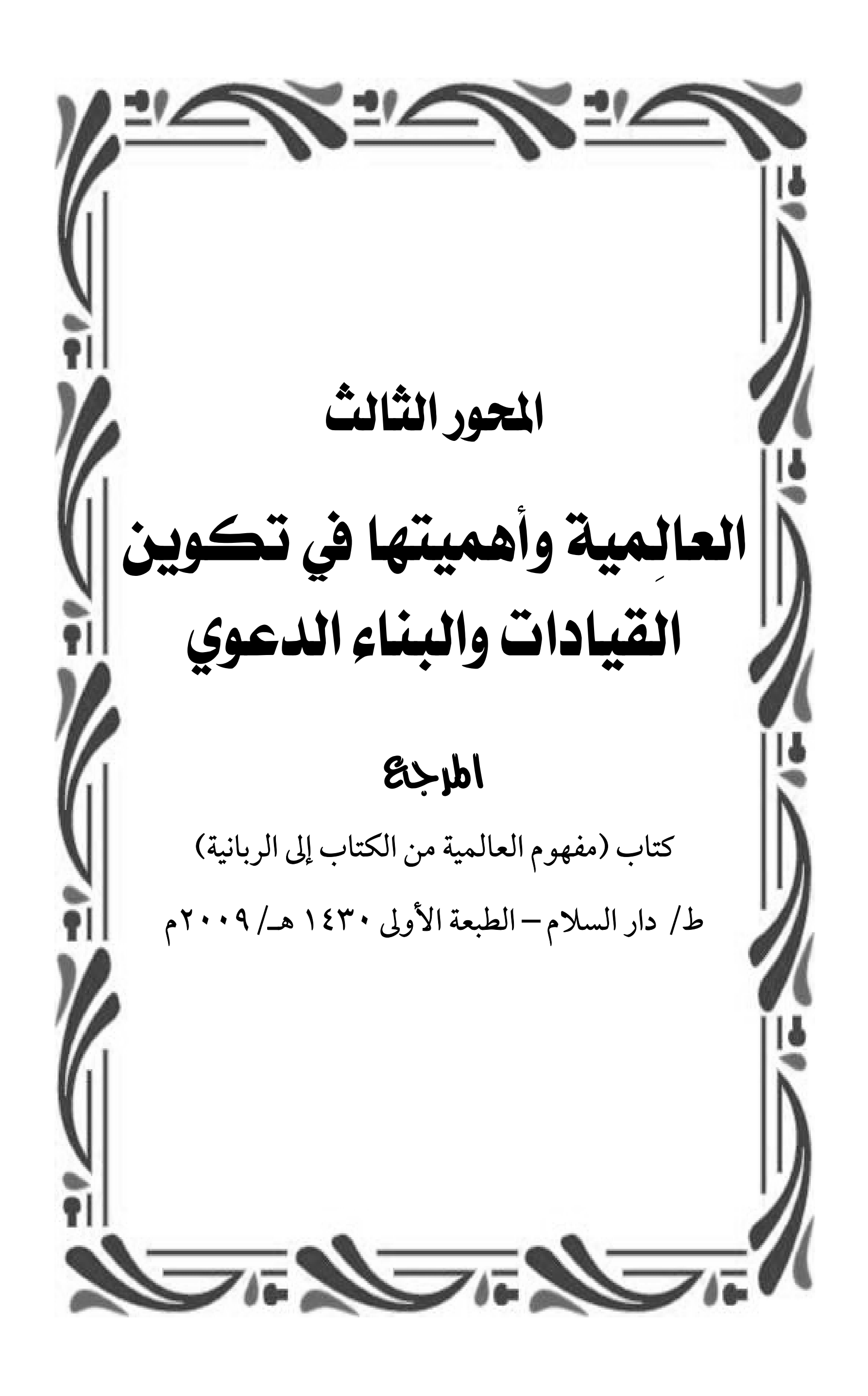
**والثانية** : أنه يسرح تحت الأرض ليفتق التربة في مكان آخـر، بنبتـة أخـرى جديدة، **ويتكاثر بصورة متوالية؛ حتى يخضرّ المكان كله، ويفيض بالنبـات، أو الشجر!!** كذلك المؤمنون المستجيبون لبلاغ الرسالات القرآنية.

**فإنهم تمد لهم جذور التربية في تربـة الرباطـات**، ويـسقون بعـد ذلـك **بـماء المجالسات**. حتى تكون النهاية إلى تربـة المـسجد؛ إذ يجـب أن تعلـم أن ربـاط المسجد هو غاية الوسائل ووسيلة الغايـات، وأن المجـالس إنـما هـي سـقاؤه، ولطالما تباهت التنظيمات والحركات بكثرة خلاياها وأعدادها، وليس لهـا مـن رباط المسجد إلا قليل، حتى ترتد تلك الجمـوع عـلى أدبارهـا، فالمـسجد هـو أساس عدك وإعدادك، فاغرس برياضه (ربطًا) واجعل منها نسل دعوتك، ثم اجعل جلسة القرآن لها مدرسة، تغـذيها وتنميهـا، وابْـنِ عـلى ذلـك في مـنهج التبصير بحقائق هذا الـدين؛ بعثًـا وتجديـدًا! فبـذلك- وبـذلك فقـط- تبنـي الصفوف، لمن رام الدعوة إلى الله على منهج رسول الله ﷺ .

**السقي والتجذير مصطلحان زراعيان استعرناهما للتمثيل والتقريب، وإنـما بذلك ما عبرنا عنه من قبل في كتابنا «التوحيد والوسـاطة في التربيـة الدعويـة» بـ«الأرقمية» و«المنبرية»؛ فـ«الأرقمية»: نسبة إلى مجالس الرسول وصحابته بدار الأرقم بن أبي الأرقم قبل الهجـرة، (والمنبريـة) نـسبة إلى منهجـه ﷺ الخطـابي، الذي عرف من على منبر المدينة.**

---

(١) فصلت: ٣٣.



# المحور الثالث

# العالِمية وأهميتها في تكوين القيادات والبناء الدعوي

## المرجع

كتاب (مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية)

ط/ دار السلام – الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م

# العالِمية وأهميتها
# في تكوين القيادات والبناء الدعوي[١]:

## المسألة الأولى:

### أهمية العلم في الدعوة إلى الله[٢]:

يقول الدكتور فريد- رحمه الله: إن وظيفة الأنبياء التربوية والدعوة قائمة على العلم والتعليم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

ولهذا لم يكن عبثًا أن يقرر الرسول ﷺ ذلك بما يشبه الحصر في قوله: «**إِنَّ الله لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»[٤]. وورد في قوله ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ**»[٥]. وعليه فإن «المحدد» المذكور في قوله ﷺ: «**إِنَّ الله يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[٦] لا يكون إلا عالمًا.

ثم يذكر- رحمه الله- تحذيرًا في اتخاذ العلم مطية للمكاسب السياسية، فيقول محذرًا عن ترامي عدد من أهل الأهواء والنوازع السياسية على وظيفة العالمية والتلبس بمفهومها بغير حق؛ إذ صارت حقيقتها لُغَوِيَّة بين الناس، **حتى صار من الصعوبة لدى العامة تمييز العالِم من غير العالم**، وتداخلت في

---

(١) انظر : الرسالة الثالثة «مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية» الأستاذ/ فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥- ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٤) آل عمران: ١٦٤.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وصححه الألباني.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٩٣)، وصححه الألباني.

الأذهان مفاهيم كثيرة، كمفهوم الواعظ، والداعية، والأستاذ، والمثقف.. وهلم جرّا، والحقيقة أن كل وصف من أولئك ليس بالضرورة يسلكه في مفهوم (العالِم)؛ فأدى هذا الاختلاط إلى كثير من المفاسد بما حدث من الترامي على وظيفة من أخطر الوظائف في الأمة وهي وظيفة الإفتاء لما ينتج عنها- إن لم يُتق الله فيها- من غلو في الدين.

وفي ظروف غياب المفهوم الحقيقي لـ«العلم» و«العلماء» في زمان تداخل المصطلحات واضطراب المفاهيم **تصدى كثير من عشاق «النجومية» ومحبي الزعامات لمجال «العمل الإسلامي التنظيمي»**، مستغلين حالة الفراغ العلمي التي تعاني منها الأمة في مجمل بقاعها، وتخلى من بقي من العلماء عن دورهم التاريخي في حمل الرسالة بما رضوا- مع الأسف- من متاع الحياة الدنيا إلا من رحم الله منهم، وقليل ما هم! فتصدر الأَدْعياء واجهة العمل الإسلامي، محققين نبوة الرسول ﷺ بما عرف في السنة بحديث «**قبض العلم**».

ثم يقول: إن كل عمل إسلامي لا يتصدره العلم الشرعي، ولا يؤطِّره علماء الشريعة، فهو باطل باطل، ولن يقود إلا إلى المهالك. ثم يقول مبينًا وموضحًا: «حاشا فضلاء الوعاظ ممن أحجموا عن مجال الإفتاء، والتصدي للتحليل والتحريم، مما هو اختصاص فقهي دقيق، وصناعة علمية بحتة، واقتصروا على الاشتغال بالوعظ في المعلوم من الدين بالضرورة، فهذا من أعظم الخير وأحسن القول- إن شاء الله- بما يجري عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(1)]».

ثم يرجع- رحمه الله- ليبين من هو العالِم فيقول: **هو الفقيه الرباني الحكيم الذي يربي بصغار العلم قبل كباره.** ولكن لما عَزَّ وجود مثل هذا في زماننا، التف بعض الشباب حول من أحسن دغدغة عواطفهم النفسية الجريحة، بما

(١) فصلت: ٣٣.

يعانون من التهميش الاجتماعي والظلم السياسي، فاختلطت في أنفسهم مشاعر التدين بمشاعر الرغبة في الانتقام لأوضاعهم الاجتماعية المتردِّية، مما أنتج أجسامًا تنظيمية قد تتحول في بعض الأحيان إلى خلايا سرطانية تستوعب الشباب بصورة تجميعية متضخمة، لتقتل مواهبهم الإبداعية، وتحجم طاقاتهم الإنتاجية، وتحصرها في اجتهادات إملائية تلقينية، لا تدع مجالًا للتفكير العلمي الحر، وهي- قبل ذلك وبعده- نشاط بعيد عن مراتب الأولويات الشرعية للأمة، الراجعة إلى موازين الشريعة، لا إلى العواطف والأهواء.

ثم يقف موضحًا فيقول: **إلا أنه وجب التنويه بدور الحركات الإسلامية المعاصرة، خاصة في مراحلها التنظيمية الفطرية الأولى، فقد كان لها الفضل في استنهاض الأمة زمنًا، وكان لها الحضور القوي في التربية والتأطير وتصحيح المفاهيم لعدة أجيال، كما أنها فادت بنجاح معركة رد الشبهات الإلحادية الصادرة عن الاتجاهات الماركسية المتطرفة خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الميلادي**. فأحرزت في ذلك نجاحًا باهرًا ألغى تاريخًا سيئًا كان من المحتمل أن تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وإنما حدث الانحراف في بِنيتها من بعد أن صارت هيئاتها التنظيمية غاية لذاتها، وفسدت تصورات كثير من أبنائها للعمل الإسلامي بسبب التخلي عن الأولويات الدعوية والبرامج التربوية والعلمية، والإغراق في العمل السياسي الجزئي؛ مشاركة أو مواجهة، وضمور حجم التأطير الشرعي والتربوي لأفرادها- على عكس الشأن في بداية أمرها- إلى درجة تخريج طاقات قيادية جاهلة بالقواعد الأساسية بالدين؛ مما جعلها تقع في تصرفات شاذة عن حقائق الشرع فهمًا وتنزيلًا.

## المسألة الثانية:

### مفهوم العالم والعالِمية وأركان التكوين[(١)]:

لا أحد يماري في أهمية العلم والعلماء في حركة تجديد الدين، ومركزية دورهم في التوجيه والتأطير؛ تعليمًا وتزكية. وما فساد أمر الدعوة في كثير من المواطن إلا بسبب غياب العلماء عن مواقع صناعة قرارها وتوجيهها. كما أنه من الأسباب أن معاهد تكوين العلماء في الأمة اليوم قد أحيط بها محاصرة- مادة ومنهاجًا- فعجزت أن تخرج «العالم الوارث» بما يتخرج على قول النبي ﷺ: «**إن العلماء ورثة الأنبياء**».

فـ «العالِمية» **صفة كسبية في معرفة أحكام الشريعة- أصولها وفروعها- كون المتحقق بها «إمامًا» في الدين تعليمًا وتزكية. والعالم هو الفقيه المجتهد الرباني الحكيم، الذي تخلَّق بالعلم، وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، فصار يربي بِصِغَار العلم قبل كِبَارِهِ.**

فبمقتضى هذين التعريفين لمفهوم العالم والعالمية لا يكون العالم عالمًا على الحقيقة إلا بقيام ماهية عالميته على ثلاثة أركان هي:

**الركن الأول: الملكة الفقهية:**

قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(٢)]. يقول أبو إسحاق الشاطبي- رحمه الله: إنَّ العالم هو الذي «يتحقق بالمعاني الشرعية منزلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصده التبحُّر في الاستبصار بطرف عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر، فلا هو يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على آخر، ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزيل ما تلخص له على ما يليق بأفعال المكلفين، وهذه الرتبة لا خلاف في صحة الاجتهاد من صاحبها.

---

(١) انظر: كتاب «مفهوم العالمية» للمؤلف- رحمه الله- ص ٦١- ٨٦.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

**وحاصله**: أنه متمكن فيه، حاكم غير مقهور فيها، وكل رتبة حكمت على صاحبها دلت على عدم رسوخه فيها، وإن كانت محكومًا عليها تحت نظره وقهره؛ فهو صاحب التمكين والرسوخ، وهو الذي يستحق الانتصاب للاجتهاد والتعرض للاستنباط، **ويسمى صاحب هذه الرتبة: الرباني والحكيم والراسخ في العلم والعالم والفقيه، والعاقل**، لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به. وقد تحقق بالعلم، وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده، **ومن خاصته أمران**: أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص. والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات[1].

**الركن الثاني: الربانية الإيمانية:**

**وهي مقاربة الكمال في مسلك التخلق بأخلاق القرآن، والتحقق من صفتي التقوى والورع، من أجل تحصيل العلم بالله، والتعرف إليه تعالى**، ولا يمكن له ذلك إلا بما حصل من مكاسب الآمال، وبما ترقى في مدارج التزكية الإيمانية، ومجاهدة النفس، عبر منازل التعبد ومراتب الإخلاص، حتى يخرج خروجًا كليًا عن داعية هواه، ويكون عبدًا خالصًا لله، فالخلوص الكامل لله هو تمام العلم بالله، وهو مقتضى قول الله- جلا وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2]، قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: يعني بـ«العلماء» الذين يخافون قدرته، فمن علم أنه- جلا وعلا- قدير، أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[3].

(١) الموافقات (٤/ ٢٣٢)، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الموافقات (٤/ ٢٣٢).

قال: «الذين علموا أن الله على كل شيء قدير». وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله تعالى فليس بعالم». قال مجاهد: «إنما العالم من خشي الله جلا وعلا». وعن ابن مسعود: «كفى بخشية الله علمًا، وبالاغترار جهلًا». وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال: «أتقاهم لربه جلا وعلا». وعن مجاهد قال: «إنما الفقيه من يخاف الله جلا وعلا». وأخرج أبو عمر يوسف بن عبد البر عن الإمام مالك بن أنس- رحمة الله عليهما- قال: «حقًا على من يطلب الحديث أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لآثار من مضى قبله»[1]. وأخرج الدارمي في سننه عن سفيان الثوري قال: «**كان يقال: العلماء ثلاثة : عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله. وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله، فذلك العالم الكامل. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله، فذلك العالم الفاجر**»[2].

فالعالم بأمر الله، هو العالم بأحكام الشريعة وفقهها، والعالم بالله هو العارف بمقتضيات العلم الحق من العلم بشؤون ربوبيته تعالى وجمال أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فيكون العالم بالله هو الخاشع لله الخاضع له بما تزود من حقائق الإيمان أو المعرفة به تعالى، والعالم الحق إنما هو من جمع بينهما. ولذلك قال الحسن البصري- رحمه الله: «كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في بصره وتخشعه ولسانه ويده وصلاته وزهده»[3]. وللخطيب البغدادي- رحمه الله- وصية لطيفة في هذا الشأن نقتطف منها ما يلي، قال: «إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، ولا يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا، وما شيء أضعف من:

**- عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته.**

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٥).

(٢) سنن الدارمي (٣٦٣)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١١٨).

- وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته.

- والقليل من هذا مع القليل من الخشية أنجى في العاقبة إذا تفضل الله بالرحمة وتم على عباده النعمة. فأما المدافعة والإهمال وحب الهوينا والاسترسال، وإيثار الخفض والدعة، والميل إلى الراحة والسعة، فإن خواتم هذه الخصال ذميم، وعقباها كريهة وخيمة، والعلم يراد للعمل، كما العمل يراد للنجاة»[1].

ثم قال الدكتور فريد- رحمه الله: وذلك كله إنما هو وسيلة إلى غاية الغايات ومنتهى الكمالات، وهو «مقام الربانية الإيمانية» التي هي «العلم بالله» على التحقيق مما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[2] وهو عمل قلبي خالص.

**وبيان ذلك أن مفهوم العلم إنما هو علمان أحدهما وسيلة للآخر:**

**فالعلم الأول**: ينتج عن تلقي الكتاب والسنة، وعن الفقه المستنبط منهما. وغاية هذا العلم إنما هي العمل به، بما أنيط بالمكلف من سائر أنواع العبادات- فعلًا وتركًا- وهذا كله- علمًا وعملًا- إنما هو الوسيلة للآتي وهو:

**العلم الثاني**: وهو العلم بالله، وإنما هو نتاج لخاص الأعمال، من العبادات والمجاهدات المترتبة على العلم الأول، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[3]. فإذا عمل العبد بمقتضاه آتاه الله علمًا من نوع آخر، هو العلم بالله، وهو المبين في قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]. وهنا زلت أقدام بعض جهلة العباد،

---

(١) اقتضاء العلم العملَ، للخطيب البغدادي (١٤/ ١٥).

(٢) آل عمران: ٧٩.

(٣) الزمر: ٢، ٣.

(٤) البقرة: ٢٨٢.

ممن توهموا الوصول إلى غاية العلم، ورأس الحكمة التي هي العلم بالله من غير العبور على طريق الشريعة، ومن غير الدخول إلى ميدان الأعمال، فاستغرقوا أوقاتهم في متاهات الخيال، واستدرجهم الشيطان إلى شطحات الخبال، ولذلك فليس عبثًا أن يقول الرسول ﷺ في حكمته البالغة: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ**»[١].

ولهذا المعنى العظيم في السنة الصحيحة تأصيلات مليحة؛ ففي صحيح البخاري حديث جليل ترجم له المصنف- رحمه الله- بقوله: (**باب قول النبي ﷺ أنا أعلمكم بالله**)[٢] وأن المعرفة فعل القلب، لقول الله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣]. ثم أخرج حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: (**كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقونه، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: إنَّ أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**). فترجمة البخاري للباب فيها من الفقه أن معنى (**العلم بالله**) **هو ما يحصل للقلب من المعرفة به تعالى، وما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه من حقوق، بمقتضى تلك المعرفة**، وأن الرسول الكريم- عليه الصلاة والسلام- كان أعلم الخلق بالله.

ولهذا قال سفيان الثوري- رحمه الله: «**أفضل العلمِ العلمُ بالله، والعلم بأمر الله، فإذا كان العبد عالمًا بالله، وعالمًا بأمر الله؛ فقد بلغ. ولم تصل إلى العباد نعمة أفضل من العلم بالله والعلم بأمر الله، ولم تصل إليهم عقوبة أشد من الجهل بالله والجهل بأمر الله**»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٥) طبعة البغا.

(٣) البقرة: ٢٢٥.

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم (٧/ ٢٨١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**ولا ريب أن لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقي بعد الموت وتنفع الآخرة، هي لذة العلم بالله والعمل له وهو الإيمان به**»[(١)]. وقال في موطن آخر: «**إن العلم الذي هو أصل السعادة ورأسها هو العلم بالله**»[(٢)]. وقال في ملاحظة لطيفة جدًا: «**ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله وذكره وعبادته**، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**حُبِّب إليَّ من دنياكُم النساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة**»[(٣)]. هكذا لفظ الحديث لم يقل: حبب إلى ثلاث؛ فإن المحبب إليه من الدنيا اثنان، وجعلت قرة عينه في الصلاة؛ فهي أعظم من ذينك ولم يجعلها من الدنيا»[(٤)].

قال ابن رجب الحنبلي- رحمه الله: «العلم قسمان: **أحدهما**: ما كان ثمرته في قلب الإنسان، وهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، المقتضي لخشيته، ومهابته، وإجلاله، والخضوع له، ومحبته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، ونحو ذلك، فهذا هو العلم النافع. **والقسم الثاني**: العلم الذي على اللسان، وهو حجة لك أو عليك. وأول ما يُرفع من العلمِ العلمُ النافع، وهو الذي يخالط القلوب ويصلحها، ويبقى علم اللسان حجة فيتهاون الناس به، ولا يعملون بمقتضاه، لا حملته ولا غيرهم، ويذهب هذا العلم بذهاب حملته، فلا يبقى إلا القرآن في المصاحف، وليس هناك من يعلم معانيه ولا حدوده ولا أحكامه»[(5)].

**الركن الثالث: القيادة التربوية الاجتماعية:**

**وهي وظيفة العالم الإصلاحية**، وحق العلم المتعلق بذمته. وهذه منطقها صريح القرآن الكريم قال الله- جلا وعلا: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[(٦)] وهي راجعة إلى

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ١٦٢).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٥٠) تحقيق: محمد رشاد سالم.
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٥) والنسائي (٣٩٤٠)، وصححه الألباني.
(٤) الصفدية (٢/ ٢٧٢).
(٥) جامع العلوم والحكم، ص ٣٤٣.
(٦) التوبة: ١٢٢.

واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بحق النذارة. وأما الأحاديث في هذا المعنى فأكثر من أن تحصى، ويكفيك منها قوله ﷺ: «**من سُئِلَ عن علمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَه الله يوم القيامة بِلِجَامٍ من النار**»[1].

والقيادة التربوية الاجتماعية هي الانتصاب لتربية الخلق، بما آتاه الله من علم وصلاح في نفسه، وبما اكتسب في طريق ذلك كله من بصيرة قلبية وخبرة دعوية، وصناعة تربوية، حتى انْقَدَحَتْ في قلبه الحكمة، وهي: نور يقذفه الله في قلب العبد، يكون بمقتضاه مبصرًا بنور الله، يراعي المناسبات الزمانية والمكانية والحالية في تنزيل الأحكام الشرعية والتوجيهات الدينية، مما يؤهله للإمامة العلمية، والقيادة التربوية، قادرًا على توجيه المجتمع بعلمه وخُلقه، واستيعاب سائر الناس على مختلف مشاربهم وطبقاتهم وشرائحهم واختصاصاتهم، وذلك هو الحكيم حقًا، والرباني صدقًا، ولا يكون العالم عالمًا إلا به. وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «**المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة**»[2].

فالقيادة العلمية راجعة للبصيرة الحاصلة للعالم بما جمع في قلبه من نور العلم والحكمة بما يُخَوِّلُهُ لتربية الخلق وإرشادهم، وهو ضرب من الإرث النبوي، لما بين القرآن الكريم من وظائف النبوة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[3]. فمن ورث هذه الوظائف بشروطها الشرعية فهو العالم حقًا. وفي ذلك يقول الشاطبي- رحمه الله: «**المفتي قائم في الأمة مقام النبي ﷺ**»[4]، فالمفتي مخبر عن الله كالنبي، وموقع للشريعة على أفعال المكلفين بحسب نظره كالنبي، ونافذ أمره في الأمة بمنشور الخلافة كالنبي؛ ولذلك سُمُّوا (أولي الأمر).

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٢٨٤).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٦): رجاله موثقون.
(٣) الجمعة: ٢.
(٤) الموافقات (٤/ ٢٤٤).

وإذا كان كذلك وثبت للمفتي أنه قائمٌ مقام النبي ونائب منابه، لزم من ذلك أن أفعاله محل للإفتاء، محل للاقتداء أيضًا، فما قصد بها البيان والإعلام فظاهر، وما لم يقصد به ذلك فالحكم فيه كذلك أيضًا من وجهين: **أحدهما**: أنه وارث، وقد كان المورث قدوة بقوله وفعله مطلقًا، فكذلك الوارث وإلا لم يكن وارثًا على الحقيقة. فلا بد من أن تنصيب أفعاله يُقتدى بها كما انتصبت أقواله. **والثاني**: أن التأسي بالأفعال- بالنسبة إلى من يعظم في الناس- سر مبثوث في طباع البشر لا يقدرون على الانفكاك منه بوجه ولا بحال(١).

وفي هذا المعنى تأتي رواية أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطِبِ الْكَلَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(٢). فلا قيادة اجتماعية ولا تربية لمن غلظ قلبه، وفحش لسانه، وانْبَتَّتْ صلاته، وقد صح قوله ﷺ: «**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»(٣)، فكيف إذا كان من أهل العلم؟ فتلك إذن أم المصائب! وكفى بحديثه الجامع في ذلك تأديبًا وترهيبًا وهو قوله ﷺ: «**مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الخيرَ كُلَّه**»(٤)، فماذا بقي له من علمه إذًا؟ وإنما في النهاية حساب أخروي! قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**»(٥). بل وجب على المؤمن أن يصبر على الأذى. وتدبر هذا الحديث النووي الصحيح من قوله ﷺ في إحدى وصاياه المحببة؛ فعن جابر ابن سليم الهجيمي، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو مُحْتَبٍ في بُرْدَةٍ له، كأني أنظر إلى هدابها على قدميه، فقلت: يا رسول الله أوصني. قال: «**اتَّقِ الله، وَلا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ المعْرُوفِ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، إِنَّ**

---

(١) الموافقات (٤/ ٢٤٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٣٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٠١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٠١)، وصححه الألباني.

**ذَلِكَ مِنَ المعْرُوفِ، وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْـمَخِيلَةِ، وَإِنَّ الله لا يُحِبُّ الْـمَخِيلَةَ، وَإِنِ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ، فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ»**. قال: فما سببت بعد قول رسول الله ﷺ دابة ولا إنسانًا[1].

هذا وإن حسن الخلق ليمتد إلى مجال اللباس، وآداب الطعام والشراب، وسائر العادات الإنسانية العامة، فمن السَّخَف أن يرى طالب العلم متبخترًا في مشيته كبرًا، مُسْبلًا لباسه زهوًا، مرتديًا ما يشد الأنظار إليه شهرة، إلى غير ذلك من آفات الأخلاق التي يبغضها الله ورسوله، وقد علمت ما في الصحيحين وغيرهما مما تواتر معناه من قوله ﷺ: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ لَمْ يَنْظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]، وقوله: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبًا مِثْلَهُ**»[3]. وإنما السنة من اللباس ما سَتَرَ العورة وَحَسَّنَ الهيئة، ولم يدل على كبر ولا خيلاء، ولم ينسب إلى إسراف وتبذير، وهو بمقتضى الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلا سَرَفٍ، إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ**»[4]، ولذلك قال ابن عباس- رضي الله عنهما: «**كُلْ مَا شِئْتَ، وَالْبَسْ مَا شِئْتَ، مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ**»[5].

**فإذا جمع المرء هذه الأركان الثلاثة- من ملكة فقهية وربانية إيمانية وقيادة تربوية اجتماعية- تحقق بمفهوم العالمية صفة حقيقية، وصدق عليه وصف «العالِـم» المقصود في أحاديث النبي ﷺ.**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٨٦)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٢)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط.
(٥) أخرجه البخاري معلقا فوق حديث (٥٧٨٣).

## المسألة الثالثة:

### الأصول الأربعة للعلوم الشرعية [1]:

**الأصل الأول** : **نصوص الوحي**:

**أ - القرآن الكريم**: وفي ذلك نظر عام وخاص:

**١ - فأما العام**: فهو أنه لا بد لطالب العلم الشرعي من جمع القرآن الكريم كله، حفظًا واستظهارًا، وأقلُّ ما يطلب منه في مرحلة الطلب- إن كان ممن تأخَّر جمعه- الثلث، ويستحسن أن يكون المجموع في البدء شاملًا للسبع الطوال، بما هي جامعة لأغلب آيات الأحكام، ثم لسور المفصَّل بما هي جامعة لآيات التزكية والتربية وما يحتاجه المؤمن في السلوك إلى ربه وطلب معرفته تعالى. هذا مع دوام التلاوة لكل القرآن، والتدبر لسوره وآياته آناء الليل وأطراف النهار.

**٢- النظر الخاص**: فهو الدراسة المتخصصة لآيات الأحكام ومناهج استنباط فقهها وفوائدها العلمية، مع ما يقتضي ذلك من التسلح بما يلزم من العلوم اللغوية، والأصولية، وقواعد الاستدلال.

**ملاحظة منهجية**: والانطلاق من آيات الأحكام في فقه الدين ضروري؛ لأنها تتضمن الصيغ الكلية للأحكام الشرعية، وهى صيغ مكتنزة بالمقاصد التشريعية، وإهمالها أو الاستغناء عنها بأحاديث الأحكام- كما يفعله بعضهم- مُوقِع في التجزيء الفقهي وإغفال قصد الشارع من التشريع.

**ب - السنة النبوية**: وفيها أيضًا نظران: عام وخاص:

**فأما العام**: فهو التفقه في مجمل سنة المصطفى ﷺ ومداومة النظر في كتبه؛ حتى يكون الطالب على علم بأحوال رسول الله ﷺ إجمالاً، بما هو مبلغ عن الله ومبين لشريعته؛ ذلك أن الجهل بالسنة من أهم الأسباب المؤدية إلى التقليد

---

(١) كتاب مفهوم العالمية ص ٨٩- ١٤٣.

والزيغ عن دعوة الصواب في أمور العبادات، والارتماء في أحضان البدع والخرافات.

**وأما الخاص**: فهو التضَلُّع من أحاديث الأحكام وفقهها، وما يلزم من قواعد وعلوم؛ ذلك أن أحاديث الأحكام هي المفتاح الحقيقي لفقه آيات الأحكام، فالقرآن إنما جاء في الغالب بكليات الأحكام الشرعية، بينما السنة جاءت بتفاصيلها وبيان هيئاتها.

**الأصل الثاني**: **العلوم الشرعية**:

وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول**: **علوم القرآن والسنة**:

أ- **علوم القرآن**: وهي التي جاءت لخدمة القرآن الكريم نحو:

١ - «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.

٢ - «البرهان في علوم القرآن» للزركشي. ويدخل في ذلك كتب غريب القرآن وكتب التفسير.

ب- **علوم السنة**: وتحوي كل ما يتعلق بالحديث «رواية ودراية»، والأخذ بفقه القرآن والحديث كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من المستقر في أذهان المسلمين أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علمًا وعملًا ودعوة إلى الله والرسول، فأنبتت الكلأ والعشب الكبير، فزكت في نفسها، وزكي الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا «ورثة الأنبياء»، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين، والبصر، والتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهمًا خاصًا. فهذا المفهوم بمنزلة الكلأ والعشب، الذي أنبتته الأرض الطيبة، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية، وهي التي حفظت النصوص، فكان همها حفظها وضبطها، فوَرِدَها الناس وتلقوها بالقبول، واستنبطوا منها، واستخرجوا كنوزها،

واتَّجَروا فيها، وبذروها في أرض قليلة الزرع والنبات، وورووها كلٌّ بحسبه، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[(١)]. وهؤلاء الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»[(٢)].

وهذا عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما- حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمعه من النبي ﷺ لا يبلغ نحو العشرين حديثًا، الذي يقول فيه: «سمعت» «ورأيت» وسمع الكثير من الصحابة، وبورك له في فهمه والاستنباط منه، حتى ملأ الدنيا علمًا وفقهًا، فعلم ابن عباس كالبحر، فقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالوضع الذي فاق به الناس وقد سمعوا ما سمع، وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص، فأنبت من كل زوج كريم و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(٣)].

**ملاحظة**: أين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره، واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه، بل هو حافظ على الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالدليل درسًا، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه، وهِمَّةُ ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها. وهكذا ورثتهم من بعدهم اعتمدوا في دينهم على استنباط النصوص. وبكل حالٍ فَهُمْ أعلم الأمة بحديث الرسول وسيرته ومقاصده وأحواله[(٤)].

**القسم الثاني: علم الفقه وأصوله:**

يقول د. فريد- رحمه الله: **علم الفقه والأصول مقرون به، فذكر الأول**

---

(١) البقرة: ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وأحمد (٤/ ٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) الحديد: ٢١.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٩٣، ٩٤).

**متضمن للثاني ضرورة**، وأما ما جرت العادة بتسميته بـ«الفقه» من كتب الفروع، فليس بفقه على الحقيقة، وإنما هو نقول فقهية. والعالم بها وحدها فقط ليس بـ«فقيه»، وإنما هو «ناقل للفقه». **وإنما الفقيه «من يفقه الأحكام الشرعية عن الله ورسوله»** ولا **يكون كذلك حتى يكون خبيرًا بمناهج الاستنباط، قادرًا على إيرادها مواردها العلمية فهمًا واستدلالًا وتنزيلًا؛ ذلك من أصول الفقه بصورة مطبقة، فالفقه والأصول وجهان لعملة واحدة، وإنما أَفْسَدَ العِلْمَ فَصْلُهُمَا!!** حتى صار من يسمون بـ«الفقهاء» ممن لا دراية لهم بالأصول، جامدين على مقتضى المنقول من كتب المتأخرين، والمختصرات والمنظومات، فاحتلت هذه في ذهنه منزلة الوحي من حيث لا يدري.

**وأما الاشتغال بعلم «الأصول» معزولًا عن «الفقه»** فهو ضرب من الخوض النظري الذي يجعل صاحبه كـ«**علماء الكلام**» **يفنون أعمارهم في بحث قضايا «الإيمان» ولا يحصلون من الإيمان**- على مستوى العمل- **إلا قليلًا. وكفى بذلك مصيبة في الدين والعلم.**

**كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول**

**وإنما الفقه: القدرة المنهجية على استنباط الحكم الشرعي، بقواعِدِه وَضَوابطه الاستدلالية، فهمًا وتنزيلًا**، وإلا فلا فقه، وهذا لا يتأتى إلا بمعالجة النصوص الشرعية من آيات الأحكام وأحاديثه، والنظر في النوازل الفقهية وأحوالها، ومعرفة مذاهب الفقهاء المجتهدين وما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وأسباب هذا وذاك من الأدلة والفهوم، ومعرفة قواعد النظر الفقهي، مما استنبطه الفقهاء عبر التاريخ.

**القسم الثالث: علم التوحيد والتزكية:**

وهو العلم الذي في حقيقته غاية الغايات، ونهاية المآلات في الدين، وإغفاله أو إهماله مهلكة كبرى في العلم والعمل.

إلا أن من أخطر المشكلات التي واجهها الناس اليوم- على المستوى

المنهجي- في هذا الأمر التربوي الخطير مشكلة مفهوم «التوحيد» بما هو «تزكية» للنفس، لا بما هو مقولات كلامية وحسب، إذ إن «**التوحيد**» و«**التزكية**» **إنما هما وجهان لعملة واحدة**، وتجليان لحقيقة واحدة. وعدم فهم ذلك أدى ببعض الناس إلى كثير من الخلل في التعامل مع مفاهيم العقيدة الإسلامية. لذلك نرى أن العلماء قسموا حقائق التوحيد- بناء على استقرار نصوص الكتاب والسنة- إلى قسمين: **توحيد معرفة وإثبات، وتوحيد قصد وعبادة**. ثم نقل المؤلف كلام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩، ٤٥٠) في توضيح هذه المسألة، خرج بعد ذلك على بيان الإشكال في المنهجية التعاملية. مع موضوع التوحيد وهي «المقاصد التربوية» من أغلب كتب العقائد، حيث فصلت في بيان القسمين المذكورين معًا، لكن بمنهج نظري جدلي، لا بمنهج تربوي قائم على «قصد تزكية الأنفس» الذي هو غاية تعريف العباد بالله ربًا وإلهًا ! وأهمل هذا المعنى العظيم، لتتولاه كتب أخرى وفنون أخرى، وصفت أحيانًا بكتب الرقاق، وأخرى بكتب الزهد، أو كتب السلوك، أو كتب التصوف.

وبغض النظر عن مشكلة التسمية وما تثيره من جدل، فإن غاية ما سلم من هذه المصنفات إنما هو تزكية الأنفس، لتتحقق من مفهوم (الإخلاص) وذلك هو غاية التوحيد جملة، وأساس توحيد الألوهية خاصة. والناظر فيما صفا من هذه الكتب والمصنفات إنما يجدها تدور حول حقائق الإيمان بهذا المعنى. ومن هنا لم تكن «التزكية» غير التربية على «التوحيد» بمعناه القرآني الشامل، وهو غاية وظائف الرسالة النبوية المذكورة في غير آية من كتاب الله، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

(١) آل عمران: ١٦٤.

وعليه، فقد وجب أن نستعيد المنهج القرآني في عرض المادة التوحيدية، **أعني: منهج التربية والتزكية، للبلوغ بالتوحيد إلى ثمرته المرجوة، ألا وهي الإخلاص، ولا يكون ذلك إلا بعلم وعمل، فالعلم:** إنما هو التلقي الصحيح والفهم السليم عن الله ورسوله، بناء على ما جاء في القرآن الكريم وما صح في السنة النبوية، من أمور العقائد، وقواعد الإيمان. **وليس عبثًا أن ترجم الإمام البخاري في «كتاب العلم»** (باب العلم قبل القول والعمل) وصدق رسول الله ﷺ فيما وصف به حال المسلمين زمن الفتن مما سبق ذكره، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ الله لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(1). ولذلك كان **أول خطوات تجديد الدين إنما هي تجديد العلم بالله.**

**وأما العمل:** فإنما هو مجاهدة النفس في الله- في ضوء ذلك العلم- حتى تسلك بالعبد مدارج السالكين ومنازل السائرين إلى رب العالمين. والعلم الكفيل بتحقيق ذلك في النفس إنما هو علم التزكية، إذ هو الجانب التطبيقي للتوحيد، والترجمان العملي للإخلاص.

**ولكن ها هنا إشكال:** فنظرًا لاضطراب المفاهيم والتصورات، وقف الناس إزاء هذا العلم بين إفراط وتفريط فيما هو علم لابسه- من حيث التسمية- مصطلح آخر هو «التصوف»، **الذي انقسم فيه الناس إلى قسمين:**

**١- فريق أنكر كل ما فيه.**

**٢- وفريق أخذ بكل ما فيه من الباطل والخرافات.**

والحق أخذ التربية بقواعد العلم ومناهجه، ولا يكون ذلك إلا بالتأصيل العلمي لكل مقولات التصوف وقواعده، وهذا أمر صنعه غير واحد من

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

العلماء الربانيين، فأصاب بذلك خيرًا كثيرًا، واهتدى على يديه خلق كثير، منهم الإمام أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي والإمام ابن القيم الحنبلي.

وعدم التحقيق يضيع الكثير على الأمة، كما ذكر ابن القيم عن الإفراط أو التفريط في التعامل مع كتب الزهد والتصوف فقال: **هذه الشطحات أَوْجَبَتْ فتنة على طوائف من الناس:**

**إحداهما:** حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقًا، وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل من أخطأ، أو غلط، ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها.

**والطائفة الثانية:** حجبوا- بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحسن معاملتهم- عن رؤية شطحاتهم ونقصها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم، وهؤلاء أيضًا معتدون مفرطون.

**والطائفة الثالثة:** وهم أهل الإنصاف- الذين أعطوا كل ذي حَقٍّ حَقَّهُ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته[1].

ثم يرجع المؤلف- رحمه الله- إلى بيان التربية والتزكية للدعاة في طلب العلم فيقول: فما عالم ليس له خلوات بجوف الليل الآخر تبتل فيها إلى الله ويدعوه رغبًا ورهبًا، وما عالم ليست له أوقات مع ربه يذكره فيها ويستغفره ويسبحه، وما عالم ليست له أشواق ولا أذواق ولا حياة لوجدانه بمسالك المحبة الإيمانية، ولا معرفة لقلبه بمدارج الخوف والرجاء- ماذا يُرجى من ورائه لهذه الأمة؟ وماذا يمكن أن يفيد في تربية الخلق؟ وفاقد الشيء لا يعطيه!

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٩، ٤٠).

والعالم الذي ليس له عمق روحي لا يمكن أن يفيد الأمة بشيء- دعوة وتربية.

**الأصل الثالث: فقه اللسان العربي:**

وهذا هو مفتاح الأصول كلها، وباب العلوم جميعها، وبغير إتقانه لا يكون بدء، ولا يكون وصول. وعليه فالواجب مع طالب العالمية أن يتقن اللسان العربي لا اللغة العربية فقط. فقد اشترط غير واحد من الأصوليين على المجتهد في الفقه أن يبلغ- أولًا- درجة الاجتهاد في اللغة، وما ذلك إلا معنى إتقان اللسان.

**ذلك أن اللغة لا تؤخذ من كتب النحو والصرف والقواعد والمعاجم والبلاغة فقط، وإنما تؤخذ أساسًا من مجال التفاعل اللغوي النفسي، وليس أقْعَد بهذا الهدف من كتب الأدب العربي: شعره ونثره! نعم قواعد اللغة العربية ضرورية، ولا كلام مع طالب العالمية قبل إتقان الحد الأدنى من ذلك؛ بما يمكنه من إقامة تعبيره وفهمه للخطاب العربي- شكلًا ومضمونًا- على المستوى النحوي والصرفي والمعجمي والبلاغي.**

ولكن لا بد له- بعد ذلك وأثناء ذلك- من الاشتغال بتلقي اللسان العربي من كتب الأدب، إذ إن القواعد تعلمك اللغة، بينما الأدب يعلمك اللسان، وحاجة «العالم المجتهد» إنما هي إلى اللسان، إذ لا اجتهاد في الشريعة بغير لسان، كيف وهذا القرآن قد بلغ منتهى الغايات في التعبير والبيان، وهذا النبي- عليه الصلاة والسلام- قد أوتي جوامع الكلم، وكان أفصح العرب وإمامهم في إنتاج اللسان؟ وليس عبثًا أن شَكَّل الاستعمار الثقافي الحديث فرقًا من المثقفين العرب في المجالين: الأدبي واللغوي، يفسدون اللسان العربي بوعي خطير، على المستويين: الشكلي والمفهومي، بما ينتجون من (إبداع) هجين، ودرس لساني أثيم، يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، ويغيرون خلق الله في الطبيعة اللغوية والمفاهيم اللسانية، بما يضيع حقائق الحياة والأشياء مما أنتج لغة (عربية) أخرى- في مجال التأليف والتعبير- لا تكاد تقارب العربية

الأصلية إلا في الاسم.

**ثم يقول- رحمه الله: لا بد بعد إقامة اللسان من إتقان فن الخطابة، بما هي** صناعة فنية ولغوية، وذلك تمام البيان الذي امتن الله به على الإنسان. والحقيقة أنه لا دعوة لمن لا بيان له. نعم، لا دعوة لمن لا بيان له، فَتَدَبَّرْ. والخطابة- بما هي فن من أهم فنون الإقناع ومخاطبة الجماهير- صناعة تؤخذ بالتعلُّم النظري والتطبيقي معًا، لا غنى لأحدهما عن الآخر، أي لا بد من دراسة أدب الخطابة في مصادره النظرية، عند العرب والعجم، ثم لا بد من الدخول في ورشات تكوينية، تحت إشراف خبير أو عدة خبراء في هذا المجال، ثم الدخول العملي في ممارسة هذه الصناعة في الحياة، مع التتبع لكبار الخطباء في العالم، والحرص على حضور خطبهم ما أمكن، أو مشاهدتها على الأشرطة المرئية، وملاحظة كيفية أدائهم، شكلًا ومضمونًا. وإن في ذلك لمدرسة مهمة قلما ينتبه إليها، لو دخلها المتعلم لجاء بحكم نادرة، بل عزيزة لا تدرك بنظرية ولا بكتاب.

**الأصل الرابع: فقه الواقع:**

وهذا الأصل زل فيه طرفان كلاهما مُغَالٍ في حكمه، مجافٍ للحق في نفسه.

**فأما الطرف الأول:** فقوم جعلوه أصل كل شيء، وبذلك حكموه في كل شيء وعلى كل شيء، فردوا به بعض أحكام الدين، وأبطلوا به بعض نصوصه الصريحة الصحيحة! فتراهم كلما واجهوا معضلة مما لم يوافق هواهم، أو لم تستوعبه عقولهم القاصرة، من مقتضيات النصوص الشرعية، قالوا: «هذا مخالف لفقه الواقع». أو استدركوا على الشرع الحكيم بمثل قولهم: «ولكن فقه الواقع يقتضي كذاو كذا..» فيبطلون العمل بالنص الصريح، بلا قواعد ولا ضوابط، تحت تأثير مصلحة وهمية، أو مفسدة خيالية، من (فقه الواقع) زعموا! وما ذاك في الحقيقة بفقه للواقع، ولكنه ضرب من الاعتزال الجديد، ليس إلا.

**وأما الطرف الثاني:** فقوم جاء حكمهم مجرد فعل نفسي، في مقابلة غلو الطرف الأول، فصدروا عن حكم متسرع بلا دراسة ولا روية، وقضوا بفساد تحكيم الواقع في فقه الدين، بل جعلوا مفهوم «فقه الدين» مناقضًا لمفهوم «فقه الواقع».

**والحقيقة أن مفهوم «فقه الواقع» قديم في سلف الأمة، أصيل أثيل!** وإنما التسمية هي الجديدة، وعليه كان المعول في تحقيق مناط الأحكام الشرعية في النوازل والفتاوى الفقهية، فهو جزء لا يتجزأ من «فقه الدعوة»، وهو شرط صحة في الإفتاء، إذ لا تصح الفتوى إلا باعتبار معطياته! ولكن بقواعد وشروط، حددها علماء أصول الفقه، لا بالهوى السارب، أو بالتحكيم المطلق للعقل المجرد، والفكر المتحلل من توجيه الشرع، ومن تسديد الدين وهداه. وإنما «فقه الواقع» علم أشبه ما يكون بـ«شروط الصحة» في النظر الفقهي، أو بقواعد «ما لا يتم الواجب إلا به» في الاستنباط والاجتهاد وبمحكمات العرف والعادة في فقه الشريعة تحقيقًا وتنزيلًا، إلى غير ذلك مما سطره الفقهاء وَقعَّدُوهُ، وهو أمر يحتاج إلى شيء من التأصيل والتفصيل، ونورد بيان ذلك كما يلي:

وهو أن ما اصطلح عليه الدعاة والعلماء المعاصرون بـ«فقه الواقع» أو ما سميناه بـ«أصول الفقه السياسي» فهو ما عرفه الفقهاء قديمًا في سياق ما يلزم المجتهد من (التفقه في حال الزمان وأهله)، أو (معرفة أحوال الناس وأعرافهم)، لأن على ذلك كله تنبني الثمرة المنهجية للاجتهاد، ألا وهي (تحقيق مناط الأحكام الشرعية). فلك إذن أن تسمي فقه الواقع بـ«فقه تحقيق المناط» **وهو من الاجتهاد الذي لا ينقطع إلى يوم القيامة، على حد تعبير أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله**[1]، وقال أبو إسحاق: «**الاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط: هو الذي لا خلاف بين الأمة في قبوله، ومعناه: أن يثبت الحكم بمدركه**

(١) الموافقات (٣/ ٨٩).

**الشرعي، لكن يبقي النظر في تعين محله»**(١). والجهل به مؤدٍّ إلى الطامات في الفهم والعمل، على كل المستويات: الدينية والدعوية على حد سواءً، وذلك لما يطبع الجاهل به- إذا تصدى للإفتاء أو للإرشاد الديني والدعوي- من ارتجال وفوضى منهجية، في الحكم على الحقائق والأشياء، بسبب عدم ضبط الأمور بموازينها، وعدم معرفة مقاديرها، فينشأ عن ذلك فساد كبير، يتعداه إلى غيره من الأتباع والرعاع، مما يعتقدون فيه الكمال والجلال، وذلك من أعظم الفتن، والله المستعان.

**يقول أبو إسحاق الشاطبي- رحمه الله: «إن من خواص العالم الرباني الحكيم: ألا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهى، بل يربي بصغار العلم قبل كباره، وقد فرض العلماء مسائل، مما لا يجوز الفتيا بها، وإن كانت صحيحة في نظر الفقه!** وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدِّ ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية»(٢).

**والمقصود (بالقبول العقلي) ها هنا: ما تلخص للعقل من موازين شرعية، بعد النظر في مقتضيات النص من العلل والحكم التي شرع من أجلها، ومقتضيات الواقع من الشروط والموانع،** ثم ينظر إلى المآل المتوقع من المقاصد التي شرع الحكم من أجلها، بناء على تلك المعادلة الاجتهادية بشروطها، وذلك بمعرفة فقه تنزيلها وتحقيق مناطها، إلى أي حد يكون خادمًا لتلك المقاصد وجالبًا لمصالحها؟ أم أنه مؤدٍّ إلى عكسها ونقيضها؟ فهذا العقل إنما هو

---

(١) الموافقات (٣/ ٨٩- ٩٠)

(٢) الموافقات (٤/ ١٩٠- ١٩١).

(عقل شرعي) موجه بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، لا بأهواء الذوق والتوهم.

ثم يدخل الشيخ- رحمه الله- إلى التفصيل في دراسة فقه الواقع فيقول: **وأول العلوم الضرورية فقه الواقع** «**مادة السيرة النبوية**»، بما هي أساس علم الدعوة إلى الله، **إذ منها يكون استنباط:**

**١- فقه المراحل الدعوية.**

**٢- قواعد ترتيب الأولويات الإصلاحية.**

وذلك لمخاطبة الناس على قدر ما يناسب الزمان وأهله، وأما تمييزنا لعلم السيرة في هذا السياق؛ فلكونه يمثل الصورة النموذجية لتطبيق تلك القواعد القرآنية، والموازين السننية في الواقع البشري المتحرك، والدخول بها في معترك التدافع الإنساني الحي.

ويؤكد- رحمه الله- كذلك على أهمية دراسة بعض العلوم الوضعية كدراسة مدخل عام بالقانون، ودراسة مجملة للتاريخ العام، ثم التاريخ الإسلامي على العموم، مع التتبع والمطالعة للفكر الإنساني بالجملة.

## المسألة الثالثة:

### برنامج العالمية:

بعد الاستطراد في بيان أهمية العلم والبناء التربوي كان لا بد من أن يقوم المؤلف- رحمه الله- ببرنامج علمي عملي لمن يريد أن يأخذ بالمدرسة الدعوية التي يراها في إنقاذ الأمة، فيقول- رحمه الله: **إن البرنامج قائم أساسًا على «منهج التخرج على الكتب»** كما كان معروفًا في السابق بمسميات مختلفة منها: «برنامج الشيوخ» أو «الإثبات» أو «الفهارس»، نحو فهرست ابن خير الأشبيلي وهو عبارة عن سرد للشيوخ الذين تلقى عنهم العالم، وما درس عليهم من كتب ومصنفات في هذا الفن أو ذاك، والتخرج على الكتب العلمية يكون تحت رعاية الأساتذة والشيوخ، إذ غالبًا ما تكون المصنفات التراثية قد أحاطت بمقاصد العلم المصنف فيه، مما يكفي لجعل الطالب محيطًا بأصوله وقواعده، علاوة على أن الطالب يتمرس بالقراءة على شيخه من خلال لغة النص التراثي القديم، ويحتك بأساليب العلماء الكبار مباشرة. ويتم ذلك بقراءة الكتاب على الأستاذ بمجالس الدرس المرتبة، فصلًا فصلًا، ومطلبًا مطلبًا، على سبيل التلقي لحقائقه العلمية، ومقاصده المعرفية، مادة ومنهجيًا، وإنما تكون القراءة مثمرة لهذه الأهداف؛ إذا كانت قراءة متأنية، تقوم على سرد النصوص أولًا، ثم تدار القضايا الكامنة فيها؛ دلالة أو استدلالًا، ومناقشة المشكلات الواردة عليها، وعقد المقاربات والمقارنات الممكنة مع غيرها.

ثم يواصل الطالب تكوينه- بعد ذلك بالنظر في كتب أخرى، سميناها «**كتب استكمال التكوين**»، وهي عبارة عن كتب مفتوحة للمطالعة الشخصية، والتتبع الفردي، في كل مادة علمية، بعد إتقان مصطلحاتها، وضبط مناهجها، واستيعاب قضاياها المعرفية، من خلال «كتاب التخرج» الأساسي المقروء على الشيخ.

**وبعد هذه المقدمة يذكر المؤلف مواد البرنامج مرتبة حسب أصولها:**

**الأصل الأول: نصوص الوحي:**

**١- مادة القرآن الكريم:** كتاب الله تعالى، ويعمل على قراءته حفظًا، وتفسيرًا، وتلاوة، وتدبرًا، وذلك العمر كله.

**٢- مادة آيات الأحكام:** كتاب التخرج: «أحكام القرآن» لأبي بكر بن العربي المعافري.

وهناك كتب للقراءة والاطلاع توضع في صف كتاب التخرج:

أ- «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي المالكي.

ب- «أحكام القرآن» للجصاص الحنفي.

**٣- مادة السنة النبوية:** كتاب التخرج «رياض الصالحين» للإمام النووي بتحقيق الشيخ الألباني. وهناك كتب لاستكمال التكوين:

أ - صحيح البخاري.

ب - صحيح مسلم.

جـ- السنن الأربعة، بتحقيق الألباني.

د - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم.

**كتب المطالعة:**

أ- المعيار للونشريسي.

ب- نوازل المهدي الوزاني.

جـ- مجموع فتاوى ابن تيمية.

**٤- مادة علم أصول الفقه: كتاب التخرج:**

أ- إرشاد الفحول- للشوكاني.

ب-الموافقات- للشاطبي.

الأول فيه خلاصة الفكر الأصولي جملة بصور مركزة، والثاني فيه تعمق مقاصدي في أصول الشريعة ومناهج الاستدلال.

**كتب للاطلاع:**

أ- الرسالة- للإمام الشافعي.

ب- البرهان- للجويني.

جـ- المستصفى- للغزالي.

د- المحصول للإمام الرازي.

هـ- إحكام الفصول- للباجي.

و- شرح التنقيح- للقرافي.

ز- البحر المحيط- للزركشي.

ح- إحكام الأحكام- لابن حزم الظاهري.

**٥- مادة القواعد الفقهية: كتاب التخرج:**

كتاب الفروق- للإمام شهاب الدين القرافي.

**كتب للاطلاع:**

أ- قواعد الأحكام في مصالح الأنام- للعز بن عبد السلام.

ب- المنثور في القواعد- للإمام برهان الدين الزركشي.

جـ- شرح القواعد الفقهية- للشيخ مصطفى أحمد الزرقا.

**٦- مادة علوم القرآن والتفسير: كتاب التخرج:**

أ- مناهل العرفان في علوم القرآن- للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

ب- مختصر تفسير ابن كثير- للشيخ أحمد شاكر.

**كتب للاطلاع:**

أ- البرهان في علوم القرآن- للزركشي.

ب- الإتقان في علوم القرآن- للسيوطي.

جـ- تفسير الإمام أبي جعفر الطبري.

**٧- مادة علوم الحديث: كتاب التخرج:**

أ- منهج النقد في علوم الحديث- للدكتور نور الدين عتر.

ب- الرفع والتكميل في الجرح والتعديل- للشيخ محمد عبد الحي اللكنوي.

**كتب للاطلاع:**

أ- نخبة الفكر- لابن حجر.

ب- مقدمة ابن الصلاح مع شرحها «التقييد والإيضاح» للحافظ العراقي.

جـ- تدريب الراوي- للإمام السيوطي.

**٨- مادة أحاديث الأحكام: كتاب التخرج:**

موطأ الإمام مالك، ونيل الأوطار للإمام الشوكاني.

**وهناك كتب للاطلاع:**

أ- المنتقى- للباجي.

ب- كتابا «التمهيد» و«الاستذكار» لابن عبد البر.

جـ- كتاب «القبس» لأبي بكر بن العربي.

د- «سبل السلام» للصنعاني.

**الأصل الثاني: مادة العلوم الشرعية** [1]:

١- مادة الفقه المذهبي المالكي «على اعتبار مذهب المغرب». **كتاب التخرج**: القوانين الفقهية- لابن الغرناطي.

٢- مادة الفقه المقارن والخلاف المالي: **كتاب التخرج**: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد الحفيد. إذا درس بشروطه كان مدرسة حقيقية لتخريج

(١) الحديث في الفقه يذكر الشيخ كتب المالكية، على اعتبار أن المنهج سيكون في المغرب.

الفقهاء المجتهدين.

**كتب للاطلاع:**

الاستذكار لابن عبد البر الأندلسي، وهذا الكتاب هو أصل مادة «بداية المجتهد»، وقد قلَّ فيه الوهم والخطأ في إسناد المذاهب إلى أصحابها، وهو في بدايته شرح لكتاب الموطأ.

**٣- مادة فقه النوازل والفتوى:**

**كتاب التخرج:** مسائل أو فتاوى ابن رشد «الجد» بتحقيق الدكتور الحبيب التجكاني. ويعتبر ابن رشد عمدة المذهب المالكي ومرجع الإفتاء فيه.

**الأصل الثالث: علم التوحيد والتزكية:**

أ- **التوحيد: كتاب التخرج:** شرح عقيدة الإمام مالك الصغير للقاضي عبد الوهاب المالكي. والكتاب على صغره، إلا أنه من عِلْم عالِمَيْنِ كبيرين من أئمة المذهب المالكي.

المؤلف: ابن أبي زيد القيرواني الذي كان يلقب بمالك الصغير، والشارح عبد الوهاب البغدادي.

**كتب للاطلاع:**

١- الإبانة عن أصول الديانة- للإمام الأشعري.

٢- العقيدة الطحاوية- لأبي جعفر الطحاوي.

ب- **مادة التزكية: كتاب التخرج:** عدة المريد الصادق للشيخ أحمد رزق المالكي (ت ٨٩٩ هـ) وقد جمع في كتابه بين المنهجين النقدي والتربوي، والكتاب فيه أثر كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي وكذلك تأثره بكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم.

**كتب للاطلاع:**

أ- الغاية لحقوق الله. ورسالة المسترشدين- للحارث بن أسد المحاسبي.

ب- مدارج السالكين- لابن القيم.

**الأصل الرابع: اللسان العربي:**

**١- مادة النحو العربي وفقه اللغة.**

**كتاب التخرج:** شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، ومغني اللبيب لابن هشام الأنصاري.

**كتب للاطلاع:**

أ- الكتاب- لسيبويه.

ب- الخصائص- لابن جني.

جـ- فقه اللغة وسر العربية- للثعالبي.

**٢- مادة الأدب: كتاب التخرج:** البيان والتبيين للجاحظ.

وأما أبو عثمان بن بحر الجاحظ- رحمه الله وغفر الله له- مع ما كان عليه من (اعتزال) فقد كان إمامًا في العربية بلا منازع.

**كتب للمطالعة:**

أ- الكامل للمبرد.

ب- أدب الكاتب لابن قتيبة.

جـ- خزانة الأدب للحموي.

د- وحي القلم للرافعي.

**٣- مادة الخطابة: كتاب التخرج:**

«الخطابة.. أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب» للشيخ الإمام محمد أبو زهرة.

**كتب للاطلاع:**

أ- كتاب جمهرة خطب العرب- لأحمد زكي صفوت.

ب- صبح الأعشى في صناعة الإنشا- لأحمد بن على القلقشندي.

جـ- مواقف الداعية التعبيرية- لعبد الله علوان.

ثم أشرطة مرئية لخطباء مشهورين ناجحين، عربًا وعجمًا، مع ضرورة الدخول في ورشات تدريبية تحت إشراف خبير في المجال.

**الأصل الخامس: فقه الواقع:**

**١- مادة فقه السيرة النبوية.**

**كتاب التخرج:** صحيح السيرة النبوية للشيخ إبراهيم العلي، أو السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية للدكتور مهدي رزق الله. فالأول كتاب جيد، مكين في جمع مادة السيرة النبوية بمنهج حديثي نقدي، وهو مختصر لا يخل بالمقصود.

**كتب للاطلاع واستكمال التكوين:**

فقه السيرة للبوطي، وفقه السيرة للغزالي.

**٢- مادة الفقه السياسي: كتاب التخرج:**

لأستاذ خبير بالتحليل السياسي، لتحقيق العلم بالواقع المعاصر في أصوله الثلاثة وهي:

**الأصل الأول:** المكونات وهي: القوى والتكتلات المكونة للواقع السياسي، من مذاهب وأحزاب سياسية واقتصادية مؤثرة، منها ما هو في السلطة أو خارجها.

**الأصل الثاني:** الاتجاهات وهي: المرجعيات الفكرية، والتصورات (الأيديولوجية)، التي تتحكم في مواقف كل تلك المكونات المذكورة، وتوجه تصرفها.

**الأصل الثالث:** التوازنات وهي: فقه خريطة المواقع السياسية، التي تحتلها القوى المختلفة من سائر المكونات، ومعرفة ما يقوم بينها جميعًا من صراع وتدافع، ومدى ما تحقق لهذه أو تلك من غلبة أو تراجع، وما سبب هذا أو

ذاك، وما يتوقع من احتمالات في سيرورة التوازنات بعد ذاك.

وقد بينَّا أن من لا يتقن هذه الصناعة لا يُرْجى له فقه حقيقي في الدين، وإنما فقه الدين حسن تنزيل أحكامه على مقتضيات الزمان، وما تجدد من أحوال الإنسان، وتطور من طبائع العمران، وهذه صناعة لا تؤخذ إلا من أفواه أصحابها؛ وذلك لأن الفقه السياسي - في الحقيقة - لا يتلقى بطبيعته من الكتب، وإنما هو خبرة تؤخذ من أهل الفهم للواقع وسننه الجارية، فالواقع السياسي متغير أبدًا، متجدد سرمدًا، سريع التقلب، وفقهه كذلك.

نعم هناك ثوابت في هذا الأمر هي بمثابة سننه وقواعده، فهذه تُتَلَقَّى من كتب الفكر السياسي والقانوني والتاريخي. وهذه توضع لكل بلد بحسب تاريخه السياسي والثقافة القانونية.

**وهناك كتب للاطلاع:**

- مختصر في تاريخ المغرب[1].
- مدخل إلى دراسة القانون.
- شرح لقانون الحريات العامة.
- شرح للقانون الدستوري.
- مدخل إلى الاقتصاد السياسي.

**خاتمة المسار:**

وبعد هذا التطواف الجميل في العلم والتعلم والتعليم، يختم المؤلف **قوله بأن الأمة لن تستأنف مسيرتها، ولن تحقق إقلاعها الحضاري مرة أخرى، إلا بالعلم، فالعلم** أول شروط الانطلاق. ولن يفك عقالها في هذا الاتجاه إلا العلماء المجددون، والحكماء الربانيون، الذين تحققوا من صفة العالمية بشروطها الشرعية الصحيحة. فركوب طريق الطلب إلى هذه المنزلة العالمية هو من أعظم الجهاد في زماننا هذا. وإن الاتصاف بهذه الحلية الغالية، ليس بالتمني الكسول،

---

(١) يمكن أن يكون مختصرا لكل بلد يقام فيه مشروع ورثة الأنبياء.

ولا بالادعاء الخامل الـمَلُول، ولكنه عزيمة على دخول المدرسة النبوية بحقها، لتزكية النفس، وتعلم الكتاب والحكمة.

**وهذا يستلزم ثلاثة شروط:**

**الأول**: تجريد القصد لله، بإخلاص النية للتعبد بالعلم، تعلـمًا، وتعليمًا، وتزكية، ودعوة إلى الله، وهذا يحتاج منك إلى مراقبة دائمة.

**الثاني**: عزيمة قوية تركب سفينتها، وتبحر في خضم الليالي والأيام، بلا ملل ولا كلل، وتصحب أهل العلم من العلماء الربانيين إن وجدتهم.

**الثالث**: أن تلتزم منهجًا ثابتًا، فإن كثرة البدايات من المثبطات، وإن التنقل العشوائي من فن إلى فن، ومن واد إلى واد في طريق العلم؛ لَهُوَ من المهلكات، لأنه ضرب من الانقطاع الخفي. وانتبه إلى نصيحة ابن شهاب إلى يونس بن يزيد، قال: يا يونس، لا تكابر هذا العلم، فإنما هو أدوية، فأيها أخذت فيه قبل أن تبلغه قطع بك، وكن آخذه مع الأيام والليالي[(١)]، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من أخذ العلم جملةً ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي وأكثر من الذكر والدعاء، واجمع مكارم الأخلاق في طريقك، فإنه لا بركة في علم لن ينتفع به صاحبه أولًا ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[(٢)]. والله المستعان.

والعلم ولاية لا يُعْزَلُ عنها صاحِبُها، ولا يُعرى من جمالها لابِسُها، وكل ذي ولاية وإن جلت، وحرمة وإن عظمت، إذا خرج عن ولايته، وزال عن بلدته، أصبح من جاهه عاريًا، ومن حاله عاطلًا- غير صاحب العلم، فإن جاهه يصحبه حيث سار، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار، ويبقى بعده في سائر الأعصار! فإن بلغ أحدكم أن يسترعيه الله أمة، بحكم أو فتوى، فليمتثل العدل جهده، ويجتنب الجور وغدره، فإن الجائر مضاد لله في حكمه، كاذب

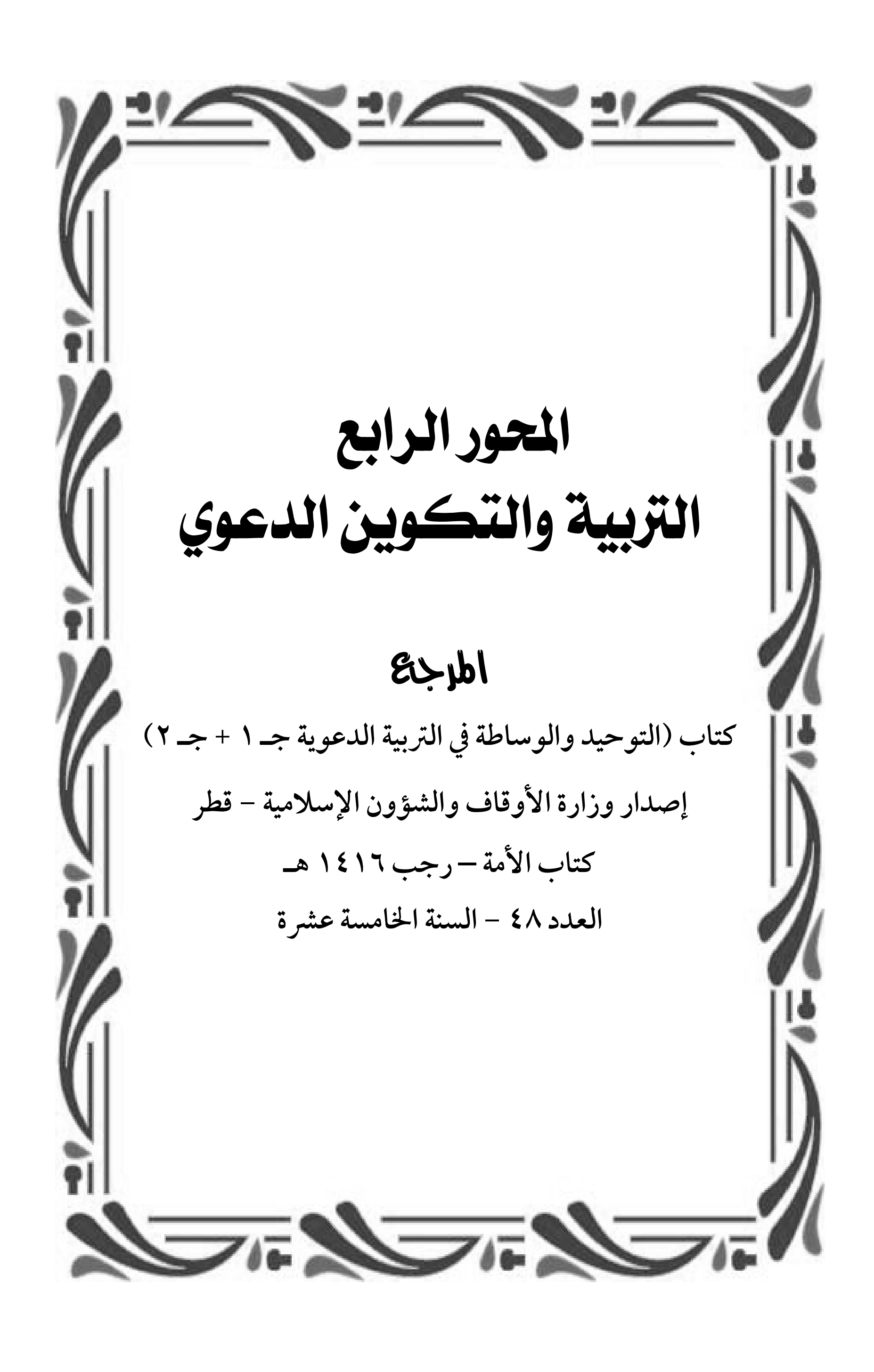
(١) جامع بيان العلم (١/ ٢٠٦).
(٢) فصلت: ٣٥.

عليه في خبره، مغير بشريعته، مخالف له في خلقته، قال الله تعـالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1]. وقـد روي: « **الخلق كلهم عيال الله وتحت كنفه، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله** »[2]، وروي: «**ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة**»[3].

(١) المائدة: ٤٧.

(٢) روى الطبراني في الكبير (١٠/ ٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٠٢)، والبيهقي في الـشعب (٦/ ٤٣) عن ابن مسعود مرفوعا. وإسناده جيد.

(٣) رواه البخاري (٧١٥٠) عن معقل بن يسار مرفوعًا.



# المحور الرابع
# التربية والتكوين الدعوي

## المرجع

كتاب (التوحيد والوساطة في التربية الدعوية جـ ١ + جـ ٢)

إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر

كتاب الأمة – رجب ١٤١٦ هـ

العدد ٤٨ – السنة الخامسة عشرة

# التربية والتكوين الدعوي

## المسألة الأولى:

### أهمية العملية التربوية:

يقول المؤلف – رحمه الله: إن مجموعة كبيرة من أمراض العمل الإسلامي، ترجع إلى اختلال المسألة التربوية فيه، من حيث التصور، أو الممارسة، أو هما معاً؛ ذلك أن التربية هي الإطار الأساس الذي يتم داخله تشكيل القيادات والجنود، على حد سواء، فهي صمام الأمان الذي يضبط المسيرة الدعوية داخل الصف: اصطفاءً واستيعاباً، ثم ترقية وتزكية، ثم تخريجاً وتأهيلاً.

ولذلك لابد من رسم معالم المنهج التربوي الدعوي، وتحديد منطلقاته وأصوله، وضبط قواعده ومقاصده، وكيفيات تنزيل مقتضياته العملية.

### المراد بالتربية في الدعوة الإسلامية:

**تعهد الفرد المسلم بالتكوين المنتظم بما يُرَقِّيه في مراتب التدين، تصوراً وممارسة.**

والعملية التربوية تقوم بالمعالجة للكائن البشري كله، معالجة شاملة، لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء: جسمه، وعقله، وروحه.. حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض. وعلى هذا فهي معقدة يجب أن يُراعى فيها كل ما يساعد على تمثل الإسلام في الحياة البشرية، روحياً، وعلمياً، ونفسياً، واجتماعياً، ورياضياً... إلخ. ومن الخطأ قصر التربية على جانب التزكية الروحية دون سواها، أو العكس[(1)].

(١) كتاب الأمة «التوحيد والوساطة في التربية الدعوية» ج١ ـ العدد ٤٧ ـ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ ص٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧.

## المسألة الثانية:

### التربية بالوساطة:

**تعريف الوساطة:**

**١ ـ لغة:** قال الراغب الأصفهاني[(١)]: وسط الشيء: ما له طرفان متساويا القدر. وفي اللسان[(٢)]: اعلم أن الوسط قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسماً، من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[(٣)]، أي: عدلاً. فهذا تفسير الوسط. وحقيقة معناه: أنه **اسم لما بين طرفي الشيء، وهو منه**... وأما الوَسْط، بسكون السين، فهو ظرف لا اسم، على وزن نظيره في المعنى وهو «بين».

**٢ ـ اصطلاحاً:** هي: ترقية الفرد في مراتب التدين، لا من خلال ذات النصوص الشرعية، ولكن من خلال ذات (الوسيط).. فيكون المتربي بهذا النهج متديناً بالإسلام، كما فهمه الوسيط، أو كما التزمه، وليس بالضرورة كما هو في ذاته.

**أنواع الوساطة في المجال التربوي الإسلامي[(٤)]:**

**أ ـ الوساطة الروحية:** وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الروحي.

**ب ـ الوساطة الفكرية:** وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الفكري[(٥)].

وزيادة في توضيح مفهومي «التوحيد والوساطة» عقد المؤلف لبيان مدى التقابل الحاصل بينهما من ناحية، واختلاف الآثار التربوية المترتبة عنهما، في مجال الإنتاج التربوي، من ناحية أخرى، **وجعل عناصر المقارنة في ثلاث قضايا:**

---

(١) المفردات ـ كتاب الراء.

(٢) اللسان: مادة «ريب».

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) للشيخ- رحمه الله- عرض ونقد لصورة عاشها في واقع حياته الدعوية؛ ولذلك جاءت بصورة شديدة تدخل في عمق الجرح الدعوي في جانب التلقي الدعوي- الفكري والروحي.

(٥) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٤٠، ٤٢، ٤٣).

**القضية الأولى: التربية بين المصدرية والمرجعية:**

إن التوحيد يقوم في مادتـه التربويـة عـلى النـصوص الـشرعية، فنـصوص القرآن والسنة النبوية هي المصادر الوحيدة للعمل التربوي، وهو ما أكده سـيد قطب- رحمه الله- في وصفه للجيل القرآني الفريد، جيل الصحابة، حينما قـال: (كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القـرآن وحـده. فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع، فكتـاب الله، وسنة نبيه- عليه الصلاة والسلام- هما صمام الأمان الـواقي مـن الـضلال إذا أحسن توظيفهما بضوابطهما الشرعية، وقواعد تفسيرهما وفهمهما.

يقول الرسول ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَـيْئَيْنِ لَـنْ تَـضِلُّوا بَعْـدَهُمَا : كِتَـابَ الله وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْـحَوْضَ**»[1]. نعم لابـد مـن اعـتماد منـابع أخرى للتربية، تساعد على فهم النصوص الشرعية، وفهـم الـنفس الإنـسانية، والمجتمع الإنساني، والواقع المتطور المتجدد... إلـخ، ولكـن لـيس باعتبارهـا مصادر، ولكن فقط باعتبارها مراجع تساعد على تنزيـل الحقـائق الإسـلامية، المستفادة من النصوص الشرعية، في النفس والمجتمع.

**أما التربية الوساطية، فهي على عكس ذلك تماماً، تعتمد الفكـر البـشري في تربية الأفراد، باعتباره المنبع الأول للمفاهيم التربوية**[2][3].

**ثم يذكر المؤلف- رحمه الله-** مثالاً على منهجية التربيـة في مفهـوم الخـشوع فيقول: إن اعتمادنا لغرسه في قلب المؤمن على مادة مرجعية، كأن يكـون ذلـك من خلال كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم مثلاً، فإن ذلك سيؤثر لا محالة،

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٩٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

(٢) التوحيد والوساطة الدعوية (١/ ٤٤، ٤٥، ٤٧).

(٣) على نفس الملاحظة جاء نقد المؤلف- رحمه الله- للتربية والوساطة نتيجة معايشته الدعوية كـما قيـل: (لكل فعل ردة فعل مساوية لها في المقدار ومضادة لها في الاتجـاه) وهـي نفـس المعركـة القديمـة بـين المذهبية واللامذهبية، والتي في اعتقادي أنها معركة يجب أن تنتهي من حوارات الدعاة الحالية.

لكن التأثير يكون سطحياً، **بحيث يغير من الحال لا من المقام، أي: أنه تأثير ظرفي وشكلي، فهو لا يلامس البنية الداخلية في شخصية الفرد، ولا يساهم في تشكيلها النبوي، ولكن يغير أحوالها الخارجية، فتحدث حالة (الخشوع) التي لن تستمر طويلاً، ولن يكتسب بها صاحبها (مقام) الخشوع**، وبعد استطراد المؤلف في نفس النسق الهجومي على الوساطة كما يسميها، يرجع إلى نفس الضابط الذي ذكرناه الذي يزيل المعركة الموجودة في الممارسات التي عاشها المؤلف فيقول- رحمه الله:

**إن المصدرية لا تعني إلغاء المراجع، التي هي فُهُوم الناس للتدين تصوراً وممارسة، ولكنها تعني الإبقاء عليها في سياقها المرجعي؛ حتى لا تكون لها أبداً السلطة المصدرية ذات الطبيعة المطلقة، والتعبدية بمعناها المحض، بل تبقى باعتبارها مراجع تتضمن تجارب دعوية تفيد كأدوات إجرائية لحسن الاستفادة من القرآن والسنة**، وأما رفعها إلى مقام المصدرية فهو عين الخطأ الذي يؤدي إلى الانصراف عن مصادر الإسلام إلى أقوال الرجال وأحوالهم[1].

(١) التوحيد والوساطة في التربية والدعوة (١/ ٥٠، ٥١).

## المسألة الثالثة:

### إشكالية في التلقي المصدري:

«من المقرر أن الناس ليسوا جميعاً مؤهلين لفهم نصوص القرآن والسنة حتى تعتمد أساساً للتربية الدعوية، ومن هنا تأتي ضرورة الوساطة الفكرية والروحية على السواء كمنهج أساس في العملية التربوية».

**وجواب هذه الإشكالية:**

**أ- إن البرامج التربوية في المنهج المصدري ليست بالضرورة أن تكون للجميع**، بل يجب أن تكون عملاً اجتهادياً، يقوم به أهل الاختصاص الشرعي من الدعاة، حيث يقومون باستقراء النصوص ذات البعد التربوي من القرآن والسنة، مما نزل أو ورد في سياق تشكيل الشخصية المسلمة ضبطاً وعدالة، أو قوة وأمانة. ونحن نعلم أن عملية الاستقراء والجمع والتركيب للبرامج عملية اجتهادية، لكنها لن تؤدي إلى وساطة بالمعنى الاصطلاحي المذكور، ومهما اختلفت اجتهادات المربين في تركيب البرامج التوحيدية، فإنها ستصب جميعاً في محيط القرآن والسنة، ومهما يكن بعد ذلك من قصور في تشكيل شخصية المتربي، فهو ناتج عن قصور في تركيب النصوص الاجتهادية، فإن قابلية الفرد للاستدراك على نفسه أو استدراك غيره عليه، تكون كبيرة؛ نظراً لعدم وقوعه في ارتباط وساطي يبعده عن رؤية الحقائق، ويلبس عليه، إذ هو مرتبط أساساً بالله من خلال كتابه، وسنة رسوله ﷺ، ولو بصورة غير دقيقة ووافية، هذا على افتراض أن قصوراً قد شاب عملية تركيب البرنامج التوحيدي، فلم يكن شاملاً لمتطلبات تكوين الشخصية الإسلامية بإغفاله لبعض النصوص الضرورية أو نحو ذلك، وإلا فالأصل أن واضعي البرامج من أهل الاختصاص الشرعي يكونون قد بذلوا من الجهد غاية الوسع في استقراء ما يتضح أنه يشكل لبنة في هندسة الشخصية المسلمة من الآيات الكلية، وجوامع الكلم النبوي. وهذا عمل ليس من اختصاص المتربين، ولكنه من اختصاص المربين والدعاة العلماء.

**ب- إن دخول المتربي في برنامج توحيدي، قوامه النصوص الشرعية كمادة مصدرية**، ثم قراءات في كتب مساعدة كمادة مرجعية، لا يعني أبداً أن الفرد يجب أن يكون مفسراً، أو أصولياً، أو فقيهاً مدركاً للمكي والمدني، وأسباب النزول، والعموم، والخصوص، والمطلق، والمقيد، وقواعد الاستدلال، ومناهجه من أقيسة ونحوها، لا.. فالبرنامج التوحيدي ليس هدفه تخريج العلماء، بل محل هذا هو الجامعات والمعاهد الشرعية، أما البرنامج فقصده فقط تخريج الأقوياء الأمناء في مجال الدعوة ليس إلا، وعليه فإن مدارسة نصوص البرنامج، إنما هي محاولة تمثُّل المبادئ الإسلامية الأساسية في بساطتها، مما يتعلق بتصحيح التدين تصوراً وممارسة، وما يتعلق بأصول وقواعد الدعوة، ومنهج تنزيل كل ذلك في واقع الناس اليوم.

ثم إن وظيفة المتربي إزاء النصوص الشرعية وهو يسهم في مدارستها، إنما هي الرجوع إلى كتب التفسير، وشروح الحديث، فيما يتعلق بالنص المدروس، للاطلاع على أقوال المفسرين والشُّراح من أجل إضاءة الموضوع أولاً، ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بعملية تركيب للمعنى، جامعًا ومرجحاً من باب التعلم، والتدرب على اكتساب المفاهيم بصورة مستقلة؛ ولذلك وجب ألا يعتمد على تفسير واحد، أو شرح واحد، بل بعدد من مراجع التفسير والشروح، مع العلم أننا لا نعدُّ مثل هذه الكتب من أدوات الوساطة؛ لأنها بذاتها خاضعة للنسق القرآني، أو الحديثي على الإجمال، وقصدها إنما هو محاولة ربط أعمق للقارئ بالنص الشرعي.

نعم لا نذكر حضور الذات المفسرة أو الشارحة في المادة، ولكنها لن تؤثر بالشكل السلبي على النتيجة التربوية، لأن نهاية هذه إنما هي الدوران حول النص أولاً وأخيراً؛ ولذلك كان التوجيه المقترح ألا يُقتصر على التفسير الواحد، أو الشرح الواحد، بل لابد من تعدادها، حتى تتاح الفرصة للمتربي لبذل جهده الشخصي في تمثل النص، فهماً وتنزيلاً، بما يناسب حاله وزمانه..

وهذا عمل قد يبدو لبعضهم صعباً على المتربي، ولكنا نقول كما يقول المثل: يبدأ المرء فرزدقياً، وينتهي جريرياً[(١)].

**جـ- أضف إلى ذلك، أن النص الشرعي**، قرآناً كان أو سنة، لا يعطي ثمرته لمن لم يتهيأ لاستقبالها، ولا يبوح بأسراره إلا في ظل ظروف خاصة، وشروط سابقة، على المتربي والمربي معاً بأن يعملا على توفيرها وإعدادها.. إنها ببساطة ظروف وشروط التعبد؛ ولذلك فإن مالك بن أنس- رحمه الله- لم يكن يجلس لتدريس حديث رسول الله ﷺ إلا متوضئاً، وفي أحسن ثوبه.

**فالجلسة التربوية يجب أن تكون جلسة عبادة** يستشعر فيها الجميع معاني التعبد، ولا مجال بعد ذلك فيها للغو الحديث ولهوه، وإنما هي كالصلاة، أولها إحرام، وآخرها سلام. وهكذا فقط، تكون للنفوس قوة خاصة، واستعداد خاص، لاستقبال مفاهيم النصوص الشرعية استقبالاً جيداً.. ولابد للمحافظة على هذا المعنى، **من تنزيل المادة التربوية (تخوُّلاً)، لا إكثاراً، ولا إثقالاً!** وذلك بمراعاة العدد المناسب من الجلسات في الأسبوع، الذي يكفي لترقية المتربين في مدارج البرنامج التربوي، دون الإكثار من النصوص في الجلسة الواحدة، لتتاح الفرصة للأفراد، كي يعدوا للمدارسة إعداداً، ويتهيؤوا للتعبد تهيؤاً، فلا يملوا ويسأموا وينزلقوا إلى اعتياد الجلسات اعتياداً، فتنحرف النفوس من الشعور العبادي إلى الشعور العادي، وتفقد النصوص الشرعية ثمرتها التربوية بالنسبة إليهم خاصة.. **وإنما كان رسول الله ﷺ مربي الأمة، يبلغ رسالته التربوية على أساس منهج التخول.**

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»[(٢)]، وكذلك فعل المتخرجون من مدرسته ﷺ؛ فعن أبي وائل شقيق ابن سلمة، قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس مرة، فقال له

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٥١-٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٨).

رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: **«أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»**[(١)].

ولم يكن الرسول ﷺ يكثر من النصوص في اللقاء الواحد، فالقرآن نفسه إنما نزل منجماً، وفي ذلك ما فيه من الفوائد التربوية، والتتبع المرحلي لتطور المستوى التديني للصحابة.. وللنسخ أثر كبير في إقرار هذا المعنى، فإن الرسول الكريم ﷺ **كان إذا حدث بحديث أَوْجَزَ وأقل، ولم يسرد سرداً**، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: **«أَلا يُعْجِبُكَ أَبُو فُلَانٍ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِ حُجْرَتِي يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ يُسْمِعُنِي ذَلِكَ، وَكُنْتُ أُسَبِّحُ، فَقَامَ قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ سُبْحَتِي، وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ لَرَدَدْتُ عَلَيْهِ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»**[(٢)]. وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: **«كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ»**[(٣)]، و**«كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لأَحْصَاه»**[(٤)]، وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: **«كَانَ كَلَامُ رَسُول الله ﷺ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»**[(٥)].

**ثم إن دعوة الناس إلى الكتاب والسنة، في المجال التربوي، ليست على غير أساس ولا نظام، بل لابد من عمل جماعي منظم، يملك مجموعة من المربين، المؤطرين المختصين في الصناعة التربوية الدعوية.** هؤلاء لا يجوز أن ننسى دورهم في تنزيل العملية التربوية، وتذليل العقبات أمام المتربي، قصد تمثل أحسن للمفاهيم الإسلامية من مصادرها الشرعية[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣/ ١٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (٩٥)، ومسلم (٢٤٩٣/ ٧١).
(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣/ ٧١).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٨٣٩)، وحسنه الألباني.
(٦) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٥٤-٥٨).

**المسألة الرابعة:**

**إشكالية التربية بين المربي والوسيط** :

يقول المؤلف- رحمه الله- في إطار المقارنة بين التربية التوحيدية والتربية الوساطية: يمكن أن نلاحظ شساعة الفرق بين العمليتين من خلال المقارنة بين المسؤولين التربويين في هذه وتلك؛ إذ هو في التربية التوحيدية (مُربٍّ) وهو في التربية الوساطية مجرد (وسيط) وإن تسمى بالمربي؛ ذلك أن المربي هو الذي يقوم بتنمية الفرد وترقيته في مراتب التدين، والتشكيل النبوي لشخصيته، على أساس التجرد والاستقلال.

فلو أردنا التمثيل المادي للعمليتين، من حيث اختلاف المربي والوسيط، لكان المربي هو معلمك كيفية صيد الأسماك في المثال المشهور: (لأن تعلمني كيف أصطاد السمك، خير لي من أن تعطيني كل يوم سمكة)، ولكان الوسيط هو الذي يتصدق عليك كل يوم بسمكة! فانظر أي فرق بينهما! وأي فرق بعد ذلك بين العمليتين في الحال والاستقبال؟

**فالمربي إذن هو الذي يعلمك كيف تكون منتجاً.. والوسيط هو الذي ينتج بدلاً منك، فيعطيك المفاهيم جاهزة من خلال كتابه، أو رده، أو حاله، فلا تكون إلا مستهلكاً. والمربي هو الذي يعلمك كيف تنمي قدراتك الذاتية ومواهبك الشخصية، فتكون بعد ذلك نسيجا وحدك، وطراز شخصك، لا فرداً من نمط واحد، متعدد في الشكل، متَّحد في الجوهر، يسعى لتقمص شخصية الوسيط؛ لأن الوسيط يقوم بالحد من مواهبك الشخصية، ومحاولة إلغاء قدراتك الذاتية، من خلال تلقيك المفاهيم الجاهزة، والمقولات المستهلكة؛ فلا يترك لك فرصة للتفكير، أو النقد، أو المراجعة؛ لأنه يقوم من خلال وساطته بتدمير جهاز المناعة الذاتية في العقل،** فيحدث في الفرد حالة من الاستسلام التام لكل ما يتلقاه عنه، حقاً كان أم باطلاً.

**إن الوسيط- على حد تعبير الدكتور إدريس نقوري- يحتل: (مركز الصدارة، ويتمتع بسلطة قوية ذات تأثير ونفوذ كبيرين على الذات، وعلى الموضوع في آنٍ واحد)**، بينما نجد المربي متجرداً من كل ذلك؛ إذ ما هو من الناحية التربوية إلا أداة إجرائية بالقصد الأصلي تساعد على تنزيل العملية التربوية على أحسن وجه، وتُمثل فعل الأمر «قل» المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]، فلم يذكر النص الرسولَ ﷺ حينما تعلق الأمر بمسألة تعبدية تربوية، حيث وجب الربط المباشر للمتربين بالله، إذ لم تكن المسألة تعليمية يرتبط الجواب فيها بوجود المعلم الشارح، كما في سائر أسئلة القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2] ونحوها كثير كما هو معلوم.

ويختلف المربي بعد ذلك عن الوسيط في منهج الاستيعاب الخارجي، كما يسميه الأستاذ فتحي يكن؛ لكون المربي يستقطبه لحركته على أساس مبادئها وبرامجها، لا على أساس أسمائها ورموزها، فلا تطغى الحزبية على المبدئية، ويكون التركيب الأولي للفرد إنما هو على مدى الاقتناع بالمشروع الكلي للحركة، لا على مدى الإعجاب بالقائد الفلاني، أو المفكر الفلاني، ولا على مدى الانبهار بكرامات الشيخ الفلاني أو مقاماته[3].

وعلى ما ذكرناه فإن التربية التوحيدية، تعمل على إنتاج العقلية القيادية، المنتجة في مجالها، والجندية المبادرة، المنتجة في مجالها أيضاً، لأن طبيعة العمل بالنصوص تكسب الفرد قوة منهجية ذاتية، ودربة على العصامية.. فأقل شيء تكوِّنه في المتربي البسيط الثقافة عندما تواجهه بالنص الشرعي وتكلفه بتفسيره أو شرحه، هو أنك تنبه نفسيته الخاملة وتوقظها؛ إذ تجعله يحس أنه يجب أن

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٥٨-٦٢).

يعطي هو أيضاً، لا أن يستهلك فحسب!! ولذلك فإن أول ميـزة يتخـرج بهـا المتربي من البرنامج التوحيدي، هي القوة الإرادية المبـادرة، فهـو طاقـة فعالـة منتجة، حيـثما حـل أو ارتحـل، لا وجـود في شخـصيته للرغبـة الاسـتهلاكية، والشعور الانتظاري.. فرب شخص توحيدي التربيـة يرتحـل إلى بلـدة نائيـة لم يمتد إليها العمل الإسلامي، ويتعذر الوصول معه، ورغـم ذلـك يأتيـك بعـد سنة أو سنتين متبوعـاً بجماعـة مـن الأقويـاء الأمنـاء تـشكل حـصيلة إنتاجـه التربوي طيلة غيابه، فيمد حركة الإسلام برافد جديد من العاملين، ويـضيف إلى جغرافيتها منطقة لم تكن في الحسبان.

ورُبَّ شخص آخر تخرج من برنامج وساطي، يعين في بلدة آهلة بالعاملين والدعاة، ويكلف بقطاع ما، أو عمل ما، وبعـد مـدة يأتيـك شـاكياً باكيـاً: إن المسؤولين لم يتصلوا بنا، إن المسؤولين لم يهتموا بنـا، إنهـم لم يزودونـا، إنهـم... إنهم... إلخ، ولا يصدر اتهاماً واحداً لنفسه!! فتحس أن الرجل قد فـتر فعـلاً، بل كاد يتلاشى.

فالفرق بين النموذجين يرجع أساساً إلى طبيعة العمل التربوية الذي تربـى عليه كل منهما، فالأول كما ذكرنا رجل خضع لتربية تكوينية، فتلقن ما يـصلح به تدينه الذاتي إلى حين، لا ما يصلح بـه غـيره، لأن العقـل المـصلح أو الإرادة المنتجة لا تلقن أبداً، ولكنها تكوّن تكويناً.

ثم إن التربية التكوينية بعد ذلـك تنـتج عقـلاً علميـاً، وشخـصاً منهجيـاً، يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، والأفكار الوهمية، والغيبية التواكلية، ذلك أن استفادة المفاهيم من نصوص الشرع نفـسه، كعمليـة تكوينيـة، تكـسب الفـرد منهجية تحليلية نقدية، ومقاييس علمية لقبول الأفكار أو ردها، وملكة خاصـة لمعرفة المقاصد العامة للشرع، يرجع إليها كل ما يتلقاه من كلام، أو يقرؤه مـن توجيه وتخطيط، فيدع المخالف ويقبل الموافق.

فعقل مثل هذا، هو عقل إسلامي مسدد، يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، أو الفهوم المنحرفة في هذا الاتجاه أو ذاك، لأنه محصّن بحاسة استفهامية، لا تدخل في قصد التكليف- على حد تعبير الشاطبي- إلا بعد تبَيُّن قصد الإفهام[١]؛ إذ لا يجوز أن يتأخر البيان عن وقت الحاجة.

**وأما التربية التلقينية، فهي بالمقابل تنتج عقلاً يفتقر إلى أساسيات التفكير المنهجي، ومبادئ العقل العلمي، ذلك أن السكون السلبي الذي يمارسه المتربي،** إزاء الوسيط، وبرنامجه التربوي ، هو ضرب من اغتيال العقلية النقدية، وتكريس لقابلية التقبل المطلق، والاستسلام التام لكل المفاهيم الوساطية.

**وأخيراً فإن التربية التكوينية تنتج طاقات مختلفة باختلاف مواهبها الذاتية،** وميولاتها الجبلِّية، ومؤهلاتها الفطرية، فتستطيع بذلك سد الخلات، وملء الثغرات، وإشباع الحاجات في إطار المشروع الدعوي الإسلامي رغم اختلافها وتعددها، لأن العملية التكوينية تعمل على اكتشاف مواهب كل فرد على حدة، وتوجيهه نحو تنميتها وتطويرها، وهذه بطبعها مختلفة، متعددة بتعدد الناس، ولذلك تعمل التربية التكوينية على تيسير الأفراد لما خُلقوا له من اختصاصات، تأسياً بقول الرسول ﷺ: «**اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ**»[٢].

لكن التربية التلقينية، لا تراعي- باعتبارها تلقيناً جاهزاً- الفوارق النفسية، والتخصصات الجبلِّية، بل تطبع الكل بطابع واحد، فتنتج نمطاً واحداً من الأفراد، كلهم نسخة واحدة، صادرة عن الوسيط[٣]، **ومن هنا نتبين أن أهم الخصائص التوحيدية للتربية النبوية: المصدرية القرآنية.**

فالرسول ﷺ دأب على ترسيخ الارتباط بالقرآن، باعتباره مصدراً وحيداً للتربية، ذلك أن المصدرية القرآنية باعتبارها أهم وأول خصائص التربية

---

(١) الموافقات (٢/ ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٦٤-٦٨).

التوحيدية النبوية، كانت حاضرة حضوراً قوياً في التوجيه التربوي النبوي، قولاً وفعلاً.

لقد كان حضور الرسول ﷺ في ذلك مع الصحابة- رضي الله عنهم- حضور المربي الذي يبين ويعمق هذا الاتجاه التوحيدي في قلوب الصحابة الكرام، ولم يكن حضور الذي يعلق الناس بشخصه، قال الله- عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

وقد كان ﷺ دائم التنبيه إلى هذا المعنى السامي، كما في قوله ﷺ: «**لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ الله وَرَسُولُه**»[2]، وقال ﷺ: «**كِتَابُ الله، هو حَبْلُ الله الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ**»[3]، وقد كان اعتماد النبي ﷺ على منهج التكوين، دون منهج التلقين، وكان يوجه الصحابة إلى اكتشاف قدراتهم الذاتية، ومواهبهم الفطرية، وتنميتها بالعمل قائلاً: «**اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له**»، محارباً بذلك العقلية الاستهلاكية التواكلية، ويقرُّ المختلفين من أصحابه على الاجتهاد، المصيب منهم والمخطئ على السواء، كما هو معلوم من حديث بني قريظة المشهور الذي قال فيه النبي ﷺ يوم الأحزاب: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ. فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ[4].

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).
(٣) تفسير الطبري (٧/ ٧٢) وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف.
(٤) أخرجه البخاري (٩٤٦).

**المسألة الخامسة:**

**الأمة متنوعة في الإمكانات والعطاء:**

يُسْلمُ خالد بن الوليد، وهو قائد عسكري بطبعه، فيزكي فيه النبي ﷺ هذه الموهبة، ويوجهها إلى خدمة الحق، ولا يميل به إلى الإكثار من صلاة الليل، أو رواية الحديث، ولكن يقول فيه : «**نِعمَ عبدُ الله، خَالِدٌ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله**»[(١)]، ويقول في أبي عبيدة بن الجراح: «**إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجرَّاحِ**»[(٢)]، ويدعو ﷺ لابن عباس قائلاً: «**اللهمَّ علِّمهُ الحكمةَ، وتأويلَ الكتاب**»[(٣)]، وقال ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ الله عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحلاَلِ وَالحرَام مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجرَّاحِ**»[(٤)]، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تدل على وعي النبي ﷺ بمواهب أصحابه، وخصائصهم الذاتية، وعلى تربيته ﷺ لهم، بناءً على ذلك[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٤٦)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٦٦)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٧٩٠)، وأحمد (٣/ ٢٨١)، وصححه الألباني.

(٥) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٧٧، ٧٨).

## المسألة السادسة:

### أهمية النظر في مراحل التربية النبوية :

**أ ـ المرحلة الأرقمية وهي:**

التي سار عليه الرسول ﷺ في تربية الجيل الأول من الصحابة بدار الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي على الصفا، وأهميتها تأتي من أجل صناعة العقلية القيادية من خلال المتابعة الدقيقة لكل فرد على حدة، بتشكيل شخصيته تشكيلاً يقوم على صفتي القوة والأمانة. ومن هنا لم تكن الأرقمية تُعنى بإنتاج العقلية الجندية إلا بقدر ما هي طريق لاكتساب العقلية القيادية فيما بعد، والمادة التربوية التي كانت معتمد الجيل الأول هي القرآن المكي، إذ التشريع المكي في الغالب كان كليات ابتدائية، وعزائم تكليفية.

يقول الإمام الشاطبي: «**وهذا كله ظاهر لمن نظر في الأحكام المكية مع الأحكام المدنية، فإن الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال بالنسبة إلى حقوق الله أو حقوق الآدميين. أما الأحكام المدنية فمنزَّلة في الغالب على وقائع لم تكن فيها تقدم من بعض المنازعات، والمشاحنات، والرخص، والتخفيفات، وتقرير العقوبات في الجزئيات لا الكليات، فإن الكليات كانت مقررة محكمة في مكة**»[(١)].

ثم قال: «كان المسلمون قبل الهجرة آخذين بمقتضى التنزيل المكي، على ما أَدَّاهُمْ إليه اجتهادهم واحتياطهم، فسبقوا غاية السبق، حتى سموا السابقين بإطلاق، ثم هاجروا إلى المدينة ولحقهم في ذلك السبق من شاء الله من الأنصار، وكملت لهم بها شعب الإيمان، ومكارم الأخلاق، وصادفوا ذلك وقد رسخت في أصولها أقدامهم، فكانت المتممات أسهل عليهم، فصاروا لذلك نوراً حتى نزل مدحهم والثناء عليهم في مواضع من كتاب الله، ورفع رسول الله ﷺ من أقدارهم، وجعلهم في الدين أئمة، فكانوا هم القدوة

(١) الموافقات (٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

العظمى في أهل الشريعة».

**ويأتي هذا منسجماً مع مرحلة التأسيس التربوي الأول بطبعه، تأسيساً قيادياً بالدرجة الأولى،** ووعياً من الرسول ﷺ بهذا الهدف، كان يتحرى في دعوته أول الأمر من تبدو عليه مخايل العبقرية القيادية. ورغم أن الدعوة كانت منذ انطلاقتها الأولى لكل الناس، إلا أنه- عليه الصلاة والسلام- كان يسير وفق منهج القرآن المكي في بناء القادة أساساً، سواء كان المدعو من الفقراء أو الأغنياء، وسواء كان من السادة أو من الأرِقَّاء، حتى إذا أسلم الرجل من أي شريحة اجتماعية كان، سعى به تربوياً نحو هذا الاتجاه، وثمة نصوص حديثية تشير إلى هذا المعنى، كما في قوله ﷺ: «**خِيَارُكُمْ فِي الجاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقِهُوا**»[1]، وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِعُمَرَ بن الخطَّابِ، أَوْ بِأَبِي جَهْلِ بن هِشَامٍ**»[2].

**وكان المنهج الأرقمي المبني على نظام الجلسة التربوية- القرآنية والحديثية- يشكل شخصيات المتربين.**

ومن المعروف أن مدارس الفقه الإسلامي والتفسير والتشريع والقضاء، ومعظم الأصول العلمية للدولة الإسلامية، إنما أسسها المهاجرون الأرقميون خاصة، بدءاً بالخلفاء الراشدين كفقهاء وقضاة مجتهدين، وانتهاءً بالشخصيات الأرقمية الأخرى الذين صاروا كما قال الشاطبي: «أئمة، فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة»[3].

وأما الأنصار، فقد كانت لهم الجندية والاتباع في الغالب الأعم، فهم أهل نصر، ومبادرة، وجهاد. وهذا لا يعني أن أحداً من الأنصار لم تنبغ عبقريته إطلاقاً، وإنما هناك قلائل نبغوا، وصاروا قادة في مجال ما، كمعاذ بن جبل، فقيه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨١)، وصححه الألباني.
(٣) الموافقات (٤/ ٢٣٩).

الأمة الذي كان كما قال ﷺ فيه: «**أعلم الأمة بالحلال والحرام**»، والسبب في ذلك يرجع إلى ما طبق من الأرقمية في المدينة المنورة إلى جانب المنهج المنبري، بيد أن المقصود مما ذكرنا من تميز الجيل الأول هو العموم الغالب، لا العموم القطعي التام[1].

**ب ـ المرحلة المنبرية:**

**المنبرية:** نسبة إلى المنبر، وهي إشارة إلى ما قام به رسول الله ﷺ من تربية للصحابة من على المنبر.

وبما أن الجلسة الأرقمية لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الضخم من المسلمين بالمدينة من ناحية، وبما أن ما يتطلبه المجتمع من العقليات القيادية، قد تخرج منهم الكثير بمكة، وبعض الأنصار ممن تربوا على يد مصعب بن عمير قبيل الهجرة من ناحية أخرى، فقد اتجه النبي ﷺ إلى تشكيل الرأي العام الشعبي، تشكيلاً إسلامياً؛ من أجل صناعة عقلية جندية فاعلة، مبادرة، ومطيعة، فلم يعد خطابه التربوي ﷺ متوجهاً إلى كل فرد ومقتصراً عليه، وإنما صار متوجهاً إلى عموم الناس من خلال خطبة الجمعة وغيرها، فكان يربي بقوله مثلاً: «ما بال قوم»، أو «ما بال أقوام»، و«يا أيها الناس»... إلى غير ذلك من العبارات التي اشتهرت عنه ﷺ والتي هي من تقنيات الأسلوب الخطابي.

وبقي المنهج الأرقمي من حظ القلائل الذين تبينت ملامحهم القيادية من أهل المدينة وغيرهم، ولكن الخطبة أو (المنبرية) كانت هي تربية العموم من أهل المدينة وما حولها، فهي خطاب عام مطلق يهدف إلى تصحيح الخطأ، أو إبلاغ المفهوم الصحيح إلى عموم الناس، لتصحيح السلوك الاجتماعي العام. من ذلك، على سبيل المثال: ما أخرجه البخاري من حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: جَاءَتْ بَرِيرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي كَاتَبْتُ أَهْلِي عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ فِي كُلِّ عَامٍ

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٧٩-٨٦).

وَقِيَّةٌ، فَأَعِينِينِي. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنْ أَحَبَّ أَهْلُكِ أَنْ أَعُدَّهَا لهمْ عَدَّةً وَاحِدَةً وَأُعْتِقَكِ فَعَلْتُ، وَيَكُونَ وَلاؤُكِ لِي. فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَبَوْا ذَلِكَ عَلَيْهَا. فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ عَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا إِلا أَنْ يَكُونَ الْوَلاءُ لَهُمْ. فَسَمِعَ بِذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَسَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: «**خُذِيهَا فَأَعْتِقِيهَا، وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلاءَ، فَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ الله، فَأَيُّمَا شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ الله فَهْوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِئَةَ شَرْطٍ، فَقَضَاءُ الله أَحَقُّ، وَشَرْطُ الله أَوْثَقُ. مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَعْتِقْ يَا فُلانُ وَلِيَ الْوَلاَءُ، إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**»(١).

فواضح من النص أن الرسول ﷺ مارس التربية العامة، ووجه الرأي العام بإطلاق الخطاب وعدم تقييده، ومعالجة السلوك الخاطئ بأسلوب الخطبة، لا بأسلوب الجلسة، المتتبع لكل الجزئيات المكونة للشخصية، كما هو الحال في الأسلوب الأرقمي، ولكن الخطبة إنما هي توجيه عام، كلما ظهرت ثغرة ما، أو انحراف ما، قام رسول الله ﷺ على المنبر خطيباً.

هكذا كانت التربية المنبرية إذن عامة مطلقة، تقصد إلى توجيه السلوك الاجتماعي العام، وتربية المجتمع من حيث هو كل، لا من حيث هو أفراد، ولذلك لم يكن القصد الاقتصار على إنتاج القيادات كما ذكرنا، ولكن إنتاج الجندية المطيعة المؤمنة أيضاً(٢).

**جـ ـ المرحلة العلمية:**

كان من بين آخر ما نزل من القرآن سورة التوبة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٣)، **وذلك أن المنهج التربوي التوحيدي،**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤).
(٢) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ٩٢-٩٥).
(٣) التوبة: ١٢٢.

صار يكتسي وجهاً علمياً وتعليمياً في أواخر حياة الرسول ﷺ، حيث حصل تراكم من ناحيتين:

**الأولى: ناحية النصوص القرآنية والحديثية**، فقد مضى على عمر الدعوة ما يربو على العشرين عاماً، مما يجعل تنزيل النصوص على الواقع يزداد عمقاً، ويحتاج بصيرة واجتهاداً، فهناك المكي والمدني من القرآن، والناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة معاً، والتفصيلات السنية المبينة لمجملات القرآن.. إلخ.

**والثانية: ناحية الأفواج الهائلة والأعداد الكبيرة** التي دخلت الإسلام بعد فتح مكة، مما يجعل الاستيعاب التربوي لها جميعاً، بالمنهج الأرقمي أو المنبري فقط، غير ممكن تماماً.

فعن عمرو بن سلمة ، قال: «**كَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلاَمِهِمْ**»[(١)].

وقال المباركفوري معلقاً: «هذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب واستسلامهم للإسلام، وتأكَّد ذلك أي تأكُّد بعد غزوة تبوك؛ ولذلك **نرى الوفود تقصد المدينة تَتْرَى في هذين العامين- التاسع والعاشر**- ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً؛ حتى إن الجيش الإسلامي- **الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح- يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل**.. ثم نرى في حجة الوداع بحراً من رجال الإسلام – **مائة ألف من الناس، أو مائة وأربعة وأربعون ألفاً منهم**- يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد، تدوي له الآفاق وتَرْتجّ له الأرجاء».

فكان لابد إذن من التفكير في الشكل التنزيلي للمنهج التوحيدي،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٠٢).

فالنصوص هي النصوص، قرآناً كانت أو سنة، لكن أغلب الناس بعد الفتح لم تتح له الفرصة لفهم مقاصدها الشرعية في الجلسات الأرقمية، أو اللقاءات المنبرية، فشرع نصاً وفقهاً.

وقد كان ﷺ يفعل ذلك قبل الفتح طبعاً، لكن معظمه إنما كان بعده آخر حياته ﷺ، فكان يرسل مع كل وفد من الوفود التي جاءت تعلن إسلامها بعد الفتح من قبائل العرب رجلاً يقرئهم القرآن، ويعلمهم فقهه من السنة النبوية، وقد أربت الوفود على السبعين وفداً، وربما أَمَّرَ على الوفد رجلاً منهم على أساس أن يكون أقرأهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسوله ﷺ، كما أَمَّرَ عثمان ابن أبي العاص الثقفي على ثقيف ليعلمهم (لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم الدين والقرآن)، وجعل على بني الحارث بن كعب، عمرو بن حزم، قال ابن هشام: «ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة، ومعالم الإسلام»، وأرسل أبا عبيدة بن الجراح مع وفد نجران، كما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، كلا منهما إلى منطقة، ثم قال لهما: «**يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا**»[(١)(٢)]، ثم إنه ﷺ جعل المسؤولية التعليمية في عنق كل متعلم من الصحابة، بل في عنق من تعلم ولو آية.

إن هذه المرحلة من حياة الدعوة الإسلامية صارت التربية فيها تقوم أساساً على تبليغ نصوص الإسلام: القرآن أولاً، ثم ما يقوم مقام فهمه وبيانه، وهو الحديث النبوي الشريف، فتكون مدارسة الناس لذلك- علماً وتعلماً- هي التربية، وكان الناس إذا علموا شيئاً عملوا به، وصارت عملية نقل نصوص الدين، وتربية الناس عليها، وتكوينهم على مبادئها، تُسمى (علماً)، وصار الناس يسمون كل ما نقل عن الصحابة- رضي الله عنهم- مسنداً إلى رسول الله ﷺ علماً. وبقي هذا الاصطلاح سارياً بهذا المعنى إلى مرحلة التابعين

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).
(٢) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ١٠١-١٠٥).

وأتباعهم، **فعن بقية بن الوليد قال: قال الأوزاعي: «يا بقية، العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم»**.

ولم يكن العلم بهذا المعنى في أواخر حياة الرسول ﷺ يقصد به شيء غير العمل، فهو لذلك إذن تربية، ثم إنه إنما يقوم على مدارسة النصوص الشرعية، وفقهها كما قلنا، وهو لذلك مرة أخرى توحيد، أو تربية توحيدية.

وقد كان الرسول ﷺ يرى التربية تأخذ شكلها الجديد، أي تبليغ العلم وتعلمه، فسعى ﷺ إلى الحث على ذلك، وإحاطته بمجموعة من الضوابط والتوجيهات، حتى لا يزيغ القالب العلمي عن قصده التربوي المحض، ومضمونه التوحيدي الأصيل، فيعطي الأولوية في ذلك لكتاب الله عز وجل، حفظاً وفقهاً، فيقول ﷺ: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**(١)، ثم يقول عن سنته ﷺ: **«نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»**(٢).

وهذا الحديث يشير إلى أن العلم لا يقتصر على نقل النصوص فقط، ولكن يتعداه إلى فقهها وفهمها، فينحصر العلم وقت ذاك إذن في القرآن والسنة والفقه منهما دون الرأي المحض، وذلك صلب التربية التوحيدية من حيث المصدرية الشرعية، ثم مضى الرسول ﷺ يؤكد أهمية العمل بالعلم وضرورته بالنسبة للعالم والمتعلم على السواء، حتى يحافظ العلم على مغزاه التربوي الذي نشأ من أجله، فيقول ﷺ في العلم: **«مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخيْرَ ويَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ ويُحْرِقُ نَفْسَهُ»**(٣)، ويقول عن المتعلم: **«سَلُوا الله عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِالله مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»**(٤)، وقال: **«مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِما يُبْتَغَى**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، وأبو داود (١٤٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٦)، وأحمد (٤/ ٨٠)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٥)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٣)، وحسنه الألباني.

**بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. يَعْنِي رِيحَهَا[(١)].

وقال عن هؤلاء: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ جَهَنَّمَ**»[(٢)]، وكان الرسول ﷺ يرى التربية التوحيدية قد أخذت تكتسي طابعاً تعليمياً في آخر عهده ﷺ، فجعل يؤكد ضرورة إقبال علماء الصحابة على التعليم، وإقبال جمهور الأمة على التعلم، موجهاً بين ترغيب وترهيب، فيقول في شأن العلماء المربين: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**»[(٣)]، ويقول: «**عَلِّمُوا، وَيَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ**»[(٤)].

«**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ الماءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[(٥)].

هكذا تتضافر النصوص لتجعل من العلم، تعليماً وتعلماً، قضية أساسية في المنهجية الإسلامية جملة، لأن السبيل الأضبط لاستمرارية التدين السليم في الفكر والتصور، وفي العمل والسلوك، وتفرق الصحابة في كل اتجاه حاملين الدعوة إلى الناس، مربين إياهم على دين الله، فكانت بداية ذلك في آخر عهد رسول الله ﷺ كما رأينا، واتسع ليشمل الأمر عدداً أكثر من الصحابة المربين، ومناطق أخرى من بلاد المسلمين، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين.. فكانت

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٢/ ٣٣٨)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٦٠)، وحسنه الألباني.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٤٥)، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، وصححه الألباني.

التربية العملية التي مارسها الصحابة في الأمصار هي النواة التي تطورت عنها العلوم الشرعية فيما بعد، كعلم التفسير وعلم الحديث والفقه... إلخ.

كأنما الرسول ﷺ علم أن رجالاً من أمته سينصرفون عن العلم إلى العبادة بمعناه الضيق، أي: الذكر والصلاة والصيام والزهد، فبين- عليه الصلاة والسلام- أن العلم هو صلب العبادة، وأنه الصفة التي ورَّثها الأنبياء للعلماء، كما تبين من الحديث السابق، ففضل العالم على العابد بهذا المعنى كما رأيت، كفضل البدر على سائر الكواكب، وندب مَن وجد فراغاً أن يبادر إلى العلم النافع، لأن فضله خير من فضل التعبد بالمعنى المذكور، إذ العلم عبادة متعدية بالخير إلى الناس، والتعبد عبادة لازمة لصاحبها فقط، فقال ﷺ: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، وإِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخيْرَ**»[(١)].

ولذلك كان العلم شرط الإمارة في عهده ﷺ كما رأيت، وبقي شرطها فيما بعد، وشرط كل عمل تربوي ودعوي كيفما كان، قال ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ. حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالـِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[(٢)].

وهكذا كان المنهج التربوي النبوي توحيدياً في كل مراحله الثلاث، فلم يتعدَّ مصدريته، أي: كتاب الله- عز وجل- وبيانه النبوي.. فالقرآن كان هو الينبوع الصافي الذي لم يَشُبْهُ توجيه فلسفي، ولا قصص إسرائيلي، ولا حِكَم هندية، أو إغريقية، به تربى الرسول ﷺ، وعليه ربَّى أصحابه؛ سواء كان مؤسساً للنخبة الأولى بدار الأرقم، أو صانعاً للجندية الأنصارية بمنبر المدينة، أو معلماً للآفاق فقه الدين والتدين عبر رسله وتلامذته ﷺ[(٣)].

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

(٣) التوحيد والوساطة في التربية والدعوة (١/ ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١١).

## المسألة السابعة:

### تطور المنهج التربوي النبوي بعد وفاته ﷺ:

لقد اضطلع الصحابة- رضوان الله عليهم- بعد وفاة النبي ﷺ بالمسؤولية التربوية التي كلفهم بها في حياته- عليه الصلاة والسلام، واستمروا في تنزيل المضمون التوحيدي للتربية في الإطار التعليمي على العموم، مع مراعاة الأهداف والوسائل الأرقمية والمنبرية، هنا أو هناك؛ فهم أئمة الأمصار وخطباء المساجد، والمربون للعموم والخصوص، وللصالح والطالح. قال الحسن البصري التابعي: **أدركنا الصدر الأول يعلمون صغيرنا وكبيرنا، بَرَّنَا وفاجرنا، وصالحنا وطالحنا، ونحن نريد أن نؤديه كذلك.**

لقد استمر المنهج التربوي بمضمون التوحيد؛ سواء بالصورة الأرقمية أو المنبرية أو التعليمية زهاء ثلاثة قرون، كان خلالها هو المنهج المنتشر والمعتمد أساساً في تربية الأجيال قياداتٍ وجنوداً.

وخلال القرن الثالث الهجري بدأت مظاهر الانتفاض التربوي في المنهج التوحيدي من خلال ما صار يتكون من مناهج وساطية؛ نظراً لدخول الثقافات الأجنبية التي بدأت تزاحم المصدرية القرآنية الحديثية في تشكيل عقل الأمة، غير أنه لم يستتبَّ لها الأمر إلا في القرن الرابع الهجري، حيث كثر الإقبال على الوساطات الفكرية والروحية على السواء.. هذا المعنى، يشير إليه حديث الرسول ﷺ، الذي قال فيه: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1]. وكذلك قوله- عليه الصلاة والسلام- في سماع المنهج: «**تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ**»[2]، وهذا ما سنبينه- بحول الله- مفصلاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٩)، وأحمد (١/ ٣٢١)، وصححه الألباني.

وكان التعليم الذي قام به الصحابة ذا مضمون تربوي مقصود، ينطلق من القرآن والسنة أساساً، فقد كان أول ما قاله أبو موسى الأشعري للبصريين حين قدم إليهم: «**إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم -عز وجل، وسنة نبيكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم**».

ويصف لنا التابعي الجليل، أبو رجاء العطاردي طريقة ذلك، وكيفية تنظيم أبي موسى رضي الله عنه للجلسات القرآنية، قال: **كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد- مسجد البصرة- يعقد حِلَقاً، فكأني أنظر إليه بين بُرْدَيْن أبيضين، يُقْرِئُني القرآن**، حتى إذا تخرّج على يديه رضي الله عنه جمع كبير من أعلام التابعين جمعهم ليعظهم، ويعلمهم كيف يتعاملون مع القرآن. **فقد أخرج أبونعيم بسنده عن أبي كنانة، أن أبا موسى**: جمع الذين قرأوا القرآن، فإذا هم قريب من ثلاثمائة. فعظَّم القرآن، وقال: «**إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ كَـائِنٌ لَكُـمْ أَجْـرًا، وَكَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ وَلا يَتَّبِعُكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ يَهْبط بِهِ رِيَاضَ الجنَّةِ، وَمَنْ يُتَّبَعْ بِهِ الْقُـرْآنُ يَـزُخّ فِي قَفَـاهُ حَتَّـى يَقْذِفَـهُ فِي جَهَنَّمَ**»[1]، وإنما كانت قراءتهم القرآن، حفظاً ومدارسة، للتكوين والتربية، والتفقه، وكان ذلك عندهم ضرباً من التعبد المحض، فقد نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «**الدراسة صلاة**».

**وقد تخرج على هذا المنهج النبوي جيل من فضلاء التابعين، برزت منهم جملة من القيادات العلمية، وفي طليعتهم بالمدينة المنورة: الفقهاء السبعة** وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر ابن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله. وكان منهم بالكوفة: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، وعمرو بن شرحبيل الهمذاني، وشريح بن الحارث القاضي وغيرهم كثير. **كما كان منهم**

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥٧).

**بالبصرة علماء مربون مثل**: الحسن البصري، وأبو قلابة الجرمي، وأبو العالية الرياحي وغيرهم[(١)].

**لقد كانت المدرسة الحديثية** في تلك المرحلة هي المدرسة الأقرب إلى المنهاج التربوي، حيث كانت لها جلسات أرقمية راقية، وكان الحديث النبوي- كما ذكرنا- هو علم المرحلة، تعلماً وتعليماً ومدارسة، فقد كان عبد الرحمن بن مهدي المتوفى سنة ١٩٨هـ يعقد جلسات العلم في جو تعبدي وقور كأن أوله تحريم وآخره تسليم، **قال أحمد بن سنان: كان لا يُتحدَّث في مجلس عبد الرحمن، ولا يُبرَى قلم، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً؛ كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحداً منهم تبسَّمَ أو تحدَّثَ لَبِسَ نعليه وخرج**. وكانوا يختمون جلساتهم العلمية بالدعاء، وقد فعل ذلك الحسن البصري، ويونس بن عبيد، وقتادة بن دعامة السدوسي.

**وعن القصد التربوي تكلم الحسن البصري في علم الحديث فقال**: لقد طلب أقوام هذا العلم ما أرادوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده. **وقال سفيان الثوري**: كنا نطلب العلم للدنيا، فجرَّنا إلى الآخرة. وعن معمر قال: إن الرجل ليطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله. ولذلك فقد كان طلب الحديث عندهم طلباً لتطبيقه أيضاً، **قال أيوب السختياني** (المتوفى ١٣١هـ): **قال لي أبو قلابة** (وهو تابعي توفي سنة ١٠٤هـ): **إذا أحدث الله لك علماً فأحدِثْ له عبادة، ولا يكن همك أن تَتَحَدَّث به**. وصلى رجل ممن يكتب الحديث بجنب ابن مهدي فلم يرفع يديه، فلما سلم قال له: ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهري، عن سالم عن أبيه، أن النبي ﷺ كان يرفع يديه في كل تكبيرة؟ قال: نعم، قال: فماذا تقول لربك إذا لقيك في تركك لهذا وعدم استعماله؟ وعن بشر بن الحارث أنه قال: **يا أصحاب الحديث، أتؤدون**

---

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧).

**زكاة الحديث؟ فقيل له: يا أبا نصر، وللحديث زكاة؟ قال: نعم، إذا سمعتم الحديث فما كان فيه من عمل أو صلاة أو تسبيح، استعملوه.**

وقال الحسن البصري: **كان طالب العلم يُرى ذلك في سمعه وبصره وتخشعه.** ومعلوم أنه كان يُشترط في الراوي ليقبل حديثه، أن يكون عدلاً، ضبطاً.. والعدالة والضبط مفهومان إسلاميان، يكونان كمال الشخصية المسلمة، وهما مأخوذان من مصطلحي القوة والأمانة المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[(١)] .

ومن هنا كان المحدثون يسعون إلى اكتساب الصفات التربوية التي تؤهلهم لرواية الحديث، فقد قال أبو العالية الرياحي (المتوفى سنة ٩٠هـ): **أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقده من أمره صلاته، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع.** وقال أبو عاصم النبيل (المتوفى سنة ٢١٢هـ): **من طلب هذا الحديث فقد طلب أعلى أمور الدين، فيجب أن يكون خير الناس.**

وقال سفيان بن عيينة، وهو من أتباع التابعين: **من طلب الحديث فقد بايع الله.**

وكان مالك إذا أراد أن يحدِّث توضأ وجلس على فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة، ثم حدث. فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. وكان يكره أن يُحدِّث في الطريق وهو قائم أو مستعجل.. فقال: أحب أن أتفهم ما أحدِّث به عن رسول الله ﷺ[(٢)] .

**والخلاصة:** أن هذه هي القرون الثلاثة، المشهود لها بالخيرية في الحديث

---

(١) القصص: ٢٦.

(٢) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (١/ ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٦).

الصحيح كما تقدم. وقد كان العلم الشرعي فيها يحمل راية التربية النبوية لتخريج قادة الأمة وجنودها على السواء، انطلاقاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، **ولذلك قال ابن حزم بعد عدة أبواب من كتاب الأحكام تحدث فيها عن فقهاء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولزوم التدين على منهجهم**: «فرض على كل جماعة مجتمعة: قرية أو مدينة أو حصن، أن ينتدب منهم لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها، ولتعلم القرآن كله، ولكتابة كل ما صح عن النبي ﷺ من أحاديث الأحكام وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه- من يقوم بتعليمهم، وتفقيههم من القرآن، والحديث، والإجماع... فإن لم يجدوا في محلتهم من يفقههم في ذلك كله كما ذكرنا، ففرض عليهم الرحيل إلى حيث يجدون العلماء المحتوين على صنوف العلم، وإن بعدت ديارهم ولو أنهم بالصين، لقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾[1]، والنفار والرجوع لا يكون إلا بالرحيل، ومن وجد في محلته من يفقهه في صنوف العلم كما ذكرنا، فالأمة مجمعة على أنه لا يلزمه رحيل في ذلك»[2].

وبعد أن تحدث الكاتب عن مصطلح التوحيد في التلقي ومنهج الوساطة والمنهج النبوي في توحيد التلقي والمصدرية القرآنية والحديثية في التربية- بدأ بذكر نماذج في الوساطة الفكرية، لينتهي بعد ذلك إلى خاتمة القول في المنهاجية التوحيدية في الأخذ وذكر النماذج الواضحة في التاريخ القديم والجديد.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) التوحيد والوساطة في التربية والدعوة (١/ ١٣٠، ١٣١).

## المسألة الثامنة:

### المدرسة الكلامية ونموذج الوساطة الفكرية :

لم يكن الاعتقاد في زمن الصحابة والتابعين، يمتد ويستمد أصوله من التأويل المعقد، وإنما كانوا يقفون على المقتضى البسيط للنصوص، دون تكلُّف ولا تعسف في الفهم، لكن ما إن انتشر علم الكلام في الأمة حتى صار الاعتقاد يخضع للقناة المذهبية ذات السلطة الوساطية التأويلية في هذا الاتجاه أو ذاك، فكانت الأصول الخمسة للمدرسة الاعتزالية مقاييس لفهم العقيدة الإسلامية، فتؤوَّل النصوص القرآنية على وِفْقِها، وتُردُّ الأحاديث أو تقبل بناءً على مناسبتها لها، أو عدم مناسبتها.. إلا أن المذهب الاعتزالي لم ينتشر في الأوساط الشعبية، وبقيت وساطته منحصرة تقريباً بين بعض العلماء، لمخالفة أئمة السلف لهم، **كما يقول ابن خلدون.**

**ثم قام أبو الحسن الأشعري بوضع مذهبه في القرن الرابع الهجري، فتحالف معه كثير من الفقهاء ضد المعتزلة، فانتشرت بذلك العقيدة الأشعرية.**

اختلف المؤرخون للفكر الإسلامي في أول من مكَّن للوساطة الكلامية الأشعرية في التدين الجماهيري، وجعل العقيدة الأشعرية هي ما يجب أن يعتقد شرعاً دون ما سواها.. **فابن خلدون مثلاً يرى أن أبا المعالي الجويني هو الذي أعطى المشروعية للعقيدة الأشعرية لتصير إماماً في الاعتقاد الشعبي، يقول: ثم جاء إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في هذه الطريقة كتاب «الشامل»، وأوسع القول فيه، ثم لخصه في كتاب «الإرشاد»، واتخذه الناس إماماً لعقائدهم..**

**وذهب آخرون كالدكتور أحمد صبحي إلى أن أبا حامد الغزالي هو الذي أعطى للكلام مشروعيته، وصيَّر العقيدة الأشعرية لتكون عقيدة التدين لدى كافة المسلمين،** فقدَّم لهم هؤلاء آراءهم على أنها معتقدات لا يصح الخوض فيها، أو الشك في صدقها. وهكذا تدخل الوساطة إلى عقيدة المسلمين على

المستوى الشعبي مع المذهب الأشعري، بعدما كانت منحصرة في بعض العلماء مع المذهب المعتزلي.

**وقد كانت الأشعرية- باعتبارها رد فعل تاريخي على حركة الاعتزال- محكومة في كثير من مواقفها بحالة (رد الفعل)، فحيث غالت المعتزلة في القول بالتحسين والتقبيح العقليين، نفت الأشاعرة ذلك بإطلاق، كما عمدت إلى تأويل الصفات الإلهية وحملها على المجاز اللغوي رداً على نفي المعتزلة لها بإطلاق**.. وهكذا، فقد تصرفوا في تقديم العقيدة الإسلامية إلى الناس، ومع ذلك صارت تديناً ومعتقداً لدى غالب المسلمين، إليها يُرد كل كلام في الاعتقاد، وعليها يُحمل كل نص شرعي، فإن وافق تصورها فذاك، وإلا أوِّل تأويلاً.. **ولذلك لم يقبل بعض العلماء من أهل السنة والجماعة تبنِّي العقيدة الأشعرية،** قال أبو عبد الله محمد بن خويز أحمد منداد المصري المالكي: **كل متكلم هو من أهل الأهواء والبدع، أشعرياً كان أو غير أشعري.**

**قال أبو عمر بن عبد البر**: أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار، أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، **وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه.**

وقد روي كلام كثير في ذم علم الكلام بإطلاق عن الأئمة والفقهاء الأربعة، وإن كان ذلك طبعاً قبل ظهور الأشاعرة، ولكنه كان حججاً لبعض العلماء في ذم الكلام الأشعري ووساطته الاعتقادية **التي صارت تديناً عاماً على غرار المذاهب الفقهية في عصور التقليد، مما حدا بعالم المالكية عبد الواحد بن عاشر بعد ذلك إلى نظم منظومة تشتمل على أصول التدين عبر الوساطة العقدية الأشعرية، ثم الفقهية المالكية، ثم الصوفية؛ لتكون متناً لجميع الناس**.. قال في مقدمة منظومته المسماة (المرشد المعين):

**وبعد فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للأمي تفيد**

وهكذا صارت الأشعرية كوساطة فكرية، هي القناة الشرعية الوحيدة لتدين جمهور المسلمين في المجال العقدي لا تقبل النقاش أو الرد، فتكون بذلك خطوة جديدة في ترسيخ التقليد المطلق في المجتمع الإسلامي، أو كما قال **الدكتور أحمد صبحي: حقيقة لقد أدان الأشاعرة التقليد... ولكنهم في الواقع قد مكَّنُوا له بشتى الأساليب**[1].

**يقول الدكتور أحمد صبحي**: وعند الأيجي كان معين الأصالة قد نضب، ليدخل الفكر الأشعري دور الشروح والحواشي.

إن أهم معالم الكلام الأشعري بعد الأيجي تتمثل فيما يلي:

١ ـ المتون: قوالب مصبوبة صيغت فيها المعتقدات، كأنها القول الفصل الذي ليس له مرد.

٢ ـ الأراجيز: إذ صيغت العقائد في شكل أراجيز حتى تكون عوناً على الحفظ (الصم)، أو الآلي الذي يشل التفكير.

وهذا الترسيخ التلقيني للعقيدة عبر الوساطة الأشعرية، جعل بعض مؤرخي علم الكلام يرون العقيدة الأشعرية هي نفس عقيدة السلف، أو بعبارة أخرى هي العقيدة الإسلامية كما يصورها القرآن والسنة النبوية.. والحق كما يقول **الدكتور أبو ريان: إن البون شاسع بين موقف السلف ومذهب الأشاعرة، من حيث إنه لم يَثْبُت أن السلف قد استخدموا الكلام في شرح العقيدة، أو مالوا إلى التأويل في تفسيرها، وإنما هي وساطة في الاعتقاد كما قلنا تدخلت لتحول بين الناس وبين التلقي المباشر للعقيدة الإسلامية في بساطتها من مصادرها الشرعية: القرآن الكريم، والسنة النبوية.**

---

(١) كتاب الأمة- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية- العدد ٤٨- رجب ١٤١٦هـ (٢/ ٣٣-٣٧).

**لقد كان الأشاعرة الأوائل** - البقلاني، والجويني، والغزالي وغيرهم - **بمثابة وسائط في المجال الكلامي، لكل واحد منهم سلطة الوسيط كما بينا، من حيث التأثير الشخصاني على النص من جهة بالتأويل، وعلى الناس من جهة أخرى بالتلقين.. وكان لكتبهم - كما تبين من النصوص السالفة - قداسة المصدر المطلقة لا بشرية المرجع النسبية، حيث كانت (إماماً) لجمهور المتدينين، كما عبر ابن خلدون بالنسبة لكتاب (الإرشاد) لإمام الحرمين.** واستهلك الناس العقيدة الأشعرية استهلاكاً من خلال العبارات الكلامية الجاهزة والمركَّبة في المتون والأراجيز ونحوها. فكانت نصوصها هي الشواهد، لا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية[1].

كل ذلك أدى إلى تعميق وترسيخ التربية الوساطية فيما يتعلق بتصحيح التصور العقدي، كقضية من قضايا التدين الإسلامي الأساسية. كما أدى إلى مساعدة وسائط أخرى في المجالات الدينية الأخرى من حيث تهيئة النفوس لتقبل التقليد المطلق والتسليم لفهوم الرجال على أنها أحسن ما يمكن أن يقال.

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ٣٩-٤١).

## المسألة التاسعة:

**المدرسة الفقهية ونموذج الوساطة الفكرية :**

وكما ترسخت الوساطة في المجال الكلامي في القرن الرابع الهجري، فقد ترسخت بنفس الفترة الوساطة الفقهية، وصار العلم الذي كان ذا مضمون تربوي توحيدي يخرج عن هدفه، ليسقط في فخ التلقين المذهبي، أي: التقليد. **يقول العلامة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: هذا التقليد بعدما كان قليلا في المائة الثالثة صار غالباً في الرابعة**، بل أصبح جُلُّ علمائها مقلدين متعصبين، مع أن الكل يعلم أن لكل إمام هفوة وسقطة، بل سقطات. **ولم يكن التقليد الفقهي يعني شيئاً غير اغتيال العقل**، وتقمص ذات الوسيط، وتَرَسُّم آرائه في تنزيل الدين على أفعال الناس وتصرفاتهم، فالكل كان يعلم أن الكتاب والسنة هما المصدران الوحيدان للتدين، بيد أن المقلدة حصرت قدرة الفهم والاستنباط في مجموعة معينة من الأئمة صارت أقوالهم فيما بعد متناً تشريعياً، **وكم هو غريب ما نقلته كتب تاريخ التشريع عن الإمام الكرخي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ، حيث قال**: كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ. وفي رواية: كل آية أو حديث. فقال الحجوي معلقاً على هذا الكلام: فكأنه جعل نصوص مذهبه هي الجنس العالي، والأصل الأصيل حاكمة على نصوص السنة والتنزيل معياراً يعرض عليه كلام رب العالمين، والرسول الأمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

يحكي الإمام الشاطبي قصة عجيبة، وقعت بالأندلس، تدل على تعمق التفكير الوساطي وتغلغله في عقول العلماء وطلبة العلم، قال- رحمه الله: المقلدة لمذهب إمام، يزعمون أن إمامهم هو الشريعة.. حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد، وتكلم في المسائل، ولم يرتبط إلى إمامهم، رموه بالنكير، وفرقوا إليه سهام النقد، وعدُّوه من الخارجين عن الجادة، والمفارقين للجماعة، من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتياد العامي.. ولقد لقي الإمام

بقي بن مخلد حين دخل الأندلس آتياً من المشرق، من هـذا الـصنف الأمـرَّين! حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب.. إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل، وأخذ عنه مصنفه، وتفقه عليه، ولقي أيضاً غيره، حتى صنف (المسند) المصنف الذي لم يصنف في الإسلام مثله.. وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق[1].

(١) التوحيد والوساطة في التربية والدعوة (٢/ ٤١، ٤٢، ٤٨).

## المسألة العاشرة:

### نموذج الوساطة الروحية لدى المتصوفة :

تفرغ قوم من الزهاد للعبادة في القرن الثالث الهجري؛ مثل الحارث بن أسد المحاسبي (المتوفى سنة ٢٤٣هـ)، والجنيد (المتوفى سنة ٢٩٧هـ)، ونطقوا في دقائق الأحاسيس الروحية بإشارات، وخطوا فيها لطائف العبارات؛ حتى تميزوا بذلك وعرفوا به لدى الخاص والعام.

**بداية الوساطة:**

**يقول الحجوي في سياق حديثه عن علم التصوف في القرن الثالث الهجري بعد ذكر الإمام الجنيد- رحمه الله:** ومن تلاميذه أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج، الزاهد المشهور، الذي نُقلت عنه مقالات أبيح بها دمه ببغداد سنة ٣٠٩ هـ... قال زروق: رمى جماعة بالقول بالحلول والظهور مع أنه كفر كالحلاج، والشردي، وابن أحلى، وابن قسي، وابن ذو سكين، والعفيف التلمساني، والعجمي الأيكي، والأقطع، والششتري، وابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين وآخرين.

**والقطبية**، كانت فكرة مدسوسة تهدف إلى تمرير فُهُومٍ ما أنزل الله بها من سلطان في كتابه، ولا سنة رسوله ﷺ، وذلك بواسطة إضفاء نوع من القداسة والعصمة المطلقة على الشيخ المربي، بل الوسيط الذي يتصرف في النص الشرعي ومعانيه- كما يتصرف في مريديه- على حسب ذوقه وهواه.

وهكذا صار التصوف، يكتسي طابع المذهب المستقل عن المذاهب الفقهية جملة.. فهم أهل الظاهر، والمتصوفة أهل الباطن، وأولئك أهل الرسوم، وهؤلاء أهل الحقائق..

وتطور مفهوم (القطب) كدلالة وساطية خطيرة، إلى أن صارت له من المعاني ما يجعل صاحبه ليس في مقام الفهم المتفرد، والتدين الأكمل، والتوجيه المعصوم فحسب، ولكن في مقام التشريع التكليفي، والتقدير الكوني اللذين

هما من أخص خصائص الألوهية! وذلك قصد اكتساب التسليم المطلق من كل الناس، عامتهم وخاصتهم، لوسطاء يلقنونهم التدين كما شاؤوه أن يكون، دون أن يكون ثمة منتقد أو معترض أو مراجع!

لقد كان منطق الوساطة الروحية، يجزم بأن المريد لا يمكنه الوصول إلى مقامات الإحسان إلا عبر ذات الشيخ الكامل!! كما كان المنهج الوساطي الصوفي يستلهم طريقته التربوية من قصة موسى عليه السلام مع الخضر، من حيث قول الله- عز وجل- حكاية عن هذا الأخير: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[1]. **فأوجبوا على المريد ألا يراجع شيخه ولا ينتقده، ولا ينكر عليه زلة ولا خطأ، ولو أتى معصية بيِّنة، لأن عنده العلم اللدني الذي لا يفهمه العقل البشري، أو بعبارتهم:** «على المريد أن يكون عند شيخه كالميت بيد مغسله»، فالعصمة التي أضيفت على المشيخة الصوفية، جعلت التربية الإسلامية لا تمر إلى جمهور الأمة إلا عبر قناتها الوساطية.. فالشيخ الوسيط صار في كثير من الحالات معبوداً من دون الله، كما قال الشريف الجرجاني فيما سبق: «باعتبار التجاء الملهوف إليه»[2].

**وكان طبيعياً أن يقاوم الفقهاء التوحيديون هذا الاتجاه،** فكانت خصومتهم واضحة مع أول بداياته وإرهاصاته، مثل إنكار أحمد بن حنبل في القرن الثالث الهجري على الحارث بن أسد المحاسبي، ومهاجمة العلماء للحلاج في القرن الرابع. لكن لم يلبث الفقهاء أنفسهم، أو كثير منهم، أن تبنوا وساطة التصوف، وأذعنوا للمشيخة الروحية المطلقة، خلال أواخر القرن الخامس الهجري، وبداية السادس، إذ في هذه الفترة بالذات كان الإمام أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥هـ)، يعطي المشروعية بسلوكه وتأليفه للمنهج الصوفي.. فعلى يده نضح السلوك الصوفي، كمنظومة متكاملة القواعد والمناهج؛ ذلك أن

---

(١) الكهف: ٧٠.
(٢) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ٥٨-٦٢).

(التصوف السني)، كما يسميه الدكتور علي سامي النشار: «بدأ زهداً، ثم تصوفاً، وانتهى إلى الأخلاق.. ووضعه في صورته الكاملة، أبو حامد الغزالي.. وقد احتضن الأشاعرة مذهب الخلف الصوفي منذ أبي حامد الغزالي».

وكما صار الفكر الأشعري عقيدة الأمة مع الغزالي وبعده، فقد صار المنهج الصوفي سلوكها في المجال الروحي، وصارت كتابات الغزالي الصوفية، وخاصة مصنفه الشهير «إحياء علوم الدين»، متناً تشريعياً لكل مريد، يبغي سلوك مقامات الإيمان. يقول الدكتور أحمد صبحي، متحدثاً عن الغزالي: كانت آفة من جاؤوا بعده، أن عدوا كتابه «الإحياء»، كما لو كان كتاباً مقدسًا!

إن بعض المحبين للغزالي يرون أنه لم يكن يؤمن بفكرة المشيخة، بدليل أنه لم يأخذ طريقة على شيخ معين، وبذلك لا يكون مؤيداً للمنهج الوساطي، إلا أننا نرى إعطاءه المشروعية للسلوك الصوفي جملة، أغرق الأمة في شرك عبادة الوسائط، من أصحاب المرقعات، وأرباب الإشارات والشطحات.. ثم إن التصوف كان قبله منحصراً في بعض الأعلام، بسبب رفض العلماء لمنطق الوسيط، أو التخصص الروحي، ثم صار بعده تَدَيُّن معظم الأمة، بسبب مشروعه النظري والعلمي الذي جعل فيه التصوف وطريق المتصوفة، هو طريق الفرقة الناجية. فتبنى الفقهاء نظريته؛ لأنهم كانوا في مرحلة التقليد المحض، والوساطة الفقهية الرديئة. فدخلت الطرق الوساطية إلى كل بيت، وإلى كل أسرة، وتهافت الناس على المشايخ أو الوسائط، يأخذون الأوراد، وإذن الذكر، مبايعين لهم، ومتوسطين بهم، في تعبدهم للوصول إلى الله!!

يقول الحجوي: حتى إنك إذا بحثت في أي مدينة أو قرية، في غالب الممالك الإسلامية، تجد زواياها أكثر من مساجدها ومن المدارس! ولا تكاد تجد عائلة إلا وهي آخذة طريقة من الطرق، تتعصب لها رجالها ونساؤها وصبيانها.

**التربية الوساطية في فكر أبي حامد الغزالي:**

كانت الحركة التربوية في صورتها العلمية تقوم بدورها التأطيري للمجتمع

الإسلامي، طيلة القرون الثلاثة الأولى، كما تبين. وخلال القرن الرابع بدأ العلم يجنح إلى فقدان حرارته التربوية بسبب الانحراف الكلامي والتقليد المذهبي؛ مما ولَّد اتجاهًا علميًّا آخر، خالياً من قصد التعبد.. فتطور العلم وتضخم، ولكن دون الحفاظ على وظيفته التربوية، كما كان عند الأوائل. وهذا المعنى هو الذي حرَّك الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري، وقد لاحظ اندراس علم التربية، أو قصد التربية في العلوم الشرعية، فظهر علماء السوء وكثروا، ولم يعد العلم يفيد عملاً. واختصر ذلك في كتاب الإحياء بقوله: قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء[١]. وهذا ما جعل الإمام الغزالي يستشعر مسؤولية التغيير لحال المجتمع، والتجديد لأمر الدين، ولذلك فقد بدأ بالنظر في نفسه وعمله.

قال- رحمه الله: ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هارٍ، وأني قد أَشْفَيْتُ على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

وهكذا كان انطلاق الغزالي- رحمه الله- إصلاحياً تغييرياً، فهو يمثل في هذه المرحلة رغبة الأمة في عودتها إلى أصولها التربوية، واستعادة صلاح حالها، كما كان أول الأمر، قبل حدوث الانحراف في المسلك العلمي والتعليمي.

ونظرة عابرة إلى عناوين بعض أهم كتب الإمام الغزالي، تدل على هذا القصد الإصلاحي الشامل، فقد سمى مشروع إصلاح السلوك التعبدي والاجتماعي للأمة، بـ(إحياء علوم الدين)، كما سمى مشروع إعادة تشكيل المنهج العقلي بـ(المستصفى).. فالمشروع الروحي كان يقوم عنده على الإحياء،

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢).

إحياء التـدين والتعبـد، وإحيـاء الأخـلاق الإسـلامية، الفرديـة، والجماعيـة. ويدخل تحت هـذا المعنـى، ويرجـع إليـه، كـل مـا صـنفه في مجـال الأخـلاق والتصوف؛ كالمنقذ من الضلال، وكيمياء السعادة، والقواعد العشرة، والأدب في الدين، والرسالة الولدية.. وهلم جرّا.

أما المشروع العقلي فقد قصد به إعادة تشكيل العقل المسلم، وذلك بـنقض المناهج الفلسفية، والأفكار المادية الإلحادية، وإقرار المنهج الأصـولي. فكتـاب «المستصفى في علم أصول الفقـه»، هـو عنـوان مـشروع، حـاول فيـه الغـزالي (تصفية المشارب المنهجية)، بإرجاعها إلى أصل واحد ووحيد، هـو كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ولذلك، فكتبه العقلية الأخرى، هي مكملة لهـذا المـشروع سلباً أو إيجاباً، فمن الناحية السلبية، يعتبر كتاب «تهافت الفلاسفة»، نقـضاً لمـا كان يراد له أن يكون بديلاً عن المـنهج العقـلاني في الإسـلام، وصـداً للتـأثير العقلي الإغريقي بصفة عامة، وكـذلك كـل كتبـه في الـرد عـلى أهـل الأفكـار المنحرفة الأخرى.

أما من الناحية الإيجابية، فقد كانت كتب أخرى تكمل مشروع المستـصفى في بناء أصول المنهج العقلي في الإسلام، ككتـاب «المنخـول»، وكتـاب «شـفاء العليل» وقد حاول أن يستخلص ما رآه صالحاً من علـوم اليونـان، مثـل علـم المنطق الذي جعله من العلوم الأساسية لميزان العقل. فصنف في ذلك «معيـار العلم»، وأدخـل مقدمـة منطقيـة إلى علـم أصـول الفقـه، مـن خـلال كتـاب «المستصفى»[(١)].

**ورغم شمولية المنهج الإصلاحي** الذي قام به الغزالي ودعا إليه، إلا أنه كان غير متوازن، لا من الناحية العملية ولا التصورية، بسبب ترجيح كفة الجانـب الروحي على كفة الإصلاح العقلي، ترجيحاً كبيراً، جعل التصوف هـو جـوهر

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ٦٤-٦٧).

الإسلام وغايته النهائية. فصحيح أنه دعا إلى إصلاح العلوم الشرعية، ولكن من خلال المنهج الصوفي، إذ وَسَمَ الفقه الإسلامي بعلم الدنيا، والتصوف بعلم الآخرة، وكان هذا التفريق بداية فرض الوساطة المشيخية الصوفية على الفقه والفقهاء.

قال- رحمه الله- عن فروع علوم الشرع: «وهذا على ضربين: أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا، والثاني يتعلق بمصالح الآخرة، وهو علم أحوال القلب، وأخلاقه المحمودة والمذمومة»، ومعلوم أن الصدر من فقهاء الصحابة والتابعين وأتباعهم لم يكن لديهم هذا التمييز، ولم يعترفوا به، بل حاربوا بوادره، إذ المفروض في الفقه أن يكون هو مادة التربية، والمفروض في الفقه أن يكون هو المربي، وكذلك كان الأوائل فعلاً، كما تبين.. ومن هنا- حيث حصل التفريق والانفصام- صح كلام الحجوي- رحمه الله- كما أسلفناه: أن حدوث التصوف وتطوراته، أدخل وَهْناً على الفقه كثيراً، بل وعلى الفقهاء.

وأعلى الغزالي من شأن التصوف والمتصوفة، إعلاءً فيه من المبالغة ما أثر سلباً على الأمة بعدُ، فلم يبق التدين مطلوباً إلا من بابهم، ولم يعد الارتقاء في مدارج الإيمان مسلوكاً إلا من مقاماتهم، ولم يصبح الاستدلال على رضا الله تعالى إلا عبر أقطابهم وأبدالهم وشيوخهم. قال- رحمه الله: وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات، أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عمل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً.

فكان الغزالي بهذا- رحمه الله- وهو الذي خبر علوم النقل وعلوم العقل،

واستقصى مقاصد الملاحدة والدهريين والباطنية والمتكلمين والأصوليين وغيرهم، يخط للأمة المحجة المنتقاة، بعد التجربة والاختبار، لإصلاح تدينها وسلوكها وتربيتها وحسن تطبيقها للإسلام عامة.. وسرعان ما تلقت الأمة اختياره بالقبول، فهي في عهده وبعده أمة التقليد المحض، والارتباط بالأعلام ممن برز في هذا الاتجاه أو ذاك.

والغزالي شخصيته قوية جامعة، ذات جاذبية مؤثرة في أغلب الاختصاصات الرائجة في ذلك الزمان. والناس بعد ذلك كانوا في حاجة إلى عودة، والقلوب في حاجة إلى إحياء، فقد أحدث جفاف العلوم العقلية والفلسفية التي طغت وانتشرت في القرنين الرابع والخامس عطشاً إلى مناهل الروح، لكن العودة كانت رد فعل مفرط، فوقع الإفراط في مقدار، ومنهج العودة والإحياء؛ مما أدى إلى القول بفردانية التصوف، وأنه أصوب الطرق على الإطلاق، دون أن يفكر في إصلاح المنهج الفقهي ذاته، وربطه بالنصوص القرآنية والحديثية، لا بالوساطات، فيعود إلى وظيفته التربوية الجامعة والمتوازنة في نفس الوقت، بل أعرض الناس عن الفقه جملة وتفصيلاً، ورضوا في ذلك بأقوال المقلدة، ثم تهافتوا على أبدال التصوف ومشايخه، يبايعونهم كوسائل وساطية متفردة دون العالمين في هذا الأمر؛ ليصلوا عبر ذواتهم إلى الله.

وصحيح أن الغزالي لم يَدْعُ صراحة إلى التزام الوسيط أو مبايعة الشيخ، بل صرح ببطلان ذلك كما في قوله- رحمه الله: «فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق» إلا أنه- رحمه الله- قد رسخ الوساطة في كثير من نصوص الإحياء وغيره من مصنفاته الروحية، فقد كان تفضيله للمنهج الصوفي بإطلاق كفيلاً باعتماد الناس له في عصر عُرف بالتقليد المحض، ومن هنا كان انتشار المنهج الصوفي في الأمة. ومن أبرز خصائص سلبياته القول بالوسيط.

ورغم أن الغزالي لم يقل بإلزامية الوسيط، إلا أنه أشار إلى أهميته وقيمته

الروحية التي لا يبلغها إلا الراسخون في السلوك، بل إن كثيراً من الخرافات التي عِيبَت على أبي حامد- رحمه الله- إنما دخلت إلى كتاباته عبر إيمانه بخصوصية الأقطاب والأبدال، ففي «الإحياء»: «قيل لبعض العارفين: إنك محب، فقال: لست محباً إنما محبوب، والمحب متعوب. وقيل له أيضاً: الناس يقولون إنك من السبعة، فقال: أنا كل السبعة. وكان يقول: إذا رأيتموني، فقد رأيتم أربعين بدلاً. قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلاً، وأخذت من كل بدل خُلُقاً من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام، فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه».

ويقول- رحمه الله- في سياق تعليم المريد: «فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائماً (الله، الله، الله) بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله- سبحانه وتعالى- انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجلية، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ: «**زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ، حَتَّى رَأَيْتُ مَشارِقَها وَمَغارِبَها**»[1]، وقال الله- عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[2]، لأن علوم الأنبياء- عليهم السلام- كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس. وهو طريق الصوفية في هذا الزمان، وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء!

فإذا سألنا الغزالي: من أين لك هذا، وهو ليس في كتاب الله، ولا في سنة

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني.
(٢) الأنعام: ٧٥.

رسوله ﷺ؟ أحالنا على الأبدال والأقطاب! فيعطيهم من المصدرية ما يعطي لمصادر التشريع الحقيقية؛ فيقوم البدل أو الوسيط بإسناد علمه إلى إلهام لدني، أو رؤيا خاصة، أو إذا أعجزه الأمر قال: سمعت ذلك من الخضر عليه السلام! فاقرأ قوله- رحمه الله- مثلاً في ذكر عبادة غريبة، حيث قال: «قال كرز بْنُ وبرة، وهو من الأبدال: قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في كل ليلة، فقال: إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصلياً، من غير أن تكلم أحداً، واقرأ فاتحة الكتاب، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سبع مرات، في كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله- تعالى- سبع مرات، وقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود، واسْتَوِ جالساً، وارفع يديك، وقل: يا حيّ، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأولين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيمهما، يا رب، يا رب، يا رب، يا الله، يا الله، ثم قُمْ وأنت رافع يديك، وادع بهذا الدعاء، ثم نَمْ حيث شئت، مستقبلَ القبلة على يمينك، وصلِّ على النبي ﷺ، وأَدِمِ الصلاة عليه، حتى يذهب بك النوم. فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا؟ فقال: إني حضرت محمداً ﷺ، حيث علم هذا الدعاء، وأوحي إليه به، فكنت عنده!! قال العراقي مخرج أحاديث الإحياء في هامشه: «وهذا باطل لا أصل له».

وقد أدى هذا المنهج بالإمام الغزالي إلى القول ببعض الأمور المنافية لنص الشارع وقصده الحكيم صراحة، ولا مبرر له في ذلك، إلا أنها صدرت أو وردت عن بدل، أو ولي من الأولياء، إن صح أنه كذلك جاء في الإحياء. وعن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام، فسألت الله- تعالى- مرة أن يريني إياه ليعلمني شيئاً كان أهم الأشياء عليَّ، قال: فرأيته، فما غلب علي همي ولا همتي إلا أن قلت له: يا أبا العباس، علمني شيئاً إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها قدراً. وعلمه دعاءً طويلاً، فلما صار يقوله، قال

الغزالي: إنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به، ويستسخرونه في الطرق، يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يلعبون به، فكانت راحته ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله وخموله! قال الغزالي، غفر الله له، معلقاً: «فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا».

عجباً! فيا ليت شعري، أين كان عقل الغزالي وهو يروي هذا الكلام ويعلق عليه!؟ أين كان عقله الذي صنَّف به «المستصفى»، و«المنخول»، و«شفاء العليل»، و«معيار العلم»، و«مقاصد الفلاسفة»، و«تهافتهم»؟ طبعاً، لقد اغتاله حينما سلمه للأبدال والأشياخ! ولست أدري من كان من الأنبياء والمرسلين ذليلاً خاملاً؟ ومن كان من الصحابة يلعب به صبيان أهل الذمة؟ والله- عز وجل- يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

**مظاهر الوساطة في التربية الطرقية:**

تطوَّرَ السلوك الصوفي ابتداء من القرن السادس إلى ما يسمى بالتصوف الجمعي أو الطرقي؛ حيث نشأت الطرق الصوفية المعروفة إلى زماننا هذا، وتميزت كل طريقة عن الأخرى بخصوصيات في منهج الذكر وأشكال السماع والأوراد ومواقيتها، كما حدث التميز بين الطرق، في اختلاف أسانيدها الروحية، واعترافها بهذا الشيخ دون ذاك، وحدثت مراسيم البيعة بصورة طقوسية تجعل في عنق المريدين وَاجِبَ خدمة الشيخ في كل أموره. فصار التصوف الذي كان فردياً مدارس جماعية ذات نظام سلطوي هرمي الشكل، ابتداء من القطب أو الغوث، ثم الأبدال، ثم الشيخ.

ولعل القادرية هي أقدم الطرق، وإن كنا لا نجزم أن الشيخ عبد القادر الجيلاني فعلاً قد قصد إلى تأسيس طريقة ما، لما اشتهر عنه من علم واعتدال،

---

(١) المنافقون: ٨.

ولكن الأتباع هم الذين اتخذوا من أقواله وأوراده تـشريعات تعبدية خاصـة. فكانت الطريقة القادرية أو الجيلانية نسبة إلى اسمه أو نسبه.

يقول الأستاذ الحجوي- رحمه الله- في سياق حديثه عن الشيخ عبد القـادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ: «وجميع الطرق الموجودة في وقتنا هذا ترجع إليه، أو إلى الشيخ الإمام أبي الحسن الـشاذلي المغـربي، ثـم المـصري الإسـكندري، الضرير، الزاهد الكبير.. المتوفى سنة ٦٥٦هـ، أو إلى الشيخ خواجة بهاء الـدين نقشبند محمد بن محمد البخاري المتوفى سنة ٧٩١هـ. فتكـون القـرون الثلاثـة المذكورة هي التي شهدت ميلاد التـصوف الطرقـي في العـالم الإسـلامي، أي القرون: السادس والسابع والثامن.

وشاع في هذه المرحلة وما بعدها الاعتقاد بخصوصية المتصوفة، وتنـزههم عن كل نقد أو مراجعة أو محاكمة إلى قواعد الـشرع ونـصوصه، إلى درجـة أن نجد شخصيات علمية متميزة بالنقد في شتى المجالات العلمية، كعبد الـرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ يقف موقفاً إرجائياً استسلامياً تجاه شـطحات أقطابهم وانحرافاتهم، رغم ما قدمه من نقد يسير فيما يتعلق بالقطبية والبدليـة. قال- رحمه الله: فينبغي ألا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فـيما تركنـاه مـن المتشابه! ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافـق لظـاهر الشريعة، فأَكْرِمْ بها سعادة، وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم أنهم أهـل غيبـة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بـما لا يقـصدونه. وصـاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور).

هكذا يحاول ابن خلدون الاعتذار عن الشيوخ فيما صدر عنهم مـن أقـوال استحق بها بعضهم حد الشريعة، مما يدل على مدى الانقيـاد لإمـامتهم. إلا أن ذلك لا يعني خلو المرحلـة مـن علـماء توحيـديين مجـاهرين بـالحق، منكـرين

للوساطة الصوفية الطرقية منذ بداية ظهورها في شكلها الجديد؛ إذ عرف القرن السابع الهجري، شخصية علمية متميزة اشتهرت بالنقد والإنكار على أهل الأهواء والبدع في العبادات والسياسات وغيرها، ذلكم هو سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ، والذي نظم قصيدة مطولة في إنكار الوساطة الطرقية وتسفيهها، نقتطف منها ما يلي:

**ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال**
**إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنكر المتغالي**
**ويقول قلبي قال لي عن خاطري عن سر سري عن صفا أحوالي**
**عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي عن جلوتي عن شاهدي عن حالي**
**عن صفو وقتي عن حقيقة حكمتي عن ذات ذاتي عن صفا أفعالي**
**دعوى إذا حققتها ألفيتها ألقاب زور لفّقت بمحال**
**تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا بطرائف الجهَّال والضُّلال**

كما نبغ من علماء التوحيد، في القرن الثامن، المنكرين للوساطات الطرقية بشتى صورها، الإمام تقي الدين ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٨هـ، الذي كانت فتاواه الشهيرة مليئة بالنقد لشتى أنواع الوساطات، فكرية كانت أم روحية، كما اشتهر بدعوته إلى المصدرية الحقيقية للتدين: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. ثم ظهر في القرن ذاته، الإمام أبو إسحاق الشاطبي، المتوفى سنة ٧٩٨هـ، الذي أنكر المشيخة الطرقية، وصنف كتابه المشهور «الاعتصام» في إبطال ودحض دعاوى المدارس الطرقية، وما تعتقده من وساطة روحية[1].

ثم ازداد انحطاط مستوى المشيخة الطرقية بعد ذلك، كما ازداد تعمق الوساطة الصوفية في عقيدة الجماهير بصورة أوسع وأبشع، إذ كثر الجهل، بل

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ٧٩-٨٣).

الأمية، في أوساط كثير من المشايخ، اعتقادًا منهم بأن الأمية كرامة من الكرامات! حيث إن الرسول ﷺ كان أميًا. وهنا يورد الأستاذ الحجوي نموذجًا من كتاب الإبريز الذي يمثل صورة للكتب الطرقية التي سادت عصور الانحطاط، والتي تركز على ذكر كرامات الشيخ وعجائبه وخوارقه، كما تفيض في ذكر (منافعه) للناس، فيما يتعلق بالإشفاء، وكشف الكرب، والضوائق ونحوها، وكذا ما على المريد من الخدمة للشيخ، والسمع والطاعة في المنشط والمكره، ولو رأي من الشيخ ما تنكره الحاسة الشرعية، فإن عليه التسليم والتفويض، وإلا حرك إرث السر، الذي به قد يبلغ مقام القطبية، بعد وفاة الشيخ.

و(الإبريز)، حسب ما ذكر في مقدمته، هو من إملاء عبد العزيز الدباغ الفاسي، الذي عاش بفاس، خلال القرن الحادي عشر الهجري، على مريده أحمد بن المبارك (الفقيه..).

والمريد أحمد بن المبارك، يحكي عن شيخه، أنه لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، ولكنه كان أميًا، ولما (فتح) الله عليه بالكمال والفيض والكشف، صار من العارفين بالعلم اللدني، فصار يفتي في قضايا الناس الدينية والدنيوية، ويحل مشكلات العلم المعقدة، في العقائد، والأحاديث المشكلة، ونحوها..

وكان المريد لطالما يردد بين الفينة والأخرى، عبارات التقديس والتبجيل للشيخ في بداية كل قصة، من روايته، عن كراماته وكشوفاته، كما في قوله على سبيل المثال: «ومما وقع لي مع شيخنا الإمام الغوث، سيدي ومولاي عبد العزيز- نفعني الله به- أني لما أردت أن أتزوج الزيرارية، وكنت غير عارف بصفتها، فوصفها لي بما وجدتها عليه، وذكر لي فيها أمورًا لا يعلمها إلا الله (كذا)، ثم لما عزمت على الدخول قال لي: أنا ليلة الدخول أكون عندكم، فقلت له: وبم أعلم ذلك يا سيدي؟ فقال لي: أنا أفعل لك علامة. ثم لما اجتمعت

بالزوجة وكلمتها بعض الكلام، وإذا بالدم يسيل من خياشيمها، فقلت لها: وما بالك؟ فقالت: أنت ضربتني على أنفي، فسكت عنها، وعلمت أنه فعل سيدنا الإمام».

هكذا كانت الوساطة الطرقية، تصنع المريدين، وتربي الأتباع، وكأنها تمارس عليهم نوعًا من غسيل الدماغ، أو ما عبر عنه في الفكر المعاصر، باغتيال العقل، إشارة إلى عملية قتل الحاسة النقدية، في الفكر والمجتمع. وقد كانت الأدبيات الطرقية، التي ساهمت في صناعة أزمة الواقع المعاصر، تفصل في ما كان يسمى بـ(آداب المريد والطريق)، حتى تخرّج مجموعة من المريدين، ممن يدعون إلى التسليم المطلق للشيخ في كل ما يقول ويفعل، على أن يكون المريد الحقيقي هو أول من يقلد الشيخ، ويتقمص شخصيته، إلى درجة الفناء التام.

والمنطلق الطرقي، ينبني على تأويل معاصي الشيخ، بأنها فوائد عظيمة للناس، إلا أنهم لا يدركون مغزاها، لكثافة الحجب بينهم وبين أسرار الله، التي تفيض على ذات الشيخ، فتبدو لعامة الناس معاصي[1].

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ٨٣- ٨٤- ٨٦- ٩٠- ٩١).

## المسألة الحادية عشرة:

### المدرسة التأصيلية والدعوة إلى التوحيد:

**إن القرن الخامس الهجري، الذي نجحت فيه الوساطة بشقيها: الفكري والروحي، في نيل المشروعية لتقود وتوجه التدين الجماهيري للأمة الإسلامية على يد أبي حامد الغزالي، كما تبين- قد صنع رد فعل إيجابي للمنهج التوحيدي، بدءًا بالقرن السادس الهجري إلى يومنا هذا، لم يفتر ولم يهن، على الرغم من سيطرة الوساطة في أبشع صورها، سيطرة تامة، عبر عصور الانحطاط.**

ورغم اختلاف القرون والمواقع والظروف، التي ظهر فيها دعاة التوحيد، فقد كان المنهج واحدًا، والمضمون متحدًا لديهم جميعًا، وإنما يقع الاختلاف في مجال التكييف والتنزيل للدعوة التوحيدية، وتربية الناس عليها.

ولعرض هذه الحركة في معركتها مع الوساطة، سنبتدئ- بحول الله- من القرن السادس الهجري، باعتباره القرن الذي شهد بواكير الدعوة التوحيدية، باعتبارها رد فعل تصحيحي لما ترسخ خلال القرن الخامس من وساطات.

**وسنختار نماذج من أهم الشخصيات الممثلة لهذا الاتجاه في القرن السادس، ثم شخصيات أخرى ممن جاء بعد، رافعين راية التوحيد في هذا القرن أو ذاك، حتى مشارف العصر الحديث.**

**١- الإمام عبد الرحمن بن الجوزي:**

توفي الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله، سنة ٥٩٦ هـ، فقد عاش خلال القرن السادس، الذي شهد تفاعلات الأمة، مع ما قرره الغزالي من وساطات، على المستوى العقدي والسلوكي، خلال القرن الخامس، وبداية القرن السادس، حيث توفي رحمه الله سنة ٥٠٥هـ. فصارت الوساطة بصورها المختلفة، هي تديُّن غالب الجماهير.

وقد كان ابن الجوزي، صاحب المصنفات الكثيرة في المجال التربوي، قد

ضمن أفكاره التوحيدية، مركزة في كتابه الشهير المعروف بـ«تلبيس إبليس»، أو (نقد العلم والعلماء).

وقد حاول ابن الجوزي المصلح أن ينقل الناس برفق المربي، من التدين الوساطي إلى التدين التوحيدي، من تقديس الأشخاص إلى تقديس رب الأشخاص، ثم محاكمة أقوالهم وأفعالهم إلى نصوص الشريعة، التي هي مصدر التعبد دون سواها، وذلك هو عين التوحيد.. وبناء على هذا المنهج، الذي رسمه، فقد شرع في نقد أبرز المشايخ، الذين جعلوا أنفسهم وسطاء وأوصياء على تدين الناس، أو جعلهم الناس كذلك.

فكان أبو حامد الغزالي من بين أبرز الشخصيات التي واجهها بالنقد، رغم أن آثاره التوجيهية ما زالت طرية، وما زال الناس في انبهار (بإحيائه)، الذي صار متنًا وتشريعًا للتربية والتدين العام... فقال ابن الجوزي في سياق سرد المصنفات التي مالت بالأمة إلى التدين الوساطي: «وجاء أبو حامد الغزالي، فصنف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها. وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والشمس والقمر، اللواتي رآهن إبراهيم- صلوات الله عليه- أنوار، هي حجب الله- عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات، وهذا جنس من كلام الباطنية».

إن ابن الجوزي كان يعلم صعوبة المهمة التي هو مقبل عليها، إذ تمكن التقليد بشتى صوره، وفي جميع الميادين العلمية والتعبدية، من قلوب الناس وعقولهم، لذلك فقد انتدب نفسه للدعوة والتربية والإصلاح، واشتهر بخطبه ومواعظه البليغة في العراق، موطن التصوف، وحمل راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يستوي لديه في ذلك الحاكم والمحكوم.. وبذلك فقد استطاع استمالة الناس في نهاية المطاف إليه، وإقناع كثير من الخلق بمنهجه

التوحيدي. وقد ذكر أنه كان يعقد مجلسه كل خميس ببغداد، ويحضره عدة آلاف من الناس.

واستمر- رحمه الله- ينزع المشروعية عن الوسطاء، باعتبارهم مصادر للتدين، مؤكدًا في نفس الوقت أن المصدرية المطلقة، إنما هي للدليل أو النص الشرعي، فقال منبهًا على هذا المعني: «واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص، ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه، كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح- صلوات الله عليه- من الأمور الخارقة، ولم ينظر إليه، فادعى فيه الألوهية، ولو نظر إليه، وأنه لا يقوم إلا بالطعام، لم يعطه ما لا يستحقه».

وفي هذا السياق نورد كلمة ذهبية لابن الجوزي، يبين فيها قيمة العقل والاستقلال به عن التقليد، يقول: «اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلّد فيه.. وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها، أن يطفئها ويمشي في الظلمة».

وقال- رحمه الله: «وقد شب حب السماع بقلوب خلق منهم، فآثروه على قراءة القرآن، ورقت قلوبهم عنده، بما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكّن هوى باطن»[1].

**٢ـ الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني:**

توفي ابن تيمية- رحمه الله- سنة ٧٢٨هـ، مما يعني أن حركته الإصلاحية قد ترعرعت ونضجت خلال بداية القرن الثامن الهجري، مما سيكون له أثر على تلامذته، الذين عاشوا إلى نهاية القرن المذكور.

ومجمل مشروع ابن تيمية التربوي- كما يقول الحجوي- يقوم على «فهم حقيقة الدين الإسلامي، وتجريده عن زوائد الابتداع، وإخلاص الدعوة للتوحيد الحق، وترك المغالاة في تعظيم المخلوق، كي لا يحلق بالخالق..

(١) كتاب الأمة ص ١٠٩.

واستقلال الفكر في فهم الشريعة من كتاب وسنة وقياس، واتباع السلف، ونبذ المحدثات. وعلى هذا تدور سائر كتبه، وهذا ما كان عليه السلف الصالح- رضي الله عنهم- فهو من المجددين.

فقد استطاع ابن تيمية، أن يزحف ضد تيار التقليد الواسع، ويحقق انتصارًا على المقلدة، بنفي جميع الوساطات الفكرية، عقائديًا وفقهيًا، والروحية، سلوكيًا وتربويًا، ويؤسس جيلاً من التلاميذ، حملوا راية التوحيد بعده- رحمه الله.

ومعلوم أن العقيدة الأشعرية، كانت عقيدة التدين الجماهيري في عصره، ولذلك فقد حاول نزع القداسة عنها، واعتبارها من الطوائف الضالة عما رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية، وحشرها مع الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة، رغم قرب التصورات الأشعرية إلى السنة، على حد تعبيره- رحمه الله- حيث قال: «السنة، والشريعة، والمنهاج، هو الصراط المستقيم، الذي يوصل العباد إلى الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ الله**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1][2].

وإذا تأمل العاقل، الذي يرجو لقاء الله هذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ثم المعتزلة ثم الجهمية والرافضة، ومن أقرب منهم إلى السنة من أهل الكلام، مثل الكرَّامية والكلابية والأشعرية، وغيرهم، وأن كلا منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث، ويدعي أن سبيله هو الصواب، وجدت أنهم المراد بهذا المثال، الذي ضربه المعصوم، الذي لا يتكلم عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي».

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والحاكم (٢/ ٣١٨). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وابن تيمية يعلم أنه- بفعله هذا- سوف يُغضب أشاعرة عصره، وهم أكثر فقهاء المذاهب المتصدين للفتوى، والدفاع عن المذهب الفقهي والعقائدي، من شافعية ومالكية وغيرهما، ولذلك فقد بيّن وجه التمايز والتباعد بين العقيدة الأشعرية والعقيدة السلفية أو عقيدة التوحيد، وبيَّن ذلك في مواطن متعددة، حتى يوضح للناس أن اجتهاد أبي الحسن الأشعري وأتباعه، ليس بالضرورة هو عقيدة القرآن والسنة، بالتمام والكمال، حتى يصير دون غيره هو عقيدة التدين العام كما قال- رحمه الله:

«يوضح ذلك أن كثيرًا من أصحاب أبي محمد، من أتباع أبي الحسن الأشعري، يصرحون بمخالفة السلف في مثل مسألة الإيمان، ومسألة تأويل الآيات والأحاديث، يقولون: مذهب السلف: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وأما المتكلمون من أصحابنا، فمذهبهم كيت وكيت.. وكذلك يقولون: مذهب السلف: أن هذه الآيات والأحاديث، الواردة في الصفات، لا تتأول، والمتكلمون يريدون تأويلها، إما وجوبًا وإما جوازًا.. هذا منطوق ألسنتهم ومسطور كتبهم، أفلا عاقل يعتبر؟ ومغرور يزدجر؟.. وأيضًا فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة، وأقوال المتكلمين تارة، كما يفعله غير واحد، مثل أبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، والرازي وغيرهم.. فلا يثبتون على دين واحد، وتغلب عليهم الشكوك. وهذا عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة».

كما تصدى كذلك إلى مظاهر الوساطة الروحية في الأمة، محاربًا اشتراط الوسطاء في السلوك إلى الله والتعبد، بناءً على مصادر وهمية، لا تحتكم إلى نص معلوم، كواردات الأذواق، وشطحات الأحوال، ومظاهر التدين الفلسفي، من مقولات المتصوفة، الذين استتبَّ الأمر لأشياخهم وطرقهم في زمانه- رحمه الله- فهاجم أبا حامد الغزالي، من حيث أنه لم ينضبط بنصوص الشرع، إنما كان يستقي من الفلسفة، التي هاجمها وحاربها، ولذلك قال فيه:

«وأبو حامد الغزالي يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف، والعبارات الإسلامية، ولهذا رد عليه علماء المسلمين، حتى أخص أصحابه أبوبكر بن العربي، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم، فما قدر».

وأنكر أن يعتمد الغزالي على الأذواق والمكاشفات، لتفسير النصوص الشرعية على مقتضاها، فتكون بذلك حاكمة على القرآن والسنة، لا محكومة بها، وهذا عين الوساطة، كما ذكرنا. قال- رحمه الله: «فإنَّ أبا حامد، كثيرًا ما يحيل في كتبه، على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم وديانتهم، ومن إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يَزِنُوا بذلك ما ورد به الشرع».

ثم يذكر سبب ذلك فيقول : «وسبب ذلك، أنه- الغزالي- علم بذكائه وصدق طلبه، ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب».

ثم يلتفت ابن تيمية بعد ذلك إلى متصوفة عصره، منكرًا ما وصلوا إليه من انحراف في الفهم وتطبيق للدين، وما نصبوه من وسطاء في التربية.. وأنكر عليهم أن تتضمن طرقهم أسرارًا لا تتضمنها النصوص القرآنية والحديثية. قال- رحمه الله: «وقد رأيت من أتباع هؤلاء، طوائف يدَّعون أن هذه الأمور من الأسرار المخزونة، والعلوم المصونة.. وخاطبتُ في ذلك طوائف منهم، وكنت أحلف لهم أن هذا كذب مفترى، وأنه لا يجري من هذه الأمور شيء» أي أنه لا يجري منها شيء شرعًا ولا واقعًا، وإنما هي تخيلات إبليسية ليس إلا، ومنها ما اعتقدوه في أشياخهم ورجالهم من كرامات تفوق ما عرف شرعًا من المعجزات النبوية.

وقال في ذات السياق: «فإن شيخهم، الذي هو عارف وقته، وزاهده عندهم، كانوا يزعمون أنه هو المسيح الذي ينزل، وأن معنى ذلك نزول روحانية عيسى- عليه السلام- وأن أمه اسمها مريم، وأنه يقول بجمع الملل

الثلاث، وأنه يظهر مظهرًا أكمل من مظهر محمد وغيره من المرسلين، ولهم مقالات من أعظم المنكرات، يطول ذكرها ووصفها.

ولم يكن ينكر على الصوفية طلبهم الوصول إلى أعلى المقامات الإيمانية، ولا حبهم للزهد والعبادة، وإنما كان يشترط أن يكون كل ذلك من مشكاة القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى: أن يأخذوا مسلك التدين والتربية، عبر المنهج التوحيدي، والارتباط المباشر بنصوص الإسلام، لا عبر المنهج الوساطي، والارتباط بالشطحات والأشياخ، قال- رحمه الله: «كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسنٌ إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك».

وهكذا نجد ابن تيمية، المصلح والمربي، يدخل في معركة متعددة الجبهات، ويحارب على مختلف الواجهات، دفاعًا عن مصدرية القرآن والسنة، ودحضًا لكل وساطة، مهما كان شكلها وصاحبها؛ مما أَلَّبَ عليه خصومه من المذاهب والطرق وسلطان زمانه، الذي أدخله سجنه حتى مات فيه- رحمه الله. لكنه ترك لنا تراثًا ضخمًا، يؤصل فيه المنهج التوحيدي، في مجال التدين، وتربية الناس عليه، شكَّل مادة مرجعية هامة للحركات الإصلاحية التي جاءت بعده[1].

**٣- الإمام أبو إسحاق الشاطبي:**

أما الإمام أبو إسحاق الشاطبي، الغرناطي، فقد نهض بمشروعه الإصلاحي التربوي، في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، إذ توفي- رحمه الله سنة ٧٩٠هـ.

والشاطبي هو صاحب المقاصد النظرية الأصولية ذات البعد التربوي، وهو- رحمه الله- متأثر بالغزالي، محيل عليه في أكثر من موطن، في كتاب «الموافقات»، بيد أنه لم يكن مقلدًا له في شيء، بل جاء مشروعه عملاً نقديًا

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ١١٥- ١١٧- ١١٨- ١١٩- ١٢٠- ١٢٢- ١٢٣).

لمشروع الغزالي الإصلاحي.

إن الشاطبي كان مقلاً في التأليف، لكنه ألف كتابين أغنيا عن العشرات من المصنفات، وهما: كتاب «الموافقات»، وكتاب «الاعتصام».

أما كتاب «الاعتصام» فهو من حيث العنوان إشارة إلى ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة في مجال التدين، ونبذ أشكال الوساطة. وهو بذلك يقابل كتاب الإحياء للغزالي. إن الغزالي قد نادى بإحياء علوم الدين، فجاء الشاطبي ليقول: نعم.. ولكن بشرط الاعتصام بالنص الشرعي، وهو ما فقده الغزالي، كما تبين في إحيائه.. ثم إن الغزالي حاول إعادة تشكيل العقل المسلم والمنهج العقلاني في الإسلام، من خلال «المستصفى»، كما بينًّا، لكن على أساس ضبطه بالمنطق الأرسطي، الذي جعل الجاهل به لا يوثق بعلومه أصلاً.

ثم صنف الشاطبي كتاب «الموافقات» في أصول الشريعة، على غرار «المستصفى»، لكن بدل أن يضبطه بالمنطق هاجم هذا الأخير، واعتبره علمًا دخيلاً، يقوم على مقولات تنافي أصول الإسلام.. وضبط المقولات الأصولية، بما سماه بـ«مقاصد الشريعة»، التي تتنزل لضبط «مقاصد المكلفين» الناشئة بالقلب، فيكون بذلك قد ربط المنهج العقلي في الإسلام بخطرات القلب، ضبطًا له، حتى يخرج المكلف عن داعية هواه، ويكون عبدًا خالصًا لله، كما عبر في أكثر من موطن.. فهكذا يكون مشروعه الأصولي في «الموافقات»، عملاً رائدًا في ربط الضبط العقلي بـ«العدالة القلبية»، كما هو عند المحدثين، وهو معنى تربوي، قلما رامَتْهُ المصنفات الأصولية من قبل.

إن «الموافقات»، وإن كان صاحبه قد عبر أنه حاول التوفيق فيه بين مذهب المالكية والحنفية، إلا أنه وَفَّقَ فيه أيضًا بين ظاهر التدين وباطنه لدى المكلف، أو بعبارة أخرى: عمل على تعميق مغزى التكاليف الظاهرة، وربطها بأصولها من التكاليف الباطنة، وذلك بربط مفهوم الإسلام بمفهوم الإيمان، ربطًا قويًا،

حتى ينتج عنهما (الإحسان)، الذي هو غاية المناهج التربوية، على اختلاف مشاربها وطرائقها في الإسلام، أخطأت أم أصابت.

ولم يسلم للشاطبي هذا المشروع ويكتمل، إلا بتوحيد المنهج، وذلك بنبذ جميع التأثيرات الوساطية، والاستقلال الحر عن كل السلط المذهبية والمشيخية إلا سلطة النص الشرعي التي أمدته بتجديداته الفائقة وإشراقاته التوحيدية الرائقة ذلك المنطق الهادي إلى التوحيد، هو ما عبر عنه بصراحة، وهو يعد نفسه إعدادًا للعمل الإصلاحي، ومواجهة التبعات الدعوية، حيث قال في كتاب «الاعتصام»:

«مَنَّ عليّ الربُّ الكريم الرؤوف الرحيم، فشرح لي من معاني الشريعة ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي القاصرة أن كتاب الله وسنة نبيه، لم يتركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالاً يعتد، وأن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع، والطلبة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلال وبهتان وإفك وخسران، وأن العاقد عليهما بكلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى، محصّل لكليتي الخير: دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلام وخيالات وأوهام».

وكان- رحمه الله- يعلم أنه طريق صعب، في زمان سيطرت فيه البدع ووسطاؤها على الأمة إلا قليلاً، وأن التوحيد صار غريبًا بين الناس، حتى إنه- رحمه الله- بدأ كتاب الاعتصام بحديث «**بدأ الإسلام غريبا**..» الحديث. إلا أنه بعد تدبر وتفكر، وجد ألا مناص من الخروج إلى ساحة المعركة، لرفع راية السنة، وإعلاء كلمة التوحيد في الفقه والتربية والسلوك. قال- رحمه الله- واصفًا توجسه بادئ الأمر، وما لاقاه بعد ذلك من صعوبة «فتردد النظر بين أن أتبع السنة، على شرط مخالفة ما اعتاد الناس، فلابد من حصول مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال، عائذاً بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين لا من المخالفين، فرأيت أنّ في اتباع السنة

النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت على القيامة، وتواترت عليّ الملامة، ونُسِبْت إلى البدعة والضلالة.. وتارة نُسبت إلى معاداة أولياء الله، المنتصبين- بزعمهم- لهداية الخلق»[1].

ولم يكن الشاطبي لذلك يجرد العلم الشرعي من بُعْده التربوي، بل قدّم العلم الشرعي على أنه الباعث على العمل والتدين، تمامًا كما كان في عهد القرون الثلاثة الخيّرة، فلا فرق- بناء على ذلك- بين مفهوم العالم ومفهوم المربي، إذ لا علم شرعيا إلا وهو مفيد للتربية، ولا قيمة لعلم لا يفيد العمل، في مجال الدين. وفي ذلك يقول: «العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا، أعني الذي مدح الله ورسولُه أهلَه على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلِّي صاحبه جاريًا مع هواه، كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل على قوانينه، طوعًا وكرهًا»[2].

**٤- الإمام محمد بن عبد الوهاب:**

توفي محمد بن عبد الوهاب- رحمه الله- سنة ١٢٠٦هـ، أي: بداية القرن الثالث عشر، لكن انطلاق دعوته كان حوالي سنة ١١٥٣هـ، حيث اشتهر أمره، وتبعه من أهل نجد خلق مناصرون، وإن كان ينكر العقائد الفاسدة قبل ذلك في صغره ببلدته (العيينة)، من بلاد نجد، ثم استقر بعدها مع أبيه عبد الوهاب في بلدة (حريملة) بنجد، حيث اشتهر أمره بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور، وقد تعرض لمحاولات القتل والطرد مرات بالحريملة والعيينة، بعدما عاد إليها، فأكرمه حاكمها، ثم أخرجه بعدما هدده حاكم (الأحساء)، فسار إلى (الدرعية)، فأكرمه صاحبها محمد بن سعود، وقال له: أبشر بالخير والعزة والمنعة. فقال له الشيخ: وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد.. وهذه كلمة (لا

(١) الاعتصام (١/ ٢٠، ٢١).
(٢) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ١٢٤-١٢٧).

إله إلا الله)، من تمسك بها، وعمل بها، ونصرها، ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم.

وقد ترك- رحمه الله- مجموعة من المصنفات في التفسير والفتاوى الفقهية والأصولية، غير أن الكتاب الذي تضمن دعوته بشكل مركز، هو كتاب «التوحيد»، الذي حارب من خلاله الوساطات العقدية والسلوكية، وقد كانت استمرارًا لنهضة القرن الثامن الهجري، واستمدادًا من تجربتها، وخاصة حركة ابن تيمية بمقولاتها التوحيدية في العقيدة والمعاملة والسلوك، خاصة في فهم حقيقة الدين الإسلامي، وتجريده عن زوائد الابتداع، وإخلاص الدعوة للتوحيد الحق، وترك المغالاة في تعظيم المخلوق.

والمنهج الذي سار عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، توحيدي خالص، سواء في المجال العقدي المحض، أو المجال الفروعي. فهو وإن انتسب إلى المذهب الحنبلي، غير متقيد به، إلا فيما عليه دليل شرعي، وإنما تقيده بالأصول: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.. وهذا ما شهد به العلامة الحجوي في قوله عنه- رحمه الله: عقيدته السنة الخالصة على مذهب السلف، المتمسكين بمحض القرآن والسنة، لا يخوض التأويل والفلسفة، ولا يدخلها في عقيدته.. وفي الفروع مذهبه حنبلي، غير جامد على تقليد الإمام أحمد، ولا من دونه، بل إذا وجد دليلاً أخذ به، وترك أقوال المذهب، فهو مستقل الفكر في العقيدة والفروع معًا.

إن دعوة ابن تيمية- رحمه الله- إذا كان غلب عليها الطابع العلمي التنظيري، مع التنزيل الفردي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في شخص ابن تيمية نفسه- رحمه الله- وبعض تلامذته، فإن ابن عبد الوهاب، الذي كان امتدادًا لهذه الدعوة، قد أعطاها بُعدًا آخر، هو البعد الحركي؛ حيث عمل ما في وسعه، كما تبين قبل، على امتلاك عناصر القوة الفعلية، والإرادة الحركية،

للقيام بهذه الدعوية، في صورة الجهاد، تحت راية التوحيد من جديد، حتى مكّن الله لها، فصارت ما ذكرنا.

ولعل هذا هو السر الذي أعطى لحركة ابن عبد الوهاب التوحيدية أثرًا بالغًا وواسعًا في نفس الوقت، على كثير من الشخصيات الإصلاحية والحركات الدعوية والوطنية أيضًا، إبان الاستعمار للعالم الإسلامي. وبقي امتداد أصدائها حتى قيام حركة الوعي الإسلامي الحديث، وانتشارها عبر الأقطار الإسلامية، وهي تحمل نَفَسًا من حركات المصلحين الذين دعوا إلى التوحيد[١].

(١) التوحيد والوساطة في التربية الدعوية (٢/ ١٣٩-١٤٢، ١٥٠).



# المحور الخامس

# الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة

## المرجع

كتاب (الفطرية .. بعثة التجديد المقبلة

من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام)

دار السلام – مصر

الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ٢٠٠٩ م

## الفطرية بعثة التجديد المقبلة

### مفهوم البعث في القرآن الكريم والسنة المطهرة:

**الأول**: بمعنى إحياء الموات، كما في قوله- عز وجل: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[1] فالبعث هنا فعل قدري تكويني يرجع إلى إرادة الله- جل وعلا- بإحياء الميت، وتجديد الحياة فيه؛ ليخرج من عالم الفناء إلى عالم البقاء، ولا يكون البعث- بهذا المعنى- إلا بعد حياة سابقة يعقبها موت؛ لما لمعنى (البعث) من دلالة على إعادة الحياة إلى من فقدها، وليس بمعنى نفخ الحياة ابتداءً، فهذا إنما هو (خلق).

**المعنى الثاني**: يرجع إلى (الإرسال). وهو: تكليف الرسل بوظيفة البلاغ. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[2].

فالبعث يرجع إلى معنى تكليفي، وأمر تشريعي تعبدي، بينما هو في الأول راجع إلى أمر قدري تكويني. إلا أن هذا المعنى الثاني يستصحب المعنى الأول، فكأنما ورود المبعوث على الأمة الضالة نوع من الغيث يحيي منها الموت، ويبعث فيها الحياة. ومن هنا كان قول النبي ﷺ: «**إِنَّ الله يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[3] تعبيرًا جامعًا لكل تلك المعاني، فهو دال بالأصالة على تجديد البعثة بالمعنى الإرسالي، أعني: إرسال العلماء لا الأنبياء، وليس هو ابتداء وحي، وهو دال بالتبع على معنى الإحياء، فبعث المجددين إنما هو إحياء للأمة، ومن هنا كان «**الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[4] وقوله ﷺ: «**مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» أهو دال على المفرد أم على الجمع؟ هو في جميع الأحوال آيل

---

(١) البقرة: ٢٥٩.

(٢) القصص: ٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني

إلى الجمع، حتى ولو حملناه على المفرد. ألا ترى أن أصل البعثة النبوية في هذه الأمة إنما هو رسول الله ﷺ نبي واحد خاتم، ولكن مظاهر بعثته ﷺ تجذَّرت في جيل كامل من الصحابة- رضي الله عنهم- ثم جاء من بعدهم جيل التابعين.

وقد كان جيل التابعين والصغار ومن عاصرهم من أتباعهم أول عملية للتجديد، في أواخر المائة الأولى وبداية الثانية، من أمثال: سعيد بن جبير (ت: ٩٥هـ)، ومجاهد بن جبر (ت: ١٠٤هـ)، وعامر الشعبي (ت: ١٠٧هـ)، والحسن البصري (ت: ١١٠هـ)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت: ١١٧هـ)... إلخ. وغيرهم كثير، ممن كانوا جيل التجديد الأول بعد جيل الصحابة؛ حيث نشروا العلم، وربوا الأمة، وبنوا أصول مدارس العلم واتجاهاته.

ثم جاءت بعثة التجديد للمرحلة الثانية، على أيدي علماء مجددين من أمثال: أبي حنيفة النعمان (ت: ١٥٠هـ)، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت: ١٥٧هـ)، والليث بن سعد (ت: ١٧٥هـ)، ومالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ)، وعبد الله بن المبارك (ت: ١٨١هـ)، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، والإمام أحمد وغيرهم- رضي الله عنهم جميعًا.

ثم شهدت بداية القرن الثامن دعوة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، ومدرسته التجديدية، من تلامذته المشهورين كابن القيم وغيره، كما شهدت نهاية القرن بعثة أبي إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ) بالأندلس من الغرب الإسلامي، ومعه جيل من المجددين المعاصرين له، في ميادين شتى؛ كعبد الرحمن بن خلدون الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ) في تجديد علم التاريخ وفقه العمران البشري مثلًا...إلخ.

**يقول المؤلف- رحمه الله:** إن القول بفردية المجدد، وحصر بعثة التجديد فيه؛ إنما هو نوع من التحكم أو التعصب المذهبي، ليس إلا. وكذلك التفسير

الحرفي لـ«**رأس المائة**» من كل قرن بسنة محددة عينًا، هو أيضًا سوء فهم؛ لأن حركة التاريخ لا تكون وليدة سنة أو سنتين، بل هي نتاج عمر كامل، وإنما قد تبرز ثمارها بشكل واضح مع مطلع هذه السنة بالتحديد أو تلك، ذلك أن نضج الإنسان ونشاطه التجديدي إنما يكون على امتداد جيل، أي: على نحو ثلاثين أو أربعين سنة، وليس مختزلًا في سنة واحدة، وإنما يفهم حديث رسول الله ﷺ على هذا الوِزان، فبعثة التجديد من قوله ﷺ: «**على رأس كل مائة سنة**» قد تنطلق قبل تمام القرن بسنة أو سنتين أو ثلاث، وقد تتأخر عن ذلك بنفس المقدار، ثم بعد هذا وذاك، كيف بدء العد لتمام المائة سنة عددا؟

وأغلب العلماء إنما عدوا قديمًا (مائة التجديد) بالعدّ الهجري، وليس من تاريخ بدء البعثة النبوية، أي من يوم نزول ﴿**اقرأ**﴾، وهو إمكان محتمل أيضًا، ولا من سنة وفاة النبي ﷺ وهو أيضًا ممكن محتمل أيضًا. والعبرة في ذلك كله إنما هو بما يقربنا من تحقيق مناط الحديث- في زماننا هذا- على أقرب معاد، يمكن الاستناد إليه في تَبيُّن ملامح بعثة التجديد المقبلة.

ثم يقول- رحمه الله: يمكن أن نعتبر تاريخ إسقاط الخلافة الإسلامية (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) وانطلاق دعوة الإمام حسن البنا- رحمه الله- بعد أربع سنوات فقط من ذلك التاريخ، أي حوالي سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، وكتابة النورسي لأول رسائله التجديدية في السنة نفسها، دون معرفة أحدهما بالآخر، وما صاحب ذلك من حركات واجتهادات مشابهة في العالم الإسلامي- عجمية وعربية- مما ظهر في نفس الفترة تقريبًا من السوابق واللواحق- كل ذلك كان مؤشرًا على أن البعثة التجديدية كانت في عنفوان موجتها القوية آنئذ، من مصر إلى المغرب، ومن تركيا إلى الهند، وكل ذلك أيضًا كان عبارة عن دورة تجديدية واحدة، ذات طابع واحد في أسبابها وأغلب مظاهرها.

ومن هنا؛ فإنه يستقيم إلى حدٍّ بعيدٍ أن نبني عليه في عد المائة التجديدية؛ لما نحن مقبلون عليه- بحول الله- كأمة خلال القرن الخامس عشر الهجري.

والقراءة لظروف العالم الإسلامي اليوم، كما هي بادية من أحداث مرحلتنا التاريخية هذه، بآلامها وآمالها- ونحن نمضي نحو أواسط القرن الخامس عشر الهجري، في اتجاه إتمام المائة سنة على بدء دورة التجديد السابقة- تثبت أننا على أبواب تحولات جديدة، هي في تاريخ العالم قد بدأت بالفعل؛ إذ يمكن اعتبار سقوط الاتحاد السوفياتي، وتفرد الهيمنة الأمريكية الصهيونية الوحدوي الأوروبي، والتقاربات الوثنية الصهيونية، وكذا الانهيار العربي الفظيع ومقولاته السياسية والقومية، والإبادات الجماعية لشعوب العالم الإسلامي في كل مكان، وما يسَمّى اليوم بالربيع العربي والتركي من قبل مؤشر لبعث جديد(١).

**المسألة الأولى:**

**حقائق ثابتة عند المؤلف في التجديد:**

الحقيقة الأولى:

إثبات أن طبيعة التدافع الحضاري بين الأمة وخصومها قد دخل مرحلة أخرى من تاريخه، مرحلة ذات اختلاف كمِّي ونوعي؛ حيث صار الرهان الغربي اليوم قائمًا على تدمير الفطرة الإنسانية في الأمة؛ بما يجعلها قابلة للابتلاع العولمي الجديد: في دينها، وأخلاقها، وقيمها الحضارية، وفي سياستها، واقتصادها، وعمرانها، وسائر نمط عيشها على الإجمال. إنه يستهدف الوجود الشخصاني للأمة بأكمله، ويحاول اجتثاثه من أصله بوسائل أكثر تدميرًا وأشد تغييرًا، ربما كان الأسلوب العسكري منها أقل قوةً وأهون تأثيرًا. ولن يتمكن الغرب من ذلك أبدًا، تلك عقيدتنا، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا...﴾ (٢).

وقد تواترت المبشرات عن رسول الله ﷺ بهذا كما في حديث: «**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلا يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلا أَدْخَلَهُ الله هَذَا**

(١) الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام ص ٦٣- ٧٢.
(٢) الصف: ٨.

**الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِـذُلِّ ذَلِيـلٍ، عِـزًّا يُعِـزُّ الله بِـهِ الإِسْـلاَمَ، وَذُلاًّ يُـذِلُّ الله بِـهِ الْكُفْرَ»**[1].

إن التحدي قائم اليوم على تحرير الإنسان المسلم- فردًا وأمة- مـن أغـلال الاسترقاق العولمي: عقيدة وثقافة واجتماعًا واقتصادًا. لقد فقـد المـسلم اليـوم كثيرًا من خصائصه الفطرية- بما هو عبد خـالص لله، وكـاد يـصير جـزءًا مـن منظومة الآخر الحضارية، لكن على شكل ذرة تافهة تدور على الهـامش خادمًـا غير مخدوم، ومستهلكًا غير منتج، ومفعولًا به غير فاعل، تمامًا عـلى وزان هـذا الحديث النبوي الرهيب، من قول رسول الله ﷺ: «**يُوشِـكُ الأُمَـمُ أَنْ تَـدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَـاءِ الـسَّيْلِ، وَلَيَنْـزِعَنَّ الله مِـنْ صُـدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**». فَقَالَ قَائِـلٌ: يَـا رَسُـولَ الله، وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْـمَوْتِ**»[2].

**الحقيقة الثانية:**

أن العمل الإسلامي المعاصر لن يمكنه الاستجابة لهذا التحدي الحـضاري الجديد، إلا بتجديد نفسه؛ وذلـك بـالرجوع إلى فطرتـه هـو أيـضًا في الـدين والدعوة؛ بعيـدًا عـن خـوارم الفطريـة، مـن مـضايق الجماعـات والتنظـيمات والأحزاب، وبعيدًا عن حرج الأسماء والمصطلحات والألقاب.

وحقيقة العولمة في نهاية المطاف حصان، والحصان لمن يركبه، وإننا على يقين من أن الدعوة الإسلامية اليوم إذا هي دخلت هذه المعركة بشروطها الإيمانيـة، وبتميزها الحضاري، وهويتهـا الإسـلامية الـصافية؛ فإنهـا- بـإذن الله- تنـتج عولمتها الإيمانية عمرانًا حضاريًا جديدًا، وأمنًا وسلامًا للعالمين- كل العـالمين، وإن الفَرَس التي تقاتل اليوم في صف العدو، يمكن أن تقاتل هي نفـسها غـدًا

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وصححه الألباني.

في صف الإيمان؛ وإنما القضية هي في الفارس من هو؟ وما طبيعة الروح التي تسكنه؟

لقد آن الأوان لتجديد النظر في الأساليب التربوية والمنهجيات الدعوية. إن اليوم الذي نعيشه اليوم قد تضايق وتقارب؛ حتى لم يبق منه- لفوات الواجب- إلا وقت الضرورة. فمن ذا يحاول منا أن ينتقل من الشكل إلى الجوهر، في «بعثة التجديد المقبلة»؟ ومن ذا يبادر للإسهام في تسجيل خطوة الانتقال التاريخي الكبير مع منعطف العولمة المظلم من «الحركة الإسلامية» إلى «دعوة الإسلام»؟

وعلى هذا لا بد من العودة بالعمل الإسلامي إلى فطرته، وأصل طبيعته، وتحقيق مصطلح «الدعوة» المستعمل في البيانات النبوية، والتي منها قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[1]. ومصطلح «الدعوة» هو التعبير الإلهي المنزل وحيًا؛ للدلالة على طبيعة الرسالة القرآنية في الأرض تأسيسًا وتجديدًا، بينما يبقى مصطلح «الحركة» تعبيرًا وضعيًا، مرتبطًا بنسبته التاريخية، وبمرجعيته المادية البشرية.

وحتى يبين المؤلف- رحمه الله- أهمية الانتقال من مصطلح الحركة إلى مصطلح الدعوة، يقول: إن الحركة الإسلامية تشتغل حول النص، بينما دعوة الإسلام تشتغل بالنص وفي النص، وتدعوه إلى النص، فعلمها مرتكز أساسًا على التعامل المباشر مع الوحي، تخلقًا بأخلاقه، وتحققًا بأحكامه وحكمه، ودعوة للناس إلى الدخول في محيطه إلى ابتلاء عملي للنفس، وسلوك تطبيقي في المجتمع.

---
(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤)، والترمذي (٢٦٧٤).

## المسألة الثانية:

### الفطرية نقلة نوعية من الحركة الإسلامية إلى الدعوة الإسلامية:

يقول المؤلف- رحمه الله:

لا خلاف في أن «الحركة الإسلامية» تعمل من أجل الدين على الإجمال؛ فهي بيان دعوي، لكن هذا إنما هو من حيث الطبيعة العامة المتصفة بها، وأما من حيث الصيغة المنهجية فهي مظهر (حزبي)، بالمعني السياسي الغربي الحديث للمصطلح، يمكن أن يتجلى- على مستوى الشكل- في عدة صور اصطلاحية، من مثل مصطلح «جماعة»، أو «حركة»، أو «تنظيم»، أو «منظمة»، لكنه يرجع في النهاية إلى جوهر واحد؛ هو مفهوم «الحزب» بمعناه السياسي. وذلك بغض النظر عن مشاركته الفعلية في الانتخابات، أو ما يسمى بـ«اللعبة السياسية» على الإجمال، أو عدم مشاركته. وإذا كان ذلك كذلك؛ فإن الحركة الإسلامية- بصورتها التقليدية هذه- محكومة بسنن الاجتماع البشري، تمامًا كالحضارات والدول بالمعنى الخلدوني، أي أن لها مرحلة نشأة، ومرحلة نضج واكتمال، ثم مرحلة هرم وانهيار.

**ثم يقول- رحمه الله- عن أهمية الابتعاد عن الحزبية في التربية:**

إن الحزبية الإسلامية ستعطي للديمقراطية مسحة إسلامية؛ لكن دائمًا في حدود الإمكانات المحسوبة، والقابلة للنقض في كل وقت وحين؛ إذ (الرأي العام) الذي يحسمه (العوام) هو الممثل الشرعي والوحيد لمصداقية اللعبة، وما الرأي الذي يصنع في أسابيع إلا ريح الأهواء، وأصوات الغوغاء.

ثم يقول قائل: إذن، إذا وعت الحركة الإسلامية ذلك، فإنها تحسب كل تلك الإمكانات، فتخرج عن حد أهداف العولمة. فنقول: لا يمكنها ذلك إلا إذا خرجت عن طبيعتها (الحزبية) التي نشأت عليها، بما وصفنا، إلى شيء جديد، وهو ما نرجو أن تلده الأيام بحول الله. أو تبقى على طبيعتها تلك فتكون إذن محكومة بإمكانات (اللعبة الحزبية)، وهي جميعها آيلة بطبيعتها إلى

محيط العولمة، ولا منزلة بين المنزلتين، فتوجه العولمة يشتغل الآن ولـيس غـدًا، وتوقع نتائجها مبني عـلى مـشاهدة مقـدماتها، فـإنما ننطلـق إلى المجهـول مـن المعلوم، بناءً على المنطق الرياضي.

**ثم يقول**: إن بصائر القرآن، وسنن التاريخ، وطبيعة التحولات الكـبرى في العالم الإسلامي، وخروج الدجال العولمي؛ كل ذلك يحـدثنا عـن مـيلاد شيء جديد في أفق العمل الإسلامي[1].

(١) الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام ص٧٣- ٨٤.

## المسألة الثالثة:

### الفطرية وقضية الدين[(١)]:

يقـول- رحمـه الله: لا خـلاف أن الإسـلام «إنـما هـو ديـن»، وهـو معنـاه الجوهري الأساسي، وهو معنى كـلي قطعـي ثابـت بالنـصوص المتـواترة مـن الكتاب والسنة ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[(٢)].

ثم يعرج- رحمه الله- على بيان معنى الدين فيقول: الدين في اللغة راجع إلى معنى: الانقياد والذلة والخضوع. وهو معنى مجمع عليه بين أهـل اللغـة. قـال ابن فارس في مادة «دين»: «الدال، والياء، والنون: أصـل واحـد، إليـه ترجـع فروعه كلها، وهو جنس من الانقياد والذل. فالدين: الطاعة»[(٣)].

ومنه قيل الدَّيْنِ- بمعني السلف- دينًا؛ لما فيه مـن ذلـة المـدين وخـضوعه للدائن. ولنا أن نورد كلام الراغب الأصفهاني صاحب «مفردات القـرآن»، في بيان علاقة اللغوي بالاصطلاحي، فهو من أجمعهـا وأبينهـا، قـال- رحمـه الله: «الدين: يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والـدين كالملـة، لكنـه يقـال اعتبـارًا لا بالطاعـة والانقيـاد للـشريعة، قـال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[(٤)] أي: طاعـة ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾[(٥)] وقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[(٦)]. قيل: يعني الطاعـة، فـإن ذلـك لا يكون في الحقيقة إلا بالإخلاص، والإخلاص لا يتأتى في الإكراه.

وعلى هذا، فمدار الدين على قضية الإنسان مع ربه الذي خلقه. ولـذلك- كما قال بديع الزمان سعيد النورسي- إن نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة

(١) انظر: مسألة الفطرية وقضية الدين- الفطرية ص ٨٧- ١٠٤.
(٢) آل عمران: ١٩.
(٣) المفردات، مادة «دين».
(٤) النساء: ١٢٥.
(٥) النساء: ١٤٦.
(٦) البقرة: ٢٥٦.

والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة، بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحد بالمائة[(١)].

**ومنها كان جوهر الرسالة القرآنية:** إنما هو إنذار البشرية بحق الله العظيم عليها، وما ينبني على ذلك من معاني العبودية، في طريق السير إليه تعالى؛ رغبًا ورهبًا، ثم ما يترتب على الإخلال به أو الوفاء من مصير وجزاء، وفي ذلك جاءت الآيات والسور تترى لبيان حقيقة الحياة الدنيا.

ثم يقول في صفة استفهام: نعم الإسلام شامل لكل معاني الحياة، نعم، تلك حقيقة راسخة من حقائقه الكلية، لا مراء فيها ولا إشكال. ولكن أين من يضبط الميزان؟ وأين من يرتب أولويات الدين كما عرضها الدين، لا كما تشتهيها رغائب الصحافة والإعلام؟ ثم أين من يبني الفروع على الأصول ولا يقلب الميزان؟

وعند الانتهاء من حرج هذه الإشكاليات يذكر أن العاملين في الحقل الدعوى اختلطت عندهم الأولويات القرآنية، فقدموا العمل السياسي على الأعمال الدعوية والتربوية والتزكوية.

وبعد أن يحرر الكلام في مفهوم «الدين» يتحدث- رحمه الله- عن مفهوم «الفطرة» فيقول: إنها السر الكامن في قلب الروح، إنها الجوهر المكنون للخلق الإنساني، والسر المصون للوجود البشري، فهي أم اللطائف ومرجع الأسرار في المعنى الوجودي لحقيقة الإنسان، بكمالها يكمل مفهوم الإنسان، وبنقصها ينقص معناه، وبانخرامها الكلي يخرج عن طبعه وحده إلى درك المعنى البهيمي لجنس الحيوان.

فأي مس لها وأي خدش يؤدي حتما إلى اضطراب- على قدر ذلك المس وذلك الخدش- في المعنى الوجودي للإنسان، وإلى تخبط نفساني واجتماعي؛ بما

---

(١) كليات رسائل النور ص ٤٤٦.

يفيض منها على وجوده الروحاني والجسماني من معاني الحياة؛ ذلك أن لجروح الفطرة درجات، تمامًا كما لجروح الجسد، فخدش الجلد ليس كشق اللحم، ولا هذا ككسر العظم، ولا هو كبقر البطن أو طعن الصدر، فعلى قدر التغيير لطبيعتها يكون حجم الفساد في الأرض؛ إذ هي من أخص خصائص الصنع الإلهي والتكوين الرباني للخلق البشري.

ولذلك كانت الفطرة- بما هي «اسم هيئة» كما يقول النحاة- هي الصورة النفسانية الأولى التي خلق الله عليها الإنسان، بما سواها عليه من توازن وكمال، أي قبل تدخل اليد البشرية العابثة فيها بالخرم والخدش.

ومن هنا كان تدخل الإنسان فيها بالتغيير والتبديل مغامرة خاسرة قطعًا؛ لأنه تدخل فيما لا علم له به من أمر خلقه وماهية وجوده؛ ولذلك كان ممنوعًا من مد يده الطائشة إلى صندوقها قصد محاولة العبث بسرها؛ إذ فساد شيء من حقيقتها لا يمكن تلافيه بأي إصلاح جهول من عنده، أو أي استدراك بليد من عمله، بل لا بد فيه من تدخل ثان لخالقها العظيم، الذي لا تعجزه كما لم يعجزه البدء ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1] فهو وحده- سبحانه- العليم بأسرارها، الخبير بطبيعة تركيبها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

ذلك هو مقتضى البيان النبوي العميق من قوله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»[3].

(١) يس: ٧٩.
(٢) الملك: ١٤.
(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، والترمذي (٢١٣٨).

**المسألة الرابعة:**

**تعريف الفطرية وأركانها ومسالكها:**

**تعريفها:**

إقامة الوجه للدين حنيفًا، خالصًا لله، وذلك بمكابدة القرآن ومجاهدة النفس به تلقيًا وبلاغًا؛ قصد إخراجها من تشوهات الهوى إلى هدى الدين القيم؛ ومن ظلمات الضلال إلى نور العلم بالله.

فبناء على هذا التعريف؛ تكون «الفطرية» بمثابة عملية إصلاحية وجدانية، تقوم أساسًا على تصحيح ما فسد من فطرة الإنسان، المجبول أصلًا على إخلاص التوحيد، وإصلاح ما أصابها من تشوهات تصورية وسلوكية، في شتى امتداداتها العمرانية.

ذلك مقتضى الآيات- عبارة وإشارة وسياقًا- من قوله تعالى، الجامع المانع في هذا المعنى العظيم، وهو النص القرآني الفريد الذي أوردناه من قبل، من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم يقول- رحمه الله: والمصطلح المفتاح لمنهج التعامل مع القرآن، في مدرسة «الفطرية»، هو مصطلح «التلقي»؛ لأن التربية القرآنية في مجالس القرآن لا تكون إلا بتلقي الرسالات الكامنة في الآيات، تلك الرسالات هي التي تتضمن حقائق الإيمان المقصودة بالتخلق والتحقق، في طريق الدعوة والسير إلى الله، صلاحًا وإصلاحًا.

فمن قرأ سورة الإخلاص ولم يتخلق بالإخلاص، ولا هو تحقق به، فمعناه أنه لم يتلق سورة الإخلاص، ولا هو ممن تلاها حقًا، ولو ظل يرددها آلاف المرات ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) الروم: ٢٩، ٣٠.

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١] وكذلك من قرأ المعوذتين ولم يتحقق بما فيهما من أمان، ولا نزلت عليه سكينتهما، فإنه لم يتلق شيئًا من السورتين، ومن قرأ سورة الفاتحة ولم يجد نفسه قد تخلق بالحمد، ثم اندرج بمدارج «إياك نعبد وإياك نستعين»؛ طلبًا لهداية الرضا والتثبيت، فإنه لم يتلق الفاتحة بعد[٢].

**أركان الفطرية**:

وهي مصطلحاتها المفتاحية يذكرها ثم يقوم بشرحها وبيانها وهي كالآتي:

١- الإخلاص مجاهدة.

٢- الآخرة غاية.

٣- القرآن مدرسة.

٤- الربانية برنامجًا.

٥- العلم طريقة.

٦- الحكمة صبغة.

**المسالك التربوية للفطرية**:

المسالك التربوية لتجديد بناء الفطرة، هي: مجموعة من المسالك التعبدية التي تقود العبد إلى الله، فَتُقَوِّم ما شَاهَ من أخلاقه وطباعه، وتصلح ما فسد من مزاجه وأفكاره؛ ليستقيم على خالص فطرته، وصفاء سريرته، عبدًا خالصًا لله، ثم ترتقي به عبر مدارج الربانية؛ إلى أن يتخلق بمقام الصديقية- إن شاء الله- ويتحقق به.

**المسلك الأول: الدخول في مجالس القرآن:**

وهي مجالس تربوية لتلقي آيات القرآن، والتخلق بأخلاقها وبحقائقها الإيمانية، والتحقق بها، تعلمًا وتعليمًا، وتدبرًا ومدارسة، وهي تقوم على وظائف

(١) البقرة: ١٢١.

(٢) وسيأتي البيان في كتاب «مجالس القرآن».

النبوة الثلاث، التي هي:

١- التلاوة بمنهج التلقي.

٢- التزكية بمنهج التدبر.

٣- تعليم الكتاب والحكمة بمنهج التدارس(١).

**المسلك الثاني: بلاغ رسالات الله بدعوة الناس إليه:**

وهذا واضح في قوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٢)، وقوله ﷺ: «**فَوَالله، لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم**»(٣).

**المسلك الثالث: رباط الفطرية**، بما تتضمنه من صلوات وأوراد معنوية للتغذية الفردية(٤).

---

(١) وسيأتي بيانها مفصلًا في محور مجالس القرآن.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد (٢/ ١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، وأبو داود (٣٦٦١).

(٤) فصَّل فيه المؤلف- رحمه الله- في كتابه «بلاغ الرسالة القرآنية» في ثلاث خطوات: اغتنام المجالسات، التزام الرباطات، وتبليغ الرسالات، وسيأتي تفصيله في بحثنا هذا.

## المسألة الخامسة:

### المعالم المنهجية للتجديد الفطري وقضايا العمران البشري:

يقول- رحمه الله: إن هدف المعركة الجديدة هي الوجود الديني للمجتمع الإسلامي ذاته، وساحتها هي الإنسان المسلم نفسه، ولهذا لا بد من بيان المعالم الرئيسية لبعثة التجديد والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

١- **التداول القرآني**: ويقصد بـ «التداولية» الاشتغال الشامل بالقرآن الكريم.. الاشتغال الذي يعمر الحياة، تلاوة، وتعلمًا، وتدارسًا، وتدبرًا، وتزكية، على مستوى فئات المجتمع وطبقاته، بما يؤسس تربية قرآنية تعبدية واجتماعية.

٢- **الإمامة العلمية**: يستشهد- رحمه الله- بقوله ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1].

وَوِراثةُ العلم هنا تقتضي إرث العلم بكل وظائفه الدعوية والتربوية، لا مجرد العلم الخالي من كل عمل ومن أي رسالة؛ فذلك علم مدَّعًى غير موروث، فالعلماء الورثة : هم أهل الرسالة وحملة البلاغ القرآني. ولذلك قال الإمام الشاطبي- رحمه الله- عن الصحابة- رضوان الله عليهم: «كانوا يبحثون عن أفعاله كما يبحثون عن أقواله، وهذا من أشدّ المواضع على العالم المنتصب»[2].

**٣- يسر الدعوة وبساطة المفاهيم:**

يقول- رحمه الله: تَوَاتَرَ في الدين مفهومُ (رفع الحرج) وما يتعلق به من قواعد كلية، فالنصوص القرآنية والحديثية مجمعة على هذا المعنى، بما يجعله كلية قطعية من كليات الدين؛ دعوة وتكليفًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الموافقات، للإمام الشاطبي (٤/ ٢٥٠).

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[1]. وقد قال ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري- رضي الله عنهما: «**يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا**»[2].

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من قال إن الله أمر العباد بـما يعجزون عنه -إذا أرادوه إرادة جازمة- فقد كذب على الله ورسوله، وهو من المفترين»[3]. ثم يذكر مجموعة من التشددات في فهم الدين وحمل الناس عليها مما يخرج بالبعثة المحمدية عن بساطتها وسهولتها، وكونها ميسرة تيسيرًا في الفهم والعمل.

**٤- التنظيم الفطري:**

يقول- رحمه الله: كان رسول الله ﷺ *مُنَظَّماً* في عمله كله، لا ارتجال فيـه ولا فوضى، ولا اضطراب ولا عبث، بل كل خطوة من خطواته ﷺ كانت بحسابها إذ «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[4]. ثم يقول: إن التنظيم الفطري هو النسق الديني الجميل الذي ينظم العبادات والمعاملات، فهو عمل ديني محض، غاية ووسيلة. ثم بعد ذلك يتعرض للتنظيم في إطار الهيكلية الحزبية والقيام بالرد على القائمين به بأسلوبه الأدبي، الذي قد يكون فيه شيء من الشدة.

وبعد ذكر المعالم السابقة أخذ- رحمه الله- في بيان أركان الدعوة الفطرية فقال: إن التنظيم الفطري عمل دعوي يجمع بين التلقائية وبين التوجيه، كما يجمع بين البساطة وبين العمق، وهو عمل تعبدي بذاته، ومسلك إيماني بطبيعته؛ ولذلك فهو يقوم على ركنين أساسيين، **الأول** منهما: بشري، وهم حُمَّالُ الدعوة من الفاعلين فيها والمتفاعلين معها. **والثاني**: معنوي، وهو الإطار الروحي التداولي للرسالات الدعوية، وبيان ذلك هو كما يلي:

**الركن الأول: البشري:**

مجموع الأئمة المنتصبين للبعثة الإسلامية، باصطلاح الشاطبي، كل منهم

---
(١) القمر: ٣٢.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٠).
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٩١)، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

محور للعالمين والمتعلمين، يقومون فيهم مقام النبي ﷺ، كما حدده القرآن، بلا ابتداع ولا تضليل، ولا ترسيخ لوساطات الأشياخ والأقطاب والأبدال، وإنما هم الربانيون ورَّاث النبوة، تتحدد علاقاتهم جميعًا في ذلك- علماء ومتعلمين- بقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١) فـ«التعليم والتزكية» هما مناط «القوة والأمانة»، اللذين يقوم عليهما بناء الأمة الإسلامية في بعثة التجديد، تمامًا كما قام في البعثة الأولى(٢).

فالعلماء الربانيون هم الركن الأول في كل بعثة حقيقية، قال ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ. حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِـمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(٣).

**الركن الثاني: المعنوي:**

مجالس القرآن، لتلقي رسالات القرآن وتلقينها، تلاوة وتزكية وتعلمًا وتعليمًا، وأن هذه هي الشكل والمضمون وهي الوسيلة والغاية، وهي مناط رسالات القرآن تلقيًا وأداءً.

ثم يتحدث عن التجديد الفطري وقضايا العمران البشري، ويقصد بذلك بناء الإنسان، بما هو عقيدة وثقافة، وبما هو حضارة وتاريخ، وبما هو فكر ووجدان، وبما هو نفس نسيج اجتماعي.

ثم يتحدث عن القضايا الرئيسية للعمران القرآني وهي على الإجمال:

**القضية الأولى: التوحيد:**

وذلك بالدعوة إلى عقيدة السلف الصالح، تعليمًا وتزكية، كما قررها

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) فصّل ذلك المؤلف في كتابه «بلاغ الرسالة القرآنية» ص ١٠١- ١٠٥.

(٣) سبق تخريجه.

القرآن، وكما كانت في الصدر الأول من الإسلام، عند الصحابة والتابعين، لكن ليس بالمنهج الجدلي الكلامي، الذي آلت إليه عند المتأخرين الجدليين، كلا.. فذلك هو أيضًا ابتداع في المنهج، وإنما بالمنهج القرآني التربوي، الذي يقوم على التعرف على الله والتعريف به؛ تربية وتزكية؛ لتحصيل الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة؛ عبادة لله الواحد القهار، وذلك من خلال استغلال المقاصد التعبدية والأهداف التربوية للأسماء الحسنى والصفات العلا، وليس بالجمود على استظهار الحدود والتعريفات لمفاهيم الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، على وِزان فصول المناطقة ورسومهم، وإنما باستثمار ذلك عقيدة تربوية، تملأ القلب علمًا وورعًا، وتنتج خلقًا قرآنيًا في النفس وفي المجتمع[1].

والبناء القرآني للتوحيد هو الكفيل بتكوين الشخصية المسلمة، الجامعة لصفتي (القوة والأمانة)، اللتين بهما يكون الإنسان المسلم فاعلًا في التاريخ أو لا يكون؛ إذ إن التوحيد- من حيث هو منهج السلف الأصيل- يخرّج من العامة أجيال الربانيين، ومن القادة الفقهاء العاملين. واجتماع العامة والخاصة على هذه (الثنائية التربوية) العظيمة هو خير ما يقوم عليه النسيج الإسلامي السليم.

**القضية الثانية: العبادة:**

وتحدث عن أهم صدرها وهي الصلاة، مستشهدًا بقوله ﷺ: **«أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ فَعَلَّمَنِي الْوُضُوءَ والصَّلاةَ»**[2].

**القضية الثالثة: المجتمع :**

وهنا يتحدث عن الأسرة بالمفهوم الإسلامي، وعن أهمية القيم فيها، والتي من أهمها- قيمة العِرْض، وقيمة الرَّحِم بالمعني الاصطلاحي الشرعي، وليس المعني الطبي.

(١) انظر التفصيل في كتاب بلاغ الرسالة القرآنية (٥٠- ٥٨).
(٢) سبق تخريجه.

**القضية الرابعة: علم الدين:**

ويؤكد أن العلم قبل العمل لقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١] قَدْ بَيَّن الطريق للعلم بأمرين: التأهيل والتأصيل. وهذا يستلزم ثلاثة أعمال منهجية:

١- بعث الثقافة الفقهية التراثية منهجًا وتداولًا.

٢- تجديد أصول الفقه بعمقه المقاصدي. وليس معنى ذلك عندي إلغاء العمل بالقياس، ومسالك التعليل، على ما يراه البعض[٢]، كلا فلا تزال المنهجية الأصولية في أغلب قواعدها صالحة للإعمال والاستعمال، في إنتاج التفكير الفقهي الجديد وضبطه، وإنما هي في حاجة إلى كشف رصيدها العلمي الضخم أولًا، ثم تطوير قواعدها الإجرائية؛ بما يضمن استيعاب قضايا الحديث، بشكل مناسب لمقاصد الشريعة ثانيًا. فهي إذن؛ في حاجة إلى (تكميل) أكثر مما هي في حاجة إلى (تغيير). هذه حقيقة يعرفها من خَبَرَ مناهج الاستنباط الفقهي في مصادرها الأصلية، وذلك على الأقل في هذه المرحلة من تاريخ الأمة العلمي.

**قلت:** هذا لمن كان يعرف طبيعة المادة الأصولية والمقاصدية حق المعرفة، من خبراء الميدان. فالدرس الأصولي غني جدًا بالتنوع المنهجي، وبالتعدد الإمكاني لمسالك البحث والاستنباط، بما يكفل تغطية أغلب الحاجات العلمية للأمة في العصر الحديث.

٣- القياس المعياري- ولا أقول (الضيق)- وضع لأسباب حضارية، وحاجات علمية، ما تزال قائمة إلى اليوم، ووضعت له منافذ للتوسعة، تبرز حيث تنتصب حاجتها علميًا، من مثل القواعد المآلية؛ كقواعد الاستحسان، وسد الذرائع وفتحها، وقاعدة مراعاة الخلاف، وقاعدة اطِّراد المصالح

---

(١) محمد: ١٩.

(٢) تجديد أصول الفقه، للدكتور حسن الترابي.

الكلية.. إلخ[1].

إن الحاجة اليوم هي في تجديد الضوابط الأصولية، والقواعد المقاصدية، فيما يتعلق بفقه الأولويات والموازنات، وكذا قواعد ترتب الحجاج والاستدلال، فأصول هذه العلوم تكاد تنعدم ، فالخبراء يستنبطون مفاهيمها لأنفسهم، ويبقى غيرهم من أهل العلم تائهين في فتنة تعارض الظواهر ومقتضيات الدلالات، فتدخل الأمة بذلك في فتنة ردود الأفعال، من مثل ما يحصل اليوم من افتراق مفتون، ينشق بين قوم لا يشتغلون بالسنة مكتفين فقط بالقرآن، وبين قوم آخرين لا يقبلون اجتهادًا في الدلالة، ولا مقاصد الشريعة؛ ولا نظرًا في تحقيق المناط بين عموم وخصوص، وقوم غيرهم تسيبوا في تفسير الخطاب الشرعي بما يخالف الأصول الكلية والثوابت الشرعية. كل ذلك ردود أفعال لا شعورية؛ بسبب غياب العدل في العلم، والقصد في المنهج[2].

(١) الموافقات (٤/ ١٩٤- ٢١٠).

(٢) انظر: المسألة الرابعة- معالم المنهجية للتجديد الفطري وقضايا العمران البشري في «الفطرية بعثة التجديد» ص١٤٩- ١٧٩.

## المسألة السادسة:

### برنامج الربانية من الكلمات إلى الرسالات [(١)]:

يُعرِّفُ الربانية- رحمه الله- بقوله: إنها مرتبة في مجاهدة النفس بالقرآن على الالتزام بحقائقه الإيجابية، والتخلق بحكمته الرحمانية، إخلاصًا لله. فلا يقوم شيء منها إلا لله وبه، ثم شهادة بذلك على الناس، تربية ودعوة، ثم صبرًا واحتسابًا. وحقائق هذا التعريف يتم دراستها من خلال العناصر الآتية:

١- الربانية التوحيد.

٢- الربانية الأمانة.

٣- الربانية دعوة إلى الخير، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.

وهذه الصفات جمعها ابن القيم- رحمه الله- في زاد المعاد[(٢)] بقوله: وجهاد النفس أربع مراتب:

أ- يجاهدها على تعلم الهدى.

ب- يجاهدها على العمل بالعلم.

جـ- يجاهدها على الدعوة للعلم وتعليمه من لا يعلمه.

د- يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله.

وزيادة في البيان قال المؤلف- رحمه الله: دبج شيخ المقاصد الإمام الشاطبي كلامًا نفيسًا في بيان رتبة الإمامة في التحقق بالمعاني الشرعية، وحكمها التربوية، لتخريج العالم الرباني، فقال- رحمه الله- في تعريفه: «إنه الذي يتحقق بالمعاني الشرعية منزلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصده التبحر في الاستبصار بطرف عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر، فلا هو يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على الآخر، ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزل ما

(١) كتاب الفطرية ص ١٨٩.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١٠).

تلخص له على ما يليق في أفعال المكلفين. ويسمى صاحب هذه الرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفِّي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم، وصار كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده. ومن خاصته أمران، أحدهما: أنه يجيب السائل على ما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص (...) والثاني: أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات»[1].

(١) الموافقات (٤/ ٢٣٢).



## المحور السادس

# مسألة المرأة في العمل الإسلامي

### المرجع:

كتاب (سِيماءُ المرأة في الإسلام بين النفس والصورة)

ط/ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مصر – الطبعة الثانية ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م

## مسألة المرأة في العمل الإسلامي

يقـول- رحمـه الله- عـن كتابـه الـذي بـيَّن فيـه منهجـه للمـرأة في العمـل الإسلامي:

لقد جعلت عنوان رسالتي (**سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والـصورة**). و(الـسيماء) مـا ترمـز إليـه المـرأة في الإسـلام؛ نفـسًا وصـورة. فأمـا (نفـسًا) فباعتبارها (أنثى الإنسان) من الناحية الوجوديـة، وأمـا (صـورةً) فباعتبارهـا هيئة خلقية، ذات تجليات مظهرية خاصة، وما حلاها الإسلام بـه مـن لبـاس، تتحقق إسلاميته بشروطه ومقاصده الشرعية.

ثم يقول- رحمه الله- موضحًا معنى السيماء: لا شيء من موجودات هذا الكون الفسيح إلا له دلالة سيمائية، ومعنًى رمزي لوجوده، وهو مسمى (حكمته) الخلقية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1] فما خلق الله شيئا، وما جعله، ولا شرعه؛ إلا لحكمة، هي مغزى وجوده، أو جعله، أو تشريعه. فخَلْقُ الأنثى على هيئتها كان بإرادته التكوينية، وسترْها كان بإرادته التشريعية. وكل ذلك من حكمة الخالق جل وعلا.

ولهذا هناك خطأ شـنيع مـن أولئـك الـذين يظنـون أن مـسألة اللبـاس في الإسلام مسألة شكلية! وأي شكل في الوجـود لا يعـبر عـن مـضمون؟ بـدءًا بأبسط الأشياء حتى أعقدها[2].

إن منطلق البحث السيمائي في اللباس الإسلامي، ونتيجتـه أيـضًا، كلاهمـا مرتبط بأصول العقيدة أساسًـا؛ سـواء تعلـق ذلـك بالرجـال أو بالنـساء عـلى

(١) الأنبياء: ١٦- ١٨.

(٢) سيماء المرأة بين النفس والصورة- دار السلام- ط ١١، ص١- ١١.

السواء، ولكن لكل منهما سيماؤه الخاصة. وغلط من يحصر ذلك في مجال التشريع فقط.

ومن هنا يتبين مدى الخطر الذي تؤدي إليه (حركة التعرِّي) من تدمير عقدي للإسلام. إن واقع الأمة اليوم في هذا المقتل الجوهري، على جانب من الخطر عظيم. فلقد رأينا أن قضية اللباس- بما ترمز إليه من دلالات سيمائية- هي حرب حضارية تشن على الإسلام؛ لتدمير مواقعه الوجدانية في بنية التدين الاجتماعي.

إن ظاهرة التعري الجسمي والنفسي، تلتهم نارها اليوم الأخضر واليابس في المجتمع، حتى إن ألسنة لهيبها امتدت إلى لباس الفتاة المحجبة ذاتها مسخًا وتحريفًا؛ لتشكله على وفق الموضات والصيحات الإعلامية المتفجرة من معابد الشيطان في كل مكان. إن دراسة (سيماء العري) ليست عملًا سطحيًا، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١). فالعري له دلالة خاصة في الإسلام، كما أن اللباس له دلالة خاصة. فكلاهما تعبير عن حضارة معينة؛ عقيدةً ومنهجَ حياةٍ.

يخطئ كثيرا أولئك السذج من المسلمين، الذين يظنون أن ظاهرة التعري هي نوع من التحولات الاجتماعية البسيطة، التي لا تمس جوهر الأمة بشيء من التغيير. إن سيماء التعري سيل من الحرب الحضارية، التي تشنها اليهودية العالمية والمسيحية الصهيونية على الإسلام لتعريته ثم تدميره(٢).

ثم يقول- رحمه الله: إن المسلمين المشاركين في صناعة (الفجور السياسي)، والمتعاونين مع سدنته الكبار، من الأمريكان والفرنكوفونيين واليهود؛ إنما هم خونة، ففي مثلهم قال الله- عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي

---

(١) الأعراف: ٢٦.

(٢) سيماء المرأة ص١٣- ١٥.

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

إن الأسرة المسلمة في القرآن العظيم جسم واحد لا يتجزأ، ولا يتبعض، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[2][3].

إن أول حقيقة قرآنية تعرض في سياق الآيات المتعلقة بالنساء، هي أن القصد التشريعي من رسم معالم صورة المرأة في القرآن والسنة؛ إنما هو لتكون فتاة أساسية لاستمرار التدين في المجتمع، تلك وظيفتها الاجتماعية الكبرى، ولذلك كانت الحضارات. ولكونها كذلك؛ جعلها الإسلام رمزًا سيمائيًا للعفة والكرامة، وموردًا تربويًا للأجيال.

إن الفتاة المؤمنة تدرك قيمة شرفها، ولا تبيعه رخيصًا في سوق النخاسة. إنها تصون نفسها، وتعتز بانتمائها الديني، وتميزها الحضاري.

**إن المرأة التي تحرص على إبراز مفاتنها؛ عبر منعطفات جسمها، وحركة لحمها، وتعصر غلائل ثوبها على بدنها؛ إمعانًا في استعراض مسالك عورتها وحجم وركها وتفاصيل أنوثتها، مقبلة ومدبرة، تشتهي سماع كلمة ساقطة من شاب ساقط، أو كما قالت العرب: (لا تَردُّ يَدَ لامِسٍ)- لهي امرأة غبية حقًّا! إنها تختزل إنسانيتها في صورة حيوان، بل أضل من ذلك. إنها أشبه ما تكون بتماثيل البلاستيك المهيأة لعرض الأزياء على زجاج المعارض التجارية في الشوارع الكبرى، إلا أنها- مع الأسف- تعرض لحمها وكرامتها للناس، لكل الناس. إنها تقع في مصيدة اليهود العالمية، مصيدة التعرّي، لتجريد حضارة الإسلام من مصدر قوتها: العفة والكرامة.**

(١) النور: ١٩.
(٢) النساء: ١.
(٣) سيماء المرأة، ص١٥، ١٦.

ثم يقول- رحمه الله: أيتها المسلمة... إثبات وجودك الإيجابي ألخصه لك في كلمة واحدة: (**أنت متحجبة؛ إذن أنت موجودة**).

العمر البشري محدود، وفرصته واحدة، ولا يمكنك أن تعيشي اللحظة الواحدة مرتين. فهي إما لك وإما عليك. ففكري بُنَيَّتي.. فكري قبل الغروب.

إن الذين يبصرون حقا يدركون أن العري والتعري لعبة يهودية، فهل تبصرين؟

بُنَيَّتي، إن الأمة تنهار.. فهلا شاركت في البناء؟ (1).

**الحجاب العاري:**

ثم بعد هذا وذاك نقول: إن الفتاة التي احتجبت حقًّا وصدقًا، لا تفتنها إغراءات الشيطان، وإغراءات الموضات المتدفقة بالفتن. فلا ترتد على أدبارها لتتحايل على حجابها، بالتشكيل والتجميل؛ مما يفقد اللباس الإسلامي مقصده الشرعي من التستر والتخفي، وحفظ الكرامة والحياء. إن المرأة المؤمنة بالله واليوم الآخر تعبد ربها بلباسها، ولا يقبل الله من العبادة إلا ما كان على شرطين. **الأول**: أن يكون خالصًا له تعالى. **والثاني**: أن يكون صوابًا، أي منضبطًا لحدود الله، كما وردت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، بلا تبديل ولا تحريف.

إن الفتاة المؤمنة لا تخرج بالثياب الناعمة المتموجة، التي تلتصق بالجسم، لتكشف عن فتنته عبر الخطوة والحركة. وإن الفتاة المؤمنة لا تملأ الساحات بالصخب والقهقهات، ولا تمازح الذكور بلا حياء، ولا تزاحم الفتاة المؤمنة لِتُخْضع لباسها الشرعي لموضات الألوان، مما تتفتَّق عنه عبقرية الشيطان، ولا تقتدي بمحجبات التلفزيون، المتزينات بكل ألوان الطيف، كما يقتضيه ذوق الإخراج والماكياج، ونصائح مهندس الديكور، ومدير التصوير. ذلك

(١) سيماء المرأة، ص ١٧- ٢١.

(حجاب) ولكن على مقاييس التلفزيون، وشهوة الميكروفون! إنه إذن الحجاب العاري.

إن الفتاة المؤمنة لا يريد لها الإسلام أن يكون منظرها بشعًا، ولا منفرًا، بل يجب أن يكون محترمًا، يوحي بالجدّ، ويفرض على الناظرين الإجلال لها، والتقدير والتوقير. وإنما يحرم عليها أن يكون لباسها إغواء، أو إغراء. وذلك حقًا هو دور الشيطان(١).

السيماء لفظ قرآني ورد في كتاب الله، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾(٢) والإنسان من حيث هو كائن وجودي له سيماؤه الخاصة. وداخل هذا المفهوم (للإنسان) نجد المرأة كالرجل، لها نفس وصورة، ولكل منهما سيماء خاصة. وللإسلام تصوير متميز لسيماء النفس، ولسيماء الصورة. ويرجع لفظ السيماء في اللغة العربية إلى معنى العلامة، أو الرمز، الموضوع للتخاطب قصدًا. يقول ابن فارس: وسمي موسم الحج موسمًا؛ لأنه معلم يجتمع إليه الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(٣).

و(النفس) هي أساس الخلق البشري، كما هو نص القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٤) (النفس الواحدة) إذن هي أساس الخلق، التي منها خلق الإنسان، كل إنسان ذكر وأنثى. إن مرجع آدم إلى (النفس الواحدة) مساوٍ لمرجع زوجه حواء؛ فهما في ذلك سواء. فالنفس مرجع كل منهما، وكل من كان من ذريتهما إلى يوم القيامة. وقصة خلق حواء من ضلع آدم- كما هو مدلول الحديث النبوي الصحيح- دالَّة- في نهاية المطاف- على

(١) سيماء المرأة، ص٢١، ٢٢، ٢٥.
(٢) الفتح: ٢٦.
(٣) الحجر: ٧٥.
(٤) النساء: ١.

الوحدة المصدرية نفسًا وبدنًا. فهما في ذلك سواء. وتدبر الآية مرة أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾(١).

إنها (نفس واحدة) على حد تعبير القرآن كما رأيت: من ﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾. وفي هذا من التساوي الوجودي ما فيه. وأما التأنيث في صيغتها فإنما هو على عادة الاستعمال اللغوي العربي، ليس إلا. على نحو ما تقصده العرب في صيغتها الصرفية، التي قد تؤنث وتذكر؛ لغير أنوثة جنسية ولا ذكورة. كما في تأنيثهم الشمس وتذكيرهم القمر.

والقرآن نزل بلغة العرب، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٢)، وتدبر قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾(٣).

النفس إذن؛ هي جوهر كينونة الإنسان، ذكرًا كان أم أنثى. ومن هنا سوَّى الله بين الجنسين في عموم التكليف، إلا ما استثناه الدليل لخصوص المحل. أما الأصل التكليفي فهو قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾(٤). فهذه الآية نص في تساوي التكليف الإلهي للإنسان، من حيث المبدأ الكلي، بغض النظر عن الفروق الجنسية العارضة من ذكورة وأنوثة. وإنما الصفة التي ينظر إليه بها ههنا هي كونه عاملًا أم لا؟.

**فالإنسان له صورتان:** الأولى نفسانية، والثانية جسمانية. ولكل صورة سيماء،

(١) النساء: ١.
(٢) الأعراف: ١٨٩.
(٣) الزمر: ٦.
(٤) آل عمران: ١٩٥.

أي علامات ومواصفات، منها تتشكل ما نُسَمِّيهِ بـ(الشخصية). تمامًا كما تتميز كل صورة جسمانية بعلامات فارقة، هي سيماء ذلك الشخص المميزة له.

ومن النصوص العجيبة الدالة على ذلك أيضًا قوله- عليه الصلاة والسلام- في الحديث الصحيح: «**كُنْتُ نبيًا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجسَدِ**»(١)، وقوله ﷺ: «**إنَّ النفْسَ المخْلُوقَةَ لَكَائِنَةٌ، فَلا آمُرُ ولا أَنْهَى**»(٢).

وقد نجم عن النصوص إشكال بين علماء الإسلام فيم خلق أولا: النفس أم البدن؟ وذلك نظرًا لما دلت عليه ظواهرها من مخاطبة الأنفس في استقلال عن الأبدان، ومن إبصار بعضها لبعض في عالم الأرواح. وهذا خلاف نقله الإمام الرباني ابن القيم الجوزية- رحمه الله تعالى. قال في «شفاء العليل»: «وكذلك في خلق الأرواح قبل الأجساد قولان معروفان»، وكان شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية- رحمه الله تعالى- من أبرز القائلين بسبق الجسم على النفس. بينما كان قبله الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي من القائلين بسبق النفس على البدن؛ انسجامًا مع ظاهريته. وذلك ما نقله ابن القيم مفصلًا في كتاب الروح قال: «وقالت طائفة أخرى منهم ابن حزم: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها».

وذهب ابن القيم إلى ما ذهب إليه أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال في كتابه القيم «أحكام أهل الذمة»: «والذين قالوا إن الأرواح خلقت قبل الأجساد ليس معهم نص من كتاب الله ولا سنة رسوله. وغاية ما معهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾(٣). وقد علم أنها لا تدل على ذلك. وأما الأحاديث التي فيها أنه أخرجهم مثل الذَّرِّ؛ فهذا هل هو أشباحهم أو أمثالهم؟ فيه قولان. وليس فيها صريح بأنها أرواحهم. وعلى هذا المذهب

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٦٦)، وصححه الشيخ شاكر.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨/ ١٣٣).
(٣) الأعراف: ١٧٢.

أيضًا الإمام ابن كثير- رحمه الله تعالى- في تفسير آية الأعراف المذكورة قبل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(١).

إلا أن الشيخ الألباني- رحمه الله- نقض ذلك بقوة، وذلك عند تخريج حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «**أَخَذَ الله الميثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ- يَعْنِي عَرَفَةَ- فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلاً قَالَ:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(٢)(٣).

فبناء على ظاهر هذا الحديث انتصر الشيخ الألباني- رحمه الله- لمذهب القول بخلق الأرواح قبل الأجساد انتصارًا قويًا، ونقل قول إسحاق بن راهويه: «وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم» ثم قال الألباني في سياق الرد على ابن القيم: «وقد أفاض جدًا في تفسير الآية وتأويلها تأويلًا ينافي ظاهرها، بل ويعطل دلالتها أشبه ما يكون بصنيع المعطلة لآيات وأحاديث الصفات حين تأويلها، وهذا خلاف مذهب ابن القيم- رحمه الله- الذي تعلمناه منه وشيخه ابن تيمية. فلا أدري لماذا خرج عنه هنا». ثم ذكر طريقة المعتزلة في تأويل الآيات، فعقب على ذلك بقوله: «وقد عزَّ عليَّ كثيرًا أن يتبعهم في ذلك مثل ابن القيم وابن كثير، خلافًا للمعهود منهم من الرد على المبتدعة ما هو دون ذلك من التأويل، والعصمة لله وحده»(٤).

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) الأعراف: ١٧٣.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢).

(٤) سيماء المرأة، ص ٤٥-٥٠.

والمتحصل من ذلك كله، والذي عليه العمل في ورقتنا هذه: أنه لا خلاف بين المذهبين في أن النفس أو الروح مخلوقة محدثة، سواء كان ذلك قبل البدن أو بعده أو معه.

وأنه لا يقول بقدمها إلا أصحاب المقالات الإلحادية. كما أنها جوهر كينونة الإنسان، وأنها مفارقة للبدن، وأنها محل الوعي الإنساني. فالوجود البرزخي إذن؛ إنما هو وجود نفساني؛ لأن الجسم يأكله التراب، لكنه وجود عاقل واع. قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثًا. ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**». فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يَسْمَعُون وَأَنَّى يُجِيبُون وَقَدْ جَيَّفُوا؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لما أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا**». ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ** - قال: وفي رواية البخاري: بلى إنه كبير- **أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»[3].

وهنا قد خاطب الخالق- جل وعلا- الإنسان باعتباره (نفسًا) على سبيل الاشتراك، أي بلا تمييز جنسي في الأصل؛ سواء كان الخطاب متعلقًا بالتكليف قال تعالى مثلًا: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

(١) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٨)، ومسلم (٢٩٢).

رَّحِيمٌ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2]، وقال أيضًا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3]، وقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5].

فهذه النصوص الكثيرة كلها دالة على أن النفس الإنسانية جوهر، وأنها هي محل الخطاب الإلهي. ومن هنا فالنفس هذه هي التي عُنِيَ الإسلام بتزيينها وتجميلها. ولذلك فرض الستر على المرأة؛ حتى لا تطغى سيماء الصورة على سيماء النفس، التي هي السيماء الحقيقية، والتي هي أساس التميز في الإسلام[6].

فالسيماء الجسمانية لدى المرأة ذات خصوص جمالي يؤدي وظيفة تناسلية بالقصد الأول ووظيفة شهوانية بالقصد الثاني. فالقصد الأول قصد أصيل، فهو يخدم إحدى الضروريات الخمس في مقاصد الشريعة، على ما بينه علماء المقاصد، ألا وهي (ضرورة النسل)[7]. فزُينت الأنثى خلقًا وتكوينًا؛ حتى ينجذب الرجل إليها؛ فيكون ضمان استمرار النسل، كما مر في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[8]. وكما مر أيضًا من سورة الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ

(١) يوسف: ٥٣.
(٢) الفجر: ٢٧- ٣٠.
(٣) البقرة: ٤٨.
(٤) البقرة: ٢٣٣.
(٥) البقرة: ٢٨١.
(٦) سيماء المرأة، ص٥٣- ٥٥.
(٧) الموافقات (٢/ ٩- ١٧).
(٨) النساء: ١.

ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١) ذلك هو الأصل الوجودي لجمال المرأة، والقصد الأصلي منه. نعم له قصد تبعي أو تابع وهو التزين الشهواني المباح. وهو الوارد في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(٢).

فهذا التزين طبيعي، أي: بمعنى فطري. فالرجل مجبول على الانجذاب إلى الجمال الأنثوي، لكن لخدمة القصد الأصيل من النسل، وليس مقصودًا لذاته؛ ولذلك جعل الله عقب الآية ما يلي: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(٣) ومشكلة الإنسان اليوم أنه قلب الموازين، فجعل المقصود التبعي أصليًا، والأصلي تبعيًا؛ فانقلبت بذلك حقائق الحياة عنده، من الإنسانية الراقية إلى البهيمية الساقطة، ومن المتعة الروحية إلى اللذة الشهوانية.

ولذلك كان اللباس الإسلامي، بالنسبة للرجال والنساء معًا، قائمًا على خدمة هذه المقاصد الكلية العظيمة في الدين، وعلى احترام الوجود الإنساني، وعدم الإسفاف به، أو السقوط به إلى دَرَكات العيش الحيواني الصرف. فستر الصورة الجسمانية للأنثى- لما لها من خصوص تكويني- ما كان ليخدم قصده الأصلي ولا يتعداه إلى غيره إلا تبعًا، في حدود جمالية المباح(٤).

ومن هنا خاطب المولى- جل جلاله- المرأة في القرآن باعتبارها (عاملًا)، على سبيل التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة في المسؤولية الوجودية من حمل الأمانة الكبرى، كما مر في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ

(١) الأعراف: ١٨٩.
(٢) آل عمران: ١٤.
(٣) آل عمران: ١٥.
(٤) سيماء المرأة، ص٥٥، ٥٦.

مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾[١].

وأما ما خالفت المرأة فيه الرجلَ من أحكام؛ فذلك راجع إلى الطبيعة التكاملية بين الذكورة والأنوثة، وليس إلى تنقيص خلقي تكويني في طبيعتها. فقد ينقص الرجل في شيء لتكمله المرأة، وقد تنقص المرأة في شيء ليكمله الرجل؛ سعيًا لتكوين الحاجة الفطرية الطبيعية بينهما، ورغبة في دوام الالتقاء وضمان استمرار الحياة. وعلى هذا الوزان يُفهم قول النبي ﷺ للنساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»[٢]. فليس المراد قطعًا الاستهانة بجنس الأنثى، كلا! فحاشا لرسول الله ﷺ أن يصدر منه شيء من ذلك، والأنثى خلق الله السوي، وصنعه المتقن. وإنما المقصود هو النقص التكاملي، وهو هنا في خصوص هذا الحديث نقص يقابله فيض عاطفي نبيل نقص فيه الرجل، وكذا تفرغ بيولوجي لحمل سر الخلق الإلهي العظيم، وضمان استمرار الحياة. فكانت لها بذلك إجازات في الحيض وفي النفاس؛ لتأدية ذلك الدور الأمومي الذي فاقت به زوجها أضعافًا ثلاثة، كما هو واضح في حق الآباء على الأبناء.. فتأمل[٣].

وبعد هذه المقدمة يذكر المؤلف- رحمه الله- مجموعة مسائل:

---

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩/ ١٣٢).

(٣) سيماء المرأة، ص ٥٨، ٥٩.

**المسألة الأولى:**

**أركان السيماء التربوية للمرأة:**

تقوم السيماء التربوية للمرأة في الإسلام على ثلاثة أركان، ذات أبعاد جمالية خاصة، هي من لطائف الأنثى خلقة، ومن أسرارها العميقة. وهي كما يلي:

**الركن الأول: جمالية الأنوثة:**

الأنوثة هي سر الجاذبية الخلقية في المرأة، ومن هنا وجدنا الإسلام ينهى بشدة عن (ترجل المرأة) أي تشبهها بالرجل؛ لما فيه من فقدان الهوية الفطرية، للتكاملية الإنسانية، ثم لما فيه من إخلال بالتوازن الجنسي والجمالي في الخلق. فالأنوثة حقيقة وجودية ضرورية لاستمرار النسل من ناحية، وضرورة وجودية للشعور بمعنى الحياة لدى الجنسين، بما يكون من إنتاج للوظيفة البشرية في بناء الأسرة.

وقد وردت أحاديث عن الرسول الأكرم ﷺ في هذا الخصوص من مثل قوله: «**ثَلاَثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، وَلا يَنْظُرُ الله إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لوَالِدَيْهِ، وَالمرْأَةُ المتَرَجِّلَةُ- المتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ- وَالدَّيُّوثُ**»(١)، ومثله قوله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا: الدَّيُّوثُ مِنَ الرِّجَالِ، وَالرَّجُلَةُ مِنَ النِّسَاءِ، وَمُدْمِنُ الخمْرِ**»(٢)، وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَةَ مِنَ النِّسَاءِ»(٣).

والترجل في المرأة قد يكون شكليًا كما في اللباس، أو طريقة الكلام، أو المشي، أو نحو ذلك من الشكليات الظاهرة، وقد يكون بدنيًا بتغيير خَلق الله في نفسها، بالجراحات الطبية المحرمة التي تؤثر على طبيعتها الأنثوية ووظيفتها الوجودية. وكل ذلك حرام بنص الأحاديث ومقاصد الشريعة.

ومن هنا حرم الإسلام حتى مجرد التشبه بالرجل بلغة الترجل، كما حرم على

(١) أخرجه النسائي (٢٥٦٢)، وأحمد (٢/ ٦٩)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٢٦١) وصححه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٩)، وصححه الألباني.

الرجل التشبه بالنساء على سواء، وذلك كما في قوله- عليه الصلاة والسلام: «**لَعَنَ اللهُ المتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ، وَالمتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ**»[١].

وفي خصوص التشبه في اللباس: **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَعَنَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لُبْسَةَ المرْأَةِ، وَالمرْأَةَ تَلْبَسُ لُبْسَةَ الرَّجُلِ**[٢].

فالأنوثة إذن؛ مقصد إسلامي وجودي وتشريعي، وكل خرم له هو خرم لحقيقة التدين ولحقيقة الحياة[٣].

**الركن الثاني: جمالية الحياء والتخفي:**

الحياء ضد الفحش والتفحش، وضد البذاء. وجمالية الحياء هي من المقتضيات الفطرية للأنوثة. إن الحياء كالزئبق، بمجرد ما ترفع عنه الغطاء يطير في الهواء ويتلاشى. ومن هنا كانت الوردة الأجمل هي تلك المحصنة بين خضرة الأوراق وتيجان الأشواك.

والحياء عمومًا مبدأ إسلامي كليّ عام في كل شيء، سواء كان في الأقوال، أو في الأفعال، أو في الألبسة، أو في التصرفات وسائر الحركات. وهو معنى قول النبي ﷺ الجامع المانع: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا شَانَهُ، وَلا كَانَ الحيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا زَانَهُ**»[٤]، كما أنه كان عامًا في كل إنسان، من حيث هو مسلم يحمل عقيدة معينة، وانتماء حضاريًا متميزًا. ولذلك قرنه النبي ﷺ بالإيمان في قوله: «**إِنَّ الحيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ**»[٥]، ومثله قوله ﷺ: «**الحيَاءُ مِنَ الإيمَانِ، وَالإيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الجفَاءِ، وَالجفَاءُ فِي النَّارِ**»[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٣١).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٢٥)، وصححه الألباني.
(٣) سيماء المرأة، ص ٦١- ٦٣.
(٤) أخرجه الترمذي (١٩٧٤)، وأحمد (٣/ ١٦٥)، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣١٣)، وصححه الألباني.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٠٩)، وابن ماجه (٤١٨٤)، وأحمد (٢/ ٥٠١)، وصححه الألباني.

ثم جعله بعد ذلك سلوكًا يوميًا، وتعبدًا عمليًا، وربطه بالله- جل وعلا- معرفة بجلال وجهه، وعظمة سلطانه، وجمال إنعامه، فقال ﷺ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ- عَزَّ وَجَلَّ- حَقَّ الحيَاءِ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا نَسْتَحِي وَالحمْدُ لله، قَالَ: «**لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ الله حَقَّ الحيَاءِ، فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى، وَلْيَحْفَظِ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ، تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله- عَزَّ وَجَلَّ- حَقَّ الحيَاءِ**»(١) ذلك ما يتعلق بالحياء مطلقًا في الإسلام(٢).

إلا أن المرأة في الشريعة الإسلامية اختصت منه بلطائف ومعانٍ، ليست على الرجل، ضبطًا وتشريعًا. فكثيرة هي الأعمال التي أنيطت بالمرأة دون الرجل؛ رعيًا لمقصد الحياء. فكل ما أوجب عليها التستر الجسمي أو الحركي أو الصوتي؛ فهو راجع إلى هذا المعنى.

فأما التستر الجسمي فهو ما فرض الله عليها من اللباس الإسلامي، في محكم القرآن العظيم، من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾(٣).

وأما التستر الحركي فهو ما فرضه الله عليها من الاتزان في المشي وفي الصلاة، وما حرمه عليها من التغَنُّج في الشوارع والأماكن التي يغشاها الرجال. قال تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾(٤). ومنعها من إمامة الرجال في الصلاة؛ لما فيه من كشف لحركة جسمها ومفاتنه عند الركوع والسجود، ونحو ذلك في الشريعة كثير.

وأما التستر الصوتي فهو متعلق بتلحين أنغامها الصوتية خاصة كمنعها من

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، وضعفه الشيخ شاكر.
(٢) سيماء المرأة، ص٦٣-٦٥.
(٣) الأحزاب: ٥٩.
(٤) النور: ٣١.

الأذان، وتجويد القرآن بمحضر الرجال الأجانب عنها. ومن باب أولى وأحرى من الغناء للرجال، وتلحين الصوت عند الكلام العام؛ ويجمع هذه المعاني قول الله تعالى الصريح: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[(١)].

**الركن الثالث: جمالية الأمومة:**

إن المفاهيم الأسرية لها دلالة متفرعة عن مفهوم (الرحم) بمعناه الإسلامي. و(الرحم) مصطلح قرآني أصيل، مشتق من (الرحمة)، يدل على معنى ديني مقدس في الإسلام. وهو الرابطة التعبدية التي تربط الناس فيما بينهم بعلاقات تناسلية مبنية على مبادئ الشريعة، فلا يدخلها من الفروع والأصول إلا ما كان من نتاج عقد شرعي كامل. وبهذا قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِي اسْمًا، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ**»[(٢)]، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**»[(٣)]. فتجاوز مفهوم (الرحم) أن يكون مجرد غشاء من اللحم في بطن المرأة لحمل الجنين، بل تعدى هذا المفهوم للدلالة على العلاقة التعبدية بين أفراد الأسرة من الأصول والفروع عموديًا وأفقيًا[(٤)].

(١) الأحزاب: ٣٢.
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٠٧)، وأحمد (١/ ١٩٤)، وقال الشيخ شاكر: صحيح لغيره.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٥).
(٤) سيماء المرأة ص ٦٥- ٧١.

## المسألة الثانـية:

### سيماء الصورة ـ الجسم ـ في التدافع الحضاري :

يخطئ الذين يظنون أن الصورة- بما تحمله من ألبسة وعلامات- محايـدة لا انتماء لها. بل هي رمز خطير من أهم رموز الانـتماء الحـضاري. إنهـا تعـبر عـن تصورٍ ما للحياة والوجود والمصير بصورة واعية، أو غير واعية.

إن العُري في الغرب اليوم، عري الرجل والمرأة كلـيهما، صـورة تعـبر عـن فلسفة حضارية. فأوربا وسيلتاها: أمريكـا وأسـتراليا، تختـزن مـضمونًا وثنيًـا قديمًا، يرجع إلى العهد اليوناني القديم. فعندما انهزمـت المـسيحية يـوم تبناهـا قسطنطين إمبراطور روما، انتقلت من الشرق مهدها الأول إلى الغرب؛ وهناك لم يستطع الغرب أن يتخلص من فكره الوثني القديم. فبـدلاً مـن أن تتمـسَّح أوربا تَوَثَّنَت المسيحية. قال ابن كثير- رحمه الله: «ثم نبغ لهم ملـك مـن ملـوك اليونان يقال له (قسطنطين)، فدخل في دين النصرانية، إلا أنـه بـدَّل لهـم ديـن المسيح وحرفه، زاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى الشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار ديـن المـسيح دين قسطنطين».

إن الفنان اليوناني القديم الذي لا يجد حرجًـا في رسـم أو نحـت الـصورة عارية تمامًا، مع العناية الشديدة في نقش الأعضاء التناسلية للرجل والمـرأة، في التماثيل والصور؛ إنما يستجيب لطبيعة الفلسفة الإغريقية القديمة. فكل ذلـك له دلالة التفسير المادي للحياة، والتصوير الغرائزي للإنسان، وهو حِسٌّ وثني غليظ، بمقتضاه عَبَدَ الإنسان الشهوات السلطانية والمالية والجنسية، سـواء في عهد الفراعنة في مصر، أو في عهد اليونان القـديم، حيـث الآلهـة هـي مرجـع التفكير والاعتقاد الفلسفي والاجتماعي لـدى الإنـسان. ولـذلك كـان العهـر

جزءًا من فلسفة اليونان، وجزءًا من قيمهم الدينية.

إن حركة العري الجنسية في الغرب اليوم ما هي إلا امتداد طبيعي للانتماء الحضاري اليوناني القديم. فهي تحمل في طياتها تقديس الشهوات، وعبادة الملذات. وبذلك صار للجسم الصورة سلطة كبرى في بناء التصورات وصناعة القرارات، في السياسة والتجارة والإعلام. وتلك هي الوثنية في صورتها الجديدة[1].

(١) سيماء المرأة، ص٨١.

## المسألة الثالثة:

### سيماء الصورة في الإعلام التجاري:

وبهذه الخلفية الحضارية وظفت صورة المرأة، كاسية أو عارية، في الثقافة الإعلامية الغربية، فكانت بذلك رمزًا لترويج السلع والبضائع والمنتوجات المختلفة، من خلال أبعاد صورتها الجسمانية، وما يتداعى عنها من غرائز جنسية، تستدعيها في نفسية المشاهد والمتلقي؛ بعد ذلك أحد المستهلكين للبضاعة، التي مرت إلى عقله عبر قناة الجسد، جسد المرأة المشتَهَى.

ومن ثم كان العهد الذي أخذه الله على الإنسان، بعدم عبادة الشيطان؛ يعود بنا إلى قصة العري والعصيان الآدمي، قال الله- جل جلاله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(١)].

فكان الالتزام باللباس نوعًا من الوفاء العقدي لعهد الله وعدم الإشراك به، كما كان التعري نوعًا من الشرك والوثنية؛ لما فيه من إبراز وتقديس للجسمانية على حساب الروحانية؛ من هنا كانت أحكام اللباس في الإسلام متأصلة في عقيدة التوحيد[(٢)].

---

(١) يس: ٦٠- ٦١.

(٢) سيماء المرأة، ص ٧٧-٨٠.

## المسألة الرابعة:

### صورة الحجاب الشرعي:

لقد تبين أن صورة لباس المرأة تعود إلى عبارتين محوريتين، من آيتين: الأولى عبارة (إدناء الجلباب) من قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾[١]، والثانية: (ضرب الخمار على الجيوب)، من قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[٢] فيؤخذ من ذلك كله؛ عبارة وأصالة؛ أن أقل ما يجزئ المرأة من اللباس هو: ثوب وافٍ ضافٍ، ساتر فضفاض، لا يصفّ ولا يشفّ، يستوعب جميع البدن في ثوب واحد. وهو معنى الجلباب كما تبين. فلا يجزئ عنه أشكال الموضة المستوردة من البنطلونات، والبذلات القصيرة، أو ذات الأجزاء؛ لأنها لا تفي بكمال الستر. ثم خمار الرأس، لكن بشرط أن يكون وافيًا؛ حتى تتمكن صاحبته من الضرب به على الجيوب. والجيوب هنا: هي ثنايا العنق من النحر، والقفا، والكتفين. وهو مقتضى عبارة الأمر الرباني العظيم: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كما بيناه. ولها أن تدني الخمار على الجبين بدل إدناء الجلباب، إذا كان الجلباب مما لا يلبس على الرأس، فهنا لا بد من إدناء الخمار ضرورة؛ حتى يستوعب مقدمة الجبين، ثم ترخيه على كتفيها وصدرها ونحرها، ثم تشده على ما هنالك؛ لتمتثل الضرب على الجيوب. ومعنى قوله: (ولا تضرب به) أي لا تغطي به وجهها؛ لأن الضرب بالثوب على الشيء تغطيته به. وإنما المطلوب هو (الإدناء) بنص القرآن. والإدناء: تقريب الثوب من الوجه، أي إرخاؤه على الجبين، وشده على حدود الحاجبين، كما صحت بذلك النصوص[٣].

ثم استطرد- رحمه الله- في موضوع تغطية الوجه، وأخذ بقوله العلامة محمد ناصر الدين الألباني (وما خالفه إما شاذ أو ضعيف) أي ما خالف قول

---

(١) الأحزاب: ٥٩.

(٢) النور: ٣١.

(٣) سيماء المرأة، ص١٠٦-١٠٩.

ابن عباس هذا. وهو يقصد ما روي عن ابن عباس نفسه؛ من أن المرأة تغطي وجهها ولا تبدي إلا عينًا واحدة، وسنده ضعيف. وهذا كله يقوي الرواية التي رويت عن ابن عباس في تفسير الإدناء أيضًا، والتي صرح الألباني بتصحيحها، وهي قوله السابق: (وإدناء الجلباب: أن تقنع وتشده على جبينها). وذلك كله يترك للوجه فرصة الظهور من الحاجب إلى الذقن.

وأما قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(١) فجمهور المفسرين على أن المستثنى- وهو (ما ظهر منها)- يقصد به الوجه والكفان. وهو معنى متواتر من عمل النساء الصحابيات في زمن النبي ﷺ لأسماء بنت أبي بكر الصديق: «**يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلا هَذَا وَهَذَا**» وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ(٢).

وأما الصحابة الذين فسروا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بأنه الوجه والكفان فهم: عبدالله بن عباس. وقد خرج الألباني الرواية عنه على سبعة طرق، بعضها صحيح الإسناد، وبعضها يتقوى بالصحيح. وكذلك عائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، والمسور بن مخرمة.

ومن هنا فليس غريبًا أن تجد شبه إجماع بين فقهاء الأمصار، على أن الوجه والكفين ليسا بعورة. وذلك هو مذهب الإمام أبي حنيفة، ومذهب الإمام مالك بن أنس، ومذهب الإمام الشافعي، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل. ورغم أن هناك روايات أخرى عند أحمد بوجوب تغطية الوجه؛ إلا أن بعض علماء الحنابلة قالوا: بل كشفه هو الصحيح من المذهب. وهو قول الإمام علاء الدين المرداوي الحنبلي قال: «الصحيح من المذهب أن الوجه ليس بعورة» وهو اختيار ابن قدامة المقدسي الحنبلي، قال: «لو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما (يعنى على المحرمة بالحج أو بالعمرة) ولأن الحاجة تدعو إلى كشف

(١) النور: ٣١.
(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٤)، وصححه الألباني.

الوجه للبيع والشراء، والكفين للأخذ والعطاء. وقال ابن تيمية الجد- وهو حنبلي- في كتاب المنتقى: (باب أن المرأة عورة إلا الوجه والكفين).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[(١)] فالخمار في اللغة: ما تغطي به المرأة رأسها دون الوجه. وإنما غطاء الوجه هو النقاب. ولذلك قال ﷺ: «**لا تَنْتَقِبِ المرْأَةُ المحْرِمَةُ، وَلا تَلْبَسِ الْقُفَّازَيْنِ**»[(٢)].

وقد شاع عند بعضهم فهم الخمار بمعنى النقاب، وهو خطأ. وإنما الخمار ما تخمر به المرأة رأسها فقط. كما أجمع عليه أهل اللغة. قال الراغب الأصفهاني في المفردات: «أصل الخَمْر: ستر الشيء، ويقال لما يستر به: خمار؛ لكن الخمار صار في التعارف اسما لما تغطي به المرأة رأسها، وجمعه خمر، قال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ واختمرت المرأة وتخمرت، وخمرت الإناء: غطته»[(٣)].

**ثم يقول- رحمه الله:**

لا بد هاهنا من البيان؛ من أنني بهذا لا أدعو إلى سفور الوجه، كلا! فليس لي أن أدعو إلى نبذ فضيلة شرعها الله تعالى لنساء المؤمنين. **فالنقاب مشروع، ولكنه ليس بواجب**. وقد صح فعله عن الصحابيات بأدلة ثابتة منها: ما أخرجه البخاري من قول الرسول ﷺ: «**لا تَنْتَقِبِ المرْأَةُ المحْرِمَةُ، وَلا تَلْبَسِ الْقُفَّازَيْنِ**». وفيه دليل على أن المؤمنات يلبسن النقاب في غير الإحرام. وإنما النقاب: غطاء الوجه.

ومنها ما صح عن أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- أنها قالت: «**كُنَّا نُغَطِّيَ وُجُوهَنَا مِنَ الرِّجَالِ، وَكُنَّا نَتَمَشَّطُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الإِحْرَامِ**»[(٤)]. فإسدال النقاب على الوجه فضيلة، لا ينكرها إلا جاحد، أو غال.

---

(١) النور: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٨)، وأبو داود (١٨٢٨)، والترمذي (٨٣٨).

(٣) سيماء المرأة، ص١٠٩-١١٢.

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٦٢٤) وصححه.

فإذا علمنا مما سبق أن التخفي مقصد من مقاصد التشريع، في أحكام اللباس في الإسلام؛ علمنا أن النقاب- وهو أحوط للتخفي- زيادة في الخير، ومنزلة في الفضل، تتقرب به الصالحات إلى الله تعالى. ولكنه مع ذلك ليس فريضة(١).

ثم إنه لا بد من البيان أيضًا أن التفنن في تنميق الحجاب، وتشكيله على حسب تجدد الموضات، واتباع آخر الصيحات و(التقليعات)، في الألوان والهيئات، لهو ابتداع في الدين، يخرج بلباس المسلمة الملتزمة حقًا عن مقتضى قصد الشارع الحكيم، من الستر المفروض على المرأة؛ إذ يفقد بذلك صفته الشرعية. علما بأن إظهار الزينة على الحجاب الشرعي أصلًا؛ يخرج به عن حد الشرع. ونص القرآن في ذلك واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، لمن كانت تفقه شيئا من مدارك النصوص الشرعية، وتدرك شيئا من مقاصد الشريعة، ومراتب الدلالات الأصولية. قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾(٢) ذلك ما يسمى بقياس الأولى في علم الأصول.

وتحقيق مناطه هنا؛ هو أنه إذا كان النص الصريح قد حرم عليها الضرب بالأرجل في الأرض، وخبط القدمين على الطريق؛ حتى لا تُسْمِع الرجال ما خفي من زينة الحلي المعلقة على بدنها، وما يحدث عن ذلك من رنين يثير خيال الرجال؛ فيستحضرون صورتها الداخلية بمجرد الخيال، فكيف- بالله عليك- لو أنها عرضت ذلك عليهم عرضًا فوق ألبستها لا تحتها، بما لا تحتاج معه إلى الضرب برجليها، بل تظهره ألوانًا وأشكالًا، وجواهر وحليًا فوق حجابها المزعوم؛ حتى يشاهدوا بأعينهم عيانًا، لا توهمًا ولا خيالًا؟

إن إظهار المتحجبات- زعماً- لزينتهن؛ إنما هو أمر أشبه ما يكون بالابن العاق، الذي سمع قول الله تعالى في حق الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا

(١) سيماء المرأة، ص ١١٣، ١١٤.
(٢) النور: ٣١.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾[(١)] فقال: أنا لا أتأفف منهما ولا أنتهرهما، ولكني - فقط - أضربهما[(٢)].

**وجوب تغطية القدمين:**

ومما وجب التنبيه عليه ما شاع في أوساط بعض المتدينات، من تساهل في تعرية أقدامهن، مع أن النصوص واضحة في وجوب ضرب اللباس عليهن؛ سواء كان ذلك بالأزر والأردية أو بالجوارب والدرع.

ومن هنا قال مالك - رحمه الله: إذا صلت وشيء من شعرها أو قدمها مكشوف؛ تعيد ما دامت في الوقت. وقال الشافعي وأحمد وأبو ثور: تعيد أبدًا. وشذ أبو حنيفة فقال: إن قدم المرأة ليس بعورة. ورُدّ عليه بأحاديث الباب والآثار التي لعلها لم تبلغه.

وفي كل ذلك دليل واضح على أن قدم المرأة عورة وجب سترها. وقد اتفقوا على أن أقل عورة المرأة ما تصح به صلاتها. وهو سائر بدنها ما عدا الوجه والكفين[(٣)].

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) سيماء المرأة، ص ١٣٢، ١٣١.
(٣) سيماء المرأة، ص ١٣٤.



# المحور السابع

# جمالية دين الإسلام

## المرجع:

كتاب «جمالية الدين.. معارج القلب إلى حياة الروح»

ط/ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مصر – الطبعة الثانية ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م

## جمالية دين الإسلام

**يقول المؤلف ـ رحمه الله:**

المراد بهذا العنوان هو أن يتجمل الناس بالدين، ويتزينوا به، عبادة لله رب العالمين، ومنهاجاً لعمران الإنسان في الأرض، مصداقاً للحديث النبوي الشريف: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**»[(١)]، والجمال المطلوب في هذا الحديث يتعلق بالشكل والمضمون معاً.

### المسألة الأولى:

**جمالية الدين:**

مفهوم له امتداد كلي شمولي، إذ يمتد ليغطي علاقات المسلم بأبعادها الثلاثية: علاقته مع ربه، وعلاقته مع الإنسان، ثم علاقته مع الكون.

الجمالية في الدين، لا تدرك من ألفاظ بعينها في الشرع فحسب، بل هي (مفهوم) مبثوث في أصول الدين وفروعه. إنها تؤخذ من كل معاني الخير، والتخلق، والتجمل، والتزين، والإحسان. كما أنه لن يكون التدين- من حيث هو حركة في النفس والمجتمع- جميلاً إلا إذا جمل باطنه وظاهره على السواء.

والإحسان هو عنوان الجمال في الدين، وهو الذي عرفه الحبيب المصطفى بقوله: «**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[(٢)][(٣)].

**الدعاة إلى الله ومعاني الجمال:**

إن معاني الجمال في الدين من صفاء الروح، ومنازل الإيمان، وأحوال الإحسان، لم يستفد منها جمهور كبير من أبناء الصحوة الإسلامية المعاصرة، لأسباب: منها اشتهار نسبة بعض مفاهيمها وألفاظها إلى المتصوفة، فكان أن

---

(١) أخرجه مسلم (٩١/ ١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨/ ١).

(٣) جمالية الدين.. معارج القلب إلى حياة الروح – دار السلام، الطبعة الثانية، ٢٠١٠.

زهد كثير من الناس فيها، بسبب ما خالط بعض كتبهم من تحريفات وشطحات.

إن الصحوة الإسلامية المعاصرة لفي أشد الحاجة إلى تربية ذوقية، ترهف حسها بمواطن الجمال، الموجهة لكل شيء في هذا الدين عقيدة وشريعة؟ وقد انتبه السابقون إلى ذلك وانبهروا به، فسارعوا إلى الالتحاق بقوافل المحبين؟ وكان منهم مصنفون ذواقون، نبهوا إلى هذه المعاني، من أمثال الحسن البصري، والإمام المحاسبي، والإمام الجنيد، وابن الجوزي، والإمام عبد القادر الجيلاني، والإمام ابن القيم، والإمام الشاطبي، وغيرهم- رحمهم الله أجمعين.

ويجب ألا يعمينا دخان الحرائق المشتعلة في هذا الزمان عن مشاهدة ما لدينا من ثروة جمالية، والتجمل بمباهجها، تدينًا نسلك به إلى الله ذي الجمال والجلال، وقد كان رسول الله ﷺ بجمال تدينه الرفيع أسوة حسنة لأمته وشهيداً عليها، قال ربنا- جل علاه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٢)(٣).

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) جمالية الدين، ص ٢١، ٢٢، ٢٤.
(٣) البقرة: ٤٣.

## المسألة الثانية:

### أركان الجمالية في الإسلام:

إن أسس (الجمالية) في الإسلام تقوم على أركان ثلاثة هي:

١ - الحكمة.

٢ - المتعة.

٣- العبادة.

باجتماعها جميعاً في وعي الإنسان ووجدانه يتكامل المفهوم الكلي للجمالية في الإسلام.

**الركن الأول: الحكمة:**

معناها أنه ما من (جمال) إلا وله هدف وجودي، ووظيفة حيوية يؤديها بذلك الاعتبار، فالإحساس الجمالي- بما فيه من عواطف جياشة لدى الإنسان مثلاً- ما هو إلا وسيلة وجودية لاستمراره وتوازنه، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

**الركن الثاني: الإمتاع:**

من المعلوم أن الله- جل جلاله- خلق في الإنسان مجموعة من الحاجات، كحاجته إلى الطعام والشراب واللباس. فكانت منها حاجة التمتع والاستمتاع بالجمال، من حيث هو جمال. ومن هنا كان سعيه الدائم إلى البحث عنه والانجذاب إليه.

قال تعالى مصرحاً بفوائد الأنعام والبهائم الإمتاعية (الجمالية)، إلى جانب منافعها التسخيرية: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟

(١) الروم: ٢٠، ٢١.

بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

**الركن الثالث : العبادة:**

العبادة بما هي سلوك وجداني جميل، يمارسه الإنسان في حركته الروحية السائرة نحو الله رب العالمين.

ومن العجيب حقاً أنه- عليه الصلاة والسلام- ذكر متع الدنيا وجماليتها، فجعل منها الصلاة، مع العلم أن الصلاة عمل أخروي لا دنيوي، وذلك قوله الصريح الواضح: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**»[٢][٣].

(١) النحل: ٥-٨.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني.

(٣) جمالية الدين، ص ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩.

**المسألة الثالثة:**

**البناء العقدي في ظلال القرآن الكريم:**

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية، إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق على الوجدان والسلوك. وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعباراتها القرآنية الجليلة يتفاعلون معها تفاعلاً عجيباً، إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء، وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ.

إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي (لا إله إلا الله)، لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مدارسه ومذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات.

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية، التي أملتها ضرورة حجاجية حينًا، وضرورة تعليمية حيناً آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني وسرها التعبدي الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وحروفه: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[1].

ثم إن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه، جلالا وجمالاً، إلا إذا كان بما بينه الله في كتابه وعلمه رسول الله ﷺ للمسلمين بالحديث الصحيح. وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفاً وعلماً بالمطلق غير المحدود. ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقائدي في الإسلام.

كثير من الناس يتكلم في العقيدة اليوم، ولكنَّ قليلاً منهم يتفاعل معها، لأن العلم الجدلي ما كان له أن يؤتي ثماراً قلبية، وهو قد أُنتج أساساً لإشباع

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني.

رغبات العقل المماري لا لإشباع حاجات القلب الساري. وقد كان الرسول ﷺ يخاطب بالعقيدة الإيمانية العقول خطاباً ينفذ من خلالها إلى القلوب؛ حيث تستقر بذاره تنبت جنات وأشجارًا[1].

(١) جمالية الدين، ص ٦٣-٦٥.

## المسألة الرابعة:

### مدار جمال الإسلام على (لا إله إلا الله):

لو تأملت هذه العبارة العظيمة في اللغة، لوجدتها تقوم على لفظتين أساسيتين كلمة (الله) و(الإله).

فأما كلمة (الله) فهو لفظ الجلالة، الاسم العلم على الذات الإلهية، والاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الإلهية العلا. ولفظ (الله) فرد في اللغة، فلا يجمع ولا يتعدد.

وأما كلمة: (الإله) فهو لفظ وصف يدل على معنى شعوري قلبي، ولذلك فهو يتعدد، إذ يجمع على (آلهة).

وأما باقي العبارات في (لا إله إلا الله) فهي (لا) النافية، و(إلا) الحاصرة، وتقومان بدور البناء والتركيب اللغوي للنفي والإثبات الذي يربط نوع العلاقة في قلب المؤمن بين الوصف (له) والاسم (الله). وحقيقة تلك العلاقة هي ما يهمنا في البحث. إنها علاقة تملأ الوجدان بما يفيض به قلب المعبر بها حقاً وصدقاً من الاعتقاد والشعور تجاه مولاه جل علاه[1].

---

(١) جمالية الدين، ص ٦٦، ٦٧.

## المسألة الخامسة:

### المحبة بين الله وعباده بالمفهوم الحقيقي:

حينما نقول: «المحبة» فهي بمفهومها القرآني الجامع المانع، لا ما ذهبت إليه طوائف من الغلاة من هذا الاتجاه أو ذاك ممن قالوا بها، فأبطلوا كل منازل الإيمان من خوف ورجاء، فانتهى بهم الأمر إلى دعاوى عريضة يتشدقون بها، ما أنزل الله بها من سلطان.

كلا! بل لا تقوم المحبة في قلب العبد الصادق إلا على جناحي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرغب والرهب، والقرآن العظيم والسنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح. ولا يزيغ عنها إلا جاهل أو صاحب هوى. والمحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشى من العقوبة، بقدر ما يرجو ويشتاق، فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين. كيف ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[1] ؟

وهذا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين يعلنها في الأمة «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[2]. ألا وإن أي انحراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلاً بالدين أو زيغاً عن الحق المبين[3].

(١) الأنبياء: ٩٠.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٣) جمالية الدين، ص ٧٢.

## المسألة السادسة:

### جمال الربوبية :

لقد كانت العرب تؤمن بالله رباً، ثم تشرك به عبادة، أي أنها تشرك به تعالى في ألوهيته، رغم أنها تؤمن به في ربوبيته، ولكن إيمانها ذاك كان إيمانًا تصورياً لا معرفة فيه، ولذلك لم ينتج تعلقاً بالله ولا تأليهاً له. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

ففعلهم كان مناقضاً لقولهم في الربوبية ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فهو إذاً قول مغشوش وإيمان منقوص، وذلك أن منهج القرآن مستقر بشكل واضح في أن العلم الحقيقي بالربوبية القائم على التدبر والتفكر في خلق السموات والأرض وما بينهما، مفضٍ بإذن الله إلى توحيد الألوهية، وهو ما حفلت به الآيات في غير ما آية أو سورة. وانظر- إن شئت- إلى أي دعوة قرآنية إلى التوحيد والإيمان، تجد سياقها قائماً على عرض خصائص الربوبية بشكل واضح لا غبش فيه، قال جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(٢).

فتبين أن القول بأن العرب كانوا موحدين للربوبية دون الألوهية، ليس على إطلاقه، بل الحقيقة أنهم كانوا على جهل بهما معاً. وإنما الذي ذكره القرآن العظيم عنهم لا يعدو المعرفة التقليدية العامة وليست المعرفة العلمية الحقة، القائمة على البصيرة القلبية والمشاهدة الذوقية. وإنما العالمون بالربوبية حقاً هم المؤمنون به تعالى فقط، فالعلم بالله يورث خشية الله ومحبته، وذلك هو المنهج القرآني الذي وجب أن تُردَّ إليه سائر الفهوم، والله تعالى أعلم.

واقرأ- إن شئت- قوله تعالى الصريح الواضح في ذلك حيث يعرض- جل ثناؤه- بعض خصائص الربوبية وبعض تجلياتها من الخلق والتكوين

(١) العنكبوت: ٦١.
(٢) سبأ: ٤٦.

وكيف أن العلماء بالله- من هذه الجهة أساساً- هم الأخشى له تعالى والأتقى، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[(١)][(٢)] .

---

(١) فاطر: ٢٧، ٢٨.

(٢) جمالية الدين، ص ٨٦-٨٨.

## المسألة السابعة:

### عظمة الله:

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال ﷺ: «**إنَّ الله- عَزَّ وَجَلَّ- لا يَنَامُ، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١). والسبحات، جمع سبحة، وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور ونوابض الحسن وأشعة الجمال، ومن هذا وصف سبحانه أسماءه- وهي أسماء صفات- بكونها (حسنى) أنها متدفقةٌ من مشكاة الله ذات البهاء الدري.. قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٣). ومن هنا كانت البداية في قصة المحبة(٤).

ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه: أن أول كلمة نطق بها آدم ﵇ بعد ما انبعث فيه الروح هي (الحمد لله رب العالمين) حدث رسول الله ﷺ أصحابه يوماً فقال: «**لما نَفَخَ اللهُ في آدَمَ الرُّوحَ، فَبَلَغَ الرُّوحُ رَأْسَهُ عَطَسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لله رَبِّ العالمين، فَقَالَ له تبارك وتعالى: يَرْحَمُكَ اللهُ**»(٥).

ولذلك فإن القرآن الكريم- وهو كتاب الله- افتتح بالحمد لرب العالمين، وتمجيد أسمائه الحسنى، ثم بعد ذلك ثنى بالعبادة التي هي نتيجة للربوبية، فكانت سورة الفاتحة- وهي فاتحة القرآن- كما تقرؤون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩/ ٢٩٣)، وأحمد (٤/ ٣٩٥)، وابن ماجه (١٩٥).

(٢) الأعراف: ١٨٠.

(٣) الإسراء: ١١٠.

(٤) جمالية الدين، ص ٨٨، ٨٩.

(٥) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٥٩).

﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[(١)] . آمين.

فهي من البداية- سواء اعتبرنا البسملة جزءاً منها أم لا- إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إقرار بالربوبية المستلزمة للألوهية، فالأول مستلزم للثاني، فإنما كان الحمد- وهو توحيد الألوهية- مبنياً على ما تحقق من أن الله هو رب العالمين وما تبعه بعد ذلك من الأسماء والصفات المذكورة. قال أبو جعفر الطبري- رحمه الله: «إن الله- تعالى جلَّ ذكره وتقدست أسماؤه- أدب نبيه محمداً ﷺ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدم إليه في وصفه بها قبل جميع مهماته»[(٢)].

إن هيبة الجمال والجلال في ذات الرب العظيم تورث العبودية في القلب المؤمن بالله- كما ذكرنا. ومن هنا كان ذلك الفضل الكبير الذي بشَّر به النبي ﷺ لمن أحصى أسماء الله الحسنى أو حفظها، لما لهذه الأسماء من أنوار، لا تفتأ تفيض عن ذات الرب- سبحانه وتعالى- بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ﷺ: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٣)]. والحفظ والإحصاء المذكوران في الحديث لا يدلان على المعنى الشكلي للفعلين، عد أو استظهار فحسب، وإنما يدلان على الحفظ بمعنى الاستيعاب القلبي، والاستحضار الشعوري، كما في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[(٤)]، مشيراً بالحفظ إلى الأمانة، وهى معنى قلبي محض. كذلك (الإحصاء) إنما هو الوعي والتمثيل للمعنى بما يدل على الاهتمام البالغ به، قال- عز وجل: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[(٥)].

---

(١) الفاتحة: ٢-٧.
(٢) جمالية الدين، ص ٨٩، ٩٠.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).
(٤) يوسف: ٥٥.
(٥) المجادلة: ٦.

فدل بدلالة المقابلة أن الإحصاء ضد النسيان، وأنه إنما يكون متعلقاً بما له أهمية عند المحصي. فقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «**من أحصاها**» وفي الآخر «**يحفظها**» دال على التمثل القلبي والاهتمام الشعوري بأسماء الله الحسنى، بما يكفي لحفظها وإحصائها، فلا تُنْسى لرسوخها في القلب وانتقاشها على جدرانه، ولذلك كان جزاؤه الجنة.

إن تمثيل مقتضيات أسماء الله الحسنى، تمثل المحب المتعلق ببابه الكريم، يرجو وِصاله، والنهل من أنواره- وهو الذي يفتح الطريق للعبد السائر إلى الله، للحصول على الإذن الملكي العالي، إكراماً لمحبته والتعلق بأسمائه.

من هنا كان التعرف القرآني للذات الإلهية- من حيث إن الله هو الرب الأعلى- قائماً على أساس أن الله حقيقة المحبة الكبرى، لأن جمال ربوبيته تعالى هو مركز جاذبية ألوهيته سبحانه[1].

(١) جمالية الدين: ص ٩٥، ٩٦.

## المسألة الثامنة:

### جمالية التفكر الإيماني:

من أسرار هذا الدين أن باب عقيدته هو التفكر. قال عز وجل في مخاطبة الكفار عبر رسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[1].

التفكر أمر عجيب، فالعقل آلة تلتقط الحقائق وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار، وإنما يتخذ القرار القلب بمعناه القرآني الخاص ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[3].

فإذا كان القلب محجوباً بحجب المادة والكثرة، عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات، فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكر في القرآن قلبياً. ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف، نظراً لرهبة القلب مما يحلله له العقل ويعرضه عليه من صور، وذلك نحو ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تتمتها: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[4].

وأظهر منه آية التفكر في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[5]. إنه شعور الوجدان بهول الحقيقة وعظمتها. ولذلك قلت: إن التفكر فعل وجداني في العمق ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[6].

---

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) محمد: ٢٤.
(٣) الأعراف: ١٧٩.
(٤) سبأ: ٤٦.
(٥،٦) آل عمران: ١٩١.

فهذه الآية تصور الناس وهم في شؤونهم الخاصة بين منازلهم وأفرشتهم ونومهم وقيامهم، وأغلب ذلك كله أحوال فردية. والخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[1] فيه نص في فردانية فعل التفكر، أما الثنائية ﴿مَثْنَى﴾ فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية، والمثنى في اللغة العربية ملحق بالفرد. وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة.

(١) سبأ: ٤٦.

## المسألة التاسعة:

### مفهوم العمر الزمني وأثره في الجمال:

من أهم مصادر الجمال في الإسلام، عقيدة اليوم الآخر، ولهذه لن نذوق جماليتها إلا بعد معرفة ما (العمر)؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود الذي يحد فترة حياة الإنسان من الولادة إلى المات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجلٍّ من تجليات الحياة، بيد أن حقيقته نسبية ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه- إذا تفكرت- طويل وقصير، وإنما هو قصير كله. فمن حيث منطق الأشياء وطبائعها: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكون إلا قصيراً. أليس كل الناس يموتون بعد سنوات من تاريخ ميلادهم؟ نعم سنوات.. وإن هي إلا سنوات، لا مئات السنين ولا آلافها. ثم إن المقارنة النسبية بين أعمار الخلائق المختلفة تبين لك نسبية الطول والقصر باعتبار آخر، فمن الخلائق ما تعيش مئات السنين أو آلافا من غير البشر كالأشجار والجبال.

لو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

والزمان الكوني صور وأقسام شتى يتجلى بعضها في بعده المعراجي وهو نوعان: الزمان الأمري، والزمان الملائكي. فـ(الزمان الأمري): هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(١).

(والزمان الملائكي): هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(٢).

كما يتجلى في صورة (الزمان العندي): وهو المشار إليه في قوله تعالى:

---

(١) السجدة: ٥.

(٢) المعارج: ٤.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(١)] وهو زمان (الملائكة العندية) المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾[(٢)].

ثم (الزمان الأخروي) وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبداً، وفي ذهنك أنت أيها المعمر مائة عام أنك عشت عمراً مديداً، نعم تماماً كما عمرت الحشرة ثمانية أيام، أو أربعاً وعشرين ساعة.

ولك أن تتفكر في نسبية الزمن عند تقلب أحوال النفس الإنسانية بين شتى ضروب الانتظار، مثلاً.. عندما تنتظر حلول لحظة سعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظات يسيرة من دقائق معدودات.. تشعر أنها تمر ببطء شديد، وتقلق من طول الانتظار، فكأن وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام. وعندما تحل اللحظة السعيدة تشعر- رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظار- أنها قصيرة جداً، فكان وقتها يتصرم منك تصرماً!! وعلى هذا فالزمن نسبي، وتلك هي حقيقة الأعمار[(٣)].

**وبيان ذلك بالمثال التالي**: هب أن العمر عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، ولها امتداد طولي وآخر عرضي، والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطول، لأن ذلك هو المتعلق بمفهوم الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل)، ولكنه قلَّما ينتبه إلى العرض، لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خلال كل فترة من فترات الزمن. فالإنسان في سيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها، وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط ينتقل إلى

(١) الحج: ٤٧.
(٢) الأعراف: ٢٠٦.
(٣) جمالية الدين، ص ١١٧، ١١٩، ١٢٠.

الأمام ليخطو خطوة أخرى على طولها. ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض، فهو إذن يسير طولاً وعرضاً. إن مفهوم العرض رمز إلى استغلال الوقت استغلالاً كاملاً؛ لأن الناس في الغالب يعيشون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارتها من الأشغال والأعمال، وربما أمضوها في الفراغ، وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت. والعرض هو استنفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية والأعمال الحية التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير، وتلك هي (بركة العمر) المرجوة في الأدعية المأثورة[1].

وقد جاء وصفه سبحانه للجنة بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحدة مرات عديدة لا تنقضي أبداً. كما أن نعمها الوفيرة لا تستنفد أبداً. فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة.

أما الطول فهو يوحي بالنهاية والزوال، ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة من حيث طولها أو قصرها، وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة يجعلهم ينظرون للدنيا من خلال بُعْدٍ واحد، هو البعد الطولي، وهو بعد خدَّاع؛ لأن الألف سنة فيه كاليوم، لا فرق ما دام الطول ينتهي إلى حد، والعدد في الوحدات الزمنية

(١) جمالية الدين، ص ١٢٠، ١٢١.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) البقرة: ٩٤-٩٦.

الدنيوية- كما رأيت- نسبي. ورُبَّ حشرة عاشت بضع لحظات أو بضعة أيام أزكى عمراً ممن عمَّر ألف سنة. ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟

ومن هنا ذم الله الحياة الدنيا، من حيث هي طول يتلهف فيه على المتع الزائلة والمكاسب الفانية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[1].

وقال ﷺ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، إِلا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[2]. والأحاديث في ذم الدنيا والركون إليها كثيرة جداً تملأ أبواب الرقاق من كتب الحديث النبوي الصحيح، وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عد طول لا يمنع من الموت شيئاً.

والجميل في الأمر أن العَرْض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتد حتى بعد وفاته، فلا تجده يشعر ذلك الشعور اليائس الذي يزلزل نفسية الكفار؛ إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول الفناء. وقد رأينا كثيراً من علماء الأمة الإسلامية ممن لم يعمر من حيث الطول إلا ثلاثاً وخمسين سنة كالإمام الشافعي- رحمه الله تعالى- ولكن ها أنت تراه- بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشر قرناً- يملأ الدنيا بالحياة. فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها. وهذه كتبه العلمية تملأ كل أعمار الناس. فهل عاش الشافعي بضعاً وخمسين سنة فقط؟ إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن- إذن. وكذلك الشأن بالنسبة للإمام النووي- رحمه الله- الذي لم تزل مصنفاته هي مادة التربية الإيمانية لملايين المسلمين، ككتاب رياض الصالحين، وكتاب الأذكار، والأربعين النووية، وشرح صحيح مسلم. فهذا الرجل العظيم قد عاش عمراً مباركاً عريضاً جداً في خمس وأربعين سنة فقط

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٠١)، وصححه الألباني.

ومن المعاصرين الإمام حسن البنا- رحمه الله- الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتداداً قوياً، لا تحده مقاييس الأعمار الفانية. إنك تراه هنا وهناك حياً يحرك الأحداث المعاصرة، ويهز الحياة الدينية والسياسية هزاً في كل مكان.

أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، ولم يأبهوا لطوله الكاذب.

وقد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبه المسلمين إلى هذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة حياة حافلة بالحياة، يقول الله- عز وجل- في العبد يستثمر وقته في العمل الصالح: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(١)].

وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: «**إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**»[(٢)].

ويموت الإنسان لكن يمتد عرض عمره بعده، قال- عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[(٣)]، وقال أيضاً: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ**»[(٤)]. وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت[(٥)].

---

(١) البقرة: ٢٦١.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١/ ٢٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، وأحمد (٢/ ٣٧٢).
(٤) أخرجه مسلم (١٠١٧)، وأحمد (٤/ ٣٥٧).
(٥) جمالية الدين، ص ١٢٢-١٢٥.

## المسألة العاشرة :

### جمالية الإيمان بالغيب :

تقوم العقيدة الإسلامية- من حيث الأساس التصوري- على مبدأ الإيمان بالغيب. والغيب في معناه اللغوي: هو كل وقع حقيقي مجهول. قال ابن فارس «الغين والياء والباء: أصل صحيح، يدل على تستر الشيء عن العيون. ثم يقاس من ذلك الغيب: ما غاب مما لا يعلمه إلا الله، ويقال: غابت الشمس تغيب غيبة وغيوباً وغيباً. وغاب الرجل عن بلده، ووقعنا في غيبة وغيابة: أي هبطة من الأرض، يغاب فيها»(١).

ومن هنا كان الغيب في الاستعمال القرآني دالاً على (وجود) غير مشاهد؛ ولذا ورد مقابلاً (لعالم الشهادة) الذي هو العالم المنظور، قال- عز وجل- في وصف ذاته سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٢)، وبما أنه (وجود) فإنه قابل للعلم، أي أنه قابل لأن يحاط به علماً. ومن هنا كان علمه عند الله وهو عنده وعلم الشهادة سواء، كان في الآية الكريمة المذكورة(٣).

ذلك أن جمالية الغيب في الإسلام تتجلى في مظاهر كثيرة، منها هذا الفضاء النفسي الواسع، الذي تهبه العقيدة للإنسان المسلم؛ حيث يشعر أنه ممدود الصلة ببحر الغيب المطلق.. إن المنكر للغيب إنسان تعيس حقاً، وإن أول مظاهر هذه التعاسة ألا يرى من هذه الحياة إلا حدود نظره من جهة الإدراك وحدود أجله من جهة المتعة المعيشية تعاسة.. وأي تعاسة تلك التي تفرض على المرء ألا يصيب من الحياة إلا لحظات فانية ميتة ابتداء! وهذا بحر الحياة الزاخر حواليه يمتد في المطلق إلى ما لا نهاية.. فأي غبن هذا؟ وأي خسارة؟

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (غيب).

(٢) الأنعام: ٧٣.

(٣) جمالية الدين، ص ١٢٨.

إن نتيجة مثل هذا الشعور هي أن تنتج عقلاً شريراً لا يستريح حتى يرى الآخرين يتعذبون تماماً مثل ما يعانيه هو في داخله من عذاب، فيسارع إلى الإجرام لإشراك الجميع في العذاب في صورة ما، قد تكون فردية وقد تكون مؤسسية- أعني ما يسمى اليوم في عالم السياسة بـ(إرهاب الدولة) كما نشاهد في الدول الظالمة الطاغية التي تتسلط على شعوبها أو على شعوب العالم بالتدمير والتخريب، وتتسلط على الأرض والفضاء بالتلويث والتسميم دون أي تفكير؛ إذ يتحرك المؤمن في الدنيا وليس في حسابه وجود الأجيال المقبلة فحسب، ولكن أيضاً وجود الخلائق الكونية الروحانية الأخرى مما ينتمي إلى عالم الغيب الفسيح، فيُخالِقُ كل أولئك بخلق الود والمحبة.

ومن أجمل الأحاديث في هذا الصدد قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الملاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»[1].. هكذا يعيش المؤمن وهو يغرف من جمال صحبة الملائكة ويعرف لها حقاً، ويتذوق من جمال الطهر والصفاء ما يُرَقِّي شعوره بالوجود إلى درجة من الدين.

ولقد ارتبط تدين المرء المسلم بالإيمان بالغيب الذي هو مصدر القوة في تدفق الشعور الديني رائقاً رقراقاً، وإخلاص العمل لله- عز وجل. فبدونه لا قيمة لأي عمل في مجال الدين. ولذلك كان هو أول شرط الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة عند الله، يقول الله تعالى في فواتح سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

ومن هنا أيضاً كان الإيمان بالغيب في الدين قضية كبرى على مستوى الشعور والإحساس والإدراك، كما هو كذلك على مستوى صحة الاعتقاد

(١) أخرجه مسلم (٥٦٤).
(٢) البقرة: ١-٣.

وصحة الدين، فرتب الله عليه خير الجزاء وأعظم الأجر: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2][3].

الموت باب الدخول إلى وعد الله الكريم، وإنما يخاف عندئذ المكـذبون، ولا خوف على من آمن بالله ثم استقام.

بل إنه يرجو وعد الله الكريم وفضله العميم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[4].

إنها آية من الروعة بمكان؛ فهي تصل - في إحساس العبد المؤمن - الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾.

وتملأ المؤمن سكينة وسلاماً؛ فإنما الملائكة القابضة بالنسبة للمؤمن المستقيم رسل سلام من الله السلام ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[5].

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**إِنَّ الْعَبْدَ المؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ - عَلَيْهِ السَّلامُ - حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ**

(١) ق: ٣١-٣٣.
(٢) الملك: ١٢.
(٣) جمالية الدين، ص ١٣١، ١٣٣، ١٣٩.
(٤) فصلت: ٣٠-٣٢.
(٥) النحل: ٣٢.

تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الحنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ- يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَإٍ مِنَ الملائِكَةِ، إلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لهمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ الله- عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلاَمُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَيَقُولانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالخيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الموْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ

**الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الملائِكَةِ، إلا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلانُ بْنُ فُلانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ»**(1).

إن الموت جميل حقاً، ولكنه جمال مقصور على الذائقين الذين تفطرت أكبادهم شوقاً إلى يوم الدين: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(2).

وذلك خفق القلب بالإسلام لله رب العالمين.

ومن هنا كانت حياة المؤمن كلها أمناً وسلاماً في الدنيا وفي الآخرة. وإنما هذه بالنسبة إليه استمرار لتلك من حيث الامتداد الوجودي، فلا فناء ولا انقراض. وهذا سبب من أسباب تلك الطمأنينة العالية والراحة الشاملة التي تهب على قلوب النفوس المؤمنة بالله واليوم الآخر.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

ومن هنا فإن المؤمن العامل الصادق لا يُقبل على الموت- المأذون فيه بقدر الله- إلا بنفس مطمئنة راضية مرضية. فقد أخرج الإمام البخاري قصة استشهاد خبيب بن عدي ﷺ عندما أسره أبناء الحارث بن عامر من كفار قريش؛ حيث خرجوا من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين: ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزِدتُ. فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، اللهم أحصهم عدداً، ثم قال:

**ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي**

**وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزع**

وتحدث ابنة الحارث التي كان أسيراً عند أهلها وهو آنئذ في بيتها قالت: إنهم لما أجمعوا على قتله، استعار منها موسى يستحدّ بها، فأعارته. قالت: فأخذ ابناً لي- وأنا غافلة- حين أتاه فوجدته مجلسه على فخذه، والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله. قالت: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب[(١) (٢)].

**جمالية الحياة الآخرة:**

الحياة الآخرة هي المقابل للحياة الدنيا. فكلاهما حياة، ولكن شتان شتان بين الماء الزلال والسراب الهارب بين الرمال.. فالحياة الآخرة وحدها هي الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

الحياة الآخرة جمال يومض بالجلال، فهي تبدأ بتغير أوضاع الكون، وإعادة خلقه من جديد في عملية خلق إلهية عظيمة ذات وقع على النفس كبير يملؤها رغبة ورهبة في سيرها الراحل إلى الله الملك العظيم.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٥).

(٢) جمالية الدين، ص ١٤٦-١٥٢.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

يوم القيامة: يتجلى ربك للقضاء بين خلقه، وما أدراك ما تجلِّي الرب للقضاء؟.. أين الملوك والجبابرة؟ وأين المرَدَة والشياطين؟ وأين الأنبياء والأتقياء؟ وأين قوافل المستضعفين؟ ثم أين أنت بين ذلك كله؟ وأين أنت حين يتحقق ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1].

الناس يتشكلون إلى فريقين، كل فريق يمضي إلى عكس جهة الآخر، أفواجاً، فيفترق بافتراقهما (مقام الخوف والرجاء) إلى الأبد ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾[2] [3].

إن لمشاهد الجمال في الجنة لذوقاً تواقاً!! إذ استقر كل عبد في مكانه بالجنة، وتباعدت المنازل الدرية طبقات في سماء الله. قال الحبيب المصطفى ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المشْرِقِ أَوِ المغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**»[4].

فيا لسرعة النبض بهذا القلب الكليل، أو يا لخوفه ألا يكون من السابقين!. ثم إن في اليوم الآخر لموعداً آخر، يملؤه ضياء ونوراً.. موعداً عمل له الأنبياء والصديقون، وتعلق به المحبون أولاً وآخراً.. إنه رؤية الله، الله ذي الجلال والجمال. تقدس الله تعالى في صفات الكمال، وتنزَّه سبحانه عن الشبيه والمثال.. رؤية يستمد منها العابدون جمالهم، ويستدرِّون بها أنوارهم، ويكتسبون من تجليها حياة الخالدين، من الرب الأعلى واهب الحياة لمن شاء من العالمين... سبحانه وتعالى في عليائه علواً كبيراً.. تقدست أسماؤه وتنزَّهت صفاته.

الرؤية السعيدة موعد للمحبين البررة الأخلاء، الأوفياء الأصفياء، قال

---

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) الزمر: ٧٣.

(٣) جمالية الدين، ص ١٥٥-١٥٧.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

سيدنا رسول الله ﷺ لأصحابه ذات ليلة بدرية وافية صافية: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»[(١)]. ولرؤية الله أثر النور المتدفق على الوجوه المحبة، وطيب المسك النافح للأبدان وشذا الريحان السارب بين الأغصان.. ففي لقطة من لقطات التجليات أخبر النبي ﷺ بما يلي: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً**»[(٢)] ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[(٣)][(٤)].

**جمالية الانتساب التعبدي:**

العبادة: هي عنوان الجمال في الإسلام، وشعار المحبة. وإذا أحب الله الإنسان خاطبه بلفظ (عبدي) أو (عبادي)، فنسبته إليه- تعالى- نسبة خصوص وإضافة.

إن العبادة (رغبة) قبل أن تكون (رهبة) قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[(٥)].

أما (الخوف) المذكور مع الرجاء في سياق التعبد فله مدلول آخر[(٦)]، فهو تابع للرجاء، إذ العلاقة بين العبد وربه هي الرجاء.

ومن هنا كان وصف الإنسان بأنه (عبد) من أحب الأسماء والصفات الإيمانية إلى الله، ومن أحسنها في تسمية الإنسان كما ورد في قول الرسول- عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»[(٧)]. وذلك لأن هذين

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٣)، وأحمد (٣/ ٢٨٤).
(٣) الحديد: ٢١.
(٤) جمالية الدين، ص ١٦٢، ١٦٣.
(٥) البقرة: ٢٥٦.
(٦) انظر: جمالية التوبة، ففيها تفصيل- المسألة الثالثة عشرة.
(٧) أخرجه مسلم (٢١٣٢).

الاسمين فيهما نسبة العبد إلى اسم الجلالة (الله)، وإلى أعظم صفة لله عز وجل (الرحمن) قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾[(١)].

وفي ذلك ما فيه من شرف الانتساب التعبدي لله الواحد القهار. وبهذا المعنى استعمل مصطلح (الانتساب الإيماني) أو (التعبدي) في الفكر الإسلامي، للدلالة على خصوص استناد العبد إلى الله في كل أمره وما يجده في ذلك من أذواق وجمال[(٢)].

**حقيقة الجمال التعبدي**:

إن الناظر في النصوص الشرعية المتضمنة لمفهوم (الانتساب) في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أن لله- عز وجل- في مناداة الإنسان وتسميته باعتبار (النسبة) ثلاثة أحوال:

**الأولى**: أن ينسبه إلى جبلَّته وطبيعته الخلقية، فيسميه (الإنسان).

**الثانية**: أن ينسبه إلى أبيه، فيسميه (ابن آدم، وبني آدم).

**والثالثة**: أن ينسبه إليه تعالى، فيسميه (عبداً أو عبدي، أو عبادي) ووحدها هذه النسبة الأخيرة تكون في سياق المحبة الإلهية العالية للعباد. فلا يذكر الإنسان بوصفه عبداً إلا للدلالة على حب الله له؛ إذ العبودية محبة متبادلة بين الرب الأعلى والمخلوق الأدنى.

ومن هنا كان بَتَحَمُّلِهِ الأمانة ظلوماً لنفسه، جهولاً بخطورة ما تحمل وتقلد، فكان الحكم الابتدائي عليه بالخسران؛ لأنه راهن على شيء أكبر من حجمه، فلا ينجو من حيث هو (إنسان) إلا على سبيل الاستثناء. قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[(٣)]. وهو استثناء ثقيل يحمل- بعد الإيمان والعمل الصالح- شروطاً

---

(١) الإسراء: ١١٠.

(٢) جمالية الدين، ص١٦٧-١٦٩.

(٣) العصر: ١-٣.

ثقيلة: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وتلك هي خلاصة الأمانة.

فالإنسان إذن مخلوق مغلول إلى التزامه، مرتهن بقضيته، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾(١)، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢).

بل هو مُلْزم بالسير الدائم إلى ربه، سيراً تتخلله المشاق والصعاب؛ لأنه يشق طريقاً تخالف ما تشتهيه نفسه البشرية، من دِعَة وملذات دنيوية، ورغبات حيوانية، ولذلك عبر الله- عز وجل- عن هذا المعنى بـ(الكدح) وفي ذلك ما فيه من الإيحاء بمشقة السير، ووعورة الطريق، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾(٣).

ولم يكن ابتلاء الإنسان مهدداً بالخسران، إلا لأنه ارتبط ابتلاؤه هذا بطبيعته الطينية التي تشده إلى الأرض وإلى علائق التراب، بينما غاية (ابتلائه) أن يرتقي إلى السماء. فأعظِم به من امتحان عسير! قال عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(٤).

وما أدق تعبير الشيخ الغزالي- رحمه الله- في هذا السياق، حيث قال: «محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى، على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون» ولذلك وجدنا لفظ (الإنسان) يعبر به في القرآن للدلالة على هذا المخلوق من نطفة أمشاج للابتلاء. فكانت الآيات بمساقاتها تشير إلى أنه كلما انقضَّت عليه طبيعته الطينية، استجاب لأهوائه وشهواته.

ويلحق بها معنى الشرط وجوابه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾(٥).

(١) الإسراء: ١٣.
(٢) القيامة: ٣٦.
(٣) الانشقاق: ٦.
(٤) الإنسان: ٢.
(٥) الإسراء: ٨٣.

إنه مخلوق مجبول على رغباتـه، وطلـب شـهواته التـي تقـوده إلى الفجـور، والظلــم والطغيــان، قــال تعــالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾(١)، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾(٢). هذا هو الإنسان.. تعبير لا يوحي بالأنس والطمأنينة والسلام، وإنما يوحي بالتكليف والحساب(٣).

وأما النسبة الثانية: فهي نداء الله عباده (بني آدم) وهو قريب في الدلالة من لفظ (الإنسان)، بل إن بينهما تداخلاً واشتراكاً؛ لأنه إذ ينسب إلى أبيه آدم يحيل على خصائص (الآدمية) وآدم هو ذلك المخلوق من طين، المنفوخ فيه من روح رب العـالمين. إلا أن الإيحـاء هنـا لا يركـز عـلى جانـب الأمانـة والمـسؤولية والتكليف بقدر ما يركز على جانب واحد من ذلك كله ظاهر على كل الصفات المضمرة في (الآدمية) المشاركة للفظ (الإنسان). وهذا الوصف الظاهر البـارز في النداء بـ(بني آدم) هو: ضعف العزيمة والنسيان، وهو مأخوذ من قول الله- جـل وعـلا: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٤)؛ ولـذلك كـان النداء بـ(بني آدم) دالاً على معنى التذكير والتنبيه؛ إذ تعلق بمخلوق شأنه العام هو النسيان وضعف العزيمة، قال تعالى مذكراً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٥).

وهذا العهد هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٦).

وذلك نحو قوله ﷺ: «**لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا،**

---

(١) القيامة: ٥.
(٢) العلق: ٦.
(٣) جمالية الدين، ص ١٧٢-١٧٥.
(٤) القيامة: ٥.
(٥) يس: ٦٠.
(٦) الأعراف: ١٧٢.

**وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِنْ أَصَابَهُ حَرٌّ، قَالَ: حَسِّ. وَإِنْ أَصَابَهُ بَرْدٌ، قَالَ: حَسِّ**»[(٢)] وكلمة «حس» اسم فاعل مضارع بمعنى: أتضجر[(٣)].

ويتفرد النداء الإلهي والتعبير القرآني بوصف الناس (بالعبادة) للدلالة على الرضا والحب والإشفاق وكل المعاني الراجعة إلى صفات الله الرحمن الرحيم الودود الغفور؛ وذلك لما للإنسان بوصفه (عبداً) عند الله من مقام وقرب، وإنما العبد من انقاد قلبه لربه رغباً ورهباً، وخضعت جوارحه لمولاه طاعة وحباً. وتلك هي الصفة التي جاء الدين لإسباغها على الإنسان، فترقيه إلى أعلى منازل العبودية، وذلك أساس مقتضى شهادة (لا إله إلا الله) كما تقدم فكأن الدين- كل الدين- إنما هو إعطاء صفة (عبد) لهذا المخلوق الإنسان. أو كما قال الشاطبي- رحمه الله- عن وظيفة الدين المقاصدية إنما هي: «إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً»[(٤)].

ثم إن وصف (عبد) أو (عباد) ولو ورد مجرداً عن الإضافة، لا معنى له إلا بتقدير الإضافة وهو النسبة إلى الله سبحانه أي (عبد الله) (وعباد الله) وقد تأتي العبارة صريحة النسبة والإضافة إلى الله كما سترى إن شاء الله.

وهذا فرق جوهري مهم جداً في إطلاق ألفاظ: (الإنسان) و(ابن آدم) و(عبد الله) إذ ينسب في الأولى إلى أصله الخلقي الجبلي، وينسب في الثانية إلى أبيه وما تحمله هذه النسبة من دلالة على طبيعة (آدم)، بينما يتفرد التعبير الأخير بنسبته إلى (الله)، وكفى بذلك شرفاً ورفعة وجمالاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٨)، ومسلم (١٠٤٨).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٢٧).
(٣) جمالية الدين، ص ١٧٦، ١٧٨.
(٤) الموافقات (٢/ ١٦٨).

ولذلك وَصْفُ العبودية في القرآن لا يَرِدُ إلا في سياق البشارة والمحبة والرضا الإلهي الكريم، وما لم يكن ظاهره من الآيات كذلك فهو ملحق بهذا الأصل في المعنى؛ لأن الكلية الاستقرائية إذا استقرت (كلية) رجع إليها كل جزئي ولو بدا أنه شاذ عنها كما هو مقرر في الأصول[1]. وأوضح مثال لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2][3].

ومن الجميل هنا خلو هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ...﴾ من لفظ قل. وذلك يدل على خصوص السؤال الآتي من (العباد)؛ ذلك أنهم هنا يسألون عن (معبودهم) لا عن كيف يعملون في أمور الدين، إذ إن قضايا الشريعة والأحكام هي شأن الرسول الكريم المعلم الذي بُعث ليعلم الناس كيف يعبدون الله، أما هؤلاء فإنهم الآن يسألون عن الله ذاته سبحانه لا عن كيف يعبدونه.. يسألون عن باب معرفته ورضاه.. إنه سؤال محبة وشوق ووجدان، فهو مثل ذلك الذي قال تعالى فيه الحديث القدسي «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[4].

إذاً فالقضية (عبادة)، والعبادة وجدان لا تصح إلا إذا خلت من كل شريك ولو كان نبياً! والدين إنما هو إخلاص القلب لله وحده، وهؤلاء إنما سألوا عن مثل هذا، فلا موضع لـ(قل) هذه في السياق، فاعبد ربك تجده أمامك بلا واسطة ولا حجاب يحجبه عن قلبك المحب المشوق، قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

إنه يجيبك أيها العبد الداعي ربك تضرعاً وخفية وإنما «**الدُّعَاءُ هُوَ**

(١) الموافقات (٢/ ٥٣).
(٢) البقرة: ١٨٦.
(٣) جمالية الدين، ص ١٧٨-١٨٠.
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٠٤).

**الْعِبَادَةُ»**(١) كما قال النبي ﷺ هكذا على سبيل الاستغراق والشمول، ولا عبادة حقة إلا خالصة لله «**ذلك بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**».

وإنما يتوب الله- عز وجل- على (العباد)، إذ هم الأحبة الذين يتجاوز الله الكريم عن سيئاتهم مهما كثرت، ماداموا (العباد) الذين ذلوا لله وخضعوا له، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

وتوبة العبد لحظة فرح عند الله سبحانه، فرح يليق بجمال وجهه وجلال سلطانه تعالى. وقد بينه الحديث القدسي بياناً جميلاً، فيه من معاني الشوق، والقرب والتقريب، والتقرب المتبادل بين العبد وربه؛ ما يملأ القلب ببهجة السرور والاحتفال! إنه جمال الإله الذي يبادل (عبده)- وإنما هو عبده- بحبه حباً أكرم وأعظم، وبتقربه تقريباً أشرف وأحلم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَة**»(٤). فأي جمال هذا وأي بهاء؟ ومن أروع التعابير القرآنية في هذا السياق، آية تتدفق كلماتها، بل حروفها، بكوثر المحبة الإلهي الفياض، جمالاً يغمر قلوب كل من سماهم الرحمن (عبادي)، ولو كانوا حديثي عهد بالضلال البعيد، والتيه الرهيب، وشردوا بعيداً في ظلمات الآثام والذنوب، ثم جاؤوا فقراء يطرقون الباب، وما بأيديهم من حسنات إلا هذه التوبة النصوح، قال عز وجل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٦٧)، وصححه الألباني.

(٢) التوبة: ١٠٤.

(٣) الشورى: ٢٥.

(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

﴿... رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

فعلام ييأس (العبد) أو يقنط؟ والله تعالى يغفر الذنوب جميعاً.. نعم جميعاً. أأنت الذي جئت تطرق باب الله تائباً؟ إذاً أنت آمن إن شاء الله لا تُخِيفُكَ أهوال الذنوب التي تجرها وراءك ما دمت قد جئت في الوقت المناسب... ودخلت إلى حضرة الرحمة الإلهية من باب الانتساب إلى الله (عبداً)[2].

وإن للستر جمال القرب والتناجي الودود مع الرب الكريم، وقد أخبر النبي المصطفى ﷺ في الحديث القدسي محدثاً عن تجلي الرحمن لعباده يوم القيامة تجلياً يليق بكماله... كان ذلك في حديث النجوى، وما أدراك ما النجوى!! فعن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يُدْنَى المؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ- وَقَالَ هِشَامٌ: يَدْنُو المؤْمِنُ- حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ: تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ. يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ مَرَّتَيْنِ. فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الآخَرُونَ أَوِ الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ: هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ**»[3][4].

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) جمالية الدين، ص ١٨١-١٨٤.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٤) جمالية الدين، ص١٨٥، ١٨٦.

**المسألة الحادية عشرة:**

**جمالية الصلاة أمُ العبادات:**

قال ﷺ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ**»(١)، وقال: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ الصَّلاةُ، فَإِنْ صلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرِ عَمَلِهِ، وإن فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ**»(٢).

**الجمال في أوقات الصلاة:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾(٣).

وما الإنسان إن لم يكن هو هذا العمر المحدود: بداية ونهاية، وبينهما يوجد شيء اسمه الإنسان، فتأمل. وإنما الصلوات الخمس مواقيت لرموز التحولات الزمنية؛ فالفجر بدء وبه تبدأ الحياة.. وما بدأ شيء إلا انتهي، والفجر اسم وقت قبل أن يكون اسم صلاة؛ لأننا إنما نعبد الله بالوقت.. وإنما الوقت هو الصلاة لله رب العالمين الذي أنعم عليك بالبدء، ويدور الكوكب العابد في مداره هواناً، حتى إذا توسطت الشمس كبد السماء اشْرَأَبَّتِ الأعناق لسماع المؤذن يعلن بدء الزوال وانقلاب الظل إلى الجهة الأخرى.. زوال الشمس يا صاحبي بداية العدد العكسي في عمر الإنسان، فمنذ دشن فجره وهو يعد عداً تصاعدياً. حتى إذا زالت الشمس وامتد الظل قليلاً إلى الجهة الأخرى بدأ الانحدار، ففراراً إلى الله إذن. تشهد منتصف عمرك صلاة ظهر، فما بقي أكثر مما سلخت من أنفاس ذلك هو التحول الفلكي، ثم تأتي محطة كبرى من محطات الزمن الأرضي تشهدها عابداً لا شارداً عن باب الله. حتى إذا صار الظل مثل طول كل قامة امتد عنها؛ بدأ العصر ينذر بقرب الأفول، وما العصر إلا إنذار لك يا سالك: أن لم يبق لك من العمر إلا لحظات وتنتهي الأضواء إلى ظلمة القبر، ماذا أعددت لذلك البيت الموحش من مؤنسات؟ والعصر محطة

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وصححه الشيخ شاكر.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٥٨).

(٣) النساء: ١٠٣.

فلكية أخرى ينعصر فيها الـزمن انعـصاراً ليـشهد تحـول الـصهد المنخنـق إلى أصيل.. ذلك آخر الزاد إذن من سبحات النهار، ليس بعدها إلا مسك الختام، ومن هنا النذير الشديد لمن غفل عن هذه الساعة الفاصلة... فلحظة أو لحيظـة لا تدري كيف؟ ويكون الغروب.

هناك تشهد كيف يموت الضوء.. ويدخل المغرب، والكون كلـه يغـرب.. ولا عودة للحظة ماتت.. لا عودة لها أبداً، محطة فلكية مـن تحـولات الأزمنـة، تشهدها صلاة خاتمة للأضواء، فاتحة للعتمات. ثم ندلج إلى الله بصلاة العشاء، وهي في الأصل ضعف البصر: حيث العتمة تمنع الإبصار إلا قليلاً.

تلك إذن هي الصلوات الخمس: أوقات للتحولات الفلكية الكبرى نعدها بالصلاة عداً.

وبعد.. إن فاتك وقت يعني أنك فقدت جزءاً من العمر. ومن ذا يقدر على استعادة الزمن الراكض إلى الوراء؟ ولقد قال الفقهاء لفعل الـصلاة: إذا كـان في الوقت (أداء)، وإذا كان بعد الوقت (قضاء) لأن الذي يُقضى لا يؤدى أبداً.

هل يمكنك استعادة الوقت؟ هل يمكنك استعادة التاريخ؟ هل يمكنـك أن تعيش اللحظة مرتين؟ ولقد صدقوا في الفلسفة القديمة إذ قالوا: (لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين).. لو لم تكن الصلاة (وقتاً)، لأمكنك أن تفعل ذلـك عـلى سبيل التشبيه والتقريب. وأما أنها وقت فإنك لن تفعل، وإنما الذي تفعلـه أنـك (تعوض) تعويضاً، وما كان العوض- بعذر أو بغير عذر- ليكون كالأصل أبداً لسبب بسيط: هو أن المسألة وقت، فانظر لو أنك لم تأكـل طعـام عـشائك حتـى كان الصباح ثم طلبته، أتكون حينئذ تتعشى أم تفطر؟.. طبعاً إنـك لـن تتعـشى عشاءك ذاك بعد أبداً.. ولو كان الطعام هو عين الطعـام؛ لـسبب بـسيط هـو أن المسألة وقت.. ولا صلاة تفوت فتؤدَّى بعد ذلك أبداً، وإنما فرصـتك الوحيـدة أن تقضي إن جاز قضاء.. وشتان شتان بين أداءٍ وقضاءٍ[1].

(١) جمالية الدين، ص ١٩٣-٢٠٠.

## المسألة الثانية عشرة:

**جمال الوضوء** :

وأول البدء في الصلاة كان هناك التجمل بالوضوء. فهناك المؤمنون يتسابقون إلى تزيين وجوههم وأيديهم إلى المرافق ورؤوسهم، فأرجلهم إلى الكعبين و«**تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ**»(١). ذلك شرط المرور إلى عتبة الصلاة؛ إذ لا تقبل الصلاة بغير وضوء.

وتدور الفصول من حر إلى قر، فيبقى الوضوء سراً من أسرار الجمال الذي ينسخ نوره آثار معركة الحياة من سهام إبليس ورشقاته. قال ﷺ: «**أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الخطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**». قالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخطَا إِلَى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(٢).

أوليس «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ المسْلِمُ- أَوِ المؤْمِنُ- فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ**»(٣).

- فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن- سادتي الأتقياء- فإنكم «**أَنْتُمُ الْغُرُّ المحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ**»(٤)(٥).

تلك سيم الجمال في وجوهكم وأطرافكم يوم تَرِدُونَ على المصطفى ﷺ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٠/ ٤٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥١/ ٤١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٤/ ٣٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٦/ ٣٤).
(٥) جمالية الدين، ص ٢٠٠-٢٠٤.

وهي سيم وعلامة ليس لأحد من الأمم، بها تعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة كالدر المتناثر في دلجة الفضاء. هذه ومضة الإبراق النبوي، تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين رشحاً لا يذبل وميضه أبداً، فإذا النبي الكريم ﷺ يميز المحبين وسط الزحام واحداً واحداً «**مَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَحَدٍ إِلا أَنَا أَعْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قَالُوا: وَكَيْفَ تَعْرِفُهُمْ يَا رَسُولَ الله فِي كَثْرَةِ الخلائِقِ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ دَخَلْتَ صَبْرَةً فِيهَا خَيْلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ، وَفِيهَا فَرَسٌ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ، أَمَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْهَا؟**» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ، مُحَجَّلُونَ مِنَ الْوُضُوءِ**»[1].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٩)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح على شرط مسلم.

## المسألة الثالثة عشرة:

### جمالية التوبة :

يقول ابن القيم- رحمه الله: «منزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها. فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيه إلى المات، وإن ارتحل إلى منزلٍ آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هي بداية العبد ونهايته» وهذا تأصيل حسن وجب البدء به.

ومن قبله قسم ذو النون المصري التوبة قسمين فجعلها توبتين: «توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[(١)]. وبذلك كان يدعو سيد المحبين محمد ﷺ إثر الوضوء: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المَتَطَهِّرِينَ**»[(٢)]. فقرن بذلك بين طهورين في سياق واحد: طهور النفس، وطهور البدن. نعم إنَّ التوبة هي أول باب يَلِجُهُ السالك في مسرى المحبة الدائم الاخضرار[(٣)].

إن التوبة حسنة بنفسها عظيمة، وذلك لأنها تجمع خصالاً تعبدية شتى:

**فالتوبة توحيد**: ذلك أن العبد العائد إلى الله تائباً، هو عائد إلى الله أولاً، ثم هو عائد إلى الله وحده. وفي ذلك ما فيه من اعتقاد أن الله وحده سبحانه التواب الرحيم، إذ لا ملجأ منه إلا إليه، وذلك توحيده سبحانه في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته تعالى.

**والتوبة دعاء**: لأن بابها الاستغفار. ولذلك فهي دعاء بها للكلمة من معنى.. دعاء فيه خصائص العبودية ما قد لا تجده في غيره من العبادات؛ إذ التوبة إقرار بالذنب أولاً، ثم شعور بالذلة والفقر إلى الله. وذلك أساس من

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥)، وصححه الألباني.

(٣) جمالية الدين، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

أسس التعبد في الإسلام، وشروط التوبة الثلاثة دالة على هذا المعنى الوجـداني العميق؛ وهي: الإقلاع عن المعصية، والنـدم عـلى فعلهـا، والعـزم عـلى عـدم العودة إليها. وتلك كلها هي شروط الرحلة إلى الله. فالندم على فعل الشر، هذا الإحساس الوجداني الجميل، الذي يدرك العبد من خلاله- إذا تـذوق مـرارة التيه وشقاء الشرود- ما للعودة من حـلاوة، ومـا للأوبـة مـن أثـر في عمـران القلب بالسلام. ولذلك يبقى الندم حافزاً قوياً على الدخول إلى مقام (الإرادة) فيسلك المريد إلى ربه سبيل الرشاد والمحبة، مصرًّا على التزام تعاليم الهدى ولو حفت بالمكاره؛ لأنه يدرك ما للشرود والتيه من خطـر عـلى الـنفس وشـقاء في المعيشة.

ويكفـي التوبـة رفعـة أن تكـون دعـاء إذ «**الـدُّعَاءُ هُـوَ العِبَـادَةُ**»[1] كـما في الحديث. بل لك أن تقـول: «التوبـة هـي العبـادة» مـا دامـت التوبـة واردة في الحديث مرادفة للدعاء والرجاء. قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**ابْـنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيـكَ وَلا أُبَـالِي**» فقولـه هنـا «دعوتني» هو بمعنى استغفرتني لأن جوابه كان هو قوله: «**غفرت لك**» نعم.

كما ورد في الحديث الآخر: «**قَـالَ الله تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى: يَـا ابْـنَ آدَمَ إِنَّـكَ مَـا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَـوْ بَلَغَـتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَـالِي، يَـا ابْـنَ آدَمَ إِنَّـكَ لَـوْ أَتَيْتَنِي بِقُـرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَـا ثُـمَّ لَقِيتَنِـي لَا تُـشْرِكُ بِي شَـيْئًا لَأَتَيْتُـكَ بِقُرَابِهَـا مَغْفِرَةً**»[2]. وللنداء «**يا ابـن آدم**» في سـياق التوبـة تـذكير بأخطائـه الأولى قـال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[3][4].

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وصححه الألباني.
(٣) طه: ١٢١، ١٢٢.
(٤) جمالية الدين، ص ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٧.

أن تتوب إلى الله يعني أنك انطلقت عبر مدارج الإقلاع، حتى إذا بدأت مقدمة الطائرة في الارتفاع في الجو كانت لك منزلة أخرى.. إنها منزلة الخوف والرجاء.

فأما الرجاء: فهو الجناح الأيمن؛ لأنه الأقوى والمهيمن على الطيران والتحليق. وإنما الخوف خادم له؛ إذ الأصل في علاقة العباد بربهم رجاء.

وقد اخْتُلِفَ في هذه المسألة منذ القديم على ثلاثة آراء:

**الأول**: أن على السالك أن يغلِّب الخوف على الرجاء.

**والثاني**: العكس.

**والثالث**: أنه يجب تغليب الخوف، حتى إذا أدركه الموت غلب الرجاء.

وسبب اختلافهم في هذه المسألة هي ورود نصوص مستقلة في كلا الأمرين: الخوف والرجاء.

فمن رأى أن نصوص الخوف خادمة للرجاء، وأن رحمة الله إنما تدرك بالخوف، غلَّب الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[2]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[3].

وأما من رأى أن نصوص الرجاء هي الأصل؛ وذلك لأن رحمة الله سبقت غضبه- عز وجل- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الرجاء هو الأكثر تواردًا في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5]، وقال أيضاً: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ

(١) الرحمن: ٤٦.
(٢) الإنسان: ١٠، ١١.
(٣) النازعات: ٤٠، ٤١.
(٤) الكهف: ١١٠.
(٥) العنكبوت: ٥.

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[1]، وجعل الأعمال مبنية على الرجاء فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وأما من غلَّب الخوف في الدنيا حتى إذا أدركه الموت غلَّب الرجاء فباعتبار أن من خاف هنا أَمِنَ هناك، كما سلف في قوله تعالى المذكور آنفاً من سورة الإنسان: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[3].

ثم باعتبار أن الخوف أنفع للعبد السالك من الرجاء؛ إذ هو الأجدى علاجاً لأمراض النفس والهوى، ولكن إذا أشرف على لقاء ربه وجب أن يستبشر بلقائه، ويغلب الرجاء حينئذ على الخوف لقوله ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله عَزَّ وَجَلَّ**»[4].

والتحقيق بالمسألة؛ أن الأصل في الدين هو غلبة الرجاء، وإنما الخوف هو خادم له، خاصة أن (الخوف) بمعناه الإيماني إنما هو خوف المؤمن من الله، وهو إنما يكون مبنياً على العبودية لله والمحبة لله، ولذلك كان خوفاً مأجوراً، ومن هنا كان مبنياً على الرجاء. فخوف يقود إلى الجنة ليس خوفاً بمعناه المرضي، وإنما هو خوف باطنه سرور كما حُكي عن الجنيد- رحمه الله- في وصف دمعة الخشية من الله تعالى: إن العين بها لتدمع، وإن القلب بها ليفرح. أما الخوف المرضي فهو يقود إلى الاكتئاب واليأس والقنوط. وهذا منهي عنه شرعاً بل هو من أوصاف الكافرين قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[5].

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) البقرة: ٢١٨.
(٣) الإنسان: ١٠، ١١.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٣٤).
(٥) يوسف: ٨٧.

فالتخويف الإلهي إذ يتعلق بعبده المؤمن إنما هو تخويف تحبيب وإشفاق وتربية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[1]. فإنما هم (عباده) إذن.

واستعمال فعل (يخوف) يدل على القصد التربوي، وكأنه إنما يخوف عباده، قصد الوصول بهم إلى شاطئ التقوى والأمان؛ إذ الخوف الذي يسكن قلب العبد إنما هو خوف التقوى، والتقوى إنما تحصل بالمعرفة بالله تعالى وأسمائه الحسنى. فبقدر معرفتك بالله تكون تقواك وخشيتك له عز وجل. وذلك يقود إلى السكينة والاطمئنان، وهو معنى الرجاء في نهاية المطاف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2].

وقال سبحانه في حق البشرية ابتداء، أي في بداية خلق الإنسان وإسكانه الأرض: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]. بل إن غلبة الرجاء على الخوف قدر إلهي كريم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لما خَلَقَ الله الخلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، هُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهْوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ- إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»[4].

وهذا الذي قبله نص في أن التبشير هو الأصل، وبه يتعلق الرجاء لدى العاملين، وهو تقرير إلهي ثابت، قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[5].

فالخوف نبض القلب الراجي رحمة ربه، يحدوه إلى أعلى منازل الصديقين، في جنة رب العالمين، كما الحديث المذكور قبل «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ فَقَدْ بَلَغَ المنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجنَّةُ**»[6]. فإنما هو خوف له أنوار وجمال في القلوب السارية إلى الله[7].

---

(١) الزمر: ١٦.
(٢) فاطر: ٢٨.
(٣) البقرة: ٣٨.
(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٥) الزمر: ٧٤.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، وصححه الألباني.
(٧) جمالية الدين: ص ٢٤٠، ٢٤٣- ٢٤٧.

ولعل بعض الناس اختلط عليهم مفهوم (الخوف) بـين معنييـه: التعبـدي والتعودي؛ ذلك أن الخوف نوعان (خوف عادة) (وخوف عبادة).

فالأول هو الموجود بالفطرة لدى الإنسان، وهو الـذي إذا جـاوز حـده كـان مريضاً نفسياً أي (فوبيا) تدمر الأعصاب وتحطم الشخصية. وهذا خوف مذموم شرعاً، لا يكون إلا عند شخص ضعيف الصلة بالله أو جاهل بعقيدة الإسلام.

وأما (خوف العبادة) فهو ذوق نوراني وخـاطر رحمـاني يفـيض عـلى قلـب العبد من صفات الجلال في أسماء الله الحسنى لما يشاهده في سـيره إلى الله تعـالى من مشاهد الملك العلوي، وشؤون الربوبية العظمى ومقامها الجليـل المهـيمن على الكون كله، خلقاً وأمراً وتقديراً وتدبيراً من يوم التكليف بالأمانة إلى يـوم التجلي للقضاء بين العباد، وما يتراءى للعبد في ذلك من مشاهد القهر والقـوة والعزة والجبروت، ثم ما تنطوي عليه تلك الأقدار جميعها مـن حكـم وأسرار تضرب في عمق الغيب المجهول، مما ينتج عنه خوف له لذة العبادة لله الواحـد القهار والأنس بالتقرب إليه تعالى. إنه- إذن- خوف المحب من محبوبه.

ومن هنا أنكر المحققون أن يكون الخوف- مجرداً- هو أصل العبادة إنكـاراً شديداً. قال الإمام ابن القيم- رحمه الله- منكـراً عـلى الإمـام الهـروي «شـيخ الإسلام الهروي حبيب إلينا والحق أحب إلينا منه» ثـم قـال في الـسياق ذاتـه: «هذا ونحوه من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات». ثم قال بعد ذلك في نص نفيس: «فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لتعطلـت عبوديـة القلـب والجـوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، بـل لـولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه لما جرت سـفن الأعـمال في بحر الإرادات (...) وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجـاء. فكـل محـب راجٍ خائف بالضرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه، وكذلك خوفه فإنـه يخـاف سقوطه من عينه وطرد محبوبه له وإبعـاده واحتجابـه عنـه (...) لكـن خـوف

المحب لا يصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف رجاء الأخير. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، فهو راجع إلى ظن العبد بربه تعالى كما في الحديث القدسي «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[1]. ومن جمال الله- عز وجل- أنه أحب أن يَعْرِفَهُ عباده من باب الكرم والإحسان. فهذه أنوار تتدفق أبداً من علياء السماء أنهاراً كوثرية، صافية الود، عظيمة المد، ليس لها حد.

فما عليك إلا أن تقترب أيها العبد.. اقترب قليلاً نحو المنابع يصبك الرذاذ الجميل، فيعلق القلب بالشوق إلى مصدر النبع، وتهبّ ريح الرجاء الطيبة. نعم لو عرفت حقاً لرجوت رجاء الموقن، وأنه كلما اقترب إليه عباده بالطاعات ازدادوا به معرفة وعلماً، واستنارت قلوبهم بنوره الذي لا يخبو.

من المقرر أن الطاعة تورث الجزاء من الرب الكريم فما جزاء الله؟ إنه توفيق وتسديد وحفظ وبشارات في الدنيا، وفضل ورحمة في الآخرة، عندما تعرف الله تعرف بشارته؛ إذ تأتيك تطرق قلبك السالك إليه تعالى، فلا تشبع من جمالها حتى تلقى الله ذلك؛ لأنها تزيدك قرباً. وإذا ازددت قرباً ازددت شوقاً، وذلك هو وقود الرجاء كما قيل:

**وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام**

وأما قول ابن القيم: «لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة بخلاف المسيء، ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف رجاء الأجير» فهو بيان أن (الخوف) متضمن للرجاء، ولذلك فهو لا يفضي إلى القنوط، ولا تصيب صاحبه وحشة من عبادته، بل هو في أنس دائم مع ربه وأنواره التي تملأ فضاء خطواته فيما بين يديه وذلك هو الرجاء حقيقة، وليس هو خوف المسيء كفراً وعصياناً، فهذا خوف حقيقي مدمر والعياذ بالله، كما أن رجاء العبد المحب الذي لا ينتج عنه خشية في الله تعالى، فإنما هو من علة الركون إلى التمني وترك الأعمال، فغلب

---

(١) سبق تخريجه.

الخوف على الرجاء، ورجاء المحب سليم لا علة فيه، بل هو حاد إلى الزيـادة في الأعمال؛ لأنه ناتج عن المعرفة بالله.

أما أبواب المعرفة المفضية إلى بطحاء الرجاء فهي الأعمال، وللأعمال أذواق العطاء الإلهي والكرم الرباني والفيض الإحساني.. فذق.

قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربـه تبـارك وتعـالى: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ. فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**»(١). فـانظر إلى الرجـل الزاهد كيف كان رغم زهده جاهلاً بالله فأتاه بغير علم فضل وأضل، فكان أن أكمل القاتل عدد المائة به؟ وانظـر إلى الرجـل (العـالم)- وقـد سماه الحـديث عالماً- كيف أفاد بعلمه ومعرفته بربه، وكيف أن الرجاء بـاب فـسيح لا يغلـق دون العباد شيئاً ما طرقوا باب هذه التوبة المباركة، وكيـف لا يمتلـك الرجـاء قلب عبد عرف أن هذا هو ربه؟ يعطي من يشاء ما يشاء بلا حساب.

إنها منزلة الخوف والرجاء؛ خوف من غير قنوط ورجاء مـن غـير غـرور، ويكفي من جمالها أنها الحداء الملائكي الـذي يمـلأ قلـوب الـسالكين بأطايـب الجنة، ورياحين المحبة، ويسوق السراة في خضرة النور الساجي، سيراً إلى الله.. حتى إذا ذاق العبد لذة التعبد كانت التجليات، فعرف ربه. فـإذا عرفـه أحبـه. وحينئذ يضرب الجناح بمواجيد الشوق ضربة أعلى في طبقات السماء، رقيـاً إلى منزلة المحبة، وما أدراك ما منزلة المحبة!(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١/ ٢٠٧).
(٢) جمالية الدين، ٢٤٧-٢٥٢.

## المسألة الرابعة عشرة:

### جمالية المحبة:

منزلة المحبة أشرف منازل العبودية، وأصدقها ترجمة لشهادة أن (لا إله إلا الله)؛ ذلك أنها ترفع العبد إلى شهود العبودية. أي أن العبد يدخل باب الأنس بالله، فيجد لأعماله الصالحة لذة السير ومتعة الركوع والسجود؛ حيث يشهد خضوعه الجميل لله انقياده المتدفق لأمره ونهيه، طاعة يغمره الشوق إلى رضا المحبوب، شوق يسلك العبد في قافلة المحبين الضاربة في تاريخ الدين. فمع هؤلاء لا يشعر السائر بمشقة ولا عنت، بل يجد في مكاره الطريق رائحة الجنة، وأريج ظلالها الريانة. أنت مع محمد إذن.. أنت من السابقين بإذن الله.. نعم نحن في آخر قافلة السراة إلى الله، ولكننا نصل أولا إن شاء الله، قال عليه الصلاة والسلام: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا**»(1).

**من لي بمثل سيرك المدلل؟ تمشي رويداً وتجيء في الأوَّل**
**أظنها تمشي الهوينا وتكُنْ**

ذلك أنك مع أحب الخلق إلى الله، محمد ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(2) فإن كتب (معه) حقاً، فإن المعية تقتضي التشبه بصفاته، ألا وإن أعلاها هو القرآن الكريم، وما القرآن إلا كتاب المحبة، وإن أول تجليات المحبة على حركة المحب أن ينقاد شوقاً إلى المحبوب، ينقاد حباً ورغبة، انقياداً يحدوه الطمع في الرضا، والرجاء في الوصال(3).

قال- عليه الصلاة والسلام- في حديث جميل: «**إِنَّ للهِ آنِيَةً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، وَآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَأَحَبُّهَا إِلَيْهِ أَلْيَنُهَا وَأَرَقُّهَا**»(4).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

(٣) جمالية الدين، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٤) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٦٣).

والناس في عكس أنواره العلوية ومشاهدة تجلياته الحسنى طبقات ومنازل شتى، والمعرفة بالله سير لا ينقطع إلا بالموت الجميل، والانتقال إلى جوار الكريم، حيث موارد الأنس واليقين. وقد سبق لرسول الله ﷺ كلام لطيف في وصف إشاري لنور الله- عز وجل- فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إِنَّ الله لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ**»(١).

**والسبحات جمع سبحة**: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور ونوابض الحسن وأشعة الجمال. ومن تدبر أسماء الله الحسنى- في سيره وعبادته- وجدها نجوماً رحمانية في سماء المعرفة بالله، تشرق عليه في لحظات النجوى والصفاء الروحي كالشموس والأقمار، وتفيض عليه من نور الله بأسباب الوصال ومواجيد الجمال والجلال، فلا يملك القلب آنئذ إلا أن يُلقي بمهجته في بحار المحبة(٢).

**خاتمة رحلة الجمال**:

وإن يكن من نتائج لهذه المشاهدات فهي أن (الجمالية) في الإسلام اهتمت أساساً بإنتاج (جمال الروح) وتزكيته صقلاً وترقية إلى أعلى مستوى ممكن في التجربة الإنسانية، ولم تستغرق كل جهدها في تلميع (جمال الصورة) بأصباغ (الحمأ المسنون) كما هو الشأن في الجمالية الغربية، وإنما جعلت الصورة تابعة للروح، لا العكس، تجمل بجمالها، وتقبح بقبحها. ومن هنا كان قول الرسول ﷺ في حكمته البالغة: «**إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٩)، وصححه الألباني.

(٢) جمالية الدين، ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٨٥).

ذلك أن إنتاج (الإنسان الجميل) كفيل بإنتاج الحياة الجميلة والعمران الجميل، والعكس بالعكس قطعاً. ومن هنا كانت كل أصول الدين وفروعه- كما تجلت لك مشاهدة- تسعى إلى تربية الإنسان على استشعار الأذواق الجميلة في الاعتقاد والعبادة والسلوك. ولو استقرأنا هذه الحقيقة في فروع الشريعة لما وسعتنا المجلدات الضخام، وإنما كان غرض هذا الكتاب بيان المنطلقات الجمالية في الإسلام وأصولها، وإن الروح إذا جملت جمل كل شيء صدر عنها من الترتيل إلى التشكيل، أي من الاشتغال بالقرآن إلى الاشتغال بالعمران. وما بين هذا وذاك من شتى ضروب السلوك البشري والمعاملات الاجتماعية وسائر ما تقوم عليه الحضارة من مقومات.

ولنا أن نختتم هذه الإشراقات بنموذج من النبوة في بناء جمالية الروح وصرف الناس عن خداع الصورة؛ فعن أنس ﷺ: أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهراً، وكان يهدي إلى النبي ﷺ الهدية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ**». وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلاً دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِذًا وَالله تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَكِنْ عِنْدَ الله لَسْتَ بِكَاسِدٍ- أَوْ قَالَ: لَكِنْ عِنْدَ الله أَنْتَ غَالٍ**»[(١)].

ما الجمال إذن؟.. (زاهر) هذا الرجل البدوي ذو الصورة الذميمة، ممن يتحاشى الناس ملاقاته وصحبته، يختاره رسول الله ﷺ أساساً- من دون كثير من البدو- ليكون له صاحباً محبوباً. وكان القوم من الحضر آنئذ يتخذون لهم

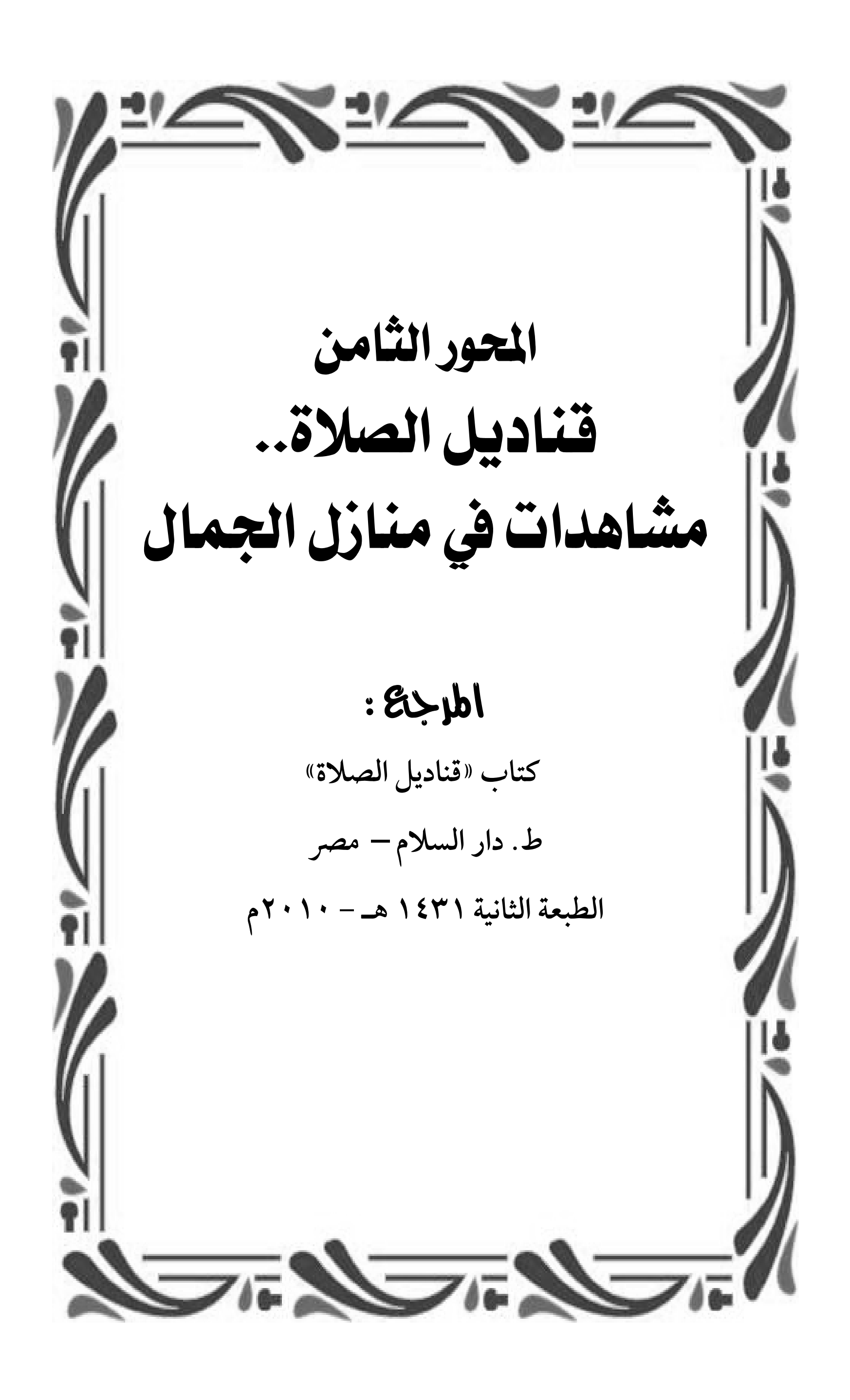
(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦١)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

من أهل البادية أصدقاء يتبادلون معهم المنافع المختلفة، فلا يختار رسول الله ﷺ لنفسه منهم إلا هذا الرجل الذميم «**إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه**» ويفاجئه مرة في السوق يبيع متاعه فيداعبه هذه المداعبة الطريفة التي قلما حظي بها أحد من أصحابه الخلص جداً. وما كان ذلك منه- عليه الصلاة والسلام- إلا تنبيهاً وتربية للآخرين: أن انتبهوا إن الجمال الحق ههنا.. تفيض أنواره مشعشعة من هذا الإناء البالي الذي زهدتم فيه (زاهر).. أجل، وإن جَرَّةً من الفخار القديم لتعلو قيمتها وتغلو إذا كانت تكتنز في باطنها ذهباً خالصاً.

إن جمال الروح هو الأصل في جمال الوجود كله.. وكل شيء تبع له. تلك هي النتيجة العامة إذن لهذه الورقات.

ثم يقول: فإنني لم أقصد أن أقول بهذا البحث الصغير: إن الحل هو أن تلتجئ إلى الاعتزال في المحاريب والزوايا بعيداً عن المجتمع وقضاياه، قصد المحافظة على صفاء الدين وجمالية التدين. وإنما القصد أن نحقق شهادة المحبة (لا إله إلا الله) بكل تجلياتها النورانية، ومشاهدها الروحانية، حركة حية في المجتمع، سارية في كل كسبنا وحركتنا الاجتماعية، القائمة على قصد تنزيل الدين منازله الجميلة في الواقع؛ عسى أن نقترب في تديننا- ونحن نمارس حياتنا العامة- من رونق الدين وجماله العالي الرفيع. وإنه لأمر عظيم، ولكنه سهل على من سهله الله عليه[1].

(١) جمالية الدين، ص ٢٧٧-٢٨٠.



## المحور الثامن

# قناديل الصلاة..
# مشاهدات في منازل الجمال

**المرجع:**

كتاب «قناديل الصلاة»

ط. دار السلام – مصر

الطبعة الثانية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

## قناديل الصلاة ..
## مشاهدات في منازل الجمال

يتحدث الشيخ فريد الأنصاري- رحمه الله- عن الصلاة كدواء، انطلاقاً من قوله ﷺ: «**تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ- لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً**»(١)، ثم يتحدث عن دواء مرض العصر، وهو الضياع، فيقول: ليس في صيدليتي غير سجادة بالية، وماء وتراب. في هذا الدواء تُحِسُّ بالدفء يورق في قلبك جنة ذات قناديل خُضر، ومصابيح تُوقَد من زيت مبارك، تمده كلماتُ الله، فتخر إلى الأرض ساجداً.

### المسألة الأولى:

#### صفة الصلاة :

الملك لله الواحد القهار. وهنا تنطلق رحلة العلاج عبر كلماته تعمر الكون الرحيب، وكان الصوت يمتد أطول ما يكون، حتى إذا أثخن في الآفاق تفتحت الكلمات النبوية تبشر بالغفران، و«**المؤَذِّنُ يُغْفَرُ لَهُ مَدَى صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ**»(٢)، فتتحرك قلوب الكائنات كلها، وترفع الأعين والأغصان راجية، تمد أشواقها نحو السماء. هذه لحظات عروج الأجنحة المثقلة بالتراب، بعيداً عن برك الآثام الآسنة، فأبواب الخير وحدها مفتوحة، في غيبة إبليس المدبر في الظلمات، أو ليس «**إِذَا نُودِيَ بِالصَّلاةِ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّماءِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ**»(٣) فهلم إذن يا صاح فقد «**أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ**»(٤)، فَرَقًا من كلمات الحق المبين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٥)، وأحمد (٢/ ١٣٦)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الطيالسي (٢١٠٦)، وأبو يعلى (٤٠٧٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤١٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩).

هيا يا من تريد الشفاء ارتحل مخترقاً حدود الزمان والمكان، لعلي أصيب رذاذاً من الغيث الذي أصاب الصحابة الكرام.

فجنبات المعمورة ما زالت تردد أصداء الحداء النبوي الجميل: «**أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الخطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخطَا إِلَى المسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»[1]. ألا هوناً عليك يا صاح! فما في الدنيا وَسَخٌ أو دَرَنٌ لا يغسله أريج الطهور، لكنما التحلِّي مقامٌ يُنْبِئُ عن تمام التخلِّي. فهلم إذن، وأتِ من أي الجهات أتيت، وبأي الأدواء ارتديت، فكل حفنة من الماء كفيلة بمسح بعض غبار الطريق. أو ليس «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ المسْلِمُ- أَوِ المؤْمِنُ- فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ الماءِ- أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الماءِ- حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ**»[2].

فلتسبغوا الوضوء على المكاره إذن- سادتي الأتقياء- فإنكم «**أَنْتُمُ الْغُرُّ المحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ**»[3].

تلك سيم الجمال في وجوهكم وأطرافكم، يوم تَرِدُون على المصطفى ﷺ. وهي سيم ليست لأحد من الأمم «**مَا مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَحَدٍ إلا أَنَا أَعْرِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» قَالُوا: وَكَيْفَ تَعْرِفُهُمْ يَا رَسُولَ الله فِي كَثْرَةِ الخلاَئِقِ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ دَخَلْتَ صَبْرَةً فِيهَا خَيْلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ، وَفِيهَا فَرَسٌ أَغَرُّ مُحَجَّلٌ، أَمَا كُنْتَ تَعْرِفُهُ مِنْهَا؟**» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّ أُمَّتِي يَوْمَئِذٍ غُرٌّ مِنَ السُّجُودِ، مُحَجَّلُونَ مِنَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١/ ٤١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤/ ٣٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦/ ٣٤).

الْوُضُوءِ»[١].

أنت الآن أمام جلال الله، تقدم إيمانك إخباتاً بين يديه تعالى.

أو لست تصلى؟.. و«إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى يُنَاجِي رَبَّهُ»[٢]. و«إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ الله قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى»[٣]. والله قبل ذلك وبعده ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[٤].

وهنا البداية في تفاصيل المناجاة، «قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي- وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[٥].

فأي كرم هذا، وأي نعماء؟

فأما الركوع فعظموا فيه الرب- عز وجل- إيذاناً لعظمة الله، وترديداً لإرشاد إمام الأمة في أدبها مع الله.

وتتوالى التسبيحات للملك العظيم: «سبحان ربي العظيم! سبحان ربي العظيم! سبحان ربي العظيم»، «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكةِ والرُّوح».

« اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٩)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي (١/ ١٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣١).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧).
(٤) غافر: ١٩.
(٥) أخرجه مسلم (٥٣٩).
(٦) أخرجه مسلم (٧٧١).

وتتكاثر القناديل حتى يتدفق النور من الفؤاد.

وفي الركوع سفار الغصن المنحني، إلى مقام تقويم النفس ورياضتها.. قال دليل السالكين إلى الله: إذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك، ثم فرِّج بين أصابعك، ثم امكث حتى يأخذ كل عضو مأخذه.

وتستمر رحلة الصلاة إلى قول المصلي: (سمع الله لمن حمده.. ربنا ولك الحمد)! ويمضي النبي الكريم ﷺ يرسم علامات النور، هُدى للعابدين، المتمثلين لأمر الله في اتباع إشارات الإمام، كلما ركع أو سجد.

وإذا قال: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**»[١]، «**يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»[٢]. وهذا تسابق الأنفاس بالحمد، لجني عناقيد الاتفاق، أو ليس «**مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٣]، وتعتدل الأغصان مستقيمة، وهي تزرع دفء الاطمئنان في فروعها، حتى ترجع الأنفاس إلى انسيابها الهادئ الجميل، لاهِجَة بالدعاء والثناء.. قال معلم السالكين: «**فَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ فَأَقِمْ صُلْبَكَ حَتَّى تَرْجِعَ الْعِظَامُ إِلَى مَفَاصِلِهَا**»[٤].

ثم بعد ذلك: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[٥]. «سبحان ربي الأعلى وبحمده».

بغصون بهرها جمال الله في عليائه، راحلة إلى مقام الجوار الأقرب؟ وكيف لا؟ وها تلك الغصون الريانة بذكر الله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[٦].

فدُقّ الباب إذن يا قلبي بأغصانك السبعة، فإنه «**إِذَا سَجَدَ الْعَبْدُ سَجَدَ مَعَهُ سَبْعَةُ آرَابٍ: وَجْهُهُ وَكَفَّاهُ وَرُكْبَتَاهُ وَقَدَمَاهُ**»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤٠٩/ ٧١).
(٢) أخرجه مسلم (٤٠٤/ ٦٢).
(٣) أخرجه البخاري (٧٨٢)، ومسلم (٤٠٩/ ٧١).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٠)، وصححه الأرناؤوط.
(٥) العلق: ١٩.
(٦) مريم: ٥٨.
(٧) أخرجه أبو داود (٨٩٠)، والترمذي (٢٧٢)، والنسائي (١٠٩٤)، وصححه الألباني.

دق الباب ولا تسأم! فإن المحب حقاً لا يسأم من نداء حبيبه، تنزيهاً لـه في عليائه: الله أكبر!

وترفع رأسك خاشعاً بين يدي مولاك، ترفعه دون أن ترفع بصرك، فالملك ما يزال قِبَلَكَ، يَرْقُبُكَ من فوق عرشه العظيم. فاجلس دون أن تفارق عيناك موضع سجودك. ولهيئة الجلسة بين السجدتين جمالٌ آخر، وذوق جديد، فقد كان النبي المعلم ﷺ «**يُكَبِّرُ حِينَ يَسْجُدُ، ثُمَّ يُكَبِّرُ حِينَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ**»(١)، «**وَكَانَ يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى**»(٢)، و«**اسْتَقْبَلَ بِأَصَابِعَهَا الْقِبْلَةَ**»(٣)، «**ثُمَّ اعْتَدَلَ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ مُعْتَدِلاً**»(٤).

ها أنت ذا جلباب نور يملأ هالته المكان.. ترفع غصنك من سجود خاشع، لتستوي جالساً على الأرض، بعد سياحة الروح في معارج ركعتين كاملتين.. كانت حدائقك قد فتحت شجيراتها زهور لوز ورمان، وأخرى مسكية الأريج، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ويهب العبير عليلاً طيباً، فيخفق الجنان فرحاً بلقاء الله.. ثم يفيض النور العلوي أقواساً ذات بهجة، إيذاناً بانفتاح مقام التشهد، فإذا بك تدلف إلى عالم ضحوي الشعاع، ربيعي التغريد، قزحي الألوان.. هذا مقام جني الثمار بعد طيّ أحوال السفار.. فوارد الرضا يعمر قلبك الساعة بحب الله، ويمدك برشفات من كأس الوصل، فيتجلى ربك بجلاله وجماله على قلبك المشوق بلقياه.. ويأذن لك بالتحية.

يا له من كرم! ويا له من إنعام! فلتنشر زهور روحك بين يدي حبيبك يا صاحِ، ولتأخذ بأسباب الأدب النبوي، قبل بث تغريدك بالتحيات.

ثم يرسم سراجُ الأمةِ محمدٌ ﷺ تعاليمَ النبوة، من أدب لقاء الملك العظيم،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٨٩)، ومسلم (٣٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (٤٩٨/ ٢٤٠).
(٣) أخرجه النسائي (١١٥٨)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٠)، وصححه الألباني.

عند موعد التشهد الأول من كل صلاة، ويقول معلماً: «**فَإِذَا جَلَسْتَ فِي وَسَطِ الصَّلاَةِ فَاطْمَئِنَّ، وَافْتَرِشْ فَخِذَكَ الْيُسْرَى ثُمَّ تَشَهَّدْ**»[1]. وقد كان هو عليه الصلاة والسلام: «**يَفْرِشُ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، وَيَنْصِبُ رِجْلَهُ الْيُمْنَى**»[2]، و«**وَضَعَ يَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُسْرَى، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رُكْبَتِهِ الْيُمْنَى، وَعَقَدَ ثَلاَثَةً وَخَمْسِينَ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ**»[3] أي أنه ﷺ كان إذا تشهد «**أَشَارَ بِأُصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ إِلَى الْقِبْلَةِ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ إِلَيْهَا**»[4]. وكان «**يُحَرِّكُهَا يَدْعُو بِهَا**»[5]، «**وَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى إِصْبَعِهِ الْوُسْطَى، وَيُلْقِمُ كَفَّهُ الْيُسْرَى رُكْبَتَهُ**»[6][7].

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٠)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩٨/ ٢٤٠).

(٣) أخرجه مسلم (٥٨٠).

(٤) أخرجه النسائي (١١٦٠)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٥) أخرجه النسائي (٨٨٩)، وأحمد (٤/ ٣١٨)، وصححه الألباني.

(٦) أخرجه مسلم (٥٧٩).

(٧) قناديل الصلاة، ص ١٣، ٢٢، ٢٧، ٢٨، ٣٣، ٤٠، ٤١، ٥٦، ٦١، ٦٥، ٧٦، ٨٢.

## المسألة الثانية:

### أوقات الصلاة:

وبعد رحلة صفة الصلاة ودوائها، تأتي رحلة أوقات الصلاة.

لحظة؛ ويكون الأذان.. فينفجر سيل الحياة الفضي، نهراً يتدفق بضوء بهيج، يمسح شيئاً فشيئاً غبش الوجود!

ويصدح الحمام الولهان، يغرد هنا بصوته الشجي: الصلاة خير من النوم.. الصلاة خير من النوم.. وهنا تعانق بأجنحتها الأرضية أجنحة ملائكة السماء؛ احتفالاً بقرآن الفجر.. فاشهدي يا خوافق السالكين جمالية البكور الأولى ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(١)].

هنا صلاة الفجر، فاملأ كأسك، يا صاح، بترياق الشهد المشهود.

قال أبو هريرة ﷺ وهو فاتحاً قلبه وبصره: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تَفْضُلُ صَلاَةٌ فِي الجمِيعِ عَلَى صَلاَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»[(٢)]، قال: «**وَتَجْتَمِعُ مَلاَئِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ**». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(٣)].

نعم «**وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[(٤)].

كيف ذلك يا رسول الله؟ «**مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ الله، فَلاَ يَطْلُبَنَّكُمُ الله مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ**»[(٥)].

ألا فاملئي نوْحك يا حمامة القلب شجىً وشجناً، وانثري روحك أنفاساً

---

(١) الإسراء: ٧٨.

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٥) أخرجه مسلم (٦٥٧).

فجرية اللون بين يدي مولاك، فرقاً أن يغمر سيل الطين آذان الأغصان الوسنى، فيمر أريج الحياة وهي غائبة في غيابات اللحظة الموات. إنها بشارة النبي ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[1].

فأي كوكب هذا الذي ينسى استدرار نور الله عند المطلع الأول؟ من أديم السواد الغامق الجميل، تتشكل براعم ذات إشعاع رمادي، ثم تتفتح وُريقات تفيض زرقة عميقة، فتنتشر قليلاً في عرض الأفق.. ثم تنمو الوردة متفتحة في خفاء، شيئاً فشيئاً، تبث في الفضاء أنفاس الحياة.. وما هي إلا لحظات؛ حتى يفيض قلبها النابض على الكون كله بنور فضّيّ، يتدفق مثل الشلال، إيذاناً باقتراب وصول الخيول الأولى لموكب الشمس.

وتمر الساعات ليأتي الظهر والتهجير لها: «**وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ**»[2].

ولصلاة الظهر جمال الرشفة الثانية من كوثر النور.. تعود إذن، والعود أحمد، تعود والحنين يملؤك إلى ما عرفت، لا إلى ما لم تعرف، وإلى ما ذقت، لا إلى ما لم تذق، لكن بحال غير الحال، وبوَجْد غير الوجد، ولكل يوم ملف وحساب! فقد كانت صلاة الفجر محطة انطلاق الجناح الراجي فضل مولاه، حتى إذا عَرَكَ ما عَرَكَ، وخاض ما خاض، عاد في الظهيرة يابس العود، يرجو رحمة مولاه.

ثم الشمس تنحني في الفضاء راكعة، فتنتشر الظلال مسبحة في كل مكان، فلكل غصن أو طلل ظل في الأرض، طوله مثل قامته وزيادة.. فكل شيء يعود إلى سكونه.. لكنك وحدك يا سالك ما زلت تضرب في صخب الحياة، وتدافع

(١) أخرجه مسلم (٦٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

أدخنة اللهيب هنا وهناك، حتى إذا نضب الماءُ المستسقى من صلاة الظهر؛ أحسست بأبخرة العطش اللاهب تصَّاعد من فؤادك.. فتتطلع بعينيك الداعيتين إلى السماء، تستدر الرحمات.. وما هي إلا لحظات حتى ينهمر الأذان، وتؤوب إلى المسجد من جديد.

كان الكوكب يتحرك هذه المرة بصعوبة، فأدخنة الأسواق قد كثَّفت سُرادقها، وأثقلت فضاء المدار بالغبار، فحاصرت أجنحة المحبين.

تفنى في الغروب.. طرفة غفلة واحدة منك يا سالك بعد الأذان، ويكون نهارك قد فات. فلا عصر بعده إلى يوم الحساب.

وللعصر احتفال مثل احتفال الفجر الملائكي.. فوا حسرة على من فاتته فتوحات النور! فيا أيتها الأغصان العجفاء، أورقي لبهجة الأوراد نَدًى وريحاناً؛ فإنه: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الْعَصْرِ وَصَلاَةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[1].

عجباً! وأي عين هذه التي تغفو؟ وأي ذاكرة هذه التي تشرد؟ وأي قلب؟

هذا باب الوصول الخفي، تفضي المناجاة فيه سراً- عبر أربع ركعات- إلى آخر درجة من معراج النهار، بدءاً بالفجر حتى صلاة العصر، ثم تكبر فإذا بك ساجد لدى الأعتاب العليا.. هنالك تنهل ببصرك من جمال الله، لا تُضام في وصال المحبوب شيئاً.

وتومض في القلب السائر بشارتان: قصور الجنة، ولقاء الملك الكريم.

هنا صلاة العصر.. هنا واسطة العقد الدري، ساعة اكتمال البدر عبر طول المدار.. فارشف كأسك يا عابدا، وذق معنى صلاة العصر! ثم اركب جناح

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٦٣٢).

الروح، ودُرْ عبر مواجيد الملك الذي لا يزول..! وادخل على مولاك ممسياً، من باب صلاة خاتمة النهار وفاتحة الليل.. فهذه لحظة فاصلة بين عالمين، لكل عالم منهما أحواله، وتجلياته، وأذواقه.

الغروب.. لحظة لها ما لها في مواجيد العبد السالك.. فكيف أنت إذ تنثر دمعتي فراقًا ولقاءً على صفحات عمرك الراحل؟ كيف أنت إذ توقد قنديل الصلاة محتفلاً بغروب النهار، وأنت ترتل الشَّجا بين خوف ورجاء؟

**صلاة المغرب:**

وتتميز اللحظة بصلاتها الثلاثية، تختم بها مدارج النهار، لتفتح مدارج فضاء آخر، من الجهة الليلية لمدارك. فاختم يا عبدُ نهارَك مُوتراً بصلاتك، فإنما جُعل الوتر خاتماً. و«**صَلاَةُ المغْرِبِ وِتْرُ النَّهَارِ**»[1]. وإن عملاً لا ختم عليه لهو عمل أبتر.

الله أكبر! ويصدح الطير بالقرآن جهراً، يعلن للناس حقيقة الكون الغاربة أيان مرساها.. فتحلق الطيور سرباً سرباً، تجأر إلى مولاها، عساها تستنير برضا وجهه الكريم، ويتحول المحيط الكوني من مشرقه إلى مغربه تنبيهاً للغافلين.. فتأفل أجرام وتبرز أخرى.. وتشهر أن لا شيء يبقى، فلكل شروق غروب.. وإنما الباقي هو رب المشارق والمغارب ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ويوقد العبد قنديل الصلاة، مستأنساً بنور الله.. وتبقى أجنحة أخرى ظلت تعبد أشعة الشمس في معبد المال والأعمال، تخبط ليلها حيرى بغير أنيس!.. وللمحب صوتٌ شجي يتدفق بالقرآن، فينتشر الهدى أنواراً.. تدعو الحائرين إلى الله: يا أيها الجناح الشارد هذا نهارك قد أَفَلَ، وما يدريك لعل الدور عليك! فهذه أوراق غصنك الفاني بدأت تتلاشى، فاسلك فضاء الأجنحة الآيبة إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين.
(٢) البقرة: ١١٥.

الله قبل فوات الأوان، واشهد مع العباد المهتدين توبة الغروب! ﴿ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ويدلج المحبون إلى الله هوناً، تحفهم قناديل الأنس، ويحدوهم جمال الرجاء.

الآن يطفو سواد الليل الساجي على آخر آثار النهار، فيمحو الشفق الدامع على المغارب، ويزرع الأفق الأعلى نجوماً درية الوميض، ثم يبدأ احتفال السالكين بانطلاق لحظة السُّرى.

كان الليل قد سكن، وآوت الأنفاس إلى كهوفها، وانقطعت أصداء الضفادع إلا قليلا.. وللأجساد الساعة ارتخاءٌ على أرائك الراحة، من بعد ما مسَّها من لغوب النهار، تترقب عشاء ساخناً، أو تنثر ثرثرتها في سمر المتعبين، أو تتملى أخبار الدنيا من شاشة أو مذياع، في كسل يعتقل أجفانها الذابلة شيئاً فشيئاً؛ حتى تستسلم لمنامها! أما الذاكرون العاملون فهم القليل..! فأي نداء هذا الذي يمكن أن ينهضها الآن؟

وتغوص في ذاتك يا عبد في ارتقاب وقت الصلاة؛ مسترجعاً صور المعارك من الغداة حتى المساء.. تقف عند هفوات القلب، وكبوات الخطى، فتشعر بالأدران تثقل جناحك، وتعلو سَعفك المخدَّر بالتعب، فتتوق إلى شلال الرحمة، وجداول الغفران.. حتى إذا غمر الأذان دلجة السالكين بنوره؛ قمت تلتمس بشائر الرسول الحبيب ﷺ، المتجلية على قلوب المحبين في عتمات الطريق.. فتنهمر الكلمات النبوية على غصنك برذاذ من نشاط الروح أن «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

كانت الأغصان قد استراحت إلى جذوعها، فذاقت طعم الاسترخاء؛ بما علاها من غبار النهار، ولكن يأبى عليها الله إلا أن تنام طاهرة الزهور، ريانة

(١) الأنعام: ٧٨، ٧٩.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وابن ماجه (٧٨١)، وصححه الألباني.

العروق، ندية الأفنان، فيلاحقها صدى النذير بالحقيقة العميقة، مخرجاً إياها من دلجة اللحظة إلى فضاء النور الضارب في أعماق الكون: الله أكبر.. الله أكبر.

وتتواتر صور الحقيقة الكبرى في نشيد الأتقياء.. ثم يبادر المقربون بترك الأوكار، ونفض السمر.. وتنساب الأسراب إلى قناديل الصلاة من جديد.

وإنما وقت التجلي الخامس، في مدار العبد السالك، هو عمق الليل الساجي، يبدأ منه عفو الله بعد مغيب الشفق، ويكتمل منه فضل الله باكتمال ثلث الليل الأول، أو نصفه، وللحبيب المصطفى ﷺ إشارة علم للمحبين. قال الصحابي الخدوم أنس بن مالك رضي الله عنه: أخر النبي ﷺ صلاة العشاء إلى نصف الليل! ثم صلى، ثم قال: «**قَدْ صَلَّى النَّاسُ وَنَامُوا. أَمَا إِنَّكُمْ فِي صَلاةٍ مَا انْتَظَرْتُمُوهَا**». قال أنس: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِيصِ خَاتَمِهِ لَيْلَتَئِذٍ[1].

فللذكرى الطيبة ارتسامٌ جميل بقلب العبد المحب، حتى بريق الخاتم الفضي في يده- عليه الصلاة والسلام- كان له حظ من الحنين. وكيف لا؟ وهذا الصحابي المشوق يملأ عينيه من أنوار رسول الله ﷺ، ويتلقى منه كلمات النبوة الطاهرة بكل جوارحه.. فلا يغيب عن قلبه شيء من هيئة النبي- عليه الصلاة والسلام.

وينثر المصطفى ﷺ حكمة الخير في سماء الأمة، نجماً درياً يضيء إلى يوم القيامة، هدى للمتبتلين: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ**»[2].

فما سر ذلك يا رسول الله؟ قال: «**فَإِنَّكُمْ قَدْ فُضِّلْتُمْ بِهَا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَلَمْ تُصَلِّهَا أُمَّةٌ قَبْلَكُمْ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٧)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢١)، وصححه الألباني.

الله أكبر..! فيا لجمال التفرد في عبادة الملك الودود! ويا لكرم تفضيله لأمة الغر المحجلين! فانهل من جداول إحسانه- يا صاح- أنواراً فريدة المنابع، واسجد لمولاك في غسق الليل شاكراً لأنعمه، فلصلاة العشاء تجليات الصفاء، وأريج الأتقياء ينتشر في مسالك النور المنسابة في سكون المحبة، عروجاً إلى مقام الصديقين.

كل الزهور تقبض أنفاسها ليلاً؛ إلا «مسك الليل» الفاتح من شجر اللَيْلكِ، فهو وحده يبسط أزهاره الندية عند سكون الليل، فيرسل أريجه الزكي إلى كل مكان.. ويصنع من اللحظة الداجية حفلة من أنوار الطيب، تجول بمواكب المحبين في مملكة الله، عبر رحلة ليلكية الجمال، ملائكية الحُداء.. فترحل الأرواح لاكتشاف كنوز الرحمن، بسامر الجلال. تلك كأس لا يتاح ارتشافها إلا بدلجتين اثنتين: الفجر والعشاء، و«**إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى المنَافِقِينَ صَلاةُ الْعِشَاءِ وَصَلاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»[1].

هنا المطلع الخامس والأخير من مطالع الكوكب الدّرّيّ: ميلادُ أفراح الروح في غفلة اللحظة الصاخبة.. فلك الساعة- يا صاح- أن تنال من أنوار السكون، بعتمة العشاء، أمواجاً من وميض المعرفة بالله، لها على القلب وقع القرب، بلا صخب ولا جَلب! فاحرص- يا صاح- على دخولها مع سرب الأجنحة المتوضئة، منتظماً بجماعتها، صفًا في عقد الدر الملائكي؛ تنل من مشكاة ناشئة الليل مصباح القانتين. أوليس «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ**»[2]. ففجر- أيها المحب- عيون الكوثر.

وحينما ينتهي العبد من الصلوات المفروضة ينفتح باب السرى إلى الله! فترى معارجه معشبة بالنوافل الخالصة، والصلوات القانتة.. معارج يلجها المحبون فرادى.. إنها غصونٌ سُقيت من غدران الإخلاص؛ فتسابقت إلى

(١) أخرجه مسلم (٦٥١).
(٢) أخرجه مسلم (٦٥٦).

محراب الحبيب آحاداً، وأنَّى لمن أيقن بالرحيل أن ينام؟ وأنَّى لمن أيقن بالجنة والنار أن يأمن؟ وإنما الخوف طيبٌ من زهور المخبتين.. الذين ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[1].

إلا رياح الشوق تطرد النوم عن عيون المحبين، فيتململون في فرشهم عند ذكر اللحظة البارقة، ثم تنجذب قلوبهم إلى هبوب الروح، فينهضون سراعاً، يستدرون قطر الحياة من ماء الوضوء، ثم ينسلون بهدوء إلى خلوات المحاريب فيذوقون معنى القرب: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ الله فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»[2].

إنه السر العظيم في قوله ﷺ: «**يَنْزِلُ الله إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ، فَيَقُولُ: أَنَا الملِكُ، أَنَا الملِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلاَ يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ**»[3].

إنها وصية النبوة الطاهرة، لافتة معلقة على باب الليل، تبشر السراة بوصفة الدواء الشافي: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ**»[4].

ومع أهمية قيام الليل، إلا أن النبي المعلم ﷺ لم يُلزم أحداً من أصحابه بقيام الليل، ولكنه ما كان يحب لأحد منهم أن ينام الليل كله بغير صلاة، ولا أن يكون من المحرومين.

ذُكِرَ عنده يوماً عبد الله بن عمر ﷺ، وكان شاباً أعزب، فقال ﷺ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**». قال سالم مولى ابن عمر: فكان عبد الله

---

(١) السجدة: ١٦.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٩٧)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨)، والترمذي (٤٤٦)، وأحمد (٢/ ٤١٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وصححه الألباني.

بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[١].

صلاة الليل مفتوحة: «**صَلاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعَةً وَاحِدَةً**»[٢]، و«**الْوِتْرُ رَكْعَةٌ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ**»[٣]. وقد كان دليلُ السالكين، الحبيبُ المصطفى ﷺ يصلي- بمحراب النافلة- «**يُصَلِّي مَا بَيْنَ أَنْ يَفْرَغَ مِنْ صَلاَةِ الْعِشَاءِ إِلَى الْفَجْرِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُسَلِّمُ فِي كُلِّ ثِنْتَيْنِ، وَيُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ**»[٤].

أما نبينا ﷺ فهو سيد المحبين والمتهجدين. فها هو الصحابي الجليل عبد الله ابن عمر- رضي الله عنهما- لم ينس ليلة صلى مع النبي ﷺ في بيته متهجداً، وهو آنئذ شابٌّ حدثٌ، صغير الجناح، فلم يقدر على التحليق في آفاق النبي- عليه الصلاة والسلام، وعَيِيَ حتى كاد أن يخرج من الصلاة، قال: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَطَالَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ. قَالَ: قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ[٥]. ذلك أنه ﷺ من فرط حبه لمولاه؛ كان طويل القنوت في تهجده؛ إذا افتتح القرآن مرتلاً لم يزل سائحاً في ملكوت الله إلى أن يشاء الله. فقد سُئل ﷺ: أيُّ الصلاة أفضل؟ قال: «**طُولُ الْقُنُوتِ**»[٦].

والمقصود بطول القنوت في هذا السياق: طول السكون والإخبات. ويكون ذلك بطول القيام؛ لكثرة ما يقرأ في صلاته من القرآن، ثم طول الركوع وطول السجود؛ لكثرة استغراقه في التسبيح والدعاء والاستغفار.

أما حُذيفة بن اليمان ﷺ فقد قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ

(١) أخرجه البخاري (١١٥٧).
(٢) أخرجه البخاري (٩٩٠)، ومسلم (٧٤٩).
(٣) أخرجه مسلم (٧٥٢)، والنسائي (١٦٨٩)، وأحمد (٢/ ٥١).
(٤) أخرجه النسائي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٣٥٨)، وأحمد (٦/ ١٤٣)، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه مسلم (٧٧٣)، وأحمد (١/ ٣٨٥).
(٦) أخرجه مسلم (٧٥٦).

فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَتَيْنِ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا.. يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**» فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» فَكَانَ قِيَامُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ، ثُمَّ سَجَدَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**» فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ رُكُوعِهِ[1].

وفي مشهد آخر من أجَلِّ مشاهد النبوة، لم يزل رسول الله ﷺ يبكي في صلاته؛ إذ أراه الله من أسرار ملكوته ما أراه؛ حتى بكت الأرض ببكائه- عليه الصلاة والسلام؛ فقد سأل عبيد بن عمير عائشة- رضي الله عنها- قال: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ. قال: فسكتت، ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال ﷺ: «**يا عائشة، ذريني أتعبد الليلة لربي**» قلتُ: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سَرَّكَ.. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلى، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره. قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته. قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لم تبك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت عليّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2][3].

فكان ﷺ إذا صلى قطع صلته بالتراب، ودخل في مناجاة رب الأرباب، فلم يزل خاشعاً باكياً، بما شاهد وعرف وعلم، حتى ينصرف عن الصلاة.

---

(١) أخرجه النسائي (١٦٦٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

هذه صلاتك يا من تبحث عن الدواء، جمِّلها بصلاة الجماعة في الفرائض المكتوبات، وكن مع إخوانك صفاً واحداً كما قال ﷺ: «**أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الملاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا**»، فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟، قال: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**»(١).

ليسير مع قوافل السائرين إلى الملك العظيم قناديلها تتوهج؛ ذلك أن «**صَلاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الْفَذِّ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»(٢).

يتزاحم على الخير في الصف الأول ويتنافس على صدر القافلة، «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا**»(٣).

والأيام تتفاضل في الخير، وأعياد المسلمين تتسارع في سيد الأيام.. إنه يوم الجمعة!.

قال- عليه الصلاة والسلام: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ. وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا وَهِيَ مُسِيخَةٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلا الجِنَّ وَالإِنْسَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهَا**»(٤).

فهو يوم يجمع بين بهجة الجمال وهيبة الجلال!

وقال ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ المسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَوْا الصُّحُفَ وَاسْتَمَعُوا الخطْبَةَ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠/ ١١٩)، وأبو داود (٦٦١)، والنسائي (٨١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦)، وأحمد (٣/ ٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

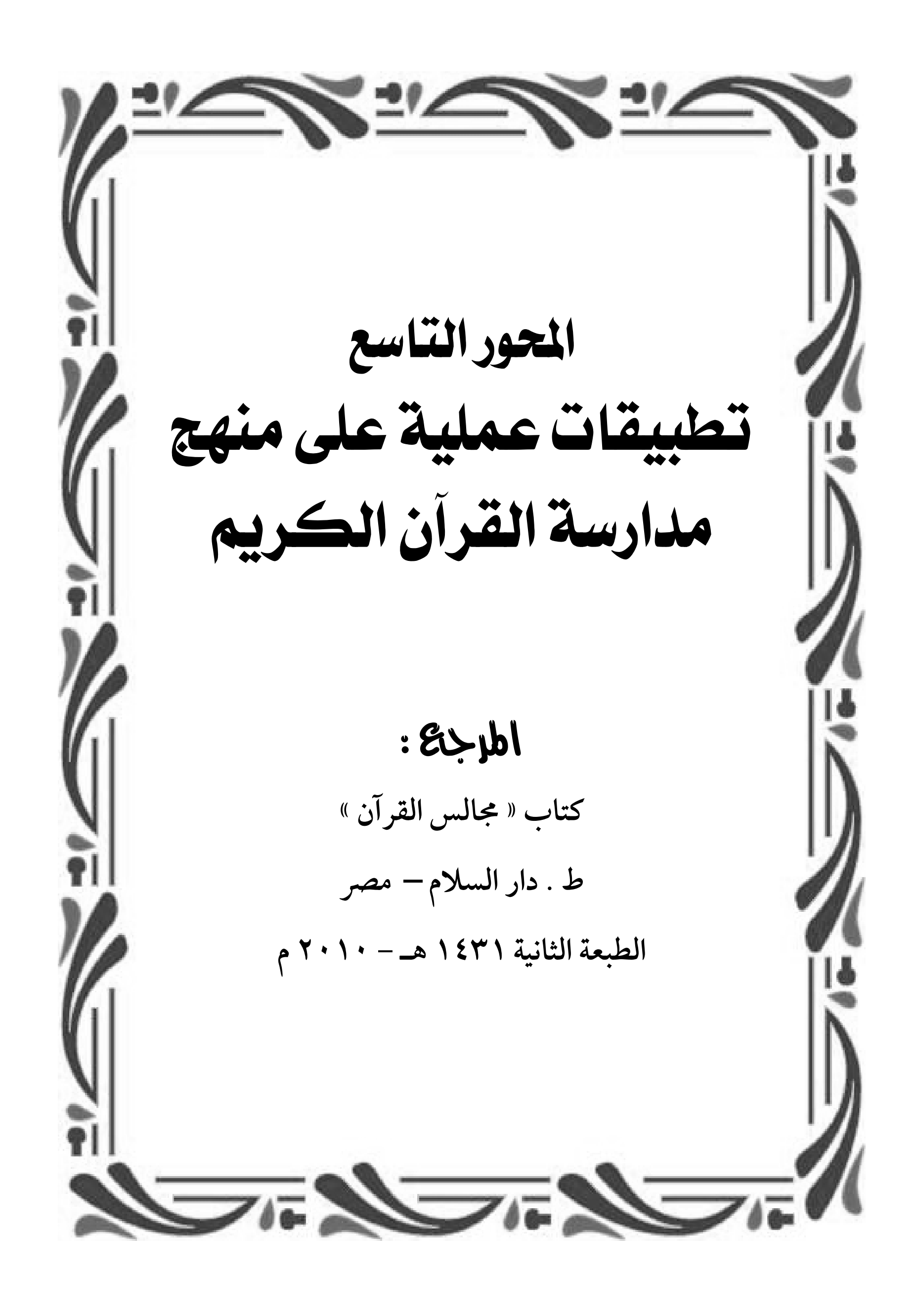
(٤) أخرجه أبو داود (١٠٤٦)، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٢)، وصححه الألباني.

كان الحبيب محمد ﷺ في مجلسه البهي، يرش وجوه أصحابه الكرام ببشارة الجمال، ويقول: «**إِنَّ فِي الجنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً. فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً**»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).



## المحور التاسع

# تطبيقات عملية على منهج مدارسة القرآن الكريم

### المرجع :

كتاب « مجالس القرآن »

ط . دار السلام – مصر

الطبعة الثانية ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

# تطبيقات عملية على منهج
# مدارسة القرآن الكريم

## المسألة الأولى:

### مكانة كتاب «مجالس القرآن» في مشروع د / فريد الدعوي:

يقول المؤلف- رحمه الله: بالقرآن بعث الله الحياة في عرب الجاهلية، فنقلهم من أمة أمية ضالة إلى أمة تمارس الشهادة على الناس كل الناس.

كان القرآن في جيل القرآن مفتاحاً لعالم الملك والملكوت. ألم يكن هو الشفاء وهو الدواء؟ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[1]. ألم يكن هو الماء وهو الهواء لكل من كان حياً- على الحقيقة- من الأحياء؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

إنه القرآن الذي صنع التاريخ والجغرافيا للمسلمين؛ فكان هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف، وكان له هذا الرصيد الحضاري العظيم، الموغل في الوجدان الإسلامي.

وبعد أن استعرض الكاتب- رحمه الله- مكانة القرآن في إحياء الأمة قال: أليس القرآن الذي نتلوه اليوم هو عينه القرآن الذي تلاه أولئك من قبل؟

فما الذي حدث لنا نحن أهل هذا الزمان إذن؟

ذلك هو السؤال، وتلك هي القضية.

لا شك أن السر كامنٌ في منهج التعامل مع القرآن، وهو ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه من أمر القرآن. فمن ذا اليوم يستطيع الصبر عليه؟ وإنما هو تلقٍّ للقرآن آية آية، وتلق عن القرآن حكمة حكمة، على سبيل التخلق الوجداني،

---

(١) الإسراء: ٨٢.

(٢) يس: ٦٩، ٧٠.

والتمثل التربوي لحقائقه الإيمانية العمر كله، حتى يصير القرآن في قلب المؤمن نفساً طبيعياً، لا يتصرف إلا من خلاله، ولا ينطق إلا بحكمته. فإذا تلاوته على نفسه وعلى من حوله غير تلاوة الناس، وإذا بحركته في التاريخ غير حركة الناس، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ألم يئن الأوان بعد لتجديد رسالة القرآن؟ ألم يئن الأوان بعد لتجديد عهد القرآن؟ وإنما قضية الأمة- كل قضيتها- ههنا تجديد رسالة القرآن ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

ثم يقول- رحمه الله: من أجل هذا وذاك إذن كانت هذه الورقات. غايتها بيان منهج الاشتغال بكتاب الله، وكيفية إعادة بناء الأنفس على وِزَانِه، وَوِفْقَ مقاييس تصميمه. فلا تتخذها مشغلة لك عن القرآن العظيم، ولا حاجبة لك عن مكنون دُرِّهِ الكريم، بل خذها آلة استبصار فحسب، كسائر آلات فقه الدين، مستقاة من كتاب الله رأساً. فإنما هي آيات تربطك بآيات، على نوع من التدريج إلى خوض بحر القرآن، حتى إذا وصلت- أخي الحبيب- إلى الغاية، وحصل لك الإبصار بالآيات مباشرة، وبدأت تكتسب حقائق الإيمان مشاهدة، فدع عنك هذه الوريقات وأمثالها جانباً، فما كان ليكون بين الله وعبده من وسيط. كيف لا؟ وقد قال لمن هو خيرٌ مني ومنك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3].

وبدأ بعد ذلك يتحدث عن كتابه «مجالس القرآن» فيقول: جاء الكتاب

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) البقرة: ١٨٦.

منقسمٌ إلى قسمين:

**القسم الأول**: هو عبارة عن «مدخل إلى مجالس القرآن»[1]، القصد منه بيان أهمية هذا المشروع الدعوي؛ بما هو منهاج قرآني صرف، يتخذ كتاب الله مورده الرئيس. منه يتلقى نوره وهداه، وعليه يبني قواعده ورؤاه. كما أنه موضوع منهجياً لبيان الصورة العملية لإقامة «مجالس القرآن» بكل تفاصيلها الجزئية.

**القسم الثاني**: هو عبارة عن نموذج تطبيقي لمدارسة القرآن الكريم، من خلال بعض سوره، ومحاولة لتقديم صورة عملية لكيفية تلقي «الهدي المنهاجي»، الذي تتضمنه السور المختارة من خلال آياتها وكلماتها. فجاء هذا القسم بياناً عملياً لما يُرجى أن تسير عليه «مجالس القرآن»، من تلقي رسالات الهدى الواردة بكتاب الله.

ولقد يسر الله إنجاز مدارسات لسور أربع، هي: الفاتحة، والفرقان، ويس، والحجرات.

و«المجالس القرآنية» هي القضية المركزية في تجديد الاتصال بالوحي، والتلقي للهدي الرباني، وهي المسلك الذي عليه الرهان اليوم- كما كان قديماً- للخروج بالأمة من هذا النفق المظلم الذي تتخبط فيه. فمجالس القرآن هي سفينة النجاة إلى بر الأمان إن شاء الله. فهي وسيلة وغاية في ذاتها ككثير من العبادات في الإسلام، غاية يُعبد الله بها ابتداءً، ووسيلةٌ إلى إصلاح النفس والمجتمع؛ ولذلك فقد اجتمع فيه الخير كله.

وهذه الحالة هي المنطوق للحديث النبوي الجامع لحكمة هذا المجال، قال ﷺ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهدَى وَالْعِلْم كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا**

(١) سبق نشره مختصراً تحت عنوان «مجالس القرآن».

**طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»**[1].

## المسألة الثانية:

### كيفية صناعة الإعلام الكهنوتي القدسية على الفراعنة:

يقول المؤلف- رحمه الله: إن قهر القوة والسلطان الباطل، الذي يصنعه سحر الكلام له سحر رهيب. انظر على سبيل المثال ما يحكيه القرآن عن البيان للمقال الذي ألقاه فرعون على قومه من بعد ما زلزلت عرشه آيات موسى- عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾[2]. وتأمل جداً ما أعقب الله به خطاب فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾. فهو إنما استخف في الواقع عقولهم.

ثم يقول- رحمه الله: لقد قرأت قصة طريفة مترجمة عن الكتابة الفرعونية القديمة رواها أحد أطباء فرعون. وذلك أنه تسلط ذات يوم على أحد الأغنياء فأراد أن ينتزع منه ضيعته، فلما أبى أن يتنازل عنها نكل به فرعون تنكيلاً! فقطع يديه ورجليه من خلاف، وألقاه على حافة الطريق! فصادف أن كان الطبيب ماراً بعربته فوجده يئن في الظلام، فلما عرفه رَقَّ لحاله وحمله إلى بيته، ثم عالجه من آثار جروح البتر. ثم انقطعت صلته به بعد ذلك إلى أن مات فرعون. ولما كان يوم مراسم التحنيط والدفن- على عادة قدماء المصريين- والكاهن يلقي كلماته في رثاء فرعون، بما يصبغه عليه من رداء الربوبية المزيفة،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٩).

(٢) الزخرف: ٥١-٥٤.

والألوهية المدّعاة، والعظمة المكذوبة، ويذكر من شيمه ما لا قِبَلَ للبشر به، إذا بالطبيب يجد من بين الحاضرين الرجل الغني الذي نكل بـه فرعـون مـن قبـل وقطع يديه ورجليه من خلاف، وجده يبكي بحرارة ويقول: ما كنتُ أعلم أن فرعون كان إلهاً مقدساً إلى هذا الحد! وكأنما يبكي ندماً على مـا فـرَّط في جنـب فرعون، ولم يكن له من الطائعين ومن عباده الصاغرين.

إن الرصيد الأسطوري الذي كان لدى فرعون مما تركه سدنة الفراعنة هـو الذي به حكم كل فرعون في التاريخ مملكته. إنـه سـحر الكـلام، أو قـل: إنهـا **(سلطة الإعلام)**.

والوسائط الإعلامية أنتجها كهنة العصر الكبـار؛ للتمكـين للمـستكبرين، وتحقيق غطرسة المتغطرسين، وتمديد ظلمهم العتيد. إن الإنسان لما يتـوهم أنـه مغلوب على أمره، أو أنه لا يستحق أن يكون حراً؛ يخضع بـصورة تلقائيـة لمـن غلبه بهذه الأكذوبة.

إن منهج تدارس القرآن بمجالس القرآن هو نفسه منهج القرآن، بلا زيـادة ولا نقصان ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾(١).

«مجالس القرآن» منهج تربوي أسسه محمـد رسـول الله ﷺ، وانخـرط فيـه أصحابه- عليهم رضوان الله، واستمروا به بعد موته ﷺ؛ مدرسة تربوية تُخرِّجُ أفواج التابعين. ولم يزل بعد ذلك نموذجاً مقـصوداً- عـبر التـاريخ- للعلـماء العاملين، وللمجددين الربانيين.

فمجالسُ القرآن: مشروع دعوي تربوي بسيط، سـهل التنفيـذ والتطبيـق، سلس الانتـشار؛ غايتـه تجديـد الـدين، وإعـادة بنـاء مفاهيمـه في الـنفس وفي

(١) الزمر: ٢٣.

المجتمع، في بحر جماله النوراني العظيم، وتحت شلال روحه الرباني الكريم.

وانطلاقاً من حلقات المدارسات، وصفوف الصلوات، وحصون المساجد وأفلاك الأوقات؛ سيراً إلى الله وحده دون سواه، مخلصين له الدين، راغبين راهبين؛ حتى يأتينا اليقين.

وللدخول في فضاء مجالس القرآن طريقتان أو صورتان، إحداهما صورة (مجالس القرآن الأسرية) وتقوم على تأسيس المجلس داخل الأسرة الواحدة.

## المسألة الثالثة:

### مجلس القرآن وحركة البعث الإسلامي والتجديد الديني:

إن تجديد الدين لا يكون إلا «بعثاً» فعلٌ من قدرة الله وإرادته، لا من فعل الإنسان، وإنما الإنسان فيه مستجيب لإرادة الله. فتدبر بتأنٍّ كبيرٍ الحديث النبوي المشهور، حيث قال ﷺ: «**إِنَّ الله يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(١). وقد جرت العادة أن الناس اليوم ينتبهون أكثر إلى فعل «التجديد»، الذي فاعله هو الإنسان، وقلَّما ينتبهون إلى فعل «البعث»، الذي فاعله هو الله- جل جلاله. وإنما ذلك ناتج عن هذا، والعكس غير صحيح، فلا تجديد إلا ببعث.

والله- جل وعلا- بيَّن لنا كيف يبعث روح التجديد في النفوس، بيانات واضحة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. وإنما ذلك الروح هو: القرآن. فمن أقبل عليه بصدق كان من أهل الله وخاصته، كما سترى بحول الله. فإن لم يكن عالماً كان حكيماً ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٢).

إن لمجالس القرآن أثرًا كبيرًا في حركة البعث الإسلامي، فمجالس القرآن هي خير أنواع مجالس الذكر، التي تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على أنها محبوبة عند الله، مذكورة في ملئه الأعلى، تشهدها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتغشاها الرحمة، ويذكرها الله في من عنده. قال ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، وصححه الألباني.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٣).

وكذلك الحديث المتفق عليه، الذي رواه أبو هريرة أيضاً، مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ لله مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ. فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ- وَهْوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لا وَالله مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لا وَالله يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لا وَالله مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الملائِكَةِ: فِيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الجلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، وأحمد (٢/ ٢٥١).

## المسألة الرابعة:

### الخطوات المنهجية لتدريس القرآن :

**الخطوة الأولى: تلاوة القرآن بمنهج التلقي:**

عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا. لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(١). ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حُلَلِ الجمال. قال رسول الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»(٢). فلا تنس هذا.

والله- عز وجل- أمر بتلاوة القرآن في غير ما آية، قال سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾(٣).

إلا أن التلاوة إنما تكون بما وُصفت به من البركة والتأثير الإيماني، إذا أخذت بحضور قلبي، وتُتلى آياته على أنها ذكر لله- جل جلاله. ومما لا شك فيه أن القرآن العظيم رأس الذكر، ومفتاح الذكر، وتاج الذكر، بل القرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٤).

**الإشكال الآن هو: كيف نُحصِّل الذكر بالقرآن؟**

يؤتى القرآن ثمارَ الذكر حقيقةً لمن تلقَّاه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(٥).

ولا يزال القرآن معروضاً لمن يتلقاه، وليس لمن يتلوه فقط.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٢/ ١٩٢)، وصححه الألباني.
(٣) الكهف: ٢٧.
(٤) القلم: ٥١، ٥٢.
(٥) النمل: ٦.

**والتلقي في اللغة**: هو الاستقبال عموماً، كما في قول الله تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[(١)][(٢)].

وأما تلقي القرآن: فهو استقبال للوحي؛ إما على سبيل النبوءة، كما هو الشأن بالنسبة للرسول ﷺ على نحو ما في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[(٣)]. إذ ألقى الله عليه القرآن بهذا المعنى، كما فسره الراغب الأصفهاني من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[(٤)]. قال- رحمه الله: «إشارة إلى ما حُمِّل من النبوة والوحي».

وإما أن يكون (تلقي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذكر.

وهو عام في كل مؤمن أخذ القرآن بمنهج التلقي؛ بحيث يتعامل معه بصورة شهودية، فكأنما هو يشهد تنزله الآن غضاً طرياً، فتدبره آيةً آيةً، باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حياً في عصره وزمانه. ومن هنا وصف الله تعالى العبد الذي «يتلقى القرآن» بهذا المعنى؛ بأنه يُلقي له السمع بشهود القلب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[(٥)]. ذلك هو الذاكر حقاً، الذي يحصل الذكرى ولا يكون من الغافلين.

وأن تتلقى القرآن: معناه أيضاً أن تنزل الآيات على موطن الحاجة من قلبك ووجدانك، كما يتنزل الدواء على موطن الداء.

فعندما تقرأ القرآن إذن استمع وأنصت؛ فإن الله- جل جلاله- يخاطبك أنت. وادخل بوجدانك مشاهد القرآن، فإنك في ضيافة الرحمن هناك حيث

(١) الأنبياء: ١٠٣.
(٢) انظر ذلك مفصلاً في مفردات الراغب، مادة: (لقي).
(٣) النمل: ٦.
(٤) المزمل: ٥.
(٥) ق: ٣٧.

ترى من المشاهد ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

**الخطوة الثانية: التعلم والتعليم بمنهج التدارس:**

وأما الخطوة الثانية فهي التَّعَلُّم والتَّعْلِيم: وذلك لأحكام القرآن العظيم وحِكَمِه. إذ خير العلم إنما هو العلم بالكتاب، فعن عقبة بن عامر الجهني قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفة فقال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلا قَطْعِ رَحِمٍ؟**». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «**أَفَلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله- عَزَّ وَجَلَّ- خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[1].

وتحصيل العلم بالكتاب للنفس أو تلقينه للغير، إنما يكون بمنهج الدراسة والتدارس لآياته وسوره مبنًى ومعنًى؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[2]. فقد قُرِئَتْ (تَعْلَمُونَ) و(تُعَلِّمُونَ) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها في الفهم والعمل أولى.

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾- من آية آل عمران المذكورة- يعني تدرسون الكتابَ نفسه، على اعتبار أن الدراسة والتدارس أو المدارسة هي منهج التعلم، كما ذهب إليه الإمام الطبري- رحمه الله[3].

والتدارس للقرآن الكريم هو المنهج التعليمي الكفيل بالوصول بالدارس إلى الحكمة، التي بمقتضاها يصير (ربانياً). وقد روى ابن جرير الطبري- رحمه الله- عن ابن عباس وعدد من التابعين تفسير ﴿ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ في الآية، بأنهم:

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأحمد (٤/ ٧٥٤).

**وأهل الصفة:** هم فقراء المهاجرين كانوا يبيتون بالمسجد النبوي. **وأما بُطحان فهو:** اسم واد قرب المدينة المنورة، وكذلك العقيق مثله. **وناقتان كوماوان:** تثنية كوماء، وهي: الناقة العظيمة السِّنام العالية. **وزهراء:** يعني سمينة، تميل إلى البياض من السِّمَنِ.

(٢) آل عمران: ٧٩.

(٣) جامع البيان (٣/ ٣٢٨).

(الحكماء الفقهاء)[1].

فالدراسة والتدارس إذن: هو تتبع صيغ العبارات ووجوه المعاني والدلالات للمقاصد والغايات، من كل آية وسورة، وتعلُّم ذلك كله ترتيلاً وتفسيراً، بما فيه ضبط ألفاظه وآياته وسوره؛ للتعرف على أسراره وحِكَمِه. وذلك جماع ما كان يفعله جبريل عليه السلام مع رسول الله ﷺ في ليالي رمضان، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخيْرِ مِنَ الرِّيحِ المرْسَلَةِ**[2].

ويجمع المرحلتين المذكورتين قبل، أعني: (التلاوة، ثم التعلم والتعليم بمنهج التدارس) ما جاء عن أنس بن مالك قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: **أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ: الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ**.. الحديث[3].

فالتدارس هو أساس التعلم كما في هذا الحديث، إذ لا علم إلا به، فأنت تبحث عن وجوه المعاني وتتدارسها؛ لتتعلم أحكامها ومقاصدها. وذُكِرَ التدارسُ أيضاً في الحديث النبوي الشريف، من قوله- عليه الصلاة والسلام: **«وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»**[4].

**الخطوة الثالثة: التزكية بمنهج التدبر:**

إن التزكية: هي عملية التطهير للنفس، والتربية لها بما يخلصها من مراعاة غير

(١) جامع البيان (٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (٦٧٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٣).

الله للوصول إلى منزلة الخلاص، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[١]. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾[٢] (يعني بالزكاة: طاعة الله والإخلاص)[٣]. ولذلك فالرسول الكريم ﷺ كان حريصاً على تطهير صحابته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملاً). ولا أحسن من تخليص العبودية لله الواحد القهار، وتعبيد القلب له وحده دون سواه.

وانظر – رحمك الله – كيف ذكر التزكية قبل التعليم في الآيتين من آل عمران والجمعة، مع أنه لا تزكية بغير تعليم ابتداء، على ما ترجم له الإمام البخاري – رحمه الله – في كتاب العلم من صحيحه قال: (باب العلم قبل القول والعمل). وقد قُدِّمَ ذِكْرُ التعليم على التزكية – بناء على الأصل – في قوله تعالى من دعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[٤].

صحيح أن العطف بالواو – في الآيات كما هو في العربية – لا يفيد الترتيب، لكن التقديم والتأخير في البلاغة يفيد الأهمية؛ ومن هنا جاءت التزكية في الآيتين الأوليين مقدمة على التعليم؛ من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ لشرف الغاية وعلوها؛ وحتى لا يفتن السائر بالوسيلة عن الغاية؛ فيضل عنها، ويكون من الخاسرين.

وهذا التدارس يختلف فيه الناس كما بين ﷺ أحوال الناس إزاء الهدى قال – عليه الصلاة والسلام: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ مِنَ الهدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ**

---

(١) الشمس: ٩، ١٠.

(٢) البقرة: ١٢٩.

(٣) أخرجه الإمام الطبري، وكل ما أخرجه من الأقوال في الآية لا يكاد يخرج عن هذا المعنى، مثل قوله عن ابن جريج: «قال: يطهرهم من الشرك ويخلصهم منه». جامع البيان (١/ ٥٥٨).

(٤) البقرة: ١٢٩.

**الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»**[1].

**فهذه إذن أصناف ثلاثة**: الصنف الأول منها: هو حال من قَبِلَ الهدى وتفقه في الدين، حتى كان منه ما كان من الصلاح لنفسه والإصلاح للناس؛ فانتفع هو ونفع الله به غيره! وهو أحسن الأصناف؛ لأنه أوعى قلباً، وأبعد أثراً، وأدوم فضلاً. والصنف الثاني: هو حال من آمن ولم يتفقه في الدين، لكنه أسهم في نقل الخير- مما سمع وتعلم- إلى الناس، فكان منهم الذين يتدارسونه ويتفقهون فيه. وأما الصنف الأخير فهو حال من أعرض عن الوحي، ولم يقبل هدى الله؛ فكان من الخاسرين.

فالتزكية إذن هي أشبه ما تكون بنتيجة للتلاوة والتدارس لكتاب الله. والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان. فالتدبر هو المنهج القرآني المأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ ومن هنا كان زجره تعالى للناس الذين لا يتدبرونه. قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[3]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[4].

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٢) ص: ٢٩.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) النساء: ٨٢.

الفرق بين التدارس والتدبر:

رغم وجود تداخل منهجي بين جميع العمليات والخطوات المتعلقة بينهما؛ حيث إن التدارس هو عملية تعليمية ذهنية، تشتغل من داخل النص القرآني لا من خارجه، وينتجها العقل في علاقته بنص الخطاب القرآني مباشرة، وفي ارتباطه بلغته وأساليبه، على قدر ما تتيحه تلك اللغة من معانٍ وحِكَمٍ ودلالات.

بينما التدبر: عملية قلبية ذوقية محضة. فهي- وإن صاحبت التدارس- واقعة في النفس لا في النص، إنها حركة وجدانية تجري خارج النص القرآني، إنها تتلقى المعاني والحِكَمَ من التدارس، ثم تدخل بها إلى أعماق النفس، أو تخرج بها إلى مطالعة أحوال المجتمع؛ لتراقب النفس والمجتمع معاً على موازينها. تُشخِّصُ الأمراض والأسقام الواقعة بهما، ثم تنظر إلى وصفات العلاج التي قدمها لها القرآن: كيف تتعامل معها؟ وكيف تستشفي بها؟ وذلك هو عين التخلق بأخلاق القرآن والتزكية بأنواره. فهذا عملٌ في النفس وفي المجتمع، لا في النص القرآني أساساً، وإن كان مدارُهُ عليه. وذلك هو المقصود بالتدبر للقرآن في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1].. والله تعالى أعلم.

وهنا نلج إلى باب آخر من أبواب القرآن رديف للتدبر، بل هو منه؛ ذلك هو: التفكر. إن التفكر غالباً ما يَرِدُ مذكوراً في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه من الملك والملكوت، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ

(١) محمد: ٢٤.

﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

(**فالتدبر**) هو المنهج الرباني لقراءة القرآن، يحيل الإنسان على التفكر الـذي هو المنهج الرباني لقراءة الكون، فيكون كل متدبر للقـرآن متفكـراً في الكـون، فتقرأ- بقراءة الكون- على آيات الله المنظورة المقروءة سواء.

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩٤.

**المسألة الخامسة:**

**ضوابط لإنـجاح مجلس التدارس** :

**الضابط الأول**: لابد من تجريد القصد لله: حيث إن القرآن الكريم لا يفـتح بصائره إلا للمقبلين عليه بإخلاص. فلابد من تجديد النية كلما هممت بالخروج إلى مكان المجلس، فهو مجلس تعبُّد وليس مجلس تعوُّد. فما كان لله خالصاً تقبله الله، وحفظ صاحبه وتولاه.

**الضابط الثاني**: تحيُّن أوقات الانشراح النفسي للقرآن، والإقبـال الوجـداني على الذكر، ومظان اليقظة الإيمانية. فلا تجعل مواعيد التدارس في يوم مكدود، مزدحم بالأشغال.

**الضابط الثالث**: وهـو مراعـاة أدب المجلـس، وذلـك بالاعتـدال في هيئـة الجلوس بما يحفظ للعلم وقاره، وللقـرآن جلالـه قـال سـبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، قال ﷺ: «**إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا**». قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[2].

**الضابط الرابع**: عدم الإخلال بمواعيد اجتماعات «مجالس الـذكر» إفراطـاً أو تفريطاً. فلا ينبغي التخلف عن عقد اجتماع واحد على الأقـل كـل أسـبوع؛ حتى لا تبهت حقائق الإيمان في القلب ولا تَبْلَى. كما لا يحسن الزيادة على ثلاثة اجتماعات على الأكثر في الأسبوع؛ بناء عـلى مـنهج التخـوُّل في الموعظـة، أي: جعل تزود القلب من الإيمان على فترات منتظمة وغير متتابعة؛ حتـى لا يكـل ولا يمل.

فعن أبي وائل قال: كان عبد الله- يعني ابن مـسعود- ﷺ يُـذكِّر النـاسَ في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكُمْ، وإني أتخـولكم بالموعظـة كـما كـان

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٩)، وأحمد (٣/ ١٥٠)، وصححه الألباني.

النبي ﷺ يتخولنا بها؛ مخافة السآمة علينا[١].

**الضابط الخامس**: مبادرة أحد الجلساء من أهل العلم أو أهل الحلم؛ لتسيير المجلس. فلابد لمجلس الخير من شخص ينظم سيره، ويرتب أولوياته؛ تجنباً للفوضى والارتجال، أو الانزلاق إلى غير أهداف مجالس القرآن العظيم. وقد يكون هذا المسيِّر من أهل العلم، أو من أهل الصلاح والورع عموماً، ممن لهم حظ من التجربة في المجال الدعوي والتربوي. وقد صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «**المُتَّقُونَ سَادَةٌ، وَالْفُقَهَاءُ قَادَةٌ، وَمُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ**»[٢].

**الضابط السادس**: أن يَعْمَد إلى إشراك الجميع في عملية التدارس والتدبر، وذلك منطوق الحديث النبوي الشريف: « **وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ**... »[٣].

**الضابط السابع**: ومن القواعد التربوية المساعدة على إشراك الجميع: الحرص على عدم استفحال عدد الجلساء؛ حتى لا يكون جمهوراً غفيراً؛ إذ هنالك وجب أن يُولد مجلسٌ قرآني جديد، فرع عن الأول؛ لأن الجمهور الكثير إنما تؤطِّره المحاضرة، أو الخطبة، أو الدرس؛ لا (التدارس). فهذا خاصٌّ بِالحِلَقِ كما تبين في النصوص السابقة، والحَلَقَةُ لا يتصور انعقادها إلا بأعداد معقولة. وأحسب أن العدد هو ما لا يتعدى العشرين جليساً على الأكثر إلا لضرورة. والمجلس المثالي هو ما لم يتعد عدد جلسائه عشرة. وأقل الجمع ثلاثة.

**الضابط الثامن**: تجنيب الجلساء الدخول في الجدل العقيم. فما أهلك كثيراً من الناس إلا الجدل. وفي الأثر عن بعض السلف الصالح: «إذا أراد الله بقوم سوءاً سلط عليهم الجدل، ومنعهم العمل».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله موثقون.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٣).

**الضابط التاسع**: الإعراض عن اللغو من القول والابتعاد عنه مطلقاً، والتنزه عن سفاسف الكلام. فقد وصف الله- تعالى- خواص المفلحين من المؤمنين، فقال- جل ذكره وثناؤه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1].

**الضابط العاشر**: تحديد أهداف المجلس من التدارس، والتذكير بذلك من حين لآخر. وهو تحصيل التزكية للقلب بكتاب الله تعالى، والتخلق بأخلاق القرآن العظيم، من خلال مسالك التدبر والتفكر. وهاهنا لابد من التنبيه على قاعدة منهجية هامة جداً لهذا الأمر، وهي الحذر من استغراق الوقت كله في التفسير، وتتبع أقوال المفسرين من دقائق اللغات والبلاغة والإعراب، وتفاصيل الخلافات الكلامية، وتفاريع الأحكام الفقهية.. إلخ. فكل ذلك وما في معناه إنما يحتاجه أهل الاختصاص. وأما الغرض مما نحن فيه فإنما هو تحصيل الحكمة من الآية، وإتاحة الفرصة للتدبر والتفكر؛ للوصول إلى الهدي المنهاجي، أي ما تضمنته الآية من الهدي الرباني، ومن طرائق التخلق به، وكل ما من شأنه أن تنتج عنه التزكية التي هي غاية الوظائف النبوية.

ولهذا فإنه يكفي في ذلك كله تحصيل المعنى العام للآية، وما أجمع عليه المفسرون منها، أو ما عليه جمهورهم. فلا يؤخذ من المعاني اللغوية والنحوية وكذا الفقهية؛ إلا ما لابد منه لفهم المعنى الكلي للآية. فلا ينبغي أن ننسى أن غاية (مجالس القرآن) إنما هو التربية والتزكية، أي: تحصيل (الربانية) لا تحصيل (العالمية). ويكفيك من العلم لتحصيل الربانية ما يعرفك بالله رب العالمين. وأما (العالمية) فلها سُبُلها المعروفة عند أهلها. وإنما هذا برنامج مقصود به سواد الأمة وجمهورها العام، لا خصوص طلبة العلوم الشرعية.

فالهدى القرآني من كل آية يتضمن رسالة أو عدة رسالات، هي خلاصة

---

(١) المؤمنون: ١-٣.

المقاصد التربوية، ومكنز التعاليم الربانية.

**الضابط الحادي عشر**: تناول قدر قليل من الآيات يُشكِّل معنى يحسن السكوت عليه، والوقوف عنده. سواء كان آية واحدة، أو ثلاث آيات، أو خمساً، أو سبعاً، بشرط ألا يتعدى المقدار المدروس من ذلك كله نصف صفحة، فيقرأ ما ورد فيها من التفسير.

**الضابط الثاني عشر**: يُتحقق من الفهم العام للمعاني التي وردت بها الآيات.

**الضابط الثالث عشر**: فإذا اتضح المعنى، وجب- بعد ذلك مباشرة- الدخول في محاولة التعرف على الهدى المنهاجي للآية أو الآيات، وهو عين الحِكَم المطلوب تَعَلُّمُها، مما ورد في آيات وظائف النبوة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]. وذلك بمحاولة استنباط الحقائق الإيمانية التي تتضمنها، والأحوال الخُلقية التي ترشد إليها، ومحاولة عدِّها باللسان، وإحصائها بالوجدان، وتداول ذلك بين سائر الجُلساء؛ حتى تترسخ بالقلب وتتضح صورتها بما يساعد على تدبرها.

**الضابط الرابع عشر**: وبمعرفة ما تيسر من الحِكَمِ والمقاصد نفتح باب التدبر للآيات، والتفكر في خلق الأنفس والأرض والسموات. وذلك لغاية التخلق بأخلاق القرآن الكريم، والاتصاف السلوكي بِحِكَمِهِ العظيمة! والتفكر والتدبر- إذا خلص كلاهما لله- يورثان التخلق بأخلاق القرآن بصورة تلقائية، وبلا كلفة.

**الضابط الخامس عشر**: إذا تمت مدارسة السورة بأكملها إن كانت من السور القصيرة جداً، أو عبر عدة مجالس إن كانت من السور المتوسطة أو من الطوال؛ فلابد- بعد ذلك- من محاولة قطف الثمرات التالية من ثمار المدارسة،

(١) البقرة: ١٢٩.

وهي:

أ- التعرف على القضايا الأساسية التي تعالجها السورة على الإجمال، وهي حقائقها الإيمانية الكبرى.

ب- التعرف على المحور الرئيس للسورة على الإجمال. فلكل سورة من سور القرآن العظيم شخصيتها المستقلة، التي بها تتميز عن غيرها في نَظْمِها السالك لها بعقد الكتاب الحكيم؛ لأن هذا وذاك هو مما يساعد- بإذن الله- على التمسيك بالكتاب؛ لأنه يُمَكِّنُكَ- في كل وقت وحين، بالليل أو بالنهار- من المراجعة والتقويم لخُلُقك وسلوكك، ولمستواك التربوي عموماً، في ضوء ما تحصَّل لديك من الحِكَمِ والحقائق الإيمانية، من هذه السورة أو تلك.

وهكذا نجد أنفسنا ننطلق من الجزء إلى الكل، ومن المعاني والحكم إلى السلوك والأخلاق، ثم من النفس إلى المجتمع، ومن القرآن إلى العمران. وذلك هو عين التزكية النبوية، التي هي مقصد أهل الله من الربانيين والصديقين.

**الضابط السادس عشر**: وهو الحفاظ على ميثاق القرآن العظيم، والالتزام به بقوة؛ إذ بذلك يعرف الجليس الصادق من غيره. وإنما برهانُ صدق الجليس، وحقيقة انتسابه إلى أهل الله من (جلساء الملائكة)، ومصداقية ذلك كله متوقفة على مدى التزامه بميثاق القرآن العظيم. **وهو عهدان: عهد فعل، وعهد ترك.**

**١- عهد الفعل**: ويتلخص في ثلاثة التزامات:

**الالتزام الأول**: الحفاظ على أوقات الصلاة المفروضة بالمسجد، من الفجر إلى العشاء، إلا لضرورة شرعية، وإدراك تكبيرة الإحرام مع الإمام لقوله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى لله أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ، يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنْ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ النِّفَاقِ»**[1].

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١)، وصححه الألباني.

**الالتزام الثاني**: الحفاظ على تلاوة جزء من القرآن الكريم لكل يوم، على الدوام، في الحضر والسفر سواء. فالتلاوة المستمرة تذكيرٌ- وأي تذكير- لمن ذاق حقيقتها وشاهد فضيلتها.

**والالتزام الثالث**: الاجتهاد لضم جليس جديد، أو جلساء جُدد، إلى مجالس القرآن، متى سنحت الفرصة، أو إنشاء مجلس جديد على التمام. وتلك نعمة إيمانية- إن أكرمك الله بها.

والآية التي هي الشعار الجامع لذلك كله من كتاب الله- جل ثناؤه- هي ما سبقت الإشارة إليه من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[1]. تمسكٌ بالكتاب أولاً: وهو الأخذ بحقائقه الإيمانية بقوة، وإقامة للصلاة ثانياً: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عبر مواقيتها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

والحقيقة أن المؤمن إذا استفاد من (صالون القرآن) بمجلس عام، وجب أن يفكر في أبنائه وأهله، وألا يحرمهم من هذا الخير العظيم، ويتفرد هو دونهم بالتزود من نوره. وإنما منهج الأنبياء والصديقين أنهم كانوا يدخلون نور الإيمان إلى ذويهم أولاً. وقد مدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بذلك فقال- جل ثناؤه: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[2].

والمجلس القرآني الناجح حقيقة، هو الذي استطاع جلساؤه أن ينقلوا التجربة الإيمانية إلى داخل أسرهم؛ بتكوين (مجالس أسرية) للقرآن الكريم، يكون جلساؤها: الأطفال والملائكة. فأنْعِم به من مجلس مبارك إذن! وأنعم به من بيتٍ طاهرٍ، أفاض عليه الله بالنور والجمال!

ومن أهم الصور الضرورية لمجالس القرآن التي ينبغي أن تبادر الأمة إلى

(١) الأعراف: ١٧٠.
(٢) مريم: ٥٥.

إنتاجها (مجالس النساء). وقد كان ذلك موجوداً ومطلوباً على عهد رسول الله ﷺ، بل هو الذي أسسها- عليه الصلاة والسلام- بنفسه، وأشرف عليها بذاته. فقد ترجم الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه: (باب هل يُجعل للنساء يومٌ على حِدَةٍ في العلم؟) ثم أخرج بسنده- رحمه الله- عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. الحديث[1].

ولا شك أن إحياء (مجالس النساء) بتأسيس مجالس قرآنية لهن خاصة، هو إحياء للسنة، ووعي عميق بالضرورات المعاصرة لانطلاق الأمة، واستئناف سيرها في بعثة تجديد الدين.

**٢- عهد الترك**: ويتلخص في ثلاثة التزامات، وهي تتحقق عند المؤمن بمعاهدة الله- جل جلاله- على ترك الموبقات الثلاث- أعاذنا الله وإياكم منها، والانقطاع عنها بتاتاً. فلا يصح سير إلى الله ولا يستقيم ما دام العبد متلبساً بها أو ببعضها، وما دام لم يتب منها توبة نصوحاً، وعهده فيها هو كما يلي:

**الالتزام الأول**: معاهدة الله- جل جلاله- على مقاطعة الشركيات والخرافيات، من تعظيم غير الله على جهة التعبد، سواء كان من الأحياء أو الأموات.

**الالتزام الثاني**: معاهدة الله- جل جلاله- على ترك المال الحرام، وعلى رأسه الربا بكل صوره، وكذلك كل كسب حرام، وأكل أموال الناس بالباطل، من رشوة وغيرها.

**الالتزام الثالث**: معاهدة الله على ترك الزنا، وعدم الاقتراب من طرقه، وأسبابه، ومقدماته، وتجلياته، من مُخادنة، وبذاءة، وعُري، وفُحش في اللباس والكلام والأخلاق...إلخ. وكذا مجاهدة النفس على غض البصر، وترك النظر

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١).

الحرام؛ لأن النظر الحرام يطمس البصيرة، ويذهب بالحياء، ويطفئ نور التقوى في القلب، ويخسف بجمال الورع في النفس، ثم يمسخ وجه صاحبه. وهو سببُ كثير من الفساد والبلاء- والعياذ بالله- فلا تستهن به.

**الالتزام الرابع**: معاهدة الله- تعالى- على ترك الخمر، ومقاطعتها من كل الوجوه بتاتاً.

واعلم أنه لا يستقيم للعبد سير إلى مولاه ما لم تزل فيه لوثة من هذه اللوثات الأربع.

ثم يقول- رحمه الله: هذا مشروع القرآن الكريم بين يديك الآن.. وهذا طريقُه السيَّارُ منفتحٌ على معراج الروح.. وحاجة النفس إلى بصائره مستصرخة مستغيثة؛ خاصة في هذا الزمان. إلا أن القرآن لا يفتح أبواب أسراره إلا لمن أقبل عليه بشروطه. **وإنما شروطه أمران**: إخلاص القصد لله تعالى، ثم أخذ الكتاب بقوة.

فبإخلاص القصد عند بدء السير إلى منازل القرآن، وبتحقيق الصدق في طلب مجالسه؛ يفتح الله لك أبواب الخير، ويمهد لك الطريق إلى الجنة، ويوكل بك ملائكة الرضا.

فإن القرآن لا يستقيم سيرُ العبد بين مسالكه إلا إذا أخذه بقوة ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[1].

فـ(الأخذ بقوة) هو: الأخذ بعزم وبحزم، والصبر على حمل الأمانة وثقل الرسالة، والصبر على طول الطريق، والثبات على الحق. فالشيطان لك بالمرصاد، يثبطك، ويبطئك عن المضي في طريق الله.

(١) مريم: ١٢.

**بيان لمنهاجية التدارس للقرآن:**

وبعد أن انتهى المؤلف من الجزء الأول من مدارسات القرآن جاء بالجزء الثاني بذكر نماذج من المدارسات لبعض السور، وهو القسم العملي لمشروعه الدعوي. إنه محاولة لتلقي ما أذن الله فيه من رسالات القرآن وما يسره من هداها. أنجز منها ما يسر الله من مجالس سورة الفاتحة وسورة الفرقان وسورة يس ثم سورة الحجرات. ثم ذكر- رحمه الله- سبب اختياره لهذه السور، وبيَّن كيف أن الله هداه للتعامل مع القرآن في منهج البعث لهذه الأمة، فقال: وجدت أن لا نور للمرء إلا بإشعال فتيل قلبه بمواجيد القرآن نبضاً على وزن قول رسول الله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأَخَوَاتُهَا**»[1]. وأنه من لم يكابد حقائق القرآن لهيباً يحرق باطن الإثم من نفسه فلا حظَّ له من نور، وبشدة العبارة قال عن منهجه الجديد في البعث لهذه الأمة: لقد وجدت هذه التجربة الروحية مؤلمة جداً؛ فقد كانت النفوس مغرورة بترُّهات «علم الكلام الحركي» وكانت حجبها من ذلك كثيفة جداً، وكانت جراحاتها بسببه عميقة جداً. فما أصعب الانتقال بالنفس من «أناها» إلى «فناها»!

ثم يقول: ما إن أبصرتُ هذه الحقيقة الجميلة والمؤلمة في الوقت نفسه؛ حتى اكتشفت هول ما ضيعت من العمر خارج مدار رسالات القرآن، وحجم ما خسرت من السير خارج قلبك نور الإيمان.

وشاهدت بعد ذلك معنى قول رسول الله- عليه الصلاة والسلام- في دعائه الكريم: «**أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**»[2]. والربيع في العربية: هو جدول الماء المتدفق على البطاح والسهول، فما أَجَلَّهُ من دعاء!

ثم ذكر المؤلف المنهاجية العملية في مدارسة القرآن في عدة نقاط:

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ١٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٥).

(٢) مختصر من حديث أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وابن حبان (٣/ ٢٥٣)، والحاكم (١/ ٦٩٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٢٨).

**أولاً : تقديم**: وذلك بتقديم السورة المقصودة بالمدارسة تقديماً كلياً، يلخص قضيتها، ويعرِّف بشخصيتها.

**ثانياً: المجالس**: حيث يتم تقسيم السورة إلى مجموعة من «المجالس» مرقمة بشكل ترتيبي، وجعل كل «مجلس» مقتصراً على مجموعة من الآيات، مما يشكل وحدة متكاملة في ذاته من جهة؛ ومما يمكن استيعاب رسالاته في مجلس واحد من جهة أخرى.

**ثالثاً: كلمات الابتلاء**: وقد سمينا مجموع الآيات التي هي موضوع الدرس: «كلمات الابتلاء»؛ باعتبار أن القرآن الكريم كلام الله، وأن آياته من «كلماته» جل علاه.

«فكلمات الله» المنزلة هي حقائق الابتلاء، ومعاني التكليف التعبدي بهذا الدين، في العقائد والعبادات والتصرفات؛ ومن هنا كانت مقتضياتها ثقيلة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(١).

وعلى هذا جاء قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٢). فقد كانت الكلمات التي تلقاها إبراهيم عليه السلام هي الابتلاءات الإيمانية التي امتُحن بها، وكان من الفائزين الكُمَّل. وقد كابد الرسول ﷺ تلقي القرآن خلال ثلاثٍ وعشرين سنة. وكابد معه أصحابه- رضوان الله عليهم- مكابدة؛ حتى تحققوا من «مَعِيَّتِهِ الإيمانية» ﷺ خُلُقاً ربانيا رفيعاً؛ وبهذه السيماء مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم في القرآن، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾(٣).

---

(١) المزمل: ٥.
(٢) البقرة: ١٢٤.
(٣) الفتح: ٢٩.

فلم يكن القرآن في حياة الرسول ﷺ وصحبه مجرد مرجع قانوني، ولا مجرد توثيق للأخبار والحقائق التاريخية، ولا لإشباع فضول المعرفة البشرية كلا! كلا! بل كان كتاب الله الكامل الشامل، الحامل رسالاته إلى الناس أجمعين؛ ابتلاءً لهم بحقائقها قولاً وعملاً، ومنهاج حياة يسلكونه في الأرض، على مستوى كل نفس في نفسها خاصة، وعلى مستوى الاجتماع العمراني البشري عامة، على سبيل التعبد، توحيداً وتفريداً لله الواحد القهار.

**رابعاً: البيان العام**: بعد عرض كلمات المجلس للتلاوة والتدبر، **نورد خلاصة تفسيرية تحت عنوان: «البيان العام»**. والمقصود بالبيان العام هاهنا: **عرض خلاصة ما قاله المفسرون في الآيات موضوع الدرس،** وما مَنَّ الله به إزاءها من معانٍ، وذلك بمنهج يرمي إلى التلخيص والتيسير، دون الإغراق في الجدل الكلامي، أو الاستطراد اللغوي، أو التفريغ الفقهي، إلا ما دعت إليه ضرورة البيان؛ إذ الهدف إنما هو تلقي الحقائق الإيمانية والرسالات القرآنية، قصد تيسير العمل بها.

**خامساً: الهدى المنهاجي**: إذا تم ذلك انتقلنا إلى عرض ما يسر الله تلقيه من الهدى الوارد في تلك الآيات، وذلك من خلال تخصيص فقرة من تصميم الدراسة تحت عنوان: «الهدى المنهاجي». والمقصود بالهدى المنهاجي: هو ما تحصل للقلب من الكلمات المتلوة أعلاه- بعد التدبر- من رسالات منهاجية، توضح خطوات السير القلبي إلى الله ديناً ودعوة، تعرفاً إليه وتعريفاً به تعالى.

وبعد انتهاء المؤلف- رحمه الله- من بيان المنهج، ذكر التطبيق العملي للمنهج من خلال السور التي اختارها وذكرناها، وجعل في مقدمة ذلك حقيقة أنه يتلقى كلام الله نفسه، وفي ذلك تكريم من الله للإنسان الذي ما كان أن ينال شيئاً من ذلك لولا تكريم الله له بكلامه، قرآناً عربياً يتلى على ألسنة بني آدم، وكلاماً رحمانياً سلساً مُيسَّراً. وصدق ابن عباس- رضي الله عنهما- عندما قال:

«لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله- عز وجل»[(١)].

ثم إنه لعجيب عجيب! أن يكون بين يدي الإنسان كتابٌ هو كلام الله رب العالمين، كلام فيه من أسرار الربوبية ما يزلزل كيان الإنسان، ويكشف عن أعماق فطرته، ولو توارت في ظلماتها تحت طبقات الشرك والضلال، وقد سبق قوله تعالى في هذا التحدي العجيب: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

ومن هنا يكون ما ورد في القرآن والسنة من نسبة اليهود والنصارى إلى «الكتاب»، هكذا بعمومه؛ حيث وُصِفُوا في غير موطن بأنهم: (أهل الكتاب)، هو باب إطلاق الكل وإرادة الجزء.

ومن تأمل موارد النصوص القرآنية والحديثية، المتحدثة- في مساقات مختلفة- عن التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، ظهر له هذا واضحاً، وظهر له أن الكتب السابقة لم تكن- حتى من حيث الحجم- بِقَدْرِ القرآن سعةً، بل كانت أقل منه بكثير.

وقد نص النبي ﷺ على ذلك نصاً فيما يتعلق بالزبور، وسماه قرآناً؛ لأن أصل الكتب كلها واحد، وهو كلام الله المكتوب في اللوح المحفوظ، قال- عليه الصلاة والسلام- فيما أخرجه البخاري: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ- عَلَيْهِ السَّلاَمُ- الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ، وَلا يَأْكُلُ إِلاَّ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[(٣)]. فواضح جداً أن الزبور لم يكن يتعدي في الغالب حجم بضع سور من «المئين».

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٧).

(٢) التوبة: ٦.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

ولم تكن التوراة بأكبر من ذلك بكثير؛ فهي لا تتعدى في مجملها حجم السبع الطوال ذاتها من القرآن الكريم، ولذلك فقد جمعها الله لموسى عليه السلام في بضعة ألواح حملها في يده.

قال ﷺ: «**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ المِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الإِنْجِيلِ المَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**»[1].

**فمن أراد أن يقرأ التوراة الحق فهي في القرآن، ومن أراد أن يقرأ الزبور الحق فهو في القرآن، ومن أراد أن يقرأ الإنجيل الحق فهو في القرآن، ومن أراد أن يقرأ القرآن كاملاً فهو في القرآن،** فالقرآن هو «الكتاب» بشموليته الاستغراقية، كما تشير إليه الآية الأولى من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[2]. وهو «القرآن العظيم» الممنون به خصوصاً- مع السبع المثاني وهي منه- على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾[3].

وقد تواترت النصوص على العموم في تفرد القرآن الكريم بآيات وسور، مما لم ينزل قط على نبي من الأنبياء قبل محمد ﷺ، كما هو الشأن في سورة الفاتحة وأواخر سورة البقرة، وكثير من السور والآيات الأُخَر، مما هو مضمَّن في المفصل وغيره.

إنه- إذن- كتاب له فصول على طريقته، وله أقسام على منهاجه، وله مقدمةٌ وخاتمةٌ على وِزَانِه. وهو ليس على أشكال الكتب، ولكنه هو «الكتاب»، كتاب الله رب العالمين، وحديث واثلة رضي الله عنه المذكور قَبْل واضحٌ في هذا التقسيم المتكامل والتبويب العجيب.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط.

(٢) البقرة: ١، ٢.

(٣) الحجر: ٨٧.

**فالقسم الأول:** هو السبع الطوال، وهي من سورة البقرة إلى سورة الأعراف.

**والقسم الثاني:** هو المئون، وهي السور التي يبلغ عدد آياتها مائة، وقد تزيد أو تنقص قليلاً.

**والقسم الثالث:** هو المثاني، وهي السور التي تنقص عن المئين عدداً، وتُثَنَّى بها سور المئين، أي تأتي خلالها على التثنية والتعاقب.

**والقسم الرابع والأخير:** هو المفصَّل، وهو يبتدئ بسورة الحجرات- أو بسورة «ق» على خلاف- إلى آخر المصحف. والعجيب أن هذا الكتاب له «مقدمة» هي الفاتحة، وله «خاتمة» وِتْرِيَّةٌ، في ثلاث سور قصيرة، هي: الإخلاص والمعوِّذتان؛ ولذلك فقد ورد الندب- في السنة- إلى قراءتها.

## المسألة السادسة:

### تطبيق منهج الابتعاث القرآني من خلال سورة الفاتحة :

**فاتحة الكتاب:**

هي باب القرآن الأول، وقد ثنَّى القرآن كله ثنْياً في سورة الفاتحة. وإنما هي سبع آيات بها بهر القلوب بقوة نوره، وأعجز العقول عن إدراك سره؛ فلذلك سماها الله تعالى «السبع المثاني»، وبذلك أيضاً كانت هي «أم القرآن»، و«أم الكتاب». وكانت مفروضة التلاوة في كل ركعة من كل صلاة، فريضة كانت أم نافلة، لا تصح صلاةٌ إلا بها. قال ﷺ: «**مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، فَهِيَ خِدَاجٌ، غَيْرُ تَمَامٍ**»(١). وقال- عليه الصلاة والسلام- جازماً: «**لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٢).

**كلمات الابتلاء في الفاتحة :**

والابتلاء فيها واقع بالكلمات التالية:

**١- ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾:**

**البيان العام:** هذا مقام الفرار إلى الله، وطلب الجوار منه- جل عُلاه.

عندما يستفتح العبدُ لحظات الاستدرار لنور الله العظيم، تلاوةً لكتابه الكريم، فإنه يخشى أن يسطو الشيطان على قناة الاتصال بوجدانه فيجعله من الغافلين، والاستعاذة بهذه الصيغة ليست آية من كتاب الله، لكن رسول الله ﷺ كان يقرؤها؛ استجابة لأمر الله تعالى في القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٣). فهي أمر رباني وسنة نبوية.

**الهدى المنهاجي:**

وهذه الآية مع الصيغة النبوية في الاستعاذة، كلاهما متضمن لخمس

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٣) النحل: ٩٨.

رسالات، لابد للسائر إلى الله- جل ثناؤه- عبر معراج القرآن الكريم من تلقيها جميعاً، الواحدة تلو الأخرى، وإلا فلا وصول ولا قبول.

**الرسالة الأولى**: أنه لا بدء في طريق الله، ولا فتح للعبد الطارق أبواب معارج القرآن؛ إلا بإعلان الولاء لله الحق، وإعلان معاداة الشيطان والتبرؤ منه ومن حزبه وأتباعه.

**الرسالة الثانية**: أنه لا قوة للعبد على الانطلاق وبدء السير إلى الله والتعرف إليه تعالى؛ إلا بالاحتماء به، والالتجاء إليه ابتداءً.

**الرسالة الثالثة**: أن التعبد بالقرآن تلاوةً، وتزكيةً، وتعلماً وتعليماً، لن يؤتي ثماره، ولن يكشف عن أنواره لعبد؛ إلا إذا تبرأ من كل حول وقوة، وقدَّم بين يدي تلاوته علامة الافتقار إلى الله الغني الحميد، ألا وهي الاستعاذة.

**الرسالة الرابعة**: أن الشيطان قد يتدخل فيما يقع بقلب العبد من آثار التلاوة- وهو من أشد الكيد- فيفسد الفهم، أو يفسد نية الافتقار والتعبد عند التلقي عن الله، أو يصرف البال عن مشاهدة نور الهداية؛ فلا يخرج العبد من تلاوته بشيء، وربما خرج بضلال وحيرة والعياذ بالله، كما حصل لأهل الضلالة قديماً وحديثاً عند قراءة القرآن، وذلك نحو ما في قوله ﷺ: «**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(١).

**الرسالة الخامسة**: أن العبد المستجير آمِنٌ من كل ذلك وغيره بإذن الله؛ لأنه استجار بعظيم وهو- جل وعلا- لا يضام جاره.

**مسلك التخلق**:

والمسلك العملي للتخلق بما في هذه الكلمات من معنى تعبدي، وحكمة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

ربانية؛ راجع إلى إحداث وقفة خاصة مع النفس، ومساءلتها: ماذا تريد؟ ماذا تريد بما هي مقبلة عليه من قراءة أو عبادة؟ أحقاً تريد الوصول إلى الله؟ أحقاً تريد القيام بحقه العظيم- جل علاه، والدخول في القيام بوظيفة الخدمة لدينه، وحمل ميثاق عهده وأمانته، وتلقي رسالات هديه وقرآنه، واستدرار مدده وأنواره؟ أم أنها تقرأ وكفى؟!

**٢ـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:**

**البيان العام:**

أما هذا فمقام الاستئذان، مقامٌ يتدفق بأنوار السكينة والجمال. فاطرق أبواب القرآن يا قلبي مستأذناً على مولاك.. ورتِّل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(١)].

والبسملة بهذه الصيغة جزء من آية من سورة النمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٢)]. لكنها ليست آية معدودة ضمن سورة الفاتحة[(٣)]. غير أن قراءتها عند بدء السور سنة ثابتة، ما عدا سورة التوبة.

**ومعناها:** أبدأ بتسمية الله وذكره دون غيره، بما هو- جل وعلا- «الرحمن»: أي واسع الرحمة، رحمة تسع كل خلقه، وتشملهم أجمعين، صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم...إلخ. وبما هو «الرحيم»: أي أن له خصوص رحمة متفردة للمؤمنين خاصة دون غيرهم، في الدنيا والآخرة.

**الهدى المنهاجي:**

وهدي الآية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متضمن لأربع رسالات:

**الرسالة الأولى:** أنك ما قدرت على ما تريد فعله؛ ولا وُفِّقت إليه إلا برحمة الله.

**الرسالة الثانية:** في أن العبد لا ينبغي له أن يتصرف في شيء من الأعمال إلا

---

(١) الفاتحة: ١.

(٢) النمل: ٣٠.

(٣) لأبي بكر بن العربي قول حاسم للخلاف في البسملة أهي من الفاتحة أم لا؟ قال- رحمه الله: «ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها. والقرآن لا يُختلف فيه، فإن إنكار القرآن كفر» أحكام القرآن (١/ ٦).

باستئذان سيده؛ سواء كان ذلك من العبادات أو من العادات؛ تعبيراً عن مطلق التوكل والخضوع الواقعين بالقلب.

**٣ ـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:**

**البيان العام:**

لا حمد لله، ولا شكر، إلا بما حمد هو تعالى به نفسه! فأدخل تواضع عبوديتك لله يا عبد واقرأ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومن يُحصي الثناء على الله إلا هو جل جلاله!

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ذلك بدء الفاتحة، فاتحة القرآن العظيم، وهي كلمة شكر عظمى، جامعة مانعة؛ جامعة لكل حمد يليق بشؤون الربوبية العليا، بما هو الله رب العالمين، مانعة من دخول أي أحد سواه فيما يليق به- جل وعلا- من الحمد والثناء.

و(الرب)- في كلام العرب: لفظ جامع لكل معاني الملكية والهيمنة؛ ولذلك كان بحق هو رب العالمين، فكان الحمد له.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سبق البيان عن اسم الجلال «الرحمن والرحيم».

وأما قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فقد قُرِئَ: «مَلِكِ» بمعنى الـمُلْك، وقُرِئَ: «مَالِكِ» بمعنى المِلْكِ. والدين في اللغة: الحساب والجزاء، الواقع من الله على الخلائق يوم القيامة. فمعنى الآية على القراءة الأولى «مَلِكِ»: أنه تعالى المنفرد يومئذ بالملك، دون الملوك الجبابرة. فالخليقة كلها: ملوكها ودهماؤها، طغاتها ومستضعفوها، كلهم جميعاً خاضعون اليوم لسلطانه. فها هم اليوم حفاة عراة فقراء أذلاء، بين يدي الله الملك الحق، المالك لكل شيء.

والمعنى على القراءة الثانية «مَالِكِ» متفرع عن الأولى، وهو: ألا أحد يملك في ذلك اليوم مع الله حُكماً، فهو- جل وعلا- وحده الذي يملك الحكم بين العباد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، وألا شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه

تعالى. فالحمد لله- في بدء السورة- واقعٌ لله بهذه المعاني جميعاً، أي بما هو ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، وبما هو ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وبما هو ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فذلك كمال الحمد وتمامه.

**الهدى المنهاجي:**

وهدى الآيات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ متضمن لأربع رسالات:

**الرسالة الأولى**: أن الحمد هو أول مقام وجب أن يتحقق به المؤمن العارف بالله حقاً، وأول منزل وجب أن ينزل به، وأول خُلُقٍ وجب أن يتخلق به.

والحمد أول كلمة نطق بها آدم عليه السلام بعد نفخ الروح فيه مباشرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما خَلَقَ الله آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الحمْدُ لله، فَحَمِدَ الله بِإِذْنِ الله. فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ رَبُّكَ يَا آدَمَ**»[1].

فكان الحمد هو كلمة الاعتراف لله بالربوبية على العالمين، وكلمة الخضوع لألوهيته في كل شيء. فهو تخلق بمقام الرضا بالله رباً.

**الرسالة الثانية**: في أن نِعَمَ الله على العباد أعظم وأوسع من مجرد الاستيعاب.

**الرسالة الثالثة**: في أن الحياة الدنيا لم تقم عبثاً، بل هي مراقبة على العبد، محصاة عليه لحظة بلحظة، مسؤول عن كل وقت من أوقاتها مما يصرفه من عمره فيها.

**مسلك التخلق:**

فيا نفسي الأَمَّارة الجهولة، ليس أمامك الآن إلا أن تفرِّي إلى الله، وتعتصمي بحبله المتين عبر الخطوات القلبية التالية:

**الخطوة الأولى**: تحقيق تكبيرة الإحرام في كل صلاة؛ لضمان يقظة القلب

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨)، وابن حبان (١٤/ ٤٠)، وصححه الألباني.

عند أول مقام الحمد.

**الخطوة الثانية**: مشاهدة نعم الرحمانية والرحمة.

**الخطوة الثالثة**: مجاهدة النفس على التخلق بأخلاق الرضا بالله رباً في الشدة والرخاء، وفي المرض والصحة، وفي الابتلاء والعافية.

**الخطوة الخامسة**: إقامة النفس أبداً على عتبة الاستعداد للرحيل.

**كلمات الابتلاء**:

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

**٤ ـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾:**

**البيان العام**:

أما هذه الآية فهي قلب سورة الفاتحة، وكنز أسرارها، ومنبع أنوارها.

إنها آية الآيات، وأم الـمُحكمات، وبيِّنةُ البينات، ومجمع الدلالات لكل آيات الوظيفة الإنسانية في كتاب الله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.. إنها مفتاح الفهم الحقيقي لطبيعة الوجود البشري كله. آيةٌ جامعة مانعة تلخص قصة الخليقة الإنسانية كلها، من أولها إلى آخرها، وجوداً ووظيفةً وغايةً.

فَبِنُورِ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يكشف المؤمن ظلمات النفس، فتحترق في وهجها الرباني العظيم كل الوساوس والدسائس الشيطانية.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يؤذن لك بالدخول، ثم تكون المناجاة بينك وبين الرحمن جمالاً يتدفق بالعطايا والسلام..! فلك يا عبد الله آنئذٍ من الله كل ما سألت.

ذلك مقتضى الحديث القدسي الذي يرويه رسول الله عن رب العزة والجلال، قال- عليه الصلاة والسلام: «**قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: (الحمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى**

عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي- وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ) قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

**الهدى المنهاجي:**

**الرسالة الأولى:** هي أن غاية الدين عبادة واستعانة.

**الرسالة الثانية:** أن ﴿ إِيَّاكَ ﴾ شهادة على النفي بالتوحيد الكامل.

**الرسالة الثالثة:** أنه لا سبيل إلى ذلك إلا باستغراق العمر كله، أيامه ولياليه.

**الرسالة الرابعة:** أن العطاء والمنع في كل صغيرة وكبيرة إنما هو من الله.

**الرسالة الخامسة:** أن كل نقض لصفاء الإخلاص عبادةً واستعانةً، إنما هو نقضٌ لعهد الله، وخيانةٌ له جل علاه.

**الرسالة السادسة:** إذا كانت سورة الفاتحة هي أم القرآن المجيد وخلاصته وروحه- كما تبين بأدلته من قبل- فإن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ هي خلاصة الخلاصة وروح الروح. إنها منطلق الدين، وإنها غاية الدين، وإنها مدار الدين، وإنها المنهاج العملي الجامع لكل الدين.

**مسلك التخلق:**

**المسلك الأول:** أن تبادر إلى تحقيق المواقيت في الصلوات الخمس خاصة، وتُسْلِسَ القياد لندائها، فابنتظام المواقيت تنتظم كل مقامات الدين، وبشهودها يتحقق العبد بمنازل الإيمان، منزلة تلو الأخرى.

**المسلك الثاني:** تحقيق خمس براءات من خمسة مهالك: **أولاها:** الخروج الفوري من ظلمات الشركيات الظاهرة والباطنة. **الثانية:** الانقطاع الفوري عن

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣)، والنسائي (٩٠٩).

أكل المال الحرام، وأخطره الربا. **والثالثة**: الفرار من الزنا بشتى مظاهره، من فحش القول وفحش اللباس والنظر الحرام. **والرابعة**: هجران الخمر والمخدرات بشتى أشكالها، والانقطاع الحاسم عن خبيثة التدخين. وأما **الخامسة**: فهي مجاهدة نفسك أبداً لحفظ اللسان من كل قول آثم، كذباً كان أو غيبة أو نميمة.

**المسلك الثالث**: أن ترتب على نفسك برنامجاً من الأدعية والأذكار، قوامه ما ورد في السنة الصحيحة من أذكار اليوم والليلة.

**والنتيجة**: أن العبد المتخلق بمقتضيات هذه المسالك الثلاثة يكون عبداً محروساً بالله، عليه أمان الله وسلامه؛ ولذلك فهو يهيمن بمقاماته الإيمانية المتجددة على كل تصرفاته وأحواله؛ سواء ما كان من أمور دينه أو من أمور دنياه.

## كلمات الابتلاء:

والابتلاء فيه واقع بالكلمات التالية:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

**البيان العام**:

هذه خاتمة المناجاة بينك وبين ربك، الرحمن الرحيم، وبتمامها يغمرك -سبحانه- بفضله ورحمته، فيقول لك: «**هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**» لقد وصلت الآن إلى الغاية، فتمتع بنور الهداية.. هنيئاً هنيئاً. فإنما الهدى جائزة المكابدين لمنازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

**تعني**: أرشدنا يا ربنا إلى معرفة الطريق المستقيم الذي هو الطريق الواضح البيِّن الذي لا اعوجاج فيه. ويجتمع من هذه أن يكون الداعي على سَنَن المنعَم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه؛ لأنه ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي وغير طريق المغضوب عليهم، وهم «اليهود» الذين وصفهم الله بقوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي وغير طريق الضالين، وهم «النصارى»، الذين وصفهم الله بقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

**الرسالة الأولى:** بما أن دعاء الهدى من هذه السورة، وُضِعَ ليُتلى معها في كل صلاة؛ تجديداً للإيمان، وإلحاحاً على الله تعالى بالحاجة والافتقار؛ فقد حق على العبد الالتزام بأوراد الأدعية والأذكار على كل حال؛ فكما أن سائر العبادات خادمة للصلاة، باعتبار أن الصلاة هي «عمود الدين»، وأنها خير أعمال المؤمن، كما تواترت بمعناه الأحاديث؛ فإن سائر الأدعية خادمة لدعاء الهدى، باعتبار أن هذا أعلى مقام يناله العبد من ربه.

**الرسالة الثانية:** في أن هدى الصراط المستقيم هو أعظم نعمة نازلة من رب العالمين على الإطلاق.

**الرسالة الثالثة:** في أن الحياة سير قهري إلى الله، وإنما الاختيار واقع بين طريق مستقيم موصل إلى رحمة الله، وبين طريق معوج موصل إلى عذاب الله. إننا كادحون إلى الله كدحاً فملاقوه، لا خيار للبشرية في ذلك أبداً. وإنما وصية الله جاءت ببيان الصراط المستقيم هدى للعالمين؛ حتى يكون الكدح سيراً إلى رضا الله لا إلى عذابه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

---

(١) البقرة: ٩٠.

(٢) المائدة: ٧٧.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

**الرسالة الرابعة**: في الهدى- بوصفه توفيقاً وتثبيتاً، وبوصفه نعمة ورحمة- لا يكون إلا من الله وبه هو وحده تعالى مصدر الهدى، وهو وحده مصدر التوفيق إليه، والإرشاد إلى صراطه المستقيم.

**الرسالة الخامسة**: في أن من علامات الهدى، ومن شروط السير على صراطه المستقيم، الاقتداء الجميل والتأسي الحسن بمجاهدات الـمُنْعَمِ عليهم، والسير على سَنَنِهِمْ، من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، والتشمير عن عزائم الصبر؛ للالتزام بمسلكهم، والدخول في صحبتهم، ونقل الخطى إلى مجالسهم؛ للغَرْفِ من علمهم، والتخلق بسمتهم، وتلقي حكمتهم، والانضمام إلى قوافلهم السائرة إلى الله. فقوافلهم لا تنقطع أبداً، ومدرستهم مفتوحة سرمداً، فسجل قلبك بفصولها، وادخل مجالس القرآن.

**مسلك التخلق**:

**الخطوة الأولى**: تحقيق شهود الافتقار إلى الله عند تلاوة دعاء ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

**الخطوة الثانية**: مطالعة معالم الهدى ومشاهدة جماله.

**الخطوة الثالثة**: الحرص على شهود صلاة الجماعة بمساجدها؛ لأنها من أهم معالم الهدى، ومقياس دقيق لمعرفة موقعك من هدى الصراط المستقيم. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ؛ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الهدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الهدَى. وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا المتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ. وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ المسَاجِدِ، إلا كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً. وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ**

**الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»**[١].

**الخطوة الرابعة**: مجاهدة النفس بالقرآن؛ حتى لا تفتتن عن منهاج الفطرة، ونور الصراط المستقيم. قال ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»**[٢].

**الخطوة الخامسة**: تخصيص وقت خالص- من حين لآخر- للخلوة إلى النفس، لتنظر فيما بينك وبين ربك؛ حتى يصفو لك النظر إلى سيرك؛ فترى موقعك من صراط الله المستقيم، قُرْباً أو بُعْداً، واستقامةً أو حَيْداً، فتحاور نفسك وتناقشها، مساءلةً عما فات، وبحثاً فيما أضمرت من مقاصدها لما هو آت، على سبيل التقويم والمحاسبة.

**والحمد لله رب العالمين**

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤)، والنسائي (٨٤٩)، وأحمد (١/ ٣٨٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).


السياحة الثالثة
محمد سرور
زين العابدين

## مقدمة

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه.

والصلاة والسلام على النبي المصطفى، والرسول المجتبى محمد بن عبد الله، الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين، البشير النذير والسراج المنير، خاتم الأنبياء والمرسلين، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحابته الراشدين، ومن دعا بدعوته، واستن بسنته والتابعين لهم بإحسان.

**أما بعد**:

فقد اتصل بي وكتب إليّ الشيخ الفاضل د. جاسم مهلهل الياسين- حفظه الله برعايته وأحاطه بعنايته- وأخبرني - وفقه الله لفعل المكرمات- بأنه يريد أن يصنف كتابًا عن العلماء والدعاة- ممن عاصرهم- ومنهم أستاذنا وشيخنا الجليل محمد سرور زين العابدين، أعلى الله كلمته، وأدام قدرته، ورفع ذكره، فقد بلغه أنني من تلامذة الشيخ، وقد يكون التلميذ من أعلم الناس بأحوال شيخه، لقدم المعاشرة ودوام المباشرة.

فأثار عندي المشاعر والذكريات، وهزني هذا الاتصال من أعماق نفسي، لأن هذا الموضوع دائمًا هو مني على البال، وقلبي منه في اشتغال، كتبت فيه قبل سنين سطورًا وصفحات.

فقلت للشيخ جاسم: لقد فعلت ما يشبه فضلك، ويشاكل نبلك، ويوازي سموّ همتك، ويوجبه كرم الأخلاق، ويحكم به شرف الأعراق، فإنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، وإنك صدقت بذلك ظنًا، وحققت قولًا، وقوّيت به رجاء، وأحكمت أملًا، وصححت تقديرًا، إذ اقترحت متفقًا،

وأردت مستطاعًا بحول الله وتوفيقه.

ها قد أشرقت الشمس من مطلعها، وعادت الأمور إلى منزعها، ولقد أخذ القوس باريها، وسكن الدار بانيها، فإني منذ ثلاثة عقود من الزمان، وأنا على صلة وثيقة بالشيخ محمد سرور، وفي ظل توجيهه ونصحه وعونه أقرأ كتبه، وأتعلم من سمته ودلّه.

ولكن طول الاغتراب، واضطراب الأسباب، وتَنَائِي المزار مما يمنع ويعوق، ويضيق الطريق عن قضاء الحقوق، وبر الشفيق، ومواصلة الصديق.

ومهما اختلفت الأحوال وكثرت الأشغال، فليس بعذر لي عن تصنيف الكتاب في سيرة شيخي وأستاذي الجليل، بقية السلف الصالحين محمد سرور زين العابدين، فله عليّ فضل ومنّة، وللرحم رقة وحنان، وقد شاع في الناس واستفاض خبر كرمه وعلمه وتحليلاته السياسية وكتبه التي بلغت أقطار الأرض، وعمّت أرجاء البلاد، كالشمس في رابعة النهار في الصحاري والبحار، ولقد كثرت محاسنه، وحمدت مآثره، وعظمت مفاخره، وسيأتيك مزيد بيان، ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد.

وقد رتبت هذا البحث في مقدمة وتمهيد وبابين على النحو الآتي:

**المقـدمة**: وفيها سبب كتابة البحث.

**وفي التمهيد**: بينت أهمية الكتابة ومناهج الكتاب، وأهمية دراسة التاريخ والسير ومعرفة الأنساب.

**الباب الأول**: ترجمة الشيخ محمد سرور، وشيوخه، والبيئة التي نشأ فيها، هجرته، معالم التجديد عنده، ودعوته وأفكاره، وفيه الفصول الآتية:

**الفصل الأول**: ترجمة الشيخ محمد سرور وبعض خصاله وأوصافه.

**الفصل الثاني**: شيوخه ومن تأثر بهم من العلماء.

**الفصل الثالث**: البيئة التي نشأ فيها الشيخ، والبلاد التي هاجر إليها.

**الفصل الرابع**: معالم التجديد عند الشيخ محمد سرور.

**الفصل الخامس**: السرورية والعمل الجماعي.

**الباب الثاني**: **آثاره العلمية (البحوث والمصنفات) عرض تفصيلي لبعض كتبه.**

**الفصل الأول**: لمحات في بيان منهج الشيخ في الكتب والمؤلفات وذكر البحوث والمؤلفات مجملة.

**الفصل الثاني**: كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» الجزء الأول والثاني.

**الفصل الثالث**: كتاب «دراسات في السيرة النبوية».

**الفصل الرابع**: كتاب «وجاء دور المجوس».

**الفصل الخامس**: كتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي».

**الفصل السادس**: سياحة فكرية في كتاب العلماء وأمانة الكلمة.

**الفصل السابع**: كتاب «مساجد الضرار، كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين».

**الفصل الثامن**: كتاب «أزمة أخلاق».

**الخاتمة**: **نتائج البحث.**

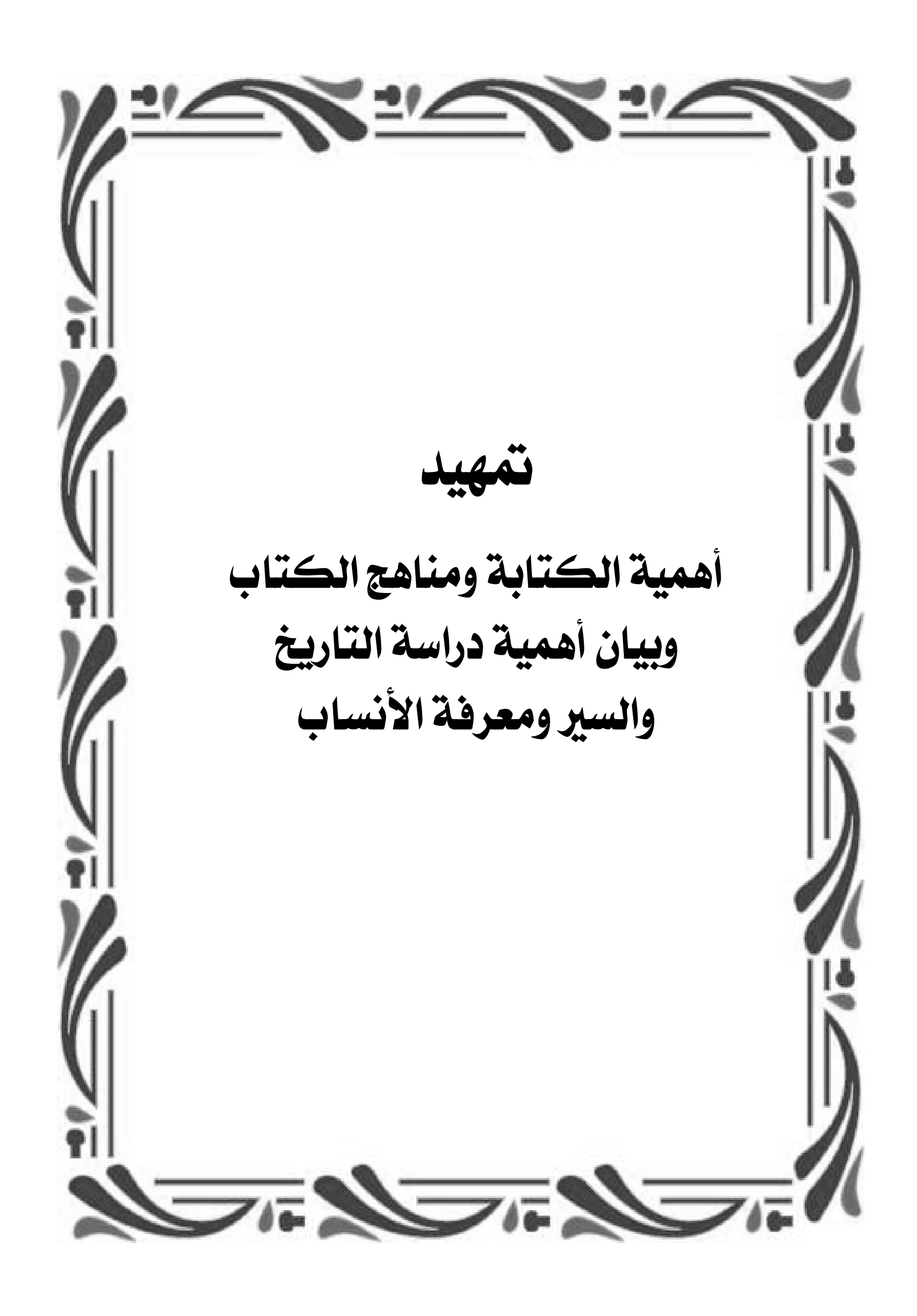
ومن الجدير ذكره، والحق الذي أُقرُّ به وأعترف، أنني لم أعط الموضوع حقه، ولم أفِ بكل ما عند الشيخ من الجوانب المشرقة المضيئة في تاريخه ودعوته ومنهجه وخدمته لهذا الدين، ولكن هذا هو جهد المقلّ أوجزت واختصرت في أمور كثيرة، لتشتت البال، وإلحاح بعض الأصحاب، بالسرعة في إخراج الكتاب، وأرجو من الله العفو والغفران، والصفح والمسامحة من الإخوان والخلان.

**فإن تجد عيبا فسدد الخللا    جل من لا عيب فيه وعلا**

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يوفقني إلى كل خير، وأن يجعل عملي صالحًا، ولوجهه خالصًا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

**كتبه**

**د . حكمت الحريري**



# تمهيد

## أهمية الكتابة ومناهج الكتاب
## وبيان أهمية دراسة التاريخ
## والسير ومعرفة الأنساب

## أهمية الكتابة ومناهج الكتاب
## وبيان أهمية دراسة التاريخ والسير ومعرفة الأنساب

**الكتابة والكتاب:**

إن للكتابة شأنًا عظيمًا في حياة الأمم وتأريخ الأحداث والوقائع، وكتابة التراجم وسير الأعلام، ولذا فقد أقسم سبحانه فقال: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[(١)] وذكر فضله على خلقه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[(٢)]، وأمر بالعلم والقراءة فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٣)].

ولما للكتابة والبيان من تأثير في النفوس فقد قال النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحرًا**»[(٤)]، وصدق الشاعر حين قال:

**وخير جليس في الأنام كتاب**

ومن هنا فإنك تدرك- أخي الفاضل- سرّ اهتمام الدول بالإعلام، وإنفاق الأموال الطائلة، ومحاولة السيطرة على كثير من الكُتَّاب وأصحاب الأقلام.

ومن خلال تجربتي المتواضعة في هذه الحياة، أذكرك بما رأيته وعرفته في هذا المجال، ولقد سبقني علماء المسلمين الأعلام في بيان هذا الشأن- أي شأن الكتاب ومناهجهم، وبالخصوص منهم علماء الحديث الذين اهتموا بالجرح والتعديل، والكلام عن الرواية والرواة.

لقد رأيت من خلال المخالطة لبعض الكتاب، وقراءة الكتب على اختلاف مناهجها أن بعضهم من يَنْصَبُّ اهتمامه على الجمع والنقل والتأليف، ولا خبرة له ولا فقه عنده فيما يكتب عنه.

---

(١) القلم: ١.
(٢) الرحمن: ١-٤.
(٣) الأعلى: ١-٥.
(٤) أخرجه البخاري (٥١٤٦)، ومسلم (٨٦٩/ ٤٧).

ومنهم من لا يبالي بتسطير الأكاذيب ونقل الافتراءات، فينقل الوقائع على غير حقيقتها، ويصور الأمور على غير صورتها، ولذا فقد قال أحد العلماء قديمًا: «إن من الناس من أصلي خلفه ثلاثين سنة ولا أقبل له شهادة على حزمة بصل».

فقد يكون طيب القلب، لكنه لا يتثبت في النقل، ولا يتحقق من صحة الأخبار والمرويات.

ومنهم من يزخرف القول، فيكتب حول أمور لا قناعة له بها، ولا يعتقد بصحتها، وإنما هدفه أمور دنيوية ومقاصد مادية، إذا أشبع رغبته فلا يبالي أن الأمور تسيب، وليس له بحال الكرام نصيب.

هذا حال المنافقين الذين حذرنا الله تعالى منهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

وقال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[2].

ومنهم –الكُتّاب– من يتعلم ويكتب العلم لله، ويستحضر في قلبه مراقبة الله وخشيته، فيعمل ويصنف فيما يرضي الله، ويعلم أن العلم أمانة وشهادة يقيمها على وجهها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[3] فيشعر بخوفه من الله، ولا يحرص على إرضاء الناس، لأن من أرضى الخلق بسخط الخالق، سخط الخلق عليه وأسخط عليه الخالق.

(١) المنافقون: ٤.

(٢) البقرة: ٢٠٤-٢٠٦.

(٣) النساء: ٥٨.

وهذا منهج علماء الحديث والسنة: التثبت في نقل الأخبار، وتمحيص الروايات، ودراسة الأسانيد، ومعرفة أحوال الرواة، وشروط صحة الخبر، هذا مسلكهم قديمًا، وهذا دأب قليل من المحدثين والعلماء في هذا العصر.

ومن هذه القلة شيخنا الفاضل- بارك الله في علمه وعمره- فله من المقال أتقنه، ومن الخبر أوثقه، يفصح الكلام وينقحه، ويدبر القول ويهذبه، ويتأمل في حال رواة الأخبار؛ عملًا بمقولة المحدثين القدماء: «سمّوا لنا رجالكم».

ويا لله، كم جرّ التهاون بهذا المنهج- على المسلمين في زماننا- من ويلات، وأوقع العلماء الذين لم يتدبروا الأقوال، أوقعهم في حرج وإشكالات، حين يأخذون من صحف ومجلات ومواقع مشبوهات!!

وبالمثال يتضح المقال:

خلال عملي في سلك التدريس الجامعي، في الجامعات، كان أحد أعضاء هيئة التدريس يتصل بي ويعرض عليَّ كتاباته، ويعمد إلى نشر مقالاته في الصحف الرسمية لينال شهرة ومعرفة في الأوساط، ومما أطلعني عليه من كتاباته التي نشرها مقال عن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والدور البطولي لهذين العلمين والقائدين المشهورين في التاريخ الإسلامي.

كنت أتعجب من شخصية ذلك الرجل، فظاهره ليس كباطنه، ومبديه ليس كخافيه، وأنا لم أكن على معرفة سابقة به، بل جمعني به مكان العمل، كان يتظاهر بحسن الخلق، وإذا به من غير المسلمين!!

**ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم**

وعندما نكبت الجزائر منذ سنين بحرب داخلية، ذهب ضحيتها عشرات الآلاف، كانت إحدى الفئات الغالية تصدر صحيفة ظاهرها الدفاع عن الإسلام، والحث على الجهاد! وكنت أطلع على بعض الأعداد منها، فأقسمت يومًا لبعض البسطاء الأبرياء ممن يثنون على تلك الصحيفة ويوزعونها، أنها

تخدم أعداء الجماعات الإسلامية، بل هي من فعل أعداء الحركات الإسلامية، ثم كشفت الأيام صحة ما أخبرته به.

وحصل مثل ذلك في بلاد الشام في أوائل الثمانينات من القرن الماضي؛ حيث اخْتُرِقَتْ إحدى الجماعات الإسلامية من قبل المخابرات، ثم أصدروا مجلة شهرية تشبه المجلة التي تحدثت عنها آنفًا، وكشفت حقيقتها، وعرف أمرها، ولكن بعد فوات الأوان.

**حاصل الكلام وغاية المرام**: أنه ينبغي التدبر الصادق، والتأمل وأخذ الحذر، والنظر الدقيق في حال الكاتب، وموضوع الكتاب، وبيان ذلك ورد على لسان الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، عليه الصلاة والسلام، فقال: «**فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلَّغٍ أوعى من سامع**»، وفي رواية: «**فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه**»[١].

ومما جاء في كتاب «تاريخ الأدب العربي» لأحمد حسن الزيات عن الأصمعي قال: حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع، فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت: مجلد واحد. فسأل أبو عبيدة عن كتابه فيها، فقال: خمسون مجلدًا. فقال: قم إلى هذا الفرس وأمسك كل عضو منه وسمّه. فقال: لست بيطارًا، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لي: قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك. فقمت وأمسكت ناصيته، وجعلت أسميه عضوًا عضوًا، وأنشدت ما قالت العرب فيه، إلى أن فرغت منه. فقال: خذه. فأخذته، وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه.

وكان الخطيب البغدادي يقول: من صَنَّفَ فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩/ ٣٠).
(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٩٠).

ومعذرة إليك- أيها القارئ الكريم- فإني لا أريد الإسهاب والاستطراد في حال الكتب والكتّاب، لكني أريد أن أذكر بأن منهج شيخنا محمد سرور- حفظه الرب الغفور، ودفع عنه مضلات الأمور- كلامه بيّن المناهج، سهل المبادئ والمخارج، صحيح المعاني، ظاهر الفحوى، وقد أيده الله بالتوفيق، ووفق للصواب، وأمد بمحاسن الخطاب، ظنونه صائبة، ورجومه غير كاذبة.

**بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع**

وقديمًا قال الحكماء: من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه. فلا يأخذ بالأوهام، ولا يرجم بالغيب، فإن الرجم بالغيب شك وريب، لكنه حينما يبدي رأيه في تحليل قضية أو يناقش مشكلة، فتجد أن حدسه لا يخيب، ومخيلته مصباح، وفراسته ذات إفصاح واتضاح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وإن في ذلك لآيات للمتوسمين، فكم من قضايا ومشكلات خاض فيها الكُتَّاب وأصحاب الأقلام والخطباء، فكانت تحليلاتهم خاطئة، لكنك تجد للشيخ موقفًا آخر، يكون- كما قال- كمن يسبح عكس التيار، فإذا بظنه سراج، ورأيه قبس وهاج.

**في بيان أهمية السير ودراسة الأنساب:**

إن دراسة سير الأعلام وأنسابهم هو موضع اهتمام جميع العقلاء من البشر، لكنه عند المسلمين له مزايا، تفوق عما هو موجود عند غيرهم من الأمم.

ففي القرآن الكريم ذكر سبحانه وتعالى أن في سير الأولين عبرةً، فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وبعد أن ذكر سبحانه في سورة الأنعام عددًا من الأنبياء والرسل الكرام قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾(٢).

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الأنعام: ٩٠.

فالأنبياء هم الأسوة الحسنة للبشر، وكذلك ورثة الأنبياء- العلماء العاملون- وللتأسي بهم لابد من معرفة سيرهم وأنسابهم.

ومعرفة سير وأنساب الأعلام الذين يقتدى بهم تُوقفنا على كثير من حقائق أمرهم ودعواتهم، ولذا كان للعرب اهتمام بالأحساب والأنساب، حتى أطلقوا في ذلك الأمثال، فقالوا: «الولد سر أبيه»، وقالوا: «من أشبه أباه فما ظلم».

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾(١).

وفي سورة مريم عندما جاءت بولد من غير أبٍ، استغرب قومها وتعجبوا من هذا الفعل، الذي لم يكن يعرف عن أبيها ولا أمها فقال تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾(٢).

وفي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»(٣).

ولما بعث النبي ﷺ كتابًا إلى هرقل عظيم الروم في السنة السادسة من الهجرة، كان في أسئلة هرقل عن صاحب الكتاب- النبي ﷺ- فوائد جمة ودروس مهمة، نستفيد من خلالها كيفية التعرف على شخصية من الشخصيات. ولقد كان هرقل بحق عظيمًا كما وصفه رسول الله ﷺ، وفي

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) مريم: ٢٧، ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨/ ١٦٨).

أسئلته التي سألها لأبي سفيان ما يدل على ذلك.

وإليك الخبر كما رواه البخاري بسنده: أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعوهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا.

فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.

ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا .

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ فذكرت أن لا.

قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب مُلْكَ أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليَذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم

أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولـو كنـت عنده لغسلت عن قدمه.

قال أبو سفيان: فلما قال ما قـال، وفـرغ مـن قـراءة الكتـاب، كثر عنـده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنـه يخافـه ملـك بني الأصفر.

فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

هذا الحديث أخرجه أميرُ المؤمنين في الحديث الإمامُ البخاري في صـحيحه في كتاب بدء الوحي[1]، وهذا من حسن ترتيبـه وتنـسيقه للأحاديـث، وذكـره بألفاظ مختصرة في غير ما باب من أبواب الصحيح.

وفي حـديث هرقـل الـذي رواه البخـاري، فوائـد عظيمـة ينبغـي للـدعاة والعلماء والعاملين في الجماعات والحركات الإسـلامية التأمـل فيـه ومطالعتـه وتدبر ما فيـه مـن المعـاني؛ لأنـك تجـد كثـيرًا مـن العـاملين في حقـل الـدعوة الإسلامية اليوم يغفلون عن هذه المسائل.

ولما صنف جلال الدين السيوطي- رحمـه الله- كتابًـا يـؤرخ فيـه للخلفـاء المسلمين، لم يورد فيه أحدًا من العبيديين، وعدّ إمامتهم غـير صـحيحة، رغـم زعمهم وتسترهم بالنسب الطاهر، وادعوا أنهم من العلويين، لكـن المحققـين متفقون على نفي هذا النسب الطاهر عـن بنـي عبيـد؛ لأنهـم كـانوا عـلى ملـة الإسلام شرًّا من التتار، منهم من أظهر سبَّ الأنبياء، ومنهم من أبـاح الخمـر، ومنهم من أمر بالسجود له، والخـيّر مـنهم رافـضيٌّ خبيـث لئـيم، يـأمر بـسب الصحابة رضي الله عنهم.

وفي دراسة التاريخ وسير الأعلام وأنسابهم إحياء لذكر الأولين والآخرين

---

(١) حديث رقم (٧).

من العلماء، وتصورهم في القلوب، ومعرفة أفعالهم وزهدهم وورعهم وديانتهم وانصرافهم عن الدنيا واحتقارهم لها، وصبرهم على شدائد الطاعات والمصائب في الله، فيتخلق الناظر بأخلاقهم، ويتعطر السامع بأحوالهم؛ فالطبع منقاد، والإنسان معتاد، والأذن تعشق قبل العين أحيانًا.

ولما كان سببُ النجاة الاستقامةَ في الأحوال والأفعال، ولا يتم ذلك إلا بسائق وقائد؛ كصحبة الصالحين، أو سماع أحوالهم، والنظر في آثارهم عند تعذر الصحبة؛ حيث تتصور النفوس أعيانهم، وتتخيل مذاهبهم؛ لأنك لو أبصرت لم يبق عندك إلا التذكر والتخيل، وكان السمع كالبصر والعيان كالخبر، وإن كان بينهما بَوْن، ولكن إن لم يكن وابل فطلٌّ، سيما وعند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة وذكر للآخرين واعتبارهم، فلولا الكتب لنسي أكثر الأخبار والأحوال(١).

وكان العلامة المجتهد التقي ابن دقيق العيد يقول لتلميذه الحافظ ابن سيد الناس، بعد تعبه من إلقاء الدرس: لذذنا يا شيخ فتح الدين بتراجم هؤلاء السادات(٢).

(١) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، للسخاوي، ص ٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص ٤٢.



# الباب الأول
# ترجمة الشيخ محمد سرور وشيوخه

**الفصل الأول** : ترجمة الشيخ محمد سرور

**الفصل الثاني**: شيوخه ومن تأثر بهم من العلماء

**الفصل الثالث**: البيئة التي نشأ فيها الشيخ، والبلاد التي هاجر إليها

**الفصل الرابع**: معالم التجديد عند الشيخ محمد سرور

**الفصل الخامس**: السرورية والعمل الجماعي

# الفصل الأول
# في ترجمة الشيخ محمد سرور
# وبيان بعض خصاله وصفاته

شيخنا وأستاذنا العلامة المجدد الألمعي اللوذعي الداعية الشهير، والسياسي الناقد البصير، أستاذ الأستاذين بقية السلف الصالحين، مجدد الملة والدين، نسيج وحده، وكفء جدّه، ووحيد عصره، وقريع دهره، الذي لا يكافَأ في مجد ورياسة، ولا يشارك في جود وسياسة، كريم النسب، عظيم السبب، نجيب العمومة، عتيق الخؤولة، كريم الأخلاق، ماجد الأعراق.

**الشيخ الفاضل الجليل محمد سرور بن نايف بن عبد الغني بن زين العابدين الحريري، يرجع نسبه إلى الإمام علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب- رضي الله عنهم**[1]..

فوالده نايف بن عبد الغني زين العابدين كان من وجهاء وشيوخ المنطقة الغربية في حوران، وكان معروفًا بديانته وسياسته ودهائه؛ لأنه كان «المختار» في قرية تسيل، فلا يكاد أهل المنطقة يقطعون بأمر أو تحصل لهم مشكلة إلا والشيخ نايف يتولى حلها.

منذ مدة من الزمان تزيد على ثلاثة عقود، ذهبت إلى قرية «تسيل» لزيارة والدي الشيخ وأقاربه، رحم الله الأموات منهم والأحياء، ولما جلست مع أبي هاشم- رحمه الله- استقبلني بهشاشة وبشاشة وتهلل وجهٍ، وكنت في العشرينيات من العمر، وكان في يدي كتاب أطالع فيه من كتب المقررات الجامعية، ومن كرم أخلاقه وحسن أدبه واحترامه، لم يسألني من أنت؟ بل أخذ الكتاب من يدي وقرأ اسمي، ثم سألني: من أي قرية أنت؟ فقلت له:

(١) انظر: أنساب السادة الحريرية، ص١١١.

أنت من الشيوخ والوجهاء وعمدة الجيدور، فهل تستطيع أن تعرفني من أي قرية؟

فتأمل في وجهي هنيهة، ثم قال: أنت من أبناء موسى الشوخ من القرية الغربية، مع أني لم ألتق به من قبل!! فقلت له: وكيف عرفت ذلك، قال: عرفتك من خشمك (أنفك).

وأما والدة الشيخ- رحمها الله- لما عرفت أنني من تلامذة الشيخ أبي عصام رحَّبتْ بي ترحيبًا أشعرني بالأنس وراحة البال وهي تكرر الترحاب وتقول: مرحبًا بإخوة أبي عصام.

عرفت شدة محبتها للشيخ أبي عصام؛ لأنه المهاجر الغريب عنها، فوالدته لم تره منذ سنين، وتذكرت جواب المرأة الحكيمة عندما سُئلتْ عن أحب ولدها فقالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يحضر، والمريض حتى يُشفى.

وأما أخواله، فكان جده لأمه حامد السليمان من شيوخ قرية محجة، وقد كان له ولابن عمه عبد المحسن زين العابدين دور مشهور في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي(١).

ولد الشيخ محمد سرور- بارك الله في عمره- عام ١٣٥٧هـ، الموافق ١٩٣٨م في قرية تسيل في الجهة الغربية من أرض حوران، تبعد عن «نوى» قرية الإمام النووي بضعة كيلو مترات، وسنأتي للحديث عن البيئة التي نشأ فيها.

أتم دراسة المرحلة الابتدائية في مدرسة القرية، ثم درس المرحلة الإعدادية (المتوسطة) في مركز المحافظة «درعا» المعروفة في كتب السيرة «أذرعات الشام»، ثم انتقل إلى دمشق، وفيها أتم دراسة المرحلة الثانوية.

(١) انظر: أنساب السادة الحريرية، ص ١٨، ١٩.

ثم انتسب إلى كلية الحقوق في جامعة دمشق؛ رغبة منه في أن يكون محاميًا، وكان الناس يتفاخرون إذا أراد أحدهم أن يُدرِّس ولدًا له في الجامعة، ولذا كانوا يدرسون في كلية الحقوق، ومنها يتخرج القضاة والمحامون، وكم تخرج من كلية الحقوق في جامعة دمشق من شخصيات مرموقة كان لها دورها في السياسة السورية.

والذين عاصروا تلك الفترة إلى زمننا هذا، يظهرون الأسف على الحال التي وصل إليها القضاء في سوريا، والدراسة في جامعة دمشق اليوم كيف كانت وأين صارت!!

**أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها**

ولكن الشيخ- رعاه الله- ترك الجامعة قبل التخرج بعام واحد، لأنه كره عمل المحامين ودراسة الحقوق التي تستمد أكثر قوانينها ونظمها من غير الشريعة الإسلامية، وأيقن أنه لا يمكن للداعية الصادق أن يلفق ويجمع بين القوانين الوضعية وأحكام الشريعة الإسلامية.

كما أنه لا يجوز لداعية مثله أن يمارس عمل المحاماة ليدافع عن الظالمين وتبرئة المتهمين، ولذلك فقد انقطع عن الدراسة الجامعية التي كان يفترض أن يتخرج منها في عام ١٩٦٣م.

إلا أن بعض إخوانه وأصدقائه نصحوه بإكمال الدراسة الجامعية طالما لم يبق منها إلا سنة واحدة، فلست ملزمًا بعد إكمال الدراسة أن تعمل بالقضاء أو المحاماة، فأكمل الدراسة الجامعية في عام ١٩٦٨/ ١٩٦٩م.

وفي عام ١٩٦٥م، تعاقد الشيخ مع رئاسة الكليات والمعاهد العلمية في المملكة العربية السعودية، التي تسمى اليوم «جامعة الإمام محمد بن سعود» ودرَّس في عدة معاهد، من أهمها معهد «بريدة» العلمي، ومعهد «الإحساء» العلمي، وظل يدرس في السعودية إلى نهاية عام ١٩٧٣م؛ حيث أُجْبر على

الخروج منها.

بعد مغادرته السعودية توجه نحو الكويت، وعمل في مجلة «المجتمع» الأسبوعية المشهورة في تلك الأيام، عمل فيها نائبًا لمدير التحرير، وترك المجلة بعد أن مكث فيها لمدة ثلاث سنوات ونصف.

وأنشأ دارًا للنشر والتوزيع في الكويت هي «دار الأرقم» ونشر في حينها عددًا من الكتب القيمة لبعض العلماء الأعلام.

وفي نهاية عام ١٩٨٤م خرج الشيخ من الكويت متوجهًا إلى أوروبا، وأقام في بريطانيا، ولم يكن اختياره لها إلا لظنه ورغبته في اختيار مكان يستطيع أن يعبر فيه عن رأيه، ويقول كلمته ويكتب ما يريد بحرية وأمان.

فأسس في مدينة برمنجهام «مركز الدراسات الإسلامية» الذي تصدر عنه مجلة «السنة» الغراء.

إلى جانب اشتغاله بتأليف مصنفات وكتب قيمة في مختلف العلوم الشرعية والسياسية.

وفيها- برمنجهام- أسس أيضًا «مكتبة دار الأرقم للنشر والتوزيع» وصدر عنها عدد من الكتب القيمة.

**في وصف كرم أخلاقه وذكائه** :

تعرفتُ على الشيخ- أدام الله عزه ورفع قدره- وهو في تمام قوته وكمال رجولته في الأربعينيات من عمره.

ما إن تلقاه وتحادثه إلا وقعت في القلب محبته، تراه رجلًا مهيبًا، لا يسرع في الكلام، ولا يتعجل في الجواب.

لقد حفظت من رسائله- التي كان يرسلها إليَّ- أكثر من عشرين رسالة وبقيت في حوزتي بضع عشرة سنة، واأسفاه!! لم أعد أحتفظ بها بسبب ظروف السفر والتنقل.

وكم انتفعت بتوجيهاته ونصائحه ووعظه لي.

وإذا جمعك به مجلس فتراه قليل الكلام، كأن عينيه لسانان ناطقان، فيسمع ممن حضر في المجلس وتكلم، وإذا دار الحديث في مسألة فلا يكون أول من يتكلم، بل يحب أن يسمع من الآخرين.

ومما رأيته من شدة ذكائه وقوة فطنته وسرعة حافظته أنه قد يكون في مجلس ما يقارب العشرين رجلًا، فلا يكاد يفوته شيء من كلامهم وحركاتهم، رغم أن فيهم من رآه لأول مرة، ثم يعود فيسألني من هذا الذي كان يجلس في المكان الفلاني؟ وأمورًا أخرى عن أحواله.

ولقد زرته منذ بضع سنوات وذكرت جملًا عن كتاب «الطريق إلى مكة» لمؤلفه محمد أسد- رحمه الله- فأخذ الشيخ في الحديث عن موضوعاته، وكأنه قرأها منذ ثلاثة أيام قراءة متمعِّن ومتدبِّر، مع أنه مضى على قراءته له أكثر من ثلاثين سنة.

ولربما سألته عن موضوع أو حدثته بمسألة قبل ثلاثين سنة، ثم أعود - أحيانًا ناسيًا وأخرى متناسيًا - فأعيد السؤال مرة أخرى فيقول لي: أنت سألتني من قبل عن هذا الموضوع قبل كذا، فهو جيد الفطنة، ذكي القلب، نافذ البصيرة، يتوقد ذكاء.

ولا أذكر أني زرته إلا ووجدت عنده من الوجهاء والدعاة والعلماء، وقد أتوه من كل أوب، ونسلوا إليه من كل حدب سحيق، وسلكوا إليه من كل ريع وطريق، يأتون إليه من آفاق البلاد وأقطار الأرض، ولو قدّر لي أن أكون مثل عبد الرحمن الكواكبي كاتبًا ومصنفًا قديرًا، لكتبت كتبًا مثل كتاب «أم القرى» فهذا يماني، وآخر مصري، وثالث عراقي، ورابع شامي، ومغربي..، ولكني لا أخرج بغير فائدة علمية، ولله الحمد والمنة.

فمجالسه عامرة، لا يسأم الإنعام، ولا يمل البر والإكرام، إذا وعد وفّى،

وإذا أنجز أوفى، وإذا منّ لم يمتن.

طبع على الخير والبر، وجبل على تجنب السوء والشر، وطبيعته الجميل من الأمر، خلقه الله سبحانه في أحسن تقويم، وجعله على خلق عظيم، جسيمًا قسيمًا كريمًا وسيمًا، مسودًا مؤيدًا فتبارك الله أحسن الخالقين.

**بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول**

إذا جاءه ضيف فإنه يحسن قِرَاه، ويكرم مثواه، فما أهداه إلى فعل الخير، وما أعرفه بطرق البر، وما أسلكه لسبل الإحسان والفضائل!! فكم من محتاج وفقير ومسكين أعطاه وأناله وهو لا يشعر ممن جاءته ومن أعطاه، وكم سعى في خدمة أناس وساعدهم في سد حاجتهم أو تأمين عمل ووظيفة، وقد تجد من هؤلاء لسوء طباعهم ولرداءة أصلهم، يتكلمون في الشيخ، ومع ذلك لا يبالي بكل ما يقال، إنه يستمسك بأوثق عرى الإيمان، ويجعل كل عمله ونيته لطاعة الرحمن، فلا يضره من أزاغه ووسوس له الشيطان، لكن لسان حاله يتمثل قول الشاعر:

**إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا**

فلله دره! ما أحلمه وأوقره وأسكن ريحه! وما أقصد هديه وأرشد رأيه!

**همته ونشاطه في الدعوة إلى الله:**

للشيخ- حفظه الله وأمده بعونه وقواه- همة عالية، بدأ عمله الدعوي إلى الله- عز وجل- وعمره كما قال خمسة عشر عامًا، فنهض بهذا العبء وهذه المهمة التي أوكلها الله بالأنبياء والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، إن تقلد عملًا سوّاه، وإن رأى ضالًا دعاه وهداه، وإن أبصر زيغًا عدّله، وإن نظر إلى فاسد أصلحه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصده عن الدعوة إلى دين الله صاد، واستحوذ على قلبه العمل الدعوي ليلًا ونهارًا. كنت أذهب مع أحد الإخوة لزيارته أيام إقامته في الكويت، وكان يسكن في منطقة الجهراء، فنصل في وقت

متأخر الحادية عشرة ليلًا أو بعدها بقليل، فلا يعتذر عن الاستقبال، بل يتلقانا ببر وبِشْر، ويستقبلنا بسرور واستبشار وحبور، فلا غرابة ولا عجب؛ فإن الأسماء تقدر من رب السماء، الشيخ محمد سرور، لا يستقبل ضيفه بغير الرضا والحبور والابتسامة والسرور.

لقد دعاني في أحد الأيام لنخرج في رحلة في اليوم التالي وكان يوم الجمعة، وتواعدنا للخروج بعد الصلاة، ولما جئت على الموعد وكان معنا أحد الإخوة يقود السيارة، كانت جهة الرحلة إلى منطقة الوفرة في الكويت على الحدود السعودية، وفي أثناء الطريق صرنا نتجاذب أطراف الحديث، فتحدثت بأمر لا يريد الشيخ أن يعرفه الأخ الذي معنا، فتكلم الشيخ مقاطعًا ليصرفني عن الحديث الذي لا يريد أن يعرفه الآخر، فقال لي: من أين أخوالك؟ فأجبته أخوالي من أعمامي، وفهمت أنه لا يريد أن أكمل موضوع الحديث.

لا أنسى مدة حياتي تلك الرحلة، وصلنا إلى الوفرة وهنالك حيث بعض الأقرباء والأصدقاء، ولما دخل وقت المغرب، صلى بنا الشيخ صلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، كانت تلك الصلاة أول مرة في حياتي أجمع وأقصر بسبب السفر، وأذكر أنه قرأ من سورة الذاريات، فما أجمل حياة الصحراء في الليالي المقمرة، إذا عمرت بذكر الله سبحانه.

وسمعت منه مرة أخرى في أحد المجالس يذكر قصة الأصمعي حينما قرأ سورة الذاريات على أعرابي، لم يذهب من نفسي أثر ذلك التوجيه، فما هذا الكلام العجيب، أما إنه ألذ من الضريب.

إن هذا الكلام منه- والله- يدب في الأفهام دبيب الصحة في دنف الأسقام.

وقد اتصلت به مرة بعد مرور السنين الطوال لأطمئن عن صحته وعافيته، وقد أنهكته الأمراض، وإذا به يسألني عن أحد الطلبة، وعن أحواله وأوضاعه

المادية، فقلت: يا شيخ، والله نحن نريد أن نطمئن عن صحتك وأحوالك، فلا تشغل نفسك بأحوال الإخوة، دائمًا وأبدًا نريد راحتك. فقال: هذا دأبي وشأني، فلا أستطيع- والله- أن أكون مشغولًا بنفسي، فقلت في نفسي: سبحان الله العظيم، كيف شرح صدور أوليائه، ويسر لهم فعل الخيرات، ووظفهم في طاعته، وهيأهم لذلك، سبحانه ما أعظم شأنه!!

كيف تهيأ الشيخ لهذا الأمر، واستفرغ فيه الوسع والطاقة، وواصل الليل بالنهار، وامتنع من الهدوء والقرار.

**لولا عجائب صنع الله ما نبتت هذي الفضائل في لحم ولا عصب**

ما إن تحصل مشكلة في أي بقعة من أقطار الأرض تتعلق بالعمل الإسلامي إلا ويتابعها، يجمع الصحف والمجلات، ويسمع التحليلات الإذاعية، ويقرأ فيها الساعات الطوال، ثم يبدي فيها رأيه، ويبين موقفه، بعد التأني والتمحيص، فيجزم بأقوال سديدة وآراء رشيدة، وقد يتجشم صعوبات السفر إليها غالبًا، ما رأيت ولا سمعت - علم الله- عالمًا من العلماء أو داعية من الدعاة أكثر سفرًا منه، فإذا سألته عن وضع الدعوة الإسلامية في الجزائر وبلاد المغرب يخبرك بأني زرت المكان الفلاني فيها وجلست مع الداعية أو العالم الفلاني، فمن بلاد المغرب إلى بلاد الخليج، إلى بلاد الشام، إلى اليمن، إلى مصر، إلى العراق، إلى وسط آسيا وباكستان، إلى بلاد أوروبا وأمريكا.

**ابتلاؤه وصبره :**

حياة الشيخ كلها ابتلاء ومحن، ولقد نزل به من المصائب والخطوب والندوب والابتلاءات، ما لو نزل بالراسيات لهاضها، لكنك لا تراه إلا متجلدًا صابرًا.

**خُلقنا رجالا للتجلد والأسى وتلك الغواني للبكا والمآتم**

لقد عجمته الخطوب، ونجذته الأمور، وهذبته الدهور ودربته العصور.

يقول في مقدمة كتاب «رؤية إسلامية»: كنت أنوي نشره في رسالة صغيرة يسهل تداولها والاستفادة منها، وقبل دفع الرسالة إلى المطبعة أرسلتها لأحد الأصدقاء- الذين يهتمون بمثل هذه القضايا- ليطلع عليها، ويكتب لي ملاحظاته، وبعد طول انتظار علمت من الصديق أنه فقد الرسالة، وقد بحث عنها بين أوراقه فلم يعثر لها على أثر، وحزنت على ضياعها حزنًا شديدًا، حيث لا أملك صورة عنها وليس باستطاعتي العودة إلى المراجع التي عدت إليها، وأتعبت صديقي بالرسائل والمكالمات الهاتفية التي أطلب فيها مزيدًا من البحث.

وبعد سنتين أخبرني الصديق أنه عثر على الرسالة، وأرسل لي صورة عنها دون أن يتحفني بملاحظاته التي كنت قد بعثت الرسالة من أجلها، ولم أعد مهتمًا بملاحظاته، فحسبي أن الرسالة قد عادت إليَّ والحمد لله.

ولعلها المرة الأولى والأخيرة- إن شاء الله- التي أرسل فيها بحثًا دون أن أحتفظ لنفسي بصورة عنه، وشكرًا لصديقي الذي علمني درسًا لن أنساه، وليس من يكتب الشيء كمن يقرؤه[1].

ولقد قدر الله على الشيخ أن يعيش مهاجرًا؛ فمنذ سنة ١٩٦٥م وهو يعيش غريبًا خارج البلاد، لا يهدأ له بال، ولا يقر على حال، فلم يعد من الممكن له رؤية والديه، ولا حتى من السهل كتابة رسالة لهم.

وقد كتب في مجلة «السنة» مقالة يعبر فيها عن ظلم النظام الحاكم في سوريا وبطشه بقوله: كنت أكتب رسائل لوالدي، وحمل الرسالة كان مغامرة أقل مخاطرها السجون فيما لو فتش حاملها، أما والدتي فكنت أعلم بمرضها وأعلم بخطورة وضعها الصحي، وما كنت بقادر على الحديث معها عن طريق الهاتف، لأن مثل هذا الحديث سيكون كارثة على أصحاب البيت.. كنت أشعر

(١) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي (١/ ١٢).

بما يشعر به الطفل الصغير نحو أمه، أمي الآن تحتضر وأستطيع أن أسمع صوتها.. يدي تمتد بشكل عفوي نحو الهاتف ثم أسحبها؛ لأن دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة.

وقد توفي ولده الأكبر- عصام رحمه الله- أثناء توجهه إلى أهله وأقربائه في سوريا، ومع ذلك لا يستطيع الشيخ أن يحضر جنازة ولده فلذة كبده بسبب بطش الطغاة وظلمهم.

فيقول: «أحد الذين توفاهم الله ولدي الكبير- توفاه الله قرب قريتنا وهو في طريقه إلى أهله، وكانوا يترقبون وصوله، وكان الظالمون يجهلون مثل هذه الزيارات.. تصوروا معي.. والد يأتيه فجأة خبر وفاة ابنه في حادث ثم لا يستطيع حضور جنازته والصلاة عليه!!»[1].

وفي مناسبة إعادة ترشيح «حافظ أسد» لولاية رئاسية رابعة في سوريا، كتب الشيخ عن بعض معاناته فقال:

«منذ سبعة وعشرين عامًا وأنا أعيش في غربة متنقلًا من بلد لآخر، لا يهدأ لي بال، ولا أشعر بالطمأنينة والاستقرار. منذ سبعة وعشرين عامًا وأنا أعيش في غربة فرضها عليَّ حزب البعث النصيري الكافر لأنني أقول: ربي الله، وأعمل من أجل أن يكون الدين كله لله.

سبعة وعشرون عامًا لقي فيها جيل كامل وجه ربه، وكان من بين هذا الجيل أبي وأمي وأعمامي وكثير كثير من أقربائي»[2].

أراد الشيخ يومًا أن يبحث عن بيت يستأجره عندما كنت في الكويت، وكنت أسكن في منطقة جليب الشيوخ، فأخبرته عن وجود بيت، فجاء ومعه أهله، فذهب معه صاحب المكتب العقاري ليريه البيت. وبعد رجوعه من

---

(١) مجلة «السنة» العدد (١٨)، ص١٠.

(٢) مجلة «السنة» العدد (١٨) ص٣٩.

رؤية المكان غارت عجلات السيارة في الرمال، وليس معه إلا أهله، وكان الجو شديد الحرارة، وبعد المحاولة المتكررة لإخراج السيارة لم يتمكن، فرجع إلى مسكني ماشيًا ودعاني لدفع السيارة وإخراجها، هذه واحدة من حالات كثيرة من معاناته وهجرته، فكم عانى من التنقل والارتحال، كتب الله أجره ووضع وزره، ورفع ذكره.

وبعد هجرة الشيخ إلى بريطانيا أصابه مرض الفشل الكلوي، وفي هذه الحال تكون حياة الإنسان في أقصى درجات الخطر، ولكن الله لطيف بعباده. فما كان من أحد أنجال الشيخ د. بشير- حفظه اللطيف الخبير- إلا أن تبرع لوالده بإحدى كليتيه، نسأل الله لهما الصحة والعافية.

تأمل- أيها القارئ الكريم- روحان تحت الخطر بسبب العملية الجراحية ليس بالهين ولا اليسير، ولكن لطف الله ورحمته بعباده، يفرغ الصبر على عباده الصالحين، ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾(١).

ثم استمع إلى المحاورة التي أجرتها معه قناة «الحوار» عند وصوله إلى بريطانيا، كيف سعى للتحذير منه ومقاطعته أناس يحسبون أنفسهم من الدعاة يظهرون اللين والدماثة للعلمانيين، والشدة والغلظة على إخوانهم المسلمين!!

ومع ذلك فالشيخ- حفظه الله- ذو همة عالية، فلم تمنعه الأمراض والآلام من متابعة أحوال المسلمين والدعوة إلى الله عز وجل، والكتابة في مجلة «السنة» التي سار ذكرها في الآفاق سير المثل، بل ظهور الشمس في رابعة النهار.

فإن الدعوة إلى الله- عز وجل- امتلكت عليه قلبه وروحه، لا يشغله عنهما شاغل؛ فهو يمتثل قول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ﴾(٢).

ومن جانب آخر لما سلك الشيخ سبيل الدعوة إلى الله، وجعل تقوى الله

(١) الأعراف: ١٢٦.
(٢) الأنعام: ١٦٢.

زاده واستقام على الحق، فكان يبدي رأيه صريحًا واضحًا ويصدع بالحق، ولا يجامل أحدًا مهما كلف الأمر، وهذا لا يرضي المداهنين ولا الذين يتبعون أهواءهم ومصالحهم الدنيوية.

وكم عانى من ظلم هؤلاء، ومع ذلك فالشيخ ثابت ثبوت الرواسي، ماض في طريقه، متوكلًا على ربه ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾[1].

لكنه لا يشتغل بسفاسف الأمور، ولا يصرفه عن هدفه الحقيقي- مصارعة الباطل ودحضه- صارف:

**حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم**

(١) هود: ٥٦.

## الفصل الثاني

## شيوخه ومن تأثر بهم من العلماء

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**لا تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ سِرًّا؛ فَإِنَّ الْغَيْـلَ يُـدْرِكُ الْفَارِسَ فَيُدَعْثِرُهُ عَنْ فَرَسِهِ**»(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- عن جذامة بنت وهب الأسدية أنها أخبرتها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ فَلاَ يَضُرُّ أَوْلاَدَهُمْ**»(٢).

والغيلة هي أن يمس الرجل امرأته وهي حامل.

قال الأخفش: هي إرضاع المرأة ولدها وهي حامل، لأنها إذا حملت فسد اللبن، فيفسد جسم الصبي ويضعف، حتى ربما كان ذلك في عقله.

قال الشاعر:

**فوارس لم يغالوا في رضا ع فتنبو في أكفهم السيوف**

القصد من هذا- أيها الأخ الكريم- أنك بحاجة ماسة عندما تريد معرفة شخصية من الشخصيات، بحاجة لمعرفة نسبه ونشأته وبيئته، فلكل منها تأثيره في تصرفاته وتفكيره.

فدعك من الاستطراد والإسهاب في هذا ولنأت على الكلام عن الأساتذة والشيوخ والعلماء الذين استفاد منهم أو تأثر بهم شيخنا الجليل محمد سرور زين العابدين.

إن أول هؤلاء الذين استفاد منهم وتأثر بهم، هو والده نايف بن عبد الغني زين العابدين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٤٢)، وأبو داود (٣٨٨٢).

ولقد سمعت من والدي- عليه رحمة الله- يقول: كان نايف زين العابدين داهية من الدهاة.

كان والده يصحبه معه إذا سافر للقاء بعض الوجهاء والأجلاء، ولا يمنعه من حضور المجالس التي يكون فيها من كبار القوم وعِلْيتهم، رغم صغر سن الشيخ في حينها.

فيقول الشيخ: أتاحت لي الظروف فرصة التعرف على شيوخ الحريري منذ صغر سني، وتحديدًا منذ سن السابعة، وذلك لسببين رئيسيين:

**الأول**: كنت أوثر الجلوس مع الضيوف وكبار السن في المضافة على اللعب مع أترابي، وفيما كنت أساعد في تقديم الخدمات لهم كنت أستمع إلى أحاديثهم- غثها وسمينها- وأحفظها، وقد بادلني الضيوف الاهتمام بمثله فاختصني بعضهم بأحاديث عن ماضيهم، ولقنني بعضهم شعرًا شعبيًا فيه من الفكاهة والهجاء.

**الثاني**: كان والدي يصطفيني من بين إخواني في أسفاره، وتسير الأمور على المنطق القديم حتى نعود من سفرنا.

ثم يذكر أن من بين الوجهاء الذين يعتز بالتعرف عليهم شخصيتين مهمتين:

**الأول** : شيخ مشايخ حوران إسماعيل الحريري.

يقول الشيخ: فعندما دخلنا مجلسه العامر قدمت القهوة لوالدي، ثم أخذه من يده ودخل به مجلسًا آخر مجاورًا للأول ومعدًّا لكبار الضيوف. وكنت أول وآخر مرة أرى هذا المجلس رغم دخولي المتكرر على هذا المنزل الكريم فيما بعد، كان والدي قد جاء لقضية من القضايا لا تهم القراء، ومن جهتي فقد استوعبت- والحمد لله- كل ما دار بينهما من حديث مع محافظتي التامة على سرية الجلسة وعدم الحديث فيها، غير أن الذي أذكره جيدًا أن لسان الرجل

كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى[١].

إسماعيل الحريري شيخ مشائخ حوران وزعيمها، كل من كتب عن تاريخ حوران والجهاد ضد الاستعمار الفرنسي لا يستطيع أن يتجاهل الحديث عنه، وقد قابله الجنرال غورو في بلدته «الشيخ مسكين»، وتذكر كتب المذكرات والوثائق السياسية تفاصيل هذا اللقاء والنقاش الذي حصل بينهما، لقد كان الحريري قويًا عزيز النفس بارعًا في رده، يذكرك كلامه بمواقف السلف الصالح مع الطغاة والظالمين.

**أما الشخصية الثانية** من هؤلاء الذين تأثر بهم الشيخ فهو محسن زين العابدين، وهو الذي دوّن أنساب الحريرية منذ عام ١٩٠٦م، وكان يتجول على قرى حوران التي يسكنها آل الحريري لتدوين أنسابهم، وسافر إلى اسطنبول، لأن هذه المهمة كانت باتفاق مع السلطان العثماني آنذاك، وكان محسن زين العابدين شيخًا لبلدة «إنخل» من قرى حوران، وله دور مهم في الثورة ضد الفرنسيين، وكان من بين الذين التجأوا إلى الأردن، وضربت الطائرات الفرنسية منزله، وجرى اعتقاله في سجن المزة مع كبار السياسيين أمثال: حسن الحكيم، فهو يذكره في مذكراته.

ومن بين الوجهاء الذين تأثر بهم شيخنا محمد سرور منذ صغر سنه، أحمد عبد الغني الحريري، وكذلك محمد ذيب المنوخ الحريري ويعرفه جيدًا، وكان كثير التردد على قرية «تسيل»، كان الشيخ يحضر مجالسه مع بقية الأقرباء ويتعجب من أحاديثه وقصصه في الجهاد ضد المستعمر الفرنسي، وضد المستعمرين الإنجليز والصهاينة في فلسطين، وكأنه درس وسمع الأفلام البوليسية[٢].

وبعد أن فرغ من تعليم المتوسطة في قريته «تسيل» انتقل إلى دمشق ودرس فيها الثانوية.

---

(١،٢) انظر: تقديم الشيخ لأنساب السادة الحريرية.

كانت دمشق الفيحاء اسمًا على مسمى في تلك الأيام.. كانت فيحاء ببساتينها وأنهارها، بمساجدها ومدارسها، بعلمائها وشيوخها، حيثما تنقلت في شوارع دمشق وأطرافها تجد ذكر الله وبركته.. كان فيها الأعلام الكبار كالعلامة الشيخ محمد بهجت البيطار، والعلامة الشيخ ناصر الدين الألباني، والعلامة الفقيه مصطفى الزرقا، والعلامة الجليل الدكتور مصطفى السباعي، والعلامة الشيخ محمد المبارك، والأستاذ المربي عصام العطار، وغيرهم من العلماء الأفاضل والشيوخ الكرام.

ولقد تعرف شيخنا محمد سرور- رعاه الله- على هؤلاء العلماء ودرس على بعضهم كالشيخين: مصطفى السباعي ومصطفى الزرقا.

إذ كانوا من أساتذة جامعة دمشق، واستفاد من الآخرين بالحضور عندهم في خطب الجمعة أو المصاحبة الدائمة.

وكان الشيخ في جماعة دمشق وهي فرع الإخوان المسلمين الرئيس في سوريا، وكانت هذه الجماعة تتميز بلقاءاتها الإسلامية، ومن رجالها الشيخ الدكتور مصطفى السباعي، والأستاذ عصام العطار، والدكتور محمد لطفي الصباغ، والأستاذ زهير الشاويش، وكان الشيخ ناصر الدين الألباني والشيخ محمد بهجت البيطار والشيخ علي الطنطاوي لهم احترام وتقدير لجهود جماعة دمشق.

لقد كان حضور الأساتذة السوريين وبعض العلماء إلى السعودية نافذة جديدة، وذلك في عقد الستينيات من القرن الماضي. لقد حضر إلى المملكة الأستاذ الدكتور محمد أمين المصري، وكاد أن ينتقل إليها الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، وكان قد تعاقد مع إحدى جامعات المملكة، ولكن أدركته المنية قبل سفره.

وممن حضر إليها -أي المملكة- العلامة الشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ الأديب محمد المجذوب، وغيرهم من الكرام الفضلاء من علماء وأدباء سوريا

ودعاتها، وفي هذه الفترة ومع هذه الكوكبة حضر الشيخ محمد سرور زين العابدين، وبدأ يمارس العمل الدعوي، وكان صديقه العالم الجليل الدكتور محمد لطفي الصباغ الداعية المشهور والعلامة المربي الكبير عبد الرحمن الباني، كل هؤلاء وغيرهم ممن كان حضورهم إلى المملكة العربية السعودية واضحًا.

وما إن تذكر عالمًا من العلماء في المملكة إلا ويذكر لك قصة أو أمرًا تعلم من خلاله أن الشيخ على معرفة أو صلة به.

كنت أجلس مع الشيخ- حفظه الله- ويحضر معي في بعض هذه المجالس أخي وصديقي الدكتور سلمان الظفيري، فيثير أسئلة أمام الشيخ، فكان يعجبني حضور الدكتور سلمان؛ لأنه يطرح على الشيخ أسئلة أتهيب عن الإقدام على طرحها.

فسأله الأخ د. سلمان مرة عن الأديب الكاتب الشهير شكيب أرسلان، فذكر الشيخ القصة التالية، قال: كنا نتناقش نحن والدكتور محمد الصباغ، وجرى الحديث عن شكيب أرسلان، فقال الشيخ الصباغ: كيف زوج بنته لكمال جنبلاط؟ فقلت: لم يزوجه.

قال الصباغ: أنت تقول مثل مقولة زهير الشاويش؟ بل زوجه، فقلت: ارجع إلى كتاب «الأعلام» فانظر فيه، فأحضر الكتاب فقلت: متى توفي؟ فوجد أن وفاته سنة ١٩٤٦م وزواج جنبلاط لبنته كان سنة ١٩٤٨م.

كان أعمامها يريدون قتلها؛ لأنها على علاقة بكمال جنبلاط، فأبوها لم يزوجها له، بل هي كانت على علاقة خاصة دون رغبة أهلها، وكانت أسرة جنبلاط على علاقة بفرنسا، والدروز على علاقة ببريطانيا.

وسأله الأخ د.سلمان الظفيري مرة عن العلامة بهجت البيطار، فذكر الشيخ محمد سرور عن فضله وورعه، ثم قال: كنت أنا والشيخ محمد لطفي الصباغ عند العلامة عبد الرزاق عفيفي عضو هيئة كبار العلماء، فقال الشيخ

عبد الرزاق: جاء الشيخ محمد بهجت البيطار إلى مجلس الملك عبد العزيز، فدفع إليه الملك عبد العزيز صُرَّة من المال، فاعتذر عن قبولها، فقال الملك عبد العزيز: الهدية لا ترد، فأخذها الشيخ بهجت البيطار، وجعل يبكي، فرقّ له الملك عبد العزيز ثم قبل منه ردّها.

وكانت للشيخ محمد سرور- حفظه الله- صلة قوية بالعلامة المجاهد عبد الرحمن الدوسري- رحمه الله تعالى- صاحب المؤلفات الشهيرة، وقد طبع له الشيخ محمد سرور كثيرًا من كتبه في دار الأرقم التي أنشأها في الكويت.

قال الشيخ: سافرت أنا والشيخ الدوسري مرة للعمرة، فقال الشيخ الدوسري: تعال نَزُرْ الشيخ محمد نصيف- رحمه الله- وجيه جدة، فذهبنا للشيخ محمد نصيف ووجدنا عنده العلامة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي- رحمه الله تعالى.

كان موضع ثقة واحترام عند الشيخ عبد العزيز، والشيخ يبذل شفاعته ولا يتوانى في استجابة مطالب الشيخ محمد سرور، فعندما بدأ ينشر مجلة «السنة» كان الشيخ ابن باز من أوائل الذين استجابوا لطلبه والمساهمة في الكتابة فيها، فكتب- على ما أذكر- في العددين الخامس والسادس.

وعندما صنف الشيخ كتاب «وجاء دور المجوس» اشترى منه الشيخ ابن باز- عليه رحمة الله- ثلاثة آلاف نسخة ووزعها على نفقته الخاصة.

والشيخ محمد سرور يثني دائمًا على ابن باز، ويعجب بكرم أخلاقه وحلمه وتواضعه، وقد نعاه في مجلة «السنة» بعد وفاته، وكتب صفحات عن مآثره الحميدة وأخلاقه الحسنة- عليه رحمة الله.

وممن أيد الشيخ في دعوته واستحسنوا فكرته وجهوده، الشيخُ العلامة عبد الله بن قعود- رحمه الله تعالى، فقد كان يثني على الشيخ محمد سرور وغيره من كرام البلد، وفضلاؤه أيضًا لهم مثل هذا الموقف من الشيخ.

## الفصل الثالث

## البيئة التي نشأ فيها والبلاد التي هاجر إليها

تقع قرية «تسيل»- مسقط رأس الشيخ- في الجنوب الغربي من حوران سوريا، لأن حوران جغرافيًا تمتد من الكسوة جنوب دمشق فتشمل درعا والسويداء والرمثا وإربد، وفي فترة الاستعمار الأوربي على إثر ما يسمى اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦م، حيث قسمت بلاد الشام إلى أربع دول: سوريا وفلسطين والأردن ولبنان، ومع هذا التقسيم جعلت الرمثا وإربد مع الأردن تحت سلطة الانتداب الإنجليزي، وجعلت درعا والسويداء تحت سلطة الانتداب الفرنسي.

الإنسان- كما يقولون- ابن بيئته، وهذه المسألة يؤكد عليها العلامة المؤرخ ابن خلدون في مقدمته المشهورة، فقرية «تسيل» لها ذكريات مهمة في نفس الشيخ محمد سرور، كما لها تأثيرها في قلب كل مسلم قارئ للتاريخ، فالمنطقة لها موقعها المهم.

تقع القرية على أحد روافد نهر اليرموك، وهو وادي العلان شمال القرية، مياه هذا الوادي تأتي من جبل الشيخ، وتصب في نهر اليرموك، هذا النهر يبعد عن «تسيل» بضعة عشر كيلو مترًا.

نهر اليرموك!! وغزوة اليرموك!! وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح والصحابة الكرام- رضي الله عنهم- الذين خاضوا معارك النصر والبطولة، ودحروا جحافل الروم على رُبَى تلك الأرض المباركة!! أي قلب مسلم خفاق لا تهزه مشاعر غزوة اليرموك، وأي قارئ للتاريخ الإسلامي لا تحضره تلك الذكريات.

وفي الشرق من قرية «تسيل» تل مشهور يسمى «تل الجموع» سمي بهذا

الاسم؛ لأن سرايا المجاهدين في عهد الصحابة وعهد صلاح الدين كانت تجتمع فيه ثم تتوجه نحو حطين، الذي حصلت فيها المعركة المشهورة الفاصلة؛ حيث اندحر الروم، وطهر بيت المقدس على إثرها من دنس الصليبيين.

تبعد تسيل عن حطين قرابة الخمسين كيلو مترًا.

وفي الشمال الشرقي من تسيل تقع «الجابية» التي جاءها عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في أيام معركة اليرموك، وقد استدعى عمر- رضي الله عنه- الأجناد إلى الجابية، وألقى فيها خطبته المشهورة.

البيئة التي نشأ فيها الشيخ، أجواء ريفية، أهل فلاحة وزراعة، وسكان حوران كلهم أو معظمهم قبائل عربية، وآخرون وفدوا إليها من مناطق أخرى ينسبون إلى المناطق التي جاؤوا منها، فهذا النابلسي نسبة إلى نابلس، والصفدي من صفد...

الفلاحة هي المورد الأساسي للناس، وفي تلك الأيام لم يكن الناس يغادرون بلدانهم؛ فهم متعلقون بالأرض، وانتقال الإنسان من قرية إلى أخرى تبعد عنها قليلًا أو كثيرًا يعد سفرًا شاقًا، ويشعر الإنسان بمرارة الاغتراب.

الحياة في تلك الأيام كانت لذيذة، رغم خشونة العيش، فما كان الناس يعرفون الكهرباء، والطرقات ليست معبدة، ووسائل النقل هي الخيول والإبل، والناس يعتمدون في ريّهم وزراعتهم على مياه الأمطار، فإذا انقطع المطر عاش الناس في ضائقة عجيبة، وكان الادخار قليلًا.

وفي وادي العلان الذي قلنا إنه أحد روافد نهر اليرموك، توجد جزيرة أو أكثر من جزيرة، تنبت بالنرجس، لا يزرعه أحد، ولا يقم على زراعته، بل هو مما حبا الله بها طبيعة تلك الأرض المباركة، ويأخذ منه الناس يشتمون رائحته العطرة الزكية، وهو مشاع لكل من يصل إلى تلك المنطقة.

الحياة في القرى والأرياف تختلف عن الحياة في المدن في أمور كثيرة.

الحياة في القرى والأرياف في تلك الأيام حياة ملؤها الخشونة، لكن ملؤها الرجولة والمعرفة، وقوة الإيمان وقوة الأبدان، وفي مثل هذه الحياة يتعلم الإنسان الاعتماد على النفس بعد التوكل على الله، يخرج الفلاح يبذر الحب في الأرض وهو يذكر الله تعالى في كل خطوة يخطوها أثناء البذار، يدعو ربه ويسأله أن يبارك له في زرعه وعمله.

كان الفلاحون في تلك الفترة يربون المواشي والطيور وكل ما يحتاجون إليه في بيوتهم، فهم يمتلكون حقيقة الحرية والاستقلال وعزة النفس، لأنهم مستقلون في دخولهم ومصدر رزقهم.

أهل القرى والأرياف في حوران يعيشون حسب العادات العربية القديمة، يعيشون على الرجولة والنخوة والكرم، فالبيوت الكبيرة يوجد فيها مضافة، والمضافة لها من اسمها نصيب كامل، عبارة عن غرفة كبيرة تكون غالبًا خارج البيت، ثم يستقبل الرجل المسؤول عن الضيوف الذين يمرون بالقرية حسب المعارف، وقد يأتيه من لا يعرفه أبدًا؛ لأن له عليه حق الضيافة، يدخل الضيف وليس من الأدب أن يسأله: من أنت؟ ومن أين جئت؟ يقدم له الطعام والشراب، وقد ينام في بيته، وتقدم له الخدمات بالمجان كالطريقة العربية القديمة، أليست هذه سنة رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»؟[1].

وفي القرى هناك تعاون كبير بين الناس، رغم وجود النظام العشائري، والتعاون له وجوه نادرة، ومن هذا التعاون الجوانب الأمنية؛ حيث كانت سلطة الحكومة ضعيفة، فإذا جاء لصوص واعتدوا على بيت أحد، يهبُّ الناس مذعورين لنجدة الصارخ، فيفزع الناس بما يملكون من سلاح أبيض أو غيره

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧/ ٧٤).

وينقذون هذا البيت مما ألم به.

التعاون العشائري كان يحمي أبناء العشيرة، وكان الناس إلى حد ما يتعاونون في دفع الظلم عن الآخرين، وسكان القرية الذين ليس لهم عشيرة، تحميهم العشيرة التي هم بجوارها.

التعاون المعيشي أمر عجيب، فلم تكن تشعر بكبير فرق بين مالك الأراضي الواسعة، والمستأجر الذي يعمل عنده، أي الفلاح الذي يعمل في أرضه، بل يعيشون حياة متقاربة في المأكل والمشرب والملبس.. كثيرًا من المزروعات لم تكن تباع، بل كان بيعها عيبًا، إنما يتصدق بها على من ليس له أرض يزرعها.

والتعاون في الأفراح والأحزان أمر يبعث السرور في النفوس، فالأقرباء والأصدقاء يشاركون أهل الأفراح في فرحهم، ولم تكن ترتكب المنكرات في الأفراح، فلا تجد الاختلاط، ولا آلات الطرب والموسيقى.

النظام العشائري له فوائده، فمن جملة ذلك حماية شرف العائلة، وحماية أبنائها من اعتداء الآخرين، ومن الأمثال التي تذكر «الحمايل سياج»: أي العشيرة هي كالسياج للبيت يحميه.

وكان هناك إهمال كبير للقرى في حوران، وهذا الإهمال كان أرضية خصبة للأحزاب الطائفية؛ مثل حزب البعث وغيره.

فالطرقات- كما قلت- لم تكن معبدة، ولم يكن من الطرق المعبدة إلا الطريق الذي يربط بين دمشق وأذرعات، وإذا جاء المطر تنقطع الطرق لأيام عدة، وكذلك الإهمال الصحي؛ فلم يكن هناك مستشفى إلا في مركز المحافظة.

والوضع التعليمي في حوران كان متردّيًا، فالمدارس في القرى كانت قليلة، ولا تتجاوز المرحلة الابتدائية إن وجدت، أما المرحلة الثانوية فكانت في أذرعات فقط، هكذا كانت الأيام التي تعلم فيها الشيخ محمد سرور- حفظه الله. أما اليوم فالمدارس بالمئات: الابتدائية والإعدادية والثانوية.

وأما حال المرأة في التعليم فقد كان أسوأ بكثير من حال الرجال، وعدم التعليم له أضرار كبيرة؛ سواء كان على الرجل أو المرأة، لأنها إن لم تكن متعلمة فلا تعرف أحكام دينها.

كانت المرأة تعاني حالة من الشقاء، فهي تشارك الرجل في الحصاد وتربية المواشي وتربية الأولاد، فمسؤوليتها داخل البيت وخارجه، وفضلًا عن هذا وذاك كانت لا تعطى نصيبها من الميراث، لكن تحسنت الأحوال من هذه الجهة فيما بعد.

ذكرت- فيما سبق- وجود المضافات في قرى حوران، والجدير بالذكر عن شأن المضافات أنها كانت تمثل في أيامنا هذه، عدة مراكز، فهي منتدى سياسي واجتماعي وتربوي وثقافي، وذلك لندرة العلماء وقلة المساجد.

المضافة يلتقي فيها كبار الشخصيات في البلدة أو الزائرون، فمن يريد متابعة الأخبار والتطورات يذهب إلى مضافة فلان في القرية، ففيها يسمع أخبار العالم من حوله، ويقابل الشخصيات الاجتماعية المرموقة.

عندما تُقابل الشيخ محمد سرور وتتحدث معه عن تاريخ حوران فإنه يخبرك بأنه قابل فلانًا وسمع من فلان وزار فلانًا.. وهكذا، هذا في أيام صباه.

ومن هؤلاء الذين يحدثك عنهم ولهم شأن في فترة الانتداب الفرنسي، الشيخ محمد الأشمر الذي جاهد ضد الفرنسيين سنوات طويلة، وخاض معارك مشهورة برفقة إخوة له في حوران، ومن هؤلاء محمد ذيب المنوخ، ومحسن زين العابدين الذي سجنه الفرنسيون في سجن المزة مع حسن الحكيم الشخصية المشهورة في رجالات السياسة السورية.

وكذلك تسمع من الشيخ محمد سرور الكلام عن سيرة بعض رجالات سوريا المشهورة مثل حسني الزعيم، وقد عرف شيئًا عن سيرته المشينة، وذلك من خلال أحاديث ومجالس المضافات، وما حديثه عنه بالحديث المرجم.

وله معرفة بشيخ مشائخ حوران إسماعيل الحريري، وذكر عنه الشيخ أنه لم يكن لسانه يفتر عن ذكر الله تعالى، وكذا أحمد عبد الغني الحريري.

وفي أحد الحوارات مع شيخنا محمد سرور- حفظه الله- قال: سأذكر مثالًا شهدته يؤكد أن المجاهدين من أهل دمشق- وخاصة أهل الميدان والمجاهدين من أهل حوران- كانوا يعملون سويًّا، ومعروف اتصال الميدان القوي بأهل حوران.

المثال الذي شهدته أن بعض المجاهدين من أهل حوران دعوا مجاهدين من أهل دمشق، وعلى رأسهم الشيخ محمد الأشمر للاستجمام، وكان هذا في بلدتنا «تسيل» في فصل الربيع في موقع يبعد عن منتصف البلدة حوالي ثلاثة كيلو مترات اسمه «تل حمد»، كان منظر الربيع غاية في الروعة، وكان الأولاد أو الأطفال الذين هم في مثل سني لا يسمح لهم بالاقتراب من الخيام، أما أنا فكنت محظوظًا؛ حيث كنت أدخل مع والدي، وأجلس مع المجاهدين وأسمع منهم، وكذلك أجلس مع الشيخ محمد الأشمر، وبقيت لي صلة به حتى وفاته سنة ١٩٦٠م- رحمه الله. كنت أزوره في المضافة التي خصصها أهل الميدان، وكنت أرى المجاهدين من أهل الميدان يأتون ويتبارزون بالألعاب الحربية التي يشتهرون بها أمثال السيوف والترس وغيرها، وكنت أرى كذلك من أهل حوران مَنْ يأتون مجموعات إلى الخيام ويغنون أغاني معينة تمثل القوة والانتصار وما إلى ذلك، ويدبكون دبكة تسمى «الجوفية» تشبه إلى حد بعيد رقصة الحرب التي يمتاز بها أهل نجد.

هذا المنظر بقي مشهدًا عجيبًا. انتهى كلامه.

كانت أول المعارك ضد الفرنسيين بعد احتلالهم لسوريا انبثقت من أرض حوران، وذلك بعد المعركة الشهيرة التي جرت في قرية «خربة غزالة».

كانت هَبَّة حوران سنة ١٩٢٠م، عندما رفض أهلها دفع الغرامة المالية التي

فرضها الفرنسيون، فاجتمع عدد كبير من أبطال حوران ورجالاتها في قرية «خربة غزالة» وهم عازمون على الفتك بأعضاء الوفد الذي تشكل من قبل الجنرال غورو الفرنسي، وكان الوفد قدم لمفاوضة أهل حوران برئاسة علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى، فقُتل الدروبي وعبد الرحمن اليوسف وبعض الفرنسيين، وتم قطع المواصلات السلكية وعطلوا سكة الحديد، وبدأت المقاومة في مختلف مناطق حوران ضد الفرنسيين، وجرت معارك شهيرة أذاقت الغزاة الخسائر والويلات، وكان عدد الشهداء من أبناء حوران أكثر من تسعمائة شهيد، هذا في وقت كان عدد سكان سوريا- على ما أحسب- لا يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة.

وكذلك كان أول خروج للقوات الفرنسية من سوريا، فإنه بدأ من أرض حوران، وخرجوا بعد قتال عنيف.

**بعد الاستقلال**:

وبعد الاستقلال وخروج القوات الفرنسية من أرض سوريا، قام الحكم الوطني «الكتلة الوطنية» وفي كل بلد- غالبًا- وكل استقلال في أي بلد عربي، المجاهدون الصادقون يقدمون التضحيات، ثم يعودون إلى منازلهم، ثم يبرز أصحاب الأقلام المزيفة ينسبون البطولات إلى غير أهلها، ويستفيد من هذه البطولات العلمانيون المنتسبون إلى الكتلة الوطنية.

الحديث عن البطولات، وعن الاستقلال، ومقاومة المستعمرين، كانت أحاديث الناس في المضافات وفي كل مكان يجتمع فيه الناس. التعبئة الإعلامية للتحرر من ربقة المستعمر تجدها في المدارس وغيرها، فالأناشيد الوطنية كانت جزءًا مهمًّا من المناهج التي يدرسها الطلاب في تلك الفترة، فقلما تجد من الطلاب أو أشباه المثقفين من لا يحفظ النشيد المعروف:

**يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما**

ليس بعد السجن إلا فجر مجد يتسامى
أيها الحراس رفقًا واسمعوا مني الكلاما
متعونا بهواء منعه كان حراما
يا رنين القيد زدني نغمة تشجي فؤادي
إن في صوتك معنى للأسى والاضطهاد
لست والله نسيًا ما تقاسيه بلادي
فاشهدن يا نجم أني ذو وصال ووداد

ومن هذه الأناشيد أيضًا:

نحن الشباب لنا الغد ومجده المخلد
نحن الشباب شعارنا على الزمن
عاش الوطن عاش الوطن

ومنها:

في سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيد كلنا ذو همة شماء جبار عنيد
لا تطيق السادة الأحرار أطواق الحديد إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيد
لا نهاب الزمن إن سقانا المحن في سبيل الوطن كم قتيل شهيد

ومنها:

نحن جند الله شبان البلاد نكره الذل ونأبى الاضطهاد
يا بني عمي ويا أسد الشرى قام سوق الحرب في كل الورى
فارفعوا الأعلام وامشوا للجها د حيث أعدانا تمادوا في الغرور

كان الشعور عند السوريين جميعًا أن بلاد العرب يجب أن تكون وطنًا واحدًا، وكل الأدبيات والأناشيد والمواقف تسعى إلى تحقيق هذه الوحدة.

وبعد الاستقلال وجلاء الفرنسيين انتظر الشعب أمورًا كثيرة، وكانت له

آمال عريضة، لكن هذه الأمور لم تتحقق، فقد خرج المستعمر الـذي توحـدت القلوب جميعًا على مقاومته وإخراجه، وجاء نظام آخر علماني، لا يمثـل الأمـة وطموحاتها، هؤلاء السياسيون كانوا يمارسون الفساد بمختلف أنواعه، ومـن لا يمارس الفساد شخصيًا كان ينتفع به الذين يحيطون به، ولذلك ضج النـاس من هذا الفساد.

**قضية فلسطين:**

وبعـد خـروج المـستعمر بقليـل، أو مـع خروجـه، تـوترت الأحـداث في فلسطين، وكثر الحديث عن دولة يهودية في فلسطين، وعن سعي الإنجليز مـن أجل ذلك فأصدروا «وعد بلفور».

وأصبحت قضية فلسطين حديث الناس، أينما اتجهت تسمع الحـديث عـن فلسطين وعن قضية فلسطين، وتشريد شعب وطرده مـن وطنـه، لا سـيما وأن حوران ومنطقة الشيخ محمد سرور لا تبعد أكثـر مـن أربعـين كيلـو مـترًا عـن فلسطين، وأهل هذه المنطقة لهم صلات قوية مع البلدان المجاورة، ولهم أقرباء من طبرية إلى صفد إلى لوبيا ونمرين وغيرها من القرى.

وصار الناس يتحدثون عن الجهاد في فلسطين، ودخلت القوات العربية إلى أرض فلسطين، وانتهى الأمر بهزيمة القوات العربية وخروج الفلسطينيين من بلدانهم، وتأثر الناس جميعًا، وحديث نكبة فلسطين كان موضع اهـتمام النـاس جميعهم- الرجال والنساء، النساء تحدث أولادها عـن المجـازر التـي ارتكبهـا اليهود في حق إخواننا من شعب فلسطين.

كان الطلاب يخرجون بمظاهرات تجوب البلدة- ولا عهـد للنـاس بمثـل هذا من قبل- ينـددون بـاليهود والإنجليـز الـذين سـاعدوهم عـلى احـتلال فلسطين.

هاجر الناس من فلسطين الذين هم على حدود سوريا باتجاه حوران، وكان

الناس يستقبلونهم بالترحاب ويقدمون لهم ما استطاعوا من المساعدات والإيواء، هذه حال الفلسطينيين في جميع أرجاء سوريا، لم يكن السوريون شعبًا وحكومة يشعرون بفضل أو منة على أهل فلسطين، بل إن أهل فلسطين هم أهل سوريا، وتاريخيًا إذا ذكرت فلسطين يقولون: فلسطين الجنوب الغربي من سوريا، هكذا كانت الحال في تلك الأيام الخوالي.

هذه المسألة تقررت منذ سنة ١٩٤٨م، يعني حسن التعامل مع المهاجرين من أهل فلسطين، واندماجهم بالشعب السوري، كان هذا أيام الكتلة الوطنية، ثم استمرت الحكومات العسكرية في الانقلابات التي بدأت عام ١٩٤٩م تعاملهم نفس المعاملة، بل كان بعضهم يتطوع في الجيش السوري.

واستمر هذا الحال حتى جاء حكم البعث، أو الحكم الطائفي الذي تسلق فوق حزب يسمى البعث، وهذا الحكم في منتصف السبعينيات عامل الفلسطينيين معاملة بشعة؛ فقد اعتقل وعذّب عددًا منهم في سوريا، وضرب المخيمات الفلسطينية في لبنان، بل وشارك في إبادتها في طرابلس ونهر البارد وتل الزعتر، كان يحرس القوات المارونية في لبنان ويضرب الفلسطينيين، وكانت ترتكب هذه الجريمة البشعة بحراسة القوات السورية.

[وقد صنف الشيخ محمد سرور- حفظه الله- كتابًا عن المجازر التي ارتكبها النصيريون والرافضة بحق الفلسطينيين والسنة في لبنان بعنوان «مأساة المخيمات الفلسطينية في لبنان»].

القضية الفلسطينية كانت هي القضية الأولى في العصر الحديث بالنسبة للعرب خاصة والمسلمين عامة، كارثة فلسطين كانت بحق فضيحة للحكومات والجيوش العربية، كيف يهزم الجيش الصهيوني الفاشي الجيوش العربية بأكملها؟!

كيف ينتصر مليون يهودي- في تلك الفترة- على أكثر من ستين مليون

عربي مسلم؟!

هذه الشعوب المصدومة، هي التي خرجت في سوريا عام ١٩٤٦ من جهاد طويل ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت تظن أنها لن تهزم أبدًا، فكيف هزمت الآن؟!

كانت أحاديث المضافات والصحف والمدارس والطلبة وحيثما اجتمع اثنان عن كارثة فلسطين، وعن الخيانة لقضية فلسطين، الشعر العربي، البلاغة، والصحف كانت تركز على الخيانة التي وقعت.

حتى صار قول الشاعر يمثل الحالة التي تفكر بها الأمة.

**يا من رأى صفدًا والنيران تحرقها والقائد النذل في اللذات سكران**
**والحولة البكر إسرائيل تزرعها والعرب تزرع أحقادا وأضغان**

إن مناظر المخيمات الفلسطينية بأطفالها البائسين وشيوخها المرهقين، هؤلاء المنتشرون في كل صقع من سوريا إلى لبنان وفي الأردن ومصر والعراق وغيرها.

هذه الحالة كانت تترك صورة من الرفض والهيجان والاحتجاج لا مثيل له، وكل زعيم عربي كان متهمًا، فصارت الشعوب تبحث عن منقذ لها من الذل والهوان الذي لحق بها، ومن جهة أخرى فقد أصبحت قضية فلسطين «قميص عثمان»، فالحزب الذي يريد أن يحقق مكاسب سياسية، والضباط الذين يريدون الحكم والانفراد بشؤون البلاد والعباد، والنائب الذي يريد كسب أصوات الناخبين، كل هؤلاء يتخذون من قضية فلسطين سُلمًا لهم، والشعب مثله كتائه في صحراء، لاهمّ له إلا جرعة ماء، فتراه يركض وراء كل سراب.

وقد يطول البحث ويطول الجري، فسراب اسمه حزب البعث، وسراب اسمه الاتحاد الاشتراكي، وآخر الاتحاد السوفيتي والشيوعية، وسراب

الباطنية، وهكذا تسميات كثيرة، من تتبع تاريخها وأفعالها يعلم أنها كانت مخادعة، ولهم أهواء وأغراض ومطامع ومصالح شخصية، ولم يكونوا صادقين مع أهل فلسطين، ولا هم جادون في تحرير فلسطين.

ثم دخلت الجيوش العربية مرة ثانية في معركة مع اليهود لاسترداد فلسطين، وذلك في حرب عام ١٩٦٧ - حرب الأيام الستة- التي خسرت فيها الجيوش العربية على ثلاث جبهات في سوريا والأردن ومصر، فخسرت مصر سيناء، وخسرت الأردن الضفة الغربية، وخسرت سوريا هضبة الجولان، كلها احتلتها إسرائيل.

في سوريا كان حافظ الأسد وزيرًا للدفاع في الجيش السوري، وكانت الأهازيج والنشيد الذي ينشدونه في الإذاعة السورية للحماسة هو عندما تحلق الطائرات السورية «الميج علت واعتلت بالجو تتحدى القدر» فمن هو صانع القدر أليس هو الله تعالى؟![1].

الميج تتحدى الله؟! ما هذا الكفر والزندقة، هل هذا شأن من يريد تحرير فلسطين؟!

ثم بعدها بثلاث سنوات حدث انقلاب في سوريا بقيادة حافظ الأسد في عام ١٩٧٠، فغدر برفاق دربه وأعوانه، فأودع بعضهم السجن، وقتل آخرين، وفر بعضهم إلى خارج سوريا، لينفرد هو بحكم سوريا.

ومرت السنوات حتى تحول الأمر من حكم حزب البعث القومي الاشتراكي إلى الحكم الطائفي النصيري، منذ عام ١٩٧٠ بشكل سافر، وإن كان قبل ذلك للطائفية في الحكم وجودها، لكنهم كانوا يتسترون بالقومية والوطنية.

---

(١) انظر: كتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي» ص٣٩٧، للشيخ محمد سرور، وهو باسم مستعار (محمد عبد الغني النواوي).

ومازال الحكم يسير بطريقة الطائفية وعلى نطاق أضيق عائلة الأسد ومن وافقهم، إلى أن انطلقت الثورة السورية، وكانت بدايتها من أرض حوران في العام ٢٠١١م.

كل هذه الأحداث والمآسي تجدها شاخصة في ذاكرة الشيخ محمد سرور- حفظه الله- فقد عاشها وعانى كغيره من ويلاتها، وقد كتب عنها، فتأمل كتابه مثلًا «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي» يتحدث فيه عن دور الطائفية، وفي كتاب «وجاء دور المجوس» يتحدث عن دور الرافضة ومحاولتهم السيطرة على بلاد الإسلام، وكتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله- الجزء الثاني (قصة شعيب).

وكذلك كتابه «اغتيال الحريري» يتحدث عن مآسي الجيش السوري في لبنان ودور الحزب الذي اصطنعه النظام السوري النصيري ونظام الآيات في إيران.

وكذلك في متابعته ومطالعته الواسعة للكتب ومذكرات السياسيين في سوريا وغيرها.

فإن لديه مكتبة فيها من مذكرات السياسيين وكتب السياسة لم أر مثلها في المكتبات العامة ولا الخاصة.

**في الجزيرة العربية (السعودية والكويت)** :

في عام ١٩٦٥م خرج الشيخ إلى المملكة العربية السعودية، وذلك بعد أن أغلقت أبواب العمل السياسي في سوريا، ومكث الشيخ في المملكة ثماني سنوات، كانت السنة الأولى منها في حائل، وكانت الحياة فيها تلك الأيام شاقة؛ فالخدمات غير متوفرة، والطرق ليست معبدة، لكن الحياة في تلك البلاد رغم صعوبتها من جهة الأمور الدنيوية، لكنها تختلف كثيرًا في أمور الدين عما كانت عليه الأحوال في سوريا.

رب أمـــر تتقيـــه جرّ أمرًا ترتضيه

خفي المحبوب منـه وبدا المكروه فيـه

لقد وجد الشيخ في السعودية عالمًا آخر، يختلف عن العالم الذي هو في سوريا، لقد خرج من بيئة فيها حزب البعث والحزب الشيوعي والهجمة العلمانية والحرب على الإسلام، إلى بيئة أخرى في السعودية خاصة المعاهد العلمية، بيئة فيها الدعاة والمشايخ، فيها المناهج الإسلامية، وأتيح له أن يلتقي بشريحة أوسع من الناس، يلتقي بالإخوان من كافة البلاد العربية.

الحياة تنظمها مظاهر الشرع الإسلامي الحنيف، أوقات الدوام في المعاهد تبدأ من الساعة السادسة صباحًا، الأسواق والبيع والشراء مرتبط بالصلاة، المحلات تغلق قبل المغرب بنصف ساعة، ويعود الناس إلى عملهم ونشاطهم في اليوم التالي بعد الفجر بقليل، وقبل الظهر بنصف ساعة تتوقف الأسواق وتغلق المحلات، لأداء صلاة الظهر، وهكذا المحافظة على الصلوات أمر لا تهاون فيه.

هذه الحياة البسيطة ومظاهر الحفاظ على الصلوات وأمور الشريعة نالت إعجاب الشيخ.

وبعد أن مكث سنة في حائل انتقل إلى القصيم، وبقي فيها خمس سنوات، منها سنة في البكيرية؛ حيث أسس المعهد في تلك السنة، وانتقل بعدها إلى بريدة، حيث المعاهد العلمية الكثيرة، معهد في بريدة، وآخر بعنيزة، وثالث بالرس، ورابع بالبكيرية، وخامس بالبدايع، ففيها خمسة معاهد.

هذه المعاهد كانت تابعة للشيخ محمد بن إبراهيم- عليه رحمة الله- بالإضافة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، كانت تسمى الكليات والمعاهد العلمية؛ فهو الذي يتولى إدارتها، بالإضافة إلى القضاء بفروعه، والإفتاء وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجامعة الإسلامية بالمدينة عندما

تأسست كانت تابعة له أيضًا.

كان العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم- عليه رحمة الله- يتمتع بسلطة مطلقة، يخاطب مختلف الوزارات مباشرة، وترد الوزارة على كتابه، وله مجموع فتاوى مطبوعة في عدة مجلدات، تقرأ فيها الرسائل التي كان يوجهها للوزارات المختلفة.

كان العلماء والمشائخ في تلك الفترة يتمتعون بقوة، لعدم خوفهم من مُرَتَّب ينقطع أو وظيفة يحرم منها، كانوا يعيشون حياة بسيطة، ولم تكن الدنيا التي أقبل الناس عليها اليوم، موجودة في ذلك العهد كانوا يقابلون الأمير أو الملك فيتكلمون بمطلق الصراحة والقوة. لقد كان الأمراء يوقرون العلماء ويجلونهم هذه حقيقة.

وفي الأحساء جلس عامين أيضًا، ليكون تمام الثماني سنوات التي قضاها في المملكة العربية السعودية.

وإذا علمت أن الشيخ محمد سرور درّس في المعاهد منذ عام ١٩٦٥م وأخرج سنة ١٩٧٣م، فهذا يعني: أنه كان في أوج قوته يعني: في الثلاثينيات من عمره، ومن سجاياه وحسن طباعه أن يصدق في وده ومحبته لمن يتعرف عليه ويلمس فيه الصدق والإخلاص، فكانت تربطه علاقة مودة مع الطلاب والمشائخ، يكرمهم، ويحتفي بهم ويخرج معهم في رحلات دعوية، فيناقشهم ويحاورهم، أو ترفيهية فيصارع ويسابق، أو عمرة، وقد يكون في الطلاب من هو أكبر منه سنًا.

هذه اللباقة الاجتماعية وكرم الأخلاق والإخلاص في الدعوة، جعلت الكثير ممن يتعرف عليه أن يرتبط به دعويًا، أو على الأقل علاقة مودة وصداقة. كان يعجبه من الطلاب والمشائخ في هذه البيئة الجديدة (السعودية) الثقافة الشرعية المتينة، وقد تأثر بهم، كما ذكر في بعض محاوراته.

**في الكويت**:

غادر الشيخ محمد سرور المملكة العربية السعودية إلى دولة الكويت منذ عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٨٤م، فتكون مدة إقامته فيها أحد عشر عامًا.

كانت الكويت من البلاد العربية التي تتمتع بالحرية بالنسبة لأهل البلد، وكذلك حال الوافدين إليها من غير أهلها.

فاختياره للإقامة فيها لما تتميز به عن كثير من البلاد العربية، ولموقعها المهم بين البلاد، وبدأ العمل الدعوي في السنوات الأولى في مجلة «المجتمع» الإسلامية، وقد كانت في أوج تألقها كان يكتب فيها مقالات باسم محمد النايف، فنايف اسم والده.

وخلال فترة عمله في مجلة «المجتمع» حدث أمران مهمان يستحقان الإشادة بهما:

**الأول**: زيارة موسى الصدر للكويت، فكتب الشيخ محمد سرور مقالة في مجلة «المجتمع» بعنوان «لا أهلًا ولا مرحبًا» وقد هزت الأوساط ذات الاهتمام بموضوع التشيع، ودخلت مجلة «المجتمع» مع الحكومة في أخذ ورد.

هذه المقالة كتبها الشيخ يوم كان موسى الصدر يحيك المؤامرات في المنطقة، ويخطط لمستقبل دعوي رافضي، والناس في غفلة عنه.

**والثاني**: كتابات الشيخ محمد سرور عن خطورة الوجود السوري في لبنان والجرائم التي قام بها الطاغية الهالك حافظ الأسد من المذابح، والتآمر على قضية فلسطين.

فقام لفيف من رجال المنظمات الفلسطينية الذين خدعوا سابقًا بالسراب الشيعي النصيري بزيارة لمجلة «المجتمع»، وقالوا لأبي بدر السيد عبد الله المطوع- رحمه الله تعالى: لما كنتم تكتبون هذه المقالات كنا نسخر منكم، ولكن لما أكلنا الضربات في تل الزعتر عدنا نقرأ ونكتب ما كتبتموه.

وهذا يدل على عظيم الغفلة التي كان يعاني منها رجال منظمة التحرير عن الواقع المحيط بهم.

وقال لي الشيخ محمد سرور: كانت تجري بيني وبين أبي بدر عبد الله المطوع- رحمه الله- مجادلات ومناقشات بسبب بعض المقالات، لكنه- رحمه الله- سليم القلب، كريم الأخلاق، لم ينقل لي عنه إلا الثناء والإعجاب.

وهذا هو- والله شأن- الدعاة الصادقين، لا تعرف قلوبهم الأحقاد والضغائن على إخوانهم.

وفي فترة إقامة الشيخ في الكويت قام برحلة ميدانية لجمع كتب الشيعة؛ فكان يقصد بعض مراكزهم مثل مركز التوحيد وغيره، وفيها- أي في الكويت- أتم تأليف كتاب «وجاء دور المجوس».

ثم قام بزيارة العراق مع بعض الشباب الكويتي.

وخلال وجوده في الكويت كان له نشاط دعوي مع الشباب، ولاسيما من خلال ثانوية عبد الله السالم، وكان فيها الشيخ الفاضل الدكتور عمر الأشقر، فقد كان مدرسًا في هذه المدرسة.

وكان في تلك المدرسة من الشباب الطلبة الذين صار لهم توجه إسلامي كخالد مشعل وأمثاله من الشباب.

وقد شهدت الكويت في تلك الفترة نقلة نوعية في العمل الدعوي الإسلامي والعمل الإغاثي.

وكان الشيخان الفاضلان: عبد الرحمن عبد الخالق وعمر الأشقر قد حضرا إلى الكويت منذ عام ١٩٦٥، وكان الشيخ محمد سرور- رعاه الله- على معرفة تامة بهما.

كانت الكويت هي المرحلة الثانية في رحلة الشيخ وغربته بعد السعودية، وكانت كذلك هي المحطة الثانية في إنشاء تيار إسلامي محصن بعقيدة أهل

السنة والجماعة، مع الاطلاع التام على الواقع المعاصر وفقهه، والتزود بالثقافة الإسلامية من منبعها الصافي الأصيل.

**في بريطانيا** :

غادر الشيخ محمد سرور الكويت سنة ١٩٨٤ متوجهًا إلى بريطانيا، وكان أحد أهم أسباب خروجه من الكويت تأليفه كتاب «وجاء دور المجوس» فتوجه إلى بريطانيا؛ رغبة في ممارسة نشاطه الدعوي والمشاريع التي يخطط لها، وليكون له منبر حر يخاطب الأمة من خلاله.

فأنشأ مركز الدراسات الإسلامية في مدينة برمنجهام.

فجعل يصدر في هذا المركز الكتب الإسلامية والبحوث والدراسات السياسية، وصار للمركز شهرته بعد إصدار مجلة «السنة».

وظل المركز يتواصل مع الجمعيات الإسلامية والشخصيات الدعوية ولاسيما في بلاد الغرب، وقام بإصدار عدة كتب للشيخ محمد سرور- حفظه الله- ويحتوي المركز على مكتبة عظيمة فيها مصادر ومراجع متنوعة واسعة، وقد زرتها- بفضل الله وحسن توفيقه- ولفت انتباهي المجلات التي يحتويها، ففيها صور كاملة لمجلدات مجلة المنار التي كان يصدرها العلامة رشيد رضا، ومثل ذلك لمجلة الفتح والزهراء والرسالة ومجلة الأزهر، وغيرها من المجلات الإسلامية التي مضى على إصدارها أكثر من قرن ونصف من الزمان.

وفي بريطانيا أيضًا أقام الشيخ «جمعية عقبة بن نافع».

كان عملها الدعوي يقوم على استقبال العلماء والدعاة وإقامة الندوات والمحاضرات الإسلامية في برمنجهام وغيرها من المدن البريطانية، وتمت دعوة شخصيات إسلامية من بلاد مختلفة، وكان الحضور يأتون من مختلف مناطق ومدن بريطانيا، وأنشطة الجمعية تكون في أيام معينة من العطلة الأسبوعية.

هذه المراكز الدعوية الثلاثة: مركز الدراسات الإسلامية، ومجلة السنة، وجمعية عقبة بن نافع، من أكبر وأوسع المنافذ للتواصل مع الشباب والدعاة

الإسلاميين في مشرق العالم ومغربه، وقد طرح الشيخ من خلالها أفكارًا ورؤى في الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي، هي موضع اهتمام ومحط الأنظار والاقتداء بها والاستفادة منها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

وفي عام ٢٠٠٤م خرج الشيخ من بريطانيا، وتوجه إلى الأردن، ثم إلى دولة قطر.

**خلاصة القول في هذا الفصل**: أن الشيخ خرج من بلاده سوريا وهو دون الثلاثين من عمره وبقي يتنقل ما بين السعودية والكويت وبريطانيا والأردن وقطر.

أسأل الله العظيم أن يبارك في عمره وينفعنا بعلمه ويحسن خاتمته.

---

(١) النور: ٣٦-٣٨.

## الفصل الرابع
## معالم التجديد عند الشيط محمد سرور

لما امتن الله تعالى على عباده بأن تكون رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات، ونبوته خاتمة النبوات، فلا نبي بعده- عليه الصلاة والسلام- وجعل دينه المهيمن على سائر الأديان، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾(١)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾(٢).

لما قضى سبحانه وتعالى ذلك، وجعل رسوله الكريم ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن من تمام فضله ونعمته على أمة محمد ﷺ أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها.

ففي الحديث عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»(٣).

وروى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة**»(٤).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(٥).

---

(١) الأحزاب: ٤٠.
(٢) التوبة: ٣٣.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٣). وخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٥١).
(٤) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠/ ١٧٠).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني.

إن المتتبع لحركة التاريخ والدعوة الإسلامية يشهد بقيام حركة التجديد على يد بعض العلماء الربانيين الذين قيضهم الله تعالى للقيام بهذه المهمة. وهذه الأحاديث من دلائل نبوة الرسول الكريم محمد- عليه الصلاة والسلام- ومن البشائر بحفظ الله لهذا الدين القويم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد تكلم العلماء القدامى والمحدثون في شرح حديث التجديد والمجددين، وممن ذُكر من المجددين: أولهم عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- ومنهم الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، والأستاذ سيد قطب- عليهم رحمة الله ورضوانه.

والتجديد عند هؤلاء الأئمة المذكورين لا يشترط بالضرورة أن يكون على نمط واحد، فمنهم من أحاط بجميع صفات الخير التي يحتاج إلى تجديدها، ومنهم من قام ببعض الجوانب وصفات الخير التي تحتاج الأمة إلى التجديد في أمر دينها.

وليس الهدف في هذا البحث أن أستقصي جوانب التجديد عند من أتيت على ذكرهم آنفًا، إنما مقصدنا الكلام عن جوانب التجديد عند شيخنا وأستاذنا محمد سرور- رعاه الله.

إذا عرفنا معنى التجديد كما ذكره العلماء بأنه: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات[1].

وسأذكر- فيما يلي- معالم التجديد عند الشيخ محمد سرور- رعاه الرب الغفور:

**١ ـ موقفه من ثورة الرافضة في إيران:**

قامت ثورة في إيران بزعامة الخميني سنة ١٩٧٩م، ضد الشاه الذي كان

---

(١) انظر: عون المعبود، للعظيم آبادي (١١/ ٣٩١).

حليفًا للنظام الصهيوني في فلسطين، وخُدع بهذه الثورة كثير من العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية، في مختلف بلدان العالم الإسلامي، في مصر والشام والعراق وباكستان وبلاد المغرب العربي وغيرها.

استحوذت ثورة الخميني على اهتمام الدعاة والجماعات، والخاصة والعامة، وأصبحت حديث الشارع عند أهل السنة والجماعة!!

وذهبت وفود من مختلف الأقطار لتهنئة الخميني بنجاح ثورته.

لقد خدع به الكثير ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[(١)] الذين يحسبون كل بيضاء شحمة، فراحوا يقرأون كتبه، ويطلقون عليه ألقاب التعظيم والتفخيم، ويرون صورته على القمر ليلة البدر!!

إنه في نظرهم الإمام الذي سيحرر القدس، حيث رفع شعار تحرير القدس، في الوقت الذي كان الناس يعانون من الكبت والظلم؛ إذ لم يفعل الحكام في بلاد المسلمين شيئًا، تجاه العدوان والتسلط اليهودي على أرض فلسطين وطرد شعب بكامله من أرضه ووطنه!!

فصار الشعراء يكتبون القصائد، والخطباء ترتفع أصواتهم على منابر المساجد، مدحًا وثناءً وإطراءً وإعجابًا بثورة الخميني، ومن طمع في كل ما لاح ولمع، خسر وانقطع وانقمع.

وهنا أخرج شيخنا محمد سرور، كتابه القيم «وجاء دور المجوس» بلسان فصيح، وبيان فصيح، وبرهان صريح، وكلام صحيح، بيّن فيه الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية.

العنوان يلفت الانتباه ويثير المشاعر «وجاء دور المجوس» وكأنه نذير جيش صبحكم ومساكم، فانظر في مقدمة الكتاب إذ يقول:

---

(١) يوسف: ١٠٣.

«منذ أكثر من عشرين عامًا وأنا أتتبع أنشطة الرافضة ومخططاتهم في العالم الإسلامي، أتتبع ما يصدر عنهم من كتب وصحف ومجلات وما تحويه من دس وافتراء على رجال خير القرون، أتتبع ما يلجأون إليه من وسائل وطرق في نشر دعوتهم في المناطق الآهلة بالسنة.. أتتبع فرقهم المتطرفة وكيف تمكنت من ركوب كثير من الأحزاب والوصول إلى السلطة في البلدان العربية.

وعندما أنقل آلامي وأشجاني لإخواني الدعاة كانوا يستغربون ما أقوله لهم، مع أنه بينهم قادة لبعض الجماعات، وأسمعهم يردون عليَّ قائلين:

إنك في اهتماماتك هذه تقدم خدمات جليلة للقوميين، نحن في واد وأنت في واد، نحن نشكو من الخطر الشيوعي والصليبي والرأسمالي والقومي والعلماني، وأنت تتحدث عن حركات ومذاهب أكل الدهر عليها وشرب!!

ثم يقول: إنني ألمح منذ سنين رايات سوداء تتحرك من المشرق ويسعى حملتها لابتلاع العالم الإسلامي.. ومن أجل هذا كتبت بعض فصول هذا الكتاب قبل ثورة إيران بأكثر من ثلاث سنين.. وكل الذي أرجوه أن يثيبني الله على جهدي هذا يوم لا ينفع مال ولا بنون، أما المسلمون أهل السنة والجماعة، وسائر الجماعات الإسلامية، فكل الذي أرجوه أن يقرأوا كتابي بإمعانٍ وأن يفتحوا قلوبهم له.

ولقد أسهر الشيخ أجفانه، وصار ليله كنهاره وعشيه كابتكاره، كان أحد الإخوة يأتيني بعد الساعة الحادية عشرة ليلًا، ويطلب أن نذهب لزيارة الشيخ، فأقول كيف والوقت متأخر، فإذا وصلنا عنده نجد المجلس عامرًا بطلبة العلم، يناقشون الشيخ ويحاورونه، كان هذا في الكويت!!

إن النقاش في موضوع ثورة الخميني حينذاك والكتابة للتحذير منها، كمن يحمل روحه على كفه، ومع ذلك فالشيخ ماضٍ متوكلًا على الله، ولسان حاله يقول:

**إذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانًا**

لقد سارت بكتابه الركبان، وأصبح حديث المجالس وفي متناول كبار السياسيين، والكتاب المشهورين، وصارت بعض الدول تطبعه وتوزعه، طبع الكتاب قرابة العشرين طبعة، وتجاوزت النسخ المطبوعة منه مئات الآلاف.

**٢ـ مجلة السنة** :

يقول علامة المغرب ابن عبد البر في رسالة بعنوان (الأخلاق الشرعية والآداب الإسلامية): «ومن شيم العاقل والعالم أن يكون عارفًا بزمانه، مقبلًا على شأنه...».

ولما كان شأن العلماء وجميع العقلاء أن يكونوا عارفين بأحوال الزمان وأوضاع الناس اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، فقد عمل شيخنا على إصدار مجلة لمتابعة أحوال المسلمين ومعرفة أوضاع الناس وسياستهم، فأنشأ مجلة «**السنة**» الغرّاء، فجعلها منبرًا للكتّاب الصادقين، ومنارًا لأولي الأبصار، وسنانًا مصلتًا على أهل البدع والأهواء وحصنًا حصينًا يركن إليه أهل السنة الأتقياء.

إن المجلات التي تصدر باللغة العربية في مختلف مناطق العالم تعد بالمئات، وهي ما بين أسبوعية وشهرية ودورية نصف سنوية أو فصلية، المجلات كثيرة جدًا، لكن الشيخ- حفظه الله- عندما عزم على إصدار مجلة «السنة» أرادها أن تكون متميزة في أسلوبها وطرحها، وأهدافها وموضوعاتها، وتمويلها.

وأول أمر تميزت به مجلة «السنة» أنها مستقلة حرّة، ولذا فقد رفض الشيخ- حفظه الله- أن تكون نفقات المجلة خاضعة لأي جهة حكومية مهما كان شأنها. ومن يريد أن يقول كلمة الحق وينطق بالصدق، لابد أن يكون مستقلًا ماديًا، غير تابع لأحد، ولا يرجو نيلًا إلا من الله تعالى.

والشيخ في هذا الجانب ملتزم بمنهج سلف هذه الأمة من الصحابة

والتابعين، فقد آثر البعد عن الأعطيات من أحد، أخذًا بما كان عليه السلف- رضي الله عنهم- الذين من أقوالهم:

- قال علقمة بن قيس النخعي: «إنك لم تصب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك ما هو أفضل منه»(١).

- أخرجت جائزة لابن جرير الطبري في زمن الخليفة المكتفي، فامتنع من قبولها، فقيل له لابد من قضاء حاجة. قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة، ففعل ذلك(٢).

- وقال شيخ الإسلام المعافى بن عمران: سمعت الثوري يقول: إذا لم يكن لله في العبد حاجة نبذه إلى السلطان(٣).

وأقوال العلماء في ذلك أكثر من أن تحصى.

والبعد عن أعطيات الناس من أجل حراسة الدين والذود عنه، والبعد عن الشبهات.

أقول: هذه أول الأمور التي أراد شيخنا لتكون مجلة «السنة» متميزة بنزاهة الكلمة وصدقها.

**والأمر الآخر** الذي تميزت به مجلة «السنة» هو صدق اللهجة، وحرية الكلمة، والدعوة إلى توحيد الصف وجمع الكلمة، على أساس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفق منهج السلف الصالح من أمة محمد ﷺ.

ثم بدأت المجلة تصدر في مركز الدراسات الإسلامية في برمنجهام في بريطانيا.

صدر العدد الأول من مجلة «السنة» في شهر جمادى الأولى من عام ١٤١٠هـ، الموافق لشهر ديسمبر ١٩٨٩م، ومما جاء في افتتاحية العدد الأول

---

(١) نزهة الفضلاء (١/ ٣٣١).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٠٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٨٨).

وتحت عنوان «إليكم أيها الدعاة»، قال: إخواننا العلماء العاملين والدعاة المجاهدين في سبيل الله.

فمن عادة الأمم والشعوب إذا داهمهم خطب أو ألـمّت بهم كارثة أن يخاطبوا الرأي العام.. ونحن من الذين ألـمّت بنا كوارث واجتاحتنا مصائب، ومع ذلك سوف نستصرخ ضمائركم، ونخاطبكم قبل أن نخاطب الرأي العام ومؤسسات الأمم المتحدة.

ولا نظن أن بينكم من يجهل أوضاع المسلمين في الهند وأفغانستان وأندونيسيا والفلبين والصومال وفلسطين المحتلة ولبنان، ولا نعلم أن بينكم من لا يعلم دور مؤسسات التبشير النصراني، في قارة أفريقيا وفي جنوب شرق آسيا.

من منكم لم يسمع بمنع الحجاب في المدارس والجامعات، والاعتداء على النساء المحجبات في بلدان تدين شعوبها بالإسلام، وقد كانت إلى عهد قريب منارة من منارات الإسلام الشامخة؟!

من منكم لم يسمع بالأصوات المحمومة التي تسخر من الذين ينادون بوجوب الاحتكام إلى شريعة الله، ونبذ الشرائع الأرضية الجاهلية؟

أما لماذا سنتوجه بخطابنا إليكم عند الضرورة، فلأننا نعتقد أنه لن يفلح العاملون للإسلام إلا إذا صدقت نواياهم، وتوحدت غاياتهم وأهدافهم.

ولن يقوم للعمل الإسلامي قائمة إلا إذا تجاوزنا الآفاق الإقليمية والحزبية، واجتمعنا على الأصول والمناهج التي اجتمع عليها الصحابة والتابعون وغيرهم من رجال خير القرون- رضي الله عنهم وأرضاهم.

أيها العلماء الدعاة، سنكتب إليكم، ونهز مشاعركم؛ لأنكم- إن صدقتم مع الله، وتسلحتم بأسباب النصر- مكمن القوة في أمة الإسلام، ورأس مال هذا الجيل، بكم يقتدي، ولكم يسمع ويطيع، وإن شئتم صنعتم بهذه الجماهير المسلمة نصرًا يسجله التاريخ بصفحات من نور.

إن العلماء أهم ثروة في حياة الأمم والشعوب؛ فهم الذين يغيرون الواقع الفاسد، وهم الذين يصلحون النفوس المضطربة، ويوحدون بين القلوب المتنافرة.

بل كان الواحد منهم ينقل الأمة كلها من جحيم الكفر إلى رياض التوحيد، ومن الضياع إلى الهداية.. وإن قال قائل: ليس بوسعنا أن نحقق ما حققه أنبياء الله، نقول: فالمجددون آحادٌ من الناس، وما كانوا أنبياء، ومع ذلك كانوا يصلحون ما أفسده المشركون، ويحيون ما اندثر من الشرائع والسنن، وينقلون شعوبهم نقلة بعيدة وشاملة، ولا تزال الأجيال تذكر مآثرهم بعد مرور مئات السنين.

والطواغيت الذين نشروا الفساد والإلحاد كانوا آحادًا: نمرود وفرعون، وهامان وقارون، وأبو جهل، وأمية بن خلف.

سنخاطبكم يا دعاة الإسلام، ونطالبكم العمل معًا لنحرر البلد الذي احتله العدو، ولنصلح ما فسد من أحوالنا. ا. هـ.

وأمام هذه الدعوة الصادقة التي نقلتُ نبذة منها، وبعد هذه المناشدة وجدت المجلة قبولًا واستحسانًا من العلماء والدعاة، فاستجابوا لها، لأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب.

وأقبلوا على مطالعتها ومتابعتها، وتبنوا الآراء الواردة فيها، وصاروا يتداولونها، وأصبحت موضع اهتمامهم، يحرصون على الحصول عليها بالرغم من منعها في كثير من البلاد، وكل ممنوع مرغوب غالبًا.

واستكتب الشيخ- حفظه الله- العلماء والدعاة، فكتب الشيخ عبد العزيز بن باز- عليه رحمة الله- في العدد الرابع بحثًا بعنوان «وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها»، وكتب في العدد الخامس بحثًا بعنوان «وجوب الاعتصام بكتاب الله»، وكتب في المجلة عدد من العلماء والدعاة من مختلف بلدان العالم العربي والإسلامي، وذلك لاهتمام المجلة بشؤون المسلمين في كافة

أرجاء المعمورة.

وكما أسلفت في اتخاذ المجلة منهجًا مستقلًا غير خاضع للإملاءات، بل حرصت على قول كلمة الحق من غير مواربة، والصدع بالحق من غير مجاملة، عملًا بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[3].

ولما وقعت حرب الخليج على إثر طغيان الجيش العراقي واحتلاله للكويت، وأمام هذه الفتنة، سلك الشيخ محمد سرور منهج الوسطية والاعتدال.

ولبيان ذلك نذكر مقتطفات مما ورد في مجلة «السنة»، حيث تم دمج العدد التاسع مع العاشر في عدد ممتاز استنكر فيه احتلال جيش صدام للكويت، ولم يكن لهذا الاحتلال أي مبرر، اللهم إلا طموحات هذا الظالم التوسعية، كما استنكرنا الفظائع التي ارتكبتها هذه القوات ضد أهل الكويت، وبين خطورة الأوضاع التي ستعانيها المنطقة فيما بعد.

وفي دوران حرب الخليج الثانية، كان الشيخ يعيش مشاكل الأمة في كل الأنحاء، فتابع أوضاع الجماعات الإسلامية في الجزائر والحرب التي أعلنتها الحكومة العسكرية عليهم حينذاك، وفي مصر ومتابعة الحكومة للجماعات الإسلامية، وكذا تونس، وليبيا، وسوريا، فكان يدافع عنهم، ولكنه في نفس الوقت كان يعارض حمل السلاح ومباشرة القتال واستباحة دماء الناس، فهو لا يرى الخروج على الحكام، ولا يرى حمل السلاح ضدهم.

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) البقرة: ٢٨٣.

إذًا المطلوب منهم: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى، وتحمل المشاق في سبيل الله- عز وجل- وإن اقتضى تعريضهم للسجون والتعذيب ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(1)، وكمثال على ذلك: يقول الشيخ في مجلة «السنة» في العدد الثامن والستين تحت عنوان «**نصيحتي للجماعة الإسلامية المصرية**» **بعد تخليها عن حمل السلاح**:

«كنت أحد الذين فوجئوا بصدور هذا البيان الذي كنت أتطلع وأتمنى صدوره، وذلك من أجل وضع حد لنزيف دماء هؤلاء الشباب الذين يخوضون ببطولة نادرة معركة غير متكافئة، ولهذا فقد رحت أترقب تفاعل قيادة الجماعة في الخارج مع البيان، وهل سيستجيبون له أم سيرفضونه؟ إن لي كلمة نصح فأرجو أن تتسع صدور الإخوة في الخارج لها، ويعلموا أنها صادرة من محب لهم حريص عليهم... لا أظن أن المحبوسين من قيادة الجماعة قد أكرهوا على إصدار مثل هذا البيان؛ لأن أجهزة الأمن الفرعونية عجزت خلال التحقيق وما أدراك ما التحقيق!

ومن جهة أخرى فإن الجماعة بحاجة إلى اتخاذ مثل هذا القرار لتراجع حساباتها بهدوء وتقوّم مسيرتها بعيدًا عن كل تشنج وتأثيرات، وتسأل نفسها عن الخسائر والأرباح، وهل المصلحة الدعوية الشرعية تتطلب استمرار العمليات العسكرية أم لا؟

وهل هناك استطاعة، أم أن الاستطاعة مفقودة؟ وفي هذه الحال لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولا يجوز دفع المنكر بمنكر أشد.

ومن جهة ثالثة فإن اتخاذ مثل هذا القرار يحرج السلطة التي لا تتعامل مع مواطنيها إلا بهذا الأسلوب الوحشي، كما أن الجماعة سوف تكسب عطف

(١) الأعراف: ١٢٨.

وتأييد كثير من الناس.

ومن ثم فإن الساحة الدعوية بمصر بحاجة إلى اهتمام الجماعة الإسلامية؛ لأن غيابها طوال هذه المدة قد أحدث خللًا لم يسده أحد[1].

**ما الذي يهدف إليه من نشر مجلة «السنة» ؟**

وفي افتتاحية العدد الأول من مجلة السنة وَضَّح الشيخ المقاصد التي يهدف إليها من إنشاء هذه المجلة فقال:

**المقصد الأول** من مقاصد هذه المجلة «السنة»: العمل من أجل توحيد صفوف العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية.

**وأما المقصد الثاني**: فهو تنمية الوعي السياسي وربطه بمنهج وأصول أهل السنة، والحاجة ملحة إلى طرق هذا الموضوع[2].

ومنهج المجلة يتميز بالصراحة والوضوح ودقة المتابعة والتحليل العميق، الذي يلاحظه من يتابع قراءة مجلة «السنة»؛ فلم يكن همهم الشكلية والتقليد المعروف في سائر المجلات، بحيث تكون افتتاحيتها صفحة أو أقل أو أكثر بقليل، إنما تجد في بعض افتتاحيات المجلة قد تصل إلى عشر صفحات وأكثر من ذلك، وكذلك سائر الموضوعات قد تصل إلى عشرين صفحة.

وكتب بعض القراء: ألا تخشون أن يمل القراء من طول بعض الفقرات؟ فكان جواب الشيخ: لقد أضرت السطحية بثقافة هذا الجيل، وأصبحت مصادر معلومات جمهور الشباب «شريط الكاسيت» والكتب الصغيرة، والمقالات السريعة. ونحن لا نقلل من أهمية «شريط الكاسيت»، لكننا نرى أن الدراسات الدعوية والسياسية يجب أن تكون مقنعة، وأن تعتمد على الأدلة وتتصف بحسن الربط، وسوف نجد من لا يمل مما نكتب إن شاء الله[3].

---

(١) انظر: مجلة السنة، العدد ٦٨ ص١١،١٢.

(٢) انظر: العدد الأول من مجلة السنة، جمادى الأولى ١٤١٠هـ.

(٣) انظر: مجلة السنة، العدد الثاني، ص١٤.

وكان الشيخ في كثير من الأعداد يكتب موضوعين أو ثلاثة، بحيث تصل مجموع الصفحات إلى خمسين صفحة أو يزيد عن ذلك.

**٣ ـ الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية :**

إن أعظم مصيبة نالت الأمة الإسلامية في هذا العصر هي تنحية الشريعة الإسلامية والتخلي عنها بعد سقوط الخلافة الإسلامية في أواخر عهد الدولة العثمانية، واستبدالها بالقوانين الوضعية الجاهلية، في كثير من أمور الحياة، أو محاولة التلفيق بين الأحكام الشرعية المستمدة من كتاب الله- عز وجل- وسنة رسوله- عليه الصلاة والسلام- وبين القوانين الوضعية المستمدة من عقول البشر القاصرين.

وإن مسألة الدعوة إلى عبودية الله- عز وجل- وتحكيم شرعه كانت موضع اهتمام العلماء الجهابذة في القديم والحديث، من المجددين لملة الإسلام، كابن تيمية، وابن عبد الوهاب، ومحمد بن إبراهيم، وسيد قطب، فإنك تجد كتاباتهم طافحة في التحذير من تحكيم القوانين الوضعية، بل هذه العبارة بعينها هي عنوان رسالة قيمة للعلامة محمد بن إبراهيم، وكثير من كتابات سيد قطب- رحمه الله- وغيره من العلماء.

وعلى نهج هذه الكوكبة من المجددين سلك شيخنا- رعاه الله- فقد كانت مسألة تحكيم الشريعة الإسلامية من أهم المسائل والأمور التي تشغل باله، وكتب حولها كثيرًا من الكتب والأبحاث، لأنها قطب رحى الملمات والمصائب التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية، فلم تشغله المسائل الفرعية عن المسائل الأصولية في دين الإسلام، وأُسّها وأساسها العمل بكتاب الله وسنة رسوله- عليه الصلاة والسلام.

فقد ذكر الشيخ في العدد التاسع والعشرين من مجلة «السنة» تحت عنوان «الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية»: أن الدعوة إلى تحكيم الشريعة

الإسلامية من أهم قضايا ومشكلات هذا العصر، ولن تستقيم أمور المسلمين إلا إذا استسلموا لله في كل أمور حياتهم.

ولأن هذه المسألة فيها خطر على المعاندين والمتكبرين الذين يبغونها عوجًا ويسوؤهم الدعوة إلى صراط الله المستقيم، لذا فإنهم يحركون أتباعهم لإثارة الشبه والشكوك حول ما يكتبه الشيخ ويدعو إليه، فأجاب شيخنا في تفنيد هذه الشبه التي يثيرونها قائلًا: ويرد علينا بعضهم بالقول الآتي: أنتم تفلسفون السياسة وتُلْبسونها ثوب التوحيد ووحدانية الله، وأهم قضايا العصر الدعوة إلى وحدانية الله وعدم الإشراك به من أحد من خلقه، وإذا فهم الناس هذه الوحدانية استقامت سائر أمور حياتهم، والذين يقولون هذا القول نوعان: نوع يرددون ما يقوله لهم أسيادهم، ونوع آخر يتأثرون بما يسمعون من غيرهم ويحبون إيثار العافية والسلامة.

ثم قال الشيخ: وردنا على هذا القول: لا يجوز وضع الدعوة إلى وحدانية الله كبديل عن الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية لأن الثانية بالنسبة إلى الأولى جزء من كل ولابد من شمولية الدعوة وإعطاء كل قسم ما يستحقه من اهتمام ورعاية.

ومن جهة أخرى فالذين ينادون بتحكيم الشريعة الإسلامية ونبذ الشرائع والقوانين الأرضية لابد أن يكونوا دعاة مخلصين لعقيدة السلف الصالح- رضوان الله عليهم- ولوحدانية الله تعالى، وعهدنا بأئمة التوحيد- رحمهم الله- أنهم كانوا يهتمون أشد الاهتمام بالتحذير من تعظيم الصالحين والطواف حول قبورهم، إذا تفشى مثل هذا البلاء في منطقة من المناطق دون إهمال بقية أمور التوحيد، وإذا كانت الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية من أساسيات دعوة التوحيد، وإذا كنا لن نهمل في دعوتنا توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فلماذا هذه الضجة؟ ولماذا هذه النقمة؟!

ولقد كان شيخنا- رضي الله عنه- ألمعيًا يقظًا يحذر من مكر المنافقين وأساليبهم في تحريف الكلام عن مواضعه، وقدرتهم على الإساءة والوقيعة بالعلماء والدعاة الصالحين، فينبزونهم بألقاب الخوارج والتكفير والإرهاب.. ولذا فإنه عندما كتب وصنف في مسألة الحاكمية قام بدراسة متأنية واضحة ومفصلة.

وتحت عنوان «قضايا العصر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة» كان أول كتاب أخرجه بعنوان «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو» ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٠٥هـ، صفحات الكتاب تقارب الأربعمائة صفحة، وتناول في فصوله الرد على أفكار الخوارج وجماعة التكفير التي نشطت في أيام حكم السادات لمصر، وفي أواخر عهد جمال عبد الناصر، فذكر فيه عن نشأة جماعة شكري مصطفى (جماعة التكفير) وعرض أقوالهم في الاجتهاد والتقليد ثم دحضها من تسعة وجوه، ثم ذكر الإجماع وحجيته عند أهل السنة والجماعة، وبين حكم منكري الإجماع.

وفي الفصل الثالث ذكر حكم أقوال الصحابة وأفعالهم، وبين مكانتهم وحجية أقوالهم، ثم رد على جماعة شكري مصطفى في عدم احتجاجهم بأقوال الصحابة.

وفي الفصل الرابع بين موقف جماعة التكفير من الكتاب والسنة، ودحض المفاهيم المغلوطة لهم في الكتاب والسنة.

وفي الفصل الخامس، تكلم عن بدعة تكفير مرتكبي الكبائر.

وفي الفصل السادس ذكر أصولًا وتصورات أخرى لجماعة التكفير، كمسألة المهدي المنتظر، وموقف جماعة التكفير من التاريخ الإسلامي، وهو في كل ذلك يبين عقيدة أهل السنة والجماعة ووجهة نظرهم، ويذكر الأدلة على صدقها وثباتها، ويرد على شبهات الخوارج وجماعة التكفير.

وقد أفرد الفصل السابع للكلام عن تاريخ جماعة التكفير وأوضاعهم العامة، وتحدث عن مسألة غاية في الأهمية ألا وهي قضية اغتيال الشيخ الدكتور العلامة محمد حسين الذهبي الذي استلم وزارة الأوقاف في أيام حكومة أنور السادات، وبين شيخنا- رعاه الله- كيف تم اغتيال الشيخ الذهبي- رحمه الله- على يد جماعة شكري مصطفى (جماعة التكفير) وبتدبير من المخابرات المصرية. هذه القضية يجهل تفاصيلها كثير من العلماء والدعاة.

ثم صنف كتابًا آخر، وهو الجزء الثاني من سلسلة «قضايا العصر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة» ظهرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١٠هـ. والكتاب يقع في مائتين وخمس وعشرين صفحة، وتناول فيه الرد على أفكار «جماعة التوقُّف والتبيين» وذلك في ستة فصول:

شرح في الفصل الأول أحوالهم، وبين أهم صفاتهم، وأشهر أقوالهم.

والفصل الثاني بين جذورهم التاريخية، وذكر أقوال أئمة السنة والجماعة كالشاطبي وابن تيمية وابن القيم وابن أبي العز الحنفي في كشف أساليب المبتدعين.

وفي الفصل الثالث بين أسباب اهتمام جماعة «التوقف والتبيين» بأصول الفقه.

والفصل الرابع جعله للكلام عن حقيقة الإيمان عند أهل السنة.

وفي الفصل الخامس فَنَّد شبهات جماعة «التوقف والتبيين».

والفصل السادس ناقش أقوال المعتدلين والغلاة منهم.

وفي مقدمة الكتاب قال الشيخ: والذي أود أن يعرفه القراء أن هذه السلسلة تزيد على عشرة أجزاء، أسأل الله- سبحانه وتعالى- أن يقدرني على إنهائها وإعطائها حقها من البحث والتحقيق.

أما قول بعضهم: هل تستحق فرق التوقف كتابًا بهذا الحجم؟ وهل

تستحق مسألة الحاكمية مثل هذه السلسلة؟

فأجاب على ذلك: إن مسألة الحاكمية أهم مشكلات عصرنا وأكثرها خطورة، ولا يمكن أن تُعَطى حقها من البحث والتحقيق بإصدار كتيب أو بإلقاء محاضرة وتسجيلها في شريط «كاسيت»[1].

**وفي مصنف آخر للشيخ بعنوان «العلماء وأمانة الكلمة» تكلم عن مهمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فقد أوجب الله عليهم بيان الحق للناس، وحرم عليهم كتمانه لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2] فإن ما يطلبه الناس من العلماء هو بيان حكم الشرع فيمن استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، وليس المطلوب منهم حمل السلاح أو دعوة الناس إلى ذلك أو الافتاء بالخروج.**

**كما بين أصناف العلماء عند وقوع الفتن والمحن:**

فصنف يعملون بما يعلمون، ويصدعون بالحق، ولا يخشون في الله لومة لائم، وقد رزقهم الله القدرة على فهم مشكلات الأمة الإسلامية، كما رزقهم الاستقامة والبعد عن مواطن الشبهات، كأبي حنيفة ومالك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل والبخاري والنووي والعز بن عبد السلام وابن تيمية..

وصنف آخر نالوا العلم، وولوا به المناصب، وأحلوا لكل جبار متكبر كل ما يرتكبه من منكرات وانحرافات، فأباحوا القوانين الجاهلية وكل الحرمات، وعدّوها من سماحة الحاكم ورحمته وحسن تدبيره وعبقريته. ووضح في بعض فصول الكتاب كيف يُوقِع السلاطين العلماء في شراكهم، وماذا حصل لهؤلاء الذين ساروا في ركب السلاطين الظلمة، وكيف كانت عاقبتهم السيئة، وعرض لذكر نماذج من هؤلاء.

---

(١) انظر ص١٠-١١.
(٢) آل عمران: ١٨٧.

وسيأتي مزيد بيان عن هذا الكتاب بعنوان «سياحة فكرية في كتاب العلماء وأمانة الكلمة».

ومن جملة مصنفات الشيخ في معالجة أمراض العصر ومشكلاته كتب أيضًا سلسلة «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» فكتب عن دعوة نوح وإبراهيم وشعيب وموسى- عليهم السلام- وقارن فيها ما بين دعوات رسل الله الكرام والمشكلات التي عملوا على إزالتها ومحاربتها والتحذير منها وما يشبهها في عصرنا، فالدين واحد ودعوة الأنبياء في القرآن الكريم إلى مبدأ واحد ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1] ولإصلاح حال الأمة الإسلامية والعودة إلى النبع الصافي كتاب الله وسنة نبيه- عليه الصلاة والسلام- لتحقيق ذلك، لابد من اتباع منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، وهو العنوان الذي اختاره الشيخ لدعوة الناس إلى تحكيم الشريعة.

وقد أثار أهل الشغب والنفاق حول الكتاب ضجة لتنفير الناس عن قراءة كتب الشيخ والإفادة منها، سيأتي الحديث عنها.

**٤ـ تصديه للحركات الباطنية :**

الحركات الباطنية؛ كالنصيرية والإسماعيلية والدروز والقرامطة، هي أخطر الآفات التي نهشت في جسد العالم الإسلامي، وأشد فتكًا فيه، حتى أحالته مزقًا ضعيفة في أيدي الأعداء، فأصبح نهبة للغاصبين، وطعمة للطامعين والمستعمرين.

فهم الثغرة التي دخل منها الغزو الصليبي، وهم بوابة الاجتياح التتاري والمغولي لبلاد الشام وبغداد، وهم الإسفين الذي حطم الامبراطورية العثمانية الإسلامية، حتى صار يطلق على الدولة العثمانية «**الرجل المريض**»، وحصل من بعد تقسيم ميراثه بين الدول الأوروبية، وهم- الباطنية- من أكبر أسباب

(١) الأعراف: ٥٩.

توسع الدولة اليهودية على أرض فلسطين وغيرها؛ فهم أئمة الكفر ورؤوس الطواغيت في الأحزاب العلمانية والدعوات الإلحادية الشركية والحداثة، وكل سبل الضلالة والانحراف هم أئمتها، فالحزب القومي السوري وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي والوطنية والقومية والحرية والعروبة والمساواة والاشتراكية وغير ذلك من زخرف القول غرورًا، فهم جذور البلاء وأساس كل داء، ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض. هذه إحدى العبارات التي أطلقها عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في سفره القيم المشهور «منهاج السنة النبوية».

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

إنهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، إن قرأت لابن تيمية الكتاب المذكور عرفت الكثير عن أراجيفهم وكفرهم وفرقهم، وإن قرأت «مدارج السالكين» لابن القيم عرفت أوصافهم وصفاتهم، وإن قرأت لشيخنا محمد سرور «رؤية إسلامية في الصراع العربي، مؤامرة الدويلات الطائفية، واغتيال الحريري» عرفت كيدهم ومكرهم ومؤامراتهم؛ خصوصًا في عصرنا الذي نعيش فيه، وإن لم تفعل ذلك، وسلكت مختلف المسالك، فلا تأمن على نفسك المهالك.

تجدهم كالشاة العائرة بين الغنمين، يتبادلون الأدوار في تسنم الأحزاب وركوب الموجات، يثيرون الشائعات ويطرحون اللامع من الشعارات كالحرية والتقدمية ومحاربة الأفكار العفنة والرجعية بدعوى الوحدة والمساواة، ويحذرون ويكرهون من يقرأ كتب العقيدة والفرق والأديان.

وقد انطلت أساليبهم وخبثهم على كثير من الدعاة وأبناء الحركات، لماذا

(١) المنافقون: ٤.

البحث في العقائد والفرق؟ إنها تفرق ولا تجمع!!

لكن الشيخ محمد سرور- رعاه الله- لم تَنْطَلِ عليه كل هذه الدعوات، ولم ترهبه هذه الصيحات المنفرة عن دراسة الفرق، والتحذير من دعاة الضلالة، ولم يشغله جانب عن جانب، فبقي يكتب ويوضح وينصح ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى اتباع الحق، ويحذر من سبل الشياطين، وهذا الجانب الخطير والشر المستطير- الباطنية- غفل عنه كثير من الدعاة وأبناء الحركات، لكن الشيخ لم يألُ في ذلك جهدًا ولم يدخر وسعًا، وإن قالوا عنه ما قالوا.

وهنا يظهر معنى التجديد جليًا واضحًا في دعوة الشيخ وموقفه من الحركات الباطنية، فالتجديد الذي ذكره العلماء هو إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.

يقول الشيخ محمد سرور: «ورث الباطنيون المعاصرون عن مؤسسي ديانتهم القاعدة التالية «يميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم ويميزون من يمكن أن يخدعوه ممن لا يمكن» ومن أجل خداعنا وتضليلنا فقد انتسب الباطنيون ثم هيمنوا على أحزاب ترفع الشعارات البراقة: الوحدة العربية، التحرر من الاستعمار، الحرية، الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية، تحرير فلسطين..» (١).

ثم قال الشيخ: لي صديق ألتقيه في فترات متباعدة وهو من حملة الفكر القومي بشتى أبعاده الناصرية والبعثية واليسارية، يعجبني صراحته فيما يكتب، قلت له: يا فلان، أتعجب مما ينشر في صحيفتكم، بعض الأحيان أقرأ فيها إشادة بتصريح أدلى به أسد وثناء على النظام، وأحيانًا أقرأ نقدًا للأسد ونظامه، فكيف أجمع بين هذا وذاك؟

فأجاب الصديق: نحن نتعامل مع الخبر ونتفاعل معه، وإذا كان مع قضايا

---
(١) انظر: اغتيال الحريري وتداعياته على أهل السنة، ص٦.

أمتنا أثنينا عليه، وإذا كان الخبر أو الموقف خلاف ذلك نقدنا الأسد ونظامه.

فقال الشيخ: هذا يعني أنكم مع ظاهر التصريح الذي يصدر عن زعماء هذا النظام، وتغضون الطرف عن تاريخه الملوث، وعقيدته الباطنية.

فقال الصديق الصحفي: أمامنا خبر، تصريح، بيان، نفهمه حسب قواعد وآداب اللغة العربية، ونحن أبناؤها وحسب خبرتنا، أما هذه الباطنية التي أسمعك تكرر النطق بها فلا نأبه بها ولا نقيم لها وزنًا. وثمة أمر آخر: عودنا النظام بين الحين والآخر على اتخاذ مواقف قوية ضد الأطماع والمخططات الأمريكية الصهيونية التي تستهدف بلادنا، فكيف لا نبرزها ونحن مقهورون نعيش عصر الصمت العربي المؤسف؟

فقال الشيخ: صديقي العزيز لو كان الأمر لي، لجمعت السياسيين والمفكرين والإعلاميين العرب ونظّمت لهم دورة «كورس» وجعلت للدورة موضوعًا واحدًا لا نتجاوزه إلى غيره، اللهم إلا ما يقتضيه التوضيح والاستطراد، وضرب الأمثلة من القديم والحديث، هذا الموضوع هو الباطنية التي قلت لي قبل قليل: سمعتك تكرر النطق بها، ثم جئت بأساتذة علماء متخصصين في الفرق والتاريخ، ثم نبدأ هذا المقرر بتدريس الطلبة نشأة الفرق الباطنية، وعقيدتهم التي يدينون بها، وصلتها الوثيقة بعقائد المجوس، وأساليبهم في الخداع والتضليل، وكرههم الشديد للعرب وقادة العرب من الصحابة والتابعين الذين أعز الله بهم دينه، أو يدرسونهم كتاب «فضائح الباطنية» لأبي حامد الغزالي، وهو عالم جليل عاش في القرن الخامس الهجري، وكان قريب العهد من انتعاش هذه الفرق وما شهده العالم الإسلامي من فرقة ودمار وتخريب على أيدي جيوش هذه الفرق، ولابد من إضافة شروح وتعليقات على كتاب الغزالي يقتضيها ما جَدَّ في هذا العصر وفي العصور التي تلت عصر الغزالي، وبالأخص الخدمات التي قدموها للصليبيين والتتار.

هـؤلاء البـاطنيون- وتحديـدًا أتبـاع ابـن نـصير والعلقمـي والطـوسي والدرزي- يرفعون شعار القومية العربية، وهـم شـعوبيون يكرهـون العـرب والعربية، وينادون بالوحدة العربية، وهم من ألدِّ أعـدائها؛ لأنهـم يخـشون أن تتلاشى كياناتهم الطائفية في ظل الوحدة العربية، ويدعون إلى تحرير فلـسطين، والقـضاء عـلى الكيـان الـصهيوني، وفي الخفـاء يمـدون أيـديهم للـصهاينة، فيتعاونون وينسقون معهم. ولا يجوز لنا أن ننسى أو نتناسـى المـذابح الفرديـة والجماعية التي ارتكبها الباطنيون في المخيمات الفلسطينية بلبنـان، ومـن أبـشع سجون المخابرات السورية ما أسموه «فرع فلسطين» وهم اليوم تحالفوا مع من يسمونه الشيطان الأكبر، وقدموا له كـل أنـواع الـدعم والمساعدة مـن أجـل احتلال قواته العسكرية للعراق، كما فعل أجدادهم من قبل مع التتار[1].

ويرى الشيخ أن الإعلاميين والسياسيين والمفكرين العـرب يعرفـون هـذه الجرائم والمؤامرات التي حصلت، وقد يتحدثون في مجالسهم الخاصة عن شيء منها، ولكنهم يخطئون أو يكابرون في تفسيرها، ويتناسونها مـع مـرور الـزمن، ولأنهم لا يعتقدون عقيدة الباطنية فلا يستخدمونها، بل يعدون تفسير الأمـور على أساس ذلك ضيق أفق وتخلف، ولذا يقعون في التناقضات ويتخبطـون في تحليلاتهم[2].

ففي دمشق يعقدون المؤتمرات لنصرة سوريا ضد التهديدات والمخططـات الأمريكيـة، وفي بـيروت يحتفلـون بانتـصار المقاومـة عـلى العـدو الـصهيوني، والمقاومة في مفهومهم تعني: حزب الشيعة ورجل إيران الفارسية حسن نـصر الله. أما الشعب اللبناني بأحزابه وعلمائه ودعاته، وأما الفلسطينيون ومقاومتهم الباسلة، فهؤلاء ليسوا أكثر من أصفار عند المغفلين من أبناء جلدتنا.

بقي الشيخ يكتب ويتابع مخططات الباطنية ويحذر منها ويكتب عنها وينشر

(١) انظر: اغتيال الحريري وتداعياته على أهل السنة، ص٨-٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٠.

الكتب والمقالات منذ أواسط السبعينيات من القرن الماضي، فأخرج سِفرًا عظيمًا قيمًا في توضيح دور الفرق الباطنية ومخططاتهم، وسآتي للحديث عن موضوعاته في فصل البحوث والمؤلفات.

وفي مقدمة الكتاب المذكور تحت عنوان «سأُتهم بالتعصب» قال الشيخ: أظن أن هذا أول كتاب إسلامي يعالج قضية غير المسلمين في جزء مهم من العالم الإسلامي بشكل صريح وشامل. وكان بعض الكُتَّاب الإسلاميين يطرقون هذه القضية بشيء من التعميم والتلميح اللذين لا يثيران حفيظة أحد، ونشر هذا الكتاب يثير ضجة عند فئتين من الناس:

أ – غير الإسلاميين: فاليساريون لا تتحمل عقولهم الجامدة أن يقال: هناك صراع بين المسلمين والنصارى، ودعاة الطائفية- النصارى والنصيريون والدروز- اعتادوا أن ينشروا ويتكلموا ما يريدون بحرية كاملة ولا يقف أحد في وجوههم، والسياسيون أفرادًا أو زعماء لأحزاب جاهلية ينافقون لقادة غير المسلمين، لعلمهم بأن زعماء الطوائف لهم أخطر الأدوار في صنع الزعامات في بلادنا، فيحرصون على كسب ودهم، ويعتبر هؤلاء أن الدفاع عن الإسلام نوع من أنواع الطائفية الذميمة.

ب – يرى معظم الإسلاميين عدم الخوض في قضايا غير المسلمين، وقد يقول أحد الدعاة في جلسة مغلقة كلامًا خطيرًا عن الدروز مثلًا، لكنه يأبى أن يعيد كلامه إذا كان يكتب في صحيفة أو كتاب أو محاضرة عامة.

وتجاوز بعض الدعاة هذا الحد، فأقاموا علاقات صداقة مع غير المسلمين!![1].

ثم قال الشيخ: قد نفهم عدم خوض بعض الدعاة في قضايا غير المسلمين، ولكننا لا نجد لهم عذرًا في إقامة علاقات معهم والإشادة بهم؛ لأن الداعية إن

(١) انظر: رؤية إسلامية، ص١٥-١٦.

عجز عن قول الحق كله، فلا يصح لـه أن يقـول الباطـل، إلا إن كـان مكرهًـا إكراهًا شرعيًا على ذلك.

كم نتمنى أن يبصر إخواننا حقيقة المؤامرة التي يخطط لها غـير المسلمين في بلادنا مع اليهود والأمريكان وغيرهم من أعـداء الإسـلام، وكيـف يأخـذون علينا هذه الصرخة التي أعلنَّاها في هذا الكتاب، وغير المسلمين أَلَّفـوا الكتـب التي يهـاجمون فيهـا الإسـلام والمسلمين، وقـالوا عـن الحركـات والجماعـات الإسلامية كل زور وخطل وباطل وبهتان؟!

كيف يريد بعض الدعاة أن يحافظوا على علاقات مع من قطعوا كل علاقـة تربطهم بالله جل وعلا؟

كيف يقول بعض الدعاة: يجب ألا نكتب كل أو بعض ما عنـدنا عـن غـير المسلمين حتـى لا نـستعديهم عـلى أنفـسنا، وهـم الـذين بـالغوا في عـداوتنا وإيذائنا؟!!

وأقل ما أطلبه من إخـواني ألا يكونـوا عونًـا لأهـل الباطـل ضـدي، إن لم يدافعوا عني، وحسبي أني لهم منذر وعليهم أغار وعن حقوقهم أدافع[1] ا.هـ.

**وإذا كان هذا هو موقـف الـشيخ مـن الباطنيـة وفـضح مـؤامراتهم وبيـان كيدهم، فكأني به يقول: «ومن الرديف وقد ركبت غضنفرًا».**

وبعد مرور عشرات السنين على تصنيف الشيخ للكتـاب المـذكور، رأيـت بعض المثقفين يقبلون على شرائه، وصاروا يتحدثون به في كل مجلـس، ولكـن بعد فوات الأوان- كما يقال- بل بعد حلول الكارثـة بالمـسلمين. ومـع ذلـك فالعاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

**٥ ـ أهمية الدعوة عند الشيـط:**

سلك الشيخ مـسلك الـدعوة إلى الله- عـز وجـل- منـذ نعومـة أظفـاره،

(١) انظر: كتاب رؤية إسلامية (مؤامرة الدويلات)، ص١٧-١٨.

واستحوذ العمل الدعوي إلى الله- عز وجل- على حياته، فهو كثير الحِل والتِّرحال والخروج من أجل الدعوة إلى الله من بلد إلى آخر، والنشاط الدعوي نال معظم وقته وجُلَّ اهتمامه. فمنذ أكثر من أربعين سنة وهو مهاجر خارج بلاده، يحاضر، ويدرس، ويلتقي مع العلماء والدعاة، ويصنف ويكتب ويؤلف ويدعو إلى وحدة صفوف أهل السنة والجماعة، وإلى جمع الكلمة وتوحيد الجهود، ومواجهة الأخطار المحدقة بأهل السنة والجماعة. وحيثما حل وارتحل وفي أي بلد ينتقل إليه فإن مجالسه الأسبوعية ولقاءاته اليومية لا تنقطع أبدًا، كل هذه الجهود المباركة المخلصة بارك الله فيها، ولذا فقد نشأ تيار سني عظيم يطلق عليه الشانئون والحاسدون «التيار السروري» وليس من رغبة الشيخ أن ينسب أحد إلى اسمه، ولا يعجبه الظهور أمام وسائل الإعلام المختلفة.

ومع ذلك فهذا التيار(١) له وجوده وحضوره الذي يعدّ أمل الدعاة والمخلصين لإنقاذ الأمة مما يحيق بها من أخطار، هذا التيار السني السلفي الذي أنشأه الشيخ يجمع بين الأصالة والتجديد، ويجمع بين العلم والفكر والمعاصرة، ويحث على الاهتمام بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب، ويحذر من التيارات والأفكار الخطيرة والمنحرفة، مع التركيز على أصول الدعوة الإسلامية، وهي: التوحيد واتباع السنة وتزكية النفوس، فنالت هذه الدعوة في أوساط الشباب والطلاب قبولًا واستحسانًا، واستحوذت على تقدير وإعجاب العلماء والدعاة، ووجدت الموافقة والقبول عند كثير من الوجهاء والفضلاء.

هذا التيار الإسلامي الذي أنشاه الشيخ له حضوره ووجوده الذي لا ينكر، بل لا يستهان به، في بلاد الجزيرة العربية كالسعودية واليمن والكويت ودول الخليج وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربي وغيرها من بلاد

---

(١) النجاح أن الرجل أوجد تيارًا أكثر من كونه أوجد جماعة وحزبًا، ولعل هذا هو سبب القبول للمنهج الذي طرحه في أوساط الشباب.

العالم. والشيخ متفائل بالتيار الإسلامي الشبابي الذي يحرك الثورة في سوريا، وهو يتطلع- بل يسعى دائمًا- إلى قيام التعاون بين أهل السنة قاطبة، وإلى العمل الصادق المخلص الذي لا يبتغى من ورائه إلا وجه الله، وهو يدعو إلى قيام تيار سلفي معتدل في سوريا، ويأمل أن يكون لهذا التيار مستقبل واعد بإذن الله، وهو عنصر نظيف يساعد على جذب الجماهير له.

نسأل الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يوحد صفوف المسلمين ويجمع كلمتهم على الحق والدين.

# الفصل الخامس
## السرورية والعمل الجماعي

إن المتأمل في تاريخ الفقه الإسلامي والدعوة إلى دين الله- عز وجل- يلاحظ وجود مذاهب فقهية وفكرية متنوعة، هذه المذاهب والأفكار تنسب إلى أعلام عظماء خلَّد التاريخ ذكرهم ولهم شأن واعتبار في أوساط الأمة.

ذلك لما كان لهم من جهود لا تنكر ومواقف مشرفة في نشر العلم وتصحيح الفكر وقمع البدعة والمبتدعين، ومن ثم تجديد أمر دين الأمة والعودة بها إلى المنبع الصافي والمصدر الأصيل (الكتاب والسنة) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[1].

فالحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية... هي أسماء مذاهب فقهية تنسب إلى أئمة أعلام مجددين في الدين، فالإمام أبو حنيفة النعمان الذي قال عنه بعضهم: «الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة» ينسب إليه المذهب الحنفي، والإمام مالك صاحب «الموطأ» الشهير إمام أهل المدينة الذي ينسب إليه مذهب المالكية، والشافعية تنسب إلى الإمام الشافعي صاحب التصانيف الشهيرة، ومنها كتاب «الرسالة» الذي يعدّ أول من صنف في أصول الفقه وأرسى قواعده، والذي عمل على نصر السنة ودافع عن العقيدة الإسلامية في وقت كانت الأهواء والبدع تطل برأسها، وظهر علم الكلام، فحذر منه، وقد اشتهر عنه القول: «وحكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل، وينادى عليهم، هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».

وأما الإمام أحمد بن حنبل، فهو إمام أهل السنة الذي صنف كتاب «المسند»

(١) السجدة: ٢٤.

أوسع دواوين السنة وغيرها من التصنيفات، وقد جرت له محنة عظيمة في عهد عدد من الخلفاء، لأنه تصدى لبدعة القول بخلق القرآن، فدحضها، ولم ينحن أمام تلك المحنة، وثبته الله تعالى ونصر به عقيدة أهل السنة والجماعة.

والدولة الأيوبية تنسب إلى القائد الشهير والمجاهد العظيم صلاح الدين الأيوبي، الذي نصر الله به دين الإسلام وهزم جحافل الصليبيين التي غارت على العالم الإسلامي واحتلت بيت المقدس وربطت فيه الخيول حقدًا على المسلمين وإهانة لشعائر الإسلام، فهزم الله الصليبيين على يديه.

والوهابية هي التسمية التي أطلقها الحاقدون على الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد، ومحارب البدع والشركيات، الذي أقام دولة على أساس التوحيد ونبذ الشرك في الجزيرة العربية في وقت أصبح فيه العالم الإسلامي؛ نهبةً للمستعمرين وميدانًا رحبًا للبدع والمنكرات.

والتاريخ يعيد نفسه، فها أنت اليوم تسمع عن السرورية- هذه التسمية الجديدة- التي أطلقها الشانئون والحاقدون على الشيخ محمد سرور، وإنما أرادوا التنفير عن منهج الشيخ وعن دعوته، وتأليب الحكام على الشيخ وأتباعه.

لم يكن الشيخ محمد سرور- حفظه الله- ليقبل أن ينتسب إلى شخص، إنما هو يدعو ويكتب ويناقش ويحاضر للدعوة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة على وفق ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين- رضوان الله عليهم.

ولم يكن ممن يرغب بالحديث عن نفسه ولا يعجبه ذلك، كان يعمل بدأب وهمة عالية وعزيمة وافرة، ما رأيت أحدًا من الدعاة كثير السفر والتنقل والترحال مثل الشيخ، يحاضر، ويناقش، ويكتب، ويدعو المخلصين إلى التمسك بالكتاب والسنة، ويدعو إلى الحوار الجاد، وينصح الصادقين، ويعمل من أجل اجتماع الكلمة وتوحيد الجهود لمقاومة تيارات البدع والشرك

والانحراف وهجمات الأعداء العاتية على أهل السنة والجماعة وعقيدة التوحيد، فقد كان يواصل ليله بنهاره، ويحرص على مطالعة الصحف والمجلات ومتابعة وسائل الإعلام لمعرفة أخبار المسلمين وأحوالهم في مختلف أصقاع الأرض وأقطارها، فيكتب مدافعًا ورادًّا ومحذرًا، ولكل موقف ما يناسبه من الكتابة أو المحاضرة.

وهل يمكن أن تمر هذه الأمور بلا رعاية ولا اهتمام أو متابعة وتربص؟

صارت كلمة «سرور» و«السرورية» و«السروري» حديث الأوساط وموضع اهتمام الخاصة والعامة، وعند كتاب الصحف والمجلات، ما بين مادح وقادح. وهذه الكلمة «السرورية» لم يرغب الشيخ في إطلاقها، لأن من أطلقها إنما يريد اللمز، ولذا فقد قال الشيخ: «وأنا لا أعرف أحدًا في مشارق الأرض ومغاربها يقول عن نفسه «سروري» ولو وجدتم من يزعم ذلك فقولوا له: إنني بريء منه»[1].

ويقول: «لا أعرف أن هناك جماعة اسمها السرورية، ولم أكن في يوم من الأيام مسؤولًا عن جماعة، لا أمثل فيما أكتبه إلا نفسي، وأنا مع كل من يعمل من أجل أن يكون الدين كله لله، ويتبع المنهج الحق في الأصول والفروع»[2].

**متى بدأ الحديث عن السرورية؟**

قبل حرب الخليج كان الحديث عن السرورية غير ملفت للنظر، لكنه بعد حرب الخليج أصبح حديث القاصي والداني؛ حيث أدانت مجلة «السنة» غزو العراق للكويت، وتحدثت عن الجرائم التي ارتكبها جيش البعث العراقي في هذا البلد الصغير الآمن، ثم استنكرت مجلة «السنة» استعانة دول الخليج بالأمريكان، كما استنكرت الفظائع التي ارتكبها الأمريكان وحلفاؤهم في العراق. ولقي هذا الموقف- أي موقف الشيخ- قبولًا واستحسانًا في كل

(١) مجلة «السنة»، العدد (٢٧)، ص٥٩.

(٢) مجلة «السنة»، العدد (٢٧)، ص٦٠.

مكان[١].

وحينها اشتدت الحملة الظالمة من الحاسدين والحاقدين والمنافقين من أعوان الظلمة، على الشيخ والتنفير عنه:

**حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم**

لكن هذا الفعل من خصوم الشيخ وحاسديه، كان سببًا في زيادة الإقبال على كتبه ومتابعة التحليلات التي يوردها في مجلة السنة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٣].

## كيف تستقيم أمور الجماعات الإسلامية؟

يرى الشيخ محمد سرور أن الجماعات الإسلامية لا تستقيم إلا أن تراعى فيها الأمور التالية:

- أن يكون عند العضو في الجماعة حد أدنى من العلوم الشرعية تمكنه من معرفة الحلال من الحرام.

- أن تراعى شروط أهل الحل والعقد في اختيار قادة الجماعة، ومراعاة هذه الشروط تعني أن يُختار الرجل لعلمه وفضله وصدقه وأمانته، وليس لكونه يحمل دكتوراه في الفيزياء أو الهندسة أو الطب.

- لا ينبغي أن يتحول المسؤول إلى رجل ديكتاتور مستبد، كما أنه لا ينبغي الاحتكام إلى نظام الديمقراطية الغربية، وينبغي أن تنتبه الجماعات إلى نظام المؤسسات. ومن التصورات المتخلفة الاعتقاد أن زيدًا من الناس يفهم في كل شيء ويتفوق فهمه وعلمه على المتخصصين الأفذاذ.

---

(١) انظر: مجلة «السنة»، العدد (٢٦)، ص٨٦.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) القصص: ٥.

- أن يكف الأعضاء عن التناجي بالإثم والعدوان، ويحذر العاملون إلى الله من تحالف بعض الإخوة ضد بعضهم الآخر.

- من الخطورة بمكان أن يتولى المسؤولية من يتطلع إليها بنهم وشراهة، ويجامل الناس ويقول ما يرضيهم ولو كان مخالفًا لقناعاته من أجل أن يضمن وقوفهم إلى جانبه في معركة الانتخابات، وطالما رأيت أشخاصًا يختارهم كافة الأطراف؛ لأنهم يخاطبون كل طرف بما يرضيه، ألا تبًا لمسؤولية تجعل الرجل يعيش من غير قناعات[1].

**ثوابت ومنطلقات**:

وضع الشيخ لنفسه ثوابت محددة في العمل الدعوي، فيقول: «وضعت لنفسي ثوابت ومنطلقات محددة لا أحيد عنها، ولا أستبدلها بغيرها، ومرور الأيام زادني قناعة واستمساكًا بهذه الثوابت والمنطلقات، فالتطبيق أثبت أصالتها، والتجارب أثبتت صحتها. ومن أهم هذه المنطلقات ما يلي:

**أولًا**: أصبح الأصل عندي الالتزام بعقيدة ومنهج السلف الصالح- رضوان الله عليهم. وهذه المسألة لا مجال للمساومة عليها؛ فمن كان هذا هو اعتقاده في أصول الدين وفروعه فهو أخي ومن أقرب الناس إليّ، ولا يهمنا بعد ذلك لون بشرته أو اسم الجماعة التي ينتسب إليها أو بُعد الديار بيننا وبينه.

وعندما نقول: إن الأصل عندنا الالتزام بعقيدة ومنهج السلف الصالح- رضوان الله عليهم- فإنما نقصد رجال خير القرون المفضلة، وليست السلفية عندنا تقليد رجل من الرجال المعاصرين في كل ما يقوله ويفتي به، فمثل هذا النوع من التقليد نعتبره لونًا من ألوان الحزبية الضيقة أو شكلًا من أشكال التعصب المذهبي المذموم، والعالِـم مهما علا شأنه وعمَّ فضله وعلمه لا بد أن نأخذ من قوله ونرد[2].

(١) مجلة «السنة»، العدد (٢٧)، ص٥٢.
(٢) مجلة «السنة»، العدد (٢٧)، ص٥٧.

**ثانيًا**: رفض الشيخ أن يكون مسؤولًا لأسباب منها:

نظر الشيخ في واقع الجماعات الإسلامية المعاصرة.. ثم نظر في تاريخنا القديم والحديث، فوجد أن التنافس على مراكز القيادة من أكبر مصائب الأمة الإسلامية ونكباتها ومشكلاتها، وحل هذه المشكلة يقتضي الزهد في المراكز القيادية والابتعاد عنها، وخدمة العمل الإسلامي، وتقديم كل ما يملكه الداعية من خبرات ومواهب، دون أن يقترب من المسؤولية، وهذا الذي حرص عليه الشيخ طوال سيره في الدعوة(١).

**ثالثًا**: لم يتخذ الشيخ في الطريق الدعوي الجديد تسمية معينة؛ وذلك لسببين:

١- نحن جزء من أهل السنة والجماعة، ولنعمل من أجل عودة الجميع إلى الكيان الكبير، وكما ذكرنا أهل السنة والجماعة فإننا نقصد ما كان عليه سلف هذه الأمة الأخيار، فلينتبه إلى هذا القصد الذين يتصيدون الأخطاء ولا يتقون الله فيما يقولون.

٢- إن كثيرًا من الأحزاب والجماعات الإسلامية يتعصبون للاسم الذي أطلقوه على أنفسهم، ويصبح هذا الاسم شعارًا يميزهم عن غيرهم، ويبلغ هذا التعصب حدًا لا يطاق عندما يرفضون الوحدة الإسلامية شريطة حذف هذا الاسم، بل يرون هذا الاسم أفضل من اسم «أهل السنة والجماعة»(٢).

**رابعًا: العمل الجماعي**:

إن يد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ولذا فقد حثَّ الإسلام على الالتزام بالجماعة، وقد عد الأصوليون إجماع الأمة حجة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

(١) مجلة السنة، العدد (٢٧)، ص٥٧.
(٢) مجلة السنة، العدد (٢٧)، ص٥٩.

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[(١)].

فالإجماع والاجتماع الذي يؤدي إلى الألفة، وتوحيد الصف، ولـمِّ الشمل ينتج عنه سلوك السبيل القويم، ومعرفة الحق، واجتناب الباطل، ودفع خطر العدو، والذود عن حياض الأمة إنما يكون من خلال جمع الشمل وتكاتف الجهود وتوحيد الكلمة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال العمل الجماعي الذي دعا الله تعالى إليه، فقال سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[(٢)].

وفي هذا- أي العمل الجماعي- يقول الشيخ:

**«لن يسترد المسلمون دورهم العالمي الفعال إلا إذا تعاونوا على البر والتقوى، ووحدوا صفوفهم، وسدوا الثغرات التي ينفذ منها شياطين الإنس والجن، واتجهوا نحو غايات وأهداف محددة»**[(٣)].

ولكن هذه الـمُثل الطيبة لن تتحقق إلا من خلال العمل الجماعي المنظم. ويجب أن تتوفر في هذا العمل الشروط التالية:

١- الاعتقاد بأن العمل الجماعي وسيلة وليس غاية.

٢- لا يحق لأي جماعة- مهما كان منهجها سليمًا- الادعاء بأنها جماعة المسلمين، ولا يحق لأمير جماعة أن يطلب البيعة لنفسه، كما كان يطلبها خلفاء المسلمين، ولكن يحق للأمير ومن حوله أن ينظموا أمورهم كمؤسسة دعوية تعمل من أجل أن يكون الدين كله لله. ويقتضي التنظيم أن يكون للمؤسسة رئيس ونائب رئيس ومسؤولون عن الأقسام والفروع وأوامر تصدر فتطاع، إلا ما كان مخالفًا للكتاب والسنة.

---

(١) النساء: ١١٥.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) مجلة «السنة»، العدد (٢٩)، ص٨٩.

٣- توثيق الرجال وتجريحهم يكون من خلال منهج أهل الجرح والتعديل المعروف عند أهل الحديث، وليس من خلال انتساب الشخص لجماعة أو لكونه مستقلًا أو لأنه ترك الجماعة، وما نراه اليوم من عصبية حزبية وتنافر بين المسلمين، والاعتقاد بأن أعضاء الجماعة يوثقون لمجرد انتسابهم للجماعة، دون النظر إلى سلوكهم، فهو ابتداع وخطر عظيم على العمل الإسلامي يجب على المصلحين أن يتصدوا له[(١)].

يجب التقيد والالتزام بالأدلة الشرعية في كل أمر من أمور الجماعة، ولا يجوز بأي حال تقديم رأي الأمير ونائبه أو رأي الأكثرية على الدليل الصحيح، وما كان خاضعًا للاجتهاد يقدم فيه رأي الأكثرية؛ شريطة أن يكون الذين يتداولون هذا الرأي من طلاب العلم الذين يملكون الاجتهاد، وأما الاجتهاد ومخالفة النصوص في قضايا الاعتقاد التي تعتمد على النصوص الثابتة والأدلة الشرعية فهو ضلال وانحراف عن الحق، ومثل ذلك تقديم قول القيادة على كل قول.

والعمل الجماعي الذي تتوفر فيه هذه الشروط لا ينبغي مناصبته العداء، ومن أراد الاطمئنان فليراجع ما كتبه أعلام هذا العصر أمثال: السيد رشيد رضا، وأحمد شاكر، ومحب الدين الخطيب، وعبد العزيز بن باز، وغيرهم من كبار العلماء- رحمهم الله جميعًا- ولا ينبغي الحكم على العمل الجماعي من خلال ما يفعله أهل الغلو.

والعمل في جماعة تتوفر فيها هذه الشروط يتميز عن مثيله من الذين لا يعملون في جماعات؛ لأنه قام بعمل يعد من فروض الكفاية[(٢)].

**خامسًا: أهمية الحوار بين الدعاة والجماعات الإسلامية:**

الحوار الصادق سبيل مهم إلى توحيد الصفوف وجمع الكلمة، ومن أجل

(١) مجلة السنة، العدد (٢٩)، ص٨٩.

(٢) مجلة السنة، العدد (٢٩)، ص٩٠.

تحقيق هذا الطلب، ينبه الشيخ- وبحكم خبرته الطويلة في العمل الدعوي- إلى ملحوظات مهمة هي:

- إنهاء القطيعة بين الدعاة والجماعات الإسلامية، وطيّ صفحات الغيبة والعداوة والشحناء والظلم، وفتح صفحة جديدة لا بد فيها من التنافس الشريف الذي يفجر الطاقات ويصقل المواهب.

- إن قيام الحوار لا يعني احتواء جماعة للجماعات الأخرى، وقد فشلت محاولات الهيمنة والاحتواء، وتركت آثارًا سلبية، معالجتها تحتاج إلى زمن طويل.

- لابد أن يقوم الحوار على أصول ثابتة يتفق عليها الجميع، وهي الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

**سادسًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

من أعظم الواجبات وأهمها عند المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا سبب خيرية هذه الأمة وفضيلتها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

وفي صفة رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[2].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «فأما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ: «..**وليس**

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) أخرجه مسلم (٤٩/ ٧٨).

**وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**[١].

يقول شيخنا- حفظه الله: «فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات وأجلها، وهو فرض على الكفاية، وعلى أمثالنا الذين يشتغلون بالأعمال الدعوية والإعلامية هو فرض عين، والأمة التي ينعدم فيها القيام بهذه الفريضة تستحق عقوبة الله ووعيده، ومن أجل القيام بهذا الواجب فقد اخترت الإقامة في ديار الغرب، رغم أنني أعيش فيها بجسدي وليس بروحي، لأنه لا شيء يعادل الحرية بعد الإيمان بالله والعمل الصالح».

ويقول: «ومن جهة أخرى فأنا لا أنكر هذه المنكرات بمنكر أشد كاستخدام القوة وغيرها، بل أحذر من هذا الغلو، فإن قال المنافقون وضعاف النفوس وسدنة الظالمين: هذه فتنة وتهييج سياسي، قلنا: بل وجودكم ودوركم هو الفتنة؛ لأنكم تزينون للطاغي طغيانه، وتبحثون عن مبررات شرعية له، وتخوضون معارك لا ترضي وجه الله تعالى، وكل الذي تريدونه جاهًا أو مالًا، ونتحداكم أن تذكروا لنا منكرًا واحدًا أنكرناه وليس له أصل»[٢].

ثم يقول الشيخ في رده على المنافقين والمرجفين:

وأين أنتم من قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا أظهر الرجل المنكرات وجب الإنكار عليه علانية، ولم يبق له غيبة، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره، فلا يسلم ولا يرد عليه السلام إذا كان الفاعل لذلك متمكنًا من ذلك من غير مفسدة».

فكيف إذا كان الذي أظهر المنكرات نظامًا وجعل منها تشريعًا، ألا ننكر عليه علانية ونحن قادرون على ذلك؟ أم هذا عندكم تهييج سياسي؟... أتسلكون سبيل العلمانيين الذين يستبعدون من الإسلام السياسة ولا يرون لها أدنى علاقة بالدين.. ألا قاتل الله النفاق والمنافقين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٧).

(٢) مجلة «السنة»، العدد (٢٩)، ص٩٤.

أين أنتم، أيها المداهنون، من قوله ﷺ- فيما يذكره عن الحكام الظالمين وأعوانهم ممن يسمون أنفسهم دعاة: «**فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد على الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد على الحوض**»[١].

وفي ختام هذا المبحث قال الشيخ- حفظه الله: «وكل داعية إلى الله، يسلك سبيل رجال خير القرون، يعلم أنه سيواجه أمثالكم من ضعاف النفوس الذين يحاولون تشويه سمعته وتأليب الناس عليه، ولكن ذلك لا يثنيه عن المضي في طريقه محتسبًا أجره عند الله تعالى.

وكل من يستعرض التاريخ الإسلامي يجد تلازمًا بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين المحن والابتلاءات والإشاعات الظالمة الكاذبة، لاسيما إذا واجه المحتسب الحكام الظالمين وأعوانهم من دعاة السوء»[٢].

**توضيح**:

كثر الكلام عن الحزبية، وما يسمى بالسرورية والعمل الجماعي في العقدين الماضيين من القرن الميلادي المنصرم، واشتد الخلاف والتنافر والتفسيق والتبديع والكيد والتآمر على العلماء والدعاة والصالحين، وهذا مصداق حديث رسول الله ﷺ: «**سيأتي على الناس سنوات خداعات: يُصَدَّق فيها الكاذبُ، ويُكَذَّب فيها الصادقُ، ويُؤْتَمن فيها الخائنُ، ويُخَوَّن فيها الأمينُ، ويَنْطِقُ فيها الرويبضة**»، قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: «**الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»[٣].

خرج أناس يزعمون الشفقة على الأمة، والحرص على الدين، والذود عن

---

(١) مجلة «السنة»، العدد (٢٩)، ص٩٦. والحديث أخرجه الترمذي (٢٢٥٩)، وأحمد (٤/ ٢٤٣)، وصححه الألباني.

(٢) مجلة «السنة»، العدد (٢٩)، ص٩٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٧٢) عن أبي هريرة- رضي الله عنه- وصححه الألباني.

حياض المسلمين.. يهاجمون العلماء والدعاة.

يحرمون الحزبية والعمل الجماعي ووجود الجمعيات، ويعدّون من سلك في هذا المسلك وقَبِلَ به من المبتدعين الأشقياء، الذين لا يفهمون الولاء والبراء، بل هم خارجون عن طاعة من هم لأمور المسلمين أولياء!!

تطور الأمر عندهم أو عند بعض تلامذتهم، فأمروا بإحراق كتب بعض العلماء، فلا كتب النووي، ولا شرح ابن حجر للبخاري، ولا ظلال القرآن لسيد قطب، تستحق ضياع الوقت ولا النيل ولا العطاء!!

فلا يعدّ عند هؤلاء من أهل السنة والجماعة ولا من السلفية، إلا من كان وفق أهوائهم وآرائهم.

ومهما كثر شغب هؤلاء، لم يكن ذلك ليصرف الشيخ محمد سرور عن التصدي لهم وكشف عوارهم وبيان الحق؛ فقد كتب- حفظه الله- في عدة حلقات وتحت عنوان «الوحدة الإسلامية» ما يبطل شبه الغلاة، وبيَّن مواقف كبار العلماء السلفيين من السياسة والأحزاب والجماعات، فهذا هو محمد رشيد رضا صاحب «مجلة المنار»، وهذا هو محب الدين الخطيب صاحب «مجلة الفتح»، وهذا هو أحمد شاكر صاحب التحقيقات المشهورة يكتب في مجلة «الهدي النبوي»، وهذا الشيخ كامل القصاب، لقد خاضوا غمار السياسة والانتخابات، وأنشأوا المكاتب والجمعيات، وكتبوا في الصحف والمجلات.

فهل أنتم أكثر من رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وأحمد شاكر خدمة للحديث الشريف والسنة النبوية؟!

ثم يرد الشيخ محمد سرور- حفظه الله- على بعض المنتسبين إلى الإخوان الذين يرون أن الدعوة السلفية لا تهتم بالسياسة، ثم يبين أن الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب هو أول من أقام الدولة الإسلامية في هذا العصر على أساس تحكيم الشرع والعمل بالسياسة.

ولم يكن من شأن محمد رشيد رضا ولا محب الدين الخطيب ولا كامل القصاب ولا حسن البنا، لم يكن عند هؤلاء الأئمة التفرقة التي أوجدها بعض المنتسبين إلى الدعوة.

فبعد وفاة العالم السلفي رشيد رضا، تولى إدارة تحرير مجلة المنار الشيخ حسن البنا.

وعندما عزم البنا وإخوانه على إصدار مجلة عمدوا إلى صاحب المكتبة السلفية الشيخ محب الدين الخطيب وطلبوا عونه ومساعدته، وطبع لهم إحدى مجلات الإخوان المسلمين.. فمن أين ومتى أوجدتم هذه التفرقة بين دعاة السلفية والإخوان؟!

إن الدعاة الصادقين هدفهم واحد، هو الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله- عليه الصلاة والسلام- ويسعون لإخراج الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام.

هذه الحرب الكلامية أو الإعلامية المفتعلة.. هذه الفتنة.. أدرك الشيخ الأيادي الخفية التي تحركها وتديرها، وهدفها أن تبقى أوراق الناس كلها مكشوفة، ولكي يبقى عدم الثقة بين الدعاة قائما، فيسهل اختراقها؛ ولذلك فقد صَنَّف كتاب «مساجد الضرار بين القديم والحديث، كيف نحصِّن الصف الإسلامي من المنافقين» وسيأتي الكلام عنه مفصلًا إن شاء الله تعالى.

**موقف الشيخ من التفجيرات التي تحدث في العالم:**

قال رحمه الله: نحن المتضررون من مسلسل الانفجارات التي تحدث في كل مكان، الشعوب الإسلامية حيثما كانت ومن غير استثناء.. علماء الأمة ودعاتها وجماعاتها.. لقد تعطلت آلاف المدارس والمراكز الإسلامية بعد أن وقف عنها الدعم. لقد أصبح الإسلام متهمًا، وما كان الأمر كذلك قبل هذه الفتن والتفجيرات. وقبل سنوات أفتى شيوخ هؤلاء المغامرين بجواز السرقة في ديار

الغرب وسموها غنيمة!!

ثم قال: وإذا كان الأمر كذلك- وهو حقًا كذلك وأكثر سوءًا- فلابد أن يكون لنا جميعًا موقف قوي ليس فيه مجاملة أو مداراة أو تعميم.

نحن نعرف كيف نواجه العلمانيين ونفند أباطيلهم، ونعرف كيف ندعو إلى الإصلاح ورفع القهر والاستبداد، ونعرف كيف نواجه الفساد والمفسدين، أما التفجيرات والاغتيالات فقد ثبت أنها أفضل هدية تقدم لأعدائنا في الداخل والخارج.

ويرى الشيخ أن يكون للعلماء والدعاة والجماعات خطة شاملة في مواجهة هذه الفتنة، كما واجه سلفنا من قبل فتنة الخوارج والإرجاء وغلاة الباطنية، ولا بأس أن يكون من فقرات هذه الخطة إخبار السلطات عن المعلومات المتوفرة لديهم قبل تنفيذها، شريطة أن يكون ذلك اجتهاد هيئة من العلماء والدعاة الثقات وليس اجتهاد فرد، وأن تكون المعلومات المتوفرة أكيدة، وأن يكون هناك تنسيق بين هيئة العلماء الثقات التي تحظى باحترام الناس وبين العقلاء من المسؤولين، وألا يكون ذلك في بلد دون بلد آخر.

فنحن لا نريد لهم إلا الخير والهداية، وأن يكون إقدامهم وجهادهم في المواطن الشرعية التي لا مجال للاختلاف فيها بين أهل العلم والرأي.

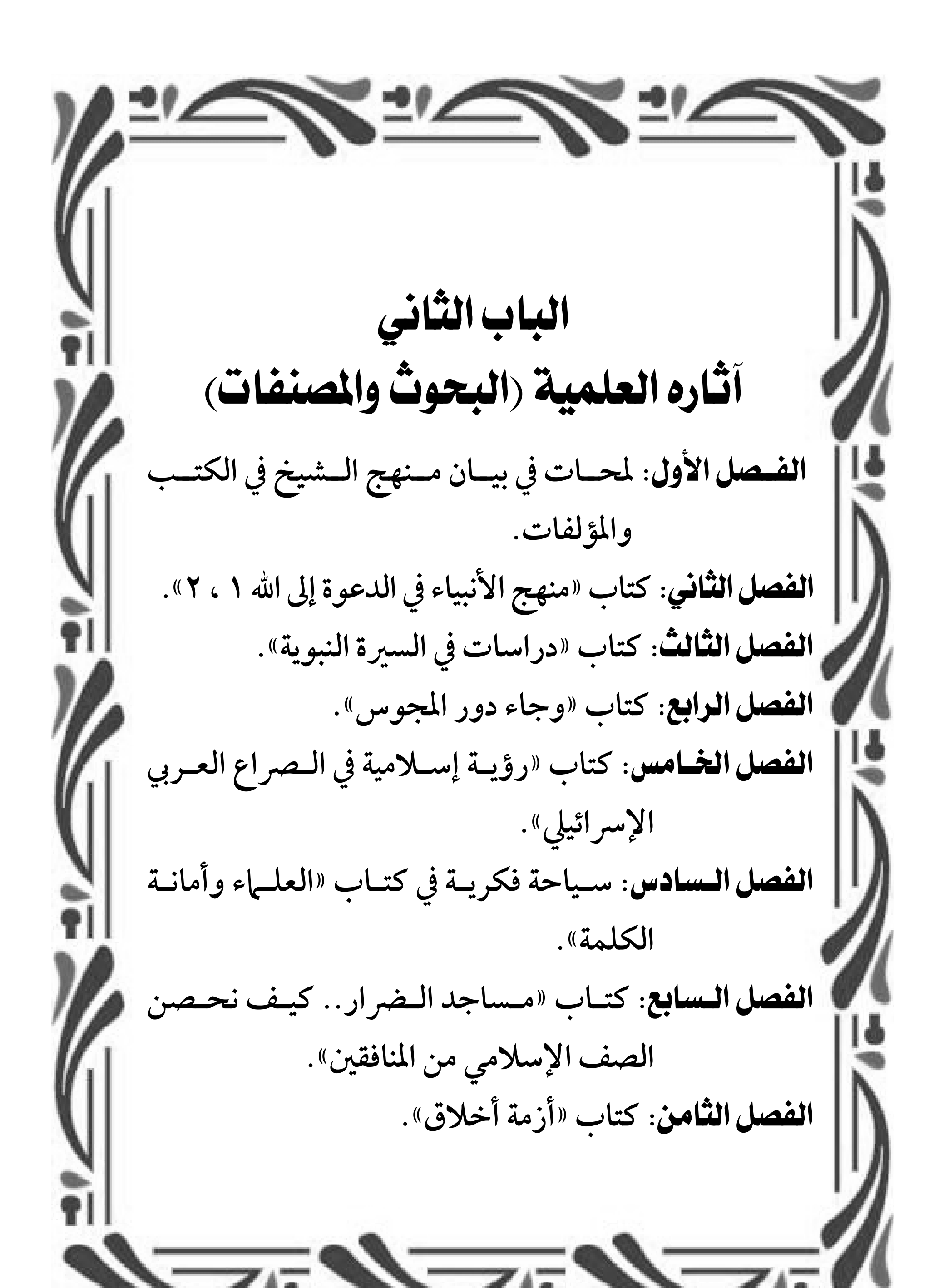
كان شيخنا- رعاه الله- يردد مقولة شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من الأحيان: «أنا رجل ملة لا رجل دولة».

إن الشيخ لا ينافس حاكمًا على منصبه وسلطانه، ولا ينافس عالمًا على علمه ومكانته، إنه يتحرى الحق ويقول الصدق، يبحث عن رضا ربه، ولا يهمه بعد ذلك أرضي الناس أم سخطوا؛ فإن إرضاء الناس غاية لا تدرك.

أليس هذا هو شأن الربانيين من العلماء؟

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

(١) الأنعام: ١٦٢.



# الباب الثاني
# آثاره العلمية (البحوث والمصنفات)

**الفصل الأول**: لمحات في بيان منهج الشيخ في الكتب والمؤلفات.

**الفصل الثاني**: كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ١، ٢».

**الفصل الثالث**: كتاب «دراسات في السيرة النبوية».

**الفصل الرابع**: كتاب «وجاء دور المجوس».

**الفصل الخامس**: كتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي».

**الفصل السادس**: سياحة فكرية في كتاب «العلماء وأمانة الكلمة».

**الفصل السابع**: كتاب «مساجد الضرار.. كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين».

**الفصل الثامن**: كتاب «أزمة أخلاق».

## الفصل الأول

## لمحات في بيان منهج الشيط في الكتب والمؤلفات

### أولا: لمحات في بيان منهج الشيـط:

قال أحد الحكماء: ثلاثة أشياء تدل على عقل فاعلها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها.

وكان الخطيب البغدادي- رحمه الله- يقول: «من صنَّف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس».

إن من يطالع ما صنفه شيخنا محمد سرور- حفظه الله- ويقرأ كتاباته بتجرد وإنصاف، يلاحظ:

١- أنه يكتب بدافع النصح والإرشاد والتوضيح والبيان، متجنبًا التعصب أو التعيير أو الشتيمة، لا يهدف إلى إفحام الخصم ولا المهاترة، ويكره الاشتغال بالردود إلا ما كان ضروريًا، وشعاره في ذلك «رحم الله من ترك المراء وإن كان محقًا»، فيتجنب ذكر الأشخاص للنيل منهم أو الطعن عليهم أو تجريحهم، إنما على مبدأ قول الرسول- عليه الصلاة والسلام: «**ما بال أقوام يقولون كذا..**»[1].

فانظر إلى قوله في كتاب «العلماء وأمانة الكلمة- ص٩٨»: «فمعاذ الله أن أحجب ما أعتقد أنه حق فيما أكتب؛ كي لا تستفيد منه الجهة التي أخالفها، ولا أقبل- إن شاء الله- أن يكون هدفي فيما أكتب إفحام الخصم والإجهاز عليه».

وفي (ص٨٠) من الكتاب نفسه يقول: «يا إخواننا من طلاب العلم الذين ما زلنا نحسن الظن بهم..».

٢- أن كتابات الشيخ تميزت بالدقة، واتباع المنهج الإحصائي والمنهج

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨)، وصححه الألباني.

الاستقرائي والاستدلال الذي لا يعتمد على مجرد الظن والتخمين أو التهويل والعاطفة الهوجاء، لا يفعل ذلك ولا يعجبه، بل المنهج الإحصائي وذكر الأرقام والأعداد، فهو المنهج الدقيق الموصل إلى حقائق الأمور، وهذا المنهج يختلف عن مناهج كثير من المؤلفين؛ إذ هو يحتاج إلى دراسة متأنية دقيقة، وإلى بذل جهد ذهني وعضلي، أي يحتاج إلى التنقل والأسفار، ومطالعة الوثائق والمقابلات، والحصول على الاستبيانات.

تلاحظ هذا المنهج بينًا أثناء قراءتك لكتاب «وجاء دور المجوس»، وكتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي- الجزء الأول».

فلا غرابة إذن أن تكون كتاباته ومنهجه قد تلقتها عقول واستساغتها وعملت بمقتضاها وأفادت منها، وضاقت عنها عقول أخرى فردَّتها وكادت لها.

وتهيأ المخالفون للرد عليه، فأعدوا وكادوا وفكروا وأجلبوا عليه بِخَيلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ ما أمكنهم من إثارة الحكام والسلاطين، واستعدائهم العامة عليه بالتحذير والتنفير.

وفي مقدمة كتاب «رؤية إسلامية- ص١٨» يقول: «وأقل ما أطلبه من إخواني ألا يكونوا عونًا لأهل الباطل ضدي، إن لم يدافعوا عني، وحسبي أني لهم منذر، وعليهم أغار، وعن حقوقهم أدافع».

وفي بيان منهجه في البحث قال: فَكُرْهُنا وعداوتنا للدروز والنصيريين المرتدين واليهود والنصارى الكافرين المشركين لا يعني أن نقول عنهم بالحق والباطل، وإنما نقول الحق ونتحرى الدليل[1].

وبعد أن ذكر المصادر التي اعتمد عليها في بحثه قال: وقيدت هذا المصدر بالقيدين التاليين:

(١) انظر: ص١٤ من كتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي».

**الأول**: أن يكون الخبر الذي أنقله وأستشهد به مشهورًا عنـد أهـل المنطقـة فلا ينفرد به واحد من الناس.

**الثـاني**: لم أتوسـع في الاعـتماد عـلى هـذا المـصدر، وكنـت أجمـع في معظـم الحالات بين أقوال المؤرخين وأقوال من شهد الأحداث من أهل المنطقة، وإذا كان هناك تعارض أحاول الترجيح، معتمدًا على الدليل[1].

ويقول أيضًا في الكتاب نفسه: قد نفهم عدم خوض بعض الدعاة في قضايا غير المسلمين، ولكننا لا نجد لهم عذرًا في إقامة علاقات معهم والإشادة بهـم؛ لأن الداعية إن عجز عن قول الحق كله، فلا يصح لـه أن يقـول الباطـل إلا إن كان مُكْرَهًا إكراهًا شرعيًا على ذلك.

وكم نتمنى أن يبصر إخواننا حقيقة المؤامرة التي يخطط لها غير المـسلمين في بلادنا مع اليهود والأمريكان وغيرهم من أعداء الإسلام. ص١٦

وتحت عنوان «العاقل من اتعظ بغيره» من الكتاب الآنف الذكر يقول الشيخ:

«سمعنا أن بعض الإسلاميين مدّ يد التعاون إلى بعض زعماء الطوائف غير الإسلامية ممن كانوا شركـاء لطـاغوت سـوريا حـافظ الأسـد قبـل سـنوات، وأسفر هذا التعاون عن قيام جبهة وطنية هدفها الإطاحة بنظام الأسد وإقامـة حكم ديمقراطي..» ص٣٠٣.

اشتدت الهجمة على الشيخ؛ فظهرت الكتـب والأشرطـة والمقـالات التـي تطلق عليه وتنال منه وتتهمه، وتلمز به تارة بالسرورية وأخرى بالقطبية، ومرة بالخوارج والغلو والحرورية، ومرة أخرى بالإخوانية، ومرة بالـصوفية، ومـرة بالأشعرية.

ومع كل ذلك فهو مطمئن القلب، رابط الجأش، لا يأبه بما يقال عنه ولا بما يثار ضده، وكأنـه آوى إلى حـصن حـصين وركـن ركـين، أو اعتـصم بجبـال

---

(١) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، ص١٥.

شواهق وقمم بواسق، وكفى بالله نصيرًا، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم، إنه يصير لا يبالي بكل ما يعده الخصوم والأعداء والحاقدون والحاسدون ودعاة الباطل.

يكتب وينشر ويحاضر ويتصل ويتنقل ويعمل عمل الواثق بربه، المتوكل على الله، داعيًا إلى عبادة الله وتحكيم شرعه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره.

وبعد مضي الأيام والسنون، انكشفت الأمور عن حقيقتها، وأسفرت عن جليتها، وسكنت الدهماء، وأنارت الظلماء، وركدت ريح البلاء، فإذا بكتب شيخنا- رعاه الله- تتداولها أيادي القراء على مختلف الميول والأهواء، مؤيدًا ومسترشدًا أو متربصًا الوقوع على زلة أو خطيئة، ولكن:

**وما على العنبر الفواح من حرج أن مات من شمه الزبال والجعل**

ولابد من الصبر على اللأواء، وهل يكون التمكين إلا بعد الابتلاء؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية لما سئل عن التمكين والإمامة: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[(١)].

وقال الذهبي في ترجمة الإمام الشافعي: وما تكلم فيه إلا حاسد أو جاهل بحاله، فكان ذلك الكلام الباطل منهم موجبًا لارتفاع شأنه وعلو قدره، وتلك سنة الله في عباده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(٢)(٣)].

٣- جلاء الفكرة ووضوحها، وعرض الحقائق الموضوعية والوقائع التاريخية عرضًا مستنيرًا، ويتحاكم ويستدل في كل ما يعرضه بالأدلة من

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) الأحزاب: ٧٠.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٥).

الكتاب والسنة ومواقف العلماء الجهابذة من أئمة السنة والجماعة، فيستعرض الأقوال ويناقشها ويبين صحيحها من زيفها وغثها من سمينها، ثم يورد الشبه ويجيب عنها بأدلة واضحة وبراهين ساطعة وحجج قاطعة لا تدع مجالًا لمستريب. هذا هو منهجه في كل ما يكتب، نفعنا الله بعلمه، وبارك في عمره، ونسأل الله له الأجر والمثوبة والتمكين.

وسوف أستعرض فيما يلي البحوث التي صنفها الشيخ مجملة وأتبعها بعرض مفصل لبعض الكتب والمؤلفات في الفصول التالية.

**ثانيًا: البحوث والمؤلفات مجملة:**

١-أأيقاظ قومي أم نيام ؟

٢-أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ج١٠ / ٥٩/ ٢.

٣-الإرهاب السعودي ج ٨ – عدد ٤٣/ ٣ (يتحدث عن الاعتقالات الواسعة التي حصلت سنة ١٤١٥هـ).

٤-أزمة أخلاق.

٥-اغتيال الحريري وتداعياته على أهل السنة في لبنان.

٦-إنجازات الرئيس حافظ أسد ج ٤- عدد ١٩/ ٢.

٧-تجربة عبد الناصر مع حزب البعث ج٢، عدد ٧/ ٢٦، ج٢ عدد ٨/ ٣٥.

٨-التميز والمفاصلة بين المجتمع المسلم والمجتمع الجاهلي.

٩-التهديدات التركية في إطارها التاريخي ج١٤/ ٨٠/ ٢.

١٠-الجزائر من جمعية العلماء إلى جبهة الإنقاذ ج١، عدد ٥٢، عدد ٣/ ٨٧، ٤/ ٢٩.

١١-الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو- الجزء الأول.

١٢-الحكم بغير ما أنزل الله- الجزء الثاني: التوقف والتبيين.

١٣-الحوار الإسلامي النصراني ج١٠/ عدد ٥٥/ ٨.

١٤-رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي- الجزء الأول: مؤامرة الدويلات الطائفية.

١٥-رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي- الجزء الثاني: دور الشيوعيين والباطنيين.

١٦-رأي مواطن سوري في انتخابات الرئاسة ج/ ٣ عدد ١٨/ ٢.

١٧-رسالة مفتوحة إلى الجندي الجزائري.

١٨-السعودية على مفترق طرق.

١٩-السلفية بين الولاة والغلاة (حزب الغلاة) [٦١/ ٥٤].

٢٠-السودان بين الشيخ ومريديه (بين فيه أقوال ومواقف حسن الترابي).

٢١-العقيدة والدين في نظر صدام حسين ج١/ عدد ٦/ ٢٤.

٢٢-العلماء وأمانة الكلمة.

٢٣-في ذمة الله، نعي لمجموعة من العلماء الذين عرفهم الشيخ.

٢٤-القضية الفلسطينية تمر بأخطر منعطفاتها ج/ ٣ عدد ١٤/ ٦٤.

٢٥-قل هو من عند أنفسكم.

٢٦-القوات الأمريكية في الخليج ج١/ عدد ٦/ ١١٣-١٣٨م.

٢٧-كشف شبهات المتحالفين مع العلمانيين.

٢٨-المحنة اليمنية أسبابها ونتائجها ج٧ عدد ٤٠/ ٢ (يتحدث عن الوحدة اليمنية التي حصلت عام ٢٢/ ٥/ ١٩٩٠م).

٢٩-مراجعات سياسية (مؤامرة أمريكية صهيونية على السودان) [٦٢/ ٢-٣١].

٣٠-مراجعات سياسية عن الجزائر [٦٤/ ٢-١٨].

٣١-مراجعات سياسية عن مؤتمر مدريد [ج١٠-٥٦/ ٢٦] [٦٣/ ٦-٢٩].

٣٢-مساجد الضرار «كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟».

٣٣-المستعمرة الأردنية ج١٢ عدد ٧١/ ٢ (يتحدث عن تاريخ الأردن، ونشاط الموساد الإسرائيلي فيها، ومحاولة اغتيال بعض الشخصيات فيها سنة ١٤١٨هـ) .
٣٤-مصر والإرهاب.
٣٥-مع القراء (إجابة عن أسئلة ترد إلى مجلة «السنة»).
٣٦-المفسدون في الأرض، العدد ٢٦، ص٤٩، والعدد ٢٧ ص١٠٧، والعدد ٣٠، ص١٠٤.
٣٧-من غرائب حرب الخليج ج/ ٢ عدد ١١/ ٢.
٣٨-من مدرسة الحياة.
٣٩-منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله «شعيب عليه السلام».
٤٠-منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله «نوح وإبراهيم عليهما السلام».
٤١-منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله «موسى بين طغيان فرعون وخذلان بني إسرائيل» ج٧ عدد ٣٧/ ٧.
٤٢-مواقف الأسد والبطولات المزيفة ج١٠/ ٥٩/ ٢.
٤٣-هذا هو تاريخكم فانظروا ماذا تفعلون؟ ج٢ عدد ٩، ١٠/ ٢.
٤٤-هذه هي ديمقراطية العساكر ج٣ عدد ١٤/ ٤.
٤٥-هذه هي ديمقراطية العساكر ج٣ عدد ١٥/ ٢.
٤٦-هل انتهت عاصفة الصحراء؟ ج٧، عدد ٣٨/ ٩.
٤٧-هل عرفتم الآن حقيقة حكامكم؟ ج٢ عدد ١٢/ ٢، ج٣ عدد ١٣/ ٢.
٤٨-وجاء دور المجوس: أحوال أهل السنة في إيران.
٤٩-وجاء دور المجوس: الأبعاد السياسية والتاريخية للثورة الإيرانية.
٥٠-وجاء دور المجوس: أمل والمخيمات الفلسطينية.

٥١-الوحدة الإسلامية.

٥٢-وسقط جدار الظلم، عدد ٢/ ٢، وعدد ٣/ ٢.

٥٣-اليمن بعد الحرب ج٧ عدد ٤١/ ٩.

٥٤-هذه الانفجارات من يقف وراءها؟ العدد ١٣١ والعدد ١٣٢.

٥٥-ماذا وراءك يا خدام؟

٥٦-القوات الأمريكية في الخليج لماذا جاءت ومتى سترحل؟ ج١ العدد ٦/ ١١٣.

## الفصل الثاني

### ١ ـ كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ـ الجزء الأول»

ليس هناك طريقة أفضل وأقرب إلى الفطرة السليمة، وأسهل فهمًا وأشد تأثيرًا في العقول- عقول كل عصر- من طريق القرآن الكريم ومنهج الأنبياء في الدعوة إلى الله من خلال آياته.

فهذا هو الطريق الأمثل لدعوة الناس إلى دين الله- عز وجل- والاحتكام إلى شرعه الحنيف، فيجب على الدعاة وطلاب العلم الرجوع إليه واتباع منهج أنبياء الله الكرام من خلال التوجيهات الربانية في الكتاب الكريم، إذ البلاد والبيئة في معظم أحوالها في عصرنا موبوءة في أكثر الأحوال بالعقائد ذات الصلة بالشرك وعادات الجاهلية.

وليس ما يسميه الناس بعلم التوحيد والكلام الذي وضعوا فيه كتبًا طوالًا تكونت بها المكتبة العظيمة في علم الكلام، فلم تفِ بالمقصود وليس لها وقع في نفوس كثير من طلاب العلم، ولم تكن نافية للشك والريبة- أكثر من علم العقيدة الذي يتضمنه القرآن ويقرره في أسلوبه، السائغ الواضح الذي تقبله الفِطَر السليمة والعقول المستقيمة في كل عصر وجيل.

فيجب على الأساتذة والدعاة إلى الله أن يجعلوا القرآن أساسًا وقاعدة لشرح العقيدة الإسلامية، فمنه يستقون، وإليه يرجعون، فأسلوبه- القرآن- يقلد، ولا يستطيع أن يقوم لهذا العمل إلا أستاذ أو داعية قد تذوق القرآن وأصبح له شعارًا ودثارًا، وكانت له بهذا الكتاب صلة قوية عميقة لا تعتمد على الكتاب والدراسات وحدها، وليس صلة دارس للكتاب، بل صلة رجل يعيش بهذا الكتاب وفي هذا الكتاب(١).

(١) انظر: نحو التربية الإسلامية الحرة، لأبي الحسن الندوي، ص٩٠.

ومن أجل دراسة العقيدة على طريق القرآن الكريم ومنهج أنبياء الله- عليهم الصلاة والسلام- صَنَّف شيخنا- رعاه الله- في بيان منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، فبدأ بقصة نوح- عليه السلام- وكيف كانت دعوته واجتهاده في الدعوة إلى الله؛ حيث واصل ليله بنهاره في دعوة قومه؛ ليخلصهم من الشرك الذي وقعوا فيه، وبين شفقته على ولده، كل ذلك من خلال آيات الكتاب الكريم، وهو يقارن بين مظاهر الشرك التي كانت في عهد نوح- عليه السلام- ومظاهر الشرك التي ظهرت في عصرنا، كتعظيم القبور وتعظيم الصور.

ثم تحدث عن دعوة إبراهيم- عليه السلام- وهجرته من العراق إلى الشام إلى مصر ثم مكة المكرمة؛ حيث بنى البيت مع ولده إسماعيل، وقصة ماء زمزم، وتحدث عن صدق إبراهيم- عليه السلام- وإخلاصه في الدعوة إلى الله وتواضعه في دعوة والده وشفقته عليه، وهو في كل ذلك ينقل من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم يقارن أيضًا بين مظاهر الشرك التي حاربها إبراهيم وأنكر على فاعليها كعبادة الأصنام وكيف حطمها، يقارن الشيخ بين سيرة إبراهيم- عليه السلام- ومنهجه في الدعوة، وبين مظاهر الشرك والكفر والطغيان التي تحدث في عصرنا. إبراهيم- عليه السلام- أُلقي في النار؛ لأنه حطم الصنم، فما مصير من يمزق قطعة القماش التي يعظمها كثير ويقفون لها إجلالًا وتعظيمًا، هذه التي يدعونها العَلَم، إبراهيم دُعِي ليحاسب وحده وألقي فيها لتحطيمه الأصنام، لكن الذين يقعون تحت التعذيب في زماننا لا تقتصر العقوبة على من وقع منه الجرم في نظر الذين يعظمون الأصنام في عصرنا، إنما تطال العقوبة أهله وأقرباءه.

وبمناسبة الحديث عن كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» فقد قام الشيخ العلامة خالد محمد سيف- من علماء أهل الحديث في باكستان- بترجمة الكتاب إلى اللغة الأردية، وبعد أن ترجم الكتاب قال لي: والله إني لم أتمالك

نفسي عن البكاء من خلال ما قرأته في هذا الكتاب؛ خصوصًا فيما يتعلق بقصة إبراهيم- عليه السلام- وهجرته، وهذا دليل صدق الكاتب وإخلاصه.

ولكن يا أخي الكريم، إذا كنت تبينت أن أنبياء الله ورسله الكرام الذين يوحى إليهم- ومنهم الخليل، ومنهم الكليم- لم يسلموا من أذية أقوامهم، فكيف يسلم شيخنا من أذية المنافقين والمتربصين في عصرنا؟!

**ضجة مفتعلة**:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1] .

فلقد ذكر الشيخ في مقدمة كتاب «منهج الأنبياء- الجزء الأول» الأسباب التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب أو السلسلة من منهج الأنبياء، فقال:

«الثاني: نظرت في كتب العقيدة فرأيت أنها كتبت في غير عصرنا وكانت حلولًا لقضايا ومشكلات العصر الذي كتبت فيه- رغم أهميتها ورغم تشابه المشكلات أحيانًا- ولعصرنا مشكلاته التي تحتاج إلى حلول جديدة، ومن ثَمَّ فأسلوب كتب العقيدة فيه كثير من الجفاف؛ لأنه نصوص وأحكام، ولهذا أعرض معظم الشباب عنها وزهدوا بها» (ص٨).

هاهنا ظن المتربصون وأصحاب الأهواء والذين في قلوبهم مرض، ظن هؤلاء أنهم وجدوا ضالتهم لتحقيق رغبتهم في النيل من الشيخ محمد سرور صاحب الكتب والتصنيفات السياسية الشهيرة، أخذوا هذه الكلمة «فيه كثير من الجفاف» فطاروا بها فرحًا، فأقاموا المحاضرات، وعقدوا الندوات، وسجلوا الأشرطة والكاسيتات، وحرفوا في الكلام، وزادوا وحللوا واتصلوا ببعض كبار العلماء الذين يقدرون الشيخ ويجلونه، وقرأوا كتبه، وأثنوا عليها،

---

(١) النساء: ٨٣.

لتقوى صيحتهم على الشيخ.. ولكن هيهات، هؤلاء المتربصون فعلوا كل ما فعلوه للتنفير من كتب الشيخ، فوصفوه بالإلحاد، والأشعرية والصوفية.. فلا تقرأوا كتبه بل أحرقوها، كل هذا حصل في فترة حرب الخليج في التسعينيات من القرن الماضي، وهذه الدعوة إلى إحراق الكتب طالت شرح صحيح مسلم للنووي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني!! وكأن كلامي هذا ضرب من الخيال، أن تسمع من يدعو إلى إحراق كتب العلماء الجهابذة تحت ذريعة محاربة البدع!! ألم يقل فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[١].

وبشأن هذه الضجة المفتعلة حول كتاب منهج الأنبياء، كتب شيخنا موضوعًا في سلسلة الوحدة الإسلامية تحت عنوان «ردود وقولي في منهج الأنبياء»، فقال: «بعد صدور الطبعة الأولى من الجزء الأول من كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» قال لي أحد طلاب العلم: أنا أدرك جيدًا قصدك فيما ذكرته عن كتب العقيدة، وأخشى أن يأتي مغرض فيستغل قولك على غير ما أردت، ولهذا أرى أن تشير إلى هذه المسألة في الهامش، ووافقت الأخ على وجهة نظره، ووعدته أن أفعل. وزاد الطلب على الكتاب، فصدرت ست طبعات كلها مصورة، ولكنني لم أنس وجهة نظر الأخ، وجمعت ملحوظاتي لإصدار طبعة منقحة، وشاء الله أن تسبق هجمة هذا المفتري وأصحابه صدور الطبعة المنقحة»[٢].

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) مجلة «السنة»، العدد (٢٩)، ص٩٩-١٠٠.

## ٢ – كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله »

## الجزء الثاني – شعيب عليه السلام

- عدد صفحات الكتاب : ١٤٤.
- الطبعة الأولى : ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- طبع في مكتبة دار الأرقم – برمنجهام– بريطانيا.

**عرض مختصر لموضوعات الكتاب** :

هذا الجزء من كتاب «منهج الأنبياء» خصَّه الشيخ للكلام عن دعوة شعيب– عليه السلام– إلى تحريم الظلم، وتطفيف الكيل والميزان، والتحذير من بخس الناس أشياءهم. فهذه أهم المظاهر الاجتماعية السيئة التي فشت في قومه، والدعوة إلى وحدانية الله تعالى؛ فعرض في الكتاب صورًا من الظلم في القديم والحديث، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم، وذكر سيرة شعيب وكيف واجه قومه بانحرافاتهم، وبين مصارع الطغاة في كل ذلك.

وقد جعل الكتاب في أربعة فصول ومقدمة، وهي موجزة على النحو الآتي:

**الفصل الأول**: صور من الظلم في القديم والحديث، والأدلة على تحريم الظلم من الكتاب والسُّنة.

**والفصل الثاني**: في سيرة شعيب وبيان دعوته.

**والفصل الثالث**: تحدث فيه عن صراع شعيب– عليه السلام– مع الملأ من أهل مدين وكيف كان يخاطبهم.

**والفصل الرابع**: بيَّن فيه مصارع الطغاة، وهلاك الكافرين الظالمين من أهل مدين، ثم عرض أمثلة على ذلك في القديم والحديث، أي: عن هلاك الظالمين.

وفي أثناء ذلك تجد مباحث في فصول الكتاب تلفت الانتباه وتدفعك لقراءتها، فانظر على سبيل المثال في الفصل الثالث: صراع شعيب مع قومه، ولا

تبخسوا الناس أشياءهم، ردود مكررة، الصد عن سبيل الله، فصل الدين عن السياسة، التهديد بالنفي،.. وفي الفصل الرابع: مترفون معاصرون شهدت نهايتهم.

وفي بيان منهجه الذي اتبعه في هذه السلسلة من كتاب «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» قال الشيخ: «وقد ألزمت نفسي في هذه السلسلة «منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله» ألا أذكر حكمًا شرعيًا دعا إليه نبي من أنبياء الله ثم أربطه بواقع عصرنا إلا وأذكر ما يؤيده من الأحاديث النبوية الصحيحة، بل وفي كثير من الحالات أذكر أقوال كبار علماء السلف فيه» (ص٧).

## الفصل الثالث

## كتاب «دراسات في السيرة النبوية»

- عدد صفحات الكتاب: ٣٦٦ صفحة.
- طبع في مكتبة دار الأرقم- ببرمنجهام.
- الطبعة الخامسة عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

**عرض مختصر لموضوعات الكتاب**:

استعرض الشيخ في الفصل الثاني من الكتاب «**حال العالم اليوم**» ووضع النصارى، وذكر صورًا من الوثنية المعاصرة عن الهنادكة، والسيخ والبوذية، ووضع الشيوعية والأصول التي ينادون بها، وحال اليهود ومعتقداتهم ومعاملاتهم وسلوكياتهم، وعرض النواحي الاجتماعية والخلقية في عالمنا المعاصر من تجارة الرقيق الأبيض، والتمييز العنصري والانحراف الأخلاقي الذي تعاني منه المجتمعات الغربية وغيرها، وحالة الهيبيين والساديين، وانتشار اللواطة والشذوذ الجنسي، وانتشار المخدرات، فقال (ص٤٥):

وبعد، هذه معتقدات وأخلاق الذين يخفون عجزهم وعقدهم خلف بريق الأقمار الصناعية والأسلحة النووية، ويرون أن الآخرين من أمم الأرض ما خلقوا إلا ليكونوا عبيدًا وخدمًا لهم، ولم يعد مستغربًا في ظل هذه المدنية الزائفة أن يذهب المريض إلى عيادة طبية يشكو من مرض نفسي إثر صدمة من الصدمات التي تصيبهم، لا بل أصبحت الأمراض العقلية عندهم أكثر انتشارًا من الزكام عند تقلب الطقس، ثم قال وصدق من قال: لقد تعلم الإنسان كيف يطير في الهواء ولا يزال يجهل كيف يسير فوق الأرض.

وفي الفصل الثالث «**العالم الإسلامي اليوم**» عرض بشيء من الإيجاز أهم العقائد والمذاهب المنحرفة في بلدان العالم الإسلامي، ومنها الشيوعية، وماذا

فعلت في تركستان المسلمة، وما فعله الشيوعيون العراقيون في سنة ١٩٥٩ بحلفائهم القوميين العرب، وكيف اعتدوا على المساجد، ودنسوا القرآن الكريم، وهتكوا الأعراض، وما فعله الشيوعيون في السودان سنة ١٩٦٧م بأهل الجنوب، بعد أن سلمهم الإنجليز حكم البلاد، وما عمله الشيوعيون في سنة ١٩٦٩م عندما نجحوا في السيطرة على مقاليد الحكم بالتعاون مع جعفر النميري، وما صنعه العسكريون الشيوعيون في أفغانستان سنة ١٩٧٩م، واستعانتهم بالاتحاد السوفياتي لقمع المسلمين في أفغانستان.

ثم ذكر الحركات القومية، وأن النصارى أول من رفع لواء القومية العربية، وأسسوا لهذا الغرض الجمعيات الأدبية والعلمية في دمشق وبيروت والقاهرة وباريس، ثم أسسوا التنظيمات السرية التي فجرت الثورة العربية الكبرى، وكان الضابط الإنجليزي لورنس من أهم قادتها !! (ص٥١).

وتحدث عن قيام أحزاب وجمعيات في البلاد العربية يزعم قادتها أن القومية العربية دين وعقيدة وحضارة وتاريخ، وذكر ما قاله عمر الفاخوري: «لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم، يغارون عليها كما يغار المسلمون على القرآن الكريم، والمسيح والكاثوليك على إنجيل المسيح».

وذكر كلام ميشيل عفلق في كتابه (في سبيل البعث) وما يزعم عفلق: بأن الأمة العربية تفصح عن نفسها بأشكال متنوعة تارة في تشريع حمورابي، وتارة في الشعر الجاهلي، وتارة بدين محمد، وأخرى بعصر المأمون!!

وذكر كيف أصبحت هذه الأفكار الخبيثة أدبًا يدرس في الجامعات والمعاهد العلمية في البلاد العربية باسم أدب المهجر، أو الحنين إلى الأوطان، وما إلى ذلك من أباطيل وانحرافات. (ص٥١).

ثم أشار إلى نجاح حزب البعث الطائفي في استلام مقاليد الحكم في كل من العراق وسوريا تحت ستار القومية والوحدة، فهدموا المساجد، وطاردوا

الدعاة إلى الله، وأقاموا دويلات طائفية، لكنهم يسمون الأمور بغير مسمياتها الصحيحة، وكيف أبادوا أحياء كاملة في حماة وغيرها وكانت إذاعتهم تردد: «آمنت بالبعث ربًا لا شريك له، وبالعروبة دينًا ماله ثانٍ».

وكيف سلموا الجولان لليهود من غير قتال، وفشلوا في وحدة بعثية بين العراق وسوريا، رغم زعمهم أنهم دعاة إلى الوحدة العربية. (ص٥٢).

ثم قال في نهاية هذا المبحث عن الحركات القومية: فهل يستيقظ المغفلون من أبناء أمتنا من سبات نومهم العميق ؟!! (ص٥٢).

هل يفهم التائهون كيف بدأ خط الانحراف، وكيف كان دور اليهود والنصارى في المؤامرة ؟ نرجو ذلك. (ص٥٢).

ثم تحدث عن دور النصارى في تفتيت وحدة المسلمين وتذليل العقبات أمام الجيوش الفرنسية والإنجليزية الغازية.

وتحدث عن مؤامرات النصارى في بلاد المسلمين، فقد تم ضبط مؤامرة لهم في القدس وما حولها، وكان لهم جيش سري يبلغ عدد أفراده أكثر من عشرين ألفًا، وكانت أهداف القائمين على قيادة الجيش إقامة حكومة مسيحية تكون القدس عاصمة لها.

وتحدث أيضًا عن اكتشاف المخابرات المصرية سنة ١٩٨٢م عن خطة رسمها البابا شنودة ومساعدوه، تهدف إلى إقامة دولة قبطية في مصر خلال خمس عشرة سنة.

وتحدث عن الوثيقة المكتوبة بالفرنسية سنة ١٩٤٣م، وفيها الوصايا العشر للنصارى، وتم ترجمتها ونشرها عام ١٩٧٥م، وما جاء في هذه الوصايا نفذه النصارى بحذافيره من غير جعجعة ولا ضجيج، ونجحوا في السيطرة على جميع المؤسسات والمرافق المسلمة في لبنان، وأصبح المسلمون غرباء في بلدهم. (ص٥٤).

وتحدث عن دور اليهود في احتلالهم لفلسطين سنة ١٩٤٨م وطردهم لأهلها، وكيف أن اليهود فشلوا في دفع السلطان عبد الحميد للحصول على جزء صغير من أرض فلسطين.

لكنهم في ظل الأنظمة الثورية الاشتراكية القومية أقاموا دولتهم، وفي سنة ١٩٦٧م تمكنوا من احتلال سيناء والضفة الغربية والجولان.

ثم تحدث عن احتلال اليهود لجنوب لبنان سنة ١٩٨٢م بالتنسيق مع النصارى، وبعد معارك عنيفة بين اليهود والمسلمين السُّنة من اللبنانيين والفلسطينيين، اضطر المقاتلون الفلسطينيون إلى مغادرة لبنان بعد أن تخلت عنهم القوات الثورية الباطنية منها واليسارية.

وتحدث عن فرق الباطنية؛ ومنها القاديانية والحاكمية أو الدروز والنصيرية. وهذه الفرق تعتقد بتناسخ الأرواح، ثم تحدث عن غلاة الشيعة وعقائدهم وعن غلاة الصوفية.

ومن مشكلات العالم الإسلامي التي تحدث عنها في هذا الفصل أيضًا عبادة الفرد من دون الله، ففي العالم الإسلامي اليوم شعوب وأقوام يعبدون زعماءهم كما يعبد فرعون والنمرود وغيرهما من الطغاة، وذكر أمثلة لذلك منها:

سلمان المرشد الذي استماله الفرنسيون أيام استعمارهم لسوريا؛ حيث ادعى الألوهية، وذلك في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي.

ويؤمن الإسماعيلية النزاريون بألوهية آغا خان زعيم الطائفة، ويسجدون له، ولا يعصون له أمرًا.

ومن الذين فتن بهم الناس في البلاد العربية في المرحلة المذكورة جمال عبد الناصر، وظنوا أنه حيٌّ لا يموت، وبعضهم وضعه في مصافِّ الأنبياء، حتى قال الشاعر سليمان العيسى النصيري فيه: ويطهر الدنيا نبي أسمر. وخرجت

بعض المظاهرات في بيروت سنة ١٩٧٠م تأييدًا لعبد الناصر الذي قَبِل بمبادرة روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت بعض الرايات التي رفعوها في تلك المظاهرات مكتوبًا عليها (وما ينطق عن الهوى). (ص٦١).

كما استعرض الشيخ في هذا الفصل الأحوال الاجتماعية والخلقية:

فذكر ما تعانيه المجتمعات الإسلامية من انتشار الرذائل والمفاسد، ومنها انتشار دور البغاء والفجور والدعارة، والمدارس التي تعلم الإجرام وقضايا الجنس والتي تسمى بالمسارح ودور السينما ومعاهد الفنون والموسيقى، والمخازن والمحلات العامة التي تبيع الخمور، ومزارع الحشيش التي يتولاها مؤسسات وشخصيات مختصة بتهريب المخدرات وبيعها، وعلى رأس هذه الأوكار عِلْية القوم وأصحاب النفوذ في بعض البلاد، وكيف اسْتُغلّت المرأة وأصبحت سلعة رخيصة يتاجرون بعرضها وشرفها، إذ هي تُدعى لإقامة الحفلات الراقصة.

ثم قال الشيخ: وفي ظل هذه الأجواء المحمومة تفشت الرشوة، وبدأت حوادث العراة، وانتشرت موجات الهيبيين، وكثر الحديث عن الجنس الثالث، وزادت نسبة الجرائم، وشعر الناس بفقدان الأمن والاستقرار. (ص٦٣).

ثم يتساءل الشيخ بعد هذا: كيف يستغرب بعض الناس القول بأن عبادة الأصنام عادت من جديد في هذا العصر!! فالصنم كل ما عُبِد من دون الله، والعبادة تعني: الذل والخضوع والانقياد. وكل من رضي أن ينقاد له الناس في كل ما يأمر به وينهى عنه- خيرًا أو شرًّا- كان طاغوتًا، فقد يكون شخصًا أو حزبًا أو فكرة أو قومًا أو أرضًا أو امرأة.

وفي نهاية الفصل الثالث (**العالم الإسلامي اليوم**) وتحت عنوان «من المنقذ؟» (ص٦٤) تحدث الشيخ باختصار عن الدول التي تتطلع للقيام بدور

المنقذ للعالم وتزعمه، فذكر الولايات المتحدة الأمريكية التي تتزعم الدول الغربية التي تدين شعوبها بالنصرانية، وذكر أن شعوب هذه الدول صارت تكفر بالكنيسة، وعبدوا صنمًا آخر هو المادة، وكفروا بكل القيم والتصورات، وأقبلوا على الملذات والشهوات، وانتشرت الأمراض، وشاعت الفواحش، ثم ارتفعت صيحات الزعماء والمفكرين تنذر بالخطر وتؤكد إفلاس الحضارة الغربية. (ص٦٥).

كما حاول الاتحاد السوفياتي تطبيق الشيوعية، وكانت ضحية هذه المحاولات سفك دماء أكثر من عشرين مليون إنسان، ولكنهم فشلوا في كل شيء ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

**والنتيجة**: الإسلام هو المنقذ، فقال: لقد شهدنا- والحمد لله- فشل هؤلاء الزعماء الذين سرقوا ثمرات الجهاد من أصحابها، وشهدنا فشل وهلاك طغاة آخرين عبدهم الناس من دون الله، وشهدنا فشل الأحزاب العربية التي كانت تدعو إلى القومية والعلمانية والاشتراكية، وكفر الناس في عالمنا الإسلامي بجميع القيم والمبادئ المستوردة، وتطلعوا إلى الإسلام لينقذهم مما يعانون، فليس الإسلام تجربة، إنه دين الفطرة التي فُطِر الناس عليها. (ص٦٩).

وفي **الباب الثاني** من الكتاب: تكلم عن منهج خير القرون في كتابة السيرة النبوية، وذلك في ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: عن تدوين السيرة ومتى بدأت كتابة السيرة النبوية؛ فقد وردت بعض الأحاديث تنهى عن كتابة الحديث، وبعضها يبيح الكتابة.

وتكلم عن التدوين الرسمي في عهد عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- وتكلم عن أعلام رجال الطبقة الأولى وهم: أبان بن عثمان وعروة بن الزبير ووهب بن منبه ومحمد بن شهاب الزهري وعبد الله بن أبي بكر بن حزم. وتكلم

---

(١) إبراهيم: ٢٦.

عن محمد بن إسحاق ونبذة عن حياته، وتكلـم عـن توثيقـه وتجريحـه، وتحـدث أيضًا عن تدوين السيرة بعد ابن إسحاق وعن سيرة ابن هشام. (٧٣-٩٠).

و**الفصل الثاني** عن الجرح والتعديل ومعرفة من تقبل روايتـه، وعـن كتـب الجرح والتعديل المؤلفة في هذا الفن، وعن كتب الـضعفاء، والكتـب الجامعـة بين الثقات والضعفاء، وكتب الموضوعات، وكتب الطبقات. (ص٩٩).

وفي **الفصل الثالث** من هذا الباب ذكر الشبهات التي أثارهـا أعـداء الـسنة من المستشرقين وغـيرهم، وأجـاب عنهـا إجابـات علميـة بـالحجج والأدلـة والبراهين لا تدع مجالًا لمستريب أو شاكٍّ:

**الشبهة الأولى**: قولهم إن تدوين السيرة بدأ في القرن الثالث من الهجرة، أي بعد وفاة الذين عاصروها من الصحابة، فردّ على هذه الشبهة من وجوه:

١- إن التدوين الرسمي للسيرة بدأ في عهد عمر بن عبد العزيـز، أي بعـد وفاة الرسول ﷺ بتسعين سنة. وهذا لا يعنـي أنـه لم يكـن هنـاك تـدوين غـير رسمي، كالـصحيفة الـصادقة لعبـدالله بـن عمـرو بـن العـاص، والـصحيفة الصحيحة لأبي هريرة، وصحيفة سـعد بـن عبـادة الأنـصاري، وصـحيفة أبي موسى الأشعري، وصحيفة جابر بن عبد الله.

٢- إن الذين حفظوا أقوال النبي ﷺ من الصحابة أدوهـا إلى مـن بعـدهم من التابعين وضبطوها، ثم ذكـر عـددًا مـن أسـماء الـصحابة الـذين تـأخرت وفاتهم.

٣- لم يكن معظـم الـصحابة والتـابعين يكتبـون الحـديث، لكـنهم كـانوا يملكون ذاكرة نادرة في الحفظ، وقوة الحفظ امتاز بها العـرب، كـانوا يحفظـون آلاف القـصائد والخطـب والقـصص، وكـان المحـدثون يحفظـون آلافًـا مـن الأحاديث النبوية. (ص١٠٣).

**الشبهة الثانية**: دعوى المستشرقين ومن نحا نحوهم أن علماء السنة اهتمـوا

بنقد سند الرواية، وأهملوا نقد متنها، وردّ عليهم من الوجوه التالية:

١- تجد في كتب الحديث العبارات التالية: الشذوذ، الإعلال، اضطراب الحديث، وذكر معناها. وهذا يعني أن العلماء اهتموا بنقد متن الحديث كنقدهم للأسانيد.

٢- من أهم علامات الوضع في المتن: ركاكة اللفظ، وفساد المعنى، وما كان مخالفًا لصريح القرآن، وما كان مخالفًا لحقائق التاريخ المدونة في عصر النبي ﷺ.

٣- إن الخلاف بين علماء السنة والمستشرقين ليس في معرفة الصحيح من الموضوع، بل إن المستشرقين ينكرون النبوة ابتداء، واعتمادهم على العقل في الأمور الشرعية دون الاعتماد على النقل. (ص١٠٦).

**الشبهة الثالثة**: يرى كثير من الكُتَّاب الإسلاميين المحدثين أن كل ما حوته سيرة ابن هشام صحيح، دون أن يقدموا أدلة علمية على ذلك، وفي المقابل هناك كُتَّاب آخرون يرون أنه لا يصح الاعتماد على كتب المغازي والسير البتة، وردّ الشيخ على هذه الشبهة بأنه يجب الاعتماد في كتابة السيرة النبوية على القرآن الكريم وسنة المعصوم- عليه الصلاة والسلام. وأما كتب المغازي والسير فمن أشهر كتابها: محمد بن إسحاق ومحمد بن جرير الطبري ومحمد بن سعد، وهم محدِّثون أولًا ومؤرخون ثانيًا، وقد وثق علماء الجرح والتعديل محمد بن إسحاق.

وختم هذا الفصل بكلمة قيمة للمؤرخ العلامة شبلي النعماني صاحب الكتب القيمة في السيرة والتاريخ، والذي رد على جورجي زيدان وأمثاله من المستشرقين المشككين في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وذكر أيضًا نبذًا من أقوال بعض المستشرقين الذين شهدوا بصحة المنهج الإسلامي في كتابة السيرة النبوية. (ص١١٠ تحت عنوان: والفضل ما شهدت به الأعداء).

والقسم الثاني من الكتاب: عن السيرة النبوية في كتابات أصحاب المناهج المنحرفة:

وجعله في ثلاثة أبواب: الباب الأول عن المستشرقين وأهدافهم وغاياتهم، ثم دراسة لكتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية»، ثم دراسة لكتاب «الدعوة إلى الإسلام»، ثم بين تناقضات المستشرقين، وذكر ردودًا حاسمة عليهم. (ص١٢٧-١٣٨).

ففي بيانه لأهداف المستشرقين وغاياتهم، وضَّح كيف ناصب اليهود والنصارى العداء للدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، وماذا كان مصيرهم في خيبر واليرموك والقدس ودمشق ومصر، وكيف كان كيد الصليبيين في الحروب الصليبية، وفي الأندلس.

ثم بين كيف لجأ الصليبيون إلى أسلوب آخر في المكر والخبث أخطر من القتال والمواجهة باسم (البحث العلمي وحرية النقد) وعقدوا المؤتمرات، ونجحوا في تجنيد أعداء من المستشرقين والمبشرين وزرعهم في بلدان العالم الإسلامي لبقائه ممزقًا ضعيفًا.

وذكر عددًا من كتب المستشرقين المشهورة ومنها: موسوعة دراسة التاريخ لأرنولد توينبي، وموسوعة دائرة المعارف الإسلامية، وتاريخ العرب لفيليب حتى، وغيرها.. وكذلك ذكر عددًا من المجلات التي يصدرها المستشرقون، وأن حقيقة هذه المجلات متخصصة في حرب الإسلام والمسلمين وتلفيق الكذب ضدهم.

وعند دراسته لكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية نبه الشيخ- حفظه الله- على خطورة هذا الكتاب. ومن الملاحظات التي ذكرها عليه:

كيف نال المؤلف كارل بروكلمان من الشخصية العربية، بأن قدَّس العرب القدماء ضروبًا من الحجارة. (ص١٢٨).

وعند حديث بروكلمان عن شخصية الرسول ﷺ يقول: كان مولعًا في حديثه المجازي بالصور والاستعارات المجازية. (ص٢٩).

وذكر كلامًا عن الإسراء، وعن القرآن الكريم، وافتراءً على الصحابة.

وبعد أن رد الشيخ- حفظه الله- على كل ضلالات بروكلمان وأكاذيبه وفَنَّدَها، قال ملخِّصًا القول عن الكتاب: اكتفينا بهذه الأمثلة عن كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، ولم نتعرض لما كتبه عن الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم؛ لأن الدراسة قاصرة على السيرة النبوية، وتبين أن المؤلف صليبي حاقد على الإسلام والمسلمين، وقد تجاوز كل حد في شططه عن الحق وإعراضه عن الصواب وبعده عن الموضوعية، ولم يترك مركبًا للدس والتضليل إلا امتطاه.

ولا أدري كيف تم اختياره عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وماذا كان موقف الدعاة الطيبين في هذا المجمع من وجود عدو لدود للعربية والإسلام.

ولا أدري كيف يُشْرِقُ كتابه ويُغْرِبُ في بلدان العالم الإسلامي ولا نجد من يمنعه احترامًا لمشاعر المسلمين، وبعد ذلك كله نجد بعض الكتاب المهتمين بالقضايا الإسلامية يزكون كتابات بروكلمان !! (ص١٣٨).

وعند دراسته لكتاب الدعوة إلى الإسلام لأرنولد، الكاتب الإنجليزي، وضح الشيخ- حفظه الله- أن هذا الكتاب كان موضع إعجاب كبار الدعاة إلى الله وأساتذة الجامعات لأسلوب الكاتب، وتكلم في بداية الكتاب عن عدل الإسلام وسماحة الإسلام وصدق حَمَلَتِهِ ونبل أهدافهم، لكن الشيخ- نفعنا الله بعلمه- لم تَنْطَلِ عليه مثل هذه الأساليب ولا الكلام المعسول الذي هو دأب المستشرقين الذين يدسون السم في الدسم، فدرس الكتاب دراسة واعية يظهر ذلك من خلال نقله لأقوال أرنولد من صفحات كتابه.

ثم ذكر النتائج التي انتهى إليها أرنولد في كتابه وهي:

- لم يضع كتابه لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية، وإنما وضعه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم.

- ظن المسيحيون أن الإسلام حركة إصلاحية مسيحية ضد النظام الكنسي، ولهذا أعلنوا إسلامهم.

- هناك تشابه بين أحكام الدين الإسلامي ورسائل القديس يوحنا الدمشقي، وهذا يعني أن محمدًا أخذ عن النصارى معظم أصول دينه!!

- سيوف المسلمين هي التي زعزعت عقيدة المسيحيين وأرغمتهم على التحول إلى الإسلام.

- أنكر بعثة المصطفى ﷺ، وأنكر أن يكون القرآن كلام الله- سبحانه وتعالى.

- زعم أن محمدًا ﷺ هو الذي أمر المسلمين أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس في الصلاة من أجل استمالة اليهود.

ثم قال الشيخ بعد هذه القراءة المتمعنة للكتاب: إذن فالنتائج والأحكام التي انتهى إليها أرنولد لا تختلف عن النتائج التي انتهى إليها الحاقدون على الإسلام والمسلمين من المستشرقين. والخلاف بين أرنولد وغيره كان في أسلوبه الذي يمتاز بحسن العبارة، وتجنب الشتم والتجريح، وعدم الاصطدام مع مشاعر القراء المسلمين، والإشادة بالإسلام والمسلمين في أمور لا علاقة لها بالنتائج التي انتهى إليها. فالمؤلف كان ذكيًا بارعًا في الأسلوب ماكرًا في طريقته، وذلك لأن الكتاب نال إعجاب الدعاة إلى الله، ودعوا الشباب إلى الاطلاع عليه واقتنائه في وقت يحذرون من مؤلفات المستشرقين أمثال جولد تسهير ودمنغام ودنلوب وبراون وغيرهم.

وكان من الواجب على الدعاة الذين نصحوا بقراءة الكتاب أن يحذِّروا من

الدسائس والأباطيل التي وردت.

وفي ختام حديثه عن الكتاب قال: ما الذي يمنع أن يكون أسلوب هذا المستشرق من قبيل توزيع الأدوار بين المستشرقين؟ فهذا عدو لدود يكتب لبني قومه، ليصدهم عن سبيل الله، وذاك معتدل متجرد يكتب لطلابه من دعاة التغريب، والثالث كأرنولد يزعم أنه صديق للعرب والمسلمين. (ص١٤٧).

وعند بيانه لتناقضات المستشرقين في الفصل الرابع من القسم الثاني لخص فيه منهج المستشرقين في أنهم:

ليس في منهجهم فيما كتبوه عن سيرة النبي ﷺ شيء اسمه النقد، كما أن معظمهم من الحاقدين على النبي ﷺ، المعلنين عداوتهم للمسلمين، ينكرون الروايات والأخبار الغيبية كنزول الوحي والقرآن الكريم والإسراء والمعراج وشق الصدر، وذكر شيئًا عن خرافات النصارى، مع أن معظم المستشرقين يدينون بالنصرانية، فأين هم من التحقيق والموضوعية والتجرد والعقل؟

وفي هذا الفصل ذكر الشيخ- حفظه الله- مبحثًا مهمًا، بل هو في غاية الأهمية، وقد غفل عنه كثير من الدعاة، وهو دور المخابرات الغربية في بلدان العالم الإسلامي، وأن المستعمرين بعد جلائهم عن بلدان العالم الإسلامي أسندت الولايات المتحدة وحليفاتها من الدول الغربية إلى المستشرقين مهمات وهي:

العمل كأساتذة وإداريين في جامعات مشهورة يقصدها الطلبة من جميع بلدان العالم.

العمل كخبراء ومستشارين وباحثين في الشركات التجارية والبعثات العسكرية والعلمية والأمنية والدبلوماسية في العالم الإسلامي، وتتيح لهم هذه الوظائف إقامة علاقات وطيدة مع زعماء الطوائف والأقليات وقادة الأحزاب الجاهلية وكبار أصحاب رؤوس الأموال، ومن ثم معرفتهم لأدق المعلومات

عن بلادنا. ولم يعد سرًّا معرفة أعدائنا وإحاطتهم بأدق أسرارنا العسكرية والأمنية والاقتصادية، وعلاقتهم المشبوهة مع زعماء الطوائف، وقدرتهم على تحريكها في أي وقت يريدون.

وعند حديثه عن المهمة الأولى: «عمل المستشرقين كأساتذة في جامعات مشهورة»، ذكر أن بعض هذه الجامعات أصبحت وكأنها وَقْفٌ على أبناء كبار الأغنياء ورجال الأعمال وأبناء عِلْية القوم في دول العالم الثالث، والأبحاث التي يكلف بها الطلبة لا تكاد تتجاوز الموضوعات التالية:

المشكلات الطائفية والقومية، الصحوة الإسلامية، الثروات الاقتصادية، العادات والتقاليد، تحرير المرأة، الصراع بين القديم والحديث، الحركات الدينية المتطرفة.

ولو حاول طالب أن يقدم دراسة عن دور اليهود في اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، أو حاول نقد منهج المستشرقين، لرُفض بحثه، أو عاد إلى بلده بدون شهادة. (ص١٥٧).

وذكر الشيخ القصة التالية: زارني في شهر رمضان المبارك من عام ١٤٠٤هـ طالب وأخبرني أنه يدرس في إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية التي كثر فيها المستشرقون، واتفق مع أستاذه على أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه (الصحوة الإسلامية) في بلد هذا الطالب العربي. مع أن عدد المواطنين الذين يحملون جنسية بلد هذا الطالب لا يعادل ١/ ٢٠ من سكان مدينة لندن أو نيويورك، إنه زارني ليسألني بعض الأسئلة ويسمع ما عندي من ملحوظات حول موضوع رسالته.

قلت له (الشيخ): اقرأ عليَّ ما لديك من أسئلة، ففعل، فوجدت نفسي أمام رجل يريد أن يقدم معلومات لجهاز من أجهزة المخابرات وليس لجامعة من الجامعات!!

قلت له: هل تسمح لي أن أسألك بعض الأسئلة ومن حقي هذا لأني لا أعرفك، فوافق، وأجابني وفهمت من أجوبته أنه باطني ويكره سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وفهمت من عباراته أنه يكره الجماعات الإسلامية، وفهمت فيما بعد أنه يساري.

قلت: ألا تعلم أن كبار أساتذة الجامعات على علاقة بالمخابرات الأمريكية وفي طليعتهم هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق وغيره من اليهود، وأن المخابرات وراء هذه الموضوعات؟

قال: على كل حال موضوع رسالتي ليس سرًّا من الأسرار، والمخابرات الأمريكية تعرف ما لا أعرفه عن بلدي.

قلت: لكنك تسأل عن قادة الجماعات الإسلامية وما بينهم من خلافات، فماذا تريد جامعة كبرى من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية بمثل هذه الأسماء المتواضعة؟

قال: وهذا ليس سرًّا من الأسرار.

قلت: لماذا اخترت أهل السنة وحدهم وتجاهلت غيرهم؟

فلف ودار وراوغ، وهنا أجبته بما لا يسره وأخبرني- إن كان صادقًا- أنه وجد بغيته عند غيري، وأحسب أن صاحبنا نال الدكتوراه في تقرير قدمه للأمريكان عن الجماعات الإسلامية.

وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة تبين لنا نشاط الجامعات الغربية ودور المستشرقين المشبوه في هذه الأوكار. باختصار. (ص١٥٨).

وفي **الفصل الخامس** «ردود حاسمة»: رد على شبهات المستشرقين حول الرسالة والرسول ﷺ، بيّن فيها جوانب مهمة من حياة الرسول قبل البعثة، وتكلم عن أمانة الرسول ﷺ وصدقه وكونه أميًّا ومتى كانت بعثته، وردّ أيضًا على شبهاتهم حول القرآن الكريم، وردّ على فِرْيتهم على أنه أخذ القرآن عن

اليهود والنصارى، وذكر أقوالًا من كتبهم المحرفة (العهد القديم والعهد الجديد) تبين كذبهم.

وفي نهاية هذا الفصل تحت عنوان «أهل مكة أدرى بشعابها » (ص١٧١): ذكر من أقوال الدكتور مصطفى السباعي أيام دراسته في الأزهر على يد أساتذة تأثروا بأقوال المستشرقين، وبين أيضًا ما في كتابات أحمد أمين من الخبث والدهاء وخلط الغث بالسمين. وحذر الشيخ في آخر هذا الفصل من الاعتماد على كتابات المستشرقين؛ لأنها إما تعتمد على أناس درسوا مناهج الصوفية الحلولية أو المعتزلة فتأثروا، وآخرون مزجوا بين الإسلام وعادات الغربيين وتقاليدهم، وصنف ثالث منهم من أسلم خلال وجوده في بلاد المسلمين لغاية في أنفسهم ثم ارتدوا عندما رجعوا إلى بلادهم.

وأما **الباب الثاني من القسم الثاني** فقد جعله في فصلين: تحدث في الفصل الأول عن دعاة التغريب النصارى، وهم قسمان:

**قسم** ولدوا من أسر وعائلات مسلمة ودرسوا في مدارس ومعاهد إسلامية، منهم طه حسين.

**والقسم الآخر**: من النصارى العرب، ولا يختلف هؤلاء عن أساتذتهم المستشرقين والمبشرين، فدينهم واحد، وأسماؤهم متشابهة، وغاياتهم واحدة.

وبين أن من أهم أهداف دعاة التغريب الدعوة إلى العامية وترك لغة القرآن التي تجمع بين المسلمين: عربهم وعجمهم (اللغة العربية الفصحى).

واختار الشيخ في هذا الفصل ثلاثة نماذج من مؤلفات دعاة التغريب من النصارى العرب في سيرة النبي ﷺ:

**الأول**: كتاب «دروس قرآنية» للخوري يوسف الحداد، واكتفى بعرض فقرات قليلة من هذا الكتاب؛ لأن كتاب الخوري إنما هو جمع لأكاذيب واتهامات أساتذته من المبشرين والمستشرقين. (ص١٨٦).

**الثاني**: كتاب «محمد الرسالة والرسول» للدكتور نظمي لوقا، وهو من أقباط مصر، ونقل الشيخ من أقوال لوقا في كتابه ما يبين زيفه وعواره، وإن استعمل كلامًا عذبًا، لكنه عمد إلى وضع السم في الدسم، فالكتاب أهداه إلى روح غاندي الهندوسي، وابن عربي الصوفي، وأثنى فيه على أخناتون.

وفي القسم الأخير من كتاب لوقا، يتظاهر بدفاعه عن الإسلام، فيزعم أن قوامة الرجل على المرأة لها سببان: أولهما: النفقة، وثانيهما: العلم.

وإذا كانت المرأة متعلمة وهي تنفق على زوجها تصبح القوامة لها، فمن أين جاء بهذه الفتوى؟

ثم خلص إلى أن لوقا لم يكن صادقًا فيما زعمه من حياد، بل لم يكن صادقًا فيما ادعاه من محبة الرسول ﷺ، وليس في كتابه موضوعية ولا علم. (ص١٩٢).

**الثالث (المبحث الخامس):**

تحدث فيه عن جورجي زيدان بتفصيل أكثر من السابقين؛ لأنه من أكثر الصليبيين الذين عملوا على تشويه التاريخ الإسلامي، ولأن كتبه لاقت رواجًا بين الشباب الذين لا يعرفون تاريخ أمتهم وسيرة نبيهم ﷺ.

فتكلم نبذة مختصرة عن حياة جورجي زيدان، وصلته بالإنجليز، والمهمات التي أرسلوه فيها، وإنشائه لمجلة «الهلال» سنة ١٨٩١ م التي أصبحت مدرسة لها معالمها الخاصة بها، وعن الكتب التي صنفها، والروايات التاريخية التي كتبها، وعن صلاته بالمستشرقين. (ص١٩٤).

ثم ذكر الشيخ انتقادات هامة لما كتبه جورجي زيدان، بيَّن فيها موقفه من البعثة النبوية.

فوضح المغالطات التي أبداها جورجي زيدان عن العصر الجاهلي وتشكيكه بالسنة النبوية.

وبين موقفه من الفتوحات الإسلامية، وطعنه في أعلام خير القرون من الصحابة والتابعين، ناقلًا أقوال هذا الصليبي الحاقد من أشهر كتبه وهي:

١ – تاريخ التمدن الإسلامي.

٢ – العرب قبل الإسلام.

٣ – تاريخ أدب اللغة العربية.

وحينما نقل من قوله ليفنده فإنه يدلل عليها بالأرقام والصفحات. (انظر ص١٩٧-٢٠٩).

وأما الكلام عن طه حسين فقد أفرد له فصلًا مستقلًا في هذا الباب وجعله في ستة مباحث:

هل تاب قبل موته؟ أضواء على نفسيته،...

وعدّ كتبه: الشعر الجاهلي، على هامش السيرة، الشيخان، الفتنة الكبرى.

وبعد أن نقل عن طه حسين ما قاله سكرتيره الدكتور محمد الدسوقي والذي يفيد بأن طه حسين لم يتراجع عن رأيه في الشعر الجاهلي وعن تصدي كبار علماء الأزهر له، لما صدر عنه من كفر وزندقة وطعن في دين الإسلام.

قال الشيخ- حفظه الله :

لا نعتقد أن الذين زعموا أن طه حسين قد تراجع عن آرائه، يملكون دليلًا واحدًا يردُّون به على سكرتير طه حسين الذي رافقه في العقد الأخير من عمره.

ثم قال الشيخ- حفظه الله: لا نعرف عن طه حسين إلا عداوته للإسلام والمسلمين وتقليده الفج لأساتذته المستشرقين، لقد كان علمًا من أعلام الكفر والإلحاد ورمزًا من رموز الشر والضلالة، وعميلًا من عملاء الغرب، وداعية من دعاة التبرج والاختلاط والفساد. (ص٢١٣).

وعن نفسية طه حسين، وماذا يقول عن أمه وأبيه وإخوانه وشيوخه في الأزهر، وما يقول عن نفسه وذلك من خلال دراسة الشيخ لكتاب طه حسين (الأيام) تبين له أنه صاحب عقل مضطرب متناقض، وكان يكذب على أهله، وكان سيئ الرأي، وخاصة في أهله والطلبة وشيوخه في الأزهر. (ص٢١٩).

وعن كتابه «الشعر الجاهلي» نقل الشيخ مقتطفات من أقوال طه حسين تدل على كفره وزندقته، ووضح موقف علماء الأزهر في حينه؛ حيث كلفت لجنة من العلماء بدراسة الكتاب، فكان حكم الجميع عليه بالكفر الصريح الذي لا تأويل فيه ولا تجوُّز، وذلك بعض ما أورده الشيخ محمد سرور من مقالة الشيخ عبد ربه مفتاح التي نشرتها صحيفة «الكوكب» وبعد هذا الموقف الجريء من علماء مصر وقضاتها وأزهرها لجأت الحكومة إلى إتلاف الكتاب ومنعه.

ثم عاد طه حسين بتأليف كتاب جديد أسماه «في الأدب الجاهلي» وهو الكتاب القديم نفسه مع تعديلات فيه، حذف منه الفصل الأول، وهو أكثر الأبواب إثارة، ومن تمحيص الشيخ محمد سرور ودقته عند دراسته لكتاب طه حسين المذكور ذكر أن الدكتور محمد البهي عقد بحثًا قيمًا في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» قارن فيه بين كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين وكتاب «المذهب المحمدي» للمستشرق جب، وانتهى من مقارنته إلى أن الأهداف والنتائج واحدة عند الكاتبين. (ص٢٢٥-٢٢٦).

ثم درس الشيخ كتاب طه حسين «على هامش السيرة» وبيّن كيف ينظر طه حسين للسيرة على أنها خرافات وأساطير كما هي أساطير اليونان وغيرهم، فهو متأثر بالمستشرقين أمثال جيرورد وبلوث وموليير.

وبعد دراسته المتأنية لهذا الكتاب ونقله من أقوال طه حسين بالأرقام والصفحات من إكثاره عن الأساطير والخرافات وحديثه عن الشياطين، بين

الشيخ أن طه حسين أراد أن يثبت في أذهان الناس أن النبوة اعتقاد كان معروفًا في مكة، وكل فتى في قريش يتطلع ويسعى ليكون صاحب هذا الفضل. (ص٢٣٤).

وبعد بيان الشيخ لتحريف طه حسين وضلاله ذكر عدة ملاحظات منها:

في كتاب طه حسين «الشعر الجاهلي» بالغ في المنهج العقلي المادي، فاعتبر قصة إبراهيم وإسماعيل من الأساطير، وفي كتاب «على هامش السيرة» بالغ في المذهب العاطفي الخيالي.

قد يقول بعض تلامذة طه حسين: إن صياغة الأسطورة لا تعني أن الكاتب أصبح كذابًا.

فنقول: لماذا لم يكتب طه حسين أسطورة عن المستشرقين وجامعاتهم ومناهجهم أو عن الفرعونية وآثارها؟

أساء طه حسين للسيرة عندما سمى كتابه «على هامش السيرة» فأين هذا من السيرة وعلومها؟ (ص٢٢٨).

وفي **المبحث الخامس** عن دراسته لكتاب طه حسين «الشيخان»:

تساءل الشيخ: ماذا أراد طه حسين من وراء تأليف كتاب عن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما.

هل هو يحبهما ؟ أم له أهداف أخرى؟ وكيف يجمع بين حبه لهما وجحوده بالقرآن الكريم.

وبعد أن نقل مقاطع من كتابه وضح الشيخ شكوك طه حسين ونواياه السيئة تجاه التاريخ الإسلامي، وذكر نماذج من أباطيله، ورد على افتراءاته، وبين ولوغه في أعراض الصحابة- رضي الله عنهم.

**ثم خلص إلى القول:** لم يتحدث طه حسين في كتابه عن سيرة أبي بكر وعمر، وإنما اتخذ من ثنائه عليهما ستارًا لتحقيق أهداف منحرفة من أهمها:

- التشكيك في الأحاديث وفي منهج أهل السنة والجماعة في تحقيق الروايات.

- مهاجمته الفتوحات الإسلامية من خلال اتهام بعض القادة بالقسوة. انظر (ص٢٣٩-٢٤٧).

وفي **المبحث السادس**: عرض لدراسة كتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين، ثم ذكر نماذج منه ومن كتابيه الآخرين «الوعد الحق» و«مرآة الإسلام»، وبين كيف نال من الخلافة ونظام الحكم في الإسلام، وكيف أطلق لسانه في أصحاب رسول الله شتمًا وتجريحًا يكاد لا يستثني من ذلك أحدًا منهم، فينقل الشيخ من أقوال طه حسين في عمر- رضي الله عنه- وفي طلحة بن عبيد الله وفي الزبير وفي عائشة أم المؤمنين وعثمان وعمرو بن العاص وعمار بن ياسر، كل ذلك يدلل عليه من كتب طه حسين بالأرقام والصفحات، وبين كيف كان دفاع طه حسين عن الملاحدة، وكيف ردد مقولة الرافضة بأن ابن سبأ شخصية خيالية وهمية، وكيف دافع عن الحلاج الذي قتل كافرًا، وكيف دافع عن القرامطة والزنج ودعاة الحلول. (ص٢٦١).

**والباب الثالث من القسم الثاني** جعله لدراسة المدرسة الإصلاحية، فألقى الأضواء على سيرة مؤسس المدرسة الإصلاحية جمال الدين الأفغاني، فذكر نبذة عن حياته وأشهر أساتذته، وتكلم عن أسفاره ومغامراته، ولماذا أخفى جمال الدين الأفغاني نسبه ؟

وقبل كتابة الشيخ- حفظه الله- لمبحثه عن جمال الدين الأفغاني قال: استمعت إلى أقوال مَنْ أعرف مِنَ الذين يدافعون عنه، وقرأت كثيرًا من الكتب والمؤلفات التي كتبها أنصار المدرسة الإصلاحية وخصومها، ثم وازنت بين هذه الأقوال، وفكرت طويلًا قبل الانتهاء إلى نتيجة محددة. انظر: (ص٢٦٥).

ثم ذكر تعليقًا بعد دراسته لجمال الدين الأفغاني فقال: هذه نبذة مختصرة عن حياة ومغامرات أستاذ المدرسة الإصلاحية ومؤسسها الباطني الخطير جمال الدين الأسد آبادي الفارسي، ومن المؤسف أن كثيرًا من أهل السنة لا يزالون يثقون به ويعدونه من كبار المجددين ومن أشهر المصلحين، ولا يلقون بالًا لكل ما يثار حوله من شبهات لا يجوز السكوت عنها. (ص٢٧٤).

وفي **الفصل الثاني** من هذا الباب تكلم عن موقف الإصلاحيين من الخوارق والمعجزات، وذكر أن إمام هذه المدرسة محمد عبده، فذكر نبذة عن علاقته بجمال الدين الأفغاني وصلته به، ومن خلال دراسته لكتابات رواد المدرسة الإصلاحية، ومن أشهرها «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ محمد الخضري، وكتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، و«تفسير المنار»، وبقية كتب الشيخ محمد عبده في التوحيد والتفسير، عرض الشيخ- حفظه الله ورعاه- أقوالهم في المعجزات، فبيَّن موقف محمد عبده من المعجزات، وكذا موقف الخضري، وموقف محمد حسين هيكل الذين حاولوا تأويل المعجزات تأويلًا محتملًا مخالفًا للأصول ومجانبًا للحقائق والأدلة العلمية.

وفي **الفصل الثالث من هذا الباب** نقد منهج الإصلاحيين من وجوه:

**الأول**: تقديمهم العقل على النقل، وقد بين بردود شافية ضعف هذا المنهج، وأن الإصلاحيين يوافقون المعتزلة في هذا المسلك.

**الوجه الثاني**: لا يجوز تأويل أو إنكار المعجزات والكرامات، ونقل من أقوال أئمة الإسلام وعلمائهم ما يوضح فساد أقوال الإصلاحيين في المعجزات والكرامات.

**الوجه الثالث**: رد على الإصلاحيين في موقفهم من خبر الآحاد، وأنهم لا يستدلون به في العقائد مطلقًا.

**الوجه الرابع**: بين موقف الإصلاحيين من أحاديث الصحيحين، وأنهم لا يقيمون لبعض الأحاديث وزنًا ولا قيمة عندهم؛ لأنها أحاديث تفيد الظن، ونقل الشيخ من أقوال علماء الإسلام كالنووي وأبي عمرو بن الصلاح وابن القيم والعقيلي ما يدحض أقوال وأفكار زعماء المدرسة الإصلاحية .

**الوجه الخامس**: زعمهم تعارض الحديث مع القرآن، وقد استدل الإصلاحيون بحديث «**إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فمني، وما خالفه فليس عني**»[1] وهو حديث ضعيف منقطع، ونقل الشيخ من أقوال الشافعي والبيهقي وعبد الرحمن بن مهدي وابن حزم وابن خلدون ما يدل على أن هذا الحديث منقطع.

**الوجه السادس**: قصة الغرانيق، حيث زعم هيكل أن البخاري أوردها في صحيحه، وقد بين الشيخ بطلان هذا الزعم، فالقصة كما ذكر كبار العلماء مردودة، وبينوا عدم صحتها، ومن هؤلاء العلماء :

ابن العربي والقاضي عياض والقرطبي والكرماني والشوكاني والآلوسي وصديق حسن خان وغيرهم .

**الوجه السابع**: إنكارهم نزول المسيح، وقد عرض فيه قول محمد عبده والشيخ محمود شلتوت الذي نحا نحو محمد عبده في هذه المسألة، وهما يلتقيان مع القاديانية في إنكار نزول المسيح- عليه السلام- مع أن نزوله ثابت بالكتاب والسنة. وبهذه المناسبة تعرض الشيخ لآراء حسن الترابي، وبين مواقفه من الشيعة والسنة، وتجديد أصول الفقه، والاختلاط، وإنكاره لنزول المسيح موافق لآراء المعتزلة المعاصرين (الإصلاحيين). (ص٣٠٩-٣١٢).

**والوجه الثامن**: موقفهم من الملائكة والجن؛ حيث يعتقد محمد عبده أن الملائكة هي في الحقيقة النوازع والدوافع أو القوة والفكر التي تعترض

---

(١) مسند الربيع بن حبيب (٤٠).

للإنسان، وهو معنى لا يدرك كنهه، وروح لا نَكْتَنِهُ حقيقتها، فمحمد عبده لا ينكر وجود الملائكة والجن، لكنه من أجل إقناع الماديين يسمي الملائكة قوة وفكرًا، إذ يقول محمد عبده: فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكرًا لا يبعد أن يسميه الله ملكًا أو يسمي أسبابه ملائكة (انظر: ص٣١٣).

**والوجه التاسع**: خرافة تحضير الأرواح والدعوة إلى وحدة الوجود، ونقل الشيخ قول الشيخ مصطفى المراغي في تقريظه لكتاب هيكل «حياة محمد»: علم استحضار الأرواح فسر للناس شيئًا كثيرًا مما كانوا فيه يختلفون، وأعان على فهم تجرد الروح، وإمكان انفصالها، وفهم ما تستطيعه من السرعة في طي الأبعاد. (ص٣١٤).

وبعد أن نقل شيئًا من أقوال الإصلاحيين في تأويلهم المنحرف لمسألة الإسراء والمعراج، ومسألة وحدة الوجود، وتحضير الأرواح، وهم الذين أنكروا المعجزات، وأولوا بعضها الآخر رغم صحة أسانيدها، ذكر الشيخ الرد على هيكل الذي يؤمن بوحدة الوجود بأن علماء السلف الصالح حسموا القول في هذه المسألة، فأكدوا كفر من يؤمن بوحدة الوجود. (ص٣١٦).

**الوجه العاشر**: موقفهم من السحر: بين الشيخ- حفظه الله- موقف محمد عبده من قصة سحر النبي ﷺ الذي فعله لبيد، أنكرها محمد عبده فقال: إن الحديث على فرض صحته فهو حديث آحاد، والآحاد لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ثم عمم محمد عبده الأمر فقال: على أن نافي السحر بالمرة لا يجوز أن يعدّ مبتدعًا.

وبعد أن نقل الشيخ موقف محمد عبده وهيكل من السحر، بدأ يناقش أقوالهما فقال- حفظه الله:

لم يقل هيكل كيف اضطربت الروايات في قصة سحر لبيد بن الأعصم لرسول الله ﷺ؟ ومن القائل بأنها محض اختراع ؟!

لم يتأثر عقل الرسول ﷺ بالسحر، وما حدث له كان مرضًا عارضًا شفاه الله منه، ولا تعارض بين العصمة ومرض الجسد والجوارح.

يهتم الإصلاحيون أشد الاهتمام بتعليقات المشركين الفلاسفة، ويحسبون لمواقفهم ألف حساب، ولهذا تراهم يلوون أعناق النصوص ويقدمون أقوالهم الشاذة على ما صح من حديث رسول الله؛ إرضاء لغير المسلمين من الفلاسفة والمتكلمين.

**الوجه الحادي عشر**: موقفهم من الصحابة : نقل الشيخ من كلام الخضري ولمزه في علي بن أبي طالب، وكذلك أحمد أمين وهيكل، وطعنهم في عدالة الصحابة، حيث زعم أحمد أمين أن بعض علماء الجرح والتعديل من أهل السنة قالوا: إن الصحابة ليسوا عدولًا!! فأين كلامهم هذا من الآيات القرآنية الصريحة التي تحدثت عن فضائل الصحابة- رضي الله عنهم. وقد وضح الشيخ تأثر هؤلاء الإصلاحيين في أسلوبهم ومنهجهم بالمستشرقين، ولذا قال الشيخ عن الخضري: وهو الذي كرر القول في كتبه عند ذكر المستشرقين «قال بعض الأجلاء من المستشرقين»!! (ص٣٢٤).

**الوجه الثاني عشر**: انهزامية مؤسفة. وهنا ذكر الشيخ- حفظه الله- أن محمد عبده تأثر بالمستشرقين الذين اتصل بهم في لبنان وباريس ولندن، وقد استمرت صلاته بهم وتعاونه معهم بعد عودته من منفاه، وردّ على المدافعين عن محمد عبده قولهم: إنه أراد دعوة المستشرقين، فالذي يريد دعوة المستشرقين إلى الإسلام لا يقلدهم في منهجه، والمستشرقون صنفان سواء الذين اتصل بهم محمد عبده أو الذين لم يتصل بهم:

صنف منهم لا يؤمنون بالله سبحانه، وهؤلاء من العبث الدخول معهم في نقاش حول المعجزات وخوارق العادات.

وصنف آخر منهم يدينون بالنصرانية ويؤمنون بنبوة عيسى- عليه السلام.

ثم قال الشيخ- حفظه الله: كنا نتمنى أن يكون رواد المدرسة الإصلاحية قد اتصلوا بالمستشرقين والعلماء الغربيين الذين يؤمنون بخوارق العادات أمثال ستيورات ميل ووليام استايلي جوون وأميل سسه وكسله وغيرهم، ونقل طرفًا من أقوالهم في الإيمان بالخوارق والمعجزات. ثم أوجز في نهاية هذا المبحث أقوال رواد المدرسة الإصلاحية في معجزات النبي، وأهمها:

- إنكارهم معجزة انشقاق القمر، مع أن الحديث أخرجه أئمة الحديث كالبخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

- قالوا: إن الإسراء تم بالروح دون الجسد، مع أن الحديث أيضًا أخرجه الأئمة كالبخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

قال محمد عبده: إن آدم وحواء كانا أصلًا على الأرض، وقد هبطا من مكان مرتفع فيها إلى آخر منخفض. ثم قال: لم يعد مستغربًا من الشيخ محمد عبده فتاويه المشهورة كجواز لبس البرنيطة وإباحة الربا اليسير، وجواز الاستعانة بغير المسلمين، ليبرر لنفسه تعاونه مع اللورد كرومر واستعانته به ضد خصومه من علماء الأزهر، ولم يعد مستغربًا منه علاقته الوثيقة مع عباس نجل البهاء منظم الدعوة البهائية ومجالسته له ومراسلته، لم يعد مستغربًا لأنه طوال حياته بعد عودته يسالم الإنجليز ويتعاون معهم، ولأنهم لعبوا دورًا مهمًا في تعيينه مفتيًا لمصر، وكان في كل مرة يختلف مع الخديوي يلجأ إلى الإنجليز، وحبس كرومر خصومه وأصحاب الجرائد الذين هاجموه بسبب فتاويه، ولم يعد مستغربًا حرصه على حضور مجلس الأميرة نازلي التي كانت لا تتكلم إلا بالسياسة وهو لا يتكلم بالسياسة. (انظر: ص٣٣٠).

**والفصل الرابع** من هذا الباب جعله للرد على الشبهات التي أثارها المدافعون عن آراء محمد عبده، فتأمل قول الشيخ: وقد قرأت بتدبر وإمعانٍ شيئًا غير قليل مما كتبه هؤلاء الطيبون. ثم بسط القول في الشبهات التي

أثاروها، وأجاب عنها بحجج دامغة وبراهين ساطعة، وهذه الشبه هي:

**الأولى**: قالوا- المدافعون- عن محمد عبده: حسد المقلدون الجاحدون المكانة الرفيعة التي تبوأها في عصره وإعجاب علماء الغرب بشخصيته.

فأجاب الشيخ عن هذه الشبهة : ليس غريبًا حسد المقلدين الجاحدين، فقد أعرضت عن أقوالهم وأقبلت على كتب ومؤلفات تلامذته، فأخذت منها الأدلة التي استشهدت بها. وأما إعجاب علماء الغرب به فحجة عليه وعليهم وليست له، فكيف نجمع بين حبهم لمحمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغاني وكرههم للإسلام والمسلمين . (ص٢٣١).

**والشبهة الثانية**: قولهم: إن الشيخ محمد عبده اعتمد- فيما ذكره عن المعجزات وغيرها- على أدلة من الكتاب والسنة وليس على أقوال المستشرقين.

فأجاب عنها: إنه في مواضع قليلة اعتمد على أدلة وردت في بعض كتب علماء القرن الأول، وليس كل ما ورد فيها صحيحًا، ولكنه من خلال ما عرضناه وما لم نعرضه أكثر تبين لنا أن عبده وصحبه كانوا يعرضون عن الأدلة والروايات الصحيحة التي لا يرقى إليها الشك، ويتمسكون بالروايات الضعيفة أو الموضوعة، وهذا هو أسلوب المستشرقين.

**الشبهة الثالثة**: قولهم: كان محمد عبده وتلامذته شجى في حلاقيم أدعياء العلم والتحقيق من المبشرين والمستشرقين، وحاربوهم بأسلوبهم العصري .

فقال في جوابها: نعم قرأنا ما كتبه محمد عبده وتلامذته في الدفاع عن الإسلام وفي الرد على رينان وآخرين، لكنهم ينطلقون فيما يكتبون عن الإسلام من منهج فيه كثير من الانحرافات، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يحتفظون بعلاقات متينة ومشبوهة مع مستشرقين آخرين .

وذكر أدلة عن صلات محمد عبده مع بلنت وكرومر وغيرهما .

**الشبهة الرابعة:** تترُّس المعجبون بشخصية محمد عبده بكتب ومؤلفات الشيخ رشيد رضا في دفاعهم عن منهج المدرسة الإصلاحية.

وهنا أوجز الشيخ- حفظه الله- الإجابة عن هذه الشبهة بعبارات بليغة واضحة كالآتي : رواد المدرسة الإصلاحية ليسوا نمطًا واحدًا من الناس، وما يقال عن منهج أحدهم وأسلوبه في التفكير لا ينطبق على الآخرين بشكل دقيق، وهذا لا يتعارض مع القواسم المشتركة التي تجمع بينهم، فجمال الدين الأفغاني يختلف عن تلميذه محمد عبده.

فالأول فيلسوف كثر الكلام حول إيمانه بالله واليوم الآخر، وباطني يقول شيئًا ويعتقد غيره، وسياسي يعتمد في تحقيق أهدافه وطموحاته على العنف والاغتيالات والمؤامرات.

أما الثاني فقد تأثر بأفكار شيخه عندما كان ملتصقًا به، واختلف منهجه كثيرًا عندما ابتعد عنه، ومن مظاهر هذا الاختلاف نبذه للسياسة والعنف وانصرافه للتربية والتعليم.

ويختلف محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده، فالأول أسلمُ منهجًا، وأصفى عقيدة، وأبعد عن مواطن الشبهات، ومن يطالع تفسير المنار يلاحظ اختلاف منهج الشيخ عن منهج تلميذه، وبشكل أخص في القسم الذي انفرد التلميذ بتفسيره. لقد كان رشيد رضا يعتمد فيما فسر وألف على ما صح من أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة، ولم يكن من الذين يقدمون العقل على النقل الصحيح عند توهم التعارض، أو من الذين يردون أحاديث البخاري ومسلم، لأنها عندهم من الآحاد.

وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات وأبحاث هامة انتصر فيها لعقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة، وبيّن ضعف وتهافت ادعاءات أعداء الإسلام. (انظر: ص٢٣٦).

ثم أبدى الشيخ- حفظه الله- بعض الانتقادات على رشيد رضا، منها:

تأثره بشيوخه؛ حيث أوّل المعجزات مثل معجزة انشقاق القمر. ومنها دفاعه عن جمال الدين الأفغاني، ونفي التهم عنه بنفي إلحاده وكفره وشربه للخمر ونشاطه في المحافل الماسونية؛ لكون التهم أقوى من الأسلوب الذي اتخذه رشيد رضا في دفاعه، وكذلك رد على رشيد رضا في دفاعه عن محمد عبده.

**والفصل الأخير** من فصول هذا السفر القيم «دراسات في السيرة النبوية» جعله للتحذير من مناهج ومؤلفات أخرى. ففي هذا الفصل أشار إلى مناهج ومؤلفات الشيوعيين وغيرهم، فدرس فقرات من كتاب السيرة النبوية والبحوث الإسلامية من مقررات وزارة المعارف في اليمن الجنوبي عندما كانت تحت حكم الشيوعيين، وعلق عليها، ومن ذلك رده على مزاعمهم:

أن عليًا مؤسس الاتجاه الديمقراطي في الإسلام، وعثمان حامي الجناح اليميني، ويرى الشيوعيون في اليمن أن الشيعة والخوارج والقرامطة والمعتزلة وإخوان الصفا من التقدميين.

**والكتاب الثاني** الذي درسه في هذا الفصل كتاب «محمد رسول الحرية» للكاتب عبد الرحمن الشرقاوي، رئيس تحرير مجلة روز اليوسف سابقًا، وأحد وجوه اليساريين، ومحام عن الشيوعيين عند اعتقالهم عام ١٩٨٦م، وبين ما فيه من أباطيل وافتراءات وتحريف لأحداث السيرة النبوية. (انظر: ص٣٤١- ٣٤٢).

**والثالث**: كتاب «**محمد والقوى المضادة**» للدكتور محمد أحمد خلف الله الذي تقدم به كبحث لنيل درجة الماجستير عام ١٩٤٢م، وكان عنوانه أولًا «جدل القرآن»، ثم أسماه فيما بعد «محمد والقوى المضادة» لأن العلماء أنكروا عليه القضايا والآراء الشاذة التي أثارها. ثم نقل الشيخ فقرات من الكتاب

المذكور وفنّدها.

ومن المؤلفات الأخرى التي درسها الشيخ في هذا الفصل وأبدى زيفها وتحريفها كتاب «**سيرة المصطفى.. نظرة جديدة**» لمؤلفه هاشم معروف الحسيني. وبعد أن تكلم الشيخ عن طعن الرافضة في الأحاديث النبوية والسيرة المطهرة واتهامهم لأصحاب رسول الله ﷺ وتفننهم في اختلاق الأحاديث، قال في نقد الكتاب المذكور: أول ما يلاحظه مَنْ يفرغ مِنْ قراءة الكتاب بتدبر وإمعان أن المؤلف اتخذ من سيرة الرسول ﷺ ستارًا لتعظيم دور علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- ودور أبيه وأبنائه، وبعد أن نقل نصوصًا من كلام الرافضي في كتابه المذكور من طعنه في الصحابة وأمهات المؤمنين وعن إسلام أبي طالب، كان في كل فقرة من الفقرات يرد عليه زعمه وتزييفه. (ص٣٥٠).

وتكلم الشيخ عن مؤلفات الأدباء ومنهجهم في كتابة السيرة النبوية، ومن أشهر هؤلاء الأدباء الذين تكلم عن منهجهم في كتابة السيرة: طه حسين وأحمد أمين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد وعبد الحميد جودة السحار وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ وغيرهم.

وبين أن أهداف الأدباء وغاياتهم لم تكن واحدة، إذ منهم الملاحدة، ومنهم من يكتب عن قناعة ومحبة ويدافع عن سيرة الرسول ﷺ وصحبه، وإذا كانت أهدافهم ليست واحدة، هناك قاسم مشترك فيما بينهم من الأخطاء أوجزها الشيخ فيما يلي:

- كانوا يكتبون عن عبقرية محمد ﷺ ورحمته وعدله ومساواته بين الناس، لكن أهملوا الكتابة عن الجانب الغيبي في الإسلام، وكذلك الوحي والبعث والنشور.

- تمتاز مؤلفات هؤلاء بحسن الأسلوب وجمال التعبير ودقة التصوير، وكان بعضهم مهتمًا باختلاف القصص والروايات.

– لا يهتم هؤلاء الأدباء بسند الرواية وبيان صحتها وضعفها، وأهم المصادر عندهم كتب التاريخ والأدب القديمة وكتب المستشرقين.

– من هؤلاء الأدباء من كان ينكر المعجزات وخوارق العادات، ومنهم من كان يؤولها أو يتجاهل ذكرها. (انظر ص٣٥١-٣٥٢).

وختم الشيخ- حفظه الله ورعاه- كتابه بالحديث عن منهج الشيخ محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة» وبعد أن أثنى على الكاتب وأسلوبه وتأثير كتاباته في أوساط الدعاة إلى الله، بين أن كتاب فقه السيرة مع ما فيه من إيجابيات كثيرة، إلا أنه لم يسلم من الخطأ.

ومن المآخذ على الكتاب: أن المؤلف محمد الغزالي لم يراع منهج أهل الحديث في تصحيح الأحاديث وتضعيفها، وإنما اعتمد على عقله، وصور له عقله أن رواية الشيخين في غزوة بني المصطلق تتعارض مع قواعد الإسلام المتبعة!!

وبعد أن نقل شيئًا من كلام الغزالي في موضوع المعجزات، قال معقبا عليه: الغزالي في هذا كله يردد أقوال زعماء المدرسة الإصلاحية، دون أن يقدم جديدًا، بل لم يقل الغزالي بإنكار المعجزات كلها، لقد أثبت بعضها وأوَّل بعضها، فكان موقفه كموقف المعتدلين من الإصلاحيين، انظر إلى قوله- أي الغزالي : وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي، أي اعتبار القرآن المعجزة الفريدة لرسول الله ﷺ.

وانتقد على الغزالي أيضًا قوله: وقد سرت في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم. (انظر ص٣٥٣-٣٥٥).

**وبعد :**

فإن من يتأمل هذا المصنف للشيخ- حفظه الله ورعاه- فإنه يقف أمام سِفرٍ عظيم يتناول فيه كل المناهج التي كتبت عن سيرة النبي ﷺ القديمة والحديثة،

المستقيمة منها والمنحرفة، ومناهج المحدثين وطريقتهم في التحقيـق والتوثيـق، والدراية، والأمانة في النقل، والحرص على جمع وتدوين سيرة النبي ﷺ الـذي بعثه الله رحمة للعالمين، وتكلم عن منـاهج الإصـلاحيين والمعتزلـة والرافـضة والمستشرقين والمستغربين والملحدين والبـاطنيين، وفنـد الآراء المنحرفـة، وردّ على شبهات المخالفين والأعداء.

وبيّن كيف كان حال العالم قبل البعثة وبعـدها والـديانات والعقائـد التـي تسود العالم، وكيف تغيرت حال الـدنيا مـن خـلال إشراقـة شـمس الإسـلام وسراجها المنير محمد ﷺ.

ومن جهة أخرى تتضح في هذا الكتاب شخصية المؤلف من حيث رسوخه في العلم وقدرته على المطالعة، وثقافته الواسعة ومتابعته الدقيقة لمـا كتـب عـن السيرة النبوية في مختلف المناهج، فالكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله.

## الفصل الرابع

## كتاب «وجاء دور المجوس»

- عدد صفحات الكتاب: ٣٦٠ صفحة.
- الطبعة الشرعية العاشرة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.
- نشر في دار الجابية- لندن.

رتب الشيخ- حفظه الله- الكتاب في ثلاثة أبواب:

**الباب الأول: نظرات في تاريخ إيران،** وفيه أربعة فصول هي:

**الفصل الأول:** إيران قبل الإسلام، وتحدث فيه عن المزدية، والزردشتية، والمانوية، والمزدكية.

**والفصل الثاني:** موقف الفرس من الإسلام، وفيه المباحث الآتية:

الأول: كسرى يجدد فتوة الامبراطورية. والثاني: كسرى يمزق كتاب رسول الله ﷺ. والمبحث الثالث: حوار يزدجرد مع النعمان بن مقرن، والرابع: دحض افتراء.

وأما **الفصل الثالث:** مؤامرات الفرس بعد الفتح الإسلامي، ففيه المباحث الآتية: الأول: اغتيال الفاروق- رضي الله عنه. والثاني: ماذا وراء تشيع المجوس لآل البيت. والثالث: البرامكة. والرابع: دويلاتهم منذ القرن الثالث. والخامس: عن القرامطة. والسادس: البويهيين. والسابع: العبيديين. والثامن: عادوا من جديد. والتاسع: الصفويين. والعاشر: البهائية. والحادي عشر: الدروز.

**وأما الفصل الرابع:** إيران في عهد آل بهلوي: يتحدث عن إيران والبهلوية.

**والباب الثاني: عقائد الشيعة بين القديم والحديث.**

وفيه سبعة مباحث:

**المبحث الأول**: لمحات عن الثورة الإيرانية وموقف الإسلاميين منها.

**والثاني**: خلافنا مع الرافضة في أصول الدين وفروعه.

**والثالث**: ما قاله علماء الجرح والتعديل في الرافضة.

**والرابع**: شيعة اليوم أخطر على الإسلام من شيعة الأمس.

**والخامس**: الخميني زعيم شيعي متعصب لمذهبه.

**والسادس**: ما قاله علماؤنا المحدثون في الشيعة: الآلوسي، الهلالي، السباعي، الخطيب، بهجة البيطار، ورشيد رضا.

**والمبحث السابع**: وهل بعد هذا من لقاء؟

**والباب الثالث: الثورة الإيرانية في بُعدها السياسي.**

وفيه ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: الولايات المتحدة الأمريكية والثورة الإيرانية. وفيه المباحث الآتية:

أصول لابد من معرفتها، الولايات المتحدة والثورة الإيرانية، من أفواههم ندينهم.

**والفصل الثاني**: أطماع الرافضة في شبه الجزيرة العربية والعراق، وفيه المباحث الآتية:

أطماع الرافضة في الخليج، أطماع الرافضة في العراق، لماذا يتبرأ الخمينيون من تصريحات روحاني؟

**والفصل الثالث**: سوء الأوضاع الداخلية. وفيه المباحث الآتية:

هجرة الأدمغة، الثورة والوضع الداخلي، الانهيار الخلقي قبل الثورة وبعدها.

أحوال المسلمين السنة في إيران. زعيم الشيعة يجب أن يكون إيرانيًا. لماذا تنازل الفارسي؟ قيادات زائفة. شريعتمداري يتبرأ من حزبه، الخميني والثورات الداخلية.

**الظروف التي طبع فيها الكتاب، وبعض معاناة الشيخ في تأليفه :**

كان الشيخ- حفظه الله- يكتب ويتابع أخبار الرافضة والباطنية قبل نجاح الثورة الإيرانية بسنوات.

وعند نجاح الثورة كان عنده بعض الفصول والرؤى واضحة عنها، وموقفه منها كان مخالفًا لكثير من الدعاة والجماعات، فهو كمن يسبح عكس تيار جارف، فالمجلات والصحف الإسلامية تثني على الثورة وقائدها.

وفي تلك الأيام كان الشيخ مقيمًا في الكويت، وللرافضة في الكويت حضورهم، ولا تُؤْمَن شرورهم.

الدول العربية: السعودية والعراق ودول الخليج وغيرها كانت مؤيدة لثورة الخميني، وأرسلوا وفودًا لتهنئة قادة الثورة بنجاحها وتأييدها، أما في سوريا وحاكمها النصيري حافظ الأسد، فكتب الخميني تعرض في كل مكان وقد اشتريته من أحد الباعة على حافة الشارع وأنا متجه إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق في تلك الأيام (عام ١٩٧٨م).

الدول والخطباء والدعاة والجماعات مؤيدة للثورة، فمن ذا الذي يستطيع أن يتبنى موقفًا رسميًا يخالف ذلك؟ فضلًا عن أن يصدر كتابًا؟! ولك أن تتصور، أيها القارئ اللبيب، أي رجل هذا الذي يخالف الدول والمنظمات والجماعات؟

لكن الشيخ- رعاه الله- له موقف- علم الله- كموقف أبي بكر في حروب الردة، وموقف أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، تسمع منه في كثيرٍ من الأحيان في تلك الفترة الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك، لا يعرف الحق

بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله.

يقول في مقدمة الكتاب، الطبعة العاشرة، معبرًا عن بعض معاناته وما لاقاه عند تأليف الكتاب:

كنت خلال جولات لي في عدد من البلدان العربية والأوروبية كمن يسبح ضد تيار جارف، ومما أذكره جيدًا ويصعب عليَّ نسيانه أن طائرة الخميني التي أقلته من فرنسا وصلت طهران بينما كنتُ في زيارة دعوية للمملكة المغربية بترتيب مع قيادة الشبيبة الإسلامية التي كان نشاطها محظورًا، فالزيارة لم تكن علنية، والجماعة قدمتني لأعضائها باسم محمد النايف، ونايف اسم والدي- رحمه الله. كنت خلال هذه الزيارة التي استمرت حوالي عشرين يومًا، أتنقل من بيت إلى بيت في مدن الدار البيضاء والرباط وفاس، وأعضاء الجماعة الذين التقيتهم كانوا طلابًا في جامعات المغرب...

كان لي في كل يوم جلستان، كانت الجلسة الواحدة تمتد لأكثر من ست ساعات، والسؤال الذي يوجه إليَّ في كل جلسة: ما رأيك في ثورة الإمام الخميني المباركة؟

ألا تعتقد أن عروشًا كثيرة في بلادنا ستتهاوى بعد سقوط عرش شاه إيران؟

وبعد عرض لعقيدة الخميني وثواره وتاريخهم وأبعاد الثورة وخطورتها على العالم الإسلامي، كانت أجوبتي تتضمن دراسة حديثة لكتب الخميني، وأفكاره لا تختلف عن أفكار وعقائد سلفه من الشيعة الصفويين والبويهيين والسبئيين، وكنت ألوذ بالصمت قليلًا بعد فراغي من الإجابة، ثم أعود فأتفرس وجوه المستمعين مرة أخرى، فأقرأ فيها علامات الغضب والاستنكار ومشاعر الإحباط من هذا الزائر ومن أحاديثه المزعجة.. ثم تنهال عليّ الأسئلة بل الاحتجاجات:

سي محمد النايف: العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية والمجلات الناطقة باسمها أيدوا هذه الثورة، فكيف لم ينتبهوا إلى ما تفضلت به؟ وهل من المعقول أن تغفل الأمة بعلمائها وجماعاتها عن هذه الأمور الخطيرة التي ذكرتها وتنفرد بها أنت وحدك؟! (انظر ص٧-٨).

وأما الدول العربية فقد أيدت في أول أمرها الثورة: السعودية أرسلت وفودًا تمثل الحكومة، ورابطة العالم الإسلامي أرسلت وفدًا، وكذا العراق والكويت، كما ذكرت من قبل، لكن جهة واحدة تأخرت في اتخاذ موقف من ثورة الخميني هذه الجهة هي هيئة كبار العلماء في السعودية، وعلى رأسها عبد العزيز بن باز- رحمه الله.

كان الشيخ محمد سرور يبحث عن جهة تتولى طباعة الكتاب، فبيروت المعروفة بدور النشر والمطابع في قبضة النظام النصيري، ولم يبق أمام الشيخ إلا مصر، واستمر البحث عن دار نشر تتولى طباعة الكتاب، كلما أعطوه لمطبعة- وقد يمكث عندهم أسبوعًا أو شهرًا- ينظرون موضوع الكتاب فيردونه، وبعد قرابة السنة قَبِلَ أحد الأقباط أن يقوم بطباعة الكتاب، وبعد الطباعة فاجأهم أمن الدولة بمصادرة الكتاب، وبعد مفاوضات معهم وضعوا شرطين للإفراج عن الكتاب:

الأول: موافقة الأزهر على نشره.

والثاني: إخراجه من مصر، والتعهد بعدم توزيعه داخل مصر.

وإلى أي جهة يشحن الكتاب؟ لم تقبل أي دولة عربية بإصدار ترخيص لتوزيع الكتاب!!

**ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج**

وفي تلك الفترة كلفت هيئة كبار العلماء- التي لم تستعجل في اتخاذ موقف من الثورة- الشيخ صالح بن غصون- رحمه الله- رئيس المحاكم الشرقية

وعضو هيئة كبار العلماء بتقديم دراسة عن إمام هذه الثورة وعقيدته، وبعد أيام قليلة قدم الشيخ عبد الله بن قعود- رحمه الله- نسخة من الكتاب للشيخ ابن باز- رحمه الله تعالى. وقال له: هذه يا شيخ دراسة مفصلة عن هذه الثورة من مختلف الوجوه العقدية والسياسية والتاريخية، فطلب منه ابن باز أن يقدم تقريرًا عن الكتاب يقدمه لهيئة كبار العلماء في أقرب اجتماع لها، وفعل ابن قعود ذلك، فنال التقرير والكتاب إعجاب العلماء، واعتباره بمثابة الدراسة التي كلفوا بها ابن غصون- رحمه الله.

وعندها قرر الشيخ ابن باز شراء ثلاثة آلاف نسخة، وأُدخِلَ مع هذه الكمية مثلها بطريقة ما، ولم توزع الكتب على دور النشر، لأن الكتاب لم يحصل على ترخيص حكومي بعد، بل كانت إدارات الدعوة والبحوث والإفتاء توزعه على نطاق محدود، وكان الشيخ ابن باز- رحمه الله- يثني على الكتاب وينصح بقراءته ويدعو لمؤلفه. (انظر ص١١-١٣).

وبعد مرور الشهور صار الحديث عن تصدير الثورة في الصحف والإذاعات الإيرانية، وحصلت الاعتداءات المتكررة على مخافر الحدود العراقية، وبدأت الحرب العراقية الإيرانية، وتوسع نطاق الفتنة، فتجرأ الرافضة على حجاج بيت الله الحرام، فصار المحظور مباحًا عن الثورة وقائدها الخميني، والممنوع مسموحًا، فذاع صيت الكتاب، وصار الإقبال عليه من الهيئات المختلفة، وطبعته بعض الدول التي كانت تحظره وتمنع دخوله كالعراق، رغم أنه ينتقد نظامها وحزبها. وطُبعت منه آلاف مؤلفة، ولم يُعرف المؤلف الحقيقي؛ لأنه كُتِبَ باسم مستعار «عبد الله محمد الغريب»، عبد الله أسمى صفات المؤمن أن يكون عبدًا لله، وهو محمد الشطر الأول من الاسم المركب، وهو غريب مهاجر في أرض الله، وسار ذكر الكتاب في الآفاق سير المثل.

وكثير من أبناء الحركات الإسلامية ومن الدعاة يعرفون شخصية المؤلف الحقيقية، ويعلمون أن الاسم الأول كان مستعارًا.

أجل، وبعد هذا إذا علمت- أيها القارئ الكريم- قصة الكتاب والمراحل التي مرّ بها تأليف الكتاب ونشره، فلك أن تتأمل في لذة الصبر وحلاوته، ويكفيك من أجر معية الله للصابرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١) فهل يحزن من كان الله معه؟ لا والله، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢).

ثم اعتبر بأهمية الإخلاص وصدق النية لقوله- عليه الصلاة والسلام:

**«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»**(٣).

وتأمل معي- أخي الكريم- وصية الإمام أبي يوسف لكبير ملوك الأرض في عصره هارون الرشيد؛ حيث قال له في مقدمة كتاب «الخراج»: وإذا نظرت في أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى، وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم، واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يَقِهِ، واعمل لأَجَلٍ مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود. ا.هـ.

فأعِدْ، أيها الداعية، يا طالب العلم قراءة الكتاب بطبعته الشرعية الجديدة، عسى الله أن يكتب لي ولك الأجر والثواب ويجعلك من أولي الألباب، وصلوات الله وسلامه على محمد وآله وكافة الأصحاب.

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) أخرجه البخاري (١).

## الفصل الخامس

## كتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي»

### الجزء الأول «مؤامرة الدويلات الطائفية»

- كتبه الشيخ باسم مستعار «محمد بن عبد الغني النواوي».
- ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- عدد صفحات الكتاب ٥٢٦ صفحة.
- رافق ظهور الكتاب أحداث جسام هزت العالم الإسلامي وأدمت قلوب المؤمنين، وهي كما ذكرها الشيخ في مقدمة كتابه:

١- مذبحة حماة سنة ١٤٠٢هـ، قتل فيها أكثر من ثلاثين ألفًا من أهل المدينة، وأراد النظام النصيري محو المدينة من الوجود.

٢- الحرب العراقية الإيرانية، فثورة الخميني تنادي بتصدير الثورة صراحة دون تقية.

٣- اجتياح لبنان من قبل اليهود، فاحتلوا صور وصيدا، وأحاطوا ببيروت إحاطة السِّوار بالمعصم، وأمر حافظ الأسد قواته بالانسحاب من ضواحي بيروت وطريق بيروت دمشق، وعقد معاهدة وقف إطلاق نار مع القوات اليهودية الغازية عن طريق الوسيط الأمريكي «فليب حبيب».

٤- دروز الجولان: صارت أجهزة الإعلام المحلية والعالمية في تلك الفترة- فترة تأليف الكتاب- تتحدث عن بطولة الدروز وتصديهم للاحتلال، ورفض الهوية اليهودية!! كيف يحدث هذا وهم يتعايشون مع اليهود وفي جيشهم ودوائرهم منذ سنين!!

إذن هناك أمر يدبر، إنهم يريدون إقامة دولة درزية طائفية.

كان الشيخ محمد سرور- حفظه الله- يتابع منذ وقت مبكر المخططات الطائفية في بلاد الشام وغيرها، وقد كتب بعض فصول هذا الكتاب منذ عام ١٣٩٥هـ، وكان يريد نشر الكتاب في رسالة صغيرة يسهل تداولها، وقبل طبع الرسالة للمطبعة أرسلها لأحد أصدقائه ليطلع عليها ويبدي رأيه، وفُقدت الرسالة، وسبق أن تكلمت من قبل عن هذه القصة عند الكلام عن ترجمة الشيخ.

**خطة الكتاب وتقسيم موضوعاته:**

**جعلها الشيخ على النحو الآتي:**

**القسم الأول**: **وثائق من التاريخ المعاصر**، ويشمل أربعة فصول:

**الفصل الأول:** وثائق من تاريخ الدروز المعاصر، في ظل الاحتلال الفرنسي، وفي عهد الاستقلال، وفي ظل الاحتلال الإسرائيلي.

**والفصل الثاني**: وثائق من تاريخ النصيريين المعاصر، في عهد الاحتلال الفرنسي، وفي عهد الاستقلال.

**والفصل الثالث:** وثائق من تاريخ نصارى بلاد الشام المعاصر، في عهد الدولة العثمانية، وفي عهد الاحتلال الفرنسي، وفي عهد الاستقلال.

**الفصل الرابع**: دور الأكراد، وارتباط البرزاني بإسرائيل.

**الفصل الخامس**: توزيع الأدوار.

**والقسم الثاني**: **إسرائيل ومؤامرة الدويلات الطائفية**، وفيه فصلان:

**الأول**: مطالب اللجنة الصهيونية البريطانية، ومذكرات «بن غوريون» وكتاب «جنجر إسرائيل» للكاتب الهندي «ر.ك. كارانجيا» صاحب مجلة «بليتر» الهندية، وثيقة سربتها السفارة الروسية في بيروت، والرسائل المتبادلة بين ريمون إده وكيسنجر، واتصالات بين الدروز واليهود.

**والفصل الثاني**: أطراف المؤامرة: النظام النصيري وفكرة الهلال الخصيب، الموارنة والنصارى، الدروز، الولايات المتحدة الأمريكية.

**والقسم الثالث من الكتاب: دور حافظ الأسد في المؤامرة**، وفيه عدة فصول:

**الفصل الأول**: أرومة حافظ الأسد الطائفية، الإباحية والفساد والرشوة، وعداوتهم للإسلام، وعِبر من تاريخهم المعاصر. وأرومة الأسد الحزبية: هل نسيتم كوهين؟ حوار بين بعث العفالقة واليهود.

**والفصل الثاني**: سقوط الجولان: ومن مباحثه:

أهمية الجولان، ماذا أعد النصيريون للجولان؟ الأسباب الحقيقية لسقوط الجولان.

**الفصل الثالث**: حرب تشرين.. أسبابها ونتائجها:

أسباب الحرب، لمحات عن سير العمليات الحربية، نتائج الحرب، تناقضات، أخبار متفرقة.

**الفصل الرابع**: الاحتلال السوري للبنان، ماذا يريد الأسد من لبنان، أسرار اتصالات الأسد مع الموارنة، أمريكا وإسرائيل تؤيدان الاحتلال السوري للبنان، تفويض عالمي للتدخل السوري في لبنان، ماذا فعلت القوات السورية في لبنان.

**الخاتمة**: **التوصيات والتوجيهات**، وفيها:

ولا تركنوا إلى الذين ظلموا، فَلْتُسَمَّ الأمور بمسمياتها، أين الصف المرصوص؟ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، حذارِ من اليأس.

**بصائر وتأملات في بعض موضوعات الكتاب**:

**الأولى**:

تناول الشيخ في **القسم الأول** من الكتاب الكلام عن وثائق من تاريخ الدروز المعاصر (من ص ٢٥- ص١٢٧).

قبل عرض الوثائق عن تاريخ الدروز المعاصر، ذكر عدة ملاحظات: أكل

هذا من أجل سلطان؟ لأن سلطان الأطرش مات قبل أيام من تاريخ كتابة هذا البحث. والملاحظة الثانية: جبل حوران والدروز. والثالثة: اعدلوا هو أقرب للتقوى.

ثم تكلم عن الدروز في العهد الفرنسي، وبيَّن علاقتهم وتعاونهم مع نابليون، وكذا ولاء سلطان للإنجليز، ونقل الشيخ عن أحد كتاب الدروز الدكتور «ذوقان قرقوط» أن الجنرال غورو اختار حرسه الخاص من الدروز بمعرفة متعب الأطرش، فهل يختارهم إلا بعد أن يكون واثقًا بهم؟ (انظر ص٤٦).

وذكر كتاب شيوخ الجبل الدروز إلى المبعوث الفرنسي بإقامة دولة لهم وحدودها وتسميتها.. وبقية برنامج المقترحات. ثم ألقى أضواء على ثورة سلطان (ص٥٤-٥٩).

وتحت عنوان «مصير ثورة الدروز» نقل الشيخ عن الكاتب الدرزي المذكور آنفًا أن عبد الغفار الأطرش ومتعب وحسين الأطرش، تراجعوا عن الثورة وعادوا إلى التعاون مع الفرنسيين، وما موقف سلطان منهم وهو كما يزعم قائد الثورة؟

وكانت قيادة الثورة في سوريا تحاكم الخونة والجواسيس الذين يتعاونون مع الفرنسيين، لكنه- أي سلطان- لم يحاكمهم، ولم تصدر عنه تصريحات في التحذير منهم.

ثم قال الشيخ: فقبل أيام كان متعب ممثلًا لثورة الدروز وعضوًا في اللجنة العليا للثورة السورية.. وكان بحكم موقعه من الثورة يعرف أسرار المجاهدين المسلمين في غوطة دمشق وغيرها، وها هو عميل لفرنسا مطيع لأوامر المفوض السامي، كل الذي فعله المجاهدون حل اللجنة العليا التي تربطهم بالدروز، وحافظوا على صلات واهية مع سلطان، وإرضاء لغروره سكتوا عن وصف

الدروز له بـ«قائد الثورة العام».

أقول: هذا الحدث الذي حصل في العشرينيات من القرن الماضي من موقف الدروز مع الفرنسيين وخذلانهم- الدروز- لثورة سوريا وتحول مواقفهم، ألم يكرر الحدث نفسه وليد جنبلاط في لبنان عندما خذل أصحابه في تكتل ١٤ آذار (تيار المستقبل) وقبلها بشهور كان يهاجم الحكم النصيري في سوريا، ثم عاد إليهم صديقًا ودودًا؟!!

فمن أراد أن يتعرف على الوضع السياسي اليوم في بلاد الشام، ولم يقرأ هذا الكتاب «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي» كيف يمكنه ذلك؟!

وعندما تكلم الشيخ عن الدروز في عهد الاستقلال، تناول فيه الموضوعات الآتية: أطماع الدروز سنة ١٩٤٨م؛ حيث أوفدوا زعيمهم حسن الأطرش إلى الجامعة العربية، وعرض أن يقاتل الدروز وحدهم اليهود ويقيموا دولة لهم في المناطق التي يحررونها، ومؤامرة ١٩٥٦م، ومؤامرة سليم حاطوم، ودور الدروز الخيالي في حرب التحريك سنة ١٩٧٣م، ووحدة الهلال الخصيب التي ينادي بها الحزب القومي السوري والنصيريون والنصارى.

ومن الملاحظات التي ذكرها الشيخ على الحزب القومي السوري، ما يتعلق بفؤاد الأطرش الذي كان بعثيًا في منتصف الستينيات، كما ذكر الأطرش في كتابه الذي صدر في منتصف السبعينيات.

جرت اتصالات درزية يهودية مع الحزب القومي السوري للتعاون من أجل العمل تحت إطار وحدة الهلال الخصيب، يمثل الدروز زعيمهم حسن أبو الركن، واليهود أبو حوشي سكرتير مجلس عمال حيفا، واجتمعوا بأنطون سعادة رئيس الحزب القومي السوري. الدرزي حسن أبو الركن اعتنق في هذه المدة المبدأ الماسوني، وترأس محفل الكرمل في حيفا.

قتل حسن أبو الركن عام ١٩٣٨ لخيانته، بأمر المفتي الحاج أمين الحسيني.

ومن الزعماء المشهورين بخيانتهم من الدروز «جبر معدي الداهش» (ص٨٥).

**أما مؤامرة ١٩٥٦**: فخلاصتها أن الحكم في سوريا كان برلمانيًا ديمقراطيًا، وكانت حرية الرأي فيها تساعد على كشف المخططات الاستعمارية في المنطقة، فانزعجت أمريكا وإسرائيل وبريطانيا، وعملت على إسقاط النظام البرلماني وقيام حكم عسكري، وتشكلت لجنة ثلاثية من أمريكا وبريطانيا وعراق نوري السعيد، ومن الذين استجابوا لهذه المؤامرة: الدروز، والنصيريون والحزب القومي السوري، وبعض القبائل الموالية للعراق، وبعض عناصر من حزب الشعب.

**مؤامرة سليم حاطوم**، كان ضابطًا في الجيش السوري، وشارك في انقلاب ١٩٦٣، وكان له شأن في السياسة السورية، فهو الذي هدم جزءًا من الجامع الأموي بدمشق، وهو الذي قتل الدعاة في حماة عام ١٩٦٤، وكانت له وللضابط الدرزي الآخر معذى زهر الدين علاقات صداقة مع إيليا كوهين الجاسوس اليهودي في سوريا، وقد هرب سليم حاطوم إلى الأردن إثر محاولة انقلاب فاشلة في سوريا، ثم رجع إليها واعتقل ومات تحت التعذيب في السجون السورية.

وللدروز دور في التآمر في حرب تشرين، وذلك للخيانة التي تحدث عنها الإعلام السوري حينها عن العقيد الدرزي «رفيق حلاوة».

بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣، كان الأمير «حسن الأطرش» لاجئًا سياسيًا في دولة مجاورة لسوريا، واكتشفت مخابرات الدولة أن الأمير الدرزي دخل الجولان سرًّا، واجتمع مع أركان النظام الإسرائيلي والزعماء الدروز في الأرض المحتلة. (ص٩٣).

وأما عن الدروز في فلسطين والجولان، ففي الصفحات (من ٩٧ إلى ١٢٧)

وفيها تكلم عن قرى الدروز، والقيادة الدرزية في خدمة إسرائيل، ختم الشيخ البحث بعنوان «لقد حصحص الحق» فذكر ما ملخصه:

الدروز متورطون مع اليهود في كل شيء: في الجيش والأمن والمخابرات والإعلام والتعليم والسياسة والاقتصاد. (ص١٢٤).

**الثانية :**

عندما كتب عن النصارى في عهد الاستقلال، ذكر الشيخ كلمة عن هذه المرحلة قال فيها:

زرت بيروت في الهدنة الأولى التي جاءت بعد مذبحة عين الرمانة، وتجولت في أحياء المدينة ومخيماتها، وشاهدت الخراب والدمار، وكل الذي رأيته كان ينذر بالانفجار لا محالة، وسألت بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية: هل انتهت الحرب؟ أم تتوقعون أن تنفجر مرة أخرى؟ فكان ردهم لن يتجدد القتال مرة أخرى، بعد أن تلقى الموارنة ضربة شديدة. وحاولت إقناعهم بغير ما يرون، فلم أفلح.

ثم قال: كنت أبحث عن جواب للسؤال التالي: ما هي الخطة التي سار عليها الموارنة حتى تمكنوا من السيطرة على لبنان؟ ثم عرض خطة المارون الاقتصادية والسياسية والإدارية والثقافية والعسكرية...

ومنذ بداية حرب لبنان وأنا أتابع باهتمام ما يكتب عنهم من كتب ودراسات ووثائق. (ص١٨٥).

ثم عرض الوثيقة التي تنص على الوصايا العشر لنصارى لبنان.. هذه الوثيقة يعود تاريخها إلى سنة ١٩٤٣م، وحصل عليها الفلسطينيون أثناء اقتحامهم أحد الأديرة في المتن، خلال حرب لبنان سنة ١٩٧٥م الوثيقة كتبت بالفرنسية، وفي ٢٠ أغسطس ١٩٧٦ أذاعها كمال جنبلاط ونشرتها الصحف اللبنانية، ومما جاء فيها:

يا أبناء يسوع المسيح، يا من صبرتم على الذل والهوان عبر القرون دفاعًا عن عقيدتكم، أيها الشرفاء الأطهار، لا تنسوا هذه الوصايا العشر:

١- إن هذا الوطن لم يخلق إلا لكم، حتى تجمعوا شملكم فيه، وتباشروا حريتكم بعد الحروب التاريخية، فاعلموا جيدًا أن كلمة لبناني معناها مسيحي، أما العرب الذين جاؤوا من الصحراء، فيجب أن يعودوا إليها.

٢- إننا قد رتبنا لكم أهم الأشياء التي تضمن لكم معيشة حسنة على هذه المنطقة، مثل تمليك الأراضي والتوكيلات الأجنبية..

٣- جاهدوا للسيطرة على المصايف وأمور السياحة وامتلاك ساحل البحر، وأخرجوهم من قراكم كلما أصبحتم غالبية أو أغلبية، ولا تنسوا تجهيز ميناء احتياطي في مدينة غير بيروت.

٤- عليكم بأسباب القوة من لياقة بدنية وتنظيمات للشباب، واهتموا بالجيش، وعليكم بكتمان أموركم، والوثوق من سلامة صفوفكم؛ لأن المعركة مع الأعداء مستمرة وطويلة.

٥- احرصوا على الزعامة الأدبية كنشر الكتب والسيطرة على النقابات والاتحادات، ولا تعترفوا أن تراث لغتكم وتاريخكم ملك للمسلمين وحدهم.

٦- إن الاختلافات المذهبية بينكم يجب ألا تخرج عن النظرية والسطحية؛ لأن حياتكم مرهونة باتحادكم أمام العدو الكافر، ولأنكم أبناء يسوع الذي علمنا المحبة.

٧- ادرسوا دائمًا مخططات الآخرين، وتداخلوا معهم؛ لتعرفوا ما عندهم. ولا مانع للبعض من التظاهر بتأييدهم عند الضرورة، ولكن كل واحد يبقى مرتبطًا برؤسائه وكنيسته، ولا يعصى أوامر الآباء المخلصين لكم.

٨- ارفعوا رؤوسكم وشعائركم في كل مكان مرتفع على الطرقات العامة وعلى رؤوس التلال وفي المدارس ومراكز البعثات. واعلموا أن كل القوة

الجبارة في العالم الحر تساعدكم وتقف إلى جانبكم في أسرع وقت.

٩- اجتهدوا في التقرب من ملوك العرب ورؤسائهم بالخدمات الطبية والخدمات الشخصية، وهذا شيء سهل جدًا، ولكنه يفتح لكم مجالات واسعة للعمل، ويدر عليكم أموالًا طائلة ونفوذًا كبيرًا حتى في البلاد المستعصية عليكم.

١٠- إن معركة الجنسية اللبنانية شديدة الأهمية، فدققوا كثيرًا في ذلك واهتموا بإخوانكم المغتربين والذين نزلوا عليكم من البلدان الأخرى لتحتفظوا بحقوق الأكثرية المقررة لكم.

وبعد أن نقل الشيخ هذه الوصايا، ذكر الخطة التي رتبوها لتنفيذ هذه الوصايا، وذلك على الجوانب التالية: الثقافية، والاقتصادية، والعسكرية والإدارة والحكم، كل ذلك بالأرقام والإحصائيات. (انظر الصفحات ١٩٠-٢٢٢).

**تنبيهات :**

١- استغرق البحث عن النصارى في العهود الثلاثة: العثماني والفرنسي والاستقلال (وثائق من تاريخ النصارى في بلاد الشام المعاصر) من الصفحات (١٣١-٢٥٩).

٢- نقلت نص الوثيقة (الوصايا العشر) للنصارى، نقلت وصاياهم العشر كاملة، ليعلم القارئ أن هذه الوصايا قد عملوا على تحقيقها بجد واجتهاد، فقد حرص النصارى على الصدارة والتقدم في المراكز الثقافية والأدبية، ونجحوا في إقامة علاقات مع الأمراء والملوك، ولذلك كان وجودهم وتبوؤهم مراكز مرموقة وتواجدهم في دول الخليج العربي والسعودية، يلفت انتباه كثير من المهتمين بالشؤون الاجتماعية والسياسية.

يلاحظ القارئ منهج الشيخ محمد سرور في الكتابة والمتابعة والاهتمام

بشؤون البلاد الإسلامية وشعوبها، واتباعه المنهج الإحصائي كما أشرت لذلك من قبل، وأيضًا عدم اعتماده على النقل، إنما يخاطر بنفسه ويتجشم صعوبات السفر ليرى عن كثب حقيقة ما يجري.

وقديمًا قال أهل الأمثال: «ليس الخبر كالعيان»، و«ليس من سمع كمن رأى».

**الثالثة :**

عند الكلام عن «وثائق من تاريخ النصيريين المعاصر»، من الصفحات (٢٦١-٢٨٧)، ذكر فيه الموضوعات الآتية:

- **ثورة صالح العلي**: أعلن ثورة على الفرنسيين سنة ١٩١٨م، واستمرت حتى نهاية ١٩٢١م، وعقد مع مصطفى كمال اتفاقية في ٧/ ٩/ ١٩٢٠م، ومصطفى كمال من يهود الدونمة، وكان له باع طويل في هدم الخلافة الإسلامية.

صالح العلي من زعماء النصيرية، ساهم في هدم الخلافة الإسلامية عندما قام بقطع الطريق التي تصل طرطوس بحماة، وكانت خسائر الأتراك كبيرة من جراء ذلك.

- **سلمان المرشد**: إله النصيريين.. برز دوره بعد انتهاء ثورة صالح العلي، وتجمع النصيريون حوله، وزعموا أنه إله لهم، فعبدوه من دون الله، بدأت سيرته ١٩٢٠، وسجن سنة ١٩٢٣م، ونفي إلى الرقة حتى سنة ١٩٢٥، وعاد من منفاه، واستماله الفرنسيون، وجعلوا لبلاد العلويين نظامًا خاصًا، فقويت شوكته، وعين سنة ١٩٣٨م قضاة وفدائيين، وجعل لجيشه ألبسة خاصة، كان يزور دمشق نائبًا عن العلويين في المجلس النيابي السوري، عندما جلا الفرنسيون عن سوريا تركوا له أسلحة، مما أغراه بالعصيان، فجهزت الحكومة السورية قوة فتكت ببعض أصحابه، واعتقلته ثم قتلته شنقًا.

- **عريضة الزعماء النصيريين إلى رئيس الحكومة الفرنسية**: هذه العريضة

نقلها الشيخ من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية، وثيقة رقم (٣٥٤٧) بتاريخ ١٥/ ٦/ ١٩٣٦م، وفيما يلي نصها:

دولة ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية، إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم السني، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل.

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود الطيبين الذين لجأوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونشروا على أرض فلسطين الذهب والرفاه، ولم يوقعوا الأذى بأحد، ولم يأخذوا شيئًا بالقوة، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة، بالرغم من وجود انجلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا.

إننا نقدر نبل الشعور عند الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن هذا الهدف الشريف، لأنها خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين.

ونحن الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه المذكرة نستصرخ حكومة فرنسا لحريته واستقلاله، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله، وهو واثق أنه لابد واجد لديهم سندًا قويًا لشعب علوي صديق قدم لفرنسا خدمات عظيمة.

الموقعون: محمد سليمان الأحمد، محمود آغا حديد، عزي آغا غواش، سلمان المرشد، محمد بيك جنيد، سليمان الأسد.

**تنبيهات:**

- منذ سنوات قريبة، كتب أحد الشخصيات المحسوبة على العمل الإسلامي

ينافق للنصيرية بأنهم من المسلمين!!

أما كان من الأولى به أن يقرأ نص هذه الوثيقة، فهم بكتبهم وأفعالهم ومنطقهم يقولون: إنهم شعب يختلف في معتقداته وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم، فهم كفرة عند كل المذاهب الإسلامية، حتى في كتب وعقائد الشيعة نصوا على تكفيرهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

- يلاحظ القارئ لهذه الوثيقة وغيرها العلاقة الوطيدة التي تربط بين اليهود والنصيرية من خلال إشفاقهم على اليهود وتعاونهم معهم، فكيف اغتر بعض المسلمين أن النصيريين حريصون على تحرير فلسطين أو الجولان؟!!

- كيف اغتر وصدق بعض أهل فلسطين من فئة حماس أن سوريا النصيريين دولة ممانعة؟ والعجيب أنك إن ناقشتهم يقولون: نحن نعرف، ولكن...

**فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم**

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

- في عهد الاستقلال، بعد إخماد فتنة سلمان المرشد انضم معظم النصيريين إلى الحزب القومي السوري، وكان لهم دور في مؤامرة ١٩٥٦ على الحكم البرلماني ومن المتورطين فيها «غسان شديد» شقيق «صلاح شديد».

- وفي أوائل الستينيات ركبوا موجة حزب البعث العربي الاشتراكي، وبسرعة عجيبة تحول القوميون السوريون من أبناء الطائفة إلى أعضاء في حزب البعث، وبعد انقلاب الثامن من آذار سنة ١٩٦٢ كان لهم دور بارز في كشف أسرار التنظيم الناصري، ومن أشهر ضباطهم في هذا الدور العقيد محمد عمران والنقيب محمد نبهان.

---

(١) الحج: ٤١.

– وبعد سحق الناصريين، اشترك النصارى والنصيريون والدروز في حكم سوريا، والأكثرية كانوا من النصيريين، وفي منتصف الستينيات طردوا ميشيل عفلق وشبل العيسمي وتبعهم حاطوم، وفي أواخر الستينيات كان الحكم في سوريا خالصًا لهم.

– في ٢٥/ ١١/ ١٣٨٧هـ، أصدر أحد أبناء الطائفة النصيرية بيانًا كشف فيه المؤامرة، وذكر اسمه «عبد الرحمن الخير» يعرفه أهل الساحل، البيان يتعلق حول وحيد العين، ويعنون به الأعور الذي سيتم في عهده قيام دولة النصيرية. وقد فسروه «بموشى دايان»، ونقل في البيان اجتماع النصيرية الأول في القرداحة سنة ١٩٦٠م وما فيه من قرارات سرية، والاجتماع الثاني في حمص والقرارات التي يحتويها أيضًا. (انظر: ص٢٧٤-٢٨٤).

– **توزيع الأدوار**: تسلم مقاليد الحكم ضباط عسكريون، ومعظمهم من غير المسلمين، ويكون في الانقلابات نصيب الأسد لغير المسلمين، ولهم خطة يتبعونها كالآتي: يتسللون إلى قيادة كافة الأحزاب الجاهلية، ويقفون من النظام الحاكم مواقف مختلفة، فقِسْم منهم مؤيد للنظام ويشارك في اقتسام الغنائم. وقسم ثان يعارض النظام القائم وهم قلة، يعارضون من منطلق قوي ومن أحزاب مرشحة لوراثة الحكم القائم. وقسم ثالث يصفقون لأي حكم، ويدعمون أبناء طائفتهم المشاركين في الحكم.

وفي القسم الثاني من الكتاب من الصفحات (٣١٠ إلى ٣٥١) بعنوان إسرائيل ومؤامرة الدويلات الطائفية. وأطراف المؤامرة هم: النظام النصيري والدروز والموارنة والولايات المتحدة الأمريكية.

مخططات زعماء اليهود تؤكد أنهم يسعون من أجل إقامة دويلات طائفية تعزل الكيان الصهيوني عن البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية، فهذا المخطط هو مطلب اللجنة الصهيونية البريطانية، كتب «إسرائيل سيف» في

مجلة فلسطين الصادرة في يوم ١٥ شباط ١٩١٧م مقالًا مفاده: أنه يجب إقامة دولة يهودية تضم فلسطين وجنوب لبنان والجولان وحوران وشرق الأردن.

- وفي مذكرات «بن غوريون»: يرى أن رسم الحدود الشمالية للدولة بمحاذاة لبنان، إلى جانب القيمة التاريخية لجبال الجليل وأهميتها العملية للأمة، يشكل جوار لبنان دعمًا سياسيًا هائلًا لدولة اليهود، لبنان هو الحليف الطبيعي لأرض إسرائيل اليهودية، لأن شعب لبنان المسيحي يواجه نفس مصير اليهود على حد زعمه، أي «بن غوريون».

- وفي كتاب «جنجر إسرائيل» للكاتب الهندي «ر.ك.كارانجيا» صاحب مجلة «بليتز» الهندية، تضمن الكتاب وثيقة سرية أعدتها الأركان العامة الإسرائيلية تتضمن تفتيت الوحدة العربية عن طريق إنشاء دول جديدة في المنطقة، دولة درزية، ودولة شيعية، ودولة مارونية، ودولة علوية، ودولة ذات استقلال قبطي. (ص٣١٤).

وفي الوثيقة التي سربتها السفارة السوفيتية في بيروت نشرت الوثيقة في الشهر التاسع سنة ١٩٧٦، ومفادها أن سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل وحلفاءهم اتفقوا على تقسيم لبنان إلى دويلات، دولة مارونية في جبل لبنان، ودولة إسلامية في الشوف والساحل، والجنوب للمسلمين والفلسطينيين، ضم البقاع، وقسم من شمال لبنان إلى سوريا، ودولة درزية في الجولان.

وهناك رسائل متبادلة بين ريمون إده وهنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا، واتصالات درزية يهودية كشفها كمال كنج الدرزي، تؤكد قيام الدويلات الطائفية (ص٣١٧-٣٢٩).

**الرابعة :**

**وفي القسم الثالث من الكتاب (الصفحات ٣٥٣-٤٩٩)**: دور حافظ الأسد في المؤامرة، وقد جعله في أربعة فصول هي:

الأول: أرومة حافظ الأسد، والثاني: سقوط الجولان، والثالث: اتفاق فصل القوات في الجولان، والرابع: دور الأسد في الحرب اللبنانية.

وقبل أن يدخل المصنف في تفاصيل هذه الموضوعات، مهَّد لها بعنوان «دراسة ظاهرة الأسد» وقد كفت وأغنت؛ إذ أجملت تاريخ حافظ الأسد المشين والمآسي التي أوقعها في الشام وغيرها.

فلم تعرف سوريا في كل حقب التاريخ أسوأ وأظلم من الحقبة التي جاء فيها هذا الطاغية، وفترة حكمه ستبقى ظاهرة غريبة في تاريخ أمتنا المعاصر.

- كان ضابطًا مغمورًا يكره الإقدام والمغامرة، وجاء به انقلاب الثامن من آذار ولم يكن له يد في صنعه، وحصلت الانقلابات فأصبح عضوًا في مجلس قيادة الثورة وفي القيادة القطرية لحزب البعث!!

- في سنة ١٩٦٧ أذاع بلاغ سقوط القنيطرة، وبعد كشف خيانته هو ومن معه لم يجدوا من يكبح جماحهم، فبعد ثلاث سنوات أطاح الأسد بشريكه جديد ومساعديه نور الدين الأتاسي ويوسف زعين، وأصبح رئيسًا للجمهورية السورية.

- في سنة ١٩٧٣ قرعت طبول حرب تشرين، وأسفرت عن كارثة جديدة استولى اليهود فيها على تسع وثلاثين قرية جديدة من الأراضي السورية!! وكانت النتيجة التي يرددونها: خسرنا الأرض ولم نخسر الإرادة!!

- في أواخر سنة ١٩٧٥ دخل جيش الأسد النصيري إلى لبنان ليقف مع الموارنة ضد المسلمين، وشارك في مجزرة تل الزعتر، وجسر الباشا!! ثم يزعم حماية الفلسطينيين ومخيماتهم في لبنان!!

- منذ سنة ١٩٨٧ وهو يبطش وينكل بالدعاة المسلمين في سوريا وغيرها، فمجزرة تدمر، ومجزرة حماة قتل فيها أكثر من ثلاثين ألفًا!!

- في الإطار العربي: أنشأ منظمة فلسطينية أسماها «الصاعقة» أخذت على

عاتقها شق منظمة التحرير الفلسطينية، واستمالت إليها حبش وحواتمة وجبريل وأبا نضال.

– حاول أن يقيم وحدة مع العراق، ثم مصر وليبيا، ثم مع الأردن، وتبين لقادة هذه الدول أنه يصافحهم بيد ويمسك باليد الأخرى خنجرًا، فيسعى للغدر بهم، فتخلوا عنه!!

– بعد قيام الصلح بين مصر وإسرائيل «اتفاقية كامب ديفيد» أقام الأسد جبهة الصمود والتصدي، تضم سوريا والجزائر وليبيا واليمن الجنوبي ومنظمة التحرير، وبعد خمس سنوات من مسرحية الصمود والتصدي قال بعض زعماء المنظمة: «إنها جبهة الاستسلام والتردي».

– أقام حلفًا مع شاه إيران، واستمر الحلف بشكل أوثق مع الخميني ورفاقه!!

– يدعي حزب البعث العربي الاشتراكي العروبة ، وهو في الوقت نفسه يوالي الثورة الفارسية، وكان عدوًا لدودًا للعراق ودول الخليج العربي!!

– أقام علاقات متينة مع الاتحاد السوفياتي، وبينه وبين الولايات المتحدة تعاون ومعاهدات، رغم ادعائه عداوة الولايات المتحدة الأمريكية!!

## الفصل السادس

## كتاب «العلماء وأمانة الكلمة»[(١)]

إن أعظم مصيبة نالت الأمة الإسلامية في هذا العصر هي **تنحية الشريعة الإسلامية** والتخلي عنها، وذلك بعد أن تولى زمام الأمور قوم طبعوا على الشر والرداءة، وأُسسوا على الفحش والبذاءة، فتركوا سبيل الهدى والرشاد وسلكوا سبيل الردى والعناد، وخلعوا عنهم ربقة الإيمان، وتمسكوا بحبائل الشيطان، وهجر القرآن، وفرضوا على الناس قوانين الكفر والطغيان، بعدما كان الناس آمنين سعداء في ظل الاحتكام والالتزام بشريعة الرحمن.

وقد فعل ذلك بعض من آلت إليهم الأمور في بلاد المسلمين، متأثرين ومعجبين، أو منفذين لمخططات من تربوا على أعينهم من أعداء الإسلام، حتى لو أنهم دخلوا جحر ضَبٍّ لدخلوا معهم.

لقد حملوا الناس على الالتزام بالشعارات والأفكار التي طرحت في بلاد الغرب للثورة على الدين والتخلص منه، (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) (الدين لله والوطن للجميع) (اشنقوا آخر قسيس بأمعاء آخر قيصر).

لقد أدخلت هذه الأفكار في المناهج الدراسية، وأنشئت لها مراكز ثقافية، ودعا إليها أمام الملأ كبار الشخصيات، وبسطوا أيديهم وألسنتهم بالأذى والسوء إلى جميع العلماء الصالحين والدعاة.

وهكذا نُقضت عُرى الإسلام، لكنها لم تُنقضْ دفعة واحدة، وإنما حصل ذلك باستدراج ومكر ومخادعة وخبث ودهاء، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[(٢)].

فالمجاهرة بالكفر وشيوع الرذائل والمنكرات التي تحدث في بلاد المسلمين

(١) هذه القراءة في كتاب «العلماء وأمانة الكلمة» نشرتها في مجلة «السنة» العدد (٨٢)، رمضان ١٤١٩هـ.
(٢) إبراهيم: ٤٦.

اليوم لم يكن أحد يتجرأ عليها قبل أربعين أو خمسين سنة، وما كان يكتبه العلماء أمثال رشيد رضا، وجمال الدين القاسمي، ومحمد بن إبراهيم، وأحمد شاكر، قليل هم الذين يجرؤون على الكتابة فيه اليوم!!.

كل هذه المعاني والأفكار تثور في نفس القارئ عندما يطالع ما كتبه الشيخ محمد سرور زين العابدين في المصنف الذي أسماه: «العلماء وأمانة الكلمة».

إن حسن الاختيار توفيق من رب السماء، الكلمة أمانة؟! ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]. العلماء هم الذين يتكلمون ويبينون، لا الجهلة والسفهاء؟! «إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل متى يبين الحق»؟

**مهمة العلماء:**

العلماء هم ورثة الأنبياء، والأنبياء هم الذين كانوا يسوسون الناس، فالعلماء هم أولياء الأمور، كذا قال كثير من المفسرين، فهم الذين تجب طاعتهم؛ لأنهم يبلغون عن الله والرسول.

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء، فقد أوجب الله عليهم بيان الحق للناس، وحرّم عليهم كتمانه، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُولَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[٣].

«**فمن سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»[٤]، هكذا ورد عن النبي ﷺ. كما أوجب الله سبحانه على الناس الرجوع إلى علمائهم ليستفتوهم في المسائل الشائكة، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥].

---

(١) ق: ١٨.
(٢) آل عمران: ١٨٧.
(٣) البقرة: ١٥٩.
(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، وصححه الألباني.
(٥) النحل: ٤٣.

**ماذا يريد الناس من العلماء ؟**

إن ما يطلبه الناس من العلماء هو بيان الشرع فيمن استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، وليس المطلوب منهم حمل السلاح أو دعوة الناس إلى ذلك، أو الإفتاء بالخروج؛ لأن الخروج لا يكون إلا عند توفر شروط، منها: استفراغ النصح، ومنها الاستطاعة.

**أصناف المنتسبين إلى العلم ومواقفهم** :

في حال وقوع الفتن والمحن يتلفت الناس إلى المنتسبين للعلم ويأخذون بأقوالهم وفتاويهم. هذه المصيبة- التخلي عن تحكيم الشريعة- وهي التي تبكي العيون، وتكدر صفو الحياة، وتنغص لذيذ المعاش، انقسم المنتسبون للعلم بشأنها في هذا العصر إلى أصناف، وكذلك كانت مواقف المنتسبين للعلم من الفتن في كل عصر:

- صنف يعملون بما يعلمون، ميزتهم أنهم يصدعون بالحق ولا يخشون في الله لومة لائم، جعلوا همهم طاعة الله والعمل بأحكام الدين، وتركوا الدنيا وراء ظهورهم، وينأون بأنفسهم عن مجالسة الظالمين والتزلف إليهم، وقبول وظائفهم، ومَن قَبِل منهم الوظائف لم يكن يتردد في التنازل عنها إذا تعارضت مع مواقفهم الثابتة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعتقدون بوجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، ويرون أن الأمة تفتن إذا كان الدين لغير الله، أو إذا كان بعضه لله وبعضه لغير الله.

ويعتقدون أن المنكر إذا كان عامًا فإن النهي عنه يكون عامًا، ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المُكره كانت عامة، وموقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كانت عامة. وإنكار العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد أخيه سلطان مصر كان عامًا، ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع من وفد علماء دمشق الذين كانوا

برفقته أمام كبار قادة جيش قازان كان عامًا، ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة، لأنها تتعلق بقضايا عموم المواطنين، ويوقع عليها مع النووي عدد من كبار العلماء.

لا ينكرون المنكر بمنكر أشد منه، ولا يجيزون اقتتال المسلمين فيما بينهم، هؤلاء العلماء الذين يتميزون بهذه الصفات هم أمل هذه الأمة بعد الله عز وجل، وهم مرجعية أهل السنة والجماعة، وهم الذين يمتثلون عقيدة أهل السنة والجماعة في كل موقف من المواقف، ولا يقبلون من طاغوت من الطواغيت أن يفرض أوامره وتعليماته عليهم، وإن عرَّضهم ذلك للسجن والأذى.. علماؤنا هؤلاء قابعون كالأسود في سجون الطغاة المبدلين لشريعة الرحمن، ومن سلم من السجن أو النفي فهم مرابطون في مواقفهم يؤدون دورهم المطلوب بهمة عالية لا تعرف الكلل ولا الملل.

علماؤنا هؤلاء قد رزقهم الله تعالى القدرة على فهم مشكلات الأمة الإسلامية، كما رزقهم الاستقامة والبعد عن مواطن الشبهات، ولهم جهود مشكورة في بيان الدواء الشافي لعلل أمتنا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، ومهما فعل الظالمون فلن يستطيعوا حجب الشمس عن الشروق.

أليست هذه الأحوال والميزات والمواقف كانت لأبي حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، والبخاري، والنووي، والعز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية؟ وإن العلماء الصالحين المصلحين لا يخلو منهم عصر من العصور، ولا مِصر من الأمصار، والحمد لله.

ولن يجد الناس صعوبة في الاهتداء إليهم؛ لأن الله تعالى قد خصهم بكثير من الصفات التي كان يمتاز بها الهداة المهديون من أئمة هذا الدين.

- وصنف نالوا العلم وولوا به المناصب فظلموا، وتركوا التقيد به، وركبوا

الكبائر، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وأفتوا لكل متكبر جبار، بل أحلوا له الكفر والمنكرات، فالبنوك الربوية، والقوانين الجاهلية، ومصانع الخمور، وبيوت الدعارة، ومجلات العهر والفجور والفساد، كلها من سماحة الحاكم ورحمته وحسن تدبيره وعبقريته، ويطلقون على الحكام أوصافًا وأفعالًا لا تليق إلا بالله!!.

– وصنف آخر من العلماء اشتهروا بين الناس بالعلم والصلاح والورع، وتجنبوا في حياتهم الخاصة والعامة مواطن الشبهات، مثل التسكع على أبواب السلاطين، وتزيين قبائحهم والنفاق لهم. وقد أكسبتهم هذه الصفات شعبية واسعة ومكانة مرموقة داخل بلدانهم وخارجها، ولهذا يتطلع الناس إليهم في الملمات، وينتظرون ماذا سيقولون، وإذا حددوا مواقفهم تبعهم في ذلك خلق كثير.

ولا مقارنة بين هذا الصنف من العلماء، وبين الصنف الذين مردوا على النفاق والتزلف، وتقديس السلاطين، والتقيد بأوامرهم وتعليماتهم.

**كيف يُوقِع السلاطين العلماء في شراكهم** :

يسعى السلاطين بخبثهم ودهائهم، ثم بمكر مخابراتهم وكبار مستشاريهم من شياطين العلمانية إلى هؤلاء العلماء، ويطلبون منهم بإلحاح قبول الوظائف الدينية الكبيرة، ويعدونهم بالتعاون معهم من أجل إجراء إصلاحات واسعة في سائر مرافق الدولة.

وبعد وقوع العلماء في شراك السلطان، يرتب كيفية عملهم، ويضعهم في موضع من يتأثر ولا يؤثر، بحيث لو أراد الخروج على قواعد اللعبة المرسومة لما وجد إلى ذلك سبيلًا، لأن الذي اختارهم هو الذي اختار مساعديهم، حتى صغار الموظفين في مكاتبهم.

يؤثر مرور الزمن على هؤلاء الشيوخ، فيألفون المنكرات اليومية التي يرونها

والتي كانوا من قبل يقيمون النكير على فاعليها، وتتضاعف عندهم الرغبة في التماس الأعذار، ولو أراد باحث جمع فتاويهم بين القديم والحديث لوجد تناقضات مخجلة، فالمستحيل أصبح ممكنًا، والمقطوع بأمره صار يحتمل عدة وجوه، والحكم بغير ما أنزل الله أخرجوه من أقسام التوحيد، ومن خالفهم أضافوا اسمه إلى قوائم الخوارج والمبتدعة والمتطرفين الإرهابيين!!.

**ولكنهم لا يتعظون !!**

إن واقع العلماء الذين ساروا في ركاب السلاطين الظلمة، ومذكراتهم التي كتبوها قبل مغادرتهم لهذه الدنيا الفانية- رغم ندرتها- تؤكد أن السلاطين ما كانوا يحبونهم رغم الخدمات المهمة التي قدموها لهم في أيامهم الحرجة؛ وذلك لأن هؤلاء العلماء مهما بلغوا من رقة الدين، ومن القدرة الفائقة على النفاق، لا يتجاوزون خطًا معينًا في هذا التعامل. فلم ينقل إلينا عن أحد منهم أنه كان يتعاطى الخمر أو المخدرات، أو يدعو إلى الشرك والزندقة، أو يوالي أعداء الله من اليهود والنصارى، أو يتبنى عن قناعة حرب الله ورسوله والذين آمنوا.

**لذلك نختار الأمثلة التالية** :

- كان الشيخ أحمد حسن الباقوري وزيرًا للأوقاف في حكومة الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، ثم طرد من الوزارة بسبب وشاية كاذبة، ولم تشفع له الخدمات النادرة التي قدمها لعبد الناصر ونظام حكمه.

يقول في كتابه «بقايا ذكريات»: «كانت بطانة عبد الناصر من أسوأ البطانات في الأرض إلا قليلًا ممن عصم الله، فكانوا يحرصون على استغلال قربهم منه: إما رجاء لخيره، وإما اتقاء لشره، وهم مع ذلك قليل جدًا، ولقد كان من أشد ما ابتلاه الله به أخذه بالنظام الهتلري في حكم الشعب، واستعانته برجال المخابرات النازية الذين حاولوا أن يصنعوا بمصر ما كانوا يصنعونه بألمانيا في عهد هتلر».

ويقول أيضًا: «وليس يرتاب الـذين يؤرخـون لهـذه الثـورة في أنهـا كانـت كسائر الثـورات تـستند إلى أمـرين: أحـدهما التوسـع في نـشرها الجاسوسـية، وثانيهما: اصطناع أنـصار يـستغلون صـلاتهم بـالثوار. فأمـا التوسـع في نـشر الجاسوسية فقد اقترن في أذهان الناس بأنه كلما استطاع الجاسـوس أن ينـصب شركًا لأحد خصوم الثورة كان أولى بالرعاية والثقة بـه، وكـان بعـض هـؤلاء يصطنعون في كل بيت وكل مكتب أصدقاء لهم يأتونهم بأخبار صادقة أو كاذبة لقاء أجر معلوم، وقد نـشأ عـن ذلـك أن أصـبح الوالـد يتجـسس عـلى ابنـه، والجميع ينتظرون من الدولة حسن المثوبـة وجزيـل العطـاء في منـصب يـسند إليهم، أو مغنم يدر عليهم أخلاف الرزق الوسيع».

في حديثه عن بعض الشائعات التي روجها النظـام ضـده بعـد طـرده مـن الوزارة يقول: «لست أنسى ابني عبد العزيز عبد الوارث الدسوقي الذي جـاء في صباح اليوم التالي لاستقالتي مغيظًا محنقًا، ثم أخبرني أن من الإشاعات التي أطلقوها ضدي إشاعة غبية بقدر ما هي مضحكة، ووجه الإضحاك والغباء في هذه الشائعة أنني كنت في رحلاتي العالمية أحمل معي في حقيبـة يـدي عمـلات مختلف البلاد التي كنت أزورهـا، مـن فرنكـات سـنغالية، وأخـرى فرنـسية، وجنيهات استرلينية، وكانت هذه الحقيبة تأخذ مكانها في مكتبي بـالوزارة مـع مذكراتي ومقالاتي التي كنت أريد أن أحتفظ بها، وقد استولى القـوم عـلى هـذا كله، ظانين أنه يحمل أسرارًا تثبت أنني أدبر مؤامرة ضد عبد الناصر».

ومع ذلك فهل عاد الشيخ إلى رشده بعد هذه الإهانات التي تلقاها من عبد الناصر ونظامه؟

لم يعد الشيخ إلى رشده، بل سارع إلى قبول أول عرض يعرضه عبد الناصر عليه، مع أنه كان أقل من منصب وزير، وبعـد هـلاك عبـد النـاصر انـضم إلى الجوقة التي تصفق للسادات، ففي كلمة ألقاها في مؤتمر نظمته الحكومة لتأييـد

السادات والتنديد بمعارضيه قال:

«إن السلطان هو ظل الله في الأرض، وظل الله في الأرض له حرمة ومهابة، فلا يجوز المساس بالسلطان أو الإساءة إليه بكلمة، حتى إن الفقهاء قالوا: إذا كان السلطان يركب بغلة وذيل بغلة السلطان مقطوع فلا يجوز التهكم على ذيل بغلة السلطان، فكيف بالتهكم على السلطان».

إن هذا وغيره كثير عندما انزلقوا في هذا الطريق الموحش وألفوا هذه الحياة، أدركوا رغم كل ما قدموه للسلطان أنهم لن يستطيعوا إرضاءه، وأنهم لن يبلغوا ما بلغه زملاؤهم العلمانيون، وما ذلك إلا لبقايا من دين في قلوبهم، ورغم ذلك فقد أصروا على المضي في هذا الطريق، وعز عليهم التوبة الصادقة، وهذه عاقبة مَنْ طلب رضا الناس بسخط الله.

ولا يكاد يسلم شيخ تسند إليه مسؤولية كبيرة من بطش السلطان، خاصة إذا تجاوز الخطوط الحمراء المرسومة له، وإذا تجاوز تصدر الأوامر الفورية بعزله، وقد يسمع خبر عزله من الإذاعة، وقد تفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله.

**قاصمة الظهر**:

الداهية التي دهمت المسلمين وأوقعتهم في أمواج الفتن، والملمة التي نزلت بهم واستولت عليهم بسببها الأحزان، هي تعطيل أحكام الشريعة الإسلامية، والخروج عليها، والعكوف على القوانين الجاهلية وإشاعتها.

وقد أظهر الحكام أبواب الجور على الناس، وفدحوهم بالنوائب المجتاحة، والرسوم الجائرة، وأشاعوا الرذيلة، وحاربوا الفضيلة، وخانوا العهود، وأظهروا الجفاء، وأهملوا الوفاء.

فمن ذا الذي يجهل ما يلقاه الدعاة في سجون الطغاة من إهانة وتعذيب؟ وبعد هذا الظلم الفظيع لا يعطي الطغاة المتهمين فرصة للدفاع عن أنفسهم

ليثبتوا براءتهم مما نسب إليهم أمام محكمة عادلة.

إن الأنظمة المعاصرة في ديار المسلمين علمانية في دساتيرها وقوانينها ومراسيمها الإدارية، وسائر شؤون الحكم فيها، وسدنتها لا ينكرون ذلك في تصريحاتهم ومواقفهم التي لا تنقطع كقولهم: «لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة»، ومنعهم ترخيص الأحزاب على أساس ديني، وغير ذلك، فإن قال قائل: إن هذه المنكرات التي تتحدثون عنها لا نراها في مجالس السلطان وكبار مساعديه، ولا نسمع منهم إلا كل ما فيه خير للإسلام والمسلمين.

فلرد هذه المقولة نشير إلى الأمثلة التالية:

**الأول**: ما هو معلوم من الدين بالضرورة أن بعض هؤلاء السلاطين نحّوا شريعة الله كلها، وبعضهم نحى بعض الأحكام الشرعية، وأساء تطبيقها البعض الآخر.. وحتى منظمات العفو الدولية تحدثت عن السجون والمعتقلات التي امتلأت بالأبرياء من خيرة العلماء والدعاة إلى الله، ولا يستطيع عالم من العلماء الادعاء بأنه لم يسمع بأخبار الأراضي التي اغتصبها إخوان الملوك والرؤساء وأبناؤهم من مالكيها، ولا يستطيع عالم من العلماء الادعاء بأنه لم يسمع بأخبار أصحاب الشركات الذين يذهبون مضطرين إلى إخوان الملوك والرؤساء يعرضون عليهم مشاركتهم دون أن يدفعوا قرشًا واحدًا، مقابل حمايتهم من إخوانهم أو أبناء عمومتهم.

وليس من العلماء من يجهل أمر العصابات التي تتنافس على السلب والنهب، وكل عصابة يتولى قيادتها وحمايتها قطب من أقطاب النظام تبدأ به وتنتهي بأطراف متعددة داخل البلد وخارجه، وقد صدر في أوربا وأمريكا عدد من الكتب ومئات المقالات عن هذه الفضائح.

**الثاني**: كانت المنكرات والمفاسد التي يرتكبها أئمة الجور شخصية ومحدودة، أما اليوم فقد أنشأت الحكومات دور الإذاعة والتلفاز، ونظمت

برامجها وفق مراسيم صادرة عن الجهات الرسمية، وأصبح الرقص والموسيقى والغناء عملًا مشروعًا.

وأما الصحافة فقد أصبحت قاصرة على العلمانيين من أهل الكفر والزندقة، وعلى المنافقين الذين يبدلون مواقفهم كما يبدل المرء ثوبه، وجندوا أعدادًا من الحاقدين المعروفين بعدائهم للإسلام، من النصارى والرافضة واليساريين ودعاة القومية والعلمانية.

والناظر في هذه الصحف الرسمية أو شبه الرسمية يقرأ فيها الإعجاب بالفلسفة الوجودية، والسخرية من الصحابة والتابعين، وحملات إرهابية مسعورة ضد الإسلاميين، إلى جانب ذلك اهتمام منقطع النظير بأخبار الرياضة والرياضيين، وأخبار الراقصات والمغنيات، وأخبار المسؤولين مع نسائهم.

**اعتراض وجوابه:**

إذا قيل: أنتم تبدؤون بمثل هذه المقدمات، وتتكلمون عن هذه الكبائر والمنكرات لتنتهوا إلى القول بتكفير الحكام.

قلنا: إن المسألة ذات شقين:

**الشق الأول:** ما هو الموقف من الحكام الذين يضعون هذه الدساتير والقوانين؟

والقفز عن الشق الأول من هذه المسألة موقف شخصي من الحكام، وليست المسألة صراعًا سياسيًا حول كرسي الحكم، كما يصورها أصحاب الأهواء، أو كما يدعيه الحكام وأجهزة إعلامهم وأمنهم.

ولو أراد المخالفون امتحان الدعاة فليطلبوا من سادتهم الحكام التوبة إلى الله، والعودة بالناس إلى تحكيم شريعة الله الواحد القهار، ولو استجاب الحكام لهذا لوجدوا الدعاة إلى الله خير بطانة لهم وأشجع من يدافع عنهم.

المسألة التي يجب أن يدور حولها النقاش، ما هو الموقف من هذه الأنظمة

كدساتير وقوانين وأحكام: هل هي إسلامية أم علمانية؟

ونأمل أن نجد عند من يخالفنا ويعترض علينا جوابًا على الأسئلة التالية:

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1]، فهل يحكم شرع الله بيننا في محاكمنا وسائر أمور حياتنا؟

وقال عليه الصلاة والسلام: «**اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي مُجَدَّع، ما أقام فيكم كتاب الله عز وجل**»[2]، فهل أقام الحكام اليوم فينا كتاب الله؟

وقد أمرنا عليه الصلاة والسلام ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن نرى كفرًا بواحًا[3]. أولسنا نرى اليوم كفرًا بواحًا عندنا من الله فيه برهان؟ فمن حاد أو تجاهل فليُنعم النظر فيما قاله الشيخ رشيد رضا- رحمه الله: «من المسائل المجمع عليها قولًا واعتقادًا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف، وأن الخروج على الحاكم المسلم إذا ارتد عن الإسلام واجب، وإن إباحة المجمع على تحريمه، كالزنا والسكر، واستباحة إبطال الحدود، وشرع ما لم يأذن به الله، كفر وردّة».

**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟**

كل من كتب في السياسة الشرعية والعلاقات الدولية من علماء الإسلام بحث في موضوع الإمامة، والشروط التي يجب توفرها في الحاكم، وواجبات الحاكم وطرق اختياره أو عزله، والخروج عليه، هل يجوز ذلك، ومتى يجب..إلخ.

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩/ ٤٢).

وكثير من العلماء الذين كتبوا في التفسير خصوصًا من أصحاب المناهج الفقهية في التفسير، كالقرطبي وابن العربي المالكي، والجصاص، والعلامة الشنقيطي من العلماء المعاصرين في كتابه الشهير «أضواء البيان» بحثوا هذه الموضوعات أيضًا.

فالذين يطرحون هذه المسألة الخطيرة للبحث ليسوا هواة سياسة، ولا يتطلعون من وراء ذلك إلى أطماع ومصالح دنيوية، وكل شرط أو فرض من فروض الإمامة عليه أدلة من كتاب الله- عز وجل- ومن سنة رسوله- عليه الصلاة والسلام- ثم من أقوال أئمة الإسلام، بل ومن إجماعهم في كثير من ذلك.

ولا تزال الحاجة ملحة إلى صدور مثل هذه الدراسات؛ لاسيما بعد جرأة الحكام على قراراتٍ ما كانوا قادرين على إصدارها في مرحلة الثلاثينيات من هذا القرن.

وفي مقدمة هذه المسائل التي يجدر بالعلماء بحثها: شرعية الأنظمة المعاصرة، وكيف نتعامل مع هذه الأنظمة العلمانية التي أصبحت بديلًا لنظام الخلافة، وبسبب ظلم الحكام وإرهابهم توارت الفتاوى والكتابات التي تسخط السلاطين، لأن العلماء لم يعودوا أحرارًا فيما يكتبون ويخطبون ويفتون، ولم يعد مسموحًا لهم بصدور دراسات وفتاوى تمس الطواغيت.

**ما سبب التفرق والنزاع وما السبيل إلى جمع الكلمة ؟**

إن انحراف كثير من أدعياء العلم وتقديمهم الفتاوى الباطلة للظالمين مقابل حصولهم على عَرَض من أعراض الدنيا الفانية، هو سبب من أسباب انحراف دعاة الغلو، وعندما يجد هؤلاء المرجعية الصادقة المستقلة من العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فسوف يتراجعون- أو يتراجع معظمهم- عن تنطعهم وغلوهم.

إن الفرقة عذاب، والخلاف شر، لا يستفيد منه إلا عدونا الذي عطل شريعة الله تعالى، وجعلنا شيعًا وأحزابًا، ولهذا فهو يعمل دائمًا على إذكاء نار البغضاء والشحناء بيننا، فقولوا لنا بالله عليكم: كيف نوحد صفنا ونتخذ مواقف جادة من قضية تعد من أهم قضايا عصرنا التي تمس عقيدة الأمة وكيانها؟

قولوا لنا: كيف نتجنب الغلو والتنطع في مواقفنا ونتجنب الميوعة والتسيب وأرباع الحلول؟ كيف يسكت بعضنا عمن بدل شريعة الله، ووالى أعداءه، ويروشون سهام غضبهم إلى الذين ينكرون هذا المنكر ويعملون طاقتهم على تغييره!!.

أليس من الواجب علينا التعاون فيما بيننا من أجل وضع حد لهذه الفوضى العارمة التي اجتاحتنا وجعلتنا أضحوكة بين الأمم.

**الطبعة الثانية من الكتاب:**

أعاد الشيخ تنقيح الكتاب مرة ثانية، وأضاف إليه فصلًا رابعًا، وفيما يلي وصف مختصر له:

- ظهرت الطبعة الثالثة منه عام ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- طبع وتوزيع دار الجابية- لندن- بريطانيا.
- عدد صفحات الكتاب ٢٠٠ صفحة.
- قسمه إلى مقدمة وأربعة فصول:

**الفصل الأول**: موقف علماء السلف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيه المباحث التالية: الأول: حدود طاعة ولي الأمر. والثاني: حتى لا تكون فتنة، والثالث: موقف شيخ الإسلام ابن تيمية.

**والفصل الثاني** بعنوان: الخير كل الخير في اتباع علماء السلف. وفيه المباحث التالية: الأول: أوضاع بلدنا أفضل مما هي عليه في البلدان الأخرى. والمبحث

الثاني: الخصال التي يجب توافرها في المفتي. والثالث: من هدي علماء السلف في اعتزال مجالس السلاطين. والرابع: التذكير بمنهج الاستدلال عند أهل السنة.

**والفصل الثالث**: علماء السلطان. وفيه المباحث التالية: أحمد حسن الباقوري. عبد الستار السيد. عبد العزيز كامل. شيوخ آخرون. ماذا كان يجري داخل السجون. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

**الفصل الرابع**: عندما يكون الحكم لغير شرع الله، وفيه المباحث التالية:

**المبحث الأول**: وافقنا العصر. والثاني: فتاوى العلماء المعاصرين، وذكر منهم: الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب، والإمام الآلوسي، والعلامة جمال الدين القاسمي، والعلامة محمد رشيد رضا، والعلامة محمد حامد الفقي، والعلامة عبد العزيز بن باز، والعلامة عبد الله بن حميد، وفتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

**والمبحث الثالث**: بعنوان «كلمتي الأخيرة»: بين فيه موقفه من مسألة تحكيم الشريعة الإسلامية. وبعد أن استعرض فتاوى العلماء الجهابذة المذكورين آنفًا، قال الشيخ: «ومع وضوح فتاوى العلماء وموقفهم في القديم والحديث فهناك من يقرؤها قراءة ليس فيها مثقال ذرة من العدل والإنصاف، ثم يطلبون من الناس اتباعهم وهؤلاء صنفان:

**الأول**: وهم شيوخ الظالمين، وعندهم كل حكم شرعي يجب ألا يتعارض مع رغبة السلطان وتعليماته، ويوجهون سهام نقدهم وتجريحهم إلى صدور الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وخلاصة قولهم أن الذين يثيرون مسألة الحكم بغير ما أنزل الله دعاة فتنة.

**والصنف الثاني**: يقولون: ها هم علماء الأمة أفتوا بكفر الدساتير والقوانين العلمانية التي فرضت علينا، وهذا يعني كفر الذين وضعوها وأقروها، ويبدؤون بتكفير رئيس الدولة، فوزرائه وقادة جيش الدولة وأمنها ثم كبار

المسؤولين، ثم يسترسلون فيكفرون من حكموا عليه بأنه كافر، وكل مسلم لا يحكمون بإسلامه حتى يختبروه. (انظر: ص١٨٠-١٨١).

ثم ذكر الشيخ تحت عنوان «ولاة الأمور وضوابط التكفير» من المبحث الثالث «كلمتي الأخيرة» فذكر أن هناك ثلاثة أنواع من الحكام في هذا العصر:

**النوع الأول**: يطبقون أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه البلدان قليلة جدًا. وباتفاق العلماء لا يجوز القول بكفر هذه الأنظمة أو كفر حكامها.

وإن قيل: إن هؤلاء يتلاعبون في تنفيذ الحدود؛ فينفذون بعضها ويتغافلون عن البعض الآخر، فالجواب: إن مثل هذه الخروقات كانت تحدث في عهد الخلافة الإسلامية.

**والنوع الثاني**: وهم أصناف:

**الصنف الأول**: رضوا بعدم تحكيم شرع الله؛ لأنه لا يصلح للحكم، زاعمين بأنه لا دين في السياسة.

**والصنف الثاني**: حزب علماني تسلم مقاليد السلطة في بلد يدين شعبه بالإسلام، وفرض على هذا الشعب عقائده الفاسدة.

**والصنف الثالث**: طائفة باطنية قرمطية استغلت ظروف وجودها بقوة في الجيش، وانقضت على الحكم في بلاد الشام، وتسلمت زمام الأمور.

**والنوع الثالث**: الحكم في بلادهم للدساتير والقوانين العلمانية المستوردة وليس لشرع الله ولم ينكر أحد من هؤلاء الحكام معلومًا من الدين بالضرورة، وهم أصناف متعددة: فمنهم من أعطى هامشًا من الحرية لشعبه واستفاد منه العلماء والدعاة، ومنهم من جاء إلى الحكم على ظهر دبابة ففرض على شعبه قانون الطوارئ، ومنهم من يخفض جناحه لمواطنيه ويتعاطف مع القضايا الإسلامية إن لم تسبب له ضررًا، وإن شعر بشيء من ذلك غيّر موقفه. (انظر: ص١٨٦-١٩٢).

## الفصل السابع
## كتاب «مساجد الضرار»
## كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين ؟

- عدد صفحات الكتاب: ٢٢٤ صفحة.
- ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- نشرته مكتبة دار اليقين، البحرين، ومكتبة دار الأرقم- برمنجهام.
- رتب الشيخ الكتاب على مقدمة وستة فصول وخاتمة تحتوي على نتائج البحث، ضمن الخطة الآتية:
- في المقدمة دواعي تأليف الكتاب والخطة التي سار عليها في تصنيفه.

**الفصل الأول**: لمحات عن النفاق، وفيه المباحث التالية:

تعريف النفاق لغة وشرعًا، متى بدأ النفاق، الحد الفاصل بين النفاقين. (انظر ص١٥-٤٤).

**الفصل الثاني**: صفات المنافقين، وذكر فيه ما كتبه ابن القيم في كتابه الشهير «مدارج السالكين» فابن القيم له أسلوبه الفذ، ورأيه السديد، ودقة استنباطه، في نصر الحق وفضح الباطل، حيث ذكر أوصاف المنافقين من خلال آيات القرآن الكريم؟ (انظر ص٤٧-٦٣).

**الفصل الثالث**: كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟

وقد مهَّد لهذا الفصل بتوضيح يبين فيه كيف يتم اختراق الجماعات الإسلامية من قبل المنافقين الذين يعلنون توبتهم عندما يشتد عود الجماعات الإسلامية، فيدخلون فيها ثم تسند إليهم المناصب القيادية.

ثم ذكر بعد ذلك ستة أمثلة على اختراق صفوف العمل الإسلامي في بلاد مختلفة وفترات مختلفة أيضًا. والأمثلة هي:

الأول : الطليعة الإسلامية. والثاني: عبد الناصر مصر ومصائب ثورة يوليو. والثالث: نجيب جويفل والانشقاق السوري سنة ١٩٥٤م. والرابع: سيد قطب وتنظيم سنة ١٩٦٥م. والخامس: الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر. والسادس: أحداث نيويورك تاريخ ٢٦/ ٢/ ١٩٩٣م.

**الفصل الرابع**: الإسلاميون وأجهزة الأمن.

وقد بيّن في هذا الفصل كيف تطورت أجهزة الأمن في بلادنا على إثر الانقلابات العسكرية، فتنوعت أجهزة الأمن وتطور عملها وتنامى من حيث المكر والدهاء والمخادعة والاختراق.

ثم ذكر بعد ذلك عدة أمثلة تبين قدرة هذه الأجهزة وكيفية تعاملها مع الجماعات الإسلامية، المثال الأول حصل مع الشيخ نفسه، والثاني عن المخابرات الليبية، والثالث ما تفعله المخابرات في سوريا. (انظر ص١٤٣-١٥٣).

**الفصل الخامس**: الصف الذي لم يخترق، وهو صف الصحابة- رضي الله عنهم. وذكر فيه: تعريف الصحابي، عدالة الصحابة، محاولات الاختراق، طبقات الصحابة في القرآن والسنة، وعند علماء المسلمين.

**الفصل السادس**: فوائد، وفيه المباحث الآتية:

الفائدة الأولى: طبقات الصحابة لا تخترق.

الفائدة الثانية: سابقون في الفضل كله.

الفائدة الثالثة: لكلٍّ دوره.

الفائدة الرابعة: الحذر.

الفائدة الخامسة: منهج مناسب لكل عصر.

الفائدة السادسة: الدعاة معروفون.

والخاتمة: تتضمن نتائج البحث.

**بصائر وتأملات:**

**الأولى:**

كنت قد أعددت مختصرًا لهذا الكتاب «مساجد الضرار» وبلغ عدد صفحات هذا المختصر ثلاثين صفحة من القطع الكبير، ويتجاوز عدد الصفحات إذا كان من القطع الوسط ستين صفحة، وذلك لما رأيته من معلومات هي في غاية الأهمية. وقد جعل الشيخ الكتاب في الأصل مختصرًا، مركزًا على مواضع العبرة من خلال الأمثلة التي ذكرها، إلا أن الضرورة اقتضت أن أختصر وأوجز هذه الصفحات بما يتناسب مع بقية فصول بحثي الذي أنا بصدده، فاضطررت إلى الاختصار، وهذا يعني من خلال وجهة نظري وحرصي على نصيحة كل أخ صادق يعمل في حقل الدعوة الإسلامية، ومن كان مهتمًا بقيام عمل إسلامي تتمثل فيه عزة المسلمين وقوتهم وسلامة صفهم- إن ذلك يقتضي أن يرجع إلى هذا الكتاب الأصل ويقرأه مرة بل مرات بإمعان النظر وتدبر الفكر، وسيكون بحاجة إلى أن يتساءل عن توضيح بعض الأمثلة التي ذكرها الشيخ فجعلها على طريقة القرآن الكريم تجاهل الأشخاص بأسمائهم وأماكن وزمن وجودهم، واكتفى بذكر موضع العبرة من الحادثة، لكن الشوق والرغبة تخامر كل من يقرأ الأمثلة أن يعرف مع من حصلت وأين وكيف، فهذا الذي وجدته من نفسي.

**الثانية:**

إن التجربة الطويلة التي قضاها الشيخ في حقل الدعوة الإسلامية ومنذ ريعان شبابه مع ما يتميز به من ذكاء وفطنة، أوجدت عنده خبرة وحكمة عظيمة بهذا الداء الدوي (النفاق) الذي يعرقل، بل ينهك ويحبط، عمل الدعاة، إما من داخل النفس نفس الداعية ذاتها، أو من قبل أعداء الدعوة بوضع الجواسيس ليحبطوها أو يفشلوها، ولذا فإن الشيخ- حفظه الله- أودع في هذا الكتاب معلومات هي خلاصة تجربة طويلة استمرت عقودًا من الزمن،

فقد كتب في هذا الموضوع منذ ثلاثين، بل أكثر من ثلاثين سنة، بعنوان «مساجد الضرار بين القديم والحديث» فأعاد النظر فيما كتبه مرة أخرى وجعله فصلًا من فصول الكتاب الجديد الذي نحن بصدد التأمل فيه والحديث عنه.

والكتاب- كما يذكر الشيخ- أشبه ما يكون بالمذكرات، إلا أنه استبعد منه الجانب الشخصي، ومعرفتي الوثيقة بالشيخ أكدت عندي هذا الخلق الذي تميز به، فهو لا يحب الإكثار من الحديث عن أعماله ومنجزاته كما لا يحب كثرة المدح والإطراء، بل تراه يتابع ويطالع ويبحث ويتأكد ويتحقق مما يسمعه أو يصل إليه من الأخبار والروايات، ولا يتعجل في اتخاذ قراراته ومواقفه، حتى يقارن ويوازن بين وجهات النظر التي تطرح أو الروايات التي يسمعها.

**الثالثة:**

أخطر ما تعانيه الدعوة الإسلامية والحركات الإسلامية هو داء النفاق وعمل المنافقين، ومن جعل القرآن الكريم دليله وهاديه إلى الخير سيجد حقيقة هذا الأمر؛ فأكثر سور القرآن تحدثت عن خطورة النفاق والمنافقين، فقال الشيخ: ومن أقوال علماء التوحيد واللغة نعلم حقيقة الأخطار الناجمة عن النفاق، والحديث عن النفاق والمنافقين لم يقتصر على سورة البقرة، بل جاء في السور التالية: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والعنكبوت، والأحزاب، والقتال والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر والمنافقون، والتحريم، واستغرق ما يقارب من (٣٤٠) آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها (٦٢٣٦) آية. (انظر ص١٨-١٩).

فبين في الفصل الأول من الكتاب معنى النفاق لغة واصطلاحًا، ومتى بدأ النفاق، وأنواع النفاق العملي والاعتقادي، والحد الفاصل بين النفاقين.

**الرابعة:**

عندما تقوى شوكة الجماعات الإسلامية ويشتد عودها، يستغل المنافقون

مبدأ التوبة؛ فيتظاهرون بالعبادة، وينشطون في كتابة المقالات ويتبرؤون من ماضيهم الأسود ويرحب بهم الذين يأخذون الأمور على ظاهرها، فيثقون بهم، وإذا قيل لهم: احذروا من هؤلاء الوافدين الجدد، قالوا: لم نكلف بالبحث عن نوايا الناس، والتوبة تجبّ ما قبلها.

وشخصيات أخرى من المترفين يظنون أن الدعوة إلى الله والعمل لتحكيم الشريعة، خالية من التمحيص والابتلاء وخشونة العيش.

وعن طريق هذين الصنفين يتم اختراق معظم الجماعات الإسلامية.

فقد كانوا ينتظرون أن يكون لهم دورٌ وسط نشاط الجماعات وعلو شأنها، ويشاء الله تعالى غير ما ينتظرونه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد يكون مصير هؤلاء السجون والمعتقلات، ويصيبهم من الأذى والتعذيب ما لا يحتملونه، وأمام ذلك فهم مستعدون لتلبية ما يطلبه منهم الطغاة مقابل الإفراج عنهم، أو يُغرون ببعض المناصب كما حصل لعبد العزيز كامل في مصر أيام عبد الناصر.

فعن طريق هؤلاء وبهذه الكيفية، اخترق تنظيم الطليعة في سوريا من قبل المخابرات السورية، وكذلك كانت الحال بالنسبة لمصر وعبد الناصر ومصائب ثورة يوليو، فقد استطاع جمال عبد الناصر الالتفاف حول جماعة الإخوان المسلمين وضربها من الداخل، مستخدمًا أخطر جهاز فيها (النظام الخاص) ورئيسه عبد الرحمن السندي، ونائب المرشد العام السابق أحمد حسن الباقوري وغيرهما من الذين خدعوا بجمال عبد الناصر، وتآمروا معه ضد إخوانهم ينتظرون منه المناصب والمكافآت، وكان عبد الناصر قد انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٢م.

ومثال ثالث: الضابط المصري نجيب جويفل اخترق تنظيم الإخوان المسلمين في سوريا منذ عام ١٩٥٤م، وأحدث فيهم انشقاقًا، ولم يُكشف أمره

إلا بعد ثماني سنوات؛ وذلك على إثر مظاهرة خرجت في دمشق ضد عبد الناصر الذي أعدم الشيخين العالمين عبد القادر عودة ومحمد فرغلي وإخوة آخرين، هـذه المظاهرة يقودها الشيخان مصطفى السباعي وعلي الطنطاوي ولفيف من العلماء والدعاة.

فلم ينس عبد الناصر للإخوان هذا الموقف منهم، وزاد من حقـده علـيهم فرار بعض الإخوان المصريين ولجوئهم إلى سوريا، وكان من بين هؤلاء نجيب جويفل، ليس من أصحاب العلم الشرعي، ولا خبيرًا في التربية، كل ما يقدمـه التدريب العسكري وذكرياته في النظام الخاص.

كان يخرج مع الإخوان إلى الجبال القريبـة مـن دمـشق ويـدربهم تـدريبات عسكرية، ويحدثهم عن حرب فلسطين وذكرياته في النظام الخاص، اسـتمر في كيده ونفاقـه إلى أن أوقـع انـشقاقًا في تنظـيم الإخـوان الـسوريين، لم يكـشف النقاب عنه إلا عـام ١٩٦٢، حيـث تحـدث رئـيس المخـابرات الـسورية عـن مؤامرات النظام المصري ضد سوريا، وتحدث عن دور هذا الشاب، وذلـك في اجتماع مجلس الجامعة العربية في شتورا عام ١٩٦٢م.

وكذلك حدث اختراق لتنظيم ١٩٦٥م الذي يوجهه الأستاذ سـيد قطـب عن طريق علي العشماوي الذي بدأ يعترف على كـل شيء، وأبـدى تعاونًـا مـع المخابرات المصرية بعد اعتقاله.

وعن طريق المنـافقين تـم ضرب الجبهـة الإسـلامية للإنقـاذ في الجزائـر في التسعينيات من القرن الماضي.

وفي نيويورك أقدم مجهولون على تفجـير المركـز التجـاري العـالمي بتـاريخ ٢٦/ ٢/ ١٩٩٣، وأحداث أخرى، رافقها حملة تشهير واسـعة ضـد الإسـلام والمسلمين والمراكز الإسلامية في أوربا وأمريكا، ومن بين الـذين اسـتهدفوا في هذه الحملة الشيخ عمر عبد الرحمن، فزعموا أنه دخل أمريكـا بـدون تأشـيرة

دخول!! ومرة قالوا عنه: إنه عميل للمخابرات الأمريكية، ظهر عماد سالم في نيويورك فجأة أثناء محاكمة سيد نصير المتهم باغتيال «مائير كهانا» عام ١٩٩٠، ولم يكن معروفًا من قبل في هذا الوسط، وكان حريصًا على نيل ثقة الجالية الإسلامية وعلى الظهور قدر المستطاع، وقالت مصادر أخرى في المراكز الإسلامية: إن عماد سالم حاول تحريض بعض المهاجرين المصريين وغيرهم على ممارسة أي عمل لتأديب الولايات المتحدة، وكان قريبًا جدًا من الشيخ عمر عبد الرحمن مما استبعد شكوك البعض فيه، وظهر في الصحف والتلفاز يشارك في التظاهرات أو يقف إلى جوار الشيخ عمر تمهيدًا لعرض خدماته على الأجهزة الأمنية الأمريكية.

قال محامي الشيخ عمر عبد الرحمن (مايكل وارن) بعد أن اطلع على الأشرطة التي قام العميل بتسجيلها: إن عماد سالم يحاول نهش الشيخ، وليس هو إلا مجرد كلب، وقال: إن سالم حصل على ٥٠٠ ألف دولار من أجل الإيقاع بالشيخ، إن مصداقية هذا الرجل لا تزن مثقال ذرة، ومن الواضح أنه المسؤول المباشر الوحيد لكل ما زعم أنه حدث، بلغ عدد الأشرطة التي سجلها على ضحاياه حوالي مائة وخمسين شريطًا ومعظمها يأتي كجواب على أسئلة محددة يطرحها على المتهمين.

محامو المتهمين يقولون: أول من يجب محاكمته هو عماد سالم لأكثر من سبب: هو الذي يقنع المتهمين بتصنيع القنابل، وكان يصطحب ضحاياه إلى النفق ويدربهم بنفسه، هو الذي استأجر المخزن الذي كانوا يصنعون فيه القنابل، وكان يحرض الجالية المصرية وغيرهم على ممارسة أي عمل ضد الولايات المتحدة. (انظر: ص١٣٨ من مساجد الضرار).

وبعد ذكر هذه الأمثلة المقتضبة على الاختراقات التي حصلت للجماعات الإسلامية، قال الشيخ محمد سرور: عماد سالم ليس هو الجاسوس الأول أو

الأخير الذي جندته الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه الجاسوس الوحيد الذي شاعت المباحث الأمريكية ذكر اسمه، إن الأمريكان ودول أوربا الغربية يحرصون على تجنيد جواسيس أمثال عماد سالم؛ لأن معركتهم بعد انهيار الشيوعية مع التطرف والأصولية (أي: الإسلام)، ومن أجل جمع المعلومات وتجنيد الجواسيس أصبحت هذه الدول تتساهل في قبول اللاجئين السياسيين، وخاصة العرب الذين كانوا في أفغانستان، ولابد أن يحيط أصحاب الخبرة من الدعاة إخوانهم بالرعاية والنصح والعطف والمودة ويحذروهم من مغريات الشيطان وحزبه، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه» (مساجد الضرار ص١٤١).

**الخامسة:**

**الإسلاميون وأجهزة الأمن:**

قبل نصف قرن كانت أجهزة الأمن في بلادنا محدودة الأثر، يتمتع المواطنون بقسط وافر من الحرية، وفي أجواء الحرية يضعف دور الجواسيس.

وبعد انتشار وباء الانقلابات العسكرية تطورت أجهزة الأمن، وتعددت فروعها وأقسامها، فمن المباحث العامة إلى المخابرات العامة، إلى المخابرات العسكرية، إلى الأمن السياسي، إلى الأمن القومي، وصاروا يرمزون لها بالأرقام لكثرتها؛ الجهاز رقم (٥)، والجهاز رقم (٢١٧) وهكذا.

ولما تنامى المد الإسلامي، أنشأت جهازًا مهمته مكافحة الدعاة والجماعات الإسلامية، ومن مجالات نشاط هذا الجهاز ما يلي:

١- تجميع أقصى ما يستطيعون من معلومات وتقارير عن العلماء والعاملين والدعاة والجماعات الطيبة المستقلة وتخزينها في قسم المحفوظات.

٢- مراقبة من يشتبه به، وما أكثر من يشتبه به، وتنتهي هذه المراقبة في معظم الأحيان باعتقال الضحية والتحقيق معه، والمحققون في هذه الحالة يمثلون دورين: بعضهم يمثل الشدة والقسوة والوحشية، وآخر يمثل دور

الرحمة والشفقة والعطف والملاطفة لتخليص المعتقل مما هو فيه، بشرط أن يعترف بكل ما عنده لإنقاذه والإفراج عنه!!

٣- يكتسب موظفو هذا القسم خبرة واسعة في شؤون الجماعات والأنشطة الإسلامية، ويسهل على موظفي هذا القسم اختراق الصف الإسلامي عن طريق ضعاف النفوس، أو عن طريق الذين أفرج عنهم بعد التحقيق، وتبقى الصلات والزيارات، مع الذين يقدرون أنهم سيخترقون العمل الإسلامي عن طريقهم.

٤- في قسم مكافحة الجماعات والأنشطة الإسلامية تتجمع معلومات وافرة عن كل جماعة من الجماعات: عن أسلوبها، ومناهجها وأفكارها، وخططها، وللاستفادة من هذه المعلومات أقاموا دورات شرعية وتاريخية وسياسية، هذه الدورات تكون للمكلفين باختراق الصف الإسلامي، وقد يصل هؤلاء إلى مراكز قيادية في العمل الإسلامي، ويشغلون الناس بخلافات لا أول لها ولا آخر.

ومن هنا نعلم: كيف استطاع جمال عبد الناصر ضرب الإخوان المسلمين، وكيف استطاع نجيب جويفل أن يفعل في أوساط الإخوان السوريين، وكيف استطاع مجاهد دندش الوصول إلى مركز قيادي في الطليعة والقضاء عليها، وكيف استطاع عماد سالم عميل المباحث الأمريكية استدراج مجموعة من الشباب وقدمهم لقمة سائغة لأعداء الله مقابل نصف مليون دولار. (انظر: ص١٤٥-١٥٣).

**السادسة:**

**الصف الذي لم يخترق:**

بعد أن ذكر الشيخ- حفظه الله- أمثلة على خطورة المنافقين واختراقهم لصفوف الجماعات الإسلامية في أضيق نطاق، بيَّن أن هذا الأمر الخطير لا يعني أن الصفوف الإسلامية كلها مخترقة، فالخير موجود في جميع العصور،

وكذا الشر، ولا يجوز تضخيم دور المنافقين والمفسدين، والذي لابد منه ضرورة الاعتراف بوجود الأخطاء، وعدم التستر عليها.

بيّن الصف الذي لم يخترقه المنافقون ولا غيرهم من أعداء الإسلام، هذا الصف هو صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم الذين تعهدهم بالتربية والتعليم، وعاشوا معه أيام الشدة والابتلاء، وصقلتهم المحن والمصائب.

فذكر تعريف الصحابي، بأنه من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام، وإن تخللت ذلك ردة على الأصح. وأن يكون عدلًا، هذه المعاني لا تنطبق على المرتدين ولا على المنافقين الذين اتصل نفاقهم وردتهم، ولو كانوا رأوا الرسول ﷺ وأعلنوا إسلامهم.

ثم ذكر عدالة الصحابة، وعدالتهم منصوص عليها بالكتاب والسنة وإجماع من يعتد به في الإجماع من الأمة.

وقد بذل أعداء الإسلام محاولات كثيفة وخبيثة من أجل وأد الدعوة الإسلامية والقضاء عليها، فالمشركون والمنافقون واليهود كانوا يعملون صفًا واحدًا، وقد تجلى تعاونهم على الإثم والعدوان بشكل واضح في غزوة الأحزاب، ففشلوا وردّهم الله خائبين، وحفظ الله صف رسوله والمؤمنين من أي اختراق. (انظر ص١٦٤-١٦٦).

فالصحابة طبقات معروفة، ومكانتهم محفوظة، واختصاصاتهم معلومة من عهد رسول الله ﷺ إلى عهد الصحابة والتابعين، فأفضلهم على الإطلاق أبوبكر ثم عمر بإجماع أهل السنة، ثم عثمان، ثم علي على قول جمهور أهل السنة، وخصَّ رسول الله ﷺ كلَّ واحد منهم بفضيلة وخصيصة سمّاه بها، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين**

**هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**[(١)]، وفي رواية: «**أقضاهم علي**»[(٢)].

وبعد أن أتى على ذكر الصف الذي لم يخترق وهو صف الصحابة- رضوان الله عنهم- استنبط عدة فوائد سآتي على ذكرها.

والذي يجدر ذكره في هذا المقام، أهمية الربط الذي وضحه الشيخ- رعاه الله- بين جيل الصحابة وعدّ طبقاتهم- الربط بالواقع الذي نعيشه؛ فالعلماء كتبوا وصنفوا كتبًا كثيرة في بيان الصحابة وطبقاتهم وأسمائهم، وأفردوا لذلك كتبًا مستقلة، وإنك لتجد الكثير ممن يدرس تاريخ الصحابة أو طبقاتهم، لكنه لم ينتفع من ذلك بشيء، بل يبقى على انفصال وبُعد في الأخلاق والسلوك بين حال الصحابة وأخلاقهم وما هم عليه، وبين الواقع الذي يعيشه والسلوك الذي يسلكه.

بعبارة أخرى: لا يتأثر بشيء مما قرأه في واقعه العملي، لكن هذه اللفتات والاستنباطات والفوائد التي ذكرها الشيخ والمقارنة التي فعلها بين جيل الصحابة الذي لم يخترق، وبين الحال التي تعيشها الجماعات الإسلامية والمصائب والنكبات التي ألمت بها، وفي هذا دليل قوة عقله وذكائه وفطنته وحسن توفيق الله له، ليكون المؤمن والداعية العالم العامل على صلة وثيقة، وليعلم أن كتب الحديث والتاريخ وعلم الرجال والجرح والتعديل إنما يدرسه ليكون على بينة وصلة بهذه السلسلة الذهبية، فلا يحاول أن يضع في هذه السلسلة معدنًا خسيسًا؛ لأن ذلك يذهب ببريقها ويخل بقيمتها.

**فمن الفوائد التي نستنبطها من خلال دراسة طبقات الصحابة ومكانتهم ومعرفة فضائلهم وكيف عاملهم رسول الله ﷺ ما يلي:**

**الأولى**: طبقات الصحابة لا تخترق، فكل طبقة من الصحابة معروفة

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٠)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٥٤)، وصححه الألباني.

أسماؤهم وحياتهم: أهل بدر، أصحاب الحديبية، مسلمة الفتح، أصحاب العقبة الأولى، والثانية، وهكذا، هل يمكن أن يتسلل ذكر أحد المنافقين بين هؤلاء؟ يستحيل ذلك.

**الثانية**: سابقون في الفضل كله، الأولون من الأصحاب، سبقوا إخوانهم الذين أسلموا بعد الفتح بأمور كثيرة، في الصبر على الأذى، وخدمة هذا الدين ورفعة شأنه، وسبقوهم في الخبرة وإدارة الأمور، وكيفية تعامل رسول الله ﷺ مع المشركين، وشهدوا المشاهد الكثيرة معه.

**الثالثة**: لكلٍّ دوره، لكل صحابي دور محدود، والرسول ﷺ هو الذي يتولى تحديد هذه الأدوار والإشراف على تنفيذها، فمنهم من كان مكلفًا بخدمة رسول الله ﷺ، ومنهم كتاب الوحي، ومنهم الرسل إلى الملوك، ومنهم مختصون بالأذان، ومنهم القادة العسكريون، ومنهم أمراء الأمصار، وليست هذه اختيارات عفوية، ولكن الرجل المناسب في المكان المناسب.

**الرابعة: الحذر:**

فالطغاة في العالم الإسلامي يحاربون الإسلام حربًا شعواء، ولا يعلنون ذلك بصراحة، بل يَعْمدون إلى المكر والخديعة، فيصلون مع المسلمين في المناسبات العامة، ويصدرون التصريحات باهتمامهم بالدين والمساجد، ويتهمون الدعاة الصادقين بالمتاجرة بالدين!! ويجدون من يصدقهم، هذه هي أخطر بمرات من الأساليب التي كان يستخدمها عبد الله بن أبي وزبانيته ضد رسول الله ﷺ.

**الخامسة:**

الدعاة معروفون، فهم صفوة الناس، وخير خلق الله بعد الأنبياء وأحسن الناس خلقًا وأصبرهم على الأذى، يسعون بإخلاص من أجل هداية الحائرين وإرشاد التائهين.

* وقد تجد حالات مخالفة لما ذكر، من ذلك ضابط قاد انقلابًا عسكريًا، وبعد الانقلاب يتحدث عن الحل الإسلامي، ولكن سيرته ومسيرته لا تشهد بصدق دعواه، لنفترض أنه تاب بين عشية وضحاها، فيلزمه حينئذ استبدال بطانته الفاسدة، وإذا أصر على بقائها، فيكون قد حكم على نفسه بعدم الصدق والتناقض.

* مستشرق قد يدخل في الإسلام ثم يتحول إلى منظّر في الشؤون الإسلامية!! وتجد المعجبين به كثيرين، ولا يميزون بين فرحهم بإسلامه، وحذرهم من القول والإفتاء بما لا يعرف.

* طالب عربي يدرس في إحدى الجامعات الأوربية، وأقام علاقات مع جهات رسمية غربية، وبعد تخرجه انتقل إلى دولة جنرال مستبد، وأصبح مستشارًا عنده للشؤون الإسلامية!! ثم انتقل إلى بلد آخر فأصبح مسؤولًا عن مؤسسة إسلامية، ثم اشتهر بين الجماعات والتجمعات الإسلامية!! ثم أصبح مسؤولًا عن مؤسسة عالمية فكرية تعتمد المنهج الاعتزالي ويتعاون مع بلد فيها السلفية!! وهكذا تجده يجمع بين المتناقضات!! (انظر ص٢٠٥-٢١٢).

**وفي الختام يقول الشيخ:**

أحذِّر إخواني الدعاة من صنفين من الناس:

**الأول**: مستبد برأيه لا يحيد عنه ولا يرضى بسواه، وإن كان موضع إجماع إخوانه؛ لأنه سيقرب كل مراء يؤمن على قوله.

**والثاني**: رجل عليم اللسان يكره المواجهة ويتسلح بالصمت في أكثر مواقفه، ويحاول إرضاء الجميع ولا يتكلم بالحق، بل تراه يراوغ ويلف ويدور.

والصنف الأول أقل خطورة من الصنف الثاني. (انظر ص٢١٩).

## الفصل الثامن

## كتاب «أزمة أخلاق»

- عدد الصفحات: ٢١١ صفحة.
- طبع في مكتبة دار الجابية، الطبعة: الثانية ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- خطة الكتاب وتقسيم الموضوعات على النحو الآتي:

مقدمة وثلاثة أبواب.

**الباب الأول**: وفيه ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: العدل في مدلوله الشرعي، وفيه المباحث التالية: العدل لغة، شواهد من القرآن الكريم، شواهد من السنة، عدل الإسلام مع الكفار، شواهد من التاريخ على عدل الإسلام، عدل أئمة السلف، عدل الدعاة فيما بينهم.

**الفصل الثاني**: درس لا يُنسى، مثال تطبيقي، إنها السنن.

**الفصل الثالث**: سؤال وجوابه، مثالان على أهمية الإصلاح من الداخل.

**الباب الثاني**: **الإرهاب داخل الصف الإسلامي**، وفيه ثلاثة فصول:

**الفصل الأول**: أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب، وفيه خمسة أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب.

**الفصل الثاني**: الإرهاب الفكري: ثلاثة أمثلة على خطورة الإرهاب الفكري.

**الفصل الثالث**: الدوافع والأسباب.

**الباب الثالث**: **أزمة أخلاق**، وفيه خمسة فصول:

**الفصل الأول**: المستعمرون والمستغربون وضعوا أساس هذه الأزمة.

**الفصل الثاني**: آثار هذه الأزمة على العامة والخاصة.

**الفصل الثالث**: صور من أخلاق الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها.

**الفصل الرابع**: مكانة الأخلاق في بيان جعفر.

**الفصل الخامس**: تزكية النفوس.

**بصائر وتأملات في بعض موضوعات الكتاب**:

**الأولى: العدل.**

العدل هو القسط والإنصاف والاستقامة، وعدم الجور والقصد في الأمور، وما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو نقيض الهوى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم يشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي ﷺ: «**ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم**»(٢)، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١١)، وصححه الألباني.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٦).

(٤) النحل: ٩٠.

فعن ابن مسعود: إن أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية.

ومن وجوه العدل الوفاء بالعقود، وعدم بخس الناس حقوقهم، والإنصاف والصدق في القول كله. ومن العدل الحكم بما أنزل الله لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[(١)].

العدل في دين الإسلام طبقه النبي ﷺ والصحابة من بعده على الغني والفقير، والعدو والصديق، حتى مع البهائم والحيوانات. والشواهد والأدلة متواترة في عدل الإسلام مع جميع الخلق، فالمرأة المخزومية التي سرقت، قال بشأنها رسول الله ﷺ: «**لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها**»[(٢)]، وقال- عليه الصلاة والسلام: «**عُذبت امرأة في هِرة حبستها حتى ماتت فدخلت النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[(٤)].

قال القرطبي: «دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه»[(٥)].

وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية لسراجون ملك قبرص رسالة جاء فيها: «وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق سراح الأسرى وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم، فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون، قلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكّهم ولا

---

(١) النساء: ٥٨.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٧٧/ ٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٥).

(٤) المائدة: ٨.

(٥) تفسير القرطبي (٦/ ١١٠)، تفسير الآية (٨) من سورة المائدة.

ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله».

وبعد أن تكلم الشيخ عن عدل أئمة السلف، وعرض أمثلة ونماذج من عدلهم، وتكلم عن عدل الدعاة فيما بينهم، قال مناشدًا الدعاة: ها قد رأيت أن عدل الإسلام قد اتسع للحيوانات فدخلت امرأة في النار بسبب هرة ظلمتها، وشمل عدل الإسلام الذين كفروا من أهل الكتاب، لقول الرسول ﷺ: «**ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**»(١).

ثم قال الشيخ: أما آن للدعاة أن يعدلوا مع إخوانهم الدعاة؟

**أخي الداعية**: تذكر أن إخوانك الذين تختلف معهم هم في مجموعهم صفوة هذه الأمة، وهم الأمل المرتجى بعد الله- سبحانه وتعالى.

- فمنهم من قضى سني عمره يدعو ويعلم ويربّي، وتأثر به كثير، وهم كانوا سببًا في هداية الضالين.

- ومنهم من رزقه الله المال فسخره لنصرة دين الله والإنفاق في وجوه الخير، وقلة من الرجال يتحكمون بالمال ولا يتحكم المال بهم.

- ومنهم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا واستعذب الموت في سبيل الله.

- ومنهم من قال بشموخ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾(٢)، فصمد صمود الأبطال.

- ومنهم من فارق الديار والأهل والخلان؛ فرارًا بدينه؛ باحثًا عن مكان آمن يعبد الله فيه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني.

(٢) يوسف: ٣٣.

هؤلاء الإخوة لا بد وأن لهـم أخطـاء، ومـن ذا الـذي يخلـو مـن الـذنوب والأخطاء، فلا تكتب وأنت في حالة غـضب، ولا تـتهم إخوانـك في نوايـاهم وأحسن الظن بهم.

قال محمد بن سيرين: «ظُلْمٌ لأخيك أن تذكر منه أسـوأ مـا تعلـم، وتكـتم خيره».

وقال سعيد بن المسيب: «ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيـه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر مـن نقصه وهب نقصه لفضله». (انظر: أزمة أخلاق ص ١٣ – ٣١).

**الثانية: «درس لا ينسى»:**

ما أبلغ هذا العنوان الذي اختاره الشيخ للفصل الثـاني مـن كتـاب «أزمـة أخلاق»!! إن الكلمة الصادقة والنصيحة إذا خرجت من قلب مـؤمن صـادق داعية عالم عامل، فأثرها لا يمحى.

تكلم الشيخ محمد سرور عن موقف حصل له: كان برفقة الشيخ الـدكتور محمد أمين المصري- رحمه الله- إذ ألقى الدكتور المصري سـؤالًا عـلى أحـدهم يسأل عن أحد الدعاة، لهم معه خلاف، أليس لفلان حسنات؟ اذكر لي اثنتين، فذكرهما. وكان الشيخ المصري يعلم أن فلانًا الذي سأل عنه لهم معه خلاف.

وأراد أن يعلمهم من وراء ذلك أن لصاحبهم الذين يختلفون معه حـسنات وأنه من العاملين لنصرة دين الله.

وانطلاقًا من هذا الدرس البليغ الـذي اسـتفاده مـن الـدكتور محمـد أمـين المصري، طرح الـشيخ سـؤالًا عـن فـضل الجماعـات الإسـلامية وحـسناتها، وأجاب عنه، فبيّن فضل السلفيين ودورهم في الدفاع عن العقيدة ونـشر لـواء السنة، وإقبال أبناء هذا الجيل على كتب التوحيـد والحـديث، وتمييـز الحـديث الصحيح من الضعيف والاهتمام به.

وذكر دور الإخوان وفضلهم في تأسيس عمل جماعي تنظيمي يهدف إلى عودة الخلافة الإسلامية وتحرير البلاد من الاستعمار، ودورهم في الجهاد عام ١٩٤٨م من أجل تحرير فلسطين.

وذكر أيضًا دور جماعة التبليغ وفضلهم في توبة الضالين وهداية المشركين الكافرين، وأنهم مازالوا يقدمون الدليل تلو الدليل على أنه يمكن لداعية أن يتنقل من بلد لآخر داعيًا إلى الله على نفقته الخاصة، ولا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد.

ثم تحدث الشيخ- حفظه الله- عن الأجواء التي نشأت فيها أهم هذه الجماعات، فنقل كلام الشيخ حسن البنا- رحمه الله- حيث يقول في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية، ص٥١»:

«كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف، حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير- محب الدين الخطيب- ونلتقي بجمهرة من الأعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية، أمثال الأستاذ الكبير محمد الخضر حسين، والأستاذ أحمد الغمراوي، وأحمد باشا تيمور، وعبد العزيز باشا محمد، ونسمع منهم بعض ما ينفس عن النفس. كما نتردد على دار العلوم ونحضر في بعض مجالس الأستاذ رشيد رضا- رحمه الله- ونلقى فيها الكثير من الأعلام الفضلاء أمثال الشيخ عبد العزيز الخولي والشيخ محمد العدوي».

وعن قرار إصدار جريدة «الإخوان المسلمين» يقول البنا أيضًا:

«لم نجد إلا جنيهين دفعهما الشيخ رضوان محمد رضوان، وهما رأس مال هذه المجلة، وحملت الجنيهين وذهبت بكل بساطة وإيمان إلى المكتبة السلفية، وتفاهمت مع السيد محب الدين الخطيب على كل شيء، أن يكون مديرًا

للمجلة، ولكن تطبع بالسلفية، وأن يكون الجنيهان دفعة أولى، وما بقي بعد ذلك فعلى الله، وابتسم الرجل المؤمن المجاهد المحبوب، ووافق على ذلك هو الآخر بكل بساطة وإيمان، فصدر التصريح، وبدأ الطبع، فظهرت جريدة الإخوان المسلمين الأسبوعية، العدد الأول بتاريخ الخميس ٢٨من صفر-١٣٥٢هـ، مايو ١٩٣٣م.

وتحدث البنا عن «مجلة المنار» بعد وفاة الشيخ رشيد رضا- رحمه الله:

«توقفت المجلة عن الصدور مرة ثانية، وقد عزَّ على الإخوان أن يخبو ضوء هذا السراج المشرق بالعلم والمعرفة، فاعتزموا أن يتعاونوا مع ورثة السيد- رحمه الله- على إصدار المنار من جديد، وتم الاتفاق على ذلك، وصدر العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين في ١٨ يوليو ١٩٣٩م. وكان البنا هو رئيس التحرير الجديد».

وعندما أصدر الأستاذ سيد قطب كتابه «دراسات إسلامية» قدمه إلى الشيخ محب الدين الخطيب ليكتب تقديمًا له، وقد فعل.

ونقل الشيخ محمد سرور- حفظه الله- عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي- رحمه الله- قوله: كان الشيخ حامد الفقي يكثر من نقد الأستاذ حسن البنا، وكنت أقول له: يا شيخ حامد، حسن البنا يقول للشباب في المعاهد والجامعات: إلى الإسلام دُرْ، وعمله هذا مرحلة من مراحل الدعوة، وهو مأجور عليه إن شاء الله، فدعه وكمِّل معهم المرحلة التي تلي المرحلة الأولى.

فتأمل كيف كان محب الدين الخطيب مدير تحرير أول جريدة تصدر للإخوان المسلمين، وكان البنّا رئيس تحرير مجلة المنار بعد وفاة رشيد رضا، كما أنه- البنا- كان من كُتَّاب المجلات السلفية.

وتأمل العطف الأبوي الذي تجلى بسرعة استجابة الخطيب لما طلبه حسن البنا، في طباعة مجلة لا يملك أصحابها إلا جنيهين! (انظر ص٣٥-٤٢).

وتحت عنوان «إنها السنن» قال الشيخ- حفظه الله: كان الرجال المؤسسون يتعاونون على البر والتقوى وطاعة الله، وهكذا كان الأئمة الأربعة يتتلمذ صغيرهم على كبيرهم، ويعدلون في تقويم بعضهم، غير أن الذي حدث مع مرور الزمن حصول التزمّت والتعصب، وخالفوا أئمتهم في دعوتهم إلى الوحدة والائتلاف.

ويخاطب الشيخُ الدعاةَ: هل أنت ممن يتحدثون أمام الناس عن صالح أعمال الذين تختلف معهم في الاجتهاد أو الانتماء؟ وهل تُسرّ إذا سمعت بإنجاز حققته جماعة إسلامية لست عضوًا من أعضائها؟ أم أنَّ الأمر غير ذلك.

فإن كنت من الصنف الأول فاحمد الله الذي منّ عليك بالعدل والإنصاف، وإن كنت من الصنف الثاني فحاسب نفسك قبل أن تحاسب.

وإن ظلمك بعض إخوانك، فلا تقابل السيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ومن العدل المسارعة إلى الاعتذار من أخيك عندما ترتكب خطأ نحوه. ومن العدل أيضًا قبول الحق من المخالف، فارفع شعار الحق في جميع أمورك إذا أردت أن تعود هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس. (انظر ص٤٣-٤٥).

**الثالثة: الإرهاب داخل الصف الإسلامي :**

تحدث الشيخ- حفظه الله- في الفصل الثالث من الكتاب عن الإرهاب داخل الصف الإسلامي، وما هي دوافعه وأسبابه، فذكر أمثلة تؤكد وجود هذا الإرهاب، وهذه الأمثلة من واقع الحركات الإسلامية، منها:

* حصل خلاف بين أفراد إحدى الجماعات الإسلامية، فانفصلوا عنهم وشكلوا جماعة أخرى تتبنى المواجهة المسلحة مع النظام، ووقعت بينهم

(١) آل عمران: ١٣٤.

التهديدات والاتهامات، ومن أسباب هذه التهديدات أن الجماعة الأولى تحاور النظام، فأصدر الآخرون أمرًا بقتل الوسيط بينهم وبين النظام، ثم عادت العلاقات بين الطرفين، وصاروا جماعة واحدة، ثم تفجر الخلاف بينهم من جديد بعد أن تحالف الشيوخ مع الأحزاب العلمانية، فصاروا يكفرونهم ويعدونهم مرتدين، وعقوبة المرتد القتل!!

فقررت مجموعة الشيوخ التخلي عن هؤلاء ومقاطعتهم، فاستجاب أعضاء الجماعة لأوامر المقاطعة، ثم عادت العلاقة بعد مواجهة السلطة مرة أخرى وقويت العمليات.. واستمر الأمر على هذا النحو، كلٌّ يمارس الإرهاب والقهر والاستبداد تجاه الطرف الآخر.

* **ومثال آخر**: تجربة النظام الخاص الذي أنشأه الشيخ حسن البنا- رحمه الله- من أجل مقاومة الاستعمار في مصر وفلسطين، ولم يبق هذا الجهاز على ما أراده البنا، بل صار كالجيوش العسكرية في مفهوم الطاعة المطلقة، فصدرت الأوامر باغتيال النقراشي رئيس الوزراء، وكانت السلطة تحمل البنا مسؤولية هذه الجرائم التي يسمع عنها كغيره من عامة الناس، وكان يقول عن هؤلاء- الذين صاروا في الجهاز الخاص: ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين.

وأخيرًا دبرت قوات الملك فاروق قتل حسن البنا. وجاء المرشد الثاني للإخوان المسلمين حسن الهضيبي، وكان غير مقتنع بوجود هذا الجهاز، وأراد حله بالتدريج فسلّمه لسيد فايز بدلًا من السندي، ثم اغتيل سيد فايز، وكانت أصابع الاتهام تشير نحو السندي، مما دعا قيادة الإخوان إلى فصل السندي،.. ولكن هل استفاد الإسلاميون من تجربة النظام الخاص كأول تجربة عسكرية؟

* **ومثال آخر من سوريا**: اجتمعت قيادة إسلامية لإصدار قرار في مسألة اشتد فيها الاختلاف واحتد النقاش بين رئيس الجلسة وأحد الأعضاء، وبعد تبادل الاتهامات وارتفاع الأصوات، سحب رئيس الجلسة مسدسًا كان يخفيه

بين ملابسه وصوبه نحو أخيه يريد قتله، فهب الحاضرون وأخذوا المسدس من يده، وكانت هذه نتيجة الحوار بين الإخوة.

* **ومثال رابع من مصر أيضًا**: حيث كانت جماعة التكفير تحكم بردة العضو الذي ينشق عنها، بل يعدون أنفسهم هم جماعة المسلمين، وكان أعضاء الجماعة ينفذون أوامر القيادة بتصفية المنشقين، وآخر الاعتداءات التي قاموا بها اختطاف الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي الذي كان وزيرًا للأوقاف في عهد حكومة السادات، وقتلوا الذهبي بطريقة وحشية.

* **ومثال من الجزائر**: حيث وقع انقلاب العسكريين على الجبهة الإسلامية للإنقاذ ومشروعها الإسلامي الذي أيدته غالبية الأمة، وانطلق الشباب الجزائري للبحث عن وسيلة لمواجهة هؤلاء المعتدين؛ فشكل بعضهم مجموعات تقاتل هنا وهناك، وليس لهم ارتباط بأحد، ثم هيأ انقلاب العسكريين أجواء مناسبة لما يسمى «بالجزائريين الأفغان» لنشر غلوها، وصاروا يفتون بردة من يخالفهم، فقتلوا عددًا كبيرًا من الأبرياء، ومن بين من قتلوا أحد المسؤولين في جماعة إسلامية، تخالفهم وتنتقد أعمالهم، والمقتول- رحمه الله- من المشهود لهم بالخير والصلاح!!

ثم أصدروا «الفرمانات» يهددون كل من يتحدث باسم الجهاد والمجاهدين مِنْ غيرهم!! (انظر ص٦٥-٧٨).

هذه أمثلة للإرهاب العملي.

وقد يكون الإرهاب فكريًا، والإرهاب الفكري هو كل إرهاب لا يصل إلى حد القتل الجسدي، غير أنه أفدح منه خطرًا وأشد ضررًا، فكم إنسان قتله إخوانه اجتماعيًا، فهو يفضل الموت على الحياة!

وكم من جلسة تجمع أشتاتًا من الإخوة يشعر بعض المشاركين فيها بالإحراج! فهم يريدون الإفصاح عن رأي يرونه، لكنهم يتراجعون ويلوذون

بالصمت؛ خوفًا من غضب الآخرين ونقمتهم، مع أن الذي سيقولونه ليس مخالفًا للعقل ولا للشرع ولا للعُرف.

وقليل من الناس من لا يزيدهم هجوم المبطلين وظلمهم إلا عطاءً وإبداعًا، ومن فضل الله تعالى بهذه الأمة وجود هذا الصنف من الناس في جميع الأعصار والأمصار، وهم الذين عناهم حديث رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[1].

ومن أفدح المصائب أن يتخذ الجهلة والغوغاء موقفًا في ظروف عاطفية، ويتحول هذا الموقف إلى تيار جارف، ومن يخالفه يُتهم بالمروق والخيانة ويصبح منبوذًا بين أهله وأصدقائه، ثم تجد بعض العلماء والمفكرين الكبار يشيدون بهذا الموقف!! والذي حملهم على ذلك خوفهم من الإرهاب!!

ثم دلل الشيخ- حفظه الله- على خطورة الإرهاب الفكري من خلال عرض بعض الأمثلة، ومنها:

**الأول**: من واقع الجهاد في أفغانستان، فقد كانت تحدث معارك بين معظم الفصائل المجاهدة، ويذهب ضحية هذه المعارك المئات من المصلين، ولا يمكن كتمان هذه الأخبار، لأن وكالات الأنباء العالمية منتشرة في ساحات المعارك، وكان إخواننا يريدون منا أن نتحدث عن كرامات الأفغان وانتصاراتهم دون أية إشارة إلى بقية الأخبار، ومن يحذر وينصح يصبح هدفًا لحملة من التشويه والتشهير، فيقولون عنه: إنه عدو للجهاد، ويشيع مقالة السوء عن المجاهدين، ويقولون أيضًا: إنه يردد أكاذيب أجهزة إعلام الدول الكافرة!!

والآخرون يقولون: لا نتولى إشاعة هذه الأخبار، لأنها مشاعة بالتواتر، ولا نريد أن نكذب عندما يسألنا سائل عن موقفنا ورأينا، ونرى أن تأخذ

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠/ ١٧٠).

القضية حجمها الصحيح.

وسواء صحَّ هذا الاجتهاد أو ذاك، فلماذا يشكك البعض في النوايا ويخوضون في أعراض إخوانهم؟ بل لماذا يدافعون عن القتلة بالباطل؟! ويستخدمون سلاح الإرهاب ضد مجتهدين يرون أن اجتهادهم مدعوم بالأدلة؟!

**الثاني**: أيد معظم الإسلاميين في حرب الخليج الثانية زعيم حزب البعث رغم معرفتهم التامة بمبادئ حزبه العلماني المعادي للإسلام، وإحاطتهم الشاملة بالجرائم التي ارتكبها ضد المسلمين في العراق عامة وإخوانهم خاصة.

فالمؤيدون قالوا: يغفر الله له ماضيه بعد أن تاب وعاد إلى كنف ربه، وقالوا: إن احتلال الكويت خطوة أولى في طريق استرداد فلسطين وتوحيد الأمة العربية.

وفئة أخرى من الإسلاميين أيدت الاستعانة بالقوات الأمريكية، وأفتت بشرعية دخول هذه القوات وإقامتها في جزيرة العرب، وتذكرت أن حاكم بغداد كافر مرتد. وما كنا نسمع مثل هذا الكلام رغم الحاجة إليه، وكم كانت بشاعة الاتهامات التي تبادلها الطرفان، ولا يزال هذا الموقف يلقي بظلاله القاتمة المؤلمة.

والجدير بالذكر أنه لم يسلم من هذا الإرهاب الفكري فئة ثالثة استنكرت احتلال الكويت، كما استنكرت الاستعانة بالقوات الأمريكية.

**الثالث**: عجبت أشد العجب من الذين يدافعون عن العلمانيين المارقين ويتعاملون معهم برحابة صدر، رغم تحديهم لعقائد المسلمين.

هؤلاء الذين يدافعون عن العلمانيين تضيق صدورهم وينفرون من إخوانهم الذين يختلفون معهم في الاجتهادات، فيسعون لحرمانه من الوظيفة وينشطون بإقناع الناس بعدم تزويجه لو أراد زواجًا...

لا أدري كيف يكيلون بمكيالين، ففي تبرير موقفهم من العلمانيين يقولون: دعه يستخدم حريته في التعبير عن رأيه ولا تمارس عليه أي نوع من أنواع الإرهاب، وحاججه في جو «ديمقراطي» فلماذا حرموا إخوانهم من هذه المعاملة الحسنة؟

**الرابع**: علماء الأمة الثقات في جميع مراحل تاريخنا الإسلامي كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويواجهون الظالمين بظلمهم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ونحن نعتز بهم ونتخذهم أسوة حسنة لنا.

إلا أن أناسًا من المنسوبين إلى الدعوة والمعجبين بشجاعة أحمد بن حنبل وموقفه التاريخي من المأمون والمعتصم والواثق ومن بدعة أهل الاعتزال، هؤلاء الناس يهاجمون إخوانًا لهم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وفق ضوابط أهل السنة، ويستخدمون في هجومهم ألفاظًا نابية «دعاة التهييج»!!

**الخامس**: هناك طائفة ترفع شعار «الدفاع عن الدعاة والعلماء» وتحذر من نهش لحومهم لأنها مسمومة، وتراهم يهاجمون الدعاة والعلماء ويقولون: نحذر من الذين يطعنون الأمة في أفضل رجالها وقادتها، وفي نظر هؤلاء الناس أن العلماء هم قادة أحزابهم، وهذا يعني: أن المسألة لا تعدو أن تكون صراعًا مذهبيًا أو حزبيًا، فالشعار خلاف المضمون.

**التبصرة الرابعة:**

بعد أن ذكر الشيخ- حفظه الله- أمثلة في الفصول السابقة من الكتاب، عن الإرهاب الفكري والعملي في أضيق نطاق، أخذ في بيان الأسباب والدافع لهذا البلاء.

فالأمة العربية كانت في جاهليتها تعيش حالة من الظلم والقتال والتفرقة، ولما أنعم الله عليها وعلى البشرية جمعاء ببعثة نبي الرحمة ﷺ، توحدت وانتشر

فيها العدل والأمن بعد الشرك والخوف.

لكن بعض العادات الجاهلية بـدأت تعـود إلى نفـوس الحكـام بعـد عـصر الخلفاء الراشدين، فقُتل الحسين- رضي الله عنـه- سـنة إحـدى وسـتين مـن الهجرة، وفي سنة ثلاث وسبعين قَتَل الحجاج بن يوسف- قبحه الله- الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير وعددًا من الصحابة والتابعين، واعتـدى عـلى حرمـة بيت الله الحرام، فرمى الكعبة بالمنجنيق، وفي سنة خمس وسبعين دخـل الكوفـة فبطش بأهلها، وكان آخر من قتل سعيد بن جبير التابعي الجليل- رحمه الله.

وتطاول العهـد عـلى سياسـة اسـتخدام الحكـام الظـالمين لوسـائل القهـر والإرهاب، وخضع الناس في بلادنـا سـنين طويلـة لأنظمـة طاغيـة مـستبدة، تصادر الحريات، وتكمم الأفواه، ومن أراد أن يـصدع بـالحق فليـستعد لـدفع الثمن.

وانتقلت هذه العدوى إلى الساحة الإسلامية، والإنسان ابـن بيئتـه، وعنـد ضعف الإيمان يتأثر ويقلد الأقوياء، والمغلوب مولع بتقليد الغالب- كما يقـول ابن خلدون- ويتأثر بـالأجواء المحيطـة بـه، والـذين عايـشوا مـسيرة العمـل الإسلامي يدركون تأثر معظم الإخوة بطبائع بلدانهم، ومن الأمثلة على ذلك:

- للأحزاب الـسياسية غـير الإسـلامية طريقـة معينـة في انتخـاب قادتهـا وترتيب المكائد وتصفية الخصوم، وإن كثيرًا من الإسـلاميين قـد تـأثروا بهـذه الطريقة!

- يرى السياسيون في بلد معين أنهم أكثر كفاءة من غيرهم في بقية البلـدان العربية، فغيرهم يجب أن يكون تابعًا لهم، ويحمل الإسلاميون في هذا البلد مثل هذه العقلية!!

- في العالم العربي مشكلة اسمها الرجل الواحد الذي يقبض الأمور بيـد من حديد، ومؤسسة الرجل الواحـد ترتـدي أحيانًـا لبـوس الديمقراطيـة،

وباسم الديمقراطية يحكم الرجل الواحد، وكذلك حال الإسلاميين. (انظر ص٩١-٩٥).

**التبصرة الخامسة: أزمة أخلاق :**

كثيرة هي الأزمات التي تعاني منها بلادنا، بل لا تخلو منها معظم بيوت المسلمين، وأساس هذه الأزمات وضعها المستعمرون والمستغربون.

فهناك أزمة في الحكم، ونشوء هذه الأزمة له أسباب مختلفة، منها حدوث اختلاف بين الأحزاب التي تتقاسم السلطة، ومنها الانقلابات العسكرية؛ فيذعن الناس لسياسة الأمر الواقع، ثم يفاجأون بانقلاب جديد، وقد ينقسم الجيش إلى أجنحة مختلفة، فالأسباب تتعدد بتعدد الأزمات التي لا نهاية لها، وتعكس آثارها على شؤون الحكم والإدارة.

وهناك أزمات اقتصادية متتالية؛ خاصة في ظل طاغوت ظالم هو «صندوق النقد الدولي» يضغط هذا الصندوق الربوي على بلد من بلاد العالم ليفي بالالتزامات المطلوبة، ويأمر برفع الدعم عن بعض المواد الضرورية، ولابد أن تستجيب، ويتحمل وزر هذه الاستجابة الفقراء، ولا وسيلة للفقراء للتعبير عن مشاعرهم إلا الخروج للتظاهر مستنكرين، وقد تتحول المظاهرة إلى قتال، حيث تقمع السلطة المظاهرة، ويتفرق المتظاهرون إلى المشافي أو المقابر أو السجون، والباقي إلى البيوت، خرجوا يشكون من «أزمة الخبز» ورجعوا بأزمة أخرى هي القهر والاستعباد والإذلال!!

وهناك أزمات بين السلطات والنقابات المهنية، تطالب النقابات برفع أجور العاملين بسبب ارتفاع الأسعار، وترفض السلطة الاستجابة، ويحصل الإضراب، ويتوقف الإنتاج، وتتعطل المصالح... فالأزمات كثيرة ومتنوعة.

**لكن أزمة واحدة لا تجد نصيبها من العناية والاهتمام، مع أنها أزمة الأزمات، ومشكلة المشاكل، وما من أزمة إلا ولها بها صلة، إنها أزمة**

الأخلاق!!

لماذا يثور الناس من أجل خبزهم، ولا يثورون ويقاتلون من أجل دينهم الذي يُعتدى عليه، ومن أجل أعراضهم وأخلاقهم التي تنتهك، هل الطعام والشراب أهم عند الناس من الدين والأخلاق؟!!

تلجأ السلطات أحيانًا إلى إثارة أزمة لها علاقة قوية بالدين، مثل مشكلة المخدرات التي تجتاح العالم كله، وتعقد المؤتمرات، وتكون النتائج تشديد العقوبة على تجار المخدرات، وتبقى هذه القرارات حبرًا على ورق، لأن المطلوب منهم تطبيقها هم المدمنون وهم الذين يرعون العصابات التي تتاجر بالمخدرات.

ومن جهة أخرى فالسلطات لا تكافح المخدرات لأسباب دينية وأخلاقية، وإنما لأثرها المدمر على الاقتصاد، وارتباط الإدمان بالجريمة، وإلا لبقيت مسألة شخصية كالخمور التي تبيحها القوانين المعمول بها.

فبعض المسؤولين عن مكافحة المخدرات يقولون في الندوات العامة:

إن المداومين على ارتياد المساجد لا يتعاطون المخدرات، والتائبين إنما ترتبط توبتهم بأسباب دينية... ثم نسمع فيما بعد أن هؤلاء المسؤولين قد أبعدوا عن وظائفهم، مع أنَّ بعضهم ليس متدينًا، لكنه تجاوز المسموح به عندما شجّع على نشر الوعي الديني.

هناك صحوة إسلامية يلمسها كل إنسان أينما اتجه في المساجد والمدارس والمصانع والشوارع العامة، رغم كل القيود التي تعترضها، فإنها تزداد.

وهناك أيضًا فساد عريض على المستوى الفردي والجماعي، فكيف نجمع بين هذا وذاك؟

إن الوعي الديني إمكانياته محدودة، ولكنه يزداد بفضل الله ثم بجهود بعض الصالحين من الدعاة، أما إمكانيات أهل البغي والفساد فغير محدودة،

ولها دعم من الجهات الرسمية، ومن جهة ثالثة فنحن لا نواجه أزمة بدأت آثارها تبرز منذ أعوام قليلة.

متى بدأت هذه الأزمة؟ ومن خطط لها وكيف؟ ما هو تأثيرها على الدعاة؟ وكيف تكون البداية التي ينطلق منها المصلحون وبمن يقتدون؟ والجواب عنها فيما يلي. (انظر: ص١٠١ – ١٠٧).

المستعمرون وضعوا أساس هذه الأزمة، فالإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي لها دور مهم في اقتلاع العقيدة من قلوب من ساروا في فلكهم، وكلمة القس «زويمر» رئيس مؤتمر القدس التبشيري للمبشرين توضح ذلك. (اقرأها كاملة في كتاب أزمة أخلاق ص١٠٩-١١٠).

وعلى غرار القس زويمر، نستطيع أن نكشف أسرارًا كثيرة من الأمور التي تجري في بلاد المسلمين:

فقد قرر المبشرون في مؤتمرهم سنة ١٩٠٦ بالقاهرة إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعات الفرنسية لمناهضة الأزهر.

وفي سنة ١٩٠٨ تم افتتاح الجامعة المصرية (جامعة القاهرة)، ومن أبرز القائمين عليها قاسم أمين، سعد زغلول، مرقص فهمي، يعقوب آرتين، إسماعيل صدقي... وسيرة هؤلاء تدل على أن الجامعة لن تكون إلا منبرًا للتغريب والفساد، وعلى هذه الشاكلة قامت كليات ومعاهد ومدارس في مصر وغيرها من البلاد العربية تلتزم بالمنهج العلماني.

معظم القادة الذين تولوا شؤون الحكم في بلادنا متخرجون من مدارس تبشيرية صليبية أو من جامعات غربية، أو من فروعها في البلاد العربية.

أنشأ المشرفون على الجامعة المصرية كليات ومعاهد، أطلقوا عليها «الفنون الجميلة» هي التمثيل، والرقص والموسيقى، ولابد للدارسين فيها من الاختلاط والسفور والابتذال!!

ومن الذين مهدوا لهذا الغزو الهدَّام ناس تخرجوا من الأزهر وآخرون لهم ثقافة إسلامية، اللهم ثبت قلوبنا على دينك.

منهم رفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، وعلي عبد الرازق، زعم بعضهم أن الرقص والمسرح... ليس من الفسوق، بل هو أناقة وفتوة. وهكذا استمر الانحدار والهبوط الأخلاقي، حتى خرجت «هدى شعراوي» مع زوجة سعد زغلول سنة ١٩١٩م بمظاهرة، وخلعن الحجاب وألقين به في الأرض وأشعلن فيه النار وتحررت المرأة!!

وسار المستغربون على خطى أساتذتهم، فبعد الاحتلال الفرنسي بقيادة نابليون لمصر سنة ١٧٩٨، شهدت خطة المستعمرين بعض التقدم، ثم جاء الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، فكانت خطتهم أكثر دهاء، وكانت مسألة تحرير المرأة شغل تلامذة المستعمرين الشاغل، فنظام الدراسة في الجامعات قائم على أساس الاختلاط، وكذلك المعاهد والمدارس، ويتبع ذلك التبرج والسفور والخلوة.

وأصبحت المرأة شريكة الرجل في جميع مؤسسات الدولة العامة والخاصة، فلها القدح المعلى في أماكن اللهو والعبث والطرب والمسارح، وفي السينما تمثل مع الرجال، وعلى شاشة التلفاز ترقص وتغني، والمرأة أحد أركان السياحة والاصطياف، وما السياحة عند هواة الفن إلا المرأة والخمرة.

عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(1).

وينكر دعاة الاختلاط والتغريب أن تكون المرأة فتنة، وكذبوا- والله- في هذا كله. (انظر ص١٢١-١٢٧).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢/ ٩٩).

**التبصرة السادسة: إنهم علمانيون أكثر من العلمانية:**

فالعلمانية تعني عند الغرب: أن يكون الدين لله ويكون الحكم وشؤون السياسة لقيصر، وتعني: أن تضمن الدولة حرية الاعتقاد، فلا تفرض على دور العبادة خلاف إرادتها، لكنّ المستغربين في بلادنا أشد في علمانيتهم من العلمانية في مفهومها عند الغرب وفي تطبيقهم لها:

* حجاب المرأة: فللمرأة في الغرب حقوقها كالرجل في اللباس وغيره، وفي البلاد الإسلامية ذات المنهج العلماني منعت الحجاب الشرعي في المدارس والجامعات.

* دور العبادة في الأنظمة العلمانية الغربية مستقلة، وتطبق الأنظمة العلمانية على دور العبادة لغير المسلمين، وإذا حصل تجاوز عليها غضبت لها أمم وأجهزة شتى من بلاد العالم تنذر وتتوعد.

أما مساجد المسلمين وأوقافهم فليس للقائمين عليها حق إدارتها، بل الحق للنظام العلماني، والخطباء والمدرسون ليسوا أكثر من موظفين ينفذون الأوامر، ومن خالف طُرد، ووزراء الأوقاف يتم اختيارهم وفق أهواء الأنظمة العلمانية.

عند الغربيين حق لكل مواطن تأسيس الأحزاب وإصدار الصحف والمجلات مهما كان توجهها.

ويختلف الأمر في بلادنا، فلا يسمح بإقامة أحزاب سياسية على أساس ديني، والديمقراطية في بلادنا تصاغ حسب مزاج الحاكم وبطانته، وقد يتغير قانون الانتخابات مع تغير مزاج الحاكم.

وتزوير الانتخابات هو الأصل، وعدمه هو الاستثناء، وإذا حصل حزب إسلامي على الأكثرية، فإن الجيش وقوات الأمن تقف له بالمرصاد، وتتحرك على الفور، فتفرض الأحكام العرفية وتقيل الحكومة... وتبدأ بمطاردة

الإسلاميين. ومن العجيب أن جميع الأحزاب والشخصيات العلمانية ضد المشروع الإسلامي! ومن ذلك ما حصل في الجزائر وتركيا.

وتترك هذه الأزمة الأخلاقية آثارها على العامة والخاصة، فالطالب يتلقى أنواعًا من العلم في الفلسفة؛ مثل نظريات دارون وفرويد وماركس...

والتاريخ يقرأ ويعرض عرضًا مزورًا ومشوهًا، ولا يستطيع الطالب أن يعترض، والموظف لا يحصل على ترقية إلا حسب تقديره لرئيسه وطاعته العمياء له.

وفي السلك العسكري أدهى وأَمَرّ «نفذ ثم اعترض».

لا غرابة أن يتأثر بهذا الغزو المنظم عامة الناس، إنما المستغرب أن يتأثر به الخاصة الذين تصدوا لحربه والتحذير منه، ومن الأمثلة على ذلك:

بعض المنسوبين للعمل الدعوي يستقبح العمل في ميادين السياسة؛ لأنها مشغلة للمسلم عن واجباته، وإذا حاججته جاءك بكلام مضطرب متناقض، ثم يظهر تناقضه جليًا فيدخل السياسة من أسوأ أبوابها استجابة لأوامر السلطان، فتراه يخوض معركة ضد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من العلماء والدعاة، ويتناسى قوله بالأمس: السياسة تفسد صفاء العبادة وتشغل عن الواجبات!!

وبين المنسوبين للدعوة من يكذب على رسول الله ﷺ وينسب له أحاديث لا أصل لها؛ زاعمًا أنها مادة لترغيب الناس وإن كانت موضوعة، ويعرفون أن الكذب من أكبر المنكرات، وقريب الشبه بالقصاصين في هذا العصر نفر من الناس اعتادوا على اختلاق الدعايات والإشاعات المغرضة ضد العلماء، انتصارًا لأهوائهم وأحزابهم، أو مقابل منافع دنيوية يحصلون عليها!!!

بين المنسوبين للدعوة من ينصب نفسه أستاذًا للتوحيد وإصلاح الاعتقاد، ويقيم النكير على المبتدعة وعقائدهم، ولا خلاف أن هذا العمل من أجل

الأعمال وأنفعها، ولكننا نرى نماذج من هؤلاء يفْجُرون عند الخصومة، ومنهم من لا يؤتمن على مال أو سرٍّ لأخيه، ومنهم من يكذب في حديثه، ومنهم من يخلف وعده، وهذه خصال المنافقين، فكيف يمكن أن يقبل الناس دروسه ووعظه؟!

وبينهم من يكتب عن الولاء والبراء، ولكن واقع حاله يخالف ما كتبه، فتراه يوالي الظالمين ويتسكع على أعتابهم، ويتجسس على إخوانه!!

وبين هؤلاء من يهدر الوقت في تدريس الشرك وأنواعه، وهو منغمس فيه بشيء واضح من شرك الطاعة، طاعة الشيوخ أو حكامهم في معصية الله!!

**التبصرة السابعة: صور من أخلاق رسول الله ﷺ وأقوال العلماء في حسن الخلق وتزكية النفس:**

كان للعرب قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير، معطَّلَة عن فعله، فلما بعث الله محمدًا ﷺ أخذوا الهدي العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم كمال الفطرة وكمال الشريعة.

فعن المطلب بن أبي وداعة عن العباس قال: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، قال: فصعد المنبر، فقال: «**من أنا؟**» قالوا: أنت رسول الله، قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتًا فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسًا**»(١).

وقد وصف الله تبارك تعالى خلق النبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، ولما سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»(٣).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٧)، والترمذي (٣٦٠٧) وقال: «حديث حسن».
(٢) القلم: ٤.
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨).

وقال يوسف بن أسباط: «علامة حسن الخلق عشر خصال: قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه».

وقال أبو حامد الغزالي في علامات حسن الخلق:

هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا وصولًا وقورًا صبورًا شكورًا رضيًا حليمًا رفيقًا عفيفًا شفيقًا، لا لعانًا ولا سبابًا ولا نمامًا ولا مغتابًا ولا عجولًا ولا حقودًا ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشاشًا هشاشًا يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق.

وقال ابن القيم: أصل الأخلاق المذمومة كلها: الكِبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع وعلو الهمة.. فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل. (انظر: ص١٧٥-١٨١).

اختلفت حالنا اليوم عما كانت عليه، فتحولت انتصاراتنا إلى هزائم منكرة، وقوتنا إلى ضعف.. قليل منا الذين يستفيدون من المواعظ، وقليل من الوُعَّاظ الذين تجد أقوالهم إلى القلوب سبيلًا، لأن أفعالهم تخالف أقوالهم.

كان أحد الدعاة يحاضر في أحد المنتديات الأوربية عن مزايا الإسلام الرفيعة، فتقدمت امرأة إلى المنصة وقالت ما خلاصته: عالمنا يفتقد هذه المزايا الرفيعة التي أشار إليها المحاضر، والمجتمعات التي تتمسك بهذا الدين لن يخيفها جحيم الجنس والجريمة والمخدرات التي غزت مجتمعاتنا، لكن أخلاق المسلمين وعاداتهم تخالف هذا الذي سمعناه منك في المحاضرة، حتى لا تظن أني أتجنى عليكم أخبرك بأني موظفة في مؤسسة الضمان الاجتماعي، ومهمتي

تتيح لي التعرف على مختلف طبقات المجتمع في بلدنا.. جاءتني ذات يوم امـرأة مسلمة تطلب سكنًا خاصًا بها وبأبنائها؛ لأن زوجها قد طلقها، وقمت بالإجراءات اللازمة، وقدمت المرأة الوثائق اللازمة لإثبات قولها، فعادت المرأة بعد حين تخبرني بأنها رزقت بمولود وتطلب له مكافأة! كيف حدث هذا وهي مطلقة منذ أكثر من عامين والإسلام يحرّم الصديق!!

وتبين لي أخيرًا أن الطلاق لم يقع، والزوجة لم تغادر بيت زوجها، والقصة كلها تحايُل على قانون الضمان الاجتماعي من أجل الاستفادة من المكافأة المخصصة للمطلقة، والبيت الثاني قاما بتأجيره، والأسوأ من ذلك أن الوالدين لم يترددا في تسجيل الولد كابن غير شرعي، وليست هذه الحالة التي ذكرتها هي الوحيدة، لو استعرضت السجلات عندنا لوجدت كثيرًا من الغش والاحتيال والكذب، انتهى ملخصًا.

إن الدعاة مطلوب منهم أن يكونوا صورة صادقة في أخلاقهم وأفعالهم لهذا الدين، وقد أدرك رجال التعليم في بلادنا منذ وقت مبكر أن التربية مرتبطة بالتعليم أشد الارتباط.

إن التربية بالقدوة أفضل أنواع التربية وأجلها، ورحم الله من قال: «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم في أرضكم»، «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[1]. (انظر ص١٩٩-٢٠٨).

أخي القارئ، لقد أوجزت لك واختصرت غاية الإيجاز والاختصار، لهذا الكتاب الذي تجاوزت صفحاته المائتين، وقد أودع الشيخ فيه خلاصة تجارب ورحلة علمية ودعوية طويلة، فليس ذلك بمغنٍ لك عن الأصل، وليس الخبر كالعيان، وما سامع كمن رأى، ورب مبلغ أوعى من سامع.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١/ ٢٠١).

## الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد المبعوث رحمة للعالمين.

بعد أن استعرضت- بعون الله وحسن توفيقه- سيرة الشيخ محمد سرور ومنهجه في الدعوة وآثاره العلمية والدعوية عرضًا مفصلًا في فصول هذا الكتاب، فإنا نخلص إلى النتائج الآتية:

١- في سيرة الشيخ وصفاته الشخصية الخَلقية والخُلقية قدوة للصالحين وأسوة حسنة للدعاة العاملين؛ إذ إن العلماء ورثة الأنبياء كما جاء في حديث رسول الله ﷺ(١).

٢- من معالم التجديد عند الشيخ :

- مؤلفاته العلمية والبحوث التي أحدثت أثرًا بينًا في العالم الإسلامي، وكان لها صدى واسع، وقد ذاع صيتها، وسارت سير المثل، وانتشرت كنور الشمس في رابعة النهار، وهذا من توفيق الله تعالى.

- موقفه من ثورة الرافضة في إيران، وتحذيره من خطر التشيع الفارسي الذي أخذ في الانتشار في ربوع العالم الإسلامي، فكان للشيخ موقفه الذي لم يسبق إليه.

- موقفه من الحركات الباطنية، وتحذيره من خطورتها، وتصديه لمؤامراتها، في وقت لم يجرؤ فيه كثير من الدعاة والحركات على الخوض فيها.

- لمجلة «السنة» التي أشرف الشيخ على إصدارها أثرها البين في تغطية الأحداث ومتابعتها، والتوجيه الواضح لسياسة الدعاة من أهل السنة والجماعة في مختلف بلاد العالم الإسلامي.

٣- للشيخ جهوده المشكورة الواضحة المعالم في إقامة تيار سلفي متميز وكيان وطيد الأركان وفق منهج أهل السنة والجماعة، تنطبق عليه بشائر النبوة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، وصححه الألباني.

كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم...**»[1].

٤- للشيخ دوره المهم في الدفاع عن الجماعات الإسلامية، وكذا العلماء والدعاة الصادقين، إثر حملات التشويه والهجمة التي تعرض لها العمل الإسلامي في العقود الأخيرة من القرن الماضي.

٥- تميزت مصنفات الشيخ ومؤلفاته بالدقة والوضوح وحسن البيان وقوة الحجة وصدق اللهجة وإخلاص النية؛ مما جعل لها قبولًا وانتشارًا في أوساط الدعاة الصادقين، كما أحدثت غيظًا وحقدًا عند المنافقين والمنحرفين والمعاندين لمنهج أهل السنة والجماعة.

٦- للشيخ جهود واضحة المعالم في الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية في حياة المجتمع الإسلامي، فقد كثرت مصنفاته في هذا الموضوع.

٧- للشيخ دور مهم في رفع مكانة العلماء والدعاة من خلال الإرشاد والتوجيه لبيان السبيل الذي يصونهم عن الاختراقات وحصول الاختلافات والبعد عن المؤامرات التي توقعهم في قبضة الحكام والسلاطين، ودعوتهم إلى الاستقلالية في العمل الدعوي الحر، والبعد عن أسر الوظائف الدنيوية.

٨- كل هذا ومما لم نذكره من المزايا وجميل الصفات والآثار الحسنة، قد جعلته في مصاف المجددين لدين الإسلام في هذا القرن.

٩- أوصي إخواني وأصدقائي والدعاة والعلماء الصادقين وجميع الباحثين عن حقائق الأمور بالعكوف على كتابات الشيخ محمد سرور ومطالعتها، فإنها تسد ثغرة في الثقافة والفكر الإسلامي المعاصر لا يستغني عنها باحث.

**والله الموفق والهادي إلى الصواب**

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠/ ١٧٠).

# الفهرس

الموضوع الصفحة



## السياحة الأولى

## سعيد حوى

## السياحة الثانية

## فريد الأنصاري

## المحور الثاني : بلاغ الرسالة القرآنية



## المحور الثالث : العالِمية وأهميتها في تكوين القيادات

## المحور الرابع: التربية والتكوين الدعوى



## المحور الخامس : الفطرية.. بعثة التجديد المقبلة

## المحور السادس: مسألة المرأة في العمل الإسلامي



## المحور السابع : جمالية الدين الإسلامي

## المحور الثامن: قناديل الصلاة.. مشاهدات في منازل الجمال



## المحور التاسع: تطبيقات عملية على منهج مدارسة القرآن



## السياحة الثالثة
## محمد سرور زين العابدين

الباب الأول: ترجمة الشيخ محمد سرور وشيوخه



الباب الثاني: آثاره العلمية (البحوث والمصنفات)

# هذا الكتاب

* الأمم الحضارية هي أمم تقوم علىٰ التراكمات والموروثات الفكرية والثقافية والحياتية والاجتماعية.. فهي ليست حقبة تاريخية تنتهي بانتهاء الجهابذة الذين أسسوا وبنوا، وإنما هي بذور عظيمة زُرعت في تربة صالحة، فأخرجت نبتًا طيبًا يؤتي ثماره في كل حين، بإذن ربه، ويمتد إلىٰ ما شاء الله له أن يمتد.

* ومن هذا المنطلق حَرِصْنَا علىٰ أن توجد بين شباب الدعوة اليوم نماذج دعوية عاشت في حركة المجتمع خلال الفترة التي عشناها من عام 1967م، إلىٰ عام 2010، نَيِّفٌ وأربعون سنة عشناها، فتعرفنا من خلال القراءة والاطلاع علىٰ مجموع عطاءات فكرية دعوية من رجال تحملوا عبء هذه الدعوة، فكانوا حقًّا رجالاً، شكلاً ومعنًىٰ، صارعتهم أحوالهم.

* وإننا بدورنا لا نفرض علىٰ الشباب من آليات العمل الدعوي ما عشناه أو عاشه الآخرون، ولكنها سِيَرٌ وآراء وتجارب يُنظر فيها، فيُأخذ ما هو موافق لزمانه ومكانه، ومحقق لأهدافه في إطار دعوي يقوم علىٰ النظر في إطار عملي، يَحْدُوهُمُ الفهم السليم والمنهج الصحيح لأصول هذا الدين (القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع).

* وليتأكد لكل باحث بالدليل القاطع، أن كل حضارة لا تنهض إلا بسواعد علمائها، لأنهم ورثة الأنبياء، وأمناء الله وخلفاؤه في أرضه.. أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده. وحتىٰ تكون أيها الباحث- بعون الله- لبنة بناءة، ليس في هيكلة هذه الأمة فحسب، بل في كُنهها وجوهرها؛ فقد صدق رسول الله ﷺ حيث حَثَّ كل فرد منا فقال: «إنما أنت علىٰ ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتينَّ من قبلك».

* وفي كتابنا هذا ذكرنا نماذج حديثة من غير المشهورين إعلاميًّا، ويمثل كل واحد منهم مدرسة خاصة به تمثل بصمة في أوراق الدعوة الإسلامية التي عشناها بين رفوف المكتبات والنظر والمجالس لأصحاب الدعوة والحركات. وهم: الشيخ المربي سعيد حوىٰ، والشيخ الألمعي الدكتور فريد الأنصاري، والشيخ المعطاء محمد سرور زين العابدين. وذكر هؤلاء الدعاة هو من باب النموذج وتحفيز من سواهم.


مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت : ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦ ص. ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com